رسائل ابن سبعين

الشيخ قطب الأقطاب عبد الحق بن إبراهيم بن محمد
ابن سبعين الإشبيلي المرسي الأندلسي
٦١٣ - ٦٦٩هـ / ١٢١٦ - ١٢٧٠م



تحقيق وتخريج وتعليق
أحمد فريد المزيدي




دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

رسائل ابن سبعين

الشيخ قطب الأقطاب عبد الحق بن إبراهيم بن محمد
ابن سبعين الإشبيلي المرسي الأندلسي
٦١٣ - ٦٦٩ هـ / ١٢١٦ - ١٢٧٠ م

تحقيق وتخريج وتعليق
أحمد فريد المزيدي

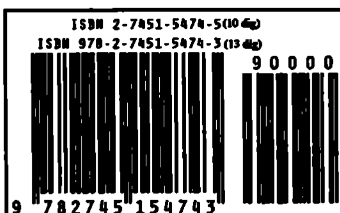



دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Title: Rasâ'il ibn Sab'în
(Mystic letters of ibn Sabeen)
Author: 'Abdul-Ḥaqq ben Ibrāhīm ibn Sab'īn
Editor: Aḥmad Farīd al-Miziyadi
Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah
Pages: 464
Year: 2007
Printed in: Lebanon
Edition: 1st

الكتاب: رسائل ابن سبعين
المؤلف: عبد الحق بن إبراهيم بن محمد ابن سبعين
المحقق: أحمد فريد المزيدي
الناشر: دار الكتب العلميـــة ــ بـيروت
عدد الصفحات: 464
سنة الطباعة: 2007 م
بلد الطباعة: لبنـــان
الطبعـة: الأولى

ISBN 2-7451-5474-5 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5474-3 (13 dig)



منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

الطبعـة الأولى
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

هاتف: ١٢/١١/ ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ — ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ — رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الشيخ ابن سبعين
وردُّ شُبه المنكرين

هو الإمام شيخ الإسلام القطب الوارث المحمدي سيدي: أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن فتح بن سبعين، الإشبيلي المرسي، الرقوطي الأصل، الصوفي المشهور[1].

ولد في مرسية بالأندلس سنة 613 هـ.

وهو من أسرة نبيلة وافرة الغنى هي أسرة ابن سبعين التي تذكر بعض المصادر أنها تصعد في نسبها إلى النبي ﷺ، وقضى مطلع شبابه في الأندلس.

فدرس العربية والآداب بالأندلس، ثم ارتحل إلى سبتة، وانتحل التصوف على قاعدة زهد الحكماء وتصوفهم، وجدَّ واجتهد، وجال في بلاد المغرب. وهو دون العشرين من عمره. وأخذ التصوف عن أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن الدهاق.

وأقام أولاً في سبتة هو وجمع من أصحابه وأتباعه الذين كانوا قد بدءوا يلتفون حوله وهو لا يزال في الأندلس.

فإنه قضى الفترة الخصبة من حياته الروحية في المغرب، وفيها أيضًا ألف معظم رسائله، وجرت له المناظرات العنيفة مع فقهاء المغرب من أعداء الفلسفة والتصوف، فظهرت عليهم حجته وخصمهم بمتانة استدلاله وسعة اطلاعه حتى إن أحد تلاميذ ابن سبعين، ولعله يحيى بن محمد بن أحمد بن سليمان قال في رسالة دافع فيها عن أستاذه، وسماها:

«الوراثة المحمدية والفصول الذاتية»: إن من بين الأدلة على أنه كان لابن سبعين الوراثة المحمدية أن ابن سبعين «كان من بلاد المغرب»، والنبي ﷺ قال: «لا يزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين إلى قيام الساعة».

وما ظهر في بلاد المغرب – هكذا يتابع تلميذه الدفاع – رجل أظهر منه، فهو المشار

---

(1) اشتهر بكتابه: «بد العارف» وبرسائله التي بين أيدينا، وقد حققناها عن مطبوعاتها قديمًا.

إليه بالحديث، ثم إن أهل المغرب أهل الحق، وأحق الناس بالحق، وأحق المغرب بالحق علماؤه؛ لكونهم القائمين بالقسط، وأحق علمائه بالحق محققهم وقطبهم، الذي يدور الكل عليه، ويعول في مسائلهم ونوازلهم، السهلة والعريضة، عليه. فهو أي ابن سبعين حق المغرب، والمغرب حق الله تعالى» انتهى.

وشاعت شهرته بالزُّهد والعلم، فأعجبت به سيدة صالحة ثرية من أهل سبته، وطلبت منه التزُّوج منها، فتزوجها. وأقامت له في بيتها زاوية للعبادة.

ويظهر أن شهرة ابن سبعين بالحقائق الإلهية والعلوم العقلية قد استطارت في الآفاق، بدليل ما ورد في مستهل كتاب: «المسائل الصقلية»، وهي المسائل التي كان الإمبراطور فردريك الثاني ملك النورمانديين في صقلية، قد وجهها إلى علماء المسلمين؛ تبكيتًا لهم فيما ذكر المقري، أو الاستفادة وحب الاستطلاع لما كانت عليه شهرة المسلمين حينئذٍ بالفلسفة والعلم كما نرى.

وهذه الأسئلة الفلسفية وجَّه فردريك الثاني نسخًا منها إلى المشرق ومصر والشام والعراق والدروب واليمن، لكن رجعت أجوبة حكماء المسلمين بما لم يرضه فريدريك الثاني، فسأل عن أفريقية «تونس» ومن بها، فقيل له: إنها عَرِيَّة من هذا الشأن: أي من الفلسفة، وسأل عن المغرب والأندلس، فقيل له: إن بها رجلاً يُعرف بابن سبعين.

فكتب فردريك للخليفة الرشيد من أولاد عبد المؤمن في أمرها.

فكتب أمير المؤمنين لعامله بسبتة، وهو: ابن خلاص، أن ينظر في الرجل المذكور أن يرد الجواب على الأسئلة.

وكان مالك الروم يعنى فردريك قد وجه مع رسوله جملة مال. فاستدعى ابن خلاص الإمام قطب الدين، وأوقفه على الأسئلة بأمر الخليفة، فضحك ابن سبعين وألزم نفسه الجواب.

فدفع له ابن خلاص المال الذي جاء به رسول ملك الروم. فردَّه ولم يقبله، وقال: إنما أجيب عنها احتسابًا لله، وانتصارًا للملَّة الإسلامية، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الأنعام: 90] وجاوبه.

فلما بلغ الجواب للملك فردريك أرضاه ووجه بصلة عظيمة فردت عليه كالأولى».

وهذه المسائل الصقلية التي سأل عنها فردريك الثاني علماء المسلمين هي:

المسألة الأولى: عن العالم: هل قديم أو محدث؟

والمسألة الثانية عن العلم الإلهي: ما هو المقصود منه، وما مقدماته الضرورية إن

كانت له مقدمات؟.

والمسألة الثالثة عن المقولات أي شئ هي؟ وكيف يتصرف بها في أجناس العلوم حتى يتم عددها، وعددها عشر، فهل يمكن أن تكون أقل؟ وهل يمكن أن تكون أكثر؟ وما البرهان على ذلك؟.والمسألة الرابعة عن النفس: ما الدليل على بقائها وما طبيعتها؟.

ويتفرع عن هذه المسألة الأخيرة سؤال عن أين خالف الإسكندر الإفروديسي أرسطوطاليس.

ويظهر أن المكانة التي نالها ابن سبعين بهذا الجواب قد أوغرت صدور الفقهاء عليه. فراحوا يتهمونه بالكفر، مما اضطر حاكم سبتة، ابن خلاص، إلى طرده منها فسكن في بجاية مدة، فلم يطب له المقام نظرًا لإغراء الفقهاء به، وتحريضهم عليه، وحسدهم له من كثرة اتباعه ومريديه، فضلاً عما بدا في كتاباته وأقواله من كلمات غريبة تشم منها رائحة الكفر.

وقد افتروا عليه أنه قال: لقد تحجر ابن آمنة واسعًا بقوله: «لا نبي بعدي» فيُقال: إنه نُفي من المغرب بسبب هذه الكلمة. وهذا الكتاب دليل على كذب هذه الدعوى، وكمال أدبه مع النبي ﷺ، فما هي إلا دسائس، فكان الله للشيخ ما أصبره على الأذى.

وكان خروجه من المغرب سنة 642هـ، وهو حينئذٍ في الثلاثين من عمره.

ومعنى هذا أنه أقام بالمغرب حوالي خمس وعشرين سنة، فيها ألف جل كتبه إن لم يكن كلها، باستثناء كتابه العظيم: «بد العارف» الذي قيل: إنه ألفه وهو ابن خمس عشرة سنة، والله أعلم.

ولا نعرف أنه ألف شيئًا بعد رحلته عن المغرب فيما عدا الرسالة التي بعث بها أهل مكة يبايعون فيها السلطان المستنصر بالله تعالى أبا عبد الله محمد بن سلطان زكريا عبد الواحد بن أبي حفص، ملك إفريقية وما إليها، تولى الملك في تونس سنة 657 هـ حتى سنة 674 هـ، وعلى رأسهم شريف مكة أبو نُمَي محمد الأول الذي كان شريفًا على مكة من شوال سنة 652 هـ إلى صفر سنة 701 هـ، فهذه الرسالة بالبيعة كانت من إنشاء ابن سبعين، وقد سردها ابن خلدون بجملتها في مقدمته.

وارتحل ابن سبعين حينئذٍ عن بلاد المغرب فلجأ إلى المشرق. فمرَّ بمصر، وأقام بها مدة قصيرة فيها؛ لأن مقصده الأول كان الحج.

فقصد مكة المشرفة، وهناك لقي من شريف مكة، أبي نمي محمد بن أبي سعد الذي أصبح شريفًا على مكة في شوال 652هـ عطفًا ورعايةً، وشاع صيته بين أهل مكة

بسبب سخائه، فإن أهل مكة كانوا يقولون عنه: «إنه أنفق فيهم ثمانين ألف دينار» وبسبب علمه وكثرة أتباعه ظل في مكة معتمرًا، ويقوم بالحج في مواقيته.

وكان أهل مكة يعتمدون على أقواله، ويهتدون بأفعاله.

واختلف في سفره إلى المدينة، فبعضهم ينكر ذلك؛ لأنه فيما روى أبو الحسن بن برغوش التلمساني، وشيخ المجاورين بمكة، وكانت له به معرفة تامة، وكان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة يهراق منه دم كدم الحيض، أو لأنه عاقه الخوف من أمير المدينة عن القدوم إليها.

ويظهر أن ابن سبعين كان بسبب موقفه السياسي مضطرًا إلى الإقامة بمكة.

فقد قال حين سُئل عن سبب إقامته بمكة: «انحصرت القسمة في قعودي بها، فإن الملك الظاهر يطلبني بسبب انتمائي إلى أشراف مكة، واليمن صاحبها لي في عقيدة، ولكن وزيره حشوي يكرهني».

وصاحب اليمن كان آنذاك الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر الذي تولى الملك في اليمن في ذي القعدة سنة 647 هـ، حتى رمضان سنة 694 هـ.

فظلَّ ابن سبعين في مكة حتى تُوفي بها يوم الخميس تاسع شوال سنة 669 هـ.

وقيل: بضع وستين، عن نحو خمسين سنة.

واختلف في سبب وفاته:

فذكر ابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات» قال: «سمعت عن ابن سبعين أنه فصد يديه، وترك الدم يخرج حتى تصفى» (517/1).

من كلامه:

اعلم أن جميع ما دون في التصوف والحكمة وغير ذلك مما يجري إلى هذا الشأن، وجميع ما سمعت من العلوم المضنون بها، والحكمة الإشراقية، وسر الخلافة، ونتيجة النتائج، كل ذلك في الوجه الأول من وجوه التصوف.

والتصوف تسعة أوجه، وبعدها حبل التحقيق. وبعد الحبل نبدأ بعالم السفر، وبعد السفر تقرع باب التحقيق، والنور المبين، والهرامسة خاصة عَلِموه، والكتب المنزلة أفادتهم، وأما الفلاسفة بأجمعهم، ورؤسائهم من المشائين، ورئيس المشائين أرسطو وأتباعه من غير ملة الإسلام: ثامسطيوس، والإسكندر الأفرودسي، وفرفريوس القبرسي، وأرسطاليس الصقلي، وأتباعه من ملة الإسلام مثل: الفارابي وابن سينا وابن باجه المذكور في آخر القلائد، والقاضي ابن رشد في بعض أمره، والسهروردي مؤلف: «حكمة

الإشراق» والتلقيحات والنبذ في أكثره، والغزالي بوجه ما، وابن خطيب الرّي في بعض صنائعه، وجميع النبهاء فإنهم لم يصلوا إليه لقصورهم عنه، ولأن علومهم وصنائعهم دون ذلك كله، والله على ما نقول وكيل.

والصوفية كذلك، إلا السلف الصالح أعني صحابة سيد السادات محمد ﷺ فإنهم علموه، ومعلمهم هو العظيم الذي إذا نظر العارف في شأنه وتتبعه وتصفحه، وتأمله على ما ينبغي ويجمل به، ويصح في حقه علم أن أهل الحق كلهم نقطة من ذكره، وذرة من قفره.

وقال أيضًا: حافظوا على الصلوات، وجاهدوا النفوس في اتباع الشهوات، وكونوا عباد الله أوّابين توّابين، واستعينوا على الخيرات بمكارم الأخلاق، واعملوا على نيل الدرجات السنية، ولا تغفلوا عن الأحكام السنية، وخلصوا مخصص الأحوال الإلهية ومهملها، وذوقوا مفصل اللذات الروحانية ومجملها، ولازموا المودة في الله بينكم، وافعلوا الخير وأصلحوا ذات بينكم، وعليكم بالاستقامة على الطريقة، وقدموا فرض الشريعة على الحقيقة، ولا تفرقوا بينهما فإنهما من الأسماء المترادفة، واكفروا بالحقيقة التي في زمانكم هذا، وقولوا عليها وعلى أهلها لعنة الله، فإنها حقيقة كما سمى اللديغ سليمًا وأهلها يهملون حد الحلال والحرام، ويستخفون بأشهر الحج والصوم والأشهر الحرم.

قال تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30].

قد غلبت عليهم أحكام الجهل، وأكثروا من جمع الأعراض للولد والأهل، وحرموا مزية الرحمة والعون، وأسعفوا بسيرة أبي جهل وفرعون.

واعلموا أن القريب إليَّ منكم من لا يخالف سنة أهل السُّنة، ويوافق طاعة من له العزة والمنَّة، ويؤمن بالحشر والنار والجنة، ويفضل الرؤية على كل نعمة، ويعلم أن الرضوان بعدها أصل كل رحمة، ويطلب الذات بعد الأدب مع الصفات والأفعال، ويغبط نفسه بالمشاهدة في القوم والروح في كامل الأحوال.

وكل مخالفٍ بان منه التخلف والفساد وإن كان من إخوانكم، فاهجروه في الله، ولا تلتفتوا إليه، ولا تسلموا له في شيء، ولا تسلموا عليه حتى يستغفر الله العظيم بحضور الكل منكم، ويرضى عن نفسه وحاله وعنكم، ويخرج عن صفاته المذمومة، ويترك نظام دعوته المحرومة.

وأنا أشهد الله أني قد خرجت عن كل مخالفٍ سخيف العقل واللسان، ولا نسبة بيني وبينه في الدنيا ولا في الآخرة، فمن زل قدمه يستغفر الله ولا يخدعه قدمه.

واغتبطوا بما أنتم عليه، فما في العصر من يصل إليه، والقوي الذنب منكم لا تقبلوا له توبة إلا بحلق الرأس، ولبس الصوف، والوقوف من المغرب إلى العشاء الآخرة، والصمت.

ومن يسمع منكم من يتكلم القبيح في التحقيق وأهله فازجروه واهجروه ووبخوه وذموه، وتغافلوا عنه ولا تقبلوا بعد ذلك منه.

واعلموا أنه لا حاجة لي في السموات ولا في الأرض، ولا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا في الأمل المقدر، ولا في الكون المكون، ولا في النظام القديم، ولا في التعليق الصرف، ولا في الشأن المُشار إليه، ولا في الجسوم المقيدة، ولا في الذوات المجردة، ولا في الأعراض المبددة، ولا في الكمالات الممتدة، ولا في الحروف المعتدة إلا في ذات الله، وفي ذات من صحبني من أجله.

والسلام على من صلحت نسبته، واستقامت سنته، ورحمة الله تعالى وبركاته!.

ومن كلامه ﷺ: مَنْ طَلَب ظفر، ومن ظفر ربح، ومن ربح تأنس، ومن تأنس نشط، ومن نشط زاد طلبه، ومن زاد طلبه أخرج ما لم يقصده ولا يخطر له على قلب، وهو كماله الأخير، ومن حصل له كماله الأخير كان من السعداء، ومن كان من السعداء اشتدَّ طلبه، وزاد شوقه، وعاين الذوات المجردة، وكشف له عالم الأمر، وطالع النظام القديم، ومن طالع النظام القديم وقف طلبه من حيث عادته وصفاته، وتحرك من حيث خرق عادته وصفاته بجوهره، ومن خرج للفعل من كل الجهات شاهد الذات القديمة بتخريب نظام الحادثة حتى من خبر خبرها، ومن إشارتها ومشيرها ووحّد وركب التوحيد بالسلب الموجد، وجميع ما يعلم سوى الواحد ﷻ، وقال: لا اله إلا الله، بالقضية المستقبلة وهو بالماضية وطلبه بالحاضرة.

ومن كلامه ﷺ: العقل عند الأشعري غير الروح، وعند الحكيم قولك عقل وقوة مجردة، ونفس ناطقة، أو روح أسماء مترادفة.

والروح عند علماء الصوفية غير ما ذكر: تارة يطلقونها على الحق الذي قامت به السموات والأرض، وقيل: هي صفةٌ من صفات الذات، وتارة يطلقون عليها الكلمة، وتارة القضية الجزئية ضابطة النظام فيها كان كل موجودٍ ليست بفيضٍ، وكانت متحدة تعم الأشياء، وليست باتحاد، وإن كانت ألزم للشيء من ذاته، وليست بحالة، وإن كانت جزء ماهية من الشيء المُضاف إليها، وإليها يشيرون حيث قولهم: إن في كل شيءٍ سرًّا من سره: جمد في الجمادات، وظهر في النبات، وتحرك في الحيوان، وأُعلِن في الإنسان.

مؤلفات الشيخ ابن سبعين ﷺ والإشكالية فيها:

لابن سبعين طريقة غريبة في الكتابة: فكلامه مفكك، قليل الاتصال، حتى قال قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد: «جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلامًا تعقل مفرداته، ولا تعقل مركباته».

وكذلك يتسم كلامه بكثرة ما يرد فيه من ألغاز وإشارات بحروف أبجد، وله تسميات مخصوصة في كتبه هي نوع من الرموز كما قال صاحب «عنوان الدراية».

فمن كلامه الغريب مثلاً ما يكرره في كتاب «الإحاطة» من عبارة: «إيه!» أو قوله: «الله فقط» وتكرار لكلمة «إيه» اثنتي عشرة مرة في سطرٍ واحدٍ، واستعماله حروف أبجد بطريقة من الصعب استخراجها، كقوله في رسالة «الألواح»: «علمه في الإنسانية إنسان، وفي ح ح، وفي ن ن، وفي ج ج، وفي العالمية علم، وفي العاقلية عقل».

ومن أغرب كلامه الشاطح قوله في ختام «الرسالة الفقيرية»: «السلام على المنكر والمسلم، والعالم والمتعالم، والغالط والمتغالط».

قلت: فالشيخ ابن سبعين من أهل الاستغراق، وهذا حالٌ من أحوالهم، ولا ينقص ذلك من شأنه فهو وارثٌ محمديٌّ، ومتحققٌ ربانيٌّ، وصاحب ذوق نوراني ﷺ.

فمن كتبه ورسائله:

- الكلام على المسألة الصقلية.
- رسالة النصيحة (النورية).
- عهد ابن سبعين.
- الإحاطة.
- بد العارف.
- الرسالة الفقيرية.
- الحكم والمواعظ.
- الرسالة القوسية.
- رسالة في أنوار النبي ﷺ وأنواعها.
- الألواح المباركة.
- الوصية لتلامذته.
- الرسالة الرضوانية.
- رسالة في عرفة.

- رسالة خطاب الله بلسان نوره.
- نتيجة الحكم.
- الرسالة الإصبعية.
- الكلام على الحكمة.
- حكم القصص.
- رسائل مختلفة.

قال الصفدي: وله عدة رسائل بليغة المعنى فصيحة الألفاظ جيدة منها رسالة العهد.. فذكرها.

قلت: وهي ضمن الرسائل التي بين يديك أيها القارئ الكريم.

رد شبه المنكرين والمعترضين

إن الشيخ ابن سبعين ﷺ كثر عليه الاعتراض من علماء أهل الظاهر، ومن الذين لم يفهموا كلامه ﷺ.

منهم: ابن تيمية، وابن قيم، وابن كثير، وابن حجر العسقلاني، وابن دقيق العيد، والتقي الحوراني، والذهبي، ومرعى بن يوسف الكرمي، وابن ناصر الدمشقي، وابن الملقن، وغيرهم كثير.

ولهذا فقد رماه بعضهم بالكفر والزندقة، لعدم فهمهم كلامه وظنهم فيه الاتحادية ووحدة الوجود على وجه الحلولية والثنوية، وهذا ليس بصحيح.

وطعنوا في المدرسة الصوفية التي منها الشيخ الأكبر والصدر القونوي والعفيف التلمساني وابن سبعين وصاحبه محمد بن عبد الرحمن السيوفي، والششتري، وابن الفارض، وابن أبي واصل، وغيرهم كسيدي محمد وفا، وابنه سيدي علي وفا قدَّس الله أسرارهم.

ونحن الآن نذكر أولاً: الرد على دعوى التكفير الباطلة:

قال ابن الملا عبد الجليل الموصلي: قال الشيخ الشعراني:

وقد سُئل الشيخ أبو الحسن الأشعري ﷺ عن تكفير المتأولين والمتفوهين بالكلام على الذات والصفات من غلاة الصوفية، فتوقف في الجواب.

وقال: حتى أنظر وأَتَثبت، فإنه دينٌ.

وقال زاهر ابن أحمد السرخسي: لما دنت وفاة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله في داري ببغداد دعاني ومن حضر من العلماء، وقال: اشهدوا عَلَيَّ بأني لا أقول بكفر أحدٍ من أهل القبلة؛ لأني رأيتهم كلهم يشيرون إلى معبودٍ واحدٍ، والإسلام يشملهم ويعمُّهم[1].

فانظر كيف سماهم مسلمين، وهذا الإمام الشافعي والإمام أبو حنيفة وغيرهما يقولون نقبل شهادة من قال بالوعيد، والخوارج إلا الخطابية، وهم قومٌ يشهد بعضهم لبعضٍ من غير معرفةٍ إذا اتفقوا في المذهب.

وكان المزني أحد أصحاب الإمام الشافعي يمتنع من تكفير أهل الأهواء، ويقول:

إن المسائل التي يقعوا فيها لِطافٌ تدقُّ عن النظر العقلي.

وكان إمام الحرمين يقول: لو قيل لنا فصِّلوا لنا ما يقتضي التكفير من العبارات مما لا

---

(1) انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر الدمشقي (ص 149).

يقتضيه.

لقلنا: هذا طمعٌ في غير مطمعٍ؛ فإن هذا بعيد المدرك، وعر المسلك، يستمد من تيار بحار التوحيد، ومن لم يحط علمًا بنهايات الحقائق لم يتحصل من دلائل التكفير على وثائق.

وكان لسان حال أهل التوحيد من الأكابر يقول:

تـــركنَا الـــبحارَ الزخراتِ وراءنا فمن أين يدري النَّاسُ أين توجُّهنا[1]

وكان أبو المحاسن الروياني وعلماء بغداد قاطبة يقولون:

لا نكفِّر أحدًا من أهل المذاهب المختلفة؛ لأن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ صلَّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فله ما لنا، وعليه ما علينا[2]».

وقد سأل الشيخ شهاب الدين الأذرعي: سيدنا ومولانا شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله عن تكفير أهل الأهواء والبدع فقال: اعلم يا أخي أن كل مؤمنٍ يستعظم الأمر بالتكفير؛ لأنه أمرٌ هائلٌ عظيم الخطر.

وهو كما قال الله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

أو من كفَّر إنسانًا فكأنه أخبر عنه أن عاقبته في الآخرة العقوبة الدائمة أبد الآبدين، وأنه في الدنيا مباح الدم والمال، لا يُمكَّن من نكاح مسلمةٍ، ولا يجر عليه أحكام أهل الإسلام في حياته وبعد مماته.

واعلم يا أخي أن الخطأ في ترك ألف كافرٍ أهون عند الله من الخطأ في سفك محجمةٍ من دم مسلمٍ.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لأن يخطي الإمامُ في العفو أحب إلى الله من أن يخطئ في العقوبة[3]».

وفي الأثر: «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام لما سأله أن يبني بيت المقدس أنه لا يبني بيتِي من سفك الدماء، فقال داود عليه السلام: يا ربُّ؛ ألم يكن ذلك في الجهاد في

(1) من كلام الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه.

(2) رواه البخاري (153/1)، والنسائي في الكبرى (76/7)، والطبراني في الكبير (162/2)، وابن أبي شيبة في المصنف (428/6).

(3) رواه الترمذي (33/4)، ومالك في الموطأ (76/3)، والدارقطني في السنن (84/4)، وابن أبي شيبة في المصنف (512/5).

سبيلك؟! قال: بلى، أليسوا بعبادي؟! فقال: يا ربِّ، اجعل بناء ذلك على يد ولدي سلميان؟ قال: نعم».

ثم إن تلك المسائل التي يحكم فيها بالتكفير لهؤلاء القوم في غاية الدقة والغموض؛ لكثرة شعبها واختلاف قرائنها، وتفاوت دواعيها، والاستقصاء في معرفة الخطاب من سائر صنوف وجوهه، والاطِّلاع على حقيقة التأويل وشرائطه في الأماكن، ومعرفة الألفاظ المحتملة التأويل وغير المحتملة، وذلك يستعدي معرفة طرق اللسان من سائر قبائل العرب في حقائقها ومجازاتها، واستعاراتها، ومعرفة دقائق التوحيد، وعوارضه إلى غير ذلك مما هو متعذرٌ جدًّا.

وكثيرًا ما يتكلَّم العارفون بالله تعالى حين تهب على قلوبهم النفحات الإلهية بالكلام الذي لا يفهم العاقل منهم إلا الخطأ والتناقض، فلا يقبله عقله، وكان الأولى له التسليم؛ لأن العلم الخاص بدائرة الولاية يباين العلم الذي عند العقلاء من العلماء، فالأولياء يقرؤون علم العلماء؛ لمرورهم على معناه حال السلوك والترقي عنه، والعلماء بالعكس؛ وذلك لأن طريق القوم مبنيٌّ على ما يَقرُب من طريق المعتزلة والجبرية في بعض الحالات، وهي حالة شهود غيبة الصفات في شهود وحدة جمال الذات، حتى كأن لا صفات.

فعُلِمَ مما قررناه: إنه ليس فوق علم العارفين بالله علمٌ إلا علم الله ﷻ؛ فافهم.

وكان الشيخ محيي الدين العربي رحمه الله ينشد كثيرًا:

عقدَ الخلائقُ فِي الإله عقائدَ وأنا علمتُ جميعَ ما اعتقدوه

ومراد الشيخ: الاطِّلاع على ما استندت إليه عقائد الخلق، لا أنه يعمل بجميع عقائدهم مما يخالف السنة؛ إذ كل عارفٍ يلزمه بعد الظهور تحقق الحق، وإبطال الباطل، وإعطاء المراتب حقَّها.

وقد قلنا في كتابنا المسمى «بالجواهر والدرر»: أن من أراد الترقي إلى دائرة الولاية فليمحُ من قلبه كل علمٍ كان طريقه العقل والنظر الفكري، فإذا فعل ذلك فقد تعرض لدخول تلك الحضرة واستنشاق هواها، وبعيد على من أمعن النظر والفكر في علوم النقول حتى انتقشت تلك العلوم وانطبعت في مرآة قلبه أن يشمَّ رائحة من فهم كلام أهل دائرة الولاية؛ لأن الموازين العقلية وظواهر الموازين الاجتهادية تَرُدُّ كثيرًا من علوم أهل الله ﷻ؛ إذ علوم الأولياء فوق طور العقول، وميزان العقول والأفكار لا تعمل هناك.

وبالجملة: فمن أقوى دليلٍ على أن ظواهر المشي على الشريعة لا تغني عن علم

الحقيقة قول موسى للخضر عليهما السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]، ولم يكتفِ بما عنده من علم الشريعة.

ثم تأمَّل في إنكار السيد موسى على الخضر عليهما السلام علمه الذي آتاه الله له من لدنه، ففي ذلك كفايةٌ لكل معتبرٍ.

وكلام الشيخ محيي الدين العربي وأتباعه وسيدي عمر ابن الفارض وابن سبعين وغيره غالبه من علوم الخضر عليه السلام.

وقد ذكرت: من علوم الخضرِ عليه السلام في كتابنا المسمى بـ(الجوهر المصون) نحو ثلاثة آلاف علمٍ لا يمكن لغير وليٍّ أن يخوض فيها، ولا في علمٍ منها، ولا يعرف اسمه، فضلاً عن الخوض فيه، فتَطَلَّبْهُ؛ فإنه كتابٌ ما أظن أن أحدًا صنَّف في الإسلام مثله، فلله الحمد على ذلك.

ثم اعلم يا أخي: أن القول بالتكفير يحتاج إلى أمرين عزيزين:

أحدها: تحديد المعتقد، وهو صعبٌ من جهة الاطِّلاع على ما في القلب، وتخليصه مما يشوبه.

الثاني: أن الحكم بأن ذلك كفرٌ صعبٌ من جهة صعوبة علم الكلام، ومواضع استنباطه، وتمييز الحق فيه من غيره كما تقدم، وإنما يحصل ذلك لرجلٍ جمع صحة الذهن، ورياضة النفس، حتى خرج عن الميل إلى الهوى، والتعصب، بالكلية بعد الامتلاء من علوم الشريعة وأسرارها، وقَلَّ أن يوجد مثل هذا، وإذا كان الإنسان يعجز عن تحرير اعتقاده في نفسه فكيف يقدر على تحرير اعتقاد غيره في هذا الزمان الذي صار الناس فيه من كثرة النكد الواقع لهم فيه يشكون في وقت مستهلِّ شهورهم وأعيادهم في مدينة مصر مع كثرة ما فيها من العلماء والصلحاء وأكابر الناس؟! نسأل الله اللطف.

فالقول بتكفير شخصٍ معينٍ بما فهمه العلماء من كلامه في غاية الصعوبة؛ لتعلقه بالمعتقد الباطن، مع أنه يشترط في القول بالتكفير اعتراف قائله بما أضمره في قلبه، وهيهات أن يحصل.

وأما البينة فلا تكفي في ذلك؛ لأنها لا تتعلق إلا بالأمور الظاهرة، لا بما طريقه الفهم.

وإذا رأينا كتابًا أوَّله: (بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين) والشهادتان، وختمه صاحبه بالصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ، وما بين ذلك كلامٌ مغلقٌ لا يُفهم منه شيءٌ أحسنا الظن به وتركناه، مع أن جميع ما في كتب القوم لا يتعلق شيءٌ منه

بأحكام الشريعة المطهرة، ولا يَرد شيءٌ منها، ولا يأمر أحدًا بترك وضوءٍ ولا صلاةٍ، ولا زكاةٍ، ولا صيامٍ، ولا حجٍّ، ولا جهادٍ، ولا غير ذلك مما يهدم تركه الدين أبدًا.

ثم أن الغالب على أهل الأهواء والبدع إنما هو التقليد والانتماء إلى مذاهب أكابرهم على طريقة عوام الفقهاء من عين إحاطةٍ بكنه ذلك المذهب، وما هو مستمدٌّ منه من الكتاب أو السنة أو الحقيقة أو المجاز، والقول بتكفير مثل هؤلاء يجرُّ إلى فسادٍ عظيم؛ لعسر تشخيص الكفر وعدم الإيمان في قلب شخصٍ تسمعه يقول: أشهد لا إله الله، وأن محمدًا رسول الله.

أولاً: قد عَلِمتَ من جميع ما قررناه:

إن جميع الأئمة المتقدمين قد مالوا إلى ترك التكفير لأحدٍ من المسلمين، فبهداهم يا أخي اقتدِهْ، ولا تغترَّ بقول مجازفٍ يوهمك التعصب للدينِ، ويحط على عقائد كُمَّل العارفين، ويخرجهم عن دائرة الإسلام جهلاً وظلمًا وحسدًا وعدوانًا.

فقد كان العارف بالله أبو تراب النخشبي[1] يقول: إذا أَلِفَ العبد الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله، ولذلك كان أهل الله ﷻ لا يشتغلون قطُّ بالردِّ على أحدٍ من أهل الإسلام مقالته في الله ﷻ، أو في شيءٍ استنبطه من أحكام الشريعة، عكس ما عليه أهل الجدال، وإنما شأن أهل الله أن يبحثوا عن مستند كل قولٍ في العالم، من أين أخذه صاحبه؟ وماذا استند ذلك القول إليه من حضرات الأسماء الإلهية؟ فإنه محالٌ أن يوجد في العالم قولٌ الآن إلا وهو مستندٌ إلى حقيقةٍ إلهية، فليس عند أهل الله أن أحدًا يغلط في الأحكام الشرعية، إنما يغلط في وجه النسب؛ لأن حكم الله معصومٌ حتى بذلك القول من الله ﷻ، فأهل الله يأخذون تلك المسألة التي غلط فيها صاحبها، فيجعلونها في موضعها، كما قصَّ الله علينا ذلك في شأن موسى والخضر عليهما السلام؛ فإن الخضر لما أخبر موسى بتأويل أفعاله تبيَّن أن ما فعله الخضر كان في محله، فلأهل الله الاطِّلاع على منـــزع جميع النحل والملل والمذاهب اطِّلاعًا عامًّا، فما تظهر نحلةٌ من منتحلٍ ولا ملةٌ من الملل في الله أو في أحكامه ما تناقض منها وما اختلف إلا ويعلمون من أين أُخِذَت، فينسبوها إلى واضعها، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

---

(1) نسبة إلى نخشب بلدة بما وراء النهر، وكان شيخ عصره بالاتفاق، جامعًا بين العلم والدين والزهد والتصوف بلا شقاق، صحب حاتمًا الأصم والخواص والطبقة وكتب الحديث الكثير، وتفقه على مذهب الشافعي، وأخذ عنه أحمد بن حنبل وابن الجلاء وآخرون من الأجلاء.

فتحفظ يا أخي: من تجريح عقائد أحد المسلمين، واحم سمعك ولسانك وقلبك، ولا تحكم بخروج أحد من الإسلام إلا إن ترك ما به دخل، فقد نصحكتم، والسلام.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصبحه وسلَّم تسليمًا كثيرًا، اللَّهُمَّ آته الوسيلة والمقام المحمود الذي وعدته يا أرحم الراحمين، وأدخلنا في شفاعته، آمين[1].

ثانيًا: مسألة وحدة الوجود:

قال الشيخ الكتاني: ذكر المتكلمون على وحدة الوجود أن هاهنا وحدات ثلاثًا:

الأولى منها: وحدة كل موجود على انفراده ومعناها أن كل فرد من أفراد الموجودات الظاهرة والباطنة من حيث هو له من الله تعالى وجه خاص يلقي إليه منه ما يشاء لا يشاركه فيه أحد وله منه أيضًا وجهة معينة وصفة مخصوصة لا تكون لغيره بها يتميز عن غيره من سائر المخلوقات وهذه الوجهة هي حقيقته المختصة به وصفته المخصوصة.

قال في «الفتوحات» في الفصل الخامس عشر من الباب الثامن والتسعين ومائة ما نصه: وأما الله تعالى فهو مع كل شيء فلا يتقدمه شيء ولا يتأخر عنه شيء وليس هذا الحكم لغير الله تعالى ولهذا له إلى كل موجود وجه خاص لأنه سبب كل موجود وكل موجود لا يصح أن يكون اثنين، انتهى.

يشير إلى هذه الوحدة وإن شئت زيادة بيان لها فقل إنه ما من عين مخلوقة إلا ولها من الله خاصية وعلامة تميزها عن غيرها من كل ما خلقه الله من الأعين من ابتداء الوجود إلى انتهائه كما أن لها منه مادة مخصوصة لا يشاركها فيها عين أخرى، وإن قلنا: إن هذه العين مثل هذه كزيد مثلا مثل عمرو أو هذه الحبة من البر أو غيره مثل هذه فما هي مثلية حقيقية إذ كل واحد منهما لابد له من مميز يدرك ذلك من خالطه المخالطة الخاصة أو تأمله كذلك أو فتح الله عين بصيرته وذلك المميز هو وجهه المختص به وهو حقيقته الخاصة وصفته المخصوصة فهذه هي وحدة كل موجود.

الثانية: وحدة جميع الموجودات الكونية من حيث جملتها وهي وحدته ﷺ ومعناها أن العالم كله من أوله إلى ما لا نهاية له منه شيء واحد بالذات أعني نورانيته واحدة وحقيقة متحدة متضمنة لجميع الحقائق وهي نورانيته ﷺ وحقيقته المفاضة من الذات العلية فيضانا متحدا بالفيض الأقدس أولاً في العلم ثم بالفيض المقدس ثانيًا في العين والخارج وما لها من

(1) انظر: الميزان الذرية المبينة لعقائد الفرقة العلية (ص 135) بتحقيقنا.

التفاصيل والوجوه والقيود والاعتبارات والخيالات العارضة لا يعددها ولا يكثرها كالذات الواحدة الإنسانية فإنها حقيقة واحدة لا يكثرها ويعددها ما لها من الأعضاء والحواس الظاهرة والباطنة وإن كانت متعددة، وهذا معنى ما بلغنا عن بعضهم من أنه كان يقرر وحدة الوجود فيه ﷺ، وكان بعض أشياخنا ممن جمع بين الظاهر والباطن يومئ إليها فيقول إذا رأى إنسانا مقبلاً عليه أي إنسان كان: مرحبا بالنور المحمدي، حتى صار يلقب بهذا اللقب فيقال له: النور المحمدي. وكان يشير بذلك إلى أن الأكوان كلها إنما هي مظاهره ﷺ وأنوراه المتحدة بالذات، وإن تعددت بالاعتبارات، وأن وجوده إنما هو بوجوده ﷺ وإمداده المستمد من الحضرة العلية التي هي حضرة الأحدية.

وفي «الجامع» لأبي عبد الله محمد بن المشري نقلاً عن شيخه أبي العباس التيجاني قال: الحقيقة المحمدية هي الكون بأسره فلو رفع الحجاب لم تر إلا الحقيقة المحمدية بارزة وحدها عليها أفضل الصلاة والسلام انتهى.

يريد أنها سارية فيه كسريان الماء في العود الأخضر بحيث لو زال هذا السريان لصار عدما محضًا في الحال قبل المآل ولو زالت هذه المظاهر التي هي الحاجبة عنها لم تر إلا هي بارزة وحدها وإلى هذه الوحدة يشير في «الفتوحات» عقب ما مرَّ عنه في الوحدة قبلها بقوله: وهو واحد فما صدر عنه إلا واحد فإنه في أحدية كل واحد، وإن وجدت الكثرة فبالنظر إلى أحدية الزمان الذي هو الظرف، فإن وجود الحق في هذه الكثرة في أحدية كل واحد فما ظهر عنه إلا واحد، فهذا معنى لا يصدر عن الواحد إلا واحد، ولو صدر عنه جميع العالم لم يصدر عنه إلا واحد فهو مع كل واحد من حيث أحديته، وهذا لا يدركه إلا أهل الله، وتقوله الحكماء على غير هذا الوجه وهو مما أخطأت فيه، انتهى منه بلفظه.

وقد ذهب الأشاعرة والمتكلمون إلى جواز استناد آثار متعددة لمؤثر واحد بسيط لأنهم قائلون بأن جميع الممكنات المتكثرة كثرة لا تحصى مستندة بلا واسطة إلى الله تعالى مع كونه منـــزها عن التركيب والحكماء منعوا هذا أعني جواز استناد الآثار المتعددة إلى المؤثر البسيط الواحد الحقيقي من جميع الجهات، وقالوا: إنه لا يجوز أن يستند إليه إلا أثر واحد، وقالوا في معنى ما صدر عن الواحد إلا واحد أن الحق تعالى ما خلق إلا واحدًا وهو العقل الأول، والعقل الأول أوجد الفلك الأول بمادته وصورته ونفسه الناطقة المدبرة له وأوجد العقل الثاني ثم العقل الثاني أوجد فلكه ومادته وصورته ونفس والعقل الثالث، وهكذا إلى العقل العاشر، ثم خلق العقل العاشر العناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة بأنواعها الكثيرة ونفوسها وقواها، وغير ذلك إلى ما شاء الله. هذا ما قالوا.

وحمل الأكثرون كلامهم هذا على الظاهر من إثبات فاعل ومؤثر غير الله تعالى عما لا يليق به وحقق المحقق الدواني في بعض رسائله أن تحقيق مذهبهم أنه لا فاعل في الوجود إلا الله تعالى وبين ذلك بالبيان الشافي فلينظر.

وأهل الله تعالى يقولون معنى ما صدر عن الواحد إلا واحد أن وجوده تعالى في أحدية كل واحد وأنه مع كل واحد من حيث أحديته كما قاله الشيخ الأكبر، أو أنه ما صدر عن الحق تعالى إلا واحد وهو الوجود المفاض من الذات العلية فيضانا متحدا والعقل الأول وغيره من سائر الموجودات سواء في هذا الوجود المفاض كما قاله غيره.

وقال العارف الجامي في «الدرة الفاخرة الملقبة بحط رحلك» في ترجمة القول في صدور الكثرة عن الوحدة: الظاهر أن الحق ما ذهب إليه الحكماء من امتناع صدور الكثرة عن الواحد الحقيقي ولذا وافقهم الصوفية المحققون في ذلك لكن خالفوهم في كون المبدأ الأول كذلك فإنهم يثبتون له تعالى صفات ونسبًا تغايره عقلاً لا خارجًا كما سبق فَيُجَوِّزُون أن يصدر عنه باعتبار كونه مبدءا للعالم كثرة من حيث كثرة صفاته واعتباراته وأما من حيث وحدته الذاتية فلا يصدر عنه إلا أمر واحد من تلك الصفات والاعتبارات أي وهو نسبة العموم والانبساط للوجود المفاض المعبر عنه بالعما قال وبواسطته يلحقه سائر الاعتبارات وبواسطة كثرة الاعتبارات كثرة وجودية حقيقية، انتهى منه بلفظه.

وقال صدر الدين القونوي في رسالة «مفتاح الغيب» في ترجمة فصل شريف يشتمل على علم غزير خفي لطيف ما نصه: الوجود في حق الحق عين ذاته وفي من عداه أمر زائد على حقيقته، وحقيقة كل موجود عبارة عن نسبة تعينه في علم ربه أزلا وتسمى باصطلاح المحققين من أهل الله عينًا ثابتة وفي اصطلاح غيرهم ماهية والمعدوم الممكن والشيء الثابت ونحو ذلك والحق سبحانه من حيث وحدة وجوده لم يصدر عنه إلا واحد لاستحالة إظهار الواحد غير الواحد وإيجاده من كونه واحدًا أكثر من واحد لكن ذلك الواحد عندنا هو الوجود العام المفاض على أعيان الممكنات ما وجد منها وما لم يوجد، معًا سبق العلم بوجوده وهذا الوجود مشترك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود عند الحكيم المسمى بالعقل الأول وبين سائر الموجودات، وليس كما يذكره أهل النظر من الفلاسفة بأنه ما ثم عند المحققين إلا الحق والعالم، والعالم ليس بشيء زائد على حقائق معلومة لله تعالى أولاً كما أشرنا إليه من قبل متصفة بالوجود ثانيًا فالحقائق من حيث معلوميتها وعدميتها لا توصف بالجعل عند المحققين من أهل الكشف والنظر أيضًا؛ إذ المجعول هو الموجود فما لا وجود له لا يكون مجعولاً، ولو كان كذلك لكان للعلم القديم

في تغير معلوماته فيه أزلاً أثر مع أنها غير خارجة عن العالم بها، فإنها معدومة لا نفسها، لا ثبوت لها إلا في نفس العالم بها، فلو قيل بجعلها لزم إما مساواتها للعالم بها في الوجود، أو أن يكون العالم بها محلاً لقبول الأثر من نفسه في نفسه، وظرفًا لغيره أيضًا، وكل ذلك باطل؛ لأنه قادح في صرافة وحدته سبحانه أزلاً، وقاض بأن الوجود المفاض عرض لأشياء موجودة لا معدومة، وكل ذلك محال من حيث أنه تحصيل للحاصل، ومن وجوهٍ أُخر لا حاجة إلى التطويل بذكرها فافهم، فثبت أنها من حيث ما ذكرنا غير مجعولةٍ وليس ثمة وجودان كما ذكر بل الوجود واحد، وهو مشتركٌ بين سائرها مستفاد من الحق سبحانه وتعالى.

ثم إن هذا الوجود الواحد العارض للممكنات المخلوقة، ليس بمغاير في الحقيقة للوجود الحق الباطن، المجرد عن الأعيان والمظاهر، إلا بنسب واعتبارات، كالظهور والتعين والتعدد الحاصل له بالاقتران، وقبول حكم الاشتراك، ونحو ذلك من النعوت التي تلحقه بواسطة التعلق بالمظاهر انتهى المراد منه بلفظه، وقد نقله ببعض حذف منه الجامي في «الدرة الفاخرة».

وفي «لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام» في الكلام على الأمر الوحداني ما نصه: هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50]، وأمره الواحد عبارة عن تأثيره الوحداني بإفاضة الوجود الواحد المنبسط على الممكنات القابلة الظاهرة به، والمظهرة إياه متعددًا متنوعًا بحسب ما اقتضته حقائقها المتعينة في العلم الأزلي، وذلك لأن الحق من حيث وحدة وجوده لا يصدر عنه إلا واحد؛ لاستحالة إيجاد الواحد من كونه واحدًا ما هو أكثر من واحد، إلا أن أرباب النظر العقلي من الفلاسفة، يرون أن ذلك الواحد هو العقل الأول، وعلى قاعدة الكشف هو الوجود العام، وينبغي أن تعلم أنه ليس المراد بالعموم أنه كلي، لا يمنع تصور مفهومه من وقوع الشركة فيه، فإن ذلك مما لا يصلح أن يكون موجودًا في الأعيان، بل المراد بالعموم اشتراك جميع الممكنات في أنه هو المفاض عليها، المضاف إليها ما وجد منها، وما لم يوجد مما سبق العلم بوجوده، وهذا الوجود مشترك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود المسمى بالعقل الأول، وبين سائر الموجودات؛ إذ ليس ثم إلا الحق والعالم، العالم ليس بأمر زائد على حقائق معلومة الحق أولاً متصفة بالوجود ثانيًا انتهى منه بلفظه.

وقد تعرض في «جواهر المعاني» في الفصل الثالث من الباب الخامس نقلاً عن شيخه أبي العباس التجاني لإيضاح هذه الوحدة، وبيانها على مذهب القوم، وإبطال ما قاله أهل

الظاهر من إحالتها، وإبطال ما ألزموه لمن قال بها، وهو أنها تستلزم تساوي الشريف والوضيع، واجتماع المتنافيين والضدين إلى غير ذلك مما قالوه.

وحاصل كلامه: إن العالم الكبير كذات الإنسان في التمثيل، وهي إذا نظرت إليها وجدتها متحدة مع اختلاف ما تركبت منه في الصورة والخاصية، وما ذكروه لا يلزم؛ لأنه وإن كانت الخواص متباعدة، والأحكام مختلفة، فالأصل الجامع لها ذات واحدة كذات الإنسان، سواء بسواء، وأيضًا فلوحدته وجه ثان وهو اتحاد ذاته في كونه مخلوقًا لله تعالى، وأثرًا لأسمائه وصفاته، فلا يخرج فرد من أفراد هذا العالم عن هذا الحكم، وإن اختلفت أنواعه، فإن الأصل الذي برز عنه واحد، ووجه ثالث، وهو اتحاد وجوده من حيث فيضان الوجود عليه من حضرة الحق فيضانًا متحدًا، ثم اختلفت خواصه وأجزاؤه بحسب ما تفصل ذلك الوجود، فإنه يتحد في عين الجملة، ويفترق في حال التفصيل. راجع كلامه، وراجع أيضًا كتاب «الجامع» لابن المشري، فإنه تعرض فيه أيضًا لهذه الوحدة وبيانها نقلاً عن شيخه المذكور.

الثالثة: وحدة الوجود الذي به يتحقق حقيقة كل موجود، وهي وحدة الحق سبحانه، ومعناها أن الوجود من حيث هو حقيقة واحدة، وهي لله تعالى وحده لا مشارك له فيها، فهو الموجود على الإطلاق، ووجود هذه الكائنات إنما كان باستنادها إليه، واستمدادها منه، واستنشاقها لروائح الوجود من وجوده، وإشراق شعاع وجوده عليها، فهي موجودة بهذا الوجود الذي له تعالى لا بوجود آخر ثان، فلم تكن غيرًا من كل وجه؛ لأن الغير في عرفهم هو الذي يكون له الوجود من ذاته، ويتصور أن يكون له بنفسه قوام، وهي وجودها ليس من ذاتها، ولا يتصور أن يكون لها قوام بنفسها.

وقد قال الشيخ الأكبر في كتاب «التجليات» له: من لم يكن له وجود من ذاته فمنـــزلته منـــزلة العدم، وهو الباطل قال: وهذا من بعض الوجوه التي بها يمتاز الحق تعالى عن الخلق، وهو كونه موجودًا أعني وجوده من ذاته انتهى.

كما أنها ليست عينًا لما بين التقييد والإطلاق من تقابل التضاد، وعليه فإثبات الوجود لها توهم؛ لأنه يتوهم الجاهل بحالها، وحقيقتها أن لها وجودًا وفي الحقيقة ونفس الأمر ما ثم إلا وجوده تعالى؛ لأن به ظهرت الأشياء كلها، ولذا قيل:

هـــذا الوجـــود وإن تعـــدد ظاهرًا وحـــياتكم مـــا فـــيه إلا أنـــتم

أنـــتم حقـــيقة كـــل موجود بدا ووجـــودها ذي الكائـــنات توهم

في بـــاطني مـــن نـــوركم ما لو بدا أفـــــتي بـــسفك دمـــي الذي لا يعلم
ولـــو أنـــني أبـــدي سرائر جودكم قـــال العـــــواذل ليس هـــذا مسلـــم

وفي «الإحياء» في كتاب التوحيد والتوكل في الكلام على قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ما نصه: أي كل ما لا قوام بنفسه، وإنما قوامه بغيره، فهو باعتبار نفسه باطل، وإنما حقيقته، وحقيقته بغيره لا بنفسه، فإذًا لا حق بالحقيقة إلا الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء، فإنه قائمٌ بذاته، وكل ما سواه قائم بقدرته، فهو الحق وما سواه باطلٌ انتهى.

وقال القاشاني في «لطائفه» في مبحث التحقيق ما نصه[1]:

التحقيق هو رؤية الحق بما يجب له من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، قائمًا بنفسه، مقيمًا لكل ما سواه، وأن الوجود بكمالات الوجود: أي التي هي القوى والمدارك، إنما هو له تعالى بالحقيقة والأصالة، ولكل ما سواه بالمجاز والتبعية، بل تسميته غيره غير أو سوى مجاز أيضًا؛ إذ ليس معه غير، بل كل ما يُسمّى غيرًا، فإنما هو فعله، والفعل لا قيام له إلا بفاعله، فليس هو بنفسه لِيُقال فيه غيرًا وسوى، فكان مرجع التحقيق أن ليس في الوجود إلا عين واحدة، قائمة بذاتها، مقيمة لتعيناتها، التي لا يتعين الحق بها؛ لاستحالة الانحصار عليه أو التقييد، فهو تعالى الظاهر في كل مفهومٍ، والباطن عن كل فهمٍ، إلا عن فهم من قال أن العالم صورته وهويته، فلهذا صار صاحب التحقيق، لا يثبت العالم ولا ينفيه: أي لا يثبت العالم إثبات أهل الحجاب، ولا ينفيه نفي المستهلكين، فافهم. انتهى منه بلفظه.

فهذا المعنى هو مراد أهل الله بوحدة الوجود، وبالوحدة المطلقة وغير ذلك من العبارات التي يذكرها العارفون من أهل التحقيق، وليس مرادهم المعنى الفاسد الذي عند أهل الزندقة والإلحاد، وقد أنكرته عليهم علماء الأمة، وقد كشف عن هذا الشيخ عبد الغني النابلسي في رسالةٍ له سمَّاها: «إيضاح المقصود عن معنى وحدة الوجود»[2].

وفي «الحكم العطائية»[3]: الكون كله ظلمة: أي عدم صرف بالنظر إلى أصله، وحقيقة ذاته، قال: وإنما أناره يعني أظهره، وأزال ظلمة العدم عنه ظهور الحق فيه: أي

(1) انظر: لطائف الأعلام للقاشاني (ص 125).
(2) طبعت بدار الآفاق العربية، القاهرة.
(3) الحكمة رقم (320).

تجليه عليه أولاً بأنوار الإيجاد، وتوجهه إليه ثانيًا بما يقوم به، ويدوم به وجوده من أنواع الإمداد، فلم يكن وجوده لنفسه وذاته حتى يعد وجودًا مستقلاً، وإنما كان وجوده تعالى، وبظهور هذا الوجود في الأشياء ظهرت، وبإشراق شعاعه عليها أشرقت على حسب ما تقتضيه طبائعها وقابليتها، واستعداداتها الثابتة في العلم، ثم قال في الحكم: فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار، يعني: أن من نظر إلى الكون، ولم يشهد الحق تعالى ببصيرته فيه، أو عنده أو معه كما هو حال أهل التوسط الذين يرون الله في الأشياء، أو عندها أو معها ويقولون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه أو عنده أو معه أو يشهده قبله، كما هو حال أهل الشهود والعيان الذين يرون الأشياء بالله، ويقولون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله أو يشهده بعده، كما هو حال أهل الدليل والبرهان الذين يرون الله بالأشياء، ويقولون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده، كان معدودًا من أهل الظلام، محجوبًا عن الله تعالى بسحب الكون أو الجهل والغفلة والآثام، ومن شهده في كل شيءٍ أو عنده أو معه أو قبله أو بعده أو فيه، وعنده ومعه وقبله وبعده كان من أهل الأنوار، وممن لم تنحجب عنهم شموس المعرفة بسحب الآثار، ومن زال عنه الوهم والعناء، وكان في مقام المحو والفناء، وغلب عليه شهود الوجود الحق الحقيقي، الذي به كل شيءٍ موجود يرى الله وحده، ولذا ينفي ما عداه، ولا يثبت شيئًا سواه، ويقول: ما رأيت شيئًا سوى الله.

ومن قول بعضهم: ما في الدار غيره ديار، وقول آخر: سوى الله والله ما في الوجود ويقول عما سواه أنه ظل، وأنه خيال، وأنه سراب، وأنه هالك، وأنه مضمحل زائل أو لا وجود له أصلاً، وهو صادق في ذلك كله؛ لأن وجود ما سوى الحق إنما هو بالفرض والتقدير، أو الوهم والتخييل، والوجود الحق الحقيقي إنما هو وجوده تعالى، ووجود ما عداه بوجوده لا بوجودٍ آخر، مما عداه ليس له من نفسه وجود أصلاً، فهو بالنظر إلى نفسه عدم صرف، وبالنظر إلى إشراق شعاع الوجود المطلق عليه كالظل له تابع له، والتحقق بهذا المعنى هو زبدة التوحيد، وعمدة أهل التفريد، وفي ذلك يقول قائلهم:

الله قـــل وذر الوجود وما حوى ... إن كـــنت مـــرتادًا بلوغ الكمال

فالكـــــل دون الله إن حققـــــته ... عـــدم علـــى التفصيل والإجمال

واعلـــم بأنـــك والعـــوالم كلها ... لـــولاه في محـــو وفي اضمحلال

مـــن لا وجـــود لذاتـــه من ذاته ... فوجـــوده لـــولاه عـــين محـــال

فالعارفـون فـنوا ولما يشهدوا شـيئًا سـوى المتكـبر المتعال
ورأوا سـواه على الحقيقة هالكا في الحـال والماضـي والاستقبال

وقد حُكي عن الصديق ﷺ أنه كان يقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله.

وعن عمر ﷺ أنه كان يقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده.

وعن عثمان ﷺ أنه كان يقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله معه.

وعن علي ﷺ أنه كان يقول: لا نعبد ربًا لم نره يعني لم نشهده.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «كان الله ولا شيء معه، وكان الله وحده بلا شيء»[1].

وفي «الإحياء» في كتاب المحبة والشوق في ترجمة بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى ما نصه:

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته: أي قوته، فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى، ولا يعرف غيره، ويعلم أنه ليس في الوجود إلا الله تعالى، وأفعاله أثر من آثار قدرته، فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل، ويذهل عن الفعل من حيث أنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق، فلا يكون نظره مجاوزًا له إلى غيره، كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه، ورأى فيها الشاعر والمصنف، ورأى آثاره من حيث أنه أثره لا من حيث أنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف، وكل العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث أنه فعل الله، وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث أنه فعل الله، لم يكن ناظرًا إلا في الله، ولا عارفًا إلا بالله، ولا محبًا إلا لله، وكان هو الموحد للحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من حيث أنه عبد الله، فهذا هو الذي يُقال فيه أنه فني في التوحيد، وإنه فني عن نفسه أيضًا، وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا، وبقينا بلا نحن. انتهى منه، وقد نقله السيوطي أيضًا في «تأييد الحقيقة العلية».

وفي كلام بعض العارفين: أبى المحققون أن يشهدوا غير الله، لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومية.

---

(1) سيأتي تخريجه والكلام عليه.

وقال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لا غير معه حتى أشهده معه.

ومن كلام مولانا عبد السلام بن مشيش لوارثه أبي الحسن الشاذلي: حدد بصر الإيمان تجد الله تعالى في كل شيءٍ، وعند كل شيءٍ، ومع كل شيء، وقبل كل شيءٍ، وبعد كل شيءٍ، وفوق كل شيءٍ، وتحت كل شيءٍ، وقريبًا من كل شيءٍ، ومحيطًا بكل شيءٍ بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته.. إلى آخر ما قال.

وقال بعض العارفين: الحق تعالى منــزَّهٌ عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة، ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا جوهر ولا عرض؛ لأنه للطفه سار في كل شيءٍ، ولنورانيته ظاهر في كل شيءٍ، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيفٍ، غير متقيدٍ بذلك، ومن لم يرَ هذا ولم يشهده فهو أعمى البصيرة، محروم من مشاهدة الحق انتهى.

ومن كلام القطب سيدي علي وفا ﷺ:

هــو الحــق المحــيط بكل شيء   هــو الــرحمن ذو العرش المجيد
و الــنور المــبين بغــير شــك   هــو الــرب المحجب في العبيد
هــو المــشهود في الأشياء يبدو   فيخفـــيه الــشهود عن الشهيد
هــو العــين العــيان لكل غيب   هــو المقــصود من بيت القصيد
جمــيع العـــالمين لَـــه ظـــلال   ســجود له في القريب وفي البعيد
وهـــذا القــدر في التحقيق كاف   فكــف النفس عن طلب المزيد

واعلم أن الإيمان بالله هو التصديق الجازم بوجوده أولاً، وبوحدانيته ثانيًا، وباتصافه بصفات الكمال اللائقة به ثالثًا، وبتقديسه عن سمات الحوادث رابعًا، وهذا التصديق له مراتب ذكر في «القوت» و «الإحياء» أنها ثلاثة وهي في الحقيقة تسعة لأن كل مرتبة من المراتب الثلاث منقسمة إلى ثلاثة، وذكر الغزالي في آخر كتابه: «إلجام العوام» ستة منها وهي أقسام المرتبتين الأوليين، وأما المرتبة الثالثة فذكرها بأقسامها في كتابه «مشكاة الأنوار»، ونحن إن شاء الله تعالى نذكر خلاصة المرتبتين الأوليين مع التوسع في المرتبة الثالثة؛ لأنها المقصودة هنا.

فنقول المرتبة الأولى: مرتبة إيمان العوام، وهو إيمان التقليد المحض.

وفيها ثلاث مراتب لأنه:

1- إما أن يكون مستندًا إلى السماع ممن حسن فيه الاعتقاد بسبب كثرة ثناء الخلق عليه كالعلماء والأولياء.

2- أو إلى أمارة يظنها العامي دليلاً كالقرائن الشاهدة له.

3- أو غير مستند إلى شيء أصلاً كأن يسمع القول فيناسب طبعه وأخلاقه فيبادر إلى التصديق به لمجرد موافقته لطبعه.

وهذه أضعف التصديقات لأنه فيما قبله استند إلى دليل ما وإن كان ضعيفا.

المرتبة الثانية: مرتبة إيمان المتكلمين وهو الإيمان الممزوج بنوع من الاستدلال وفيها أيضًا ثلاث مراتب لأنه:

1- إما أن يكون حاصلاً بالبرهان المحرر المستقصي لشروطه بأصوله ومقدماته.

2- أو بالأدلة الرسمية الكلامية المبنية على أمور مسلمة مصدق بها لاشتهارها بين أكابر العلماء وشناعة إنكارها.

3- أو بالأدلة الخطابية التي جرت العادة باستعمالها في المحاورات والمخاطبات الجارية في العادات.

المرتبة الثالثة: مرتبة إيمان العارفين، وهو المشاهد بنور اليقين وفيها أيضًا ثلاث مراتب.

الأولى: مشاهدة أن الوجود كله لله وأنه لا شريك له فيه أصلاً لأن كل ما سواه إذا اعتبرت ذاته فهو من حيث ذاته لا وجود له بل وجوده مستعار من غيره، ولا قوام لوجود المستعار بنفسه بل بغيره ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض فإذا انكشفت هذه الحقيقة للعبد بنور اليقين علم أن الوجود كله له تعالى لا مزاحم له فيه أصلاً وأن نسبته لغيره مجاز لا حقيقة.

الثانية: ترقى أصلها من حضيض المجاز إلى ارتفاع الحقيقة واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله وأن كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدًا لا يتصور فيه إلا ذلك لا أنه يصير هالكا في وقت من الأوقات لأن كل ما سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم صرف، وإذا اعتبرت من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول فهو موجود لا من وجهه وذاته، بل من الوجه الذي يلي موجده فيكون الموجود هو وجه الله فقط وحينئذ فلكل شيء وجهان وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه فهو باعتبار وجه نفسه عدم، وباعتبار وجه ربه موجود، فإذًا لا موجود إلا الله ووجهه كما قال:

﴿كُلُّ شيء هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] يعني فليس بهالك.

وهؤلاء يفتقروا لقيام القيامة ليسمعوا نداء الباري: ﴿لِمَنْ الملك اليوم لله الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾ [غافر: 16]، بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدًا، ولم يفهموا من معنى قوله: الله أكبر أنه أكبر من غيره حاش الله إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون أكبر منه، بل ليس لغيره رتبة المعية، بل رتبة التبعية، بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه، فالوجود وجهه فقط، فمحال أن يكون أكبر من وجهه، بل معناه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة، وأكبر أن يدرك غيره كنه كبريائه نبيًا كان أو ملكًا بل لا يعرف كنهه إلا هو تعالى.

الثالثة: أهلها بعد ما عرجوا إلى سماء الحقيقة، ولم يروا في الوجود تحقيقا إلا الواحد الحق وأفعاله، لكن منهم من كان له هذا الحال عرفانا علميا، ومنهم من صار له ذلك ذوقًا حاليًا، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية استغرقوا في الفردانية المحضة واستلبت فيها عقولهم، فصاروا كالمبهوتين فيها، ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله، ولا لذكر أنفسهم أيضًا، فلم يكن عندهم إلا الله، فسكروا سكرا وقع دون سلطان عقولهم، فقال أحدهم: أنا الحق.

وقال الآخر: سبحاني ما أعظم شأني[1].

وقال الآخر: ما في الجبة إلا الله.

وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى، فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في الأرض عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرط عشقه: أنا من أهوى، ومن أهوى أنا.

وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة فناء، بل فناء الفناء لأنه فني عن نفسه، وفني عن فنائه، فإنه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال، ولا بعدم شعوره بنفسه، ولو شعر بعدم شعوره كان قد شعر بنفسه وتسمى هذه الحالة بالنسبة إلى المستغرق بها بلسان المجاز اتحادًا وبلسان الحقيقة توحيدًا وانظر: «مشكاة الأنوار» لأبي حامد الغزالي، و«شرح الإحياء» للشيخ مرتضى الزبيدي في أول نصفه الثاني وفي مبحث السماع.

وفي «لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام» للقاشاني بعد ما ذكر فيه الاتحاد وأنه يطلق ويراد به عدة معاني ما نصه: ومنها أن يراد بالاتحاد جميع الموجودات في الوجود الواحد من غير أن يلزم من ذلك ما يظن من انقلاب الحقائق أو حلول شيء في شيء، بل

(1) انظر: روضة الحبور ومعدن السرور لابن الأطعاني (ص 80) بتحقيقنا.

المراد من ذلك أن كل ما سوى الحق سبحانه لا حقيقة له إلا بالحق سبحانه بمعنى أن الوجود الذي صار به كل موجود موجودا إنما هو الوجود الواجب، وهذا منكر عند أرباب العقول المحجوبة بظلمة الأكوان، فإنهم لا يشاهدون وجهه تعالى في الأشياء لوقوفهم معها، وإلى وحدة الوجود المشترك بين جميع الماهيات المتكثرة أشار الأكابر بقولهم الوحدة للوجود والكثرة للعلم أي للمعلومات فإنها هي التي كثرت الوجود الواحد المظهر لها بها انتهى منه بلفظه.

وفيها أيضًا ما نصه: وحدة الوجود، يعني به عدم انقسامه إلى الواجب والممكن وذلك أن الوجود عند هذه الطائفة ليس ما يفهمه أرباب العلوم النظرية من المتكلمين والفلاسفة، فإن أكثرهم يعتقد أن الوجود عرض، بل الوجود الذي ظنوا عرضيته هو ما به تحقق حقيقة كل موجود، وذلك لا يصح أن يكون أمره غير الحق عز شأنه انتهى المراد منه بلفظه أيضًا.

وقال السعد في شرح المقاصد بعد أن أبطل الحلول والاتحاد ما نصه: وها هنا مذهبان آخران يوهمان الحلول والاتحاد وليسا منه في شيء.

الأول: السالك إذا انتهى سلوكه إلى الله، وفي الله استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته في ذاته وصفاته في صفاته ويغيب عن كل ما سواه ولا يرى في الوجود إلا الله، وهذا الذي يسمونه الفناء في التوحيد، وإليه يشير الحديث الإلهي:

«فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ[1]».

وحينئذ فربما صدرت منه عبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان تلك الحال، وتعذر الكشف عنه بالمقال، ونحن على ساحل التمني نغترف من بحر التوحيد بقدر الإمكان، ونعترف بأن طريق غيرنا فيه العيان دون البرهان.

الثاني: إن الواجب هو الوجود المطلق وهو واحد لا كثرة فيه أصلاً وإنما الكثرة في الإضافات والتعينات التي هي بمنـــزلة الخيالات والسراب إذ الكل في الحقيقة واحد يتكرر على الظاهر لا بطريق المخالطة والانضمام ويتكثر في النواظر لا بطريق الانقسام ولا حلول هنا ولا اتحاد لعدم الاثنينية والغيرية انتهى على نقل شارح الإحياء والله أعلم. انتهى.

قلت: مسألة الـــحلول والاتحاد ووحدة الوجود قد كثر فيها الكلام من العالم

(1) سبق تخريجه.

والجاهل، فكثر الكلام، وتخبطت الآراء، وتنازعت، وبمجرد إطلاق لفظ وحدة الوجود يتوهم الجاهل القول بالحلول والاتحاد، ونسبها ظلمًا وعدوانًا الكثير من الجهلة قديمًا إلى سيدنا الشيخ الأكبر وأكابر الأولياء: كالشيخ سيدي عبد الكريم الجيلي، والشيخ القونوي، والشيخ ابن سبعين، والشيخ ابن الفارض، وغيرهم رضي الله عن جميعم، وتبعهم على ذلك أتباعهم من المتأخرين.

وإن شئت قلت: أعوانهم في تلك الجهالة، وكان مدخلهم إلى هذه النسبة وتلك الاعتراضات وتَجرؤهم على ما يجهلونه من علوم الأولياء نظرهم إلى علوم القوم باعتبار أنها علومٌ فلسفيةٌ، مصدرها الفكر والعقل، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 282]، ولا قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]، ولا قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: 108]، ولا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 79]، ولا قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: 24].

ولا ما روي عن أبي جحيفة قال: سألت عليًّا ﷺ: هل عندك عن النبي ﷺ شيءٌ سوى القرآن؟ فقال: «لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في القرآن وما في هذه الصحيفة» قلت: وما في هذه الصحيفة؟ الحديث، ولا ما روي في البخاري: حدثنا إسماعيل قال: حدثني أخي عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم»، ولم يبلغهم مما ورد في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مما يقرر اختصاص الحق سبحانه لمن شاء من عباده بما شاء من عطاياه، سواء كان المُعطَى محسوسًا أم معنويًا كالعلم بالله والفهم في كتابه، فراحوا ينكرون كل ما يجهلونه، وكأنهم أحاطوا بما عند الله، أو تحكموا على الله في ألا يعطي أحدًا من خلقه إلا بعد أن يستأذنهم، ولا يُفهِمُ أحدًا في كتابه إلا بما فَهِمُوه هم بفهمهم السقيم لا غير، فسبُّوا ولعنُوا أولياء الله، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: 15]، وجعلوا يستشهدون بأقوال أهل الكفر المستشرقين الذين ما أرادوا بالإسلام والمسلمين خيرًا قطُّ على أئمة الهدى المسلمين، فينسبون العلم اللدني الوارد ذكره في كتاب الله وفي سنة رسول الله تارةً إلى المسيحية،

وتارةً إلى الفلسفة اليونانية، وأخرى إلى الاستنباطات العقلية تبعًا لهؤلاء المستشرقين، الذين أدركوا حقيقة علوم التصوف، وما لها من العظمة بحيث يعجز غير المسلمين عن الإتيان بشيءٍ منها، وكيف لا وهي من السيد الأعظم ﷺ متلقاةٌ، وأن التصوف الإسلامي منذ عهد الصحابة إلى الآن السبب الأقوى والفعَّال في دخول جموع الناس في دين الله أفواجًا، وهذا ما يشهد به التاريخ، فراحوا ينسبونها إلى أنفسهم أو إلى عقلٍ وفكرٍ كما مرَّ محاولين بذلك التقليل من شأن العلم في قلوب المسلمين، ولكن هيهات هيهات: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف: 8] ببعضٍ من النظريات التي يكذبها التاريخ، وتأباها عظمة الدين الخاتم:

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104].

فترى دافع المتقدمين إلى الإنكار: الحقد، والحسد، وحب السمعة، والمتأخرين: الجهل الذي ملأ قلوبهم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179] فتراهم ينقلون أقوال إخوانهم الذين يمدونهم في الغيِّ دون أدنى معرفةٍ بالدليل الذي استند إليه العلماء بالله، ولا يستبري لدينه فيبحث عنه، بل أخذوا يكررون ويرددون الأقوال المنكرة في حقِّ سادات الأمة المحمدية ورثة الأنبياء تلك الأقوال العارية بالطبع عن دليل القوم، وكان الأحق بهم قبل أن يؤذنهم الله بمحاربته بإيذائهم لأوليائه أن يأخذوا العلم من أهله؛ وخصوصًا أن علوم القوم موضوعها العقائد المتعلقة بمعرفة الله ورسوله ﷺ، وتلك أمورٌ محلها القلب، فلا اطِّلاع عليها إلا لصاحبها.

ولا تظن يا أخي أن علوم القوم خاليةٌ عن تأييد الشرع، أو عاريةٌ عن الدليل، كما صوَّرها هؤلاء الجهلة، بل الحق الذي لا مرية فيه أنه لا توجد عقيدةٌ قررها القوم في كتبهم إلا وهي محاطةٌ بالدليل الشرعي، والمتتبع لأقوالهم نفعنا الله بهم يجدها مصحوبةً بالدليل.

فتبرأْ لدينك يا أخي، وإيَّاك أن تعترض على أحدٍ من العلماء بالله بجهلك في أمرٍ جهلته من كلامهم، أو أن يكون لك أيُّ نسبةٍ تربطك بهذا الاعتراض فالأمر جِدٌّ وليس بالهزل.

وانظر كيف نُسبوا إلى الله في تسميتهم، بل وحقيقتهم في قول: أولياء الله، أو العلماء

بالله، أو العارفين بالله، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62]، فما عاديت في الحقيقة إلا ما نُسب لله؛ فانتبه من رقدتك.

واعلم أني ما ذكرت لك تلك المقدمة في هذا الموضع إعلامًا منِّي بأن واحدًا من العلماء بالله يقول بالحلول أو الاتحاد معاذ الله، ولكن لأوضح لك حقيقة الخلاف، والله يتولى هداك وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وإليك نصوص ما ذكره ساداتنا العلماء بالله في نفيهم للحلول والاتحاد المتوهَّم في حقهم الشريف فأقول وبالله التوفيق:

قال سيدنا في «الفتوحات» في باب الأسرار: من قال بالحلول فهو معلولٌ؛ فإن القول بالحلول مرضٌ لا يزول، ومن فَصَلَ بينك وبينه فقد أثبت عينك وعينه، ألا ترى قوله: «كنتُ سمعَه الذي يسمع به»، أثبتك بإعادة الضمير إليك ليدلك عليك، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول فإنه أثبتك حالاً ومحلاً، فمَنْ فَصَلَ نفسهَ عن الحق فنِعْمَ ما فَعل.

وقال في باب الأسرار أيضًا: الحادث لا يخلو عن الحوادث، لو حلَّ بالحادث القديم لصحَّ قول أهل التجسيم، فالقديم لا يَحِلُّ ولا يكون مَحَلا، ومن ادعى الوصل فهو في عين الفصل اهـ.

وقال في هذا الباب أيضًا: أنت أنت، وهو هو، فإيَّاك أن تقول كما قال العاشق: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا»، فهل قدِر هذا أن يرد العين واحدةً؟ لا والله ما استطاع فإنه جهلٌ، والجهل لا يتعقلُ حقًّا، ولا بدَّ لكلِ أحدٍ من غطاءٍ ينكشف عند لقاء الله.

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلامٍ طويلٍ: وهذا يدلك على أن العالَم ما هو عين الحق، ولا حلَّ فيه الحق؛ إذ لو كان عين الحق أو حلَّ فيه لما كان تعالى قديمًا ولا بديعًا انتهى.

وقال في الباب الثاني والتسعين ومائتين: من أعظم دليلٍ على نفي القول بالحلول والاتحاد أنك تدرك عقلاً أن الشمس هي التي أفاضت على القمر النور، وأن القمر ليس من نور الشمس شيئًا مشهودًا؛ لأنها لم تنتقل إليه بذاتها، وإنما القمر مجلى لها، فكذلك العبد ليس فيه شيءٌ من خالقه، ولا حلَّ فيه اهـ.

وقال في الباب الرابع عشر وثلاثمائة: لو صحَّ أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى لصحَّ انقلاب الحقائق، وخرج الإله عن كونه إلهًا، وصار

الحق خلقًا، والخلق حقًا، وما وثق أحدٌ بعلمه، وصار المحال واجبًا، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدًا اهـ.

وقال في الباب الثامن والأربعين: لا يصحُّ أن يكون الخلق في رتبة الحق تعالى أبدًا، كما لا يصحُّ أن يكون المعلول في رتبة العلة اهـ.

وقال سيد الطائفة الجنيد ﷺ: التوحيد إفراد القدم عن الحدوث.

وقال سيدي عبد القادر الأمير ﷺ في «مواقفه» في حديث مسلم: «إن الحق تعالى يتجلى لأهل المحشر..إلخ»: وفرقةٌ تقرُّه في الدنيا والآخرة: أي التحول المذكور في الحديث من غير حلول ولا اتحاد ولا امتزاج ولا تولُّد، مع اعتقاد:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، وهم العارفون بالله تعالى أهل التجلي والشهود في الدنيا اهـ (ص353).

وقال أيضًا: الموقف الثلاثون: قال لي الحق: «أتدري من أنت؟ فقلت: نعم، أنا العدم الظاهر بظهورك، والظلمة المشرقة بنورك. فقال لي: عرفت؛ فالزم، وإيَّاك أن تدَّعي ما ليس لك، فإن الأمانة مؤداةٌ والعارية مردودةٌ، واسم الممكن منسحبٌ عليك أبدًا، كما هو منسحبٌ عليك أزلاً» اهـ.

ثم قال في شرح حديث (كنت سمعه): وإنما هي الأحكام العدمية التي ظهر الوجود الحق بها لا غير، ولا اتحاد كما يفهمه العميان، ولا تأويل كما يقول صاحب الدليل والبرهان اهـ.

وقال في الكلام على حديث «ما وسعني..إلخ»: قلب العارف الكامل المحقق الواصل يصير عين معروفه، وعين ما حققه، مع بقاء التمييز: إلهٌ ومألوهٌ، ربٌّ وعبدٌ اهـ.

وقال سيدي عليُّ بن وفا نفعنا الله به: إنما كانت القلوب السليمة تحنُّ إلى التنـزيه أكثر من التشبيه لأن التنـزيه هو الأصل، والتشبيه إنما هو تنـزُّلٌ للعقول، ومن شأن الذات الإطلاق لذاتها، وتساوي النسب لصفاتها؛ فاعلم ذلك، ونزِّه ربَّك عن صفات خلقه اهـ.

وقال سيدي أيضًا: المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم: فناء مراد العبد في مراد الحق تعالى، كما يقال: بين فلانٍ وفلانٍ اتحادٌ، إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه.

ثم أنشد:

وعلمُك أنَّ كل الأمر أمري ... هو المعنـى المسمَّى باتحـاد

وقال سيدي أيضًا: الاتحاد لفظٌ يطلق ويراد به أعلى درجات قرب العبد من الرب.

وانظر يا أخي رحمك الله إلى ما قاله هؤلاء السادات في الحلول والاتحاد؛ كي تعلم حقيقة مرادهم بتلك اللفظة، على فرض وقوعها في كلامهم، هو استخدام اللفظ ليس إلا، ودليلي فضلا عمَّا ذكرته من نفي القوم لذلك: قال سيدي عليٌّ ﷺ: (إن الاتحاد لفظٌ) ولم يقل معنًى أو حقيقةٌ، فاعلم تلك الأقوال، وعضٌّ عليها بالنواجذ، واجعلها أساسًا تحمل عليه كلام القوم.

وانظر قول الشيخ الشعراني: وعندي أن هؤلاء القائلين بالاتحاد كلهم لم يصحُّ لهم اتحادٌ قطُّ إلا بالوهم، وانظر كلامهم تجده من أوله إلى آخره لا يبرح من الثنوية، فإنه لا بدَّ من مُخاطِبٍ ومخاطَب.

وفي كلامه ﷺ ما يغني عن التعليق من نفي تلك الاعتقادات المتوهمة، وقولي المتوهمة إنما هو بالنظر للمنكر، فإننا إذا أمعنا النظر في كتابات المعترضين على أقوال الكُمَّل رضي الله عنهم نجدها منصبَّةً حول معنًى غير مقصودٍ بالمرة للقائل، ولو ذكرت للقائل معنى تلك المقولة بتفسير المنكر لها؛ لكان من أول المنكرين لها وأشد الناس اعتراضًا عليها، فإذن تلك العقائد المعترض عليها ليس لها وجودٌ إلا في عقل المنكر، فإنه اعترض على ما فهمه هو، لا على حقيقة المراد باللفظ.

فإذن الخلاف ليس في المعاني، وإنما هو خلافٌ نشأ عن استخدام تلك الألفاظ، ودليلي في ذلك ما ذكرته لك من أقوال هؤلاء الأئمة، فخذ تلك القواعد واحكم عليهم بمقتضى قولهم تجدهم جميعًا أقرب الخلق إلى الله وإلى رسوله ﷺ وأعرفهم بالله ورسوله ﷺ.

فإن قلت: فكيف العمل في تلك الأقوال الكثيرة المشحونة باستخدام تلك الألفاظ الموهمة؟!

أقول لك: بعد ما تقدم ذكره من القول إن لم تستطع قبول تلك الأقوال ولم تفهم المعنى الموافق للشرع الذي هو يقينًا مراد القائل فتأولها بما يوافق الشرع، فإن الكتب الفقهية والشرعية مليئةٌ بالتعارض والترجيحات وتأويل الأقوال والأدلة المتعارضة، فقس على ذلك والله هو الموفِّق.

واعلم يا أخي أني لم أذكر لك جميع كلام القوم في نفي الحلول والاتحاد ووحدة الوجود المتوهمة وإنما ذكرت لك طرفًا منه، فإنهم نبَّهوا عليه كثيرًا فاختر يا أخي لنفسك، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30].

ووالله لا ينسب القول بالحلول أو غيره من القبائح إلى القوم بعدما ذكرناه من كلامٍ

إلا معاندٌ مكابرٌ، فحمل كلامهم على مرادهم لا غير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والسلام.

بحث في ردِّ بعض شَبهِ المنكرين على السادة المتحققين:

قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36].

قال الكلبي: لا تقل ما ليس لك به علمٌ.

وقال البيضاوي: لا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليدًا أو رجمًا بالغيب؛ ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [الإسراء: 36]: أي كل هذه الأعضاء كان عنه مسؤولاً.

قال الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين: يسأل الله العباد فيما استعملوها، وفي هذا زجرٌ عن النظر إلى ما لا يحلُّ، والاستماع إلى ما يحرم، وإرادة ما لا يجوز، كذا ذكره الواحدي.

وقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: 69].

قال البيضاوي: فأظهر براءته من مقولهم يعني: مواده ومضمونه، وذلك أن قارون حرَّض امرأةً على قذفه بنفسها، فعصمه الله تعالى، أو اتهمه ناسٌ بقتل هارون عليه السلام لما خرج معه إلى الطور، فمات هناك، فحملته الملائكة، ومرُّوا بهم حتى رأوه غير مقتول، وقيل: أحياه الله تعالى، فأخبرهم ببراءته، أو قذفوه بعيبٍ في بدنه من مرضٍ أو أدرة لفرط تَستُّره حياءً، فأطلعهم الله على أنه بريءٌ، وكان عند الله وجيهًا ذا قرابةٍ ووجاهةٍ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70]، قاصدًا إلى الحق، ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: 71]، يوفِّقكم للأعمال الصالحات، أو يُصلحها بالقبول والإثابة عليها، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، ويجعلها مُكفِّرة باستقامتكم في القول والعمل، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، يعيش في الدنيا حميدًا، وفي الآخرة سعيدًا.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانَ يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرًا أو ليسكتْ»[1] رواه البخاري ومسلم.

---

(1) رواه البخاري (2376/5)، ومسلم (69/1)، وأبو داود (322/3)، والترمذي (110/4)، والنسائي في الكبرى (394/4).

وقال ﷺ: «من دعا رجلاً بالكفر أو قال عدوُّ الله وليس كذلك إلا حار: أي رجع عليه[1]» رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «مَنْ قفَى مُسلمًا بشيءٍ يريد به شينه: أي عيبهُ حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال[2]».

وقال ﷺ: «مَنْ رمى مُسلمًا بشيءٍ يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال[3]».

وفي تفسير البيضاوي قال ﷺ: «مَنْ قفَى مؤمنًا بما ليس فيه حبسه الله في رذْغَة الْخَبال حتى يأتي بالمخرج[4]». والرَّدْغة بسكون الدال وفتحه والغين المعجمة: الوحل الشديد، والخبال: صديد أهل النار.

وقال ﷺ: «مَنْ أكل برجلٍ مُسلمٍ أكلةً: أي بأن يغتابه عند عدُوه، أو يسبُّه عنده، فيطعمه بسبب ذلك فإن الله يُطعمه مثلها من جهنم، ومن كسا ثوبًا برجلٍ مسلمٍ: أي بأن يغتابه أو يسبُّه عند عدُوه فيكسوه بسبب ذلك فإن الله يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجلٍ مسلمٍ مقام سمعه: أي يقول أنه مرائي، وأقواله وأفعاله رياءً لأجل عدُوه فإن الله تعالى يقوم له مقام سمعةٍ ورياءٍ يوم القيامة[5]». رواه النسائي.

قال ﷺ: «إيَّاكم والظن؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا[6]» رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «حسنُ الظنِّ من حسنِ العبادةِ[7]» رواه النسائي والترمذي وأبو داود: أي اعتقاد الخير والصلاح في حق المسلمين عبادةٌ حسنةٌ من جملة العبادات.

قال الشيخ مجد الدين رحمه الله تعالى: لا يجوز أن يُنكر على القوم ببادي الرأي؛ لعلوِّ مراقبتهم في الفهم والكشف، ولم يبلغنا عن أحدٍ منهم أنه أَمَرَ بشيءٍ يهدم الدين، ولا نهى أحدًا عن الوضوء ولا الصلاة، ولا غيرها من فروض الإسلام ومستحبَّاته، إنما يتكلمون

---

(1) رواه مسلم (69/1)، والبخاري في الأدب المفرد (155/1)، وأحمد (166/5).

(2) رواه الطبراني في الكبير (194/20)، وابن المبارك في الزهد (239/1).

(3) رواه أبو داود (270/4)، وأحمد (441/3).

(4) رواه أبو داود (305/3)، وأحمد (176/2)، والبيهقي في الكبرى (82/6).

(5) رواه أبو داود (270/4)، وأحمد (229/4).

(6) رواه البخاري (1009/3)، ومسلم (1985/4)، وأبو داود (280/4)، وأحمد (245/2).

(7) رواه أبو داود (298/4)، وأحمد (304/2)، وابن حبان (399/2).

بكلامٍ يدقُّ عن الأفهام، وكان يقول: قد يبلغ القوم في المقامات ودرجات العلوم إلى المقامات المجهولة والعلوم المجهولة التي لم يُصرَّح بها كتابٌ ولا سنَّةٌ، ولكن أكابر العلماء العالمين قد يردون ذلك إلى الكتاب والسنَّة بطريقٍ دقيقٍ لحُسن استنباطهم وحسن ظنِّهم بالصالحين، وكان يقول: كما أعطى الله تعالى الكرامات للأولياء التي هي فرع المعجزات، فلا بدع أن يعطيهم من العبادات ما يعجز عن فهمها فحول العلماء.

وكان شيخ الإسلام المخزومي رحمه الله تعالى يقول: لا يجوز لأحدٍ من العلماء الإنكار على الصوفية إلا إن سلك طريقهم، ورأى أفعالهم، وأقوالهم مخالفةً للكتاب والسنَّة، وإما بالإشاعة عنهم، فلا يجوز الإنكار عليهم، ولا سبُّهم، وأطال في ذلك، ثم قال: وبالجملة: فأقل ما يحقُّ على المنكر حتى يسوغ له الإنكار على أقوالهم، أو على أفعالهم، أو على أحوالهم أن يعرف سبعين أمرًا، ثم بعد ذلك يسوغ له الإنكار منها غوصه في معرفة معجزات الرسل عليهم السلام على اختلاف طبقاتهم، وكرامات الأولياء على اختلاف طبقاتهم، ويؤمن بها ويعتقد أن الأولياء يرثون الأنبياء في جميع معجزاتهم إلا ما استثنى منها.

ومنها: اطِّلاعه على كتب تفسُّر القرآن سلفًا وخلفًا؛ ليعرف أسرار الكتاب والسنَّة، ومنازع الأئمة المجتهدين، ويعرف التفسير والتأويل وشرائطه، ويتبحَّر في معرفة لغات العرب في مجازاتها واستعاداتها حتى يبلغ الغاية.

ومنها: كـــثرة الاطِّلاع على مقالاتٍ للسلف والخلف في معنى آيات الصفات وأخبارها، ومن أخذ بالظاهر، ومَنْ أوَّل، ومَنْ دليله أرجح من الآخر.

ومنها: تبحُّره في علم الأصوليين، ومعرفة منازع أئمة الكلام.

ومنها: وهو أهمها معرفةً اصطِّلاح القوم فيما عبَّروا عنه مِنْ التجلِّي الذاتي والصوري، وما هو الذات وذات الذات، ومعرفة حضرات الأسماء والصفات، والفرق بين الحضرات، والفرق بين الأحدية والواحدية، ومعرفة الظهور والبطون، والأزل والأبد، وعالم الغيب والكون، والشهادة والشئون، وعالم الماهيَّة والهويَّة، والسُكر والمحبَّة، ومَنْ هو الصَّادق في السُكر حتى يسامح، ومن هو الكاذب حتى يؤاخذ وغير ذلك، فمن لم يعرف مرادهم كيف يحلُّ كلامهم، أو ينكر عليهم بما ليس هو من مرادهم انتهى.

وقد شرح الحافظ بن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى بعض أبياتٍ من تائية الشيخ عمر بن الفارض، وقدَّمها إلى الشيخ أبي مدين؛ ليكتب عليهم إجازةً، فكتب له على ظاهرها: ما أحسن ما قال بعضهم:

سـارتْ مشرقةً وسرتُ مَغربًا شـتَّانَ بـين مـشرقٍ ومغـرب

ثم أرسلها إلى الحافظ، فتنبَّه الشيخ لأمرٍ كان عنه غافلاً، ثم أذعن لأهل الطريق، وصحب لله الشيخ أبا مدين حتى مات رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

ونقل الإمام القزويني في كتابه «سراج العقول» عن إمام الحرمين: أنه سُئل عن كلام الصوفية، فقال: لو قيل لنا: فقولوا ما يقتضي التكفير من كلامهم مما لا يقتضيه لقلنا هذا طمعٌ في غير مطمعٍ؛ لأن كلامهم بعيدُ المدرك وعين المسلك، يغترف من تيار بحر التوحيد، ومن لم يُحط علمًا بنهايات الحقائق لم يحصل من دلائل التكفير على وثائق، كما أنشد بعضهم في هذا المعنى:

تـركنَا البحارَ الزَّاخراتِ وراءنا فمن أين يدري النَّاس أين توجُّهنا

وسُئل شيخ الإسلام تقي الدين السبكي عن حكم غلاة المبتدعة وأهل الأهواء والمتفوِّهة بالكلام على الذات المقدَّسة؟ فقال: اعلم أيها السائل أن كل مَنْ خاف من الله ﷻ استعظم القول بالتكفير لمن يقول لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله؛ إذ التكفير أمرٌ هائلٌ عظيم الخطى؛ لأن مَنْ كفَّر شخصًا فكأنه أخبر أن عاقبته في الآخرة الخلود في النار أبد الآبدين، وأنه في الدنيا مُباح الدم، والمال لا يملك مسلْمةً، ولا تجري عليه أحكام المسلمين في حياته ولا بعد مماته، والخطأ في ترك ألف كافرٍ أهون من الخطأ في سفك محجمةٍ من دم امرئٍ مسلمٍ، وفي الحديث: «**لأن يُخطي الإمامُ في العفو أحبُ إلى الله تعالى من أن يخطي في العقوبة**[1]».

ثم أن تلك المسائل التي يُفتى فيها بتكفير هؤلاء القوم في غاية الدقة والغموض؛ لكثرة سعتها، واختلاف قرائنها، وتفاوت دعاويها، والاستقصاء في معرفة الخطإ من سائر صنوف وجهه، والاطِّلاع على حقائق التأويل وشرائطه في أماكنه، ومعرفة دلائله في التوحيد وغوامضه إلى غير ذلك مما هو مُتعذِّرٌ على أكابر علماء عصرنا، فضلاً عن غيرهم، وإذا كان الإنسان يعجز عن تحرير معتقدٍ في عبارةٍ فكيف يحرِّرها اعتقاد غيره من عباراته! فما بقي الحكم بالتكفير إلا لمن صرَّح بالكفر، واختارهُ دينًا، وجحد الشهادتين، وخرج عن دين الإسلام، وهذا نادرٌ وقوعه؛ فالأدب الوقوف عن تكفير أهل الأهواء والبدع والتسليم للقوم في كل شيءٍ قالوه مما لا يخالف صريح النصوص انتهى.

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في «مقدمة الطبقات» قال: أخبرني الشيخ أمين

(1) رواه البيهقي في الكبرى (238/8).

الدين الإمام بجامع «الغمري» بمصر أن شخصًا وقع في عبارةٍ موهمةٍ للتكفير، فأفتى علماء مصر بتكفيره، فلما أرادوا قتله قال السلطان: هل بقي أحدٌ من العلماء لم يحضر؟ فقالوا: نعم، الشيخ جلال الدين المحبي أشاج المنهاج، فأرسل السلطان وراءه فحضر، فوجد الرجل في الحديد بين يدي السلطان، فقال الشيخ: ما لهذا؟ فقالوا: كفر. فقال: ما مستند مَنْ أفتى بكفره؟ فبادر الشيخ صالح وقال: قد أفتى والدي شيخ الإسلام الشيخ سراج الدين البلقيني في مثل ذلك بالتكفير. فقال الشيخ جلال الدين المحلي: يا ولدي أترى أن يُقتل رجلٌ مسلمٌ مُوحدٌ يحبُ الله ورسوله بفتوى أبيك؟! حلُّوا عنه الحديد. فجرَّدوه، فأخذه الشيخ جلال الدين بيده، وخرج والسلطان ينظر فما تجرَّأ أحدٌ أن يتبعه.

وكان الشيخ محيي الدين العربي قُدِّس سرُّه يقول كثيرًا: ما تهبُّ على قلوب العارفين نفحاتٌ إلهيةٌ، فإن نطقوا بها جَهَّلهم بها كُمَّل العارفين، وردَّها عليهم أصحاب الأدلَّة من أهل الظاهر، وغاب عنهم أن الله سبحانه وتعالى كما أعطى أولياءه من الكرامات التي هي فرع المعجزات فلا بدع أن يُنطق ألسنتهم بالعبارات التي تعجز العلماء عن فهمها.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى: ومن شكَّ في هذا القول فلينظر في كتاب «المشاهد»[1].

أو كتاب «عنقاء مغرب»[2] للشيخ محيي الدين.

أو كتاب «الشعائر»[3] لسيدي محمد وفا.

أو كتاب «خلع النعلين»[4] لابن قسي.

فإن أكبر العلماء لا يكاد يفهم منه معنًى مقصودًا لقائلٍ أصلاً؛ بل خاصٌ بمن دخل مع ذلك المتكلم حضرة القدس، فإنه لسانٌ قدسيٌ لا يعرفه إلا الملائكة، أو من تجرَّد عن هيئة البشرية، أو أصحاب الكشف الصحيح.

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول بعد اجتماعه على الشيخ أبي الحسن الشاذلي وتسليمه للقوم: من أعظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم قواعد الشرع وأساسه ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيءٌ قطُ من ذلك

---

(1) هو المشاهد القدسية من أعظم كتب الشيخ، وقد حققناه لأول مرة مع شرحه الفخم العظيم للست عجم بنت النفيس البغدادية العامية الأمية، وهو تحت قيد الطبع بدار الكتب العلمية.

(2) قد شرحها أكثر من واحد، كالشيخ الداموني، يسر الله لنا تحقيقه.

(3) وهو شعائر أهل العرفان، تحت قيد الطبع بتحقيقنا.

(4) وهو من الكتب المهمة في الحقيقة المحمدية، أتم الله لنا تحقيقه، ورزقنا سر العلم وفضله.

لفقيهٍ إلا إن سلك طريقهم كما هو مشاهدٌ.

وكان الشيخ عز الدين قبل ذلك ينكر على القوم ويقول: وهل لنا طريقٌ غير الكتاب والسنة؟ فلمَّا ذاق مذاقهم وقطع سلسلة الجدل بكراسة الورع صار يمدحهم كل المدح، ولما اجتمع الأولياء والعلماء في وقعة الفرنج بالمنصورة قريبًا من ثغر دمياط جلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ مكين الدين الأسمر والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد وأضرابهم وقد قرأ بعضهم عليهم رسالة القشيري، وصار كل واحدٍ يتكلم، إذ جاء الشيخ أبو الحسن الشاذلي قُدِّس سرُّه فقالوا له: نريد أن تُسمعنا من معاني هذا الكلام. فقال: أنتم مشايخ الإسلام، وكبراء الزمان، وقد تكلمتم فما بقي لكلام مثلي موضعٌ. فقالوا: لا بدَّ من ذلك. فحمد الله، وأثنى عليه، وشرع يتكلَّم، فصاح الشيخ عز الدين من داخل الخيمة، وخرج ينادي بأعلى صوته: هلمُّوا إلى هذا الكلام القريب العهد من الله تعالى، رحمة الله عليهم أجمعين.

وذكر الإمام الغزالي في «الإحياء» عن بعض العارفين أنه كان يقول: من لم يكن له نصيبٌ من علم القوم يخاف عليهِ من سوء الخاتمة وأدنى نصيبٍ منه التصديق به والتسليم لأهله إذا علمت ذلك. فأقول وبالله التوفيق مما نسب المنكرون إلى الشيخ محيي الدين والشيخ عمر بن الفارض وغيرهما القول بالحلول والاتِّحاد. قال الشيخ عبد الغني الشامي رحمه الله تعالى: وحاشاهم من ذلك؛ بل حاشا أدنى مريدٍ سالكٍ في طريق الصوفية الصَّادقين إلى يوم القيامة مِنْ خطور ذلك في بالهم، أو من إمكانه عندهم، وكيف أمر مستحيل عند المتمسِّكين بالعقول من علماء الكلام وغيرهم فما بالك بالذين هم أعلى منهم مِنْ المتمسِّكين بالإيمان، والفتح، والكشف، والإلهام بعد القيام بحسن المعاملة الشرعية في الظاهر والباطن من غير بدعةٍ مع الإخلاص، واليقين، والزهد، والورع، وإن أشبهت كلماتهم على غير أهل طَريقهم، وفَهِمَ منها علماء الإنكار المنكبُّون على الدنيا قبائح المفهومات، فإن الأعمال بالنيَّات، ولكل امرئٍ ما نوى، والمرء عدوٌّ ما جهله:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا ... وآفته مِنَ الفهم السقيمِ

ولعمري: لو يَفهم ذلك علماء الظاهر لعذرتهم في أمرهم؛ فإنهم يعتقدون كما تعتقد العوامُّ من أن الله تعالى موجودٌ، وكل مخلوقٍ من مخلوقاته موجودٌ أيضًا سبحانه وتعالى، والوجود عندهم جنسٌ عامٌّ مشتركٌ بين القَديم وبين الحوادث، وإنما يتميَّز القديم عن الحوادث بالقدم في ذاته وصفاته، وتتميز الحوادث بالحدوث من العدم في ذواتها وصفاتها وفي حال وجودها هي مشاركةٌ للقديم، تعالى في الوجود العام المطلق وهم يعلمون ماذا

يترتب على اعتقادهم هذا؛ لأنهم أهل عقولٍ وأفكارٍ، فإذا قيل لهم يلزم على قولكم هذا تركت الحق سبحانه وتعالى من عامٌ وخاصٌ كبقية الماهيات الحادثة انتحلوا بعقولهم جوابًا أسكتوا به خصمهم، وبقوا على اعتقادهم ذلك، والله يعلم المفسد من المصلح، فإن الحلول على الحقّ سبحانه وتعالى في الحوادث يتصور عندهم عقلاً، فيحتاجون إلى إقامة الدليل على استحالته وامتناعه، ويتكلّفون في ذلك كما بسط الكلام عليه في كتب علم الكلام، وأما عند المحققين من أهل الله تعالى أصحاب الأذواق الوجدانية فلا يتصور الحلول عندهم أصلاً، فلا يحتاجون إلى إبطاله؛ لعدم تصوره عندهم، وعدم خطورهُ في بالهم؛ فإن وجود الحق تعالى وجودٌ حقيقيٌّ ليس بمفهومٍ لهم أصلاً، وإنما عندهم التصديق به على المغيب، ووجود الحوادث أثرٌ من آثار قدرته، وذلك بالنسبة إلى وجوده تعالى عدم صرفٍ، فكيف لوجودٍ يحلُّ في العدم حاشا وكلا! وإذا بطل الحلول بطل الاتحاد بالأولى، وكل الضلالات التي تفهمها علماء الظاهر من كلام المحققين من أهل الله تعالى، ويشنِّعون بها عليهم بين العوامّ والجهّال؛ لتنقص رتبتهم عندهم، ويحظون بالرفعة في الدنيا، والله يؤتي ملكه من يشاء والله ذو الفضل العظيم انتهى كلامه.

وقال الشيخ محيي الدين قُدِّس سرُّه في «عقيدته الصغرى»: تعالى الله أن تحلَّه الحوادث أو يحلَّها.

وقال في «عقيدته الوسطى»: اعلم أن الله تعالى واحدٌ بالإجماع، ومقام الواحد يتعالى أن يحلَّ فيه شيءٌ، أو يحلَّ هو في شيءٍ، أو يتحد بشيءٍ.

وقال في الباب الثالث من «الفتوحات»: اعلم أنه ليس في أحدٍ من الله شيءٌ، ولا يجوز ذلك عليه بوجهٍ من الوجوه.

وقال في «باب الأسرار»: لا يجوز لعارفٍ أن يقول: أنا الله، ولو بلغ أقصى درجات القُرب، وحاشا العارف عن هذا القول حاشاه، إنما يقول: أنا العبد الذليل في المسير والمقيل.

وقال في الباب التاسع وستين ومائة: القديم لا يكون محلاً قطُّ للحوادث، ولا يكون حالاً في المحدث.

وقال في باب الأسرار: من قال بالحلول فهو معلولٌ؛ فإن القول بالحلولِ مرضٌ لا يزول.

وقال فيه أيضًا: الحادث لا يخلو عن الحوادث، ولو حلَّ بالحادثِ القديم لصحُّ قول أهل التجسيم، فالقديم لا يحلُّ ولا يكون محلاً، ومَنْ ادَّعى الوصل فهو في عين الفصل.

وقال فيه أيضًا: اعلم أن العاشق إذا قال: أنا مَنْ أهوى وَمَنْ أهوى أنا فإن ذلك كلامٌ بلسان العشق والمحبة لا بلسان العلم والتحقيق، ولذلك يرجع أحدهم عن هذا القول إذا صحا من سكرته.

وقال في الباب الثاني والتسعين ومائتين: مِنْ أعظم دليلٍ على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلاً أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيءٌ، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها، وإنما كان القمر مجلًى لها، كذلك العبد ليس فيه من خالقه شيءٌ ولا حلَّ فيه.

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلامٍ طويلٍ: وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق، ولا حلَّ فيه الحق؛ إذ لو كان عينُ الحق أو حلَّ فيه لما كان تعالى قديمًا ولا بديعًا.

وقال أيضًا في الباب الثاني والسبعين والثلاثمائة بعد كلامٍ طويلٍ: وبالجملة، فالقلوب به هائمةٌ، والعقول فيه حائرةٌ.

ثم قال: وبذلك ظهرت عظمته سبحانه وتعالى.

وقال الشيخ عمر بن الفارض قُدِّس سرُّه في قصيدته نظم السلوك[1]:

وكيف وَبِاسْمِ الحقِّ ظلَّ تخلُّقي ... تكون أراجيفُ الضَّلالُ مخيفتي
وها دِحيةُ وافى الأمين نبيَّنا ... بصورتهِ في بدءِ وحيِ النبوَّةِ
أجبريلُ قلْ لِي كان دِحيةُ إذ بدا ... لمهدَى الهدى فِي صورةٍ بشريَّةِ
وفِي علمهِ عن حاضريه مزيَّةٌ ... بماهيةِ المرئي مِنْ غَيرِ مريَّةِ
يرى مَلكًا يُوحِي إليهِ وغيره ... يرى رجلاً يدَّعي إليه بصحبةِ
ولِي من أتمِّ الرؤيتين إشارةٌ ... تنزِّه عن رأي الحلول عقيدتِي
وفي الذكر ذِكرُ اللبس ليس بمنكرٍ ... ولم أعد عن حكمي كتابٍ وسنةِ

قلت: فَكَذَبَ والله وافترى مَنْ نسب القول بالحلول والاتحاد إلى الشيخ محيي الدين والشيخ عمر بن الفارض رضي الله تعالى عنهما، وهذه نصوصهما تُكذِّب هذا المفتري، والله أعلم.

قال الفاضل المحقق ابنُ حجر في «شرح الهمزية»: واعلم أن من الكفر الصريح ما حُكي عن بعض الكراميَّة: أن الولي غير النبي قد يبلغ درجة النبوة.

---

(1) انظر: شرح تائية ابن الفارض الكبرى للشيخ القيصري (ص 72) بتحقيقنا، طبع العلمية.

وعن بعض المتصوفة الجهلة: إن الولاية فوق رتبة النبوة، وأن الولي قد يبلغ حالةً يسقط عنه فيها التكليف.

قال الغزالي: وقتل الواحد من هؤلاء خيرٌ من قتل مائة كافرٍ؛ لأن ضرر أولئك أشدُّ في الدين، وليس من أولئك العالمان العارفان المحققان الوليان الكبيران المحيوي ابن العربي، والسراج ابن الفارض وأتباعهما بحقٍّ خلافًا لمن زلَّ فيهم قدمه، وطغى قلمه إلا أن يكون أراد بما قاله الذبَّ عن اعتقاد ظواهر عباراتهم المتبادرة عند من لا يحيط باصطلاحهم انتهى.

قال الشيخ عبد الغني الشامي رحمه الله تعالى: وأما قول الشيخ الأكبر أنه تعالى أوجد الأشياء وهو عينها فهو مبنيٌّ عنده على اصطلاحه في معرفة الأشياء ومعرفة الحق سبحانه وتعالى؛ فإن الأشياء كلها عنده مجرَّد تقديراتٍ وتصويراتٍ قائمة به تعالى الذي هو مقدِّرها ومُصوِّرها لا مبنيٌّ ذلك على اصطلاح غيره من أن الأشياء كلها أعراضٌ وأجسامٌ مستقلةٌ بنفسها في الوجود لها الاستناد العقلي إلى الحق تعالى بالإيجاد؛ فإن الوجود في اصطلاح الشيخ الأكبر واحدٌ، وهو: الوجود الحقيقي لله تعالى حقيقةً ولغيره بطريق المجاز الذي هو استعمال الشيء في غير ما هو له، فالأشياء كلها عنده يقال لها: موجودات بطريق المجاز، والوجود المنسوب إليها نسبةً مجازيةً عدم محضٍ، وإنما الوجود الحقيقي الذي هو مستعملٌ فيما هو له إنما هو وجود الله تعالى، واصطلاحه هو الذي جاءت به نصوص الكتاب والسنَّة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88]: أي ذاته.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26،27]: أي ذاته سبحانه وتعالى، وذاته سبحانه وتعالى هو الوجود الحقيقي الواحد الأحد، الحق المطلق المنـــزه عن مشابهة كل شيءٍ، والأشياء كلها هي الهالكة الفانية في حدِّ ذاتها، وقال ﷺ: «كانَ الله ولا شيءَ معه، وهو الآن على ما عليه كانَ[1]».

وقال ﷺ: «أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعر لُبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ[2]».

والباطل خلاف الحق، والله سبحانه وتعالى هو الحق، والأشياء كلها هي الباطل، فكل

(1) رواه البخاري (1166/3)، والحكيم الترمذي في النوادر (104/4)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (171/2) بنحوه.

(2) رواه البخاري (1395/3)، ومسلم (1768/4)، والترمذي (140/5)، وأحمد (248/2).

شيءٍ عينه من حيث الوجود القائم به ذلك الشيء، وذلك الشيء غيره سبحانه وتعالى من حيث الصورة والشيئية الهالكة الفانية، فَصدَقَ حينئذٍ عند العارف أنه تعالى أوجد الأشياء وهو عينها: أي عين وجودها التي هي موجودةٌ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل انتهى.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه «اليواقيت والجواهر»: ومما أنكره المتعقِّبون على الشيخ بحسب الإشاعة قولهم: أن الشيخ محيي الدين يقول بفساد قول لا إله إلا الله، وذلك كفرٌ.

والجواب بتقدير صحة ذلك عنه: إن المراد أن الحق سبحانه وتعالى ثابتٌ في الألوهية قبل إثبات المثبت، ومن كان ثابتًا لا يحتاج إلى إثباتك؛ إذ ما ثمة من تثبت ألوهيته من الخلق حتى يُنفى، وإنما تعبَّد الله المؤمن بذلك على سبيل التلاوة؛ ليأجره الله على ذلك، وحاشا الشيخ أن يصرِّح بفساد قول لا إله إلا الله هذا لا يقوله عاقلٌ؛ لأنها من القرآن العظيم؛ فافهم.

ومن ذلك دعوى المنكرات الشيخ يقول في كتبه مرارًا: لا موجود إلا الله.

والجواب: أن معنى ذلك بتقدير صحته عنه: أنه لا موجود قائمٌ بنفسه إلا هو سبحانه وتعالى وما سواه قائمٌ بغيره، كما أشار إليه:

(ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ).

ومن كان حقيقته كذلك فهو إلى العدم أقرب؛ إذ هو وجودٌ مسبوقٌ بعدمٍ، وفي حال وجوده مترددٌ بين وجودٍ وعدمٍ لا يخلص لأحد الطرفين، فإن صحَّ أن الشيخ قال: لا موجود إلا الله، فإن ذلك عند من تلاشت عنده الكائنات حين شهوده الحق سبحانه وتعالى بقلبه كما قال أبو القاسم الجنيد: مَنْ شَهِدَ الحق لم يرَ الخلق.

ومن ذلك دعوى المنكرات، الشيخ محيي الدين جعل الحق تعالى الخلق واحدًا في قوله في بعض نظمه:

فيحمدنِــــي وأحمـــــدهُ ويعبدُنِــــــي وأعـــــبدُهُ

والجواب: بتقدير صحته عنه أن معنى يحمدني: يشكرني إذا أطعته كما في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152].

وأمَّا قول الشيخ: ويعبدني: أي يُطيعني بإجابة دعائي، كما قال تعالى: ﴿لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: 60]: أي لا تطيعوه، وإلا فليس أحدٌ يعبد الشيطان كما يعبد الله تعالى؛ فافهم.

وقد ذكر في الباب السابع والخمسين وخمسمائة من «الفتوحات المكية» بعد كلامٍ طويلٍ ما نصُّه: وهذا يدلُّك صريحًا على أن العالم ما هو عين الحق؛ إذ لو كان عين الحق تعالى ما صحَّ كون الحق بديعًا انتهى، والله أعلم.

ومن ذلك دعوى المنكر بأن الشيخ يقول بقبول إيمان فرعون، وذلك كَذِبٌ وافتراءٌ على الشيخ. فقد صرَّح الشيخ في الباب الثاني والستين من «الفتوحات»: بأنَّ فرعون من أهل النار الذين لا يخرجون منها أبد الآبدين، والفتوحات من آخر مؤلفاته؛ فإنه فرغ منها قبل موته بنحو ثلاث سنين.

قال شيخ الإسلام الخالدي: والشيخ محيي الدين بتقدير صدور ذلك عنه لم ينفرد به، بل ذهب جمعٌ كثير من السَّلف إلى قبول إيمانه؛ لما حكى الله تعالى عنه أنه قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين، وكان ذلك القول آخر عهده بالدنيا.

وقال أبو بكر الباقلاني: قبول إيمانه هو الأقوى من حيث الاستدلال، ولم يرد لنا نصٌّ صريحٌ أنه مات على كفره انتهى.

ودليل جمهور السلف والخلف على أنه آمن عند اليأس، وإيمان أهل اليأس لا يُقبل، والله أعلم انتهى.

قال الفاضل بن حجر في «الزَّواجر»: فإن قلت: قد قال الإمام العارف المحقِّق محيي الدين بن العربي في «فتوحاته»: بصحة الإيمان عند الاضطرار، وأن فرعون مؤمنٌ.

قلت: هذا كلامٌ مقررٌ، وإن كنَّا نعتقد جلالة قائله فإن العصمة ليست إلا للأنبياء.

ولقد قال الإمام مالك وغيره: ما من أحدٍ إلا مأخوذٌ من قوله ومردودٌ عليه إلا صاحب هذا القبر: يعني النبي ﷺ، على أنه قد نقل عن بعض كتب ذلك الإمام أنه قد صرَّح فيها بأن فرعون مع هامان وقارون في النار، وإذا اختلف كلام العام فيؤخذ منه بما يوافق الأدلة الظاهرة ويعرض عمَّا خالفها انتهى.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه «اليواقيت»: ومن ذلك دعوى المنكر أن الشيخ يقول: بإباحة المكث للجُنب في المسجدِ، فإن صحَّ ذلك عن الشيخ فهو موافقٌ فيه لابن عباس والإمام أحمد بن حنبل، وهو مذهب الإمام المزني وجماعةٍ من التابعين والفقهاء فقول المنكر أن الشيخ خالف في ذلك الشريعة وأقوال الأئمة المجتهدين مردودٌ.

ومن ذلك دعوى المنكر أن الشيخ يقول: إن الولي أفضل من الرسول.

والجواب: أن الشيخ لم يقل ذلك، وإنما قال: اختلف الناس في نبوة النبي وولايته أيهما أفضل؟ والذي أقول به: إن ولايته أفضل لشرف المتعلق به، ودوامها في الدنيا والآخرة بخلاف الرسالة؛ فإنها تتعلق بالخلق، وتنقضي بانقضاء التكليف انتهى.

ووافقه على ذلك عز الدين بن عبد السلام، فالكلام في رسالة النبي مع ولايته لا في رسالته، ونبوَّته مع ولاية غيره؛ فافهم.

وبقي مسائل كثيرةٌ نُسبت للشيخ، وسيأتي بيان أنها افتراءٌ وكذبٌ على الشيخ، منبوذةٌ في مباحثها، وفي المثل السَّائر، وَيَعْيَا المداري في طريق المخالف، والله أعلم، انتهى ما ذكره في كتاب «اليواقيت والجواهر».

وقد ذكر رحمه الله تعالى بيان افتراء تلك المسائل على الشيخ في مباحثها، فلا نطوِّل الكلام بذكرها.

وسُئل الإمام النووي عن الشيخ محي الدين فقال: تلك أمةٌ قد خلت، ولكن الذي عندنا أنه يحرم على كل عاقلٍ أن يُسيء الظن بأحدٍ من أولياء الله تعالى، ويجب عليه أن يؤوِّل أقوالهم وأفعالهم ما دام لم يلحقْ بدرجتهم، ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق.

وقال رحمه الله تعالى في «شرح المهذب»: وإذا أوِّل كلامهم فيُؤول إلى سبعين وجهًا، فإن لم يقبل كلامهم تأويلاً منها فليرجع على نفسه باللوم، ويقول: يحتمل كلام أخيك المسلم سبعين وجهًا، ولا تقبل منه تأويلاً واحدًا ما ذاك إلا تَعنُّدٌ وتعقُّبُ انتهى.

قال اليافعي في كتابه «نشر المحاسن»:

اعلم وفَّقنا الله تعالى وإيَّاك لفهم الحق واتِّباعه وَجَعَلنا جميعًا ممن انتفع به ونفع الغير بانتفاعه أن القوم وردوا بحرًا ليس له ساحلٌ، وكل أحدٍ من المنكرين عليهم من ذلك المورد ما حلَّ، وبما فيه من جواهر المعارف والأسرار والحِكَم جاهلٌ، وسُقوا بكؤوس الوصل راح المحبة التي لم يشمَّ ريحها مَن لم يقضِ من قتل نفسه بحبِّه، فأخذ ينكر عليهم مَنْ لم يعرف تلك الجواهر التي لا يعرفها إلا من هو في ذلك البحر ماهرٌ؛ وذلك لجهله بالأسرار التي في تلك المعارف، والرَّاح التي في تلك المغارف.

فإن الشَّطح الصادر عنهم منه ما وقع منهم في حال السكر والغيبة بواردات الأحوال، والسُّكر سببٌ مباحٌ يُسقط التكليف بالشرع بالشرط المعروف في كتب الفقه، ومنه ما صدر منهم على سبيل الحكاية عن الله ﷻ.

قال الشيخ شهاب الدين السهروردي في «عوارف المعارف»:

وما يُحكى عن أبي يزيد قوله: (سبحاني ما أعظم شاني) أن يعتقد في أبي يزيد أنه

يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله ﷻ.

قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله: (أنا الحق)(1).

وممن قال أن هذا القول صَدَرَ عنه في حال السُكر الشيخ عبد القادر الكيلاني، ومنه ما أمروا به، فصدر عنهم امتثالاً للأمر، ويكون ذلك الأمر تنويهًا بفضلهم، وبيانًا لعلوٌ شأنهم، وتعريفًا للجاهل بكِبَر قدرهم، وإرشادًا إلى التعلُّق بهم، والتوسل برفيع جاههم، وغير ذلك من الصالح، ومن ذلك قول الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه:

«قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله».

وشطحات المشايخ كثيرةٌ جدًّا، فكل ما بلغك عن أحدٍ منهم مِنْ شطحٍ فاحمله على أحد المحامل المذكورة على حسب ما يليق بحاله تسلم وتغنم إن شاء الله تعالى انتهى.

والحاصل: فما أعظم ما ذكره الشيخ مصطفى البكري، شيخ الطريقة الخلوتية، وإمام السادة الصوفية، في كتابه السيوف الحداد، بقوله:

هـــذا مع أن تلك الشطحات مؤولة، وعن مؤدى اللفظ الظاهري إلى ما يليق محولة، ولهم كتبٌ في الألفاظ المصطلح عليها كثيرة، فكيف يفهم من لم يدرِ رموزهم العسيرة،

(1) قلت: وقيل لأبي القاسم الجنيد قَدَّس الله روحه: إن أبا يـــزيد يسرف في الكلام. قال: وما بلغكم عن إسرافه في كلامه؟ قيل يقول: «سبحاني سبحاني ما أعظم شاني».

فقال الجنيد: إن الرجل مستهلكٌ في شهود الإجلال، فنطق بما استهلكه؛ لذهوله في الحق عن رؤيته إيَّاه، فلم يشهد إلا الحق تعالى، فنعته، فنطق به، ولم يكن من علم ما سواه ولا من التعبير عنه ضنًّا من الحق به، ألم تسمعوا مجنـــون بني عامـــر لما سئل عـــن اسم نفسه فقال: ليلى، فنطق بنفسه، ولم يكن من شهوده إيـــّاه فيه، وقيـــل لـــه: من أنـــت؟ قال: أنا من ليلى ومن ليلى أنا. وانظر: روضة الحبور ومعدن السرور في مناقب الجنيد وأبي يزيد طيفور (بتحقيقنا).

وقال الشيخ أبو النصر السراج رحمه الله: وقد قصدت بسطام فسألت جماعة من أهل بيت أبي يزيد عن هذه الحكاية فأنكروا ذلك، وعلى تقدير صحة ذلك، فنقول: قوله سبحاني سبحاني على معنى الحكاية عن الله ﷻ أنه يقول: سبحاني سبحاني لأنا لو سمعنا رجل يقول: لا إله إلا أنا فاعبدني، لا يختلج في قلوبنا شيء غير أنا نعلم أنه هو ذا يقرأ القرآن، أو هو يصف الله بما وصف به نفسه، وكذلك لو سمعنا دائما أبا يـــزيد وغيره وهو يقول: سبحاني سبحاني، لم نشك أنه يسبح الله ويصفه بما وصف به نفسه.

وكذا قال: الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف: وما يحكى عن أبي يزيد قوله: سبحاني حاشا لله أن يعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى.

قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله أنا الحق. وانظر كتابنا في الإمام الجنيد قدس سره.

وضعوها غيرةً على الأسرار أن تُذاع لدى الأشرار.

قـــال سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي في رسالته المُسمَّاة بـــ «إيضاح المقصود في معنى وحدة الوجود»[1]:

والحاصل أن جميع علماء الظاهر لا حق معهم في الطعن على القائلين بوحدة الوجود مـــن المحققين العارفين، القائلين بذلك على وجه الحق والصواب كما ذكرنا، أما القائلين بوحدة الوجود من الجهلة الغافلين والزنادقة الملحدين، الزاعمين بأن وجودهم المفروض المقـــدر هو بعينه وجود الله تعالى، وذواتهم المفروضة المقدرة هي بعينها ذات الله تعالى، وصـــفاتهم المفروضـــة المقدرة هي بعينها صفات الله تعالى، الذين يحتالون بذلك على إســـقاط الأحكـــام الشرعية عنهم، وإبطال الملّة المحمدية، وإزالة التكليف عن نفوسهم، فالطعن عليهم بسبب القول بوحدة الوجود على هذا المعنى الفاسد طعن صحيح، وعلماء الظاهر مثابون بذلك كمال الثواب من الملك الوهَّاب، والعارفون المحققون في هذا الطعن من غير خلافٍ قد أشار إليهم الشيخ عبد الكريم الجيلي، قدَّس الله سرَّه، في كتابه المُسمَّى شرح الخلوة في أوائله من الوصايا[2] حيث قال:

«يا أخي.. قد سافرت إلى أقصى البلاد، وعاشرت أصناف العباد، فما رأت عيني ولا سمعـــت أذني أشر ولا أقبح ولا أبعد عن جناب الحق تعالى من طائفةٍ تدَّعي أنها من كُمَّل الصوفية، وتنسب نفسها إلى الكمَّل وتظهر بصورتهم، ومع هذا لا تؤمن بالله ورسله ولا بالـــيوم الآخر، ولا تتقيَّد بالتكاليف الشرعية، وتقرر أحوال الرسل وما جاءوا به بوجهٍ لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، فكيف من وصل إلى مراتب الكشف والعيان؟ ورأيـــنا مـــنهم جماعـــة كثيرة من أكابرهم في بلاد أذربيجان[3] وشروان[4] وجيلان[5]

---

(1) انظر: إيضاح المقصود (ص 66) تحقيق الأستاذ سعيد عبد الفتاح (طبع الآفاق العربية) مصر.

(2) شرح الخلوة للإمام الجيلي (مخطوط)، وأما كتاب الخلوة للشيخ الأكبر فمطبوع.

(3) هي ناحية واسعة بين قهستان، وإيران، بها مدن كثيرة، وقرى وجبال، وانظر: آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني (ص 284).

(4) هي ناحية قرب باب الأبواب، قيل: قصة موسى والخضر عليهما السلام كانت بها، وقيل غير ذلك، وانظر: آثار البلاد (ص 600).

(5) غيضة بين قزوين وبحر الخزر، صعبة المسالك لكثرة ما بها من الجبال والوهاد والأشجار والمياه، وانظر: آثار البلاد (ص 353).

وخراسان[1]، لعن الله جميعهم[2].

فـــالله الله يـــا أخـــي.. لا تسكن في قرية فيها واحد من هذه الطائفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: 25]، وإن لم يتيسر لك فاجـــتهد ألا تـــراهم ولا تجـــاورهم، فكيف أن تعاشرهم وتخالطهم، وإن لم تفعل فما نصحت نفسك، والله الهادي».

وقـــال الجنـــيد ﷺ لرجلٍ ذكر المعرفة وقال: «أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرُّب إلى الله تعالى فقال الجنيد قدس الله سره:

إن هـــذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحـــسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها»[3].

وقال ﷺ: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ[4].

وقال ﷺ: «من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة»[5].

وقال ﷺ: «ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات»[6].

وقال ﷺ: «رأيت في المنام أني أتكلم على الناس، فوقف عليَّ ملكٌ فقال: ما أقرب مـــا تقرَّب به المتقربون إلى الله تعالى؟ فقلت: بعملٍ خفيٍّ بميزان، وفي قولي وهو يقول:

---

(1) هي بلاد مشهورة شرقيها ما وراء النهر، قصبتها: مرو، وهراة، وبلخ، ونيسابور. وهي من أحسن أرض الله وأعمرها، وأكثرها خيرًا، وانظر: آثار البلاد (ص 361).

(2) هذه الدعوة من الشيخ الجيلي لها الأثر الشديد على الكاذبين منهم بلا شك.

(3) انظر: الحلية (278/10)، وطبقات الصوفية (ص 159)، والرسالة (605/2)، وروضة الحبور (ص 120) بتحقيقنا، وكتابنا الإمام الجنيد (ص 265) بتحقيقنا.

(4) انظر: طبقات الصوفية (ص 159)، والرسالة (106/1)، وطبقات الشافعية للسبكي (263/2)، والاستقامة لابن تيمية (ص 97)، وكتابنا الإمام الجنيد (ص 146).

(5) انظر: اللمع (ص 144)، والرسالة (107/1)، وتاريخ بغداد (243/7)، وسير أعلام النبلاء (14/ 67)، ومدارج السالكين لابن قيم (119/3)، وكتابنا الجنيد (ص 160).

(6) انظر: الحلية (277/10)، والرسالة (106/1)، وطبقات الصوفية (ص 158)، وتاريخ بغداد (7/ 246)، وطبقات الحنابلة (127/1)، وطبقات الشافعية الكبرى (266/2)، وذم الهوى لابن الجوزي (ص 51)، وروضة الحبور (ص 119) بتحقيقنا، وكتابنا في الجنيد (ص 238).

كلامٌ موفقٌ والله، وقيل له: من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأومأ إلى درجةٍ في داره»[1].

ورُئـي في يـده سبحة فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة؟ فقال: طريق وصلت به إلى الله تعالى لا أفارقه أبدًا [2].

وكـان يدخل كل يومٍ حانوته ويسبل الستر، ويصلِّي أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته، كذا في الرسالة القشيرية[3].

فانظر يا أخي بعين الإنصاف إلى حال هؤلاء الزنادقة، وما هم عليه من سوء الاعتقاد مـع ادِّعـائهم المعرفة بالله تعالى التي هي أعز منالاً من بيض الأنوق ومن مناط العيوق، وحال السلف الصالح تجد بينهم من البون كما بين النور والظلام، والعلم والجهل التام.

فإن القوم تخلَّقوا وهؤلاء تشدَّقوا، وأولئك اتَّبعوا وهؤلاء ابتدعوا، وأولئك على الحق ائتلفوا وهؤلاء اختلفوا، والقوم ساروا وما وقفوا وهؤلاء وقفوا وتخلفوا، أجمع أهل الحق على اتِّباع الشريعة فخالفوهم، وعلى مخالفة الشيطان وجنوده فحالفوهم.

وقد قلت سابقًا محذرًا من هذه الطائفة التي عليها دَوائر السوء دائرة وبها طائفة.

حمـى أهـل ذَاكَ الحي مِنْ حله رقَا   وعـند أخَـا العـرْفَانِ يرتحلُ الشَّقَا
حمـى مَـنْ بِـهِ قد حل جَل مناقبًا   فدونكـه يَـا طَالـب الوصل واللقا
وعربد على الصَّاحِي بسكرِكَ إن تَكُنْ   برشفِ اللمى قَدْ فُزْتَ أَوْ جزتَ بالنقَا
وكُـنْ يَـا فَتَـى ممـن بِشدَّةِ بَأسِهِ   لمقلـة بعـد الحبُّ بالوصلِ قَدْ فَقَا
وعادي لمن قد لامَ فِي شربِ خمرهم   وصـافي لمن كأس التَّصَابِي قد سَقَا
وكُنْ أحمدي الشُّرب صَافٍ من الرُّدا   وإيَّـاكَ أَنْ تلـوي عَلَـى مَنْ تَزَنْدَقَا
وشـم نسيم القرب من عرف بأنهم   وكُـنْ مـن الحِمَا ممن يحق تحققَا
فهـذا شـرابٌ لم يـشبه مـدنس   تـصفي عـن الأمشاج قدمًا وعتقَا
فلُـذْ في حِمَـى ليلى لعلَّكَ تحتَمِي   وتـصبح مـن قيدِ الأجانبِ مطلقَا

---

(1) انظر: الرسالة للقشيري (726/2)، والإحياء للغزالي (508/4)، والحبور (ص 113) بتحقيقنا، والإمام الجنيد (ص 287).

(2) انظر: الرسالة (108/1)، وتاريخ بغداد (245/7)، وطبقات الأولياء (ص 128)، والإمام الجنيد سيد الطائفتين (ص 223).

(3) انظر: الرسالة (108/1)، وكتابنا الجنيد (ص 90).

ولا تلـتفتْ فِـي الحبُّ عَنْ ذَا لغيره ... فَفِـي غـيرِهِ الـسم الزعاف تدفقَا
فهـذَا هـو القـولُ الصحيحُ فثقْ بِهِ ... وخُـذْهُ بِـصِدْقٍ كِـي تكون محققَا
وصـلِّ وسـلِّم كلّمَـا هبَّت الصبا ... علـى المصطفى من تابعيه الأساوقَا
كَـذَا الآل والأصحـاب ثم وتابـع ... مـدى الدهـر ما عود الأراكة أورقَا

واعلم يا أخي أني ذكرت في أول الألفية عقدة مجملة وفيَّة، وقلت بعدها:

وقَـدْ بـرئنَا مِـنْ فتى يخالفُ ... كـنـز الهُدى وللعِدَا يحالفُ
وإنْ يَكُـنْ زورًا إليـنَا انتـسبا ... ومَـا انتحى جهلاً لنا قد نسبا
فـإن مَنْ وافقـه صـديـق ... ومن يَكُـنْ خالفـه زنـديق

وإن ممن يحفظون بعض مشكلات كلامه الواردة في نثره ونظامه قدوة العارفين سلطان المحققين: سيدي محيي الدين بن العربي، النور الأزهر، والشيخ الأكبر ﷺ.

ومن المعلوم أن مشكل كلام العارفين يُراد منه الإشارة لا العبارة؛ لأن علوم الأذواق من فوق طور العقل، وإن أُشير إليها في بطون الأوراق.

قال سيدي عمر قدَّس الله سرَّه: وثم وراء النقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة، فكيف يقبل العقل المعقول بعقال الشهوات كلام من خلصوا مذ أخلصوا منها ومن الشهوات؟ ومن أراد من العامة ذلك فهو كمن أورى زنادًا على غير حجرٍ، أو ابتغى نفخ ضرم على ماء يتفجر.

هذا وكلام العارفين كالعرائس، لا تُجلى معانيه إلا على كفئها، ومخدرات مبانيه لا تُتلى إلى على من صفا من الأكدار واستقى من صفوها، كيف يمكن الجعلان أو نبت الورد إن شم عرف الطيب، أم كيف يبصر الشمس خفاش، أو ذو رمدٍ أعيا الطبيب.

ولنذكر لك قدرًا يسيرًا من كلام هذا الهمام الإمام المقدام؛ لنجعله أصلاً ترد إليه ما اشتبه عليك من كلامه، وما لا تفهم منه، فدعه لأهله الذين يفهمونه على مراده ومرامه.

وقد ذكر الشيخ عقيدته في أول فتوحاته؛ ليرجع العارف إليها ما خالفها من ظواهر كلماته فنقول: قال ﷺ في كتاب «العبادلة»:

من أراد أن يعرف ما عنده من معرفة ربه فلينظر إلى ما عنده من الوقوف عند رسومه وزنًا بوزنٍ، فإن استغرقت أنفاسه المعاملات ظاهرة وباطنة فقد شرب المعرفة بالله تعالى شربًا، ولقرض المقاريض والإحراق بالنار أهون على العارف من أن يمر عليه نفس في غير طاعة الله، ولو بُشِّر بالغفران والتجاوز عن ذلك النفس، فإن أعمال العارفين ما قامت على

طلب الأعواض، وإنما قامت على ما يقتضيه الأمر في نفسه، فشتان بين العبادتين، يقول العارف: الله، فيحرق بنفسه كل ما سوى الله: لكن في حاله لا في مقامه.

وقال فيه: ما ثمَّ إلا موافقة ومخالفة، فبالموافقة ينال القرب الإلهي وتُرفع الحجب، وبالمخالفة يكون البُعْد الإلهي وإرسال الحجب؛ إذ هو القريب البعيد.

وقال فيه: السعيد: من إذا صلَّى العشاء الأخيرة جعل صحيفة أعماله في ذلك اليوم بين يديه، ونظر فيها فإذا رأى ما يطلب الشكر شكر، وما يطلب الاستغفار استغفر، وما يطلب التوبة تاب، إلى أن يفرغ، ثم يطوي الصحيفة وينام على شكرٍ واستغفارٍ وتوبةٍ، يفعل ذلك كل ليلةٍ. فإنه لا يدري متى يفجأه الموت.

هكذا كان فعل شيخنا أبي عبد الله بن مجاهد بإشبيلية، إلى أن مات، وولي مكانه ومجلس تدريسه شيخنا أيضًا أبو عبد الله بن قسوم، ونعم ابن قسوم زاد على شيخه في الاجتهاد، وأربى والتزم هذه الطريقة: أي محاسبة نفسه في كل ليلةٍ، وكنت كثيرًا ما أغشاه، ويوصيني بما أفعله في ديني رحمه الله.

وعلى هذه الطريقة رأيت أبا عمران موسى بن عمران المسيريلي، من أكابر أصحاب الشيخ أبي عبد الله بن مجاهد المذكور، وكان لديه أدب كثير وطلب، ومما أنشد به لنفسه من أبياتٍ له خرجت عن خاطري في هذا الوقت، وهي لزومية كتبها لي بخطه ﷺ منها:

فأنت ابنُ عمران موسى المسيء ولست ابن عمران موسى الكليمَا

وكان يؤم بمسجد الرِّضا بإشبيلية، ويعرف ذلك المسجد أهل البلد بالكنيسة المرحومة، فالتزمت هذه الطريقة، ورأيت لها البركة أعني: محاسبة النفس.

وقال في رسالة الكنه فيما لا بدَّ للمريد منه: «ومما لا بدَّ منه محاسبة نفسك ومراعاة خواطرك مع الأنات، وأشعر بالحياء من الله تعالى في قلبك، فإنك إذا استحييت من الله منعت قلبك أن يخطر فيه خاطر يذمه الله، أو تتحرك بحركةٍ لا يرضاها الله، ولقد كان لنا شيخ يقيِّد حركاته في نهاره في كتابٍ، فإذا أمسى جعل صحيفته بين يديه، وحاسب نفسه على ما فيها، وزدت أنا على شيخي بتقييد خواطري».

وهذه الرسالة ينبغي لكل مريدٍ ناصح نفسه أن يلتزم بما فيها، كما ينبغي لكل من يدَّعي المعرفة أن يطلع كتابه المُسمَّى بـ «روح القدس في مناصحة النفس»، فإنه نصح فيه وبالغ في النصيحة، جعل الله موازينه رجيحة، ومن أراد أن يستكشف عن زوايا أسرار الآداب المحمدية وما فيها من الخبايا فليداب على مطالعة آخر أبواب فتوحاته، وهو باب الوصاية، ومن أراد شرب الرحيق المختوم فليتحقق بكتابه مواقع النجوم، وكتبه ﷺ كلها

نافعة، وللحجب رافعة، غير أن طعام الرجال يضرِ بالأطفال، فإذا طالع المريد كتبهَ التي تنـــزل فيها لأفهام القاصرين، ورزق نوع الفهم بحسن الاتُّباع والتسليم للكاملين، جاز له مطالعة غيرها من كتب الحقائق المفصحة عن عجائب الرقائق.

ولقد ألفت رسالة في لزوم صون الأسرار عن القاصرين وأهل الإنكار، وسميتها: «تشييد المكانة لمن حفظ الأمانة».

وقال الشيخ ﷺ في شرح اليوسفية عند قول المؤلف[1]: فالزم الباب، ولا تخل بشيءٍ من آداب الشرع أصلاً، فإن أخللت بشيءٍ من الآداب أنت أو غيرك كانت العقوبة إليك سريعة، فالزمْ حلقة الباب، وزنْ حركاتك بميزان الشرع.

يقول لك في وصيته بلزوم الباب وحلقته ما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: 256]، وهو من حلقة الباب، وذلك هو الإيمان، والباب الإسلام، وبالباب وحلقته تكون السعادة للعبد، وإنما قيد الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

فإنه يقول في حق قوم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [العنكبوت: 52] فسمَّاهم مؤمنين، كما قال: ﴿يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [البقرة: 256] فسمَّاهم كافرين، كما سمى الكافر بالله كافرًا، فلما وقع الاشتراك في الاسم لذلك قيد بيانًا لغاية الإطلاق.

واعلم أن الآداب جماع الخير، والشرع ما شرع الله، ففي الشرع جماع الخير، فإن الطريق إليه لا يُعرف إلا منه، فإنه ليس لمخلوقٍ أن يحكم فيما يقرب إلى الله إلا بروائح مكارم الأخلاق، فإن الصورة الإلهية تعطي ذلك، ولهذا يجني ثمرتها المؤمن صاحب الجنة والمخلد في النار لا بدَّ من ذلك، ولما كان الأمر كما قلنا لذلك أمرك بالآداب الشرعية؛ لتكون بها في الدار المسمَّاة جنة.

وأما صورة الوزن بين الحكم المشروع وبين أفعال المكلفين، فالعلم بذلك موقوفٌ على العلم بالشرع، والشرع على قسمين:

ثابتٌ يناقضه شرع ثابت، وهو ما وقع فيه الاختلاف بين المجتهدين.

وشـــرعٌ جامعٌ وهو ما أجمعوا عليه، فالإنسان يحتاط أبدًا، ولا يزال أبدًا يميل إلى ما وقع فيه الإجماع، كالقصر في الصلاة للمسافر، والفطر للمسافر في رمضان، ودخول مكة لمن لا هدي معه بعجزه دون حج، وترك نكاح الربيبة التي ليست في الحجر، وترك شرب

---

(1) وهي تسمى: شرح روحانية الكردي أيضًا، تحت قيد الطبع بتحقيقنا.

النبـــيذ وأمثال ذلك، وهذا هو طريق العزائم، فأمرك ألا تجنح إلى تأويلٍ مع قدرتك على مـــثل هذا: أي لا يكون في عملٍ مشروعٍ ينقضه عليه شرع آخر والشارع واحد، وأكثر من هذه النصيحة من هذا الرجل في مثل هذا الأمر لا يكون، والله أعلم.

قال ﷺ في رسالة القربة: «فالله الله. لا تنبذوا حكمًا ولا تعدوا حدًّا من الحدود المعلومة عند علماء الرسوم، وإن اختلفوا في ذلك وحرَّم الواحد عين ما حلله الآخر فلا تقلد هذا الرسمي في شيءٍ من ذلك ولا تخالفه، واعمل بما توجه عليك في وقتك مما فيه سلامتك، واشتغل بنفسك شغلاً كليًّا، واهرب إلى محل إجماعهم، فإن لم تجد إجماعًا فكن مع أكثرهم، فإن لم تجد كثرة فكن مع أصحاب الحديث في تلك المسألة المطلوبة، وقلَّ أن يحتاج أهل الطريق إلى مثل هذا؛ لأنهم زهدوا في الدنيا فقلَّ الحكم عليهم».

أخبرني شيخنا الشيخ محمد الخليلي حفظه الله تعالى قال: كنت أعمل على مراعاة المذاهب، وأتبع محل الإجماع منها فأعمل به، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله، هل العمل بالمتفق عليه من شريعتك أولى أو المختلف فيه؟ قال: فانتهرني وقال: «لا تسأل».

ففهمت منه أنه لم يرضَ بهذا السؤال، ثم أُلهمت فقلت له: قد فهمت مرادك يا رسول الله، المتفق عليه من شريعتك، والمختلف فيه من شريعتك، والكل من عند الله، قال: هكذا قل... وما ضلوا به وأضلوا هؤلاء اللئام قولهم: إن الشريعة جعلها الله ستارة على الحقيقة لأجل العوام، وليس المراد من الصلاة إلا الوصلة، والصيام يُراد به الإمساك عن رؤية السوى، والحج: القصد إلى الله، وعرفات يُراد به جبل المعرفة، واستدلوا على ذلك بعبارات العارفين، وهم إنما أرادوا ذكر المعنى الباطني، فإن كل شيءٍ له ظاهر وباطن، فالمتمسك بالظاهر من النصوص فرقة ضالة يُقال لها: «الظاهرية»، والمتمسك بباطنها فرقة أخرى ضالة يُقال لها: «الباطنية».

والجامع بين الظاهر والباطن هم أهل السُّنة والجماعة، الذين فرقتهم لكل خيرٍ جامعة، وكُمَّل هذه الطائفة هم الصوفية الأبرار والسادة الأخيار.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا

* * *

الرسالة الفقيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وسلم كثيرًا

وله ﷺ:

سـألتني أنعـم الله عليـك به به عن الفقر، ولم يُفصح لسانك بما تَصَوَّره جَنانَك، وفهمـت منك أنك أردت الكلام عليه من كل الجهات، وقد أسعفتك في الإنباء عنه من حيث اللغة، والفقه، والعقل، والطريق، فاقتنع بذلك مني حتى يخرج للفعل صَلاحُ نِسبَتِكَ الـصوفية وتمحيصها، ويشيع عند الجميع إصلاح نسبتك الصِّدِّيقيَّة وتصحيحها، وتكون من أولاد الإفادة والاستفادة، ومن أهل الزيادة بخرق العادة وثبوت العبادة، وحينئذٍ أجعل فـيه تأليفًا مختصرًا وجيزًا جامعًا مانعًا قريب التحصيل وصحيح التفصيل، يتضمن غرضه الأقـصى ومنفعته ومرتبته ونسبته ونحو التعليم المستعمل فيه، وما يدل عليه اسمه، ومن الواضع لَه، وما غايته الفاعلة والمنفعلة، وما ماهيته في الكمال الأول والثاني، وكيف يطلق مع العلم المضنون به على أهله باشتراك، ومع الحكمة بترادف، وفي أي وجه هو من أوجه التصوُّف، وأين مرتبته في حبل التحقيق، وأين هو من العوالم التي يتكلم عليها في السفر، التي لم تُسمع قط ولم ينطق بها إلا القرآن خاصةً، ولا سمعه وفهمه إلا خواص الخواص.

فنبدأ بذكر ما وعدتك به، فنقول: الفقر في اللغة يُطلق على أنحاء:

يُقال: افتقر فلان فهو فقيرٌ، وتمسكن فهو مسكينٌ، وتسكن لغة.

ويُقـال: فقير وقير، توكيد للفقر، ورجل مُعْدَم ومُبْقِع ومُمْلِق ومُفْلِس، قال الله ﷻ: ﴿مِّنْ إِمْلاقٍ﴾ [الأنعام: 151].

ومُدْقِـع ومُخِلّ ومُبلط ومُلْقِح ومُخِفّ ومُقْتِر ومُعْوِن ومُسَبْرت وسُبْروت، رجل ذو فاقـة وحاجة وخصاصة وخَلة ومُختل، وفي حبوة، وفي نكال من عيشه، وفي شدةٍ وضُرٍّ يَرِقُّ في شَظَف ووَبَدٍ وجَهْد.

وتقول: بَذَّ الرجل يبد بذاذَة، وبدت حاله فهو باد، وحدَّ فهو محدد، ومحارب ومحروم. وهذا كله لقليل الكسب، وهو أخلق الكسب. وتربت يداه، إذا لزقت للتراب من الحاجة. ورجل معصب ومجدع، جدعه الفقر، ومؤتض.

قال رؤبة بن العجاج:

وهَـلْ يَـرَى ذَا حَاجَـةٍ مُؤتَـضا

وساف مال الرجل إذا ذهب، ورجل مسيف.

قال الشاعر:

أفِـــي نَـــابين نَالهمـــا إِســـافٌ تآلـــت ضَـــلْتي ليـــست تـــنام

وقـــد جزر الدهر ما له، ورجل مجروز، وقد ضنك عيشة ضنكًا وضنوكًا إذا ضاق. ورجل وبد ولزق بالصلة والصلت: الأرض، والصلت: المطر القليل وجمعة صلال.

ويُقـــال: قـــد أصرم الرجل فهو مُصْرِم، إذا أعدم. والفقر ضد الغنى. وهذا الفقر من حيث اللغة قد رسمت لك منه ما فيه الكفاية، فاحفظه وحافظ عليه.

القول على الفقر على حسب رأي الفقهاء:

اعلـــم أن الفقهـــاء يتكلمون في الفقر من حيث الأحكام الشرعية، وينـــزلون لازمه ومدلوله على مفهومه من اللغة، ولا يتصرَّفون فيه بغير ذلك.

والنبيه الفاضل منهم يُسلِّم لأرباب الأحوال من الفقراء الفضلاء، ولمن يتكلم فيه من مقـــام آخـــر أجل من الفقه. والجاهل الغبي منهم ينكر ذلك ويتخطَّى رقاب الصديقين، ويتدلى طعم شيء لم يذقه، وكذا جميع من لم تحذقه العلوم ولا أدَّبته المعارف.

ومـــنهم من يرى أن المسكين أشد حاجة من الفقير، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وزفر والحسن البصري.

ومـــنهم من يرى أن الفقير أشد حاجة من المسكين، وهو مذهب الشافعي والنخعي والزهري.

وقد حُكي ذلك عن سفيان الثوري وعن عمرو بن دينار.

واختلف أهل اللغة في ذلك. فحُكي عن الأصمعي أنه قال مثل قول الشافعي وجميع من قال بقوله.

وعن الفراء وثعلب مثل قول مالك وجميع من قال بقوله.

وذكر ابن الأنباري في «الزاهر» عن أعرابي أنه سُئل: أفقير أنت أم مسكين؟ فقال: لا، بل مسكين، فنبَّه على حاجته بذكر المسكنة.

وحُكي عن الأصمعي أنه شكَّ في الفقير والمسكين هل هما بمعنى واحد، أو هذا غير هذا، وفي تغايرهما بحسب الأشد والأضعف والأقل والأكثر. فاستفهم عن ذلك كله بعض العـــرب وزوجه حاضرة، فقال لَه الأعرابي: قال الله ﷻ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الأنسان: 8].

فقـــدم المسكين على اليتيم والأسير ولم يذكر الفقير. فقالت زوجه: بل الكل فقراء، والمـــسكين فقير الفقراء. وهذا الفقر من حيث الفقه قد تلخص مختصرًا فاحفظه وحافظ

عليه، ولولا خوف التطويل والاحتياط على فهمك وانحفازك للسفر كنتُ أكتب لك في معاملـــة الفقير والفقراء ما لا بُدَّ منه شرعًا، وما يجب على الفقير وما يحرم عليه، وكيف يتـــصرف في طريقه بالأحكام الشرعية على أتم ما ينبغي. وقد يمكن ذلك في وقت آخر بحول الله تعالى.

القول على الفقر من حيث المجرى الصناعي والنظر في ماهيته مجردة بحذف امتحان الألفاظ الدالة ومطابقتها وتخليصها وتلخيصها وتحريرها بالجملة:

ونطلـــق فـــيه ألفاظًا مجملة غير مفسرة، ومهملة غير مخصصة لأجل ضيق الوقت من جهتك وجهته وجهه أهله، فنقول: الفقر فَقْد ما إليه يحتاج.

رسمٌ آخر: الفقر والعدم من الأسماء المترادفة.

رسمٌ آخر: الفقر ليس محضًا، والغنى ليس بإضافة، وبالعكس من حيث ثمرتهما.

رسمٌ آخر: الفقر سلب، والغنى إيجاب، وبالعكس من حيث لواحقهما.

رســـمٌ آخـــر: الفقر ضد الملكة، وبالعكس من حيث الشرط والتضمن إذا نظر في أسباب الكمالات الأُوَل والثواني.

رسمٌ آخر: الفقر ماهية الحادث.

رسمٌ آخر: الفقر آنية الإنصاف عند الغلط بين الممكن الوجود والواجب الوجود.

رســـمٌ آخر: الفقر في الوجود المقيد نفي شيء عن شيءٍ هو لَه، وإثبات شيء لشيء ليس هو له.

رسمٌ آخر: الفقر من الأشياء التي لا يوصف الحق بالقدرة عليها؛ لأن الحق عز وجل هو الغني بالذات وحده، وغيره فقيرٌ بالذات. ومن المحال أن يفعل المحال أو ينفعل أو تنفعل الحقائـــق، ويدخل ما لا يمكن في حقيقة ما يمكن ويماثله، وإنما القدرة تتصرف في الفقر الإضافي الذي جرت به العادة فافهم.

رسمٌ آخر: الفقر نسبة سَنِيَّة ونسبة سُنِّية.

رسمٌ آخر: الفقر حذف الإضافة المساوية وغير المساوية.

رســـمٌ آخر: الفقر صرم المجاز وصرم الانصرام، واقتران تعلق الأول والآخر والظاهر والباطن بالأول من الفقير والآخر والظاهر والباطن وما يلزم عنه ومنه وبه، وجملة الكون في المفارق التالي، وغير المفارق التالي، والرئيس والمرءوس من المسكنات، فافهم.

واعلـــم أن الفقر به تتعلق الإرادة، وفي ماهيته العامة والخاصة تتصرَّف القدرة، وهو الممكن بوجه ما، إذ الإرادة متعلقة ببعض المعلومات، وكذلك القدرة.

فإن الغني المطلق الغنى لا يفعل في ذاته ولا ينفعل لأحدٍ، ولا يمكن ذلك فيه ﷻ، بل هو الفاعل على الإطلاق في غيره على الإطلاق.

ومـــن حقّق هذا علم أن الفقر معقول الملك والملكوت المضاف والحضرة المنفعلة، كمـــا أن الغـــني القائم بنفسه الواجب الوجود هو الملك الثابت، الواحد بالذات من كل الجهات، وحضرته هي الحضرة الفاعلة من كل الجهات متنـــزه العارفين والعالم كله فقير بما فيه من الجسماني والروحاني، فمن كان بالفقر المذكور فقيرًا أو بالغنى المذكور غنيًا، كانَ في الفقر المذكور غنيًّا.

ولعلك يا هذا تقول: العدم لا يفعل ولا ينفعل ولا يُشارِ إليه، وهو بالجملة غير ثابتٍ لا يدركه الحس، ولا يتطرَّق إليه الوهم، ولا يدل عليه الدليل، وأنت قد أطلقته على الفقرِ وعلـــى العالم بأسره، ونحن نشاهده وجميعنا منه وفيه، وهو هذا المشار إليه والمخبر عنه وبه ومنه وإن أردت بالفقر فقر الإضافة والاحتياج إلى الغنى الحق فهذا ظاهر ومعلوم عند الجميع، والبيان عن المعلوم ضرب من الجهل وإن أردت بقولك العدم المحض ما لا يمكن وقوعه، فأنت جاحد الضرورة، أو مُموِّه، أو مُباهِت أو مُمخرِق.

فإن قلت ذلك وقدر أنك تقوله في نفسك أو في محشرك بين معشرك، فاسمع جوابك بالقـــوة ومخاطبـــتك بالفعل من حيث المضمار والتقدير في جملة هذا التقييد وأَصِخْ الآن بِـــسمع قلـــبك إلى ما أشير إليك به ولعلك أن تجد منه هديًا يلقيك على جادة الطريق. وشـــرطي عليك أن لا يقف عليه إلا من هو من خواص خواص الخواص، وأن تكف عن السؤال فيه بالمشافهة، لا تطلب مني مزيد بيان لأن المحال ضيق والتكلم بالألفاظ على أمر هـــو مـــن الأمور التي ليست من جنس ما يكتسب، وهو من الغرابة بحيث لا يفهمه إلا الـــسعداء الأخيار، والكلام بما ليس من شأنه أن يلفظ به خبر وكأني بمن يقف عليه من الجهلة الخفافيش الذين تظلم الشمس والكواكب والأنوار الطبيعية وغير الطبيعية في أعينهم داخـــل الـــذهن وخارج الذهن يتحرك في ميدان سُخْفِه ويظهر محاربة من يحيط ويقهره بالجملـــة ويتحرك في سلسلة جنونه. ويقول لقد أفرطت في تحقيقك وتدقيقك، وعَلّلت وحَلّلـــت وركبت، وقبضت وأرسلت، ودفعت وجذبت، وخصصت وأهملت، وفسرت وأجملت حتى انخلعت عن غريزة العقلاء ورفضت حكم المعقول، فإن من أحكام العقل أن الشيء إما واحد وإما كثير، والمعلوم إما معدوم وإما موجود.

فليتـــعد في غلوائه، وليكف من غرب لسانه، وليتهم نفسه وليتعتبر في العادة الخسيسة والـــشأن الخلـــف والعالم المحسوس الذي هو بين أطباقه بنحو ما اعتبره المتكلم المذكور

حيث كان يتوجه إلى قصده بمقصوده، ثم إلى مقصوده خاصة، ثم إلى بده بحذف الوسائط كلـــها بـــوجه ما فيراه على بعد، ثم يتوجه إليه بقصد آخر وتوجه أكمل فيراه على قرب بالإضـــافة إلى الأول ولا لـــشيء في نفسه. ثم وصل ثم اتصل ثم كان حيث لا مكان ولا زمان ثم خرج عن الكون وعن ذله، ثم انفصل وعلل انفصاله، ثم اتصل وحقق اتصاله، ثم شـــاهد، ثم فـــني، ثم ثبت، ثم وقف، ثم سلب لاسين ثم حصل بلواحقه على قبيل قاب قوســـين، ثم عـــرج به إلى آنيته الجامعة للآنيات، ثم صرف على هويته الداخلة في سائر الهويات[1]، ثم استخلف، ثم ورث، ثم حكم، ثم زود إلى أكثر، ثم بلغ إلى أكبر وأكبر من أن يقال له أكبر، ثم لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم عرف البعض، ثم أنشد في حاله بلسان حاله عقيب ترحاله:

ألا كـــــل شـــــيء   مـــا خـــلا الله باطـــل

ثم التزم الأدب ووكل الكل على الكل، ثم قطع المسبب وأحال البعض على البعض، ثم جـــرد السبب وجمع الفرع على الأصل، ثم فرق المجتمع، ثم أخلص بعد ألف إخلاص جاز عليه وقصد به إليه، وأسلم وآمن بأحكام لم يسمعها قط ولا خطرت على قلبه ولا أبـــصرها بيـــصره ولا ببصيرته ودفع للحق ما يجب له ويجوز عليه ويستحيل في حقه، وقبض من سلعة الخلاص وحكمة القصاص وأسباب السلامة وسير السلام وسلم، وسلم علـــيه، وعلم وعلم به وإليه، وقطع عوالم الذات المجردة ومقامات النفوس المركبة المحددة، وشـــرع في الـــرحلة إلى الحضرة المشار إليها عند الخاصة، ودخل في عباد الله الصالحين، وجعل نهاية نهاية نهاية لأقطاب بداية بداية بداية بدايته - فافهم.!

(1) الهوية بضم الهاء يُراد بها عند الحكماء: الحقيقة الجزئية؛ لأن ما به الشيء هو هو، إن كان جزئيًّا تسمَّى بذلك.

وإن كان كليًّا يُسمَّى بالماهية، وإن لم يعتبر فيه كلية ولا جزئية كان حقيقة، فهي أعم منها.

وهذا المعنى وإن كان صحيحًا في نفسه عند السادة حيث أن الوجود الحق عندهم جزئي لا كلي: أي هو شيء واحد ظهر بكثرة إلا إنهم: أي السادة اصطلحوا على الهوية بأنها الوجود الحق الذي لم يؤخذ بشرط شيء، ولا بشرط لا شيء، فإن الوجود كما قدمنا إما أن يؤخذ لا بشرط شيء، وهو الذات البحت.

وإما إن يؤخذ بشرط شيء ولو كثرة، وهو مقام الجمع المعبر عنه بالواحدية، وإما أن يؤخذ لا بشرط شيء ولا بشرط لا شيء، وهو هذه الهوية السارية بكل شيء، أي شيء كان، وهي الوجود الحق المذكور.

واعلـــم أن جمـــيع ما دون في التصوف والحكمة وغير ذلك مما يجر إلى هذا الشان وجمـــيع ما سمعت من العلوم المضنون بها والحكمة الإشراقية وسر الخلافة ونتيجة النتائج، كل ذلك في الوجه الأول من وجوه التصوف.

والتـــصوف تسعة أوجه، وبعدها حبل التحقيق، وبعد الحبل نبدأ بعالم السفر، وبعد الـــسفر تقـــرع باب التحقيق والنور المبين، والهرامسة خاصة عَلِموه، والكتب المنـــزلة أفادتهم وأما الفلاسفة بأجمعهم ورؤسائهم من المشائين ورئيس المشائين أرسطو وأتباعه من غير ملة الإسلام: ثامسطيوس والإسكندر الأفرودسي وفرفريوس القبرسي وأرسطاليس الـــصقلي وأتـــباعه مـــن ملة الإسلام مثل الفارابي وابن سينا وابن باجه المذكور في آخر «القلائـــد» والقاضـــي ابن رشد في بعض أمره، والسهروردي مؤلف «حكمة الإشراق» والتلقـــيحات والنـــبذ في أكثره، والغزالي بوجه ما، وابن خطيب الرَّي في بعض صنائعه، وجميع النبهاء فإنهم لم يصلوا إليه لقصورهم عنه، ولأن علومهم وصنائعهم دون ذلك كله والله على ما نقول وكيل. والصوفية كذلك إلا السلف الصالح، أعني صحابة سيد السادات محمـــد ﷺ فـــإنهم علمـــوه، ومعلمهم هو العظيم الذي إذا نظر العارف في شأنه وتتبعه وتصفحه وتأمله على ما ينبغي ويجمل به ويصح في حقه علم أن أهل الحق كلهم نقطة من ذكره وذرة من قفره.

وها أنا أذكر لك في العدم والمعدومات والإعدام ما في الكفاية وبعض الجواب الذي وعـــدتك به فتصفحه، والله يخلصك ويخصصك ويجعلك تفعل بإكسير سرك الإنساني الذي إذا جعلته في بوط التوجه والفكر على قلب الشرير داخل الذهن وخارجه، وسبكته بـــنار العلـــم والذكر انقلب في الحين إلى ضده واتصف المحل به وظفر بجده وجهده بمنه وكرمه.

فنقول وبالله التوفيق: العدم يطلق على أنواع كثيرة، أحدها: أن يعدم النوع ما ليس في طبعه أن يوجد له، مثل عدم النبات الحس.

والـــثاني: أن يعـــدم الشيء ما شأنه أن يوجد له في طبعه أو شأن جنسه مثل الإنسان الأعمى، فإنه عدم من البصر ما في طبعه أن يوجد له وفي طبع نوعه أو جنسه، أو يعدم ما شـــأنه أن يوجد له في طبع جنسه لا في طبعه مثل الخفاش، فإنه عَدِمَ من البصر ما في طبع جنسه الذي هو الحيوان أن يوجد له في الوقت.

والذي يعدم ما في طبعه أن يوجد له نوعان: أحدهما أن يعدم الذي شأنه أن يوجد له مـــثل أن يعدم الطفل البصر خارج الرحم أو جرو الكلب في الوقت الذي يفتح فيه عينيه.

والنوع الثاني أن يعدم ما في طبعه أن يوجد له، لكن لا في الوقت الذي شأنه أن يوجد له، مثل عدم الطفل البصر في الرحم، والأسنان في الشهر الأول من مولده.

والعدم بالجملة إما أن ينسب إلى شيء ما في ذاته إذا كان في طبعه ذلك الشيء الذي عدم، وإما أن ينسب الشيء بالإضافة إلى شيء آخر: إما إلى زمان، وإما إلى جنسه، وإما إلى موجود آخر أي موجود اتفق مما يوجد له ذلك الشيء، وكل ما انتزع من الشيء على جهة القهر فقد عدم ما في طبعه أن يوجد له.

وليست المعاني التي تدل عليها حرف السلب على عدد المعاني التي تدل عليها أسماء الإعدام ولا المعدومات، فإنه يقال: «لا مساويًا» لما ليس من شأنه أن يقبل الأصغر والأكبر، وكذلك يقال: «لا لون» فيما ليس من شأنه أن يقبل لونًا ألبتة مثل قولنا في النقطة إنها لا لون لها. وهذه الإعدام ليس لها أسماء لا معدومه ولا عدمية، فافهم.

والمعدوم هو المنتفي، وهذا صحيح؛ لأنه يتميز على الموجود.

وقد يقال: المعدوم ما ليس بشيء، وهذا يطرد وينعكس، لأن ما ليس بشيء فهو معدوم، وما هو شيء فليس بمعدوم. فقد صح رسم المعدوم.

ويقال: إن المعدوم ما ليس بموجود، وهذا أيضًا صحيح، لأن كل ما ليس بموجود فهو معدوم، وما هو موجود ليس بمعدوم. وهذه الرسوم التي ذكرتها لك لا تصح على رأي المعتزلة؛ لأن عندهم أن العدم شيء، فوصفوا المعدوم بأنه شيء، وهذا خروج عن الملة وقول بقدم العالم.

والمعدومات كلها على خمسة أضرب: معدوم لم يوجد ويستحيل وجوده مثل شريك لله تعالى وخلق كلامه وسائر صفاته. هذا معدوم لا يصح وجوده، وهكذا اجتماع الضدين في محل واحد وكون الشيء في مكانين في وقت واحد.

والثاني: معدوم، وقد يصح وجوده وانقضى، وهو كل ما كان في العالم من يوم ابتدي إلى يومنا هذا وقد انقضى من تصرفات الخلق.

والثالث: معدوم لم يوجد ويصح وجوده، ولا يدرى هل يوجد أم لا، مثل مقدورات الله تعالى التي يصح تعلق القدرة بها مثل خلق عالم ثان وثالث وغير ذلك مما يصح تعلق القدرة به.

والرابع: معدوم يصح وجوده ولا يوجد، مثل رد أهل النار وأهل المعاد إلى دار الدنيا. ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28] ولكنهم لا يردون، فأخبر سبحانه أنه جائز ردهم.

والخامس: معدوم لم يوجد ويصح وجوده ويوجد قطعًا، مثل الحشر والنشر والقيامة والحساب والثواب والعقاب وما جرى مجرى ذلك.

وهـــذا التقسيم الذي رسمته لك في أنواع المعدومات لا يصح أكثره عند الفلاسفة إلا بـــوجه مـــا، ونظر آخر مفارق لهذا واسألني عنه مشافهة نخبرك عنه إن شاء الله تعالى. والإعدام ليس بمعنى؛ ولذلك لا يصح أن يتعلق بالفاعل، ولا يصح أن يقال القديم سبحانه خالق فيما يزال قبل خلق العالم، ولا تارك له.

وقالت المعتزلة: الإعدام معنى يخلقه الله لا في مكان فيفنى به العالم. وهذا غلط، لأن الإعدام هو ألا يفعل الفاعل شيئًا وذلك نفي لا يتضمن وجود معنى، ولأن الإعدام لو كان معـــنى لكان يجب ثبوته مع الله في الأزل، وذلك محال. وإذا استحال وجوده فيما لم يزل استحال وجوده فيما يزال. ولا يصح قول من قال إن الإعدام يتعلق بالفاعل، لأن ما ليس بمعنى محدث لا يتعلق بالفاعل.

وهـــذا العدم - أعزك الله - وأنواع المعدومات والإعدام قد رسمته لك، وإن كان في بعـــض ذلك تجاوز ما، ما حملني عليه إلا ضرورة الوقت فقس الكلام الأول بالثاني وفك مُعَمّى المتقدم بالمتأخر وصَرّفه تصريف المثاني وقل: المعلول الذي يعرض له شيئان مثل قولـــنا إن الزامـــر بالمزمار هو بعينه الذي يخيط إذا عرض أن كان الزامر بالمزمار خياطًا يلحق بكلمة الهو هو العرضية، وكذلك يقال في الشيئين اللذين يعرض أحدهما للآخر مثل الطبـــيب والإنسان، فإن الإنسان عرض له الطبيب، أعني أن الإنسان المطلق عرض له أن كان الإنسان الطبيب، والإنسان الطبيب عرض أن كان الإنسان المطلق، ولذلك ما نقول إن الإنـــسان المطلـــق هو بعينه الإنسان الطبيب، وإن الإنسان الطبيب هو بعينه الإنسان المطلـــق، وإن كـــان ذلك كذلك لأن الإنسانية والطبيبية وجدتا لشيء واحد بعينه وهو المـــشار إليه. فلما صدق على جالينوس أنه هو بعينه إنسان وإنسان طبيب، صدق على الـــشبيه بـــذلك أن الإنسان المطلق هو الإنسان الطبيب، وأن الإنسان الطبيب هو بعينه الإنـــسان المطلق، ولذلك إذا دخل على هذا القول السور الكلي لم يصدق عليه أعني أن كـــل إنسان هو بعينه كل إنسان طبيب، وكل إنسان طبيب هو بعينه إنسان، لأن الهو هو بالعـــرض إنمـــا يوجد أولاً بالتحقيق للأمور الجزئيات، ثم يصدق على الأمور الكلية من حيث تشبهها بالجزئيات، أعني إذا أخذ المعنى الكلي كأنه مشار إليه.

وأما الهو هو الذي هو بالذات فيقال على جميع ما يقال عليه الواحد، فإن الأشياء التي عنـــصرها واحـــد إما بالعدد وإما بالصورة يقال فيها إنما هي، وكذلك الأشياء التي هي

واحدة بالصورة فالهو هو بَيِّنٌ من أمره أنه إنما يقال على الأشياء التي هي واحدة من جهة واثنان من جهة، فاعلم ذلك واختبر به ما تقدم واعتبر شأنك كله وجميع ما رسمته لك وانظر في الأمور المقومة وفي الأمور المتممة للأشياء ثم انسُبه للهو هو وجرد المفارق منك للمادة وخلص هويته من حيث هو مفارق، ثم جرده من علامته وحقق ماهيته في الواجب الوجود، واحمل عليه الهو هو، ثم فكر في المحرك الذي يحرك ولا يتحرك، وفي المحرك الذي يحرِّك بجهة ويحرَّك بأخرى، وفي الشيء الذي يحرَّك ولا يحرِّك غيره بوجه ولا يمكن ذلك فيه، وفي الذي يلزم عند كل شيء ويظهر فيه، وفي الذي يلزم مع كل شيء ويظهر فيه فافهم.

وفكر في الذاتيات العامة والخاصة وفكر في الشيء الذي هويته غير آنيته وفي الشيء الذي آنيته وهويته واحدة، وفكر في الذي يفعل في معلوله بذاته وهو أقرب للمعلول من علته القريبة له، وفكر في الذي يلزم في كل شيء ويظهر فيه، وفي الذي يلزم عند كل شيء ويظهر فيه، وفي الذي يلزم بعد كل شيء ويظهر فيه، وفي الذي يلزم مع كل شيء ويظهر فيه، وفي الذي يلزم قبل كل شيء ويظهر فيه من كل الجهات، وفي الذي هو بد كل شيء ويظهر في ماهيته، وفي الذي هو ماهيته كل شيء ويظهر في كل ماهية، وفي الذي هو ولا شيء إلا هو ولا ماهية إلا ماهيته ولا آنية إلا آنيته تجده وحده، وتجد الوحدة غير زائدة على ذاته ووجوده مع الموجودات الممكنة مثل الكلام مع المتكلم ومن المتكلم إذا قطعه انقطع مع أنه لا حقيقة له في نفسه إلا بالموضوع الذي هو فيه وعليه، وتجده إذا نظر إلى ذاته وجد كل شيء عنده بالقوة والفعل وقسم الوجود إلى مطلق ومقيد ومقدر، والتزم في ذلك كله الأدب تسعد وتصعد وتنل الكمالات، وتكن بحيث لا يمكن أن يزاد فيها ولا ينقص منك، ولا يحتاج إلى غيرك الممكن منك، ولا يبقى لك توجه إلا إلى بدك الحق الواحد الحق وحده، ولا يستطيع أحد أن يجعل فيك نقصًا ولا تتركه أنت إن شئت في غيرك، واخدم هويتك الثابتة اللاحقة المسكنة بالهو هو بالوجه الذي ذكرته لك، وبالفقر المذكور بحسب الاصطلاح المذكور تظفر بالعزة والجلال وتكون على عرش كمالك وربك عنك راضٍ، ويحصل في كسبك خمس خواص:

أولها: يظهر لك في اليقظة ما كان يظهر لك في النوم قبل ذلك.

وثانيها: تعلم بجوهرك الذي خرج قبل ذلك الفعل ما كنت تعلمه بالنظر والبحث والروية والفكر.

وثالثها: تقدر على بعض الممكنات بوجه ما وتتصرف فيها بالشيء الذي تسميه عامة

الصوفية همة.

ورابعها: ترد عليك مواهب لا من جنس ما أنت عليه.

وخامسها: تخبر بأمور سنية ثابتة في النظام القديم تكشفها وتسميها حضرة بالضرورة فافهم!

وهذا الفقر من حيث العقل والمجرى الصناعي وغيره قد تخلص الكلام عليه وتبين لك كيف ينعكس الهو هو رأسًا برأس، فافهم.

وإن كنت قد رمزته لك وخلطت لك في مدلوله وحذفت منه ما هو منه وألحقت به ما ليس منه، فلم نخله من خير محض ونعمة وافية. ومن أراد المقصود منكم فعليه بكتاب «بــد العارف » فهو الكتاب الذي بثثت فيه مالم يبث في كتاب قط، وفيه هو هذا الشأن وغيره وجميع ما يخلص السعيد المسترشد في أقرب وقت بالصنائع العلمية والعملية وبث الأمور السنية. فاطلبه من إخوانك واحفظه وحافظ عليه.

القول على الفقر من حيث الطريق[1]:

---

(1) فائدة: قال سيدي أبو المواهب الشاذلي قدس الله سره في قوانين الحكم: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: 15].

تحقيق: حقيقة الفقر في ظاهر الطريقة غير ما هو باطن الحقيقة، فالظاهر فقر الزهاد من الأعراض الدنيوية، والباطن فقر الأفراد من الأغراض الأخروية شغلاً بالله عما سواه لمن شهد ذلك ورآه.

تدقيق: تفاخَر الغني مع الفقير.

فقال الغني: أنا وصف الرب الكبير، فما أنت أيها الحقير.

فقال الفقير: لولا وصْفي لما تميَّزَ وصفك، ولولا تواضعي ما رفع قدرك، فأنا وصْفي وسِمَ بذلّ العبودية، وأنت وصفك نازع الربوبية، ومن نازع قصِم، ومَن سَلَّم سَلِمَ.

تحقيق: التبس حال الفقير على غير النبيه، فقال: الفقير غير الفقيه، وما علم أن الراء هي الماء.

إنّ الفقــيرَ هـــو الفقيهَ وإنما ... راء الفقــيرِ تجمعـــت أطرافها

تدقيق: الفقير الفقيه من حَطّ حمل الرحال على أعتاب الرجال، حتى أرضعته طريٌّ لبن الصدور، وأغنته عن قديد ميت السطور.

فانتصح يا فقيه القال، واسمع يا فقير الحال، وافْن بالله عن الرسوم، واخرج عن كل معلوم.

يا فقيه الجدال، هذا الجدّ آل أدخل حَانَ أخيارنا، نصيِّرك من أحْبَارنا، ونسقيك صافي الشراب بعد نقيع السراب.

يا فقيه النقل، يا عقول العقل، ستّر عنك نور الكشف حجاب أنيّتك العقلية، والذوق غيّر طعمه عندك مرارة العلوم النقلية.

يا فقيه الاسم دون المسمَّى الغلط أوجبه تشابه الأسماء لو عرفت معنى الفقير والفقيه كنت الحاذق

-

التنبيه.

الفقيه من فقه عن الله، وفني به عمن سواه، فلو كنت بهذا الوصف كنت الفقير صدقًا، والفقيه عند الله حقًا.

تحقيق: فضَّل قوم الغنى على الفقر، وعكس آخرون الأمر، والحق أن غنى النفس بالأعراض البشرية لا يخرجها عن افتقار صفاتها الذاتية.

تدقيق: مَن ادَّعى الغنى وقع في العنا، بخلاف من أظهر الفقر؛ فإنه خلص من الأمر.

تحقيق: الفقير من اتَّصف بحقيقة الافتقار عن إرادة منه واختيار، لا عن ضرورة ردته لمركز الاضطرار.

تدقيق: من استكبر بوصف الغني على الفقير استوجب حكم العكس من القدير.

ألم تـــرَ أن الفقـــر يُرجَـــى لَه الغنى ... وأن الغـــنى يُخـــشى علـــيه من الفقرِ

تحقيق: سمة الفقر سمة الأحباب، وحليته حلية العبد الأواب، من لبس اسمًا له كان ذلك وسمًا له في وجود أهل القبول، ولهم من الله نيل المسئول.

وجـــوه علـــيها للقـــبولِ علامـــةٌ ... ولـــبس علـــى كـــلِ الوجـــوهِ قبولَ

تدقيق: من افتخر على الفقراء بماله، أو تباهى عليهم بجماله؛ افتقر وعاد وقد انكسر.

لا تفخـــرن بمـــا أوتـــيت مـــن نعم ... علـــى ســـواك وخف من كسر جبارِ

فأنـــت في الأرض بالفخـــار مـــشتبه ... مـــا أســـرعُ الكـــسرِ في الدنيا لفخارِ

تحقيق: جواهر معاني الزمان أنفس من أن تضيعها في الهذيان، فيالله العجب ممن عمره انقضى وذهب في جمع الفضة والذهب، وهو بما جمع فقير ليس له نصير.

ومَـــن يـــنفق الـــساعات في جمع ماله ... مخافـــة فقـــرٍ فَالـــذي فَعَـــل الفقـــرُ

تدقيق: من افتقر إلى الله استغنى به عن كل شيء، ومن استغنى عنه افتقر إلى كل شيء، ومن افتقر إلى كل شيءٍ، فقد أوحشه كل شيء، ولم يتعوض عن الله بشيء من كل شيء.

لكـــلِ شـــيءٍ إذا فارقـــته عـــوضٌ ... ولـــيس لله إنْ فارقـــتَ مـــن عوضِ

تحقيق: خاصية مغناطيس فقر الذات هي الجاذبة للعطايا والهبات، فمن كان وصف افتقاره أكثر كان نصيبه أجزل وأكبر.

تدقيق: اختصاص الفقراء بالسؤال خصوصية لهم في الحال والمآل، يعرفها من وجد ثمر المطالب، وقُضيت له الحاجات والمآرب.

تحقيق: اتِّصاف الرب سبحانه بوجود الغنى المطلق، هو الذي أوجب لنا الفقر المحقق، وبهذا الاتصاف حصلت الألطاف؛ لأن من رحمة الغني أن يجود على الفقير، ويجبر المسكين الكسير.

وهو آخر الأقسام وهو مرادك: وهو الفقر الذي يشرحه عرف الفقراء في زماننا هذا، ومقصودنا شرحه وبثه على أكمل ما يمكن بحول الله تعالى.

فنـــبدأ فنقول: الفقر هو الصبر على المكروه، وشكر المنعم الحكيم، والفتوّة المحضة، ورفع الأذى كله، وفعل ما يجب كما يجب على ما يجب في الوقت الذي يجب، وتتفق دعوته التي داخل الذهن مع التي خارج الذهن، ويطلع بالتركيب إلى بده، ويهبط بالتحليل إلـــيه، ويـــدور بجملته عليه، ويجعل الفقر الذي اتصف به نفسه وقصده ومقصوده دائرة وهمـــية، ويجمـــع الوجود المقيد كله في نقطتها والمطلق في محيطها وينظر إلى الخطوط الخارجة من النقطة المذكورة إلى المحيط المذكور في خلده ويراها متساوية وينسبها. وينظر إليها ثانية من المحيط ويحذف الوسائط ويبصر الواسع في الضيق وينظر الأشياء في نفسه ثم يقطـــع حبل النظر والمنظور فيه من حيث المجاز والشفع، ويصل حبل النظر والمنظور فيه من حيث الحقيقة والوتر، ويصل مع ذلك النقطة المتقدمة بالمحيط ويجعلها جزء ماهيتها، ثم يحقـــق الأمر ثانية ويجعلها ماهية واحدة ويقول: «ليس إلا الأيس فقط» و«هو هو» ويتـــصفح قوله ويتأول ما يلزم عنه، ويقطع الإشارة كما قطع العبارة، ويسكن في شأنه ويهمـــل مهمله ومخصصه من كل الجهات ويقف في ثلاثة مواطن ويموت ويحيا في خمس مواطن، ويبعث من شأنه ويقذف في موضوع سره المشهور بالبرهان أن آنية الله هي أول الآنيات وآخر الهويات، وظاهر الكائنات وباطن الأبديات.

ويحدث في نفسه بالإسلام فيخبر عنه على غير ما كان يخبر، ويحدث قبل ذلك ويشهد والمشهود والشهادة بشهادة الإنصاف، ويعكس الضمير الأول على المخاطب الثاني، ويتوب من اللواحق ومن الحروف التي تجر إلى الإضافة ويشعر بها ويقول: «كل من في العالم بأسره لا يفعل شيئًا والله هو الفاعل خاصة» ثم يمحص مدلول كلامه ويخلّص جميع ما ارتهن فيه وينطق بالحق ويحذف المجاز وجميع ما يجر إليه ويلزم منه وعنه، ويقول: العالم ميت بجميع ما فيه من مفارق للمادة وغير مفارق لها، فلا حي على الحقيقة إلا الله.

ثم يتفقه في الإطلاقات باقترانها مع المضافات وارتباط بعضها ببعض ويقول: ما خالف

تدقيق: ما أتى باب الغني الكريم فقير فخاب، ولا قصد حماه فغلق دونه الأبواب.

علـــى بابِـــك الأعلى مددتُ يد الرجا ومَـــن جـــاءَ هذا البابُ لا يختشى الردى

الوحدة المطلقة والوجود الواجب هو عدم من جهة ووجود من أخرى، فلا موجود على الإطلاق ولا واحد على الحقيقة إلا الله، إلا الحق، إلا الكل، إلا الهو هو، إلا المنسوب إليه، إلا الجامع، إلا الأيس، إلا الأصل، إلا الواحد، إلا الأصح أصح، لا صح ص ح ح حم صمد حق، لا نتهمه ولا نتوهمه. وكذلك يفعل في كل نسبه متجانسة ثم يعلل جميع ما أطلقه، ويثبت ما ثبت بالبرهان وينتفي ما انتفى بالبرهان ويعلم كيف انصرام التوجه، وإلى أين يصل المتوجه وبأي وجه يعدم، وينسب مهمل الشريعة إلى مخصص الحقيقة ومهمل الحقيقة إلى مخصص الشريعة ويقول: من صحا وصحح أسراره محا الله إصراره.

حكمة ثانية: ويقال الفقر هو الذي لا يظهر به على الفقير إلا لسان مخزون، وقلب محزون، وفعل موزون، وفكرة تجول فيما هو كائن ومكون.

حكمة ثالثة: ويقال الفقر هو الخلافة الباطنة، كما أن الملك المشار إليه هو الخلافة الظاهرة.

حكمة رابعة: ويقال هو نوع من أنواع التصوف، وهو خيرها، ورب نوع أفضل من جنسه كالإنسان مع الحيوان.

حكمة خامسة: ويقال الفقر هو الذي ترسم بدايته بالإرادة والعبادة والإسلام وعالم الشهادة والخروج من الشر المحض إلى الخير المشترك والمجاهدة والطريق المقيد والتوكل، والتسليم والتفويض والتوبة الأولى والخلوة المشوقة والدهليز الجامع والأربعينيات المحركة المهيئة. ويرسم سلوكه بالرضا والإيمان والعبودية وعالم الملكوت والخروج من الخير المقيد إلى الخير المطلق والمكابدة والسفر في الطريق المذكور قبل في رسم البداية، والتوبة الثانية، والفكر التابع للسكينة، والذِّكر المحرك للتخلي والتحلي والتجلي، وبُعد الأهل والوطن، وحذف العلائق بالجملة، والتزام السوابغ الكاشفة للمقصود، ويرسم وصوله بالعبودية والمشاهدة وعالم الجبروت ومقام الإحسان والخروج من الخير المحض المقيد للكل بالمقصود والاشتراك، وصرف المحو إلى الصحو والتوبة الثالثة المصروفة في السبعين مقامًا الفاصلة بالتخلق بالأسماء الحسنى وتدبير العالم الأول بالصنائع العلمية والعملية وبالاسم المشترك فافهم!

حكمة سادسة: ويقال: الفقر هو الذي يجعل الفقير يجعل الشرع في يمينه والعقل في شماله وبينهما العلم، ويحرك الكل بالأدب والهمة والحقيقة، ثم يدفعها بالحقيقة مفردة، ثم يجذبها بالشريعة مركبة، ثم يستغفر الله ويقطع الموصول ويصل المقطوع حتى يثبت ما لا يمكن قطعه ولا اتصاله، ولا هو من هذا القبيل، فافهم.

حكمة سابعة: ويقال: الفقر هو التجرد عن المواد والاتصال بالذوات المجردة المرسوم علـيها في موضـوعات الشرائع والمعبر عنها في اصطلاحهم: بالملائكة وعالم الأمر، ثم التجـرد عنها والاتصال بالحكيم العليم الذي أمر، الحكيم العليم المبدع الأول الذي أمر الحكـيم العليم الثاني، ثم التجرد عن الجملة والاتصال بالحكمة والكلمة، ثم التجرد عنها والاتـصال بالحضرة السَّنِية التي يظهر فيها الحكيم العليم الأول المذكور أنه من عباد الله، والله أعز من ذلك وهو عزيز؛ لأنه اعتز على العلماء به قبل هذه التي ليست من جنس ما يعلمه الفيلسوف ولا يفهمه بعض الصوفية. وهو علم التحقيق الغريب الذي لم يخبر قط جمـيع من دون الدواوين كلها عنه، ولا هو من قبيل السهو والعويص ولا في قوة البطيء مـع الحـريص. فاسمع ما أقوله لك ولا تلتفت إلى ما تخبط فيه شيعة أرسطو، وكونهم يقولون: الحق عز وجل هو المحرك للجرم الأقصى بذاته.

والمتأخـر منهم يقول: بل هو الذي فطر الأمر وهو الذي أمر بتحريكها، وهو ثالث رتبة فوق محرك الأطلس.

ومـنهم من قال: هو ثاني رتبة، فانظر ذلك في آخر كتاب «المشكاة» للغزالي وفي كـلام ابن سينا والفارابي. وتَحَيَّرَ ابن رشد في ذلك ثم اختار قول الحكيم، وقال به وزال عـن الغـير. وتخبط في ذلك ابن طفيل وانفصل عنه بِهَذَيَان لا فائدة فيه للحكيم النبيه. وكذلك مذهب أهل الرواق وشيعة فيثاغورس ومن قال بالمثل المعلقة والحياة السارية في الموجودات، والذي قال بالانتقال وبالأشياء المؤلفة من الفاني والباقي.

وكـذلك جمـيع ما تسمع من بعض الصوفية الذين يقولون: مقام الإسلام والإيمان والإحسان والحق والمطلع والأفعال والصفات والذات.

والـذي يقـول: الأسمـاء والتخلق والأسماء التي تتصف ويتصف بها والاسم الفعال والأسمـاء المـتحابة والاسم الذي يتصف، فذلك كله منه ما يصح بوجه ما، ومنه ما لا يصح.

وكذلك قائل: «والحق وراء ذلك كله» فإنه أراد المعلوم المضاف.

وبالجملة: ما عرفوا الله حق معرفته ولا علموه على ما ينبغي له، فعليك بالرجال.

واعلم أن العلم الإلهي منه ما يتعلم، ومنه ما يورث، ومنه ما يُتلقى من صدور الرجال، ومنه ما يوجد حالاً وذوقًا، ومنه ما يظفر به في الجميع. فقل: أعوذ بالمقصود المعلوم عند معلمـي حيث معلمي: من توقف أرسطو وتشتيت مسائله الإلهية خاصة، فإن غيرها من سـائر العلـوم أحكمها ولم يغلط فيها إلا في القليل، ومن شكوك المشائين، وحيرة أبي

نـــصر، وتمويه ابن سينا في بعض الأمور، واضطراب الغزالي وضعفه، وتردد ابن الصائغ، وتنويع ابن رشد، وتلويحات السهروردي مؤلف «حكمة الإشراق» والتلقيحات بمذهب أفلاطـــون، وتشويش ابن خطيب الرّي، وتخليط الأقدمين، ورموز جعفر المحتملة معرج التصوف مع الحكمة من حيث أتباعه، ومن شطحات بعض الرجال في «الرسالة » الذين نطقـــوا مـــن أحوالهم الأول ولم تحذقهم العلوم ولا الصنائع العلمية ولا حققوا المبادئ وجـــاوزوا المقـــدار بأقوالهم وأحوالهم بوجه ما يسلمه بعض الناس وينكره الأكثر، ومن تـــصريف ابـــن مسرة الجبلي في الحروف والإطلاقات في النطق اللاحق للأشياء وإضافته الآيات وفهم أقسام بعض السور والإقدام على الأحكام واقتران بعض القرآن ببعض، ومن تهذيب بعض الأسماء والصفات والكون والوجود والموجود والشفع والوتر والتوحيد على مـــذهب ابـــن قَسِيّ صاحب «خلع النعلين»، ومن الأجناس الجامعة المتقدمة والتآليف والمـــذاهب والذهاب والاعتبار المقدر المصرف في جملة الأسماء ومدلولها وفي الصفات الدائـــرة الـــتي تـــدور من مدلولها على صيغها وبالعكس على مذهب ابن برجان، ومن الوصول المنسوب والوقوف عنده بحسب متعلق الأسماء والصفات والمقامات والأرواح والتلوين والتمكين والمحبة والوجود والواحد والوحدة والإضافة المحذوفة والمجردة والشائعة وغير الشائعة بحسب «المواقف» المنسوبة إلى النفري المعلم الناقل عن المولد على زعمه وغيره.

فجميع ذلك كله لا خلاص فيه متمم ولا إخلاص مكمل، وهو مما يدخله الغلط من الصنائع عند طائفة، ومن الأحوال عند آخرين، ومن الاصطلاح عند قوم، ومن الفهم عند آخرين، ومن الرياسة ومن اللذة ومن سوء الفهم عند الأكثر.

وهؤلاء منهم من تلذذ بالأنوار والأحوال، وغفل عن الأصل، وفرح بنفسه ولم يكمل، ومنهم من علم المقصود ولم يتحرك إليه بالسلوك وغلبته الطبيعة والأمور الطبيعية والرياسة وحفظ الصيت عليه، ومنهم من بهره حال الاتصال فغلط.

ومنهم: من شك في الأصل ودفع تارة وجذب أخرى.

ومنهم: من كان أوله ضد آخره وبالعكس.

ومنهم: من وصف المقصود ولم يتصف به.

ومنهم: من ضر بكلامه ونفع وتنوع أمره وانتقل.

ومنهم: من ينفع من جهة ما ويضر من جهات. ولولا ما قصدت في هذا التقييد من الاختـــصار كنت أرسم لك مقاصدهم من حيث مواضعها والمسألة والجواب ونبين لك

شأنهم كله وكيف الأمر فيهم على الإطلاق بالبرهان.

وبالجملة: عليك بالحق وفريقه وأهله وطريقه، فإن الرجال إذا تنوعوا دار الأمر بينهم وفيهم وعليهم. لا زوال للحق ولا شك فيه، ولا يأخذه النقص ولا يختلف ولا يتغير، وهو الذي به هو الشيء وما هو، وهو الشاهد المتفق من جميع جهاته، وهو هو كما تقدم، وكل حائر فمن أجله كانت حيرته وفيه وبه، فافهم. فإنه هو المطلوب وبه يطلب، ومنه الطالب وله ومنه وعنه الكل. وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذي قصدناه فنرجع له بحول الله تعالى.

حكمة ثامنة: ويقال الفقر هو السلب المنسوب للسالب والمسلوب الذي دار على نقطة وقاره بشأنه وتقديره وقراره، وخرج عن قدره بمقداره، ثم أجبر وجبر وطمع في الإيجاب بعد فهم الجواب وكلم مقصوده بلسان ماهيته ومعه بإذن آنيته المكتسبة، وأبصره بجميع هويته، فافهم!

حكمة تاسعة: ويقال الفقر هو السكون عند عدم كل شيء يتعلق بمدلول العما، ويكون من لواحق الغيرية والحركة عند التقدير، ثم السلب المحض بالإلزام، فافهم!

حكمة عاشرة: ويقال الفقر هو الذي يحصل للفقير به العلم الذي يدبره ويدبر به ما بعده ومن قبله، والورع الذي يعصمه وينفعه ويحجزه، واليقين الذي يحمله، والذكر الذي يتأنس به.

حكمة حادية عشرة: ويقال الفقر هو الذي يكسب الفقير دوام الافتقار للجبان في كل الأحوال وملازمة السنة العربية والقديمة اللازمة عند العادة المشتركة.

حكمة ثانية عشر: ويقال الفقر هو الذي تجحد فيه قضية الزمان والمكان.

حكمة ثالثة عشر: ويقال الفقر هو المترادف مع الخيرات المطلوبة.

حكمة رابعة عشر: ويقال الفقر هو الذي يسبح به في بحر الشرف، وينسخ العادة بأحكام خرق العادة، وينسخ مقام الوحشة بالوحدة، وينسخ مقام الوحدة بالحرية وينسخ الحرية بالعبادة في حال الاتصال بالأدب المستولى، وينسخ التوكل بالتسليم والتسليم بالتفويض ويترك معقوله في معقوله متحيِّرا، وينسخ التفويض بالرضا، وينسخ الرضا بالتوحيد، ويقوي التوحيد بالمحبة ويحفظ المحبة بالمعرفة، ويخلص المعرفة بالمشاهدة، والمشاهدة بالمقامات الفارطة كلها، والجميع بالتحقيق، ويركبها ويسلسلها بالتوجه والبحث والإنابة والأوبة، ويصرفها بالكلام المقيد بالعبارة والإشارة وبالبعض، ثم بالدقيقة وبالكل، ثم باللطيفة وبالمذكور، ثم بالحقيقة وبالمذكور في المذكور، فافهم.

ويعللها بالأحوال ويقيدها بالتصريف، ثم يجمع المتقدم والمتأخر في كسبه وفي كل شأنه، ويتـــصف بالجميع، ويخصها في محله ولا يهمله، ويثبت الناسخ والمنسوخ في ماهية شأنه كلـــه، ثم يحـــذف مراتبها التي تعددت ويدير عليها دائرة نتيجة شأنه الآخر بمحرك شأنه الأول، ويـــسكنها بظاهر كنهه، ويجمعها بباطن كونه، ويجعل على الكل وفي الكل ومن الكـــل الأول الآخـــر الظاهـــر الباطن، وينظر إلى الأمر كله بعين التوحيد وكلمة السلب ويجـــدها قـــد اتحـــدت فيه وتوحدت من أجله فينسبها إليه ويديرها ثانية وثالثة ورابعة وخامـــسة وسادسة وسابعة عليه، ويعتبر جملة داخل الذهن كما اعتبرها خارج الذهن، وينـــسب بالاســـتعارة بعض الأشياء إلى بعض، ويجعل قلبه التوبة وكبده المجاهدة، ويده الصبر، ورجله الأدب، وعينه العلم، وسمعه الخلق، وشمه اللطايف، ولسانه الأحوال، ولذته المعـــرفة والرضى والمحبة، وحياته الوتر، وموته الشفع، وبالعكس، ونطقه الإسلام، وعقله الإيمـــان، وروحه الإحسان، ثم يسمى الجميع فقرًا وفقيرًا وقيرًا – و«قير » تأكيد للفقير كما تقدم وبالعكس كما لزم فافهم!

حكمة خامسة عشر: ويقال الفقر هو الحكمة التي ترسم أنها الفهم عن الله ﷻ، وهو الحكمـــة الـــتي سماهـــا الشرع سنة، وهو الحكمة التي تفيد معرفة الأشياء حسبما تعطيه وتقتـــضيه طبـــيعة البرهان، وهو الحكمة التي يعرف بها ترغيب القرآن وترهيبه، وجدله، وقصـــصه، ومثله، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه وأحكامها كلها وكونها تنحل إلى الأسماء والـــصفات وفهـــم الحـــروف المتحابة، وحروف أوائل السور مثل: كهيعص، وسائرها ومقايـــسة بعـــض المتحابّة ببعض وتناسبها على وجه أكمل وأحكم وأنفع وألطف من الظاهر ومن جميع ما هم عليه بعض الناس ممن ينكر هذا الشأن العظيم، فافهم!

وهـــذا الفقر الذي اختاره خير البشر. والمتصف به هو الغني الشاكر حقيقة فإنه غني بجوهره، والغنى فيه ماهية ذاته إذ هو فعال بجوهره وعليه يجب الشكر الكثير الممتد إلى غير نهاية؛ لأنه باق فيه، فافهم! وأعط المعنى المعقول مع شرف ذاته في الدارين وسلامته ومناجاته وغيره من الأغنياء بضد ذلك، وإن كان يشبهه هذا في بعض شأنه فعنده من هذا الفقير بما يشبهه وإلا فلا سبيل إلى شيء من ذلك، فافهم.

والفقـــير الـــصابر المعروف عند العامة: هذا الفقير الغني خير منه على الوجه الذي ذكرناه، وهو خير من الغني من حيث العرف والعادة والجمهورية.

وبالجملة: الفقر من جميع الوجوه هو المطلوب الشريف وحده، وكل مطلوب شريف وحده لا شيء أفضل منه. فالفقر من جميع الجهات لا شيء أفضل منه.

حكمة سادسة عشر: يقال: الفقر الضعيف هو حمل الأذى وترك الأذى ووجود الراحة، والقوي هو التصرف في الأشياء بالكتاب والسنة والإجماع والقياس والعقل وفعل ما ينبغي كما ينبغي على ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي وفهم الأسرار والأحوال الإلهية قبل وفروعها وأصولها وأسبابها. والفقر الشريف هو الذي إذا نظر الفقير به إلى نفسه، لا غير، نظر فيها جميع الأشياء المهملة والمخصصة، والمحملة والمفسرة، والمطلقة والمقيدة، والشريفة والخسيسة، والمرءوسة والرئيسة، ويجعل منها في ماهيته النورانية ما يجب وينسبها بحده وفي ماهيته المادية وينسبها لضده، ثم يحقق الشيء الثابت وحده وينظر إليه به ويغمض عين سريرته المكتسبة ويفتح عين بصيرته اللازمة، ويقول عند تصوره لذلك: كيف يَظهر من به ويظهر وكيف لا يشهد حقه وهو لا يرى إلا بنوره ولا يشهد إلا بحضوره.

حكمة سابعة عشر: ويقال: الفقر هو الجامع المانع.

حكمة ثامنة عشر: ويقال: الفقر هو المعنى الشامل للملك والنبي والصديق والأمثل فالأمثل من حيث التخصيص والمخصوص ولكل ممكن على العموم من حيث العموم والعرف.

حكمة تاسعة عشر: ويقال: الفقر ترك الرغبة إلا في السعادة وأسبابها، والعبادة وأحكامها، وتدبير العادة وأحوالها.

حكمة عشرون: يقال: الفقر عدم خوف الفقر من المحل مع الامتحان الكلي، ولا يكون للفقير ما يقترب به إلى ربه ويظهر الغنى به مع الحاجة، والشبع مع الجوع، والفرح مع الحزن، والمحبة لعدوه مع وجود الجور، ويصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يظهر ضعفًا وكل ذلك بجد وصحة أصلية وخير محض.

حكمة حادية وعشرون: يقال: الفقر هو الذي تعرف حقيقته اللفظية بما ذكر قبل، والفقهية بما ذكر قبل، والعقلية بما ذكر قبل، والصوفية بورودها على المحل إذ كانت جزء ماهيته ويتصف بأعراض لاحقة لها، ويغلبه بذوقه، ويخبر عنه بعد ذلك بغير الذي كان يخبر عنه قبل –، فافهم!

حكمة ثانية وعشرون: ويقال: الفقر حفظ السر المكنون، والعلم المضنون به والمصون، وأداء ما افترض، وصيانة الدين والمقام.

حكمة ثالثة وعشرون: ويقال: الفقر هو الكمال الأول مع العلم، وهو الكمال الآخر مع المعرفة، وهو الجميع مع خالص الإنسانية.

حكمة رابعة وعشرون: ويقال: الفقر هو الذي لا يطلب به إلاّ الله وإن طلب لذاته أعني الفقر ن مطلقًا لا خير فيه.

حكمة خامسة وعشرون: ويقال: الفقر إذا تُصُفّح وتؤمل وتتبع على أكمل ما يمكن قيل للفقير المتصف به فقير كما سمي اللديغ سليمًا، ويعتبر شأنه ولفظه بالعكس.

وهذا الفقر أعزك الله وأعانك على تحصيله بحبيبك الأول الذي لا يكون متحركًا ولا ساكنًا وهو ليس بجسم ولا في جسم وهو واحد من كل الجهات ووحدته بالذات، وبحبيبك الثاني الذي لا يكون متحركًا ولا ساكنًا وليس بجسم ولا في جسم ولكنه يقال فيه: إنه مع غيره المفارق لا مرتكزًا ولا مربوطًا ولا مستندًا ولا ملتحمًا ولا حالاً.

وهو بالجملة لا متصلاً معه ولا منفصلاً عنه غير أنه يلازمه ملازمة النوع للعنصر والفاعل للمفعول ويشار إليه معه صحبة المجموع الإنساني مع أنه مفارق ومن قبيل المفارق.

وخلصك الله من حبيب ضدك وموضوعك وروحك وأوحله وأكرمك الله بتحصيل أسباب السعادة بصلاح المادة والعبادة وحفظك في شأنك كله. حتى لا «ترفل في أثواب اللاهي ولا تغفل عن ثواب الله»، فطالعه واحفظه وحافظ عليه وحصِّل مدلوله بالقول والعقل والحال والمقدمة والنتيجة والمسألة والجواب، ولا تبخل به ولا تمنعه عن أهله ولا تسمح في ذم فرعه وأصله وخاصة فصله. ولولا أنك محسوب عليَّ ومنسوب بمعناه إلى ما أسعفتك به، ولا قيدت لك فيه إلا ما يجمل بك وبأمثالك وأهل وقتك وشرطي عليك ألا يقف عليه أحد إلا الطلبة النبهاء والفقراء الفضلاء المحبون الأولياء، ولا يقرأه من المذكورين الا من يتصفحه إلى آخره.

وإن علم منه أنه ينكره يؤخذ من يده، وإن توقع الضرر من لسانه وقلبه ويده ومن صعب عليه منه شيء يرحل به إليّ. وإن عسرت حركته أو تعذرت يرجع به إلي، ونجيبه في الوقت بحول الله تعالى. والاستقامة هي رأس العمل مع العلم، وزوال الكسل والمَلَل. واعلم أن الشقي هو الذي ذهب شبابه بلذته، وارتهنه بتبعته، وخلف له التأسف عليه، والسعيد هو الذي علم أن أيام الحياة حلم، والموت يقظة، وفي الحساب تفسير أضغاثه. فجد واجتهد وكره دار الفواسق حيث الظل والذل والأبعاد الثلاث واللهو واللعب ولواحق اللهب، وتوجه إلى الحضرة السنية التي تبت بجحودها يدا أبى لهب.

وإياك والغفلة والتغافل فإنهما يستلان الخير ويخصصان السر. والغافل والمتغافل واحد، لأن الغافل تؤديه غفلته إلى الفساد، والمغفل يؤديه تغفيله إلى الفساد، فقد اتفقا في

المحصول الذي هو الفساد. وليس ينفع المتغافل معرفته بما تغافل عنه إذا لم يستعمل فيه ما يجب، ولا يضر العاقل جهله بما لم يعلم إذا لم يعمل فيه ما يجب، لأنهما قد اتفقا في الإضاعة، وتباينا في العلم والجهل. وعليك بالهمة الجليلة التي هي سوق لا يتبدل إما العمر كله وإما في أكثر الزمان إلى الشيء الذي هو وكل الإنسان أن يفعله في حياته والخسيسة بضد ذلك. وبالجملة: إن كان الشيء الذي تطلبه الهمة جليلاً قيل في الهمة إنها جليلة، وإن كان خسيسًا قيل في الهمة إنها خسيسة. وعليك بالسيرة الجميلة التي هي الأفعال المحمودة التي يدور الإنسان عليها في حياته ويجعل وكده أن يفعلها ويتخلق بها ويعامل بها ذاته وغيره، ويجعلها مقدمته لمقاصده الكريمة. وعليك بالصناعة الرئيسة التي هي رئيسة على الإطلاق، وهي التي تعرف أي الصناعات والعلوم ينبغي أن تكون في المدن، وأي الصناعات والعلوم ينبغي أن يبلغ المتعلم [اكتسابها] باكتساب الشيء الذي يسمى خيرًا.

واعلم أنه لا بدّ لكل متوجه ولكل سعيد أو شقي أو غافل أو متغافل أو عالم أو جاهل من خير ما يتشوق إليه في شأنه الذي هو فيه ويطلبه، ولكنه لا يطلق الخير حقيقة، ولا يعقل إلا في الخير الذي هو سبب السعادة توجد عنده أو به أو معه أو فيه أو منه، أو إليه، أو عليه، أو عنه، أو له، ويطلع على لزوم الشرط والمشروط، مثال ذلك: الحياة شرط في العقل، والعقل شرط في العلم، والعلم شرط في العمل الصالح، والعمل الصالح شرط في الفضل، والفضل شرط في السعادة، والسعادة شرط في الكمال، والكمال شرط في الخير، والخير شرطه وأصله التخصيص، ولواحقه كثيرة هيئية وطبيعية بل العناية الإلهية خاصة.

وأنواع الخير ثلاثة: أحدها: الشيء الذي يراد لأجل ذاته ولا يراد في وقت من الأوقات لأجل غيره.

الثاني: الذي يراد ويؤثر أبدًا لأجل غيره ولا يؤثر أصلاً ولا يُراد في وقت من الأوقات لأجل ذاته مثل الأشياء المؤذية المؤلمة كشرب الدواء المر الشنيع الطعم الكريه الرائحة، فإن هذه شرور بذواتها، وخير بالإضافة إلى الانتفاع بها.

والثالث: من هذه الأشياء هو الخير بالإطلاق، فعليك به وبما بعده.

والذي حملني على إفشاء هذا السر الذي لا يظفر به في كتاب ولا سمع في معتاد خطاب ما ظهر في زماننا هذا من آراء فاسدة وأحوال سيئة، وقلة استقامة في بعض الفقراء وعدم الإنصاف في بعض الطلبة وسوء ظن العامة في الجميع مع غيره من المشار إليه ويشاور ويشار إليه، ويعول على الله لا عليه.

وأنا أسأل الله العظيم أن يعينني على الخير ويوفقني إلى قبوله، وأسأل الواقفين على هذا الكلام أن يقبلوا عذري فيما تساهلت في تبيينه، وتسامحت في تعليمه وتثبيته، لأنني أمليته في بعض يوم على بعض الأصحاب والخاطر منقسم بالداخل إلى الخارج عني، ولم يتسع الوقت لتصفحه وتبديله.

ومن زعم أن يصل إلي ويباحثني ويطالبني فيه فأهلاً وسهلاً به، ومن غلبت دعوته عليّ استطاعته يمهل عليه وتدفع الفائدة برفق إليه، ولسان حالي يسلم للمنصف ويسلم عليه، ولسان مقالتي يحمد الجميع ويعظم الكل.

ولقد أطلقت على الرجال في الكلام الأول ما نعلم ونتحققه أنه غير جارٍ ولا جائز عند الأكثر.

ولكنى غلبت النصيحة على السياسة والحق أحق أن يتبع، والسلام على المنكر والمسلِّم، والعالم والمتعلم، والغالط والمتغالط ورحمة الله وتعالى وبركاته.

وسميتها لأحد أولادي بالعرض ولكافة الفقراء ولجميع من انتسب إلي بالذات و[الحقيقة] فيها بالقصد الأول، ولجميع من ذكر بالقصد الثاني.

ومُعادُ التحية عليكم معشر الفقراء حيث كنتم من البسيطة، ومن العوالم الثلاثة بحسب مراتبكم من عبد الله، عبد الحق، الكثير بالقول، الواحد بالموضوع، الواجب بآنيته، الممكن بهويته، ورحمة الله تعالى وبركاته.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الله الله الله الله الله الله الله صح.

كملت الرسالة الفقيرية للسيد الشيخ المحقق المقرب سيدي أبي محمد عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بن سبعين نفعنا الله به وأعاد عليه من بركاته.

وكان الفراغ من نسخها يوم الجمعة الخامس عشر من محرم سنة إثنين وتسعمائة. عرفنا الله خيره، وكفانا ضيره، بمنه وكرمه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

وله ﷺ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله كثيرًا:

استمع إلى ما يوحي ويستقرأ، وحَصِّل وحينئذ تكتب أو تقرأ: من أبصر مقصوده كَفَّ عن سواه لأنه سَوَاه، وشرط من سوى واستوى، قطع وَهْم السُّوى من قرَّبه الله،

يقول: الله فقط. ويتبع هذه الكلمة بالهمة قبل النية، ويحرر قضيته البسيطة بإطلاق الهوية على الآنية، ويمد خط تأمله ويقبضه أيضًا، وخفف عن نفسه حمل وهم هذا، وهو، وذلك، وقال ما قال الله، ثم استقام لا على مدلول الأمر بل على فيض الآمر ﷺ.

وجملة الأمر: من قال الله ولم يستحق الجميع قال الباطل. والله ما تجلى قط فاحتجب؛ لأنه يظهر بماهية العرفان وبما يلزم من الوجود الثاني المصاحب، ولا أقام قط في قلب فرحل عنه، ولا تعلقت به همة رجل معتبر فخابت، ولا نظر إلى أحد فأهمله بعدها، ولا استجاب في ماهية عارف فعرفت غيره قبل ذلك بما هو ذلك، وصح له أنه ما كان ذلك بعد ذلك، ولا مع ذلك، ولا قبل ذلك.

من قام به خوف الله لا يلتفت للأفعال فإنها ضعيفة الإعانة، قوية الضجر والضرر. وإن عزم على الخوف فذاته أولاً فإنها تحيل إليها كل التعلقات وفي نفس العذاب عين العافية. وسبب الألم هو بعينه سبب اللذة. لأنها بالنظر إليها تحيل الأحوال كلها إلى الخير والسعادة، وهذه في نفس الولي نفس اللذة، فإن كان الحس يتألم، وقد يستغرق في جلالها ويفوته الألم وقد يتصرف في نفسه فيرفع، وقد لا يطلق على الولي أنه يتألم مع التحصيل المحض، وقد يطلق بوجه ما.

وبالجملة: انعقد إجماع الضمائر الصادقة على أن التعلق بجلال الله على أي نوع كان يمشي نحو الصواب: وذلك إما من جهة الاستحقاق، أو من قبيل المظاهر أو مفهوم قولك كأنه هو أو معي هو أو أنا.

وهذه كلها إلى الله وبالله، بل هي الله. ومن يعلم كيف يصرف الأشياء إليه، ثم يعلم كيف يصرف هو الأشياء بوجه ما، ثم يعلم ما هي الأشياء في التحليل وما هي في التركيب، ثم يعلم ارتفاع الجميع، ثم يعلم ثبوت الجميع، ثم يعلم الله ولا شيء معه والأشياء الظاهرة للحس والعقل، أعني الأمور المعقولة والمدركات المحسوسة ثابتة ولا هي على جهة الافتقار وبالطريق التي يدل عليها علماء الأوهام فإنهم يقولون: الأشياء بالنظر إليها لا شيء لها، وبالوجه الذي هي به ناظرة إلى ربها هي ثابتة، وكأنهم يقولون: الوجود العارض للماهية بنوع من القول آخر هو هو في المفهوم، وأعوذ بالله من الجميع وعند العلم بهذه العلوم والعلم بهذه السيرة يفتح له باب التحقيق الشريف.

متى سمع قط عن قريش الإخلاص قطع الطريق على دخيل الاضطرار؟ متى حصل أحد على كنـــز محجوب عن غيره في غاية الظهور والوضوح له مع كونه تحت ملكته وهو ومادته الأول، ومع هذا يمد الأنواع ولا تسع كمية الأشخاص ويقوم بشخصه هو فيخاف

الفقر ويحتاج إلى مصانعة وسواس الحاجة؟ وبعد هذا كله النبيه هو الذي لا يقنع من الله بجميع أفعاله، ولا يطلب منه إلا الذي يحمل منها إلى الذات ويعين اللذات الصادرة عنه. آه آه آه يا فاقد، بل يا حائد عن الفائد، لا يخدعك وهم عادة نفسك الآخذة عن نفوس الأغبياء الأشقياء، أو المقيمة معهم على ما هم بسبيله أو المتشبهة بهم إذا فقدت الهمم الشريفة الحق المطلوب، يقول لسان حالها: يا حُزناه بما حُزناه!

ومما يظهر لبعض الضعفاء الصلحاء أنهم استقاموا على الطريقة وزوج القصد لهم بين الشريعة والحقيقة. والدليل على غلطهم في الحق أنهم إذا فتح عليهم بوجه ما يظنون أنه الطريق على الإطلاق، وأن الأمر ما بقى منه إلا نصيب الأحوال فقط.

ومن غلطهم إذا فتح لأحدهم في شيء يشبه بالمضمار لا شيء يظنون باب الله.

أعوذ بالله من همة تقف، بل أعوذ بالله من عقل يقنع، بل أعوذ بالله من زمان فرد لا يحصل فيه مالا يأخذه الحصر في مدة الأبد المفروضة على معقول الكلي منه حتى يستشهد في ذلك بالحديث ويقول: «مَنْ رُزِقَ مِنْ باب فَلْيَلْزَمه»[1]، ومراد الحديث غير فهم هذا.

وذلك أن الباب الذي يتوحد هو باب الافتقار الذي يصرف العبد إلى ساحته، وهو ثابت ومنه يدخل على جميع الأبواب.

وهو بالجملة واحد في مقامه عند العلماء والعُبَّاد، وعند المحقق من أنواع نهاية صراطه الأول الجنسي.

وأما أبواب الله المفتوحة فلا نهاية لها، لأن مواطنها لواحق القدرة الإلهية والفيض الإلهي والإمكان المطلق، ومفاتحها تخصيصه أو طريق تخصيصه. فباب من أجل مفتاح، ومفتاح من أجل باب.

وبالجملة: أبواب مواهبه لا نهاية لها، وباب الرجوع إليه واحد. وعلى هذا تفهم توبة النبي ﷺ بحسب رأي ما، فإنه كان يبدأ بتأمل جلال الملكوت العام ثم الخاص، ثم الجبروت، ثم الحد، ثم المطلع؛ ثم يتبحر، ثم يقف، ثم يكون ما شاء الله.

فإذا فرغت تلك المادة الخبرية أو العلمية أو الحالية أو الوقفية أو الوجودية أو ما شاء الله لمن رضي الله عنه، يعود إلى المنعم حال نعمته يطلب منه نعمة أخرى بحالة أخرى في معنى آخر من ذات واحدة.

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (89/2)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (296/2).

فباب المنعم الذي هو هو فقط واحد، وبابه الذي هو به كالجنس العالي، وأبوابه المولدة أجناس عالية.

وبالجملة: القناعة من الله حرمان والنبي يتكلم، والحكمة تشرح.

وكذلك قوله: «التدبير نصف العيش»[1]، ومراده للخواص: ترك التدبير هو العيش كله، وللعلوم ولمن يطلب الأسباب الحديث على ظاهره، وبالجملة جميع ما تعطيه الحكمة الشريفة العلمية التي لا تطلق بحسب مذهب خاص ورأي خاص مجهول المكانة يحمل على الشارع، وينسب بالمضمار إليه. وإن كان بالقصد الثاني ليت شعري بأي لسان يقول القائل: «لا حول ولا قوة إلا بالله »؟ أبلسان العي والغي والسفاهة، أم بلسان الصدق والجد والنباهة؟

فـــإن كان بالأول فذلك النفاق، وإن كان بالثاني فلا يجعل مع الله في ملكه ثاني. متى ثبتت سفسطة مبطل مع برهان الحق؟ أي حاجة للمظلوم إلى شهادة من لا يحكم؟ الحاكم الحكيم يعلم ذلك، ويحكم به كذلك قدر أن السفيه الذابح الذي يطلق القول على ماهيته بتواطئ مع السفيه النابح يخرجك من أرضه الظالمة وأنت من المظلومين.

فهـــذه جملة نعم: منها الأسوة بالمهاجر الأعلى، والخروج من محل الأثقال إلى الذي انقلبت إليه هذا من ذلك أو لا ألا،والقول يدفع في الآخرة والأولى، والسياحة المزدوجة مع القريحة المستندة المفتقرة الحاضرة، ونعمة التأنيس بقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا﴾ [البقرة: 216] الآية، والتبدل مع النـــزهة في البسيطة ومشاهدة الأحوال البسيطة، وأن ســـجنك يكون في عادة الصديق، وتكمل النعمة عليك إذا لم تذكر حين تذكر غير المذكـــور وقـــول ﴿سَـــبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] خير من: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّـــكَ﴾ [يوسف: 42] من أي شخص كانت، لأن تعظيم الله هو المعتبر وما نقص من حقه عز وجل لا يسمح فيه لأحد، فافهم.

وتـــتخذ الخلوة والعزلة الحسية الظاهرة وعند ذلك يذكر بالباطنة وتجتمع. وإن كان تفرق الاتصال فقد أنعم عليك بالاتصال وأتحفك في هيئة حتفك بالانفصال، وحملك إلى حضرة الوصال، وامتن عليك بالشهادة التي بمثلها يظفر بالحضرة التي تنـــزهت عن الذل حيث الظل واللهو واللعب وتبت بجحودها يدا أبي لهب.

هـــذا إذا لم يكـــن مقـــام الرضا قد حكم، والتوحيد قد جزم. فكيف إذا كان الأمر

(1) رواه القضاعي في الشهاب (54/1)، والديلمي (75/2).

بـــالعكس وقـــوته أضعف من نملة في رملة، ومن ذرة في كرة، ومواكب مجده غير قافلة، وكواكب سعده في غرب غيه عنه آفلة؟

وإذا أنشد الهوى في نازلة سفيهة من أجل عرض عاجل، ومن ركب الثور بعد الجواد أنكر إطلاقه ذو الغيب ينبغي لراكبه ينشد في حق الذي يهواه:

فليـــتك تحلـــو والحـــياة مريـــرة   وليـــتك ترضـــى والأنـــام غضاب

ولـــيت الـــذي بيني وبينك عامر   وبـــيني وبـــين العـــالمين خـــراب

إذا صـــح مـــنك الود فالكل هين   وكـــل الـــذي فـــوق التراب تراب

ويقرأ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: 78] ويتحدث بنعمة الله في التحدث بالحديث: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»[1]، ويذكر المثل الموزون وكل ما يفعل المحبوب محبوب، ويحمد الله العظيم الذي جعله من جنس من ذكره في سورة التقرير في جواب القسم، ثم قبل ثم حرر القول فيه بالاستثناء. هيهات! هيهات! هيهات! النظر إلى الحق يصرف النظر عن القسم، عجبت لمن آمن بالله ثم يخدعه وهم الانفعال لكنه كل شيء بقضاء وقدر. استقام القائل، وأقامه الله على الحق بقوله: «وعند الله تجتمع الخصوم»، وحسنت خطبة المخاطب نفسه: يا نفس اعلمي أن الإضراب عن غير الله ملاحظة بعين الله. لله دَر من قال: «لا تخالط الأشرار فإنهم يمنون عليك» بالسلامة منهم عذرته، ومن قال: الله فقط! غبطته، ليعلم أن القاتل لأرواح الفضلاء في عالم الطبيعة والسعداء فيما بعد الطبيعة لا بدّ أن تقتله الطبيعة وتعذبه الشريعة.

ما الذي حمل من استند إلى جدار وهم يريد أن ينقض! ما أظنه، والله أعلم، إلا كان الأمر عنده على معنى الحكاية، ولذلك انقلب إلى النكاية وشرع بمجاز صحته في ابتداء الشكاية، هل على خليع مستصحب للخلاعة التي لا يصح معها صحو ولا عقل حد؟ أو هل لمن سكر من الله عهد، أو غبطة بوعد، أو هيبة ملك أو رعد أو تعب أو جهد، أو رب وعبد، أو كفر وحمد، أو رسم وجد؟ أو كيف لمن وحد الكيف، وملك الكم والكيف، وأكرم داخل الذهن الضيف، وقطع الهام بالوهم لا بالسيف، ويحج إلى مجده المجيد لا إلى محل الرحلتين رحلة الشتاء والصيف، ويقطع العوالم العلوية والسفلية عنده أسرع من الطيف، ويصلى في مسجد السلامة قبل مسجد كذا أو مسجد الخيف،

(1) رواه البخاري (3/1080)، ومسلم (3/1431).

ملاحظة غير معناه المستولى على همه؟ أم كيف لمن لا يطلق على ماهية بماهية عن ماهية ماهيته، ثم بما هي ماهية من المطالب الأصلية إلا هل ومن لعل العادة جادت براحة صد الولي كما أن حرفها جاءه على سبيل الإكرام من العلي الولي؟! سررت بمن حذقته العلوم وهذبته هداية المعارف، ودبرته نهاية العارف، وآمنت بمن وجد الحق فلم يجد بعده، ولا وجد قبله مع كونه قبله مع كونه قبل أن يجد وجد وذلك ذلك ذلك أسرار الله، خزائنها فؤاد الثابت المستقيم.

إياك أن تتوهم في أضعف رجال الله أنه يكترث بهذيان المنّان، أو تتوقع بهتان اللسان أو تهابه سطوة مجان، أو إرسال السهم ومقاتلة السنان، أو همة ترفع عليه في الجنان.

أو تقول: فاتتني ساعة في الدنيا ففوتتني جنة في الجنان، ومنة من الرحمن المنّان. بلغ خلدي على لسان حالي ماهية الهمة الواصلة إلى ما رضيه الله، وبذلك الرضا لا يصح السخط والرضا، ولا المحرك القريب والبعيد والأسباب إنها تقول يا جليل أنعم علي بجلالة مجد من بعضها الأمل وبغاية قصد في ضمنه الأزل، وبعادة عون في عرفها المدد، وبراحة قلب في قوته الوجل.

ثم تقول: أنعم علي بخير يقطع الأمل لكونه هو الجامع المانع، فإما يعطي بغير مسألة، وإما يفعل بغير وساطة إلا الضروري الذي يستند إليه من جهة الافتقار المعقول لا من جهة الوجود الخاص أعني القائم بالولي، أو بكذا أو بأكثر من كذا، ووجدت أن الإنسانية التامة بعثت إلى العالم العلوي رسولها بأنها حرة عنه وذلك الرسول قصدها، ثم بعثت إلى الممكن العام أنها خارجة عن حكمه ثم وجهت إلى الواجب في الممكن أنها منه في وقت ما، ثم توجهت هي إلى الواجب العري الذي يأخذ الوجود النائب عن المعتبر الأعلى ويربطه إلى الماهية القابلة المعقولة في المثل المعلقة وهي واحدة في الأمل الكلي والمظهرة في الأشخاص المنتصبة والظاهرة بمعنى الأمر الطبيعي وفي الأجسام سارية بالمشار إليها فيها.

وبالجملة: هي كثيرة بالنظر إلى واحد واحد، وواحدة بماهية ماهية، وموجودة بمضافها، ومعدومة بوجه ما إذا طلبت ذاتها المشار إليها وممكنة في الحكم المفروض وبالنظر إلى شخص شخص، وعرفته أنها خارجة عنه، ثم توجهت بعدما وجدت وغرضها الله بحيث لا يكون واسطتها هو، فإن استجاب عندها وجدته، وإن آنسها دون ذلك الوجود عبدته، وبلغني عن رسول حكمة الأحكام خليل رسول الأحكام أنها تقول: الهيولى تنحل إلى أوهامي، والصور المجردة تصدر عن تطوراتي، والنفوس المجردة المحركة

المعقولة في الهياكل لأنها قوة شائعة فيها من بعض محمولاتي، والعقل القريب منها من بعض ملاحظاتي، وهكذا.

والعقل الأول أو الفصل أو القلم أو القريب أو المعلول الشريف أو القضية أو النكتة الخاصة أو المظهر أرباب العوالم الكريمة أو صفة القديم مثل ذاتي المنسوبة. وهذا هو أيضًا كذلك؛ لأنه كلامنا والظاهر على ما هو بسبيله لا أنه أعنى هذا المعنى يفقد هذا أو يفوته وجهه الأعز. فإذا كان حال القوم هذا الحال، وأمرهم من قبيل هذا الأمل، وشأنهم هذا الشأن كي يطلب زعيمهم بسياسة أخس أضداد مع كون العوالم كلها عنده على كمالها؟ وإياك أن يخط لك اعتراض الدعوى وميله إلى تعظيم نفسه فإنه يصدق جميع ما قاله على الله، والذي يجد نفسه على معنى هو مؤلف من الذلة والصغار، ومن عزة الطاعة والناموس ووضع الشيء في محله وجعل ما ينبغي على ما ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي له أن يزهد ويتواضع بحسب المواطن المعروفة، ويفزع إلى حفظ العادة وإلى أهلها. وهذا الرجل قد برأه الله من ذلك كله.

وقد كان في ذلك قبل هذا عجبت ممن يبحث عن سعادته الثالثة التي يصعب عليه أن تجد له، وأنها هي التي يجد بها الإنسان جميع ما يوافقه ويلائمه في حياته ومماته، والتي يمشي بها نحو الصواب في المدلول الشرعي، وهي مدلول رضوان الله الكريم ثم يهمل طريقها بكونه يركن إلى غير ركن الأين الجوهري الذي هو التفويض المطلق أو السكون إلى أخباره الطيبة أو مدافعة ما بالمعنى الذي لا يختل معه الحال، ولا يصعب معه القيل والقال، ولا يفوت فيه للمحقق أن يكون مع الله على أي حال كان بالنظر إلى الأوّليات والسوابق وبالوجه الذي يصح فيه وبه رضوانه المعروف بعامل الشريعة المنكر عند قائل الحقيقة.

ثم أضاف إلى هذا الذي هو مادة الهذيان المضحك هذيانًا إذا أخبر عنه استعاذ منه الرجل الذي أهمل المصالح العامة والخاصة على الإطلاق. وذلك الشيء المضاف هو نصيحة شخص لا يستحسنه العقل ولا تحض عليها الشرائع ولا يسلهما المعروف ولا يمشي معها مصلحة مبطلة فتعقل أو مصلحة فتثبت أو تنقل.

وقد قام البرهان على أن الأعلى الرئيس لا يدبره الأدنى الخسيس، فإما وهم وقت الغفلة عن خبره الكريم بوهم أوقع عنده خوفًا، وإما كان في فترة من الجميع، وإما أخذ القهقرى وإما اجتهد، وذلك الاجتهاد ظنه به أنه يحفظ الوقت به، وأنه بذلك على طريقة شرعية بل صوفية وتحقيقية. وهذا من انجرار الأوهام وبقية جهل وهي أحسن مما تقدم

وأصعب للزوال لأنها غالطت الواصل. والقوي هو الذي يغلب القوي بالله عليك بجمل بعارف أو بمحب في المعرفة أو بقريب منها أو بقريب من القريب وهكذا إلى غاية الإعياء أو ينحط.

وكلامنا لمن علم النازلة والنفس الشريفة والأخرى النازلة، أو لمن يفهم الفائدة العامة بحسب الخطاب العام إلى رتبة تحطه في مقام السؤدد والمعنى المسود الذي به يقال للفاضل: أنت الأوحد ويقعده في هيولى جهنم السيئة هو ذلك الكلب الأسود.

أفي اللاهي قدرة على الله؟ هل في معاملة الله مجاز أو بالباطل على الحق بجاز؟ من كان الله ضالته يطلب الأنعام، ويتوهم أنه تعرض للإنعام. هيهات! لا شك في الله ولا شيء أعز من الله، ولا موجود على الإطلاق لا يفتقر إلى الله ولا إله إلا الله.

اعلم أن لا حول ولا قوة إلا بالله. يجب عليها الأدب والاستغفار عند الخواص إذا تمت على سدادها، فيكف قول أنت أنت لمن إذا أطلق القول عليه مع العدم بترادف يسأل عنه المتكلم لأنه أضاف بعض المعلومات على رأي بعض الناس إلى شيء لا ينسب لشيء من هذا كله عند كل الناس! فإن كلمة: «لا حول ولا قوة إلا بالله» إن كان قالها وهو لم يعلمها إلا وقت همه وامتحانه فهذا فيه ما فيه، وإن كانت المحنة هي التي ذكرته فأنحس وأخس. وإن كان استعان بالله على بعض أفعاله فهو من الأمور المضحكة، وإن كان قالها عبادة، فأمره يتحمل وينحط عن رتبه الخواص. وإن كان قالها دون شيء ولا لها معتبر إلا مفهوم الذكر، فذاته أولاً.

وبالجملة هي كنـــز من كنوز الجنة، وكنوز الجنة هي من بعض أسباب بعض منّه. واعلم أن الذي يطلب الجنة ولا يعتقد أنها سبب القرب إلى رؤية الله، فأهل النار أحسن منه بالنظر إلى همته ومن جهة تعظيم المطلوب لا بالنظر إلى سخط الله.

والجنة من جملة الخيرات التي تراد لغيرها، هذا عند الضعفاء وفي سلوك الأرواح وهم بعض المجردين.

وبوجه آخر لا يهمل الوجود على أي وجه كان وفي أي مظهر تصور، ولا يتنوع في ذاته الموجودة، والتقديم والتأخير لا يغتبط به السعداء. من نصح وأجاب فهم من الضعفاء، وإلا أن تكون النصيحة من بعض أخباره المهملة والناصح ضد ذلك الناصح.

إيه! بالله من أقدم: المجاز أم الحقيقة؟ وكلامنا من حيث أصولها. فان المجاز مع الحقيقة في مفهوم العرض، غير أن الحقيقة ترجع إلى الحق، والحق يرجع إلى الله من حيث هو أهم ذات له، والمجاز ينصرف إلى أفعاله، وصفة ذاته قديمة وصفة فعله حادثة، والأمر فيهما

ظاهر جدًا. يا هذاإتعلقك بالقديم وإن كان على وجه ما بعيدًا وفيه معقول المثلية هو الأكمل وهو الموصل وهو هو فاعلم ذلك! سقطت مكالمة من كلم غير الله عند أهله. وإذا أردت البرهان على ذلك خذ نفسك بإنكاره فإن لم تستطيع فاعلم أن الأمر صحيح.

وجميع من قال: وجدت الاستغناء عن الله أو رأيت في الوجود غير الله قل له: هذا من جهة العادة فقط، أو من كونك لا تعلم إلا المحسوسات، أو من كونك توهمت أحوال المؤمن والكافر، وكونك تقول الضرورة لا يختلف فيها أحد. وأي منفعة للعلم إذا كان الله في غاية الوضوح! وهذا كله محض الأوهام والحرمان. وبعقد هذا كله بصناعة التحليل والتركيب في الشيء الواحد يظهر لك مدلول قولي. لاشيء أغرب عندي من رجل يقول الله بلسانه ثم يحرره بقلبه، ثم يطبقه على توجهه، ثم يجده في جملته ثم في خارج ذهنه ثم في الجميع من حيث ذلك الإجماع، ثم من حيث ينـــزع إليه، ويفتقر ثم يشعر ويشتغل، ومع هذا تبدده مع ذلك خطرات نفسانية ووساوس شيطانية، ومع هذا لا يعلم عنها وبغفلته عن تفقد محاربتها يكون منها أهلاً وسهلاً بثبوب الهمة على مضافها. وسلام الله ورحمته على ذواتها! بأي دليل أو بأي حجة أو بأي عذر يصح الخروج عن قصد الله الصحيح! وما أحسن روحًا يقرأ عقب التفكير في المؤمن إذا نـــزع الوهم بينه وبين قصده بلسان حاله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: 56] : أي من رضي عنه كانت الترهات تستطاب قبل ظهور الأخرى والأولى، بل كانت الحكمة العلوية تعطى قبل الإلهية، بل كانت السعادة تستعظم قبل معرفة التوحيد المعتبر الذي لا تلتفت السعادة معه والموحد في حاله، فإن ذلك يجر إليه الشرك لكونه يقسم بساطته وإن لم يركبها، فإذا زال عن ذلك لا أنه زال بمعنى مفهوم كان، وإنما ذلك مما يشعر به في مدلول حد ورسم ووصف أو في قوة ذلك بل لا شيء إلا محض الوجود.

إلى الله أشكو أنسي وسروري! خذ نفسك يا صاحبنا بالتشبه بالجليل، وعظم سنة الحبيب والخليل، ولا تتصف بصفة معلل التعليل. سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله! ما شاء الله كان! حسبي الله!

إيه! بالله عليك يا أيها الباحث السالك: ما الذي زادك في عادتك حتى تهت في فلاة هفوتك تيه التالف الهالك؟ هل ضاقت عليك المسالك؟ أم جهلت حج حجتك لا حج المناسك؟ أو خدعك باطل المموه بسيره المنقطع الناسك؟ بحياتك، بأي وجه تصرف وجه وصول نعمة النهاية من مقابلة مرآة الهداية، وتوجهه إلى غير أصول البداية؟ وبعيشك أخبرني عن بصيرتك: هل جازت على سيرتك، أم كادت على حاكم سريرتك؟

أعوذ بالله من عدو الله الذي يصد العديم عن طريق الرحيم، ويحمله إلى حيز اللعين الرجيم! خطر لي أن أنصحك، فاقبل نصيحتي.

وحاصلها: يا هذا إن استطعت تكمل إنسانيتك وتحررها من رِقٍّ طلب كمالها، وتجردها بتخصيص مهمل جمالها، وتحسنها بتفسير مجمل فصولها، فانقطع في مغارة الفوز حيث انقطع المحققون، تجد ثمرة الجد التي تثمر الجد وهي واحدة تولد واحدة مثل شجرة الموز، وهي الإنسان النبيه أنفع من أبيه، واكشف للعلوم من أبيه، وبها يحصل المعنى الذي هو المتقدم منه يتلف بوجود المتأخر مثل النبات المسمى قاتل أبيه واصبر على مكابدتها، ولا تستوحش من وحش حشوها، ولا تمرح في ميدان البطالة حيث تختبر مطايا الباطل.

وفرّ عن فحشها فإن مركوب الهوى يعثر في التلف براكبه ويهوى في الهاوية بصاحبه. واستجلب في تلك الغربة للغريب، وكلم بالمقرب المقرب القريب، واعتمد على ما في حاصل جنانك لا على غرب لسانك وبهتان برهانك، فإن همام الدنيا مهموم، وذمام العليا فيها عند الله مذموم ثم دم على إحسانك وإيمانك، فكم بين خوفك وأمانك! وإن أردت تعجيل مدلول هذه الوصية الصالحة التي تجارتها رابحة وسعادتها ناجحة، وموازين رشدها راجحة تأمل شخوص عين روح حبيب الجليل وانتقال وجه توجه قلب الخليل، وكيف ثبت ملاحظة هذا حتى وقعت العين على العين، ولم تُحْوِج إلى الكم والكيف والأين وما اشتغل بمدرك مقدر في البسيط، أو محمول في المركب.

واطلع على الملكوت قبل تصفح أحوال الكوكب والفلك الأطلس والمكوكب، وكيف استقام تصفح هذا ومتابعة الأشياء العسيرة شيئًا شيئًا، وسبر مساحة افتقارها بطول التأمل الخالص المخصص في الطول والعرض حتى حصل الحاصل الأول المعلوم الأول عند الأخير الأول، فاطر السموات والأرض، فأظهر الله عبرة الأول لأهل البصائر والسرائر وعبرة الآخر لذوى الأبصار والإبصار بالصنائع لا بالضمائر، هذا مع الحال والخبر والآخر مع الفكر والأثر، أدرك آخر أمره أول أمر ذلك، ولأجل ذلك ما هو كذلك، ولا يسع لسان الإنصاف إلا أن يقول: يا والداه! لست من رجاله، ولا رجالك كرجاله، هو غريب في مجاله، وفي أفراحه وأوجاله، وحقق النظر فيها واحفظ الأثر المسموع من فيها، وإن هممت بالاستقلال قبل الاعتدال فاعزم على قطع وهم الاختلال، ولا تضرٌّ نفسك بمضرتين، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

وبالجملة: عليك بالشريعة، فالسعيد من تعلق بأذيالها، وزلزل نفسه زلزالها، وأخرج بالخشية من عينه أثقالها، ورفع بقوة التبعية عن النسمة أوحالها، وكان بحيث تكاد فراسته

تحدث أن الله أوحى لها: حبيبنا صاحبنا مدبرنا[1]. يا نحن، يا هذا، بل يا أنا! عصمك الله

(1) قال السيد مصطفى البكري: اعلم أن الشريعة هي الباب واللباب، التي تهدي إلى صواب الصواب، وأول واجباتها معرفة رب الأرباب على طبق السُّنة والكتاب، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: معرفة عوام، وخواص، وخواص الخواص.

فالأولى: معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه تعالى، وكذلك في حق رسله، وهذه واجبة على كل مكلفٍ؛ لئلا يشتبه عليه الحال فيقع في الخيال، وليسلم من ورطة التقليد في التوحيد.

قال صاحب الجوهرة: إذ كل من قلّد في التوحيد إيمانه لم يخل عن ترديد، وكل من طلب الثانية ولم يحكم الأولى كان جاهلاً بالله؛ فإنها أولى وأولى، ويجب على صاحب هذه المعرفة أن يطلب العلم الواجب في حقه؛ ليكون ممن يعبد الله على بصيرةٍ، وإلا كان ما يهدم أكثر مما يبني.

ففي الحديث: «ركعتان من عالمٍ أفضل من سبعين ركعة من غير عالم».

والعالم العامل هو الورع المشار إليه بحديث: «ركعتان من رجلٍ وَرِعٍ أفضل من ألف ركعة من مخلطٍ». رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس. وإلا فمع الجهل أين الورع.

والثانية: معرفة آثار الأسماء والصفات، وظهور أنوار تلك الآثار في القلب ليخلص صاحبه من الآفات، وطريقها تسيير الأوقات بالعبادات، وتزكية النفس وترك المخالفات، والجلوس على بساط الفقر والانكسار، وشغل القلب بمراقبة العزيز الغفار، والاقتداء بأستاذٍ شهدت بصحة عقيدته وكماله العارفون، وأقرَّت بحسن منازلاته ومواجيده الواصلون، ليسلكَ به مقام التعلق، ويرقيه إلى التحقق، ويوصله إلى التخلق، وهناك يدرك الأسرار بطريق المنازلة والذوق، ويأكل لا من تحت الأرجل بل من فوق، وطريق التصوف عند السادة الصوفية، كله تخلق بالأخلاق المصطفوية، فمن زاد تخلقه زاد تصوفه، والتخلق يحتاج إلى السلوك، وهو يفتقر إلى المرشد العارف.

قال الشعراني ﷺ في الميزان: أما سلوكك بغير شيخٍ فلا يسلم غالبًا من الرياء والجدال والمزاحمة على الدنيا، ولو بالقلب من غير لفظ، فلا يوصلك إلى ذلك، ولو شهد لك جميع أقرانك بالقطبية فلا عبرة بها. وقد أشار إلى ذلك الشيخ محيي الدين في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات فقال: «من سلك الطريق بغير شيخٍ ولا ورعٍ عمَّا حرَّم الله فلا وصول له إلى معرفة الله تعالى المعرفة المطلوبة عند القوم ولو عبد الله تعالى عُمر نوح ؑ».

ثم إذا وصل العبد إلى معرفة الله تعالى فليس وراء الله مرمى ولا مرقى بعد ذلك، وهناك يطلع كشفًا ويقينًا على حضرات الأسماء الإلهية، ويرى اتصال جميع أقوال العلماء بحضرة الأسماء، ويرتفع الخلاف عنده في جميع مذاهب المجتهدين لشهود اتصال جميع أقوالهم بحضرة الأسماء والصفات، لا يخرج عن حضرتها قول واحد من أقوالهم.

وهذه المعرفة نتيجة التخلي عن الأخلاق الذميمة، والتحلي بالأوصاف الكريمة، فأثمرت التجلي بالأسرار العظيمة، وفي الحديث: «الأخلاقُ مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أراد الله تعالى بعبدٍ خيرًا منحه منها خُلقًا». وقال ﷺ: «إنما بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق».

=

قال صاحب عوارف المعارف: «فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق، فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهَّاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها».

والثالثة: معرفة كنوز أسرار الذَّات العَليَّة، وهذه المعرفة خاصة بأكابر المحققين من الأولياء الرَّاسخين.

وطريق هذه المعرفة لا يكون إلا عن محض المِنَّة، وكرامة صاحبها استقامته على نهج الكتاب والسُّنة.

قال أبو يزيد البسطامي قدَّس الله سرَّه: لو نظرتم إلى رجلٍ أُعطي من الكرامات حتى تربَّع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة، ولما قصد زيارة ذلك الرجل المشهور بالزهد ودخل المسجد، رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف ولم يسلِّم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدَّعيه، فاتِّباع القدم المحمدي نعمة وأي نعمة، والزيغ عنه نقمة لا يماثلها نقمة، فإن شؤم هلاك الدين لا يعادله شؤم، نعوذ من ذلك بالله الحي القيوم.

وإذا نظرت بعين التحقيق في هؤلاء الزَّنادقة المنابذين لأهل الطريق لم ترَ عندهم غير شقشقة اللسان الخالية عن الدليل والبرهان، وإذا بحثت مع أحدهم أسفر وجهه عن أخلاق البغال بكلام أبرد من برد العجوز؛ لتمثله في وصف النعال.

ثم قال أيضًا: وقد رأيت في بعض الرسائل حديثًا مرفوعًا وهو: «الشريعة مقالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة حالي».

وعلى تقدير صحته فالشريعة: البيان، وهو بالمقال وما ينطق عن الهوى وبالأفعال، وهو أبلغ فاتبعون يحببكم الله، والحال ما ينتجه البيان فعاد الأمر إليه.

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في كتاب «التراجم» في باب ترجمة الشريعة والحقيقة: لطيفة: يخيل لمن لا يعرف أن الشريعة تخالف الحقيقة، هيهات بل الشريعة عين الحقيقة، وأن الشريعة جسمٌ وروحٌ، فجسمها الأحكام وروحها الحقيقة، فما ثم إلا شرع. لطيفة: الشريعة وضعٌ موضوعٌ وضعه الحق في عباده، فمنه مسموع وغير مسموع، فلهذا من الأنبياء متبوع وغير متبوع، ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [الأنفال: 21]، كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

وقال في فتوحاته في باب الشريعة: الشريعة من جملة الحقائق، فهي حقيقة لكن تُسمَّى شريعة، وهي حقٌّ كلها، والحاكم بها حاكمٌ بحقٍّ مثاب عند الله؛ لأنه حكم بما كلف أن يحكم به، وإن كان المحكوم له على باطلٍ، والمحكوم عليه على حقٍّ، فهل هو عند الله كما هو في الحكم، أو كما هو في نفس الأمر؟ فمنا من يرى أنه عند الله كما هو في نفس الأمر، ومنا من يرى أنه عند الله كما هو في الحكم.

ثم قال بعد كلامٍ طويلٍ: فعين الشريعة عين الحقيقة، والشريعة حقٌّ كلها، ولكل حقٍّ حقيقة، فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما ينــزل في الشهود منــزلة شهود عينها في باطن الأمر،

فيكون في ذلك الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد، حتى إذا كشف الغطاء لم يختل الأمر على الباطن.
ثم قال: فما ثمَّ حقيقة تخالف الشريعة؛ لأن الشريعة من جملة الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه، والشرع ينفي ويثبت، فتقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، وهذا قول الحقيقة بعينه، فالشريعة هي الحقيقة.
وأطال في ذلك. وقال فيها أيضًا: ومن جملة آداب الحق ما نزلت به الشرائع.
وقال: لما كان الأمر العظيم يجهل قدره ولا يعلم، ويعز الوصول إليه، تنـزلت الشرائع بآداب التوصل؛ ليقبلها أولوا الألباب؛ لأن الشريعة لُب العقل والحقيقة لُب الشريعة، فهي كالدهن في اللب الذي يحفظ القشر، فاللب يحفظ الدهن والقشر يحفظ اللب، كذلك العقل يحفظ الشريعة والشريعة تحفظ الحقيقة، فمن ادَّعى شرعًا بغير عقلٍ لم تصح دعواه، فإن الله تعالى ما كلف إلا من استحكم علقه، ما كلف مجنونًا ولا صبيًّا ولا من خرفٍ، ومن ادَّعى حقيقة من غير شريعة فدعواه لا تصح.
ولهذا قال الجنيد: (علمنا هذا يعني علم الحقائق الذي نجا به أهل الله مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة: أي أنه لا يحصل إلا لمن عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الشريعة، وقال: إن الله أدبني فأحسن أدبي، وما هو إلا شرع له، فمن تشرَّع تأدَّب، ومن تأدَّب وصل).
وقال سيدي عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى في نشر المحاسن:
اعلم أن الشريعة الشريفة المنيفة مشتملة على قسمين: علم وعمل، ثم العلم من حيث الجملة على قسمين: ظاهر وباطن.
والظاهر على قسمين: شرعي وغير شرعي.
والشرعي على قسمين: فرض ومندوب.
والفرض على قسمين: فرض عين وفرض كفاية.
وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم صفات القلب، وعلم أصل، وعلم فرع.
وقد مثلت لهذه الأقسام وغيرها من أقسام العلوم، وبيَّنت المحمود منها والمذموم، وأوضحت ذلك في خاتمة كتاب شرح التوحيد.
والقسم الثاني من التقسيم الأول وهو العمل على قسمين: عزائم ورخص. إذا علم هذا فاعلم أن الحقيقة ذات المعاني الرقيقة والعلوم الدقيقة مشتملة أيضًا على قسمين: علم وعمل.
والأول منها على قسمين: وهبي وكسبي.
فالوهبي: علم المكاشفة، والكسبي على قسمين: فرض وغيره.
والفرض على قسمين: فرض عين وفرض كفاية.
وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم قلب وعلم أصل وعلم فرع، كما تقدَّم في العلم الشرعي.
فهذا العلم الكسبي الذي هو أحد قسمي علم الحقيقة هو علم الشريعة، والقسم الثاني من القسمين الأولين وهو العمل هو القسم الأول من قسمي علم الشريعة الذي هو للعزائم، وهو

وإيانا من الزلل، ومن علة الملل والخلل، ومن القبيح في كل الملل والكسل إن أخبرك الوسواس حال هفوة ما بضد هذه النكتة، ويخطر ببالك أنها جاءت على جهة التوبيخ والجدل، وإنها من قبيل الحكايات والمثل، فاخرج عن خيال هذا الخاطر، فإنه لا يجمل بالقاطن ولا بالخاطر، وادفعه بقوله ﷺ: ﴿وَكَانَ الإنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: 54]، بل بقوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: 50] وآخرها سلام الله على أهله وأهلها من كل الجهات وعلى المنيب كذلك، وعلى القريب من ذلك، وعلى من هو دون ذلك ومن كان بضد أولئك أو ذلك فعليه سلام الله عادة وشريعة فقط، وإن كان مطلقًا فيكون تخلقًا.

هذا كتاب أكثر فوائد من الأربعين، نعم ومن المائة المتوجهة، ومن الثاني، ثم الثالث.

ومن فهم مرادي فيه كان في زمانه بل في قرنه لا ثاني له ولا ثالث، وفيه معانٍ تدهش الشايب والناشئ؛ يعلمها العليم، والضد يعترضها بالصنائع وبالقيل والقال صحبةَ العرف الفاشي.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الله فقط: خذ نفسك اليوم بتحسين أخبارها، واجتمع في ذاتك بالكلية، ويصلك فتح

- مشتملٌ على سلوك طريق الحقيقة، والطريقة المشتملة على منازل السالكين تُسمَّى مقامات اليقين، فالحقيقة موافقة للشريعة في جميع علمها وعملها وأصولها وفروعها فرضها ومندوبها، ليس بينهما مخالفة أصلاً.

نعم هنا شيئان من العلم والعمل أحدهما: علم صفات القلب، فأهل الحقيقة لهم به اعتناء واهتمام جدًّا، وسلوك طريقتهم موقوف على معرفته وتبديل صفاته الذميمة، وأكثر أهل الشريعة مهملون ومتهاونون فيه مع كونه فرض عين في الشريعة والحقيقة بلا خلاف.

وأما القسم الثاني من قسمي علم الشريعة وهو الرخص، فأهل الحقيقة من حيث العلم والاعتقاد لا يشكون بأن ذلك حق والعمل به جائز، لطفًا من الله تعالى بعباده، ورحمةً بهم في التخفيف، ورفع الحرج عنهم.

وأما من حيث عملهم فلهم في العمل طريق في شواهق الحق على شوامخ جبال عزائم الشريعة الغراء، يسلكون فيها إلى الله تعالى بتوفيقه وعنايته، وجميل لطفه وصيانته وعرة العقاب صعبة الذهاب، منهم من يقيم فيها سبعين سنة، ومنهم من يقطعها بتوفيق الله في سنة، وبعضهم في شهر، وبعضهم في جمعة، وبعضهم في يوم، وبعضهم في ساعة، على حسب معونة الله الكريم وتقدير حكمة العزيز العليم. انظر: السيوف الحداد (ص 60) بتحقيقنا.

الله المشخص. ثم اقطع ذلك الخبر بعينه وفرق المجتمع تصل بذلك إلى الله ويفتح به ما تشاء. وهذه أدوات الخواص لصنائعهم المحصلة في جملة من فطرته وواسطته إلى ما فيها بالقوة. الله يعلم أن كلام الرجال نوره المرشد، وهو يعلم أنهم نوره المستعار، وهو محيط أنهم نعمته الكاملة. من توجه إلى حبك به اصطفه، فإنه بذلك أنت المحرك، ولا تهمل حقه، ومن كان بالعكس عامله بحسب ذلك. إن أنت قلت آه من غير أجل الحق، وفي ذات عادتك فآه آه آه على ضميرك الراجع إلى وهم نسبتك الواقفة، وإن قلت ذلك من أجله بالجملة فنعم الحال ونعم الوصف ونعم ما قلت، غير أنك غير الذي تختاره في وهم كمالك، وإن كنت ذلك في ذات شكل مألوفك طاب عيش من جمع واحد على شمائله. الحمد لله على كنهه المكتسب، وأعوذ بالله من أضداد التوفيق. ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: 10] لقد طال عذاب من بحث عن الله! وما أطيب عيش من أشار إليه أو وجده! سلام عليك! ما أشوقني لصالح حالك! والحمد لله وحده.

الله فقط: يا همام! اهتمامك بماهية همّتك هو همّك الأهم، فعجّل باهتبال عين كمالك، ويكون شوقك إليه لا يتبدل إما العمر كله وإما في أكثر الزمان، فإنه كَدُّك الذي يجب أن تحصله ماهية قرة العين.

سلام الله عليك ذلك الصاحب أهلاً وسهلاً بك يا بد الغبطة، كيف حالك الثابت؟ لقد همت النفس النفيسة بالكمال، وهمّ بها لولا أن رأت برهان ربها. فلو أبصرت برهان ذاتها لم يعرض هو ولم تستغفر هي، يا أسفا على الجهل بجميل جمال يوسف! لمن توجه إبراهيم إلى آخر من نظر فيه أو إلى أوله أو إلى وسطه أو إلى ما بعد ذلك ولا هو بالجملة غير ذلك، أو إلى أمر لا يوصف بالوجود ولا بالعدم أو انصراف إلى المتوجه وعن من أعرض في ذلك وانتقل.

إنا لله وبه وإليه راجعون، بالرجوع الذي لا يعقل القبل والبعد والقرب والبعد ولا في مجموعه حجة مكانه الخلة جعلته يحج الكنعاني بالقول وماهية مشارها وغايتها صرفته في مدلول طلب المذكور بالفعل بعد ذلك؛ لأنه ظفر بالكيفية أدرك التصرف فيه.

فنعم ما فعل في تطوره، ثم في كشف المذكور الخاص، ثم في توقفه في المقدر، قم في تصريفه في بعض آثار المألوف! لا بد لكل رجل من يوم وكوكب وساعة في ذلك اليوم وحكم لذلك الكوكب. وأنت يومك يوم الأحد، وساعتك أوله، وكوكبك الشمس، وهو صاحب اليوم، وهو أول الأيام. ولا بد لكل عارف من مقام ولو كان فوق المقامات لكان مقامه إلا مقام، ومقامك التوحيد، وأنت في وقتك فيه واحد الحال فأنت أَحَدِيٌّ من

يومك ومقامك وحالك. فانسَ نفسك، ولا تكترث بما كان في تلك الساعة، أعني ساعة الاختبار في يوم الجمعة الفارطة، فهي الساعة المشار إليها فيه، بل هذه تزيد عليها ولأنها كانت داخل الذهن وخارجه وصحبة الاستعمال والتشبيه بالخواص والظفر بخواصهم. ولولا أن الخير لا يتوقف لقلت هي هي وأمرك كان الكاشف لها حتى أنك لو أرحتها لعلم وقت الساعة المبحوث عنها. فاحمد الله على نعمة التخصيص.

واستعذ من أهل السبت، أهل الذل والتخسيس، فهو اليوم الذي ذل به أهله قبل. والمنتسب إليه في وقتنا هذا وكثير ما بين من ينتسب إلى الأحد ويقال له الأَحَدِيّ، وآخر ينسب إلى أهل السبت، ويقال له لذلك لا بغيره السبتي.

استقام الموحد على صراط وحدته وتوحيده، لأن الوحدة المحضة لا يمكن فيها الحيرة فإنها لا تصح في أكثر من واحد. وهذا الصراط لا امتداد له، وهو أقرب إلى النقطة من الخط.

بحياتك لا تلتفت إلى الموتى، وبعيشك لا تتحدث إلا في عيش الآخرة، وبحق الحق لا تسأل عن أهل الباطل، قل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: 26]، وقل: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]، قل﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق: 1]، قل: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: 1]، من الوهم ومن الكون بعده ومن المقدر والمألوف ومن من وأمثالها لأنها تعلق بغير حق، ثم قل: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: 1]، فهو حالك مع ذلك الحالك إلى آخرها. لو كان فيهما موجود غير الله لكان الله، وبالوهم لفسدت. حافظ على القضايا والقضية الوسطى من كل الجهات.

إيش تقول إذا قيل لك: من أنت؟ ما يكون جوابك إذا قيل لك: ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف: 54]؟ بماذا تستدل على ثبوت العالم وأنت قد سمعت ترجمان الغيب يقول: أصدق كلمة قالها الشاعر كذا وكذا «يا حق: «أَفِي اللَّهِ شَكٌّ»». خير الكتب من كان ختامه مسك ومسك لأن ذلك لا يكون إلا من أجل أمر ما عظم وآخر بعده أعظم منه. الله أعلم حيث يجعل تلك. والسلام على غاية قصدك منك وفيك.

الله فقط! يا قرة العين في الغالب أو بالقوة! بالله عليك اعتدل وأملأ صدرك من الله، ثم قسم ذلك النصيب الشريف على جملة قواك الروحانية والجسمانية، وافعل بحسب ذلك ثم افعل بحسب ذلك ثم افعل، ولازم حب الله حتى يظهر أو يظهر جاه ذاته بالذات في الذات، وما أجل ذلك ولو كان مرة في العمر! وكثير بين من يتطور في الأحوال، وبين آخر بذلك النصيب بحقه على مهجتك الجليلة، خذ نفسك النفيسة باستجلاب ذلك،

واحمل عليها تلك الحلاوة، يا بغية الخدين! طال تنبيه الناصح المنبه، فانتبه، فإنك بقولك لا بفعلك ولا بمقامك له وبه وقال: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء: 77]، حتى امتحانها وقواطعها. كيف يخاف عرض الفعل من هو جوهر الذات، وآنيته تالية، وفي مقابلته الأنموذج المترجم عن القبول، وبين عينيه نوره الكاشف ورأيه النص على رأس مكانته، وقلم الظفر يكتب: «الحمد لله على نعمه»، ولسان العز يقول: ﴿كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: 40]؟ من قرَّ بالله ينبغي أن يفهم مدلول إيمانه ويحرره بالصدق الرابط لا جزاء علة الوصول ويصرفه في كل أحواله ولا يجتمع من الحلو والمر أعني من المعتقد، فإن الجميع عن الله فقط بل يصبر أو يتلذذ ويجمع بين الأحوال المكتسبة والطبيعية والمألوفة الجارية في مجرى المكتسبة، ثم ينظرها بنظر آخر أقرب من الأول إليه بل بآخر أقرب من الأول إليه، بل آخر أقرب من ذلك ثم يلاحظ القضايا منه بالفعل، وإن كان الوهم يمنع ملاحظتها فقد يعلم ويتأنس بالنكتة المرتكزة المؤقتة.

من قال: «الله معي والله شاهدي والله حاضري، والله محيط بكل الأكوان» المقدرة والحاضرة والذاهبة وبجميع ما هو من هذا القبيل الذي ينسب بالإضافة إليّ ولا يصح إلا بوهم العبودية كيف يخاف أضعف الأوهام؟ ارجع البصر كرتين. عجبت من أمرك حتى لا شيء عندي أعجب منه: مرة تتحقق المطلوب وتتشوق إليه وتكون معه بكلك وتحتوي عليها وتستقل أو تستجهل سهل بن عبد الله بل سهل بن مالك، وأخرى تنقلب إلى ضد ذلك كله حتى يستخف منك المضمار على لسان حال سحنون من أتباع مالك.

بأي حق تبدل حضرة الحق بحضرة الشيطان؟ أعني ما الذي حملك على تخصيص الوهم وإهمال الحق؟ كف عن متابعة التوقع، واقطع حبل التذلل بمدية التدلل، واجمع الأشياء إليه واحكم عليها به وانظرها منه، ولا تنكر الله على أي حال كان، ولا تحب منه البعض وتكره البعض، أعني من حكمه وأفعاله وما تعلم منه وما هو عليه. بالله عليك لا تلتفت إلى وهم المبطل المموه الغبي، فإنه قتيل سنانه ومذموم لسانه ومخزون جنانه وجاهه قد سقط من عين الأمل المحمود سقطًا، ورزقه لو مر عليه الطائر الخائف للقطه لقطًا. لا تقل إلى الله أشكو بثي وحزني وأنت محمدي الطريق ؛ وافهم ما جاء في قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42] من حيث حال يوسف الصديق، وفكر في فكر أبي بكر الصديق الوقوف مع قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ﴾ [النساء: 79] صرف الوجه عن ملاحظة مقام الدعاء والغبطة بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84] وقف تردد الذهن في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: 68]. ومفهوم

قوله: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: 10].

في مكان جمع الوحدة عطل اللسان عن ذكر لا حول ولا قوة بالا بالله، والرضوان القريب صحبة استصحاب المنّة يفضل على كنـــز من كنوز الجنة.

ذكر بعض الرجال عن رجل خلع الإنسانية المشخصة وكان الشيء الذي يقال له في الإنسان الضمير يتكلم فيه وحده ويفصل عن الأزل بالمكان حتى كان يصل ويستجيب فيه جميع المطلوب بوجه عزيز بالنظر إلى القطب الأمضى، وذليل بالنظر إلى الأكمل، وهو الذي لا يصح في حقه ذلك أنه كان يقول إذا انحط في وقت الفرق المميزة له عن علل المشاكلة: يا الله! إن كنت وكلت الوهم بالضمائر وأطلقت له ذلك فعساك تستثني منه خطفة الكسل، فإنها تجر إلى نفوره عنك، ويفوته ملاحظة جلالك.

جاء بعض الرجال إلى رجل قد تركبت طبيعته من ذلك ومن ذلك، وذلك بالأقل والأكثر في بعض المظاهرة الجنسية الطارئة وقال له: لم تنظر غير مقصودك؟ قال له: لأنني وجدته حتى في قولك «غير»، فهو المثل والغير.

فإذا كان الضمير لا يتوقف إلا في القول به حتى يزيله ويكون عند هذا بمعنى واحد، كف الضمير عن التلاعب المهلك له والصدق المحض يقول لا شك في الشك ولا يقين في اليقين لأن الأمور الراجعة إلى الاستحقاق لا تنفك عن الأحكام المخيلة. هلك بعض الناس بمتابعة الأمر والنهي والكلام في الروحاني وفي الجسماني، وفي النفوس إذا توجهت عجائب لا تحد ولا تكيف، ومن عزم على تحصيل نصيبه وسببه قد قرب ثم يقف بعد ذلك – فقد انحط وزال عن يمين الكمال وانتقل إلى شماله.

اذكر الله ثم قل عقب الذكر كف، واذكر ثم قل كان، واذكر ثم قل ثبت، اذكر ولا تختبر، واذكر وحرر، واذكر وكرر نازلة إبراهيم: عرفها المختار وسلمها الصديق وطلب المحدث أن يحدث بها وتعذر عليها الحال. رب الجميع قسم النسب، ووكل على محل البهتان العلل والسبب، والرجل الكامل لا يختلف في قصده ويتنوع أمر طلبه من قبيل هذا كله. سلام الله على الظاهر والباطن منك ورحمة الله وبركاته!

الله فقط! حفظكم الله! نفس الولي مملوءة بواحدها، وهو المستولي على جملتها فلذلك لا تسأل عن غيره، ولا تسأله شيئًا. ومجموعها ينحل إليها في صفة وهم نفسها، ووجودها يرجع إليه، فشرها في نفسها أي من ذاتياتها. وهي أوهامها وخيرها أي وجودها وفضل الله فيها من الله. فمن قال: أنا بالوهم ما أنا به هوية، وبالوجود ما أنا به آنية. والوهم والهوية إذا تشخص فيه أي بالله قال: كان ذلك من عند الله. ويقرأ ضميره:

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ يريد من جميع ما يظهر على جملتك المحررة، ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: 79] أي بما هي به أعني الوهم أو العدم، وإنما يخشى الله من عباده العلماء. نبهت الضعفاء وأخبرت بشأن السعيد الموحد وكأنه قال: من يعلم الله على ما يجب وبقدر ما يمكن من الإنسان المعتبر لا يخشى إلا إياه؛ لأنه هو الفاعل في الغير ذلك، وإليه يرجع الأمر كله.

ومن خاف غير الله، وذلك الغير يفعل أو ينفعل له الوهم، لم يعلم الله حق معرفته ولم يشهد الله له بذلك ولا قال إنما. وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 18] الآية. يدل على الوحدة المطلقة، والوحيد السالم من علل المحتملات كلها لأنه لا يصح التوحيد ممن أشرك بالله بوجه ما والآية الشارحة لتلك وتلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 22] الآية، وكون الله قال إن العالم هو الذي يخشاه وقد وجدنا بعض المخلوقات يخافها الكامل، والشارع يأمره بخوفها، والله قد أخبر بحصر الخوف ولم يجعله إلا منه، فدل أنه ذلك المخوف كيفما كان. قد أخبر عن نفسه في المظاهر وفي الهياكل ووحدة الوجود يشهد لسان حالها بذلك فهو هو. والفرق بين العالم والجاهل في ذلك الخوف هو أن الجاهل يخاف الله [...] أنت وسط، فافهم.

وقد ذكر سيدنا ﷺ بعض هذا في السلام فقال: منهم الكلمة الجامعة المانعة، والحقيقة الجاذبة الدافعة، والآنية المرسلة، والهوية السارية، والخط الممدود والدائرة المحيطة فافهم يا هذا. الحج يفيد خرق العادة وموت الشهوات والخروج من كون ذل الطلب والإقامة في الحضرة وفهم أمثلة العالم وفك مُعَمّى الوجود، وكشف حقائق الموجودات، وقطع أوهام الزمان والمكان، وفهم أسرار الشريعة، وعلم نكت الأنبياء عليهم السلام، والاطلاع على أحوال القيامة ويفيدك السعادة ويقيمك في رضوان الله وأسرار الحج ونكته ومثاله هو سيدي وسيدك الذي نحن نقتدي به ونحن تحت نعمه التي لا تحصى، بل نحن نشأه وماهياتنا له من كل الجهات. فعليك بمحبته واستغراق الحال في ذلك، وامتثال أمره، والأدب معه، والتشبه به والتخلق بأخلاقه على قدر الاستطاعة، واستجلب رضوانه، ولازم طريقه، وراقبه في القرب والبعد، واحمد الله الذي قبلك وجعلك من أصحابه، واحترم أصحابه إخوانك وتعلق بكبارهم واطلب طريقه ومعرفته منهم فهم مظاهره، ولا تُوافق نفسك في مُرادها فيفسد عليك جميع ما ذكر.

وقد نصحتك وكتبتها للمستحق لها ولك بالقصد الأول ولا تمنعها من مستحقها.

قال ذلك يحيى بن أحمد بن سليمان البلنسي بالنسبة العرضية، ابن عبد الحق بن سبعين بالنسبة الذاتية. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيرًا دائمًا إلى يوم الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم كثيرًا دائمًا

«أصدق كلمة قالها القائل: أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ»[1]

سألت أيها الصوفي السنّي السُّنّي السيد السريّ الذي سلك سبيل صَرْم التسويف وصرفه، وملَك نيل جزم التصرف وجذبه، وخير خل خدينه في التوجه فيه لله وحده ذلك منه وأبى، وصيَّر سرَّ دينه عبد يقينه الإلهي الذي زَلَّ وكَبَا، وفهم مسلك السور ومهالك الصور، وخصص بالتقوى في فصل العادة والعبادة، وأسس بالتقرب أصل السيادة والسعادة، وسارع في الخيرات، ولم يسارع في الخيرات جوابًا.

سألت عن مدلول كلمات تلقيه قدرت صيغها عن خواص الخواص، وسطرت قصصها بعد خلاص الخواص، لفظوا بها بعد خفض جناح الذل نفس الحال للمضار، ورفض جناح الكل في المضمار، وقوة قلة الالتفات إلى خلفهم وأمامهم، وزوال زلة الالتفات عن سلفهم وأمامهم.

ومنهم من أطلقها في حال الصحو بالقصد الاشتراط بالضد.

ومنهم من تكلم بها مع أول حكم المحو والغيبة عن الاحتياط والرسم والحد.

ومنهم من لفظ بها على جهة الإلزام وقيد قوله.

ومنهم من أشار إليها ولم يحرك بها بقوله[2].

---

(1) رواه البخاري (1395/3)، ومسلم (1768/4).

(2) قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي قُدِّس سرُّه في فتوحاته في باب معرفة الشطح وأسراره ما نصُّه:

وحاشا أهل الله أن يتميزوا عن الأمثال أو يفتخروا؛ ولهذا كان الشطح رعونة نفس، فإنه لا يصدر من محقق أصلاً.

فإن المحقق ما له مشهود سِوَى ربه وعلى ربه ما يفتخر وما يدعي، بل هو ملازم عبوديته مهيأ لما يرد عليه من أوامره، فيسارع إليها وينظر جميع ما في الكون بهذه المثابة، فإذا شطح انحجب عمَّا خلق له وجهل نفسه وربه، ولو انفعل عنه جميع ما يدعيه من القوة فيحيي ويميت ويولي ويعزل وليس عند الله بمكان، بل حكمه في ذلك حكم الدواء المسهل أو القابض، يفعل بخاصية الحال لا بالمكانة عند الله كما يفعل الساحر بخاصية الصنعة في عيون الناظرين، فيخطف أبصارهم عن رؤية الحق فيما أتوا به.

=

فكل من شطح فعن غفلة شطح، وما رأينا ولا سمعنا عن ولي ظهر منه شطح لرعونة نفس وهو ولي عند الله إلا ولا بدَّ أن يفتقر ويذل ويعود إلى أصله، ويزول عنه ذلك الزهو الذي كان يصول به.

فذلك لسان حال الشطح. هذا إذا كان بحق فهو مذموم، فكيف لو صدر من كاذب؟

فإن قيل: وكيف صورة الكاذب في الشطح مع وجود الفعل والأثر منه؟

قلنا: نعم ما سألت عنه، فأما صورة الكاذب في ذلك، فإن أهل الله ما يؤثرون إلا بالحال الصادق إذا كانوا أهل الله، وذلك المُسمَّى شطحًا عندهم حيث لم يقترن به أمر إلهي أمر به كما تحقق ذلك من الأنبياء عليهم السلام.

فمن الناس من يكون عالـــمًا بخواص الأسماء فيظهر بها الآثار العجيبة والانفعالات الصحيحة، ولا يقول إن ذلك عن أسماء عنده، وإنما يظهر ذلك عند الحاضرين أنه من قوة الحال، والمكانة عند الله والولاية الصادقة، وهو كاذب في هذا كله.

وهذا لا يُسمَّى شطحًا ولا صاحبه شاطحًا، بل هو كذب محض ممقوت.

فالشطح: كلمة صادقة صادرة عن رعونة نفس عليها بقية طبع تشهد لصاحبها ببعده من الله في تلك الحال، وهذا القدر كاف في معرفة حال الشطح.

وقال قُدِّس سِرُّه في الجزء الأول من فتوحاته في الباب التاسع والثلاثين: حكي عن بعضهم أنه قال: أقعد على البساط. يريد بساط العبادة.

وإياك والانبساط: أي التزم ما تعطيه حقيقة العبودية من حيث أنها مكلفة بأمور حدَّها لها سيدها، فإنه لولا تلك الأمور لاقتضى مقامها الإدلال والفخر والزهو من أجل مقام من هو عبد له ومنـــزلته، كما زها يومًا عتبة الغلام وافتخر فقيل له: ما هذا الزهو الذي نراه في شمائلك مما لم يكن يعرف قبل ذلك منك؟ فقال: وكيف لا أزهو وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبدًا.

فما قبض العبيد عن الإدلال، وأن يكونوا في الدنيا مثلما هم في الآخرة، إلا التكليف فهم في شغل بأوامر سيدهم إلى أن يفرغوا منها فإذا لم يبقَ لهم شغل قاموا في مقام الإدلال الذي تقتضيه العبودية، وذلك لا يكون إلا في الدار الآخرة، فإن التكليف لهم مع الأنفاس في الدار الدنيا.

فكل صاحب إدلال في هذه الدار فقد نقص من المعرفة بالله على قدر إدلاله، ولا يبلغ درجة غيره ممن ليس له إدلال أبدًا، فإنه فاتته أنفاس كثيرة في حال إدلاله غاب عما يجب عليه فيها من التكليف الذي يناقض الاشتغال به والإدلال، فليست الدنيا بدار إدلال.

ألا ترى عبد القادر الجيلي مع إدلاله لما حضرته الوفاة وبقي عليه من أنفاسه في هذه الدار ذلك القدر الزماني، وضع خده في الأرض، واعترف بأن الذي هو فيه الآن هو الحق الذي ينبغي أن يكون العبد عليه في هذه الدار؟ وسبب ذلك أنه كان في أوقات صاحب إدلال لما كان الحق يعرفه به من حوادث الأكوان.

وعصم الله أبا السعود تلميذه من ذلك الإدلال فلازم العبودية المطلقة مع الأنفاس إلى حين موته، فما حكي أنه تغيَّر عليه الحال عند موته كما تغيَّر على شيخه عبد القادر.

وبالجملة: هذه الكلمات المسئولة عنها المشار إليها عند الصوفية في الوجه الأول لازمة لأهل السلوك إذا لاح لهم بارق مقام الوصول في الخلد، ولأهل مقام الوصول إذا صرفوا الهمة إلى الهوية المحضة، وعطفوا على الآنية المتوحدة، ثم ربطوا القصد الأصلي والتوجه لمن هي آنيته وهويته واحدة، مستحق كل آنية وهوية متعددة بالإلزام، ووجدوا الإضافة وصرفوا الضمير والإشارة بالعبارة، وما أشبه ذلك تحت حد التلف، ورسم السلف والمتكلم بها، والمشير لمدلولها.

وحكى لنا الثقة عندنا، فقال: سمعته يقول: طريق عبد القادر في طريق الأولياء غريب، وطريقنا في طريق عبد القادر غريب. ﷺ وعن جميعهم ونفعنا بهم، والله يعصمنا من المخالفات.

وإن كانت قدِّرت علينا فالله أسأل أن يجعلنا في ارتكابها على بصيرة حتى يكون لنا بها ارتقاء درجات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل انتهى.

وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سرُّه في كتابه «الأنوار القدسية»:

ومن شأنه، أي الفقير العارف، إذا استفتى على شخص من الفقراء في أمور لا تُدرك إلاّ بالذّوق ألا يبادر إلى الإنكار، بل يتحيل في الرد عنه ما أمكن.

هكذا كان شأن شيخ الإسلام زكريا، والشيخ عبد الرحيم الأنباسي رضي الله عنهما، فإن رأى ذلك الأمر يلزم منه فساد ظاهر الشريعة أفتى ولام عليه؛ لأن صاحب هذا الكلام ناقص فليس من أهل الاقتداء ونصرة الشرع أولى من الأدب معه بخلاف كُمَّل الأولياء كأبي يزيد البسطامي وعبد القادر الكيلاني رضي الله عنهما وأضرابهما، فيؤول كلامهم ما أمكن انتهى.

والذي أراه أن ما صدر عن سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلي قُدِّس سرُّه ونفعنا الله به من الكلمات التي رؤيت بمرأى الشطحات فهي مؤوَّلة متصرفة عن مقام الشطح على الغالب.

وأما بعض الكلمات التي لا تقبل التأويلات فهي نسبت إليه، ولم تكن منه ﷺ على الأصح، كالكلمات التي سمَّاها واضعها عليه من الله ما يستحق بالغوثية والمعراجية وأسندها إلى الشيخ ﷺ، وأخذ به نزه الله مقامه إلى مذهب الحلولية وأهل الوحدة المطلقة، فهي بهتان وافتراء محض عليه قُدِّس سرُّه.

وإنه ﷺ من أعظم من تحقق بقدم الاتباع للنبي ﷺ في الأقوال والأفعال، وقد دلَّت عليه إرشاداته وكمالاته وعباداته.

وقال قومٌ معنى الشطح، وصاحبه: أي الشطَّاح الذي يقف عن الترقيات والمجاهدات، والأعمال الموجبة لإعلاء المراتب والدرجات، مع شطحه وتجاوزه منحطًا عن المراتب الرفيعة حالة الشطح، هذا إذا لم يسقط بصدمة شطحه عن مرتبته بالكلية؛ لأن الشطح من أعظم مزالق الإقدام؛ لأن صاحبه ربما ينصرف عنه انطماسه وذهوله، ووارد غيبته، يعود إلى الصحو، ويبقى على لسانه الأول متكلمًا في حضرة خيالية فيسقط، ويبعد ويلحق بأهل الأنانية، حفظنا الله والمسلمين. وانظر: قلائد الزبرجد للشيخ الصيادي (ص 78) بتحقيقنا.

وقد توجد من جميع الجهات في هذه المنـــزلة، وحذفت الوسائط كلها، وذلك فيما هو إليه لا على ما هو عليه، وأهل التحقيق بخلاف ذلك، وجميع من ذكر نقطة من بحرهم، وذرة في قفرهم، وهو عندهم بمثابة السكران الذي يسكر من كاف اسم الكرم، ويموه بالأمر العرضي، وهو قد عدم الشأن الجوهريّ، ولا بأس بالاستغراق والشطحات والوَلَه وإفراط الأحوال، وتتبع التوحيد؛ إذا جُبر كَسْرُ عَظْم الاحترام، وأعطى كل ذي حق حقه.

ومن صحا وصحح أسراره محا الله إصراره، وكل الكلمات المذكورة، أكرمك الله، التي سألت عن مدلولها تحت كلمة متقدمة على جميعها بجميع أنحاء التقدم، كتقدم المتكلم بها على المتكلم بالكلمات المذكورة حتى في ترتيبها في الكتاب، وفي قوة الجواب.

وأنا قد استخرت الله تعالى في الكلام على مقصودك، وما خاب مَن استخار ولا أدبر في هزيمته مَن دبر وفكر في عزيمته، وأسأل الله العظيم أن يهب لنا الفهم في مكنون ديننا، وفك مُعَمَّى الذي طلب منا خليل خديننا، ويعيننا على حمل أماناتنا، وشكر سلامتنا، ويرزقنا إيمانًا نرجو به أمانًا، وإسلامًا يجلب لنا سلامة، وإخلاصًا يجر لنا خلاصًا، ويبصرنا الحكمة، ويجرد لنا أسماها وخصمها ورسمها.

ويفرج بنا هم الهمم التي كابدت الدهر حتى قصم منها الظهر، ويقينا شرور الاعتياء، ويجعل سريرتنا تشتغل بالزهد والطاعة، ونبذل الجهد في الاستطاعة، ويحيينا حياة طيبة في نفس مطمئنة في حضرة فياضة تنادي محبوبها بحالها من حاله، يا حبيب الحي حيا الحر حياه، ومَن استحى من الله حياه، ومن شغف بتمحيص ما صدر من أحلام الأكابر بعبارته وفهمه، وتخليص ما ظهر في أحلام الأصاغر بعبارته ووهمه، وبادر بالانتماء إلى خدمتهم، والانحياز جهتهم، والمباهاة بالاتصال إلى محامدهم النفسية، والبراعة في الاتِّكال على مقاصدهم الرئيسة، ظفر بالحق، وقطع كل الكون، وأكل من كل لون، وتوحَّد وجرَّد، وشاهد الأمور العظيمة بعين آنيته الواردة عليه بعد الاستعداد، وإفراط الانقياد، ورفع الاستبداد وتجوهر بماهيتها، وتطور في مراتب أدوار آنيتها، وزلزل قدم السلب والإيجاب بعد وقته الفاني وثبَّت قدم الأدب والاكتئاب قبل موته الثاني، وأحضر بعد حضوره فيه ومَغيبه عنه وخروجه عنه، ورجوعه له في حضرة التمكين الفاضلة المحمولة على هويات الهمم الواصلة الموضوعة لأنيات الصور الحاصلة، ثم يحضر في الحاضرة التي همتها غير مهموم وذمامها غير مذموم، ثم يصرف لسانه المضاف الذي يشار، ويشار

إليه، ويعتقد، ويعتمد عليه، ويقرر عند ذلك ما تقدم.

وحينئذ يبدأ بالذي بدأ به واللذة الأولى، ويدخل في عباد الله المخلصين، ويفتح باب الحقائق، ويضحك من حاله الأول، ويخير إذا أخبر عن نفسه لا عن الأول بالأول، فافهم.

ويتوب من خطيئته المفقودة الواقع بعد السجود، ويقرر عند ذلك على شأنه المتوسط بين الممكن المقدر، والواجب المنفصل، ويتنـــزّه في الجنة التي تحصل بشرط الأدب، ويسكن فيها بإفراط المحافظة، ويقيم فيها السعيد على خطر، وهو يلاحظ خطر شؤم شجرة موضوعة المضاف إليه المضمار، ويراقب حياة نفسها الثانية عن النفس النباتية ويتحفظ من محرك الشؤم في الشجرة الملعونة أنْ تدخل صحبة الحية المذكورة.

ثم يتوجه إلى مقصوده بصناعة التركيب ثلاث مرات، ويجوز على مقامات ثلاث، ويشكر الله العظيم على قطع العلائق، وما أنعم به عليه من معرفة ملكوت كون الخلائق، وخلاص طبيعة نفسه المحمولة على موضوع حركة لواحق حسه من عالم الطبيعة وما بعدها، ووصوله إلى علم الوحدة، وحضرة التوحيد، ومعرفة الواحد، ويفتح باب الغاية ويدخل إلى حضرة النهاية التاسعة، ويكلم المعلوم الممكن بكنهه ويشاهد المعروف الواجب بجوهره.

ويعلم إن العالم والعلم والمعلوم واحد، ويعلم ما لم يكن يعلم، ويفتح له باب الألوهية، ويبصر الوسائل والدرجات الرفيعة، ويراقب الرفيق الأعلى، ويلبس ليس، ويسلب أيس وبالعكس، ويسمى نفسه بمدلول الأسماء الحُسنَى، ويناديها به، ويكثر من ذلك حتى يستجيب له الاسم الأعظم من مجموعها فيه، فافهم.

ويدعو به ويملك في الحين كل الكمالات الصديقية، ويمكن من عالمها، ويستخلف في المنوطات كلها، ويحكم على عالم السفر المرسلة، ويتصرف في رتب الحيل المنـــزلة، ويشتغل بتدبير الصم، ويمتحن بالحين والكم، ويزيد على أبي يزيد، ويسأل عن سيوف الشبْلي والسريّ، ويشرف على شأن شيخ الشوذي.

ويقول لأهل القرن الثاني، والثالث، والرابع قد نسخ حكم مزية تحقيقكم وصيته في السابع، ويصح له تبعية والد شرفه الثالث التالي للأب الثاني والأول، صلى الله عليه وعليهما، وعلى ما بينه وبينهما من النبيين والمرسلين، وإذا كمل أمره، وظهر خيره، واستقام سيره، وسما على جادة سيده بموته وسيرته مذ حط المضمار من سيد ساداتهما الأب الثالث إلى والدهم الأول المذكور قبل، وجعل نفسه في أول الخط نقطة لا كالجزء

منه كما هو رسمها عند أهل التعليم النبهاء، ونفس والدة الأول التي انتهي الخط عندها نقطة لا كالجزاء منه بخلاف نقطته هو.

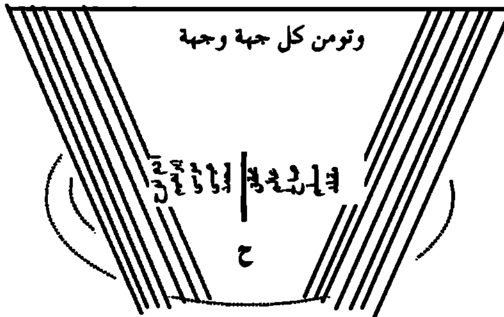
ثم نظر إلى الخط الذي بدأ من السيد، ومر على السادات إلى السيد، ونظر إلى نفسه كما فرض؛ فوجد الخط ينطوي بعضه على بعض، ويرجع على نفسه، ووجده مؤلفًا من النقط التي فرضها بالمعني، وأخرج نقطته عنها أدبًا وقياسًا، ثم نظر إلى النقطة مفردة فألفاها متماثلة، ونقطته المرسومة كذلك غير إنها خارجة عنهم من حيث المضمار المتقدم، وداخلة معهم من حيث الأبوّة والبنوّة والمماثلة.

ثم عاد نظرة في النسب والأنواع والأجناس، وما يلزم عنها، ونظر إلى خواصها، ونظر في معناها في الخط المذكور، ونظر في لواحق كمالات الذين يمر عليهم الخط المذكور، وحقق نظره في مذاهبهم الإلهية، وقطع إن الخط المذكور يتقوس بجهة، ويمتد إلى غير نهاية بجهة أخرى، وفرض فيه ظاهرًا وباطنًا، وجعل في ظاهره الاجتماع والتقويس، وفي باطنه الافتراق والامتداد، وكأنه في التمثيل هذا الشكل المرسوم؛ فتدبره.

وانظر إلى الخطوط الموضوعة على باطنه الأعلى المتوازية المشار إليها بالمواهب الإلهية المفاضة على أربابها بحسب الأسماء الموضوعة لنا، وانظر إلى ظاهره، وإلى نقطته المتوهمة في طرفيه، ثم انظر إلى تقويسها، وقل الجنس يجمع بالضرورة، والفصل يعرف بالذات، ثم قل النوع يجمع بالطبع، والأعراض تفرق في وقت ما.

ثم قل النسب تجمِّع، والخواص تفرِّق بوجه لازم، فافهم واحفظ ماهية سعادتك بالتقويس، وبعدها التقويس، والله الموفق.

تمت القوسية بحمد الله، وحسن عونه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وعبده.



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

يا هذا! هل عمرك إلا كلمح، أو إعطاء مُكْدٍ لا سح؟! وآصالك لهو وعَلَل، وأسحارك سهو وعِلل، وما سرورك إن صدر، إلاّ وساء كدر، والغرض في تحصيل الكمالات وأسبابها، والتجوهر بمدلول الإمكانات الإلهية، وبما يجب كما يجب على ما يجب في الوقت الذي يجب، والاتصاف بالحكمة التي تفيد الصورة المتممة للسعيد، وبالحقيقة التي تقيمه في الصور المقومة، وتعمل على نيل الآلات التي تعطي الحق بحسب ما تعطيه، وتقضيه طبيعة البرهان.

وتحكم الشارع عليه السلام على جملتك، وتمتثل أوامره، وتعتقد أنه الخير بالذات، وتصل حبل المعروف، وجميع ما استحسنه العقل، وحرره النقل، وحضت عليه الشريعة، وتقطع حبل المنكر، وضد ما ذكر قبل، وتتخلص من كل قاطع يقطعك عن الله بعد ما تتصف بالعلوم الضرورية التي لا يحملها أحد عن أحد في عرف الشريعة، وبالأعمال التي تلزم لزوم هذه العلوم، وبالعلوم التي تدخل بها في زمرة الحكماء، وبالحقيقة الجامعة التي فيها نتيجة الشرائع، وغاية الحكمة، وهي علوم التحقيق.

وإن غلبت عليك شهوة حيوانية، وما أشبه ذلك؛ فاجبر وقتك مع الله بتوبة صادقة، فإن بابه ما عليه بواب إلا رحمته خاصة، ورضوانه يأمرها بالمضمار.

واعلم أن مطالك مطال، ومحالك محال، والواصل رحمة، مهما دعا الله رحمه، والعلم للعلو علامة، والسلم للعدو سلامة، والصلح مع جملتك صلاح، والدعاء بالإخلاص سلاح، وإياك من الأمل المهدوم، ومن العمل المعدوم، ومن الأمور التي تفسد حكمة العادة وأصول السعادة، ومن الود مع المَلل؛ فإنه قبيح في كل المِلل.

والسعيد هو المصلح أعماله، المطرح لله ماله، ولا تخالط إلا مَن قامت به الأوصاف المذكورة قبلُ، إن استطعت، وإلا الأمثل فالأمثل.

وحبيبك من يدبر أمر آخرتك، ويعينك عليها، ويذكرك بها، ويهجرك ويصلك من أجلها، ومع هذا كله سَلْهُ ورُحْ مملوء الراحة، وصل وسِحْ في الساحة، ولا تغفل عن الدعوات المأثورة، وأعظمها: اللهم اختر لي، وأسماء الله التي ما أحد معها مروع، ولا سبيل إلى التعجب في قيامك وجلوسك، وانتظر نفسك وفلوسك، والتقي هو الذي طرفه في حبوته مغضوض، وخد البغي في حضرته معضوض، وهو الذي لا يرفل في أثواب اللاّهي، ولا يغفل عن ثواب الله.

فإذا الله تاب عليه أنابه هو إليه، وتأهب لجواز العقاب، وكفاه الله سوء العقاب،

والشرير الجاهل هو الذي لا يعرف معروفًا، ويحسب ماله من البحر مغروفًا، ونفسه تطمح وتشح، ويده تجمع ولا تسح، فإذا قضى الله وفاته؛ خانه الأمل وفاته.

فقد عاهدتك على هذا، ورضيتك تلميذًا، وجعلتك مع الأصحاب الذين يخاطبهم لسان الحال غبطةً، ويقول لهم: لا تكثرون وأنتم ترثون، وأشهد الله عليك العليم بخفيات الصدور، الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويجيب نفثات المصدور، وقد رجوت لك خبر الخلاص، وخير الإخلاص، صلى الله على الشرط في نيل الشرف والكمال، محمد وآدم وما بينهما من النبيين والمرسلين وسلم تسليمًا كثيرًا أثيرًا، وبعد هذا كله تبارك المُبدي المُعيد، قد صدق الوعد والوعيد.

شرح رسالة العهد لبعض تلاميذ ابن سبعين

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيرًا دائمًا

نــوَّر الله بــصيرتك بــنور التوفيق، وأيّدك بروح التصديق، وخلص إنسانيتك بنيل التحقيق.

سألتني أن أشرح لك المرسوم الذي يسمى: العهد، من كلام سيدنا وقدوتنا ﷺ ولحت علي في ذلك، وأنا أتأخر عنه فيما تقدم، واحتياطًا على فهمك، والله أعلم بذلك.

وقد أسعفتك في شرحه وتأويله، وبيان مقاصده في الكمال الثاني، وإشارات من الثالث، وتبيين الأول، وتركيب الكلام فيه من أقرب العوالم، وتبليغه إلى التحقيق الأول، ونفيد أنموذجًا من مقاصد المؤلف، فاخدمه بذهنه وتوجهك وبحثك، وتحرك ولا تسوف نفسك بما سوفها الجاهل البطال المتخلف، والله يدخلك في زمرة المتقين، وينظم إنسانيتك في سلك ذوات المحققين. فنبدأ فنقول:

قوله ﷺ: (يا هذا) يا: حرف نداء، كما تقول: يا زيد، يا عمرو، فلو وقع على شخص معين كان يقول: يا فلان، فلما لم يكن واقعًا على معين فهو نداء موجه المعنى يحتمل إن يقول: يا هذا الإنسان الفقير، يا هذا الفقير؛ إذ الخطاب بالاستدعاء للسعادة يقع على كل عاقل، فهذا النداء يا هذا: هو موجه لكل إنسان عامل [....[1]] لزوم

(1) كلمة مطموسة بالأصل.

العموم في التكليف، أو لكل نبيه يطلب رشده، ولا يهمل الأمر الأزلي في الله إذا جعلناه على الخصوص، أو لكل غافل عن مصالحه ورشده مع كونه في إمكانه تحصيل السعادة وفي قوته كسبها إذا جعلناه بمعنى الشبيه.

وقوله ﷺ: (هل عمرك إلا كلمح).

هل: حرف استفهام، ومطلبها يبحث عن وجود الشيء.

والعمر: هو المدة التي أعطيت للإنسان في الدنيا.

واللمح: هي الخطفة التي يخطفها البصر في أول نظرة في الزمان الفرد الذي لا يسع قضيتين، كما تقول لمحت فلانًا، ولمحت كذا بمعنى أنه خطفه البصر ولم يحققه، ولا كرر النظر فيه زمانًا ثانيًا، وكأنها النظرة التي تقع فجأة من غير قصد، ولا تقدمتها نيَّة، ولا إرادة.

ولذلك لا يطالب بها الإنسان في رؤية ذوي المحارم إلا إن كرر النظر بالقصد، وقد ضرب الله المثل بذلك في سرعة أمره الواقع في الكون الممكن في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50].

ولما كان الماضي من الأحوال التي يخبر عنها العبد من وقته إلى أول أمره خير حاصل له في الحالة الراهنة، وكل ما تقدم من خير وشر قد ذهب، والمستقبل كذلك غير حاصل، ولا معتبر في تلك الحالة بعينها، فلم يعتبر وجود حال إلا الحاصل القائم بك في الزمان الفرد الذي أنت فيه على ما أنت عليه، فكأنه قال لك: الماضي من زمانك قد انقرض وذهب، المستقبل ليس إيجاده في كسبك، ولا هو حاضر عندك، فمالك عمر إلا الحال القائم بك، والحال القائم بك مثل لمحة البصر، فكيف تغتر بلمحة ذاهبة، وتنقطع عن السعادة الثابتة الأبدية؟

ولما كانت الأحوال عرضًا والعرض لا يبقى زمنين، والعرض الثاني في الزمان الثاني هو خلق في ذلك الزمان بعينه، والأول قد انقرض، والأحوال تجدد على العبد الممكن في كل زمان فرد، وهي تسيل بالذهاب، وتجديد الإيجاد مثل سيلان الماء في الانخفاض وأسرع جعلها كلمح.

ولمّا كانت مخلوقة، والحق يعطيها في كل وقت، وذهابها لعينها، وإيجادها لفاعلها جعلها كإعطاء (مُكدٍ لا سح)؛ فإعطاؤها هو إيجادها من الله، والمكدي هو المنقطع، وكان قطع الأحوال ذهابها في ذاتها.

وهذا معنى قوله ﷺ: أو (إعطاء مكد لا سح).

ومعنى (لا سمح)؛ لا يمكن ثبوتها، إذ هي من صفة نفسها تقتضي الذهاب، وصفات الأنفس لا تفعل، ولا تتبدل، فقوله ﷺ: (لا سمح)؛ معناه لا يمكن ثبوتها، أعني: الأحوال فإنها ذاهبة في طبيعتها، وصفة نفسها، وهي موجودة من حيث خلق الفاعل لها.

فأحوال العبد تجدد في كل زمان فرد، ولا يعتبر فيها إلا الحال الحاضر، إذ الماضي قد انقرض، والآتي ليس بحاصل عنده، فعمره هو زمان فرد، وهو أقل الأشياء، وقد ضرب الله تعالى المثل في قوله: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ [النجم: 34]، فلا عمر لك إلا الحال التي أنت فيها، فلا تغتر بها؛ فتنقطع عن التعميم المطلق؛ ولذلك عملت الصوفية على حفظ الوقت، وأضربت عن الماضي والمستقبل.

ولمّا علم الصوفي إن ما [....[1]]، ولا ملك إلا الوقت القائم به أخذ نفسه بمراعاته وحفظه، ولم يصرفه إلا في فرضات الله، وهو عندهم الضيف الذي يكرمه بالحفظ والكلاءة.

وقد قيل: إن رجلاً راهبًا سأل سليمان عليه السلام: هل تجد لذة لما ذهب من ملكك؟

قال: لا؛ لأنه قد انقرض.

قال: هل تجد لذة للآتي؟

قال: لا؛ لأنه غير حاصل.

قال له: فإذًا ما فِدتَني بشيء.

وذلك لضيق الزمان الفرد وقلته، ولقوة تداخل العدم معه، فكأنه عدم لسرعة ذهابه وتبدله، وهو الوقت عند الصوفية[2]، وهو السراب عند بعضهم الذي لا حقيقة له إلا

---

(1) كلمة مطموسة بالأصل.

(2) قال الشيخ القاشاني: الوقت: عبارة عن حالك، وهو ما يقتضيه استعدادك الغير مجهول، في زمن الحال الذي لا تعلق له بالماضي والمستقبل فلا يظهر فيك من شؤون الحق الذي هو عليها، في الآن، إلا بما تطلبه استعدادا، فالحكم للاستعداد وشأن الحق محكوم عليه. هذا هو مذهب التحقيق، فظهور الحق في الأعيان بحسب ما يعطيه استعدادها، فلذلك ينبوع فيها فيض وجود الحق، وهو في نفسه على وحدته الذاتية، وإطلاقه وتجرده، وتقدسه غني عن العالمين، فالوقت هو الحاكم والسلطان، فإنه يحكم على العبد فيمضه على ما يقتضيه استعدادا، ويحكم على الحق بإفاضة ما سأله العبد منه بلسان استعداده في زمن الحال، إذ من شأن الجواد التزام توفية استحقاق الاستعدادت كما، ينبغي، وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: 68]. تأييد لهذا التحقيق إن كانت «ما» موصولة في موضوع النصب على أنه مفعول مختار، ومن كان يحسب ما خاطبه به الشرع في كل حال، فهو في الحقيقة صاحب وقته، فإنه قام =

مستعارة، وهو الظل بوجه ما إذا أهملت حفظ الحاضر منه، واشتغلت بالماضي والمستقبل، فهو ظل من حيث يحجب عن الحقيقة، وهو الأحلام الذي أشار إليه سيدنا ﷺ في «الرسالة الفقيرية» بقوله: السعيد هو الذي علم إن أيام الحياة أحلام.

وذلك لقلة ثبوتها، وهو نقطة من النقط التي يتركب منها الخط أعني: خط عمرك إذ عمرك مجموع من أوقات؛ ولذلك كان بعضهم يحفظ الأنفاس ويعدها، وإليه أشار سيدنا ﷺ في «الإحاطة» بقوله: وقتك من أجزاء ماهيتك، فلا تعامله إلا بالخير.

وهو القاطع عند بعض الصوفية لمَن أهمل حفظه، وهو الحجاب له، وهو الشيطان، وهو الظلام، وهو البعد لمَن اغتر بعاجله، وهو الموصل لمَن حفظه، وانصرف به إلى فاعله، وهو المطية الموصلة إلى المقصود، وهو النور إذا نظر فيه الأصل؛ وبالجمع فيه يشعر بالهاتف والبادِه والوارد، وبه تستنـــزل الأحوال الكاشفة، وفيه تنـــزل البشري، أو تقع المشاهدة إذا أصرف، وهو نفس الهاتف والوارد والطارق والهاجس بوجه آخر، وهو الطيف من سرعته.

ومن وجه أخر هو فرع لا يوجد مع أصله، ونوع يذهب في جنسه، ولا يتعين في فصله، وهو كلمة ترجع على قائلها، وقضية مثبتها زائلها، وهو قضية تشكل الآنية، وكذلك قضية التطور والتصور، وبتحقيقه ورفض تعيينه وتدقيقه؛ يثبت الكمال للكامل والتجوهر.

وقوله ﷺ: (وآصالك لهو وعَلَل، وأسحارك سهو وعِلل).

الآصال: هي أواخر الأيام، والأصيل آخر اليوم أعني بذلك آخر النهار، والآصال جمع أصيل، فهو كما ذكرناه آخر الأيام؛ وهو ما قرب من العشية وغروب الشمس.

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: 25]؛ فالأصيل: هو عشية النهار، والآصال هو جمع ذلك.

والأسحار: هي أواخر الليالي وما قرب من الفجر، والسحر هو واحدها، والأسحار هو الجمع، واللهو: هو الالتهاء عن شيء بمعنى السلو والإهمال، يقال: لهوت عن كذا بمعنى أهملته، ولهوت عن كلام فلان بمعنى لم تعتبره، وتلهى فلان بفلان بمعنى ازدرى به واستخفه، أو يقال: فلان كثير التلاهي بمعنى قليل الجد لا حقيقة لكلامه.

= بحقه، ومن كان هكذا فهو عند ربه من السعداء. انظر رشح الزلال للشيخ عبد الرزاق القاشاني، تحقيق الدكتور عاصم الكيالي، نشر دار الكتب العلمية ص 191.

وبالجملة: اللهو هنا هو السلو عن المصالح، والإضراب عنها.

والعَلَل: هو التسويف، يقال: عللت فلانًا بمعنى سوفته، والسهو: هو الذهول عن الشيء ونسيانه، أو يقال: السهو: هو عدم تذكر الشيء في الضمير، والعِلل: هي الأسباب المؤدية إلى الشيء، كما تقول: عِلة مرض فلان الحمى، أو علة نبات الحشيش المطر، أو عِلة علم فلان النظر والبحث، أو عِلة الجهل الغفلة، وعدم الاجتهاد، وقلة المساعد، وعدم المرشد، وما أشبه ذلك؛ وبالجملة العلة: هي السبب المؤدي إلى الشيء، نقصًا كان أو كمالاً.

وكان الشيخ ﷺ ذكر هذا هنا على جهة العتب للغافل عن مصالحه، وعن طلب سعادته لمّا كان الالتهاء والتسويف يورث عدم الطلب والبحث والاجتهاد، وعدم ذلك يترك الإنسان في الجهل والغباوة، والجهل أصل الشر والفساد، والشر والفساد يورثان الشقاوة الأبدية والبعد عن الله، عاتبه على ذلك.

ولمّا كان السهو معناه الغفلة والذهول عن المصالح، وعدم التوجه، وذلك يزل إلى النقص وعدم العلم بالله، وقلة الطاعة، وذلك كله يورِّث البعد عن الله، والشقاوة الأبدية عاتب من قام به ذلك وذمّه، ونبه الغافل لطلب رشده ومصالحه، والأخذ فيما يجب من الأمور المؤدية إلى رضوان الله، وإلى النعيم السرمدي، والبقاء الدائم، والأنس بالله، والإقامة في حضرته المقدسة عن الزمان والمكان، وعن طرق الأغيار والأضداد، وحضه على الإضراب عن اللذة المحسوسة الخسيسة العاجلة المنقطعة التي توجد في وقت دون وقت وتداخلها الأضداد والأغيار، وتذهب بالموت.

فإن قيل: لِمَ ذكر الآصال والأسحار، ولم يذكر أوساط الليالي والأيام، وما بينهما من الساعات والأحيان، وطاعة الله وذكره يجب في كل زمان؟

قلنا: أعطى ذلك بالنظر في مفهوم الخطاب؛ فإنه إذاسلمت الطرفان من الشيء تضمنت سلامة الوسط، وأيضًا لمّا كان آخر النهار وقت ارتفاع الأعمال، وصعود الحفظة بأعمال اليوم؛ حض على الاجتهاد في عشية النهار؛ ليكون آخر ما تكتبه الحفظة خير عمل، وخير عبادة وتوجه، والأعمال بخواتيمها.

وكذلك القول في الليل لمّا كان آخره تصعد فيه حفظة الليل؛ حضّ على الاجتهاد فيه، والتوجه الصرف؛ ولأجل ما ذكرناه من مراعاة الخواتيم، أو لكون الأواخر من الأعمال؛ تنسخ ما تقدمها من البطالة والغفلة، أو يكون الحضُّ على ذلك والحث عليه من الأمور التي علمها الوارث وفهمها عن الشارع من تخصيص تلك الأوقات، ومن نـــزول

الرحمة فيها، وقبول الأعمال بزيادة على غيرها من الأوقات لأن الله تبارك وتعالى قد مدح الذاكرين في هذين الوقتين بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ﴾ [النور: 36].

وأيضًا لمّا كانت العشية تشعر بانقراض النهار وإقبال الليل، وكأنه وقت فصل؛ وقعت الدلالة الصادقة في القبول في التبدل، والتغيير على الفاعل المختار، إذا الفعل الواقع يدل على الفاعل، والتبدل يدل على ثبوته، فكان وقت اعتبار، ومشاهدة الفاعل في تعيين الفعل الصادر في الحال، وانقراض الآخر وذهابه؛ فكان من الأدلة الكاشفة للمقصود التي تفيد الاعتبار والخضوع والافتقار للفاعل المختار، وتفيد المشاهدة والاستغراق في جلال الله الذي أذهب الفعل الحاضر، وأتى بضده، إذ الليل والنهار من الأضداد التي يتبين طروؤها، وتبدلها أكثر من تبدل الأمثلة، فإن تبدل النور بالنور، والظلام بالظلام لا يتعين فصلها إلا بعد نظر في حقيقة العرض، وكونه لا يمكن فيه البقاء.

وتبدل الأضداد والأغيار أشد ظهورًا لأنها يتعين للحس تبدلها، ويظهر خالقها بذلك فيقع الاعتبار والحضور والمشاهدة عند تعيين ذلك، ولذلك كانت بعض الصوفية تستجلب أحوالها في عشية النهار حتى تغرب الشمس، وكذلك من أول الفجر إلى طلوعها.

وقد ندب الحق تعالى إلى ذلك في مواضع كثيرة من القرآن في قوله: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: 130].

وقوله: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: 55].

وقوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الإنسان: 25]، فافهم.

وأيضًا قد يُطلق الليل باشتراك، والنهار كذلك، وينسب بالاستعارة، وينصرف إلى أمثلتها، وقد أخذت بذلك الصوفية، وطائفة من العقلاء، ويقال: الليل الجهل لكونه يحجب حقائق الأشياء عن الجاهل، ويعمي بصيرته عن إدراك المصالح والرشد، ويحجبه من معرفة ما يجب لله، ويجوز عليه، ويستحيل في حقه.

والنهار: هو العلم بذلك كله، وإدراك الفاعل على ما هو عليه، ووصفه إما بالسلب أو الإيجاب، والأسحار آخر قضايا الجهل وانقراضها، وأول لوائح العلم، ومقدمات البرهان، فيجب على المكلف عنه ذهاب الجهل ولوائح العلم وضع المقدمات الصادقة لتحصيل البرهان الكاشف للمطلوب، وأنْ يحضر ويمعن فكره في آخر المقدمات وترتيب القياس، ويستغرق في ذلك، ويتحرز من الغلط، ومن الأشياء المغلطة، والأمور الإقناعية التي

تحصل البرهان الذي يفيد حقيقة المطلوب، ويكشف له المعلوم على ما هو عليه.

وهذا البرهان: هو مثل النهار الكاشف لحقائق الأشياء.

وكذلك يتحفظ من دخول الشكوك عليه إذا شرع في مسألة ثانية، ويضع لها مقدمات أخر، فهي أيضًا مثل إقبال الليل لمًا فيها من الشكوك، ومن الغلط فيحضر ويتوجه توجهًا تامًّا عند دخول العوالم، وقضاء المخاطبات عليه حتى لا تشككه وتغلطه، فيكون نهاره ما انجلى له من القضايا اليقينية بالبرهان الساطع، وليله ما يستقبل من البحث بعد ذلك، والطلب في مسائل أخر، والأسحار: ابتداء كشف المسائل، والآصال ابتداء البحث والتشكيك عند الشروع في وضع المقدمات، فيحتاج التثبيت وإمعان الفكر، وإحضار الذهن لأنها مواطن تحصيل المطلوب، فلا تجوز الغفلة في هذين الموطنين؛ ولذلك حض على الحضور والتوجه في الغدو والآصال.

ويقال: الليل: هو الغفلة والمخالفة لأنهما حجاب عن الحق، وسبب البعد منه، والنهار: هو الحضور والاستقامة لأنهما قرب من الحق، وسبب رضوانه.

والأسحار: هي ساعات التوبة واليقظة والغفلة؛ فحضٌ على الحضور والتوجه هنا والتثبيت؛ لأنها آخر المخالفة والبعد، وأول الطاعة والقرب، فيخاف على التائب هنا في أول أمره أنْ تجذبه العوائد والعوالم الأول التي خرج عنها وتصرفه وترده إلى عالم المخالفة، فأمر بالحضور والتوجه والصدق في هذا الموطن ليقوى خبر اليقظة التي نبهته على الرجوع إلى الله، ويقوي عزم التوبة حتى تثبت حاله في الهدية والاستقامة، وتتجلى له مقامات الإرادة ويغتبط بها، ويثبت فيها، ويكشف له المطلوب بعد ذلك صحبة الصنائع العلمية والعملية.

وقد يقال: الليل: هو الطبيعة وعالم الأجسام، واستيلاء الشهوات البدنية على جوهر الإنسان حتى يغمره، والنهار: هو إشراق العقل الفعال على جوهر النفس الناطقة، وكشف الذوات الإنسانية المجردة عن الزمان، والأسحار: هي النفحات الواردة من العقل الفعال عند تحصيل العقل المستفاد؛ فأمر بالتثبت عند تجرد النفس من الشهوات الطبيعية، والعزم السالب صحبة الهمة الجليلة، إذ هو موطن صعب لا يقطعه إلا السعداء، وهذا بحسب رأي ما.

وقد يُقال: الليل: هو الأخلاق السيئة، وهو النفس عند الصوفية، وهو الحجاب عندهم، إذ هو من ظلمات الحظوظ.

والنهار: هو الأخلاق الطاهرة المطهرة، إذ هي من صفات الذوات الروحانية، وهي

من أسماء الله الرحمانية، والأسحار: هي الانفصال من الأخلاق الأول، وابتداء الاتصال بالرحمانية المذكورة، فيحتاج المتخلق بالاسم التوجه والتثبيت، وإحضار معاني الاسم، وأجزاء ماهيته، والسكينة فيه، والاستيلاء عليه بالعلم والعمل.

ويقال: الليل: هو الشوق والقلق والوجد الواقع في قلوب المحبين، والأسحار: هي الهواتف والهواجس والبواده، والأحوال الكاشفة الواردة من نفحات المحبوب المتوجه إليه، والنهار: هو الواهب السلسلة، والعلوم اللدنية التي تفيد المشاهدة الجنسية، والإقامة في الحضرة.

ويقال: الليل: هو التحير عند حال التوجه، وتداخل العوامل على المتوجه، ونـــزول الأحوال، والأسحار: هي الرؤية القمرية، والنهار: هي الشمسية الكاشفة للمطلوب على ما يجب له.

ويقال: الليل هو وهم الإضافة، والأسحار: هي الحقائق، والنهار: هو إدراك الحق بالحق.

ويقال الليل: هو الوحدة التي لا يوجد معها شيء، وهو الذي يشار إليه بالعمى، والنهار: هو وجود الأمثلة في معقول الهباء، والأسحار: ما بينهما.

ويقال: الليل: هو معقول الفناء، والنهار: ما بعده من البقاء، والأسحار: ما يفهم من الربط بينهما.

ويقال: النهار: الشفع، والليل: الوتر، والأسحار: النسبة.

ويقال: الليل: آنية الحصر، والنهار: خط الامتداد، والأسحار: ما بينهما، والآصال: ما يفهم من أواخر تشطيب الخلط عند أهل الكمالات المهملة للكمالات، فافهم ذلك.

وقوله ﷺ: (وما سرورك إن صدر، إلا وساء كدر).

الوِرْدُ: هو الشيء المورود عليه، وهو المؤتَى، كما تقول: أتيت وردي من الليل، معنى صلاتي التي كُنْتُ نصليها، وكأنه الشيء المطلوب الذي يورد عليه الراحة، كما تقول: وردت المكان الفلاني نطلب فيه ضالتي بمعنى أتيته.

وتقول العرب: اترك ماء الجُحْفَة فإنه ورد بني فلان، بمعنى أنَّ قبيلة من العرب ترد عليه؛ فتسقي منه إبلها، فالورد: هو الماء الذي يورد عليه، والورود: هو إتيان الإبل إليه، والوارد: هو راعي الإبل، والواردات: هي النوق، فالورد: هو المحل الـــمُؤتَى إليه، والورود: هو الإتيان، والوارد هو الآتي، كما تقول: ورد علينا فلان، فالورد هو الجمع الذي ورد عليه، والوارد: هو الواصل إلى ذلك الجمع، والورود: هو الوصول.

والسرور هو الفرح بالشيء، كما تقول: سررت بتحصيل المائة دينار، أو تقول: سررت بفهم المسألة، أو سررت بفهم الكتاب، أو سررت بورود فلان أو بكلامه، معناه: فرحت أو تلذذت أو تأنست، وقد يطلق الأنس واللذة والسرور والفرح بترادف، وقد يطلق بتشكيك.

وأمَّا الصدور: فهو بروز الشيء من الشيء، وكأنه ظهور قضية في محل لم تكن فيه قبل ذلك، وظهور قضية من محل كانت فيه بالقوة، كما تقول: صدر من فلان فعل مذموم، أو صدرت من فلان صفة حسنة، أو صدرت من فلان معاملة جميلة، بمعنى ظهرت منه، ووصلني منه خير، أو صدر لي منه إحسان، أو صادرني خيره بمعنى قابلني خيره.

فالصادر: هو الفاعل الذي صدر منه الفعل، والصدور: هو الفعل الذي برز منه، والمصدر المفعول به، فكأنه يقول: ما من شيء تأتيه ويكون مطلوبًا محبوبًا لك، ويسرك إتيانه وتحصيله، وتفرح به، وما من شيء يصدر بمعنى يصلك من الأمور الملائمة له؛ وتسر به وتفرح، إلا وبعده كدر يحزنك ويسوؤك ويؤلمك.

والكدر: هو العكر الذي يزيل صفاء الماء، كما تقول: هذا ماء مكدَّر معناه معكَّر، وكأنها إشابة تعكر الشيء، وتخرجه عن طبيعته المعتدلة، وتزيله عن صفائه، وتركب بساطته، فإن صفاء القلب هو عدم إشابته، واعتدال مزاجه، وإقامته، فهي ماهية السرور فإذا تنكَّد تغيَّر مزاجه، ودخلته الإشابة، وتعكر طبعه، فالتكدُّر هو التغيُّر والإشابة والنكد، وقد يطلق الكدر والنكد والألم والتغيُّر بترادف، وقد يطلق بتشكيك.

فكأنَّ مضمون هذا الكلام يشير إلى تبدُّل أحوال الإنسان في الدنيا، ولقلة ثبوتها، ولصورة ذهاب لذاتها، وكونها تنال في وقت دون وقت، وتنقطع في كل حين، وتذهب جملتها بالموت. فأراد أنْ ينبه الغافل على ذلك، وحضَّه على الزهد في الخير الموقت المنقطع، وأنْ يصرف همته إلى الخير الذاتي الذي لا ينقطع، والذات الروحانية التي لا تتبدل ولا يغيرها الزمان، ولا تُعْدَمُ بتبدل الزمان، ولا يفقد أنسها بفقد الإخوان، ولا يفقد هنالك مطالعة جلال الرحمن، فافهم.

وقد يكون أراد بذلك التنبيه على تبدل الأعراض لكونها تنعدم بالذات، ليتنبه الغافل عن حدوثها، وعلى حدوث الجواهر؛ لكونها لا تَعْرَى، ولا تنفك عن الأعراض، فيستدل المسترشد بذلك على حدوث العالم، وكونه في هذه القضية المتضادة والمتغيرة من علوه إلى سفله، وإن هذا التبدُّل يلزم العالم المطلق، وإن إيجاده وخلق أمثاله وأضداده وأغياره، وما أشبه ذلك لا يكون من ذاته، فيستدل بذلك على الفاعل المختار الذي أبرزه وهو معه

بالإيجاد والتجديد والإبقاء، ولا يفارقه ولا يغفل عن خلقه طرفة عين، فيحصل للمسترشد بذلك العلم بخالقه، وقلة الاغتباط بالمحدث، والميل إلى القديم الأزلي، ومحبته ويصرف همّته إليه، ويتلذذ بعبادته وطاعته ومحبته، ويتأنس بمنادمته ومناجاته في الضمير، ويشاهد كلمته وقدرته في العالم المطلق؛ فيذهل بذلك عن اللذات العرضية المتبدلة، وترجع لذته جوهرية وروحانية ثابتة، ويرتفع عنه خوف المحدث ورجاؤه، إذ هو في الافتقار والانفعال والحدوث سواء معه، ويتبين له أن المثل المنفعل لا يفعل؛ فيزول من قلبه واعتقاده ربانية المخلوقات، ويخرج من ذلك الكون، ويتحرر ويعتبر بملاحظة فاعله ومشاهدته في الكون، وفي الحال، وفي النوم، وينال بذلك سعادته، فاعلم ذلك.

وبالجملة قوله: ما سرورك إن صدر، إلا وساء كدر أراد بذلك التنبيه على تبدل السرور العاجل، وقلة ثبوته، وأنْ يظهر للمسترشد خساسة الدنيا، وإن لذتها يشترك الإنسان فيها مع الحيوان غير العاقل، وإنها ليست من الخيرات المطلوبة عند السعداء، فيصرف همته للخيرات الثلاث أعني: الذي يراد لذاته لا لغيره، والذي يراد لذاته ولغيره، والذي يراد لغيره لا لذاته.

وهذه الخيرات ذكرها سيدنا ﷺ في «الرسالة الفقيرية»، وفي «بُدِّ العارف»، وفي «نتيجة الحكم».

وسرور السعيد لا يكون بالدنيا، ولا بزهرتها، ولا يعتبر إلا نعمة الله الموصلة إلى رضوانه وكدره بضد ذلك، فإذن السرور المعتبر عند السعداء هو طاعة الله عند العبد، وظهورها على محله ظاهرًا وباطنًا، والكدر مخالفته.

ونقول: الوِرْدُ محبة الله تعالى، إذ هي سبب القرب منه، والسرور ما يحصل من اللذة عند تحصيل المقامات المقرِّبة إليه، والكدر: هو الفترة التي تضعف محبته، والكدر الذي يمنع من التوجه إليه.

ونقول: الوِرْدُ: هو التوجه إلى الله بالصدق والإخلاص، والسرور: هو اللذة الحاصلة صحبة الأحوال الكاشفة، والخواطر الصادقة، والبواده والهواجس، والعلوم اللدنية والإلهامية وما أشبه ذلك، والكدر: هو ذهاب الأحوال وما ذكر، وانصراف المتوجه إلى حالته الأولى ورؤية الإحساس والأغيار.

ونقول: الورد: هو التخلُّق بالاسم، والسرور: هو مشاهدة المسمى، والكدر: مجاهدة النفس عند الشروع في تحصيل ذلك، وبعد التحصيل في حفظ الاسم.

ونقول: الورد: مقام المراقبة، والسرور: حفظ الأحوال، والكدر: ضبط القوانين،

وقهر النفس على ذلك.

ونقول الورد: تحصيل الوسائل، والسرور: توفية شروطها، والكدر: اختلال الشروط.

ونقول: الورد: إدراك التوحيد، والسرور: فناء الموحِّد، والكدر: وجود الشفع.

ونقول: الورد: قطع خبر الفناء، والسرور: وجود السكينة، والكدر: مدافعة الأوهام، وهذا فيه الكفاية، فافهم.

قوله ﷺ: والغرض بحول الله في تحصيل الكمالات وأسبابها.

الغرض: هي الإشارة المنصوبة، وكأنه هو المقصود الذي يعمل المتوجه على إصابته بسهم التوجه، فالمتوجه: هو الرامي، والرمي: هو التوجه، والغرض: هو المقصود المتوجه إليه، فكأنه قال: القصد بحول الله تعالى في الكمالات وأسبابها، والكمالات تطلق على أنحاء، وإن كان حدها حدًّا واحدًا، ولكن وجودها في الكامل مختلفة الرتب.

وحدُّ الكمال هو الذي لا يقبل الزيادة، ويختل بالنقصان، كما حدَّه سيدنا ﷺ، وهو يتعين بالنظر إلى مذهب أو بالنظر إلى مطلوب الشخص، ولا يعقل إلا في شيء له غاية ووسط ومبدأ.

كما تقول: كملت الآحاد من العدد إذا بلغت العشرة، وكملت العشرات إذا بلغت المائة، وكملت المئون إذا بلغت الألف، ونقول: فقيه كامل إذا بلغ الغاية في معرفة أحكام المكلفين، وطبيب كامل إذا بلغ من الطب مبلغًا لا يمكن أن يزاد عليه.

والكلام في الكمال البسيط، والنقص البسيط، والذي يكون بالإضافة إلى مذهب وإلى رجل قد ذكره سيدنا ﷺ في «نتيجة الحكم»، فانظره حيث ذكر، وهو يغنينا عن ذكره في هذا الموطن، ولكن نذكره منه هنا ما دعت إليه الضرورة، فنقول: الذي أشار إليه ﷺ في هذا الموضع: هو الكمال الإنساني، وهو واحد بالنظر إلى ماهية الإنسان، كثير بالنظر إلى لواحقه وكونه.

قال: «في تحصيل الكمالات» دل على أنها كثيرة، ولمَّا أن كان قانونه يقتضي حصر القوانين، وإهمال ما لا فائدة فيه منها، وتخصيص المذاهب الخمس المعتبرة، وتكميل الأربعة الناقصة، وتقرير الواحد الكامل، والحث على مذهبه قال: والغرض بحول الله تعالى في تحصيل الكمالات، وذلك أن سيدنا ﷺ قد اطلع على القوانين المتقدمة كلها: الشرعية والفلسفية والأدبية، وحصر الكتب المنـــزلة منها والغير منـــزلة، من أول مبدأ العالم إلى وقتنا هذا، وعرف مجملها ومفسَّرها، ومهملها ومخصصها، وفك غوامضها، وخصص منها خمسة مذاهب، وأهمل ما دونها، وذكر إنه ما ينبغي أنْ تذكر، ولا تجمل مخاطبتها، ورتب

قانونه وجمعه من المذاهب الخمسة وهي: مذهب الفقهاء، والأشعرية، والفلاسفة الأتقياء، والصوفية الأولياء، والمقربين.

وبيّن الكمال الذي يراد بذاته، والسعادة التامة الأبدية، والخير المطلق الذي لا يحصر ولا يقدر في مذهب المقرب، وجعل المذاهب الأربعة كل واحد مصيب في بعض الأشياء، وغير مصيب في البعض، فقرر كل واحد منهم على إصابته، ونبّه على المواطن التي أخطأ فيها وعلمه ونقله منها.

وأمر المسترشدين المقتدين والطالبين طريقته، والقابلين نصيحته أنْ يأخذوا بحسب نصه في «الفتح المشترك» حين قال: «خُذ من الفقيه المحافظة على الأحكام الشرعية، ومدلول صيغه فيها، ومن الأشعري السياسية بك في مذهبه لا به، ومن الفيلسوف الصناعة الرئيسة والحكمة التي تفيد معرفة الأشياء حسب ما تعطيه، وتقتضيه طبيعة البرهان، ومن الصوفي مكارم الأخلاق، والتجرد المحض عنك حتى تجدك وتظفر بك، ومن المقرب ماهية كمالك الأول والثاني».

وكتبه كلها منبهة على هذه المذاهب الخمسة، فلمَّا إن كان كمال مذهبه مجموعًا من هذه المذاهب، ولكل مذهب منها كمال خاص بالنظر إلى غايته، وبالنظر إلى الوجه المحمود منه، سماها كمالات، وجعلها كثيرة لهذا الوجه الذي ذكرته لك.

وقد تكون الكمالات في الشخص الواحد بالنظر إلى مراتبه وخواصه، كما تقول: العلم بالله كمال أول، والمعرفة كمال ثانٍ، وخلاص الإنسانية كمال ثالث.

أو نقول: قطع الوهم كمال أول، وتحقيق الحق كمال ثانٍ، واستجابة الجميع في الإنسان كمال ثالث.

وهذا ذكره سيدنا ﷺ في «الإحاطة»، والقسم الأول ذكره في «الفقيرية» وها أنا نذكر كمال كل مذهب، وغايته وفائدته بقدر الطاقة، والله يؤيدنا بروح منه.

فنبدأ فنقول: الكامل عند الفقهاء: هو الذي عرف أحكام المكلفين، مفروضها ومسنونها، وعلم السيرة الجميلة، وتفسير كتاب الله، وفهم مدلول التنـــزيل، وعرف المحكم والمتشابه، وذلك كله بالدليل والبرهان، وهذا ذكره سيدنا ﷺ في «بد العارف».

والكامل على ما يقتضيه مذهب الأصولية: هو المحصل لمَا تقدم في مذهب الفقيه، ويزيد عليه بمعرفته ما يجب لله، ويجوز عليه، ويستحيل في حقه، ويحرر توحيده بالدليل المركب من المنقول والمعقول، وينـــزّهه من الحد والرسم، ويعرِّفه بالوصف والاسم، ويعلم أسماء ذاته، وكونها ذات مسمى، وأسماء صفاته، ويزعم إنها لا هي هو ولا هو

غيرها. وأسماء الأفعال جعلها غيرًا محضًا، ويقطع الخصم المعطل بدليل افتقار الفعل المحدث إلى محدثه، ويقصم ظهر المشبِّهة بصفات القدم وما يليق.

وبالجملة: يعرف خواص المحدث وصفاته، وصفات القديم الذي يجب أن تنسب لذاته، وانحصر مذهبه في ميز الذوات وتقابل الجائزات وتعلق الصفات، وهذا الكمال الذي وصفت في الفقيه والأشعري إنما هو بحسب ما يلزم من قوة مذاهبهم، وما يلزم من مبادئ قوانينهم وغاياتهم، وقد تقدم القول بأن الكمال هو الوصول إلى غاية ما لا تمكن الزيادة عليها في تفسير ذلك المذهب، أو تلك الصناعة، فاحتجت أن اذكر غايات مذاهبهم التي لا يمكن الزيادة عليها في صنائعهم.

وأما الكمال الإنساني فلم يتعرضوا إليه، ولا يمكن قوانينهم أن تفيده، ولا يتوصل بها إليه، والدليل على ذلك أن الفقيه يزعم إن المرتبة الشريفة هي الأعمال فقط، ولا يتعرض لثمرة الأعمال، ولا يسلم تحصيلها إلا بعد الموت، وسعادة الإنسان عنده محتملة النقيض، ولا يبحث عن الحقائق ولا يتوجه إليها، ويزعم أن السعيد من المؤمنين، ولا يتعين مقامه إلا بعد الموت، ولا يعلم مقامًا إلا محسوسًا، ولا جنة إلا محسوسة، ولا لذة إلا طبيعية، ورؤية الحق تعالى مجهولة الكيف عنده، وهو واقف مع الأمور المقبولة، ونفسه مجهولة الماهية، فلا كمال فيما ذكرناه، ولا خلاص ولا حرية.

وهأنا نذكر اعتقاد من تكلم في الكمال وعمل عليه، وتكلم في النفس، وبحث عنها، وتكلم في الحقائق، وتوجه إليها، ويظهر لك بذلك عدم الكمال عند من ذكرناه فنقول: مقصود العقلاء هو السعادة، والسعادة: هي النعيم الدائم الذي يستصحب ماهية السعيد ولا يفارقها، ولا يمكن فيه الفقد، ولا يتشوق الإنسان بعد تحصيلها إلى نعيم خارج جوهره، ولا يطلب خيرًا غير الذي قام به، ويرتفع من محله خير الطلب، والتشوق إلى غيره إذ لو بقيت عليه بقية يطلبها، ويتشوق إليها، ولذة يستدعيها، ويتقدر عليه وجودها، أو يبقى في ماهية احتمال تحصيلها، أو ضده لم يكن سعيدًا، ولا منعمًا في ذلك الحال، إذ هو يستدعي لذات لم ينلها، ولا قامت بمحله، وهو ليس بكامل إذ هو يستدعي الزيادة.

ومن افتقر إلى الزيادة فهو في النقصان، فصح بهذا النظر أن الكمال هو تحصيل الغاية التي لا يقدر بعدها شيء يطلب، وينقطع عندها كل مطلب، ولا يوجد شيء خارج عنها، ويذهب من جوهر الظافر بها كل أمل، وترتفع أخبار الإضافة، ويسقط التعليل هناك، ويضمحل النقصان والعلل، وتقع السكينة والغبطة والرضوان، فيكون الكامل مقيمًا في جنة حضرته التي لا يشذ عنها شيء، ولا يقدر فيه أنه يفقد ما هو عليه ولا يظفر بكمال

ولا سعادة غير الذي هو فيه وإليه.

فإذا كان الأمر كذلك فكل طالب، وكل منتظر، وكل واقف في مطلوبه على حاشيتي النقيض، وكل من يقدر كمالاً أو سعادة غير الذي هو فيه وبه فليس بسعيد، ولا كامل.

فنرجع للفقيه، فنقول له: اعلم أن الأعمال الشرعية المراد بها إمساك النفوس عن الشهوات البدنية، وتجريد الجوهر عن اللذات الطبيعية، ورياضة الإنسان بالأعمال العملية وتشويقه إلى الحقائق بالمباحث العلمية، وتحليته بالتخلقات الربانية، وتغذيته بالملذوذات الروحانية، حتى يتجرد عن الجسم بموت شهواته، ويتصل بالذوات المفارقة للمادة بعلمه وتخلقه، وعلمه جوهره. فيكون من جملة الذوات المجردة، وذاته مفارقة ليست بجسم، ولا في جسم، والذوات المفارقة تعلم بغير نظر، وتدرك بغير حواس، وتشاهد ربها شهودًا غير زماني ولا مكاني، وهي مقيمة في حضرته إقامة أبدية، وتتلذذ بمطالعة جلاله، وبما يسرى لها منه من الفضل والشرف، والكمالات الذاتية التي لا تفارق الجوهر.

فحينئذ يكون الإنسان باقيًا لا يفنى، ولا يجري عليه الكون، ويستحيل عليه الفساد، ويتلذذ بلذات روحانية غير منقطعة، ولا تنال في وقت دون وقت، إذ هي في جوهره جوهرية له، وصفة نفسه.

وقد سلمت في مقدماتك واعتقادك إن نعيم الجنة لا ينقطع، وإن الإنسان فيها لا يموت، ولكنك جهلت الكيفية، فهذه كيفية ذلك، وزعمت إن ذلك لا يكون إلا بعد الموت الذي تعلمه في عرفك، وصدقت في ذلك، ولكنك عازك أن تعلم إن الإنسان المتوجه للقوانين الشرعية يموت عن الجسم قبل موته الذي تعلمه في عرفك، ويتجرد عنه تجريدًا تامًا بحسب استغراق حاله في ذلك، ويدرك خاتمته ومقامه، كما تخبر أنت إن ذلك يرى بعد الموت.

والصوفية من أهل الملة كل واحد منهم متفق على هذا المعنى، وقائل به، وهذا هو المعروف المتعاهد عندهم، وجميع ما تقول أنت أنه يحصل في الآخرة يدركه، ويأكل بروحه من طرف الجنة، ويشاهد مقعده عند الله ورتبته، وخاتمته يقطع بها، ويتكلم بالمغيبات ويكشف الواقعات قبل وقوعها، هل هذا إلا من مطالعة النظام القديم، وكشف ما فيه؟ وهذا لا يكون إلا بجوهر روحاني مفارق للمادة.

وأنت تسلم، وتقول: إن السعادة تنال بتوحيد الله تعالى، ومعرفته، والأعمال الصالحة، وعلى قدر ما يستكثر الإنسان من الأعمال تكون درجته عند الله وسعادته.

كذلك يقول الصوفي: على قدر الأعمال الشرعية، والميل إلى الله حتى يستغرق أزمنته

في الأعمال والعلوم والمعارف، بقدر ذلك تكون غيبته عن الجسم، وبقدر ما يغيب عن الجسم يتصل بالأرواح الطاهرة المفارقة في حضرة الله، فالمتصل بها يكون في حضرة الله، حيث قال تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55].

فهذه مقدماتك مسلمة إن الكمال الإنساني في القرب من الله، والقرب[1] من الله لا

(1) قال الشيخ القاشاني في القرب: هو القيام بالطاعة، والقرب: هو دنو العبد من الله تعالى بكل ما يعطيه من السعادة، لا قرب الحق العبد، فإنه من حيث دلالة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4]، عليه قرب عام سواء كان سعيداً، أو شقياً، فكل عبد، في كل وقت، تحت حكومة الأسماء الإلهية قرب، من حيث تجلي اسم إلهي وبعد من حيثية اسم آخر، فالقريب من المضل بعيد من الهادي، والعكس، فكل اسم يعطي قربا، فالسعادة ترجع إلى هذا القرب المصطلح عليه، وقد يكون للحق قرب خاص من العبد زائد على قربه العام.

كما قال تعالى لموسى وأخيه عليهما السلام: ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، فإن هذه المعية، معية العناية بالحفظ والكلاءة، لا المعية العامة، فقرب العبد من الحق بكل ما يعطي من السعادة يتبع له قرباً خاصاً من الحضرات بالحقية، كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يسعى أتيته هرولة».

والقرب على قسمين: علمي، وعملي.

فالعلمي: أعلاه العالم بتوحيد الألوهية، وهو على نوعين نظرى، وشهودي. والعملي: على نحوين:

قرب بأداء الواجبات: وهو القرب الفرضي كما قال ﷺعن ربه تعالى: «ما تقرب المقربون بأحب إليّ من أداء ما فرضته عليهم».

وقرب نفلي: كما قال ﷺعن ربه تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت له سمعاً وبصراً». ومداد العمل المقرب:

إما من الباطن إلى الظاهر، فأعمه وأتمه الإيمان.

وإما من الظاهر إلى الباطن، فأعمه وأتمه الإسلام.

وإما من القلب الجامع بين الظاهر والباطن، فأعلمه وأتمه الإحسان.

فمقتضى القرب النفلي: تجلي الحق للعبد متلبسا القابلية المحدودة.

ومقتضى القرب الفرضي: تجلي الحق له، وظهور العبد بحسب الحق، غير محدود، ولا متناه.

فالتمييز بين قوسي الحقانية والعبدانية في القرب المفرط إن كان خفياً يعبر بـــ «قاب قوسين».

وإن كان أخفى يعبر عنه بـــ «أو أدنى».

ومن هنا قال قدس سره: وقد يطلق على حقيقة: «قاب قوسين»، فالتجلي بحكم هذا القرب، إن كان في مادة وصورة، تتبعها القرب في النسبة المكانية، في مجلس الشهود، وإن كان في مجلس الشهود، وإن كان في غير مادة، كان قرب المنـــزلة والمكانة، كقرب الوزير من الملك.. فافهم.

=

يكون إلا بقدر المعرفة به، والطاعة له، ومعرفته لا تكون إلا بالجوهر الملكي المفارق، إذ الجسم لا يعلم؛ لأنه ميت بالطبع.

والعمل الصالح هو أخلاق الذوات المجردة، إذ الخير هو طبيعتها، فتوحيد الله هو ذاتها، والسعادة في التوحيد، والعمل الصالح، والخير المحض، والسعادة والكمال في الذات المجردة بالذات، فافهم الشريعة على هذا الوجه، وتكون من السعداء الصوفية الجِلّة.

وكذلك يقال للأشعري، إذ هو يعتقد في سعادة الإنسان ما يعتقده الفقيه لأنها عنده في حكم الإمكان، ومحتملة النقيض، وبعد الموت يتعين منها ما شاء الله، فيقال له: جميع ما اعتقدته في الله، وكونه ليس بجسم، ولا في جسم ومنـــزّه عن طَرْء الأعراض الجسمانية عليه، وإنه يعلم لا في زمان، ولا في حاسة جميع ذلك هو الذي يقال على جوهر الإنسان.

ولمّا كان الإنسان جوهرًا ملكيًا مفارقًا كان عارفًا بالله بالذات، وتحت ربه من كل الجهات، ومشاهدًا له على الدوام، وكامل العبودية له بالذات.

فلمًا غمرته الطبيعة في الأمور المحسوسة بمشاركة الأجسام احتاج إلى الحواس، وآلة البدن، فجاء التوجه، وخطاب الشريعة، كأنه يصرفه إلى عالمه، فيجد كماله في ذاته وجوهره صفه نفس ذلك الجوهر، وتلك الذوات.

وافهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر: 28].

ومن قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أول خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: 104].

ومن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأولى فَلَوْلاَ تَذكَّرُونَ﴾ [الواقعة: 62].

هل هذا إلا إشارة للمُبدَع الأول الذي خُلق في أحسن تقويم بمعرفة خالقه وباريه، ومشاهدة جلاله والنظر إلى وحدته، ثم رجع أسفل السافلين بمشاركة المواد وتدبير الأجسام، ثم يرد إلى جوهره الأول بالإيمان والعمل الصالح؟

فالكمال الإنساني: هو اتصال الإنسان بمبدئه الأول حيث هو رضوان الله وتوحيده ومشاهدته بالذات.

ويُقال للفيلسوف: أنت تتكلم في الكمال الإنساني، وتعمل عليه وتزعم إنه يحصل بتجرد الجوهر عن عالم الطبيعة، والاتصال بالعقل الفعال على قولة الحكيم أرسطو بالجوهر، وإلى الكلي بالعلم، وأن سعادة الإنسان في القرب من الله، والعقل أقرب

انظر رشح الزلال تأليف الشيخ عبد الرزاق القاشاني، تحقيق الدكتور عاصم الكيالي، نشر دار الكتب العلمية ص 218 وما يليها.

الموجودات إليه، فالسعادة في الاتصال بالعقل، وإن العقل جوهر روحاني غير مركب، وما ليس بمركب لا يفنى، فالعقل لا يفنى، وإن الروحاني لا يدخل تحت الزمان، وما لا يدخل لا يتغير؛ فالعقل لا يتغير.

وإن النعيم والسعادة والكمال في الثبوت، وعدم التبدل، وإدراك الأشياء، ومطالعة الأزل، وهذا كله في العقل من صفة نفسه، فالاتصال بالعقل هو الكمال الإنساني، وإن شرف العقل وكماله من ذاته، وإن الإنسان لا يصل إليه حتى يقطع ما بينه وبينه من الرتب، وإن كل رتبة ضرورية في تحصيل ما فوقها؛ فتجد كمالاً داخله النقص وسعادة مشوبة بالشقاوة، فإنك تتعب في قطع المراتب، وتجتهد في تحصيلها وتحصيل ما بعدها، وتشقى بحولك وقوتك.

وتصل بعد ذلك كله إلى جوهرك الذي أنت به إنسان، وإلى ذاتك الذي كنت بها في أول التوجه، كأنك حصَّلْتَ بعد الجهد ما كان حاصلاً، وطلبت القريب بالبعيد، وبحثت عن الضروري بالدليل، وحجبت الظاهر الجلي بالتعليل، ويحك! كيف تتوجه إلى عقول الأفلاك، وعقلك مثلها، وجعلت المثل يفتقر إلى مثله، والجواهر المفارقة فضلت بعضها على بعض، وجعلت الفضيلة ذاتية للجوهر، وأنه استحق ذلك بحسب رتبته، وكيف ذلك، وجواهرها واحدة في الاضطرار، والاضطرار الموجود في كل واحد منها هو الموجود في الأخر، وما عدم من كل منها عدم في الأخر، وهي واحدة في وحدتها التي لا تنقسم، وكونها روحانية لا تركيب فيها، وهي متساوية في ذلك؟ فكيف يفتقر المثل إلى مثله من كل الجهات، والذي عدم منه عدم من مثله، والذي هو موجود في مثله هو موجود في ذاته هو؟

فعليك بجوهرك الذي تبحث به عن غيره، وابحث به عنه، واطلب الشرف والكمال من الواحد الحق الذي قال: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [طه: 52]، ثم هداه إلى نصيبه الموجود في النظام القديم.

واعلم أن جوهرك يأخذ نصيبه من الله كما يأخذه العقل الكلي والفعال وغيره، وأن كلمة الله هي المفيضة على كل جوهر، وهي المقوِّمة والمتممة لكل موجود، روحانيًّا كان أو جسمانيًّا، وأن الله لا واسطة بينه وبين مفعوله، وأن أمره هو الذي ينـــزل في السموات والأرض فعليك به، ولا تهلك نفسك في ذل الوسائط، وتطلب القريب من كل الجهات من البعيد، فجميع ما أنت تصل إليه، وتتوجه بعوالمك الروحانيّة والجسمانيّة إليه هو مثلك. وتخبر بالوصول، وقطع المراتب، وأنت لم تنفصل عنك، وتفرح بخبر متوهم.

واعلم أن مبادئ المتصوفة في التوجه هي من فوق العقول التي تزعم أنها غايتك، فإنك تزعم إن كمالك في العقل الفعال، وأن لا نصيب لك من الكلي إلا العلم به، والصوفي يجعل الكلي والفعال، وبالجملة الروحاني والجسماني من تحت قدمه عند توجهه، وذلك لمَا أن علمها أنها بجملتها واحدة في قضية الافتقار والانفعال والإمكان، وأنها متماثلة معه، أهمل الفعل، وتوجه إلى الحق بالحق.

فبالوجه الذي أهمل ذاته أهمل الكون كله، وحيث فني هو فنيت العوالم بأسرها، فعلومه من الكلمة، فإن عنده أن الممكن لا وجود له إلا بكلمة الحق، فيُنفى عن جملته، ويثبت بالكلمة، أو تكون الكلمة ذاته، والكلمة لا تفارق المتكلم، فهو لا يفارق الحق.

أو نقول: الكلمة ذات الصوفي وهي صفة الله، وصفته غير زائدة على ذاته، فالصوفي لا ذات له إلا الحق، أو تكون ذاته من قبيل الوهم، أو من قبيل الخبر، أو من قبيل الأسماء، فاعلم ذلك.

وقد تبين لك بهذا كله أن الكامل عند الفلاسفة: هو الذي يصل بالجوهر إلى العقل الفعال، وبالعلم إلى الكلي، أو يكون في الفعال بالجوهر، وفي المقصود بالعلم.

وقد ذكر سيدنا ﷺ هذا في «نتيجة الحكم» فانظره هناك، وكذلك ذكر هناك إن الكامل عند الصوفية في الوجه الأول: هو العالم بالمشروع والمعقول بشرط أن يكون نحو الصواب فيهما، ويغلِّب الأحوال على الأقوال، وكذلك الأفعال، ويكون ثابتًا في سريرته، ويعلم ذلك من سيرته، والكامل في الوجه الثاني: هو الذي حصَّل مقام الإسلام والإيمان والإحسان بالتجوهر، ووجد الآنية في خبره ثابتة النسبة، غير أنها تختلف فيه من جهة الشعور، ويجد الافتقار إليها.

والكامل بحسب الوجه الثالث: هو الظافر بالوجوه التسعة، الذي حصَّل مفهوم الأسماء في ماهيته، وحصَّل الإحاطة، ولم يتلاعب ضميره بوهمٍ، ولا كان من وهمٍ ولا في وهمٍ.

وهذا ذكره سيدنا ﷺ في «النتيجة»، إلا أنه ذكرته أنا لك بالاختصار في وصف القسم الثالث.

والكامل عند أهل الحق فيما ذكر سيدنا ﷺ في «النتيجة»: هو الذي لا يسلم الكمال ولا يطلقه، وإن صح عنده إنما يصح بإهمال هذا الكمال، وترك هذا الحشو، والعلم عنده ما يصح من الماهية، أو هو يرجع إلى إخباره أو قضية راجعة منحطة.

ويقول: أهل العلم العلوي لا يعلمون الصنائع ولا يعرفون السلوك، وغاية الصوفية

والحكماء الوصول إليهم، وهم من حيث مراتبهم لا استقلال لهم، وأين الناس وأين الحق منهم؟

وهذا يقول إذا تكلم في عادة الصوفية والحكماء، وأمَّا من حيث هو فلا علم له إلا واحد وهو هو، فاعلم ذلك.

فقد تبيَّن لك بهذا النظر أن الفيلسوف يتوجه من الفعل إلى الفعل، ويعبد العبد بالعبد، أو يعبد العبد بالحق بنظر ما، والصوفي تفوته المقارنة والنسبة، ويتوجه بالصفة إلى الصفة، ويخبر عن اللقاء بالوهم، وحمله على ذلك كله عدم الفهم؛ لأنه جهل الحق عنده، وتوهمه أنه وصله بفقده، ومن حيث وجده فقده، ومن حيث عينه غيبه، وأخفاه من حيث أظهره، وقبضه من حيث بسطه، والمحققُ جَمالُه تَرْكُ كَمَالِه، وجمالُه عَيْنُ جلالِه، وتوجُّهه سكينةٌ في ماهية اعتداله.

والفقيه لا كمال له إنساني، ولا تجوهر له رحماني، فإنْ اعتبرت به كمالاً؛ فإنما تعتبره بالنظر إلى مبدأ مذهبه وغايته، لا بالنظر إلى تجوهره، وتجريد ذاته، وكذلك القول على الأشعري.

فقد تبيَّن لك الكلام في الكمالات بحسب المذاهب المعتبرة، وكيف هي في الفقيه والأشعري، في القانون لا في الإنسان، وفي المذاهب لا في الجوهر من ذات الرحمن، وفي الفيلسوف بجوهر ناقص وإنسان مستند، وفي الصوفي بحق مضاف، ورضوان مقيد، والمحقق كهف الكمالات، وكنه الإمكانات، فاعلم ذلك.

وهذا الكلام في الكمالات قد فرغ منه، فنبدأ بذكر أسبابها.

فنقول أسباب الكمالات عند الفقيه في تحصيل مذهبه: معرفة لسان العرب، ومعرفة اللغة العربية، وحفظ الكتاب والسنة، ومعرفة تاريخ الآيات والأحاديث، والعلم بالناسخ منها والمنسوخ، والنظر في المحكم والمتشابه.

وأسباب الكمال بالنظر إلى مذهب الأشعرية: سلامة العقل والفطرة، والاجتهاد الكلي، والبحث المسدد، والمعلم الخبير الناصح.

وأسباب الكمال عند الفيلسوف: تحصيل المطالب الأصلية، والعلوم المنطقية مثل كتاب: «إيساغوجي»، و«المقولات العشر»، و«باري أرميناس»، و«أنالوطيقي» «قاطاغورياس»، و«المخاطبات الخمس»، و«الأقيسة التسع»، وما يتبعها.

وما يتقدم على ذلك من اعتدال المزاج، وسلامة الفطرة، وسعادة المولد، وحسن المعلم، وما أشبه ذلك، وما يلحقها من التجرد والرياضة.

وأسباب الكمال عند الصوفية هي على أنحاء: فإن الصوفي يأخذ مقدماته الأول من الفقيه في الأعمال الشرعية، ومن الأشعري في الاعتقاد العقلي، ويركب على ذلك التوجه والمجاهدة والتوكل والتسليم والتفويض والرضى، وهذا سبب الكمال عند بعضهم.

ونقول أيضًا: سبب الكمال عند الصوفية: التخلي عن غير الله والتحلي بصفات الله، والتجلي ثمرة ذلك كله.

ونقول أيضًا: سبب الكمالات: الصدق والإخلاص، واستصحاب الحال، وثبوت القدم، والتجرد المحض، والتخلق الكلي.

ونقول أيضًا: سبب الكمال على أي نوع كان لا يكون في العبد من حيث هو وعقله ونفسه وجملته عاجزة عن استجلاب الخير وتحصيله، وعن التوجه بالجملة.

فإذا رأينا ذلك وثبت في الرجل حكم ذلك؛ علمنا أنه من عند الله، وإن السبب في ذلك قدرته وإرادته وحكمه وأمره.

فصفات الحق هي سبب الكمال[1]، وأصل في وجوده وصفاته غير زائدة على ذاته، فذاته سبب الكمال، فهو المتقدم على توجه المتوجه، وهو الموجود في نفس التوجه من حيث استحقاق الفاعل لفعله، وهو الموجود عند الفتح والوصول، وهذا معنى قول سيدنا ﷺ في «الرسالة الفقيرية»: هو المطلوب وبه يطلب، ومنه الطالب، وله ومنه وعنه الكل، فاعلم ذلك.

وأسباب الكمال عند المحقق الأول زمان حائل، ومكان آفل، ومضاف زائل، وطالب نائل، وخبير خبره ذات مخبره، وعليم علمه عين معلومه، وحصر ممتد، وقضية تجدد وفرع هو ذات أصله، ونوع لا عموم لجنسه.

قوله ﷺ: والتجوهر بمدلول الإمكانات الإلهية.

التجوهر بالشيء: هو حصوله في ماهية المتجوهر، مثل الشيء المطبوع الذي لا يمكن زواله، ولا يقدر فقده، وكأنه يعود له من صفات الأنفس التي لا انفكاك لها كما تقول: تجوهر فلان بحب فلان، بمعنى أنه غلب عليه حبه، وحكم في طباعه، وظهر في شمائله ونعوته كلها، وبه قال بعض الفقراء حيث سئل عن المحبة فقال: هي اتحاد النعوت.

(1) الكمال: التنزيه عن الصفات وآثارها. أي: عن كل ما يقيد ذات الحق، وحقيقته فيخرجها عن إطلاقها صفة، وتجردها عن الاعتبارات ومطلق إبقاؤها على الإطلاق الذاتي، والذي حكمه مع سائر القيود على السواء، وذلك هو الكمال الحقيقي، فافهم.

وكما تقول: تجوهر فلان بالخمر، بمعنى أنه لا يصحو منه، وقد حده سيدنا ﷺ في «النتيجة»، فقال: التجوهر هو أن يكون المتجوهر في الشيء بعموم ماهيته، والدال: هو الناصب للدليل، والدليل: هو الحامل للمطلوب المستدل عليه، والمدلول: هو المطلوب بالدليل، والإمكان: هو الجواز الذي يحكم بنفي الشيء أو إثباته حكمًا واحدًا على التساوي، كما نقول في قضية جائزة إذا قدرت وقوعها، وهي من حكم الجائزات يمكن أن يكون ممكن بمعنى يجوز، ويمكن ألا يكون.

وبالجملة: الممكن هو الجائز، والإمكان هو الجواز، وهو متوسط بين الواجب والمستحيل، فالواجب: هو الذي يلزم من فرض عدمه محال، والمستحيل: هو الذي يلزم من فرض وجوده محال، والممكن: هو الذي يجوز وجوده ويجوز عدمه، وفي قضية الإمكان كان العالم قبل وجوده، وفيها هو الآن في بقائه، وتجديد إيجاده.

وبالجملة: كل فعل يفعله الحق تعالى، وكل ما فعل هو في الإمكان، والإمكان: هو حقيقة العالم بأسره.

ولمّا كان الممكن لا يقع بنفسه لكونه لا يترجح أحد طرفيه على صاحبه، فوقوعه يدل من صفة نفسه على الفاعل المختار، ولمّا كانت المفعولات أنواعًا كثيرة، وكل نوع من مخلوقات الله تعالى له من الإمكان قضية تخصه سماها إمكانات بحسب الإمكان المقدر في مخلوق مخلوق، والإمكان من حيث هو هو واحد في حكم العقل، ويتعدد بحسب حكمه في مخلوق مخلوق فتسمى إمكانات.

كما تقول: أعوذ بكلمات الله التامات، وكلمة الله من حيث هي كلمة واحدة، وتتعدد بحسب أثرها في المخلوقات المتعددة، وكذلك القول في الإمكانات: هي كثيرة بالنظر إلى تعدد الممكنات، والإمكان واحد من حيث معقوله المطلق، فلمّا كانت الإمكانات تدل بذاتها على الفاعل الذي يخصص ممكنًا بدل ممكن، والفاعل واجب الوجود، ولا يظهر ممكن إلا بقدرته ومشيئته وعلمه وحكمه وأمره، فكل ما يقع في الممكن يدل بطبعه على صفات الحق تعالى، وعلى وجود ذاته، ووجودها، وعلى قيامه بذاتها، إذ كل ما يقع في الممكن هو صادر عن ذاته، فمدلول الإمكانات هو الله تعالى وصفاته.

وقوله ﷺ: «الإلهية» الضمير يعود على الله، وصفاته لا على الإمكانات، وكونه حضٌ على التجوهر بذلك، معناه إن لا تعقل لذاتك وجودًا إلا بصفات الله المقومة لوجودك والمتممة له، والتي لا حقيقة لك إلا بها، كما تقول: لا وجود للممكن إلا بقدرة الله، والقدرة شرط ضروري في وجوده، وما هو ضرورة الشيء فهو الشيء.

فإذًا القدرة هي ذات الكون الممكن، والقدرة صفة الله، وصفته غير زائدة على ذاته، فالله هو ذات كل ممكن، ووجوده بالوجه الذي ذكرناه، ومن حيث أنه إذا قدر ارتفاعه ارتفع وجود كلِ شيء، فاعلم ذلك ونـــزِّه واعتقد الإفرادَ المحض مع قوة الملازمة.

فكأنه قال: لا وجود لك، ولا حقيقة، ولا ماهية، ولا حال إلا بالله، والله هو أصل وجودك وأحوالك، وهو الظاهر في ظهورك، والباطن في أسرارك، وهو الكل من حيث استحقاق الفاعل للفعل فتجوهر به، بمعنى أبصره أنه هو الغالب على ماهيتك؛ بل هو ماهيتك كما ذكرنا، وهو الموجود في نعوتك كلها والسميع في سمعك، والبصير الذي يبصر ببصرك، ويبطش بيدك ويسعى برجلك؛ فتجوهر به، بمعنى أنك لا تعول إلا عليه، ولا تنادم إلا له، ولا تبصر إلا وجوده، فإنه أقرب إليك من وجودك لك[1].

فافهم ذلك من حديث رسول الله ﷺ حاكيًا عن الله: «إذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله»[2].

معناه: إذا أحببته، والضمير فيه عائد على فهم العبد وعمله بذلك.

وأمَّا من حيث الحق تعالى، فهو سع كل شيء وبصره وجملته قبل وجودك ذلك ومعه، ولا يتنوع الأمر من حيث الله تعالى. ولا يمكن أن يكون في وقت سمع العبد وبصره، ولم

---

(1) قال سيدي محمد وفا في الشعائر: التمكين: رسوخ القدم في حضرات الفعل.

(2) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (265/1)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (344/11)، وأصله في البخاري.

قال سيدي علي وفا قدس سره: لقد تحول الرب الحق لقومٍ في صورةٍ جمادية، وقومٍ في صورةٍ نباتيةٍ، وقومٍ في صورةٍ حيوانية، وقومٍ في صورة عنصرية، فإذا تحول لك في صورة إنسانية فاحمده على ما فضَّلك، بأن تحول لك في صورة أحسن تقويم، وشاهد المثل الذي ليس كهو شيءٌ في عوالم كيانك، فافهم.

جاء في الحديث: «فإذا أحببته كنت هو».

وفي رواية: «كنت لسانه وسمعه وبصره ويده ورجله وفؤاده»، فإذا جالسته جالست مَن كانَه، وإذا خاطبك خاطبك من هو لسانه، وقسْ على هذا.

وقال سيدي علي وفا أيضًا: إذا ظهر الوجود الروحاني بحكمه الإلهي في عينه الروحاني؛ فتلك روحٌ إلهي، وقس على هذا، فمن روحه المتعلق بمثاله الجسماني إلهي؛ فهو المقول فيه: «كنت سمعه وبصره»، وسائر قواه بحسب كمال الظهور والتعلق، فإن كان هو في شهوده ذلك الروح لا المثال الجسماني فهو المقول فيه: «فإذا أحببته كنته».

وذلك المثال هو المقول فيه: «خلق الله آدم على صورته»، وهو حجاب عزَّته على مدارك تنـــزيهه عن ذلك، ولكل مقامٍ مقال، ولكل مجالٍ رجال. وانظر: المسامع (398) بتحقيقنا.

يكن قبل ذلك كذلك ولا بعده، هذا في حق الله تعالى محال.

وإنما معنى الحديث: إذا أحببته جعلت له فهمًا يعلم أني سمعه وبصره ويده ورجله، وأني كذلك كنت قبل ذلك بالإلزام الذي ذكرنا، ولمَّا كانت المحبة نورًا يبصر به نعوت المحبوب وصفاته وذاته كان العبد عند وجودها أبصر قرب الحق منه، وكونه معه، فصار التقديم والتأخير للفهم الذي يوجد عند العبد فيعلم قرب الحق، واستحقاقه له.

فتنبيه العبد الممكن على التجوهر بالواجب، معناه: أن يعلم أنه متجوهر بالواجب من صفة نفسه، وأن الحق مقوم لوجوده، ومتمم له، وأنه معه على ما هو عليه في كل الأحوال، فنبهك أن تعلم ذلك، فافهم.

وقوله ﷺ: (وبما يجب كما يجب على ما يجب في الوقت الذي يجب).

أشار بذلك للآداب، والتصريف الموزون، ووضع الشيء في محله، ولمَّا يبقَ في الكلام المتقدم أن العبد في حضرة ربه، وبين يديه، وأنه بعينه، ولا يفارقه، فنبه ألا يتصرف في تلك الحضرة إلا بما يجب، ومما يجب للعبد ألا يذكر غير ربه، وهو بحضرته، وألا يطلب شيئًا من غيره، وهو مقيم عنده، وألا ينسب وجوده لغير حقه، وهو به وله، وألا يطلب نعمة من غير الله، وهو بعين الله، فيكون ذلك من وضع الشيء في غير محله، وطلب الشيء من غير مالكه وفاعله، وأن ينسب وجود الممكن للواجب فيكون من وضع الشيء في محله، وألا يذكر أحدًا إلا الله الذي هو ذاكره بالإمداد والتجديد وإعطاء الماهية فيكون من وضع الشيء في محله وفعل ما يجب، وألا يطلب نعمة من غير الله، فلا نعمة لغيره إلا مستعارة، ويطلبها من الحق، فهو المنعم على الإطلاق، ويكون ذلك من فعل ما يجب ووضع الشيء في محله.

أولاً يطلب نعمة إذ نعمة الله قائمة به لئلا يغيب عن الحاضر، ويجحده بطلب الغائب المتوهم، ويكون ذلك من فعل ما يجب، ووضع الشيء في محله، ولا يبصر وجودًا إلا الواجب، إذ لا وجود لغيره معه، ويكون ذلك مما يجب، ووضع الشيء في محله، وبصره الذي يبصره به الواجب ينسبه للواجب، فيكون ذلك من وضع الشيء في محله، وفعل ما يجب.

وإذا كان العبد ينسب الأشياء إلى حقيقتها، ويضعها في مواطنها ووجودها الذي هي به ماهية، ويتركها على ما هي، فقد فعل ما يجب، كما يجب على ما يجب في الوقت الذي يجب، لأنه ينظرها في الله بوجودها على ما هي عليه في أوقاتها وأحوالها وأمكنتها، وهذا هو التصريف الموزون، ووضع الشيء في محله، وفعل ما يجب، والمتصرف بهذا

التصريف هو المتجوهر بمدلول الإمكانات الإلهية على التمام، وهذا الذي يذكر الله من صفة نفسه، ويجده في جملته، ويبصره في أحواله كلها، وفي الكون المطلق، وفي بصره الذي يبصر به كما تقدم.

وإذا صح بما ذكرنا أن الممكن لا شيء له، ولا ذات إلا مستعارة من الواجب، وهي بالجملة لا تفارق الواجب الذي هي منه وبه وعنده، فإذًا لا ممكن على الحقيقة إلا متوهم، أو خبر، لا مخبر له خارج الذهن، فإذًا القضايا كلها واجبة، فكل قضية يجب على البصير أن يتصف بها، كما وقعت وكما يجب على ما يجب في الوقت الذي يجب، إذا هي واجبة لا محيص، ولا انفكاك لها عن ذلك كله لأنها وجود واجب، وهذا معنى قوله ﷺ: وبما يجب كما يجب في الوقت الذي يجب.

وقوله ﷺ: (والاتصاف بالحكمة التي تفيد الصورة المتممة للسعيد).

الاتصاف: هو قيام الصفة بالمتصف حتى تصير له معنى ووصفًا لازمًا بها يوصف وينعت بها، كما تقول: «فلان العالم» إذا اشتهر بالعلم وصار له نعتًا أشير إليه به، أعني: بصفة العلم، وكما تقول: حاتم الكريم، فصار يُكنى بالكرم، وينعت به لكونه صار له وصفًا لازمًا، وكذلك تقول: فلان الشجاع، وما أشبه ذلك.

والحكمة في اللغة: هي العلم والعدل، كما رسمها سيدنا ﷺ في الكلام على أنواع الحكمة، وفي «الرسالة الإصبعية» قال: إنها العلم والعدل، وزاد: وضع الشيء في محله، والحكمة في الشرع: هي السنَّة لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: 34].

والحكمة: الفهم عن الله، لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 269]؛ معناه الفهم عنه.

وهذا ذكره سيدنا ﷺ في رسالة «الكلام على الحكمة»، وفي «الرسالة الفقيرية»، وإذا نظرت معناها يرجع إلى اشتقاقها في اللغة، فإن العلم والعدل هو معقول السنَّة والإيمان والعمل الصالح، والعلم: هو الفهم عن الله فقوله: والاتصاف بالحكمة. أراد بذلك أن تظهر الحكمة على العبد وتستجيب في سيرته، وتعلم من سريرته حتى يسمى بها حكيمًا؛ لقوة ظهورها عليه بالعلم والعمل[1].

وقوله ﷺ: التي تفيد الصورة المتممة للسعيد.

---

(1) قال سيدي علي وفا: الحكمة ما فيه وبه صلاح النظام وكمال القوام في كل مقام بحسبه.

قيدها ودلَّ ذلك على أن الحكمة من الأسماء المشتركة، وأن منها ما يفيد الصورة المتممة، ومنها دون ذلك، ولذلك قيدها بقوله: التي تفيد الصورة المتممة، فإنه قد يطلق الحكيم في العرف على الذي يدبر الأمراض الجسمانية، وهو الطبيب الذي يحفظ صحة البدن، ولا يفيد الصورة المذكورة، لكن كان له من الحكمة اشتراك، وهو العلم بأخلاط الجسم، والخاص بمضاره ومنافعه.

وكذلك الفيلسوف الإلهي هو الذي جمع أقسام الفلسفة الأربعة، يطلق عليه حكيمًا ويسمى بالحكيم، ولكن ليس هو الذي أشار إليه سيدنا ﷺ هنا، إذ حكمته عندنا لا تفيد الصورة المتممة على التحقيق، وإن كان رسم الحكمة عنده معرفة الأشياء حسبما تعطيه، وتقضيه طبيعة البرهان، أو معرفة الأمور الإلهية والإنسانية، والاعتناء بالموت، أو المعرفة بالله على قدرة طاقة الإنسان كما رسمها سيدنا ﷺ في مذهبهم في «البد»؛ فإنه لا يفيد ذلك على الوجه الذي يريده المحقق؛ لأنه عرف الله على قدر طاقة الإنسان، والإنسان ممكن الوجود، والممكن الوجود لا يعرف الواجب الوجود على حقيقته، إذ هو عاجز من كل الجهات، وقد تقدم قصور الفيلسوف، وعجزه عن الحق في الكلام على الكمالات، فانظره هناك.

ودل من الكلام أنه لم يرد الحكمة التي يشير إليها الصوفي التي هي المشاهدة الحاصلة للنفس بالتوجه لله، والتضرع له، والتعرض لنفحات فيضه؛ لأن ذلك كله يعطي الإضافة ويشعر بالنقص في جوهر الإنسان، والصورة حدها هي التي بها الشيء ما هو.

وقوله: (المتممة) يدل على أنه أراد تمام جوهر الإنسان بالحكمة، فتحصل الصورة التي لا يمكن فيها الزيادة والنقصان، ولا يكون ذلك إلا إذا وجد السعيد جوهره هو كل شيء، والأشياء المختلفة فيه الشيء واحد متفق من كل الجهات، ولا ضدَّ عنده، ولا خلاف، ولا غيره، فلا نقص يهرب منه، ولا كمال يرحل إليه، ويكون خبره ذات مخبره، وعينه ذات آنيته.

وهذا هو الجوهر السعيد، لأنه في نعيم غير زائد عليه، وبقاء غير ذاتي طبيعي له، وهو في حرم وحدته آمنًا من طلب الزيادة وخوف النقصان. فصورته المتممة: هي صورة الوجود من حيث هو مطلق، والحكمة التي تفيد هذه الصورة المتممة: هي الحكمة التي تصرف الأشياء إلى شيء واحد، وتحيل العدد إلى الواحد، وتعين حقيقة اسم الصمد في ذات كل واحد وموحِّد وموحَّد، وترد الممكن واجبًا، وتقلب الموجب سالبًا، حتى يبصر الحكيم خبر الأعداد والإضافة لم يزل قبل ذهابه ذاهبًا، فاعلم ذلك.

وحكمة الفيلسوف ليست حكمة، فإنها تبصر الأغيار، وتنتقل من أثر إلى أثر، وفاتها كنــز التخلق الذي تحت الجدار، وكاملها في كدٍّ الهروب من الكون، وذُل الزيادة الواردة على عقله الفعال، فليس له استقلال، ولا لكماله ثبوت ولا قرار، وهو بالجملة يتخبط في وهم الإضافة، ونظر الأغيار.

وكذلك الصوفي: فإنه يتلذذ بالمشاهدة، ويموه بالتوجه، ويهلكه خبر التوله ويجعل غايته الفناء[1]، وذلك كله يرجع إلى الحاصل الموجود عنده قبل وجود التوجه والاعتقاد، وبالجملة يقبل الزيادة، ويجاهد شيطان الإضافة، ويتعب في جهدها بالإضافة، ويطلب الخلاص من مكابدة وهم العادة، وكأنه يحارب الباطل، ويترك طور شهوده في حق حقيقته، ويترك الطور العامل هو العاطي، ويجد الفصل هو الطالع من القضايا الوجودية والآفل.

وجوهره مع ذلك كله يخبر بالرفيع والنازل، ولسان حاله بوجود الغيرية والإضافة قائل، وللصورة المتممة المذكورة قبل غير قائل، فاعلم ذلك، واعمل على تحصيل القسم الأول بالحكمة الأولى؛ فهي عين الخبر، والصبر على الثبوت فيها بمدافعة غيرها من محله سر الأثر.

وقوله ﷺ: (وبالحقيقة التي تقيمه في الصورة المقومة).

والصورة المقومة: هي التي قامت منها ماهية الشيء وكأنها الشيء المقول على جملته، كما تقول: ما هي الصورة المقومة للجسم؟ تقول: الجواهر الملتئمة بعضها مع بعض.

والمتممة: الأعراض المحمولة عليه، أو تقول: ما هي صورة المقومة للسرير؟ نقول: الخشب والفاعل، وكونه موضوعًا على قوائم المربع، والمتممة: على الرقاد عليه؛ وهي بهذا الوجه تقال على العلل الثلاث، والرابعة هي المتممة.

وإذا قلنا: إن الصورة هي التي بها هو الشيء ما هو؛ فنقول: صورة الجسم المقومة له: هي الجواهر والأعراض، أو نقول: ما الصورة المقومة للإسلام؟ نقول: الدعائم الخمس والثمانية أعمال على قوله، وصورته المتممة: هي السعادة التي تحصل به.

أو تقول: ما الصورة المقومة للإنسان؟ نقول: الحياة والنطق، والمتممة: ما يحصل من

(1) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به: الفناء هو اضمحلال كل متعرضٍ متوهمٍ لا ينتهي الى غايةٍ محقَّقةٍ، وحقيقته: صدق العدم الذاتي على كل موجودٍ بالعرض في المجاز، وغايته: صادقٌ من العلم يمحقُ كل كاذبٍ من الوهم وهو الهلاك الحقيقي.

الحكمة والمعرفة بالله والسعادة؛ وبالجملة، الصورة المقومة: هي المقولة على وجود الذي بها هو ما هو، وكأنها كمال أول له، والمتممة لتبعه من الأمور اللاحقة، وكأنها له كمال ثان، ويظهر منها أنها تقال على الأمور الذاتية التي لا يعقل الشيء إلا بها، وهي له صفة نفس لا يمكن ارتفاعها.

فإذًا نقول: الحقيقة التي تُقيم الإنسان في الصورة المقومة هي وجوده، وهي الفطرة الأولى، إذ وجوده هو الأمر اللازم الذي لو قدر ارتفاعه لم يبقَ مَن يخبر عنه، وكونه حضٌ على الاتِّصاف به تنبيهًا للسعيد أن يعتمد على حقيقته، وما قام به من الوجود، ويلحظ فطرته الأولى، ويقف عند ما أعطاه له القصد القديم، وما أقامه الحق فيه من النصيب، ويطالع النظام القديم والتعلق الأول في نصيبه، إذا ذلك النصيب هو الذي وهبه الله تعالى وفيه إقامة.

ويلحظ الغيب في الشهادة، فيشاهد ربه في نصيبه، ويجده في نفسه، وفي جملته، فيجد ذاته عند ربه ومنه وله فيكون مقيمًا في حضرة الحق فيتأنس أُنسًا ثابتًا، ويتلذذ لذة جوهرية، ويكون كماله حاصلاً بحسب ذلك، إذ لا يمكن أن يزاد في وجوده الذي هو عليه، ولا ينقص منه، ويتحرر من ذل الكون والطلب، ويسعد بعدم التخبط والاضطراب، ويكون هوية مطمئنة في جنة الرضوان والسكينة، فاعلم ذلك.

وقوله ﷺ: (**وتعمل على نيل الآلات التي تعطى الحق بحسب ما تعطيه، وتقتضيه طبيعة البرهان**).

الآلة: هي معنى رابط بين الفاعل والمفعول، فكأنها السبب الموصل للشيء، غير أنها أشد ضرورة من السبب وألزم، فإنك تقول: النظر سبب العلم، وقد يقدر علم بغير نظر، والآلة سبب الشيء وكأنها شرط ضروري فيه، كما تقول: المنشار والقيد هي آلة النجار، والإبرة والخيط آلة الخياط، وقد تطلق الآلة والسبب بمعنى واحد بوجه ما.

فإن قال قائل: قد ذكر في الأسباب الكلام المتقدم، فكيف يعيده هنا؟ يقال له: قد يعيده ههنا للتأكيد ولاختلاف المتعلقات، لأنه ذكر هناك أسباب الكمالات، وهذه أسباب البرهان، والبرهان غير الكمال لغةً وعقلاً، فيكون اختلاف اللفظ فيها باختلاف المتعلقات، أو للتأكيد كما ذكرنا، أو ليكون هذا ألزم من هذا، وأشد ضرورة كما ذكرت قبل.

والحق: هو كشف حقيقة الشيء المحقق، أو خبر صادق داخل الذهن وخارجه، أو الحق: حصول حقيقة الشيء من نفس المحقق، أو ضد الباطل، أو الحق: ما عيِّن المطلوب،

ورفع اللبس، وأزال الإشكال، أو الحق: حقيقة الوجود وما به هو ما هو.

والبرهان: هو حجة المبرهن على حقه الموجود في خلده لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111]، أو تقول: هو دليل صدق مدعٍ.

أو تقول: هو بيان حق المبرهن، أو تقول: هو الحاصل عند المقدمات الصادقة، أو تقول: هو مقصود القياس، أوتقول: هو الذي لا ينفك من المحمول والموضوع إلى الغرض المطلوب بالمقدمة التي لا وسط لها.

فالآلات التي تعطي الحق للفقيه والنظر: هي سنة الرسول ﷺ، وكتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مع العقل، والنظر السديد فيهما، والهداية الإلهية، والآلات التي تعطي الحق عند بعضهم: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، والعقل مع الاجتهاد، والنظر فيهما، والتوفيق الإلهي.

والآلات التي تعطي الحق عند الأصولية: هي الضرورة والحواس والخبر والدليل، وينقسم إلى أقسام يطول ذكرها.

والآلات التي تعطي الحق عند الفلاسفة: هي صناعة المنطق، وهي عندهم التي ترشد القوة الناطقة نحو الصواب، وتحفظها من الغلط، ولها أجزاء ماهية ذكرها سيدنا ﷺ في كتاب «بُدُّ العارف»، وفي «الرسالة الرضوانية» يطول علينا ذكرها هنا، فابحث عليها حيث ذكرت.

والآلات التي تعطى الحق عند الصوفية: هي الأحوال الكاشفة، والخواطر الصادقة والبواده، والبوارق اللامعة، والإلهام والتحدث المحفوظ، والمواجد الثابتة، والأنوار الإلهية، والعناية الأزلية، والتخصيص الإلهي، والنصيب الصحيح المؤيد.

والآلات التي تعطى الحق عن المحقق: القضايا الوجودية، والأخبار الذاتية في الضمير المعتدل الخاص به، والروح الباصر من عين ذاته، والكنه المحيط، والكمال البسيط، والكلمة المطلقة، والحضور الغير مضاف، والهوية المجردة مدركاتها عن الزمان، والشرف الذي يثبت الآنيات في غير مكان، والعين التي تعينها عين العيان، فافهم ذلك، واعمل على نيله كما رسم لك.

والنيل: هو تحصيل الشيء وملكته، والتصرف فيه وبه.

وقوله ﷺ: (وتُحكِّم الشارع ﷺ على جملتك، وتعتقد أنه الخير بالذات).

التحكيم: هو دخول المحكوم عليه تحت حكم الحاكم بغير توقف.

ونقول: التحكيم: انفعال المحكوم عليه لأمر الحاكم، ونهيه من غير تعليل، ونقول:

التحكيم: هو تقديم المحكوم عليه للحاكم على جملة تصرفه، وإذعانه له، ورعاية حدوده من غير تعدٍ، ونقول: التحكيم هو أن يُملِّك المحكوم عليه نفسه، وجملته للحاكم حتى لا تظهر عليه صفة إلا بأمر الحاكم ويمنع غير ذلك.

والشارع: هو المخترع للشريعة الموضوعة؛ ليسلك عليها من معه، ومن بعده لرضوان الله.

أو نقول: الشارع هو المشرع للشريعة: أي للطريقة التي يُمشى ويسلك عليها للمقصود المطلوب بأيسر تكلف، كما تقول: شرع فلان إلى الماء طريقة سهلة، بمعنى فتحها وسهلها، وقصد بها الجهة القريبة المبلغة في الوقت القريب، والشارع المذكور هنا: هو النبي ﷺ، والشريعة: طريقته ومنهجه وموضوعه الذي وضعه ليمشي عليه أتباعه؛ لرضوان الله ولسعادتهم المطلوبة.

والخير: هو المطلوب المحبوب لكل حي حادث يتحرك بالشوق والإرادة، وهو ينقسم إلى: ذاتي وعرضي؛ فالعرضي: هو في الأشياء التي هو فيها بالاتفاق والمصادفة، كسقوط حجر على ذي جرح وبطه له، وأداء ذلك إلى برئه، والذاتي: هو في الأشياء التي هو فيها بالذات، ولا يحتاج فيها إلى غيرها، ولا يفقد منها في وقت ولا بوجه.

مثال ذلك: السعادة في العلم والهداية ورضوان الله والطاعة والسمع، وما يتضمنه القدر من الخير المحض، وهذا ذكره سيدنا ﷺ في «الكتاب الكبير».

ولمّا كان النبي ﷺ هو ذات العلم النافع، ومرشد إليه، يعرف بالله ودليل الرضوان إليه بوجهه، ومدلوله بآخر، وهو ذات الرضوان، وماهية الهداية، ولا سبيل إلى السعادة إلا به، وهو سببها وذاتها بوجه أخر، وهو الخير المحض، والخير في طريقه ومنه وعليه، وكذلك الكمال والرفعة والنعمة الأبدية قال: هو (الخير بالذات)، ووجب أن يُقال ويعتقد أنه الخير بالذات، ولما عُلِمَ ذلك واعتُقِد، وجب أن تدخل النفوس تحت حكمه، وتخرج عن اختيارها لاختياره، وتترك آراءها لرأيه، وتهمل اجتهادها بتقليده، وتعجز عقولها وتتبع عقله.

وكأن معنى قوله: (وتحكم الشارع ﷺ على جملتك)؛ يريد به ذهاب ماهيتك المجموعة من القوى الجسمانية والروحانية والمتوسطة، واستيلاء النبي ﷺ على جملتك، وتجد ما أذهبته منك تأخذ بدله من النبي ﷺ، وجميع القوى التي خرجت عنها يتصف

مدلولها من قوى النبي ﷺ(1).

(1) قلت: قال ابن دحية: النبي: يُهمز ولا يُهمز، فالنبي بلا همزة معناه: الرَّفيع الشَّأن، العالي الأمر، أُخِذَ من النَّبَاوة: وهي ما ارتفع من الأرض، ومن جعله من النبإ همزة؛ لأنه ينبئ عن الله تعالى، أي: يُخبر، فهو مُنَبِّئ، أو لأنه تنبأ هو بالوحي، وقد هَمَزَهُ نافعٌ في جميع القرآن، وقراءة أهل المدينة تُثبت فيه الهمزة، وترك همزة على التخفيف، فمن جعل التخفيف فيه لازمًا، وهو قراءة الأكثرين قال في جمعه: أنبياء، مثل تَقِيٍّ وأتقياء، ووصِيٍّ وأوصياء.

قال النحوي، العالم أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل في كتاب «الاشتقاق» له: وسمعت عليَّ بن سليمان يقول: الأولى في العربية في «نبي» ترك الهمز، ويدل على ذلك القرآن، وذلك قوله ﷻ : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 112]، فهذا جمعٌ غير مهموز، كما يقال: صَفِيٌّ وأصفياء، ولو كان مهموزًا لقلت في جمعها: نُبَآء، كما تقول: كرماء في جمع كريم.

ولم يأت القرآن الكريم بنُبآء، وإنما جاء في شعر عباس بن مِرْدَاس.

وقيل: النبي «الطريق» سُمِّي بذلك لأنه «الطريق» إلى الله، وسمي رسل الله أنبياء لأنهم «الطرق» إلى الله، إلا أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً لأن الرسول هو المرسل للأمة من قِبَلِ الله عز وجل، داعيًا إليه، وصادعًا بالدلالة عليه، ومُرشدًا إلى كلِّيات المصالح العامة التي يستقيم بها نظام الدنيا، وينال الفوز الأكبر في العُقْبَى، ناسخًا بشرعته لشرعة من تقدمه من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، وهو مخاطبٌ من الله جلَّ جلاله، ومخبرٌ عنه إما بوساطة الملك كفاحًا، وإما من وراء حجاب صِرَاحًا، وهو سماع الكلام القديم كما سمعه موسى ﷺ بنص القرآن العظيم، ونبينا محمد ﷺ بنص الحديث الكريم.

والوحي على ضُروب: فمنه هذا، ثم وحي رسالة بواسطة ملك، ووحي تلقٍّ بالقلب كما ذُكر عن داود ﷺ، والرسول يَعُمُّ البشر والملائكة، والنبي يخصُّ البشر، وقد جاء بذلك القرآن العظيم.

وأما النبي فهو المبلِّغ عن الله ﷻ للأمة التي هو من جملة شيعة رسولها، واتِّباعه ما يُؤمر بتبليغه إليها من بشارة ونِذَارة إما بإلهام، أو منام، أو مخاطبة بعض الملائكة الكرام عليهم السلام، وليس له نسخ شيء من شرعة مَن تقدمه.

وأما قوله جل من قائل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: 29].

وكذلك: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144].

وكذلك: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: 40].

وقول عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6].

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: 2].

فإنما أراد جلَّ وعلا تعريفه بالاسم ليعلم من جحده أن أمره وكتابه هو الحق، ولأنهم لم يعرفوه إلا بمحمد ولو لم يسمه لم يُعلم اسمه من الكتاب العزيز، مع أن اسمه مشتقٌّ من اسم الله ﷻ.

لم يُواجهه في القرآن العظيم باسمه؛ بل ناداه فيه بالنبوة والرسالة.

وناداه باللطف: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1].

و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: 1].
وناداه بالرمز بقوله جلَّ من قائل: ﴿طه﴾ [طه: 1].
وقال الحرالي: النبوة الخاصة به ﷺ هي نبوة الرفعة المشتقة من نبوة الأرض، وهو ما ارتفع منها، فلرفعته في وجوه الرفعة كلها عروجًا وتدليًا رفعة إحاطة لا رفعة اختصاص كان ﷺ نبيُّ النبوة التي هي عُلوٌّ، وعلت نبوته عن أن تكون خبرًا من النباء؛ لاستغنائه بالعلم عن الخبر، ولذلك والله أعلم لما قيل له: يا نبيء الله (بالهمزة) قال: «لست بنبيء الله، أنا نبيُّ الله»، فبين اختصاصه بنبوة العلو والرفعة، وتنــــزهه عن نبوءة النباء والإخبار، الذي هو حظُّ من لا علم له بما نبئ به.
فلما علمه الله ما لم يكن يعلم كان ﷺ نبيَّ علوٌّ، لما انتهى إليه علمه إلى الغاية الجامعة المحيطة فكان العالم بالحق الأعلم بالله، كانت نبوة تمامًا، فكان النبيُّ المكمل بما يشير إليه الدوم كلمة (ال).
فإذا أطلق اسم النبيِّ اختصَّ به هو ﷺ، وإلا قيل: نبيُّ بني إسرائيل، ونبيُّ بني فلان.
فهو النبيُّ المحيط النبوة، الذي كلُّ النبوةِ من نبوته، السابق في النبوة، كما قال ﷺ: «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين»، وهو ﷺ النبيُّ بما أُوحى إليه ربه ما أوحى بلا واسطة مُلقٍ ولا مُبلغٍ، المنتهي في النبوة إلى جمع علو السمع، والعين المنتهية إلى الوجد العليِّ الذي هو به نورٌ كله، قلبه وقبره وشعره وبشره ولحمه وعظمه ودمه، حتى كان ﷺ طاهر الدم طاهر جميع الفضلات بما هو نورٌ كله، فهو النبيُّ مطلقًا في ذاته نورٌ، وفي بيانه إنارةٌ.
قال السبكي: أُرْسِلَ للخلق كافة من لدن آدم، والأنبياء قبله بعثوا بشرائع معينات، فهو نبي الأنبياء، وأرسل إلى الجن بالإجماع وإلى الملائكة في أحد القولين، رجحه السبكي.
زاد المازري: وإلى الجمادات والحيوانات والحجر والشجر، وبُعِثَ رحمة للعالمين حتى الكفار بتأخير العذاب عنهم، ولم يعاجلوا بالعقوبة كسائر الأمم المكذبة، وبأن الله أقسم بحياته وأقسم على رسالته، وتولى الرد على أعدائه، وخاطبه بلطفِ ما خاطب به الأنبياء، وقرن اسمه باسمه في كتابه، وفرض على العالم طاعته والتأسي به فرضًا مطلقًا لا شرط فيه ولا استثناء، ووصفه في كتابه عضوًا عضوًا، ولم يخاطبه في القرآن باسمه، بل: يأيها النبي، يأيها الرسول، وحرم على الأمة نداءه باسمه.
وكره الشافعي أن نقول في حقه: (الرسول) بل (رسول الله) لأنه ليس فيه من التعظيم ما في الإضافة، وفرض على من ناجاه أن يقدم بين يدي نجواه صدقة ثم نسخ ذلك، ولم يره في أمته شيئًا يسوؤه حتى قبضه بخلاف سائر الأنبياء، وبأنه حبيب الرحمن، وجمع له بين المحبة والخلة، وبين الكلام والرؤية، وكلمه عند سدرة المنتهى، وكلم موسى على الجبل، قاله ابن عبد السلام.
وجمع بين القبلتين والهجرتين، وجمع له بين الحكم بالظاهر والباطن معًا، ونصر بالرعب مسيرة شهر أمامه وشهر خلفه، وأُوتي جوامع الكلم، وأُوتي مفاتيح خزائن الأرض على فرسٍ أبلق عليه قطيفة من سندس، وكُلِّمَ بجميع أصناف الوحي، عد هذه ابن عبد السلام.
وهبط عليه إسرافيل ولم يهبط على نبيٍّ قبله، عد هذه ابن سبع، وجمع له بين النبوة والسلطان،

عدَّ هذه الغزالي في الإحياء.

وأُوتي علم كل شيء إلا الخمس التي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34].

وقيل: إنه أوتيها وأُمِرَ بكتمها، والخلاف جار في الروح أيضًا، وبيّن له أمر الدجال ما لم يبن لأحد، ووعد بالمغفرة، وهو يمشي حيًّا صحيحًا.

قال ابن عباس: ما أمّن الله أحدًا من خلقه إلا محمدًا.

قال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2].

وقال الله تعالى للملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 29].

وقال عمر بن الخطاب: «والله ما تدري نفس ماذا مفعول بها، ليس هذا إلا للرجل الذي قد بين له أنه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر» ﷺ، أفرده الحاكم، ورفع ذكره؛ فلا يذكر الله جلَّ جلاله في أذان ولا خطبة ولا تشهد إلا ذُكر معه، وعرض عليه أمته بآخرهم حتى رآهم، وعرض عليه ما هو كائن في أمته حتى تقوم الساعة.

قال الأسفراييني: وعرض عليه الخلق كلهم من لدن آدم فمن بعده، كما علم أسماء كل شيء، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلق على الله، فهو أفضل من سائر المرسلين، وجميع الملائكة المقرَّبين، وكان أفرس العالمين، عد هذه ابن سراقة، وأُيِّدَ بأربعة وزراء: جبريل وميكائيل وأبي بكر وعمر، وأُعطي من أصحابه أربعة عشر نجيبًا، وكل نبي أعطي سبعة، وأسلم قرينه، وكان أزواجه عونًا له، وأصحابه أفضل العالمين إلا النبيين وكلهم يجتهدون.

ولهذا قال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، ومسجده أفضل المساجد، وبلده أفضل البلاد بالإجماع، فيما عدا مكة على أحد القولين فيها وهو المختار، وتربتها مؤمنة، وغبارها يطفئ الجذام، ونصف أكراش الغنم فيها، مثل ما عليها في غيرها من البلاد، ولا يدخلها الدجال ولا الطاعون، وصرف الحمى عنها أول ما قدمها، ونقل حماها إلى الجحفة، ثم لما أتاه جبريل بالحمى والطاعون أمسك الحمى بالمدينة، وأرسل الطاعون إلى الشام، ولما عادت الحمى إلى المدينة باختياره إياها لم تستطع أن تأتي أحدًا من أهلها، حتى جاءت وقفت ببابه واستأذنته فيمن يبعثها إليه، فأرسلها إلى الأنصار، وأُحلت له مكة ساعة من نهار، وحرم ما بين لابتي المدينة.

وقال المازري والقاضي عياض: لا تقتل حيات المدينة التي للنبي ﷺ إلا بإنذار، والحديث الوارد في إيذان الحيات خاصٌّ بها، ويسأل عنه الميت في قبره، واستأذن ملك الموت عليه ولم يستأذن على نبي قبله، والبقعة التي دفن فيها أفضل من الكعبة ومن العرش، ويحرم التكني بكنيته، والتسمي باسمه محمد، والتسمي بالقاسم؛ لئلا يكنى أبوه أبا القاسم، حكاهما النووي في شرح مسلم، ويجوز أن يُقسم على الله به، وليس ذلك لأحد، ذكر هذه ابن عبد السلام، ولم تر عورته قط، ولو رآها أحدٌ طمست عيناه، وذكر المازري في توثيق عرى الإيمان من خصائصه: أنه لخواص الأنبياء وأنه نبي الأنبياء، وأنه ما من نبي إلا وله خاصة نبوة من أمته إلا وفي هذه الأمة

مثال ذلك: إذا محوت عقلك بمعنى أنك لا تبصر به، ولا تعمل برأيه، تأخذ من الشريعة بما تبصر وتعمل، وبمثل هذا تقيس على جميع القوى، فإذًا لم تعتقد إلا بالشرع، ولا تعلم إلا به، ولا تتحرك إلا به؛ فقد استولى النبي ﷺ على جملتك، فإن ماهيتك آنية مجموعة من علم وعمل لا غير.

فإذا لم تعلم إلا بالشارع، ولم تعمل إلا به؛ فقد استولى النبي ﷺ على جملتك، وذهبت عنك، وثبت به، والنبي ﷺ: هو الخير المحض كما تقدم، وهو ذاتك كما لزم في ذهابك ووجوده، فذاتك الخير المحض إذا حكمته عليك كما ذكرنا، فنقول: من خرج عن نفسه للشرع كان في ذاته معدومًا، وبالنبي موجودًا، ومَن كان موجودًا بالنبي؛ كان بالله، ومَن كان بالله؛ كان كاملاً، ومَن كان كاملاً؛ كان سعيدًا ناجحًا، وفي رضوان الله سابحًا، فاعلم ذلك، واعمل به.

ومعنى هذا يفهم من قول الله تبارك وتعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6]، ومن قوله ﷺ «لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ونفسه»[1]؛ فهذه حقيقة الاقتداء بالنبي ﷺ.

وفي ذلك قال بعض المشايخ: مَن صحب شيخًا، ولم يُملكه نفسه؛ قيل لتلك الصحبة: صحبة تَبَرُّك، ومَن ملكه نفسه؛ قيل له: مريدٌ ومقتدٍ.

فنقول فيما قلناه: النبي نور الله، والمؤمن لا ينظر إلا بالنبي فالمؤمن ينظر بنور الله.

ونقول: النبي حبيب الله ومحبوبه، والمؤمن لا ذات له إلا بالنبي، فالمؤمن حبيب الله ومحبوبه، ويفهم هذا من قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31].

ونقول: النبي هو ذات التصريف الموزون، والتصريف الموزون عين الحكمة؛ فالنبي

عالم من علمائها يقوم في قومه مقام ذلك النبي في أمته وينحو منحاه في زمانه، ولهذا ورد: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

وورد: «إن العالم في قومه كالنبي في أمته».

ومن خواصه أن سماه الله عبد الله ولم يطلقها على أحدٍ سواه وإنما قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3]، ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: 30].

ومن خواصه: أنه ليس في القرآن ولا غيره صلاة من الله على غيره، فهي خصيصةٌ اختصه الله بها دون سائر الأنبياء، انتهى.

(1) رواه مسلم (67/1)، أبو يعلى في مسنده (8/7).

ذات الحكمة، والمؤمن لا تصريف له، ولا ذات إلا بالنبي؛ فالمؤمن ذات الحكمة، والحكمة مقدمة الخير بوجه، وهي ذاته بوجه؛ فالمؤمن ذات الحكمة، وذات الخير، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]، فاعلم ذلك، واكتف به.

وقوله ﷺ: (وتصل حبل المعروف، وجميع ما استحسنه العقل، وحرره النقل، وحضت عليه الشرائع).

الحبل: هو الشيء الرابط للأشياء المفترقة، والحافظ لها، والناظم بعضها إلى بعض والذي يصل المنفصلات بعضها ببعض، مثل الإسلام الذي يجمع الأسباب المفترقة، ويردها سببًا واحدًا بالدين، ويؤلف المتضادات، ويرفع العداوة، ويوقع الألفة، ويجمع الذوات المفترقة كلها بقانونه، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: 103].

والمعروف: هو ما جرت به العادة، ولم تنه عنه شريعة ولا حكمة، والعقل: هو الذي يحكم بوجوب الواجبات، وجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، والحسن: هو الذي يمدح به فاعله، والنقل: هو حمل القضايا من شخص إلى شخص، أوحمل الحديث من شخص إلى شخص، والنقل المراد هنا: هو ما بلغنا من سُنَّة الرسول ﷺ وما نتلوه في كتاب الله.

والتحرير: هو إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيز التجلي والظهور، أو نقول: التحرير: هو رفع الإشكال من الشيء، وحفظه مما يلتبس به.

والشرائع: هي الطرق الموضوعة من الله ﷻ على ألسنة رُسله صلوات الله عليهم أجمعين؛ وكأنه قال: تصل مَقُولَكَ وفعلك، وجملة معاملاتك الظاهرة والباطنة التي تختص منها بالخلق فيما بينك وبينه، والذي يختص منها بك، والتي بينك وبين الله ورسوله بالمعروف الذي تقدم حدُّه، وتعامل كل جهة من هذه الجهات المذكورة بما يحمده الشرع، ويحض عليه، ويمتحنه العقل، ويمدح به فاعله، وتقرره العادة الجميلة والسيرة الجليلة، وينفع للطباع المعتدلة، ويفيد النفوس أملها في العاجلة والآجل.

ومعنى ذلك أنْ تعامل الخلق بالإنصاف والعدل، وحمل الأذى، وترك الأذى، ووجود الراحة، وتعامل الحق تعالى بالافتقار والعبادة والتنـــزيه والمحبة، وتعامل النبي ﷺ بالتبعية وما ذكرناه قبل، وتعامل الرتب كلها بما يجب لها، وهذا هو حبل المعروف الذي جرت به العادة، ولم تنه عنه شريعة ولا حكمة، وسُمِّي حبلاً لامتداده مع أمل المتصف به؛

ولاتصال صوره بعضها ببعض في فعله وحاله وقصده.

وقوله ﷺ: (**وتقطع حبل المنكر وضد ما ذكر قبل**).

المنكر: هو ما لم تجرِ به عادة، ولا حضت عليه شريعة ولا حكمة، أو نهت عنه الشريعة والحكمة، وهو ضد المعروف، والقطع: هو تفرق الاتصال، كما أن الوصل: هو اتصال المتباين، والوصل: اجتماع المفترق، والقطع: افتراق المجتمع، والتضاد: هو مدافعة الحكمين المتضادين بعضها لبعض، وعدم اجتماعها بصفة الضدية، ولا يمكن ذلك، والضدان: هما الشيئان اللذان لا يمكن اجتماعها في محل واحد في الوقت الواحد.

ولمّا كان المنكر هو ضد المعروف، أمرك أن تصل المعروف الذي تقدم ذكره وفي اتصالك به، وظهورك فيه، وظهوره في عوالمك؛ قطع المنكر ومباينته وانفصالك عنه بالذات، إذ الضد لا يجتمع مع ضده.

وقد تقول أيضًا: حبل المعروف هو الانحياش إلى الله وحزبه، وقطع حبل المنكر: هو الانفصال من الشيطان وحزبه، ونقول: المعروف هو الخير المحض، والمنكر هو الشر المحض.

ونقول: المعروف هو النفس المطمئنة الفاضلة التي أمرت بوصل حبلها.

والمنكر هو النفس الأمارة الشريرة، فأمر أن يقطع حبلها.

والمسترشد المأمور: هو الإنسان العاقل الذي هو في مرتبة النفس اللوّامة.

ونقول: المعروف هو العالم الروحاني الشريف العارف بالله بالذات، والمقدّس له بالذات، المنــزّه من الإشابات، والمنكر: هو الجسماني الخسيس الذي فيه الموت والجهل والشهوة والغضب والفساد بالذات، والمسترشد: هو النفس الناطقة الجامعة بين الروحاني والجسماني؛ فأمر أن تصل العالم الروحاني، وتقطع الجسماني.

ونقول: المعروف هو الأخلاق الطاهرة الحسنة، والمنكر هو الأخلاق السيئة المشوبة بالحظوظ، والمتوجه يقطع هذه من نفسه، ويصل هذه بوصفه.

ونقول: المعروف هو صفات الله وخلقه، والاتصال بها هو فهمها، والتجوهر بها، والمنكر هو صفات البشرية، والصوفي هو الذي يقطعها، وينفصل عنها بجوهره ووصفه ويصل الجنس الآخر بذلك.

أو نقول: المعروف هو صفات الذات القديمة، والمنكر صفات العقل الحادث، والإنسان المتوسط هو صفة المعنى؛ فأمر أن يتصل بصفات الذات، ويتعلق بها، ويهمل الحوادث، ولا يعتمد عليها، وقد نقول: المعروف هو الذات الثابتة، وضده هي الرُّتَب إذ

هي زائلة، فاعلم ذلك.

وقوله ﷺ: (وتتخلص من كل قاطع يقطعك عن الله تعالى).

التخلص: هو التحرير من الإشابة، كما تقول: هذا لبن خالص: أي عَرِيٌّ عن الإشابة، والكل: هو حرف الحصر والجمع، والقاطع: هو الحائل والحاجز عن الشيء، أو الفاصل له.

والله: هو الخير الذي يراد لذاته، ولا يراد لغيره، وهو الجليل المعتبر الذي لا يتردد الذهن في ثبوته، ويعجز عن تصوره، أو هو المطلوب المعتبر، أو هو محبوب السعداء، أو كمال المحقق، أو غبطة العقل أو معشوقه.

فكأنه قال: سعادتك ورفعتك وكمالك وعزتك ونعيمك الدائم في وصولك إلى الله وقربك منه؛ فتخلص من كل شيء يقطعك عنه؛ فَتَقْطَعَ عن كمالك وسعادتك فتبقى في النقص الخالد والشقاوة الأبدية، والقواطع عن الله قد عدَّها سيدنا ﷺ في بعض «الألواح»، وفي «خطاب الله بلسان نوره» فقال: هي الأجسام ولواحقها، وقواها المتوسطة، والطبيعية، والنفس الحيوانية: صراط لا يقطعه إلا السعداء، والنباتية، والمنجرَّة المتطولة، والكسل، والخوف، وفساد التوجه، وعدم المرشد، وقلة المساعد، جميع ذلك من أجزاء العلل والقواطع، وكذلك المذاهب الفاسدة، والطرق المبعدة، وما أشبه ذلك، والكلام في هذه، وكيف تقطع، وبماذا، وما يخص كل واحد من هذه من الفساد، وأين رتبته من القطع والحجاب؛ يطول ذكره ههنا.

فنقول القرب من الله لا يكون إلا بالنسبة والشبه، والبعد منه بضد ذلك، فإذًا العلم يقرب من الله، إذ هو صفاته وموجود في ذاته، والجهل يبعد منه، إذ ليس هو موجود في ذاته، ولا نسبة بينه وبينه.

وكذلك الرحمة صفته، والإحسان والعفو والكرم والجود، وما أشبه ذلك، فكل كريم جواد رحيم عفوٍّ محسن قريب من الله من حيث الشبه أو النسبة كما ذكرنا، وكل بخيل مناع جاهل منتقم بعيد من الله، إذ لا نسبة بينه وبينه، وفي الأحاديث ما يقوي هذا، والشرائع متواطئة على أن الرحيم مرحوم، والمحسن مجازى بإحسانه، وأن مكارم الأخلاق صفات السعداء.

والصوفية مجمعون على أن القرب من الله، والتخلق بأسمائه هو المنهاج الجليل، والحق ليس بجسم، فالأجسام وصفاتها قاطعة عنه، وكذلك الحق صمد، فلا يتقرب إليه بالمجوَّف ولا بصفاته، وكذلك الحق واحد ليس بمركب ولا في مركب، فالمركبات قواطع عنه،

وكذلك هو أحد لا مثل له؛ فالمتماثلات قواطع عنه، وكذلك هو واحد ليس بعدد، فالأعداد قواطع عنه، وهو واحد لا إضافة فيه، ولا يقبل الزيادة، وتقدس عن النقصان، فكل مَن يقبل الزيادة، وفيه النقصان، ويعقل في الإضافة؛ فهو قاطع عنه.

فإذًا العقول والذوات المجردة التي يعتمد عليها الحكيم، ويقول: إنها كماله وسعادته في الوصول إليها، وكذلك الأرواح المفارقة، والأسماء المضافة التي يشير إليها الصوفي، وكذلك المراتب التي يعتقدها بعض المحققين قواطع عن الله، إذ العقول تقبل الزيادة، وكذلك الأرواح والأسماء التي تعطي الإضافة، والمراتب التي تشعر بالغيرية، وهي غير معلومة في ذات الله تعالى، وهو منـــزَّه عنها، وكل ما سوى الله حجاب وقاطع عنه.

فعليك بالحق المُعَرَّى عن ذلك كله، الواحد من صفة نفسه، الذي لا ينسب، ولا يكتسب ففيه كمالك، وعنده سعادتك، وبه رفعتك، وهو نعمتك، وله وبه ومنه وعنه جملتك، فاقصد خرابك، واهجر سرابك، تسمع جوابك، والسلام عليك إن فعلت.

وقوله ﷺ: (بعد ما تتصف بالعلوم الضرورية التي لا يحملها أحد في عرف الشريعة).

البعد: هو تأخر قضية عن قضية في وجد الشخص الواجد لهما، أو في علمه وفعله كما تقول: وجدت الـــمُزْدَلِفَةَ بعد مِنى في الصعود إلى عرفة، ووجدت عرفة بعد المزدلفة كذلك، هذا بالنظر إلى المكان، وتقول: وجدت الجمعة بعد الخميس، بالنظر إلى الزمان، وتقول: وجدت العلم بعد النظر إلى السبب والمسبب.

ولمّا كان الإيمان والواجبات الشرعية متقدمة في الوجود على الانقطاع إلى الله، والخلاص من القواطع، وجاء اللفظ قدامها لضرورة الفصاحة عُطف عليها، وأمر أن تقدم بالفعل، لأجل تقديم الشرط على المشروط، فقال: بعد ما تتصف بالعلوم الضرورية، وهو جائز في لسان العرب، وقد وجدنا في القرآن مقدمًا باللفظ ما هو متأخر بالوجود كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى﴾ [الأعلى: 6]؛ والنبات يكون أخضر قبل أن يكون يابسًا، والأحوى هو الأخضر، والغثاء هو اليابس، فضرورة الفصاحة قدمت المتأخر على المتقدم.

فنرجع للضروري فنقول: الضروري هو اللازم للشيء الذي لا يمكن أن يوجد إلا به وهو له بالذات، مثل التنفس للحيوان، والضروري: هو الذي يتوصل به إلى غاية ما، ولا تنال إلا به، وهو لها شرطي ذاتي. مثل قراءة لسان العرب للكاتب، أو الحركة في الأمور

الإرادية إذا شرع في تحصيلها، وهذان الحدان المذكوران في الضروري ذكرهما سيدنا ﷺ في «بد العارف».

ولمَّا كان العلم بالله من حيث ما يجب له، ويجوز عليه، ويستحيل في حقه، والعمل بطاعته المأمور بها شرعًا شرطًا في تحصيل غاية الإيمان والإسلام؛ جعلتها علومًا ضروريةً وأعمالاً كذلك.

ولمَّا كانت هذه شرطًا في الانقطاع إلى الله تعالى، والخلاص من القواطع، والشرط متقدم على المشروط، أمر أن يكون الخلاص من القواطع بعد تحصيل فرائض الإيمان والإسلام علمًا وعملاً.

فنذكر حد العلم في ذاته، وحينئذ نذكر العلوم ما هي والأعمال.

فنقول: حد العلم عند الأصولية: هو معرفة المعلوم على ما هو به.

ومنهم مَن قال: حصول صورة المعلوم في نفس العالم بمعرفة صادقة حققها القياس، وأثبتها البرهان، وهذه الحدود ذكرهاسيدنا ﷺ في «بُدِّ العارف» في مذهب الأشعرية مع عدة حدود.

ومنهم مَن قال: العلم ما أفاد التصور والتصديق.

وقال سيدنا ﷺ: هذا الحد من أقربها.

ولمَّا كان العلم يطلق باشتراك، ويقال على كثيرين بحسب المذاهب، ويختلف بالمتعلقات، قيَّده بقوله: (في عرف الشريعة)؛ لكون علم الطب يطلق عليه علم، وهو ضروري في كون الطبيب طبيبًا، وفي تدبير الأجسام، وله أيضًا ضروريات تلزم في نيله، وكذلك الهندسة والحساب، وما أشبه ذلك: هذه يطلق عليها علوم، ولها ضروريات تلزم في نيلها؛ ولذلك خصصها بقوله: في عرف الشريعة.

ولمَّا كانت العلوم الموجودة في الشريعة والأعمال تنقسم إلى فرض وندب، قيدها بقوله: (الضرورية)، وعنى بها المفروضة، ولمَّا كان المفروض ينقسم إلى: فرض عين، وفرض كفاية؛ وفرض العين: يلزم كل واحد في ذاته.

وفرض الكفاية: يحمله البعض عن البعض، قيده بقوله: (التي لا يحملها أحد عن أحد)، وأعطى البيان، ورفع اللبس، وبلَّغ الفائدة.

والعلوم الضرورية هي سبعة علوم: أولها العلم بحدوث العالم، والعلم بوجوب صانعه، والعلم بقدم الصانع، والعلم بتوحيده، والعلم بصفاته، والعلم بتنـــزيهه، والعلم بجواز

الرؤية؛ وهذه علوم عددها أبو إسحاق بن المرا[1]، وأخبر بوجوبها، وإنها فرض على كل مسلم، وذكر أبو المعالي[2] وجوبها في «الإرشاد»، وحكى فيها الإجماع، ولم يعددها، وقد ذكرها المهدي[3] في بعض تواليفه، وقال في أول ما أراد ذكرها: «باب ما لا يسع جهله»، وقد قرر سيدنا ﷺ عليها في هذا الموطن: فأئمة الأشعرية مجمعون على ذلك.

وعلم الضرورة أيضًا: هو ما يجده الإنسان في فطرته من غير نظر؛ كعلمه بأنه موجود، وبأن في الحي حياة، وأن عشرة أكثر من ثلاثة، وما أشبه ذلك؛ ولذلك قيد بقوله: (في عرف الشريعة)؛ تحرزًا من الاشتراك.

وقوله ﷺ: وبالأعمال التي تلزم لزوم هذه العلوم.

أراد بذلك كونها واجبة شرعًا معينة على كل مسلم فرضًا وضرورةً، مثل ما هي تلك العلوم ضرورية، وكونه ذكرها بعدها في ترتيب اللفظ، فعل ذلك؛ لكونها متقدمة في الوجود في حق المكلف، إذ العبادة لا يقع فعلها إلا وقد تقدم اعتقاد موجود يعبد؛ ولذلك يقع الخطاب الشرعي بكلمة: لا اله إلا الله، وحينئذ يطلب بالأعمال.

والأعمال المفروضة هنا ثمانية: أولها: شهادة أن لا اله إلا الله، إذ اللفظ بها باللسان هو من أعمال الجوارح، وعلمها في الاعتقاد داخل العلوم المتقدمة، والقسم الثاني من الأعمال: إقامة الصلاة والقيام بها، ثم الزكاة المفروضة، ثم الصوم المفروض، ثم الحج، ثم التوبة، ثم النصيحة، ثم الألفة؛ فهذه الأعمال عددها أبو إسحاق بن المرا من علماء الأندلس، واتفقت عليها علماء الأشعرية وأئمتهم، وهذه العلوم من الأعمال لها لواحق من حيث أسبابها، وما يحتاج إليه في نيلها يطول ذكرها، وهو غير ضروري في هذا الكتاب، فاعلم ذلك، وقد تخلص الكلام فيها بحسب قصد الأشعرية، والفقهاء في البعض.

ونريد الآن أن نذكر شيئًا من مقاصد الصوفية بحسب ما يليق بأحوالهم، إذ التنبيه من إخواننا لا يقنع من المسألة إلا بتركيبها على التصوف، والتنبيه على شيء من رتب الحبل، وهذا الكتاب لم نقنع فيه بالشرح اللائق بالجمهور لمَا نعلم من مقاصد المؤلف، وما وجدت في تواليفه من تركيب المسائل، وتوفية العوالم المعتبرة عنده؛ ولكون نسبتنا وإخواننا لا يقتنعون بالعالم الأول، ولا يقفون عند المبادئ؛ لأن سيرهم مطلق، وتركيبهم

(1) هو أبو إسحاق بن المرا بن ضحاك المالقي.

(2) أي إمام الحرمين الجويني.

(3) هو المهدي بن تومرت زعيم الموحدين.

لا نهاية له بالنظر إلى حصر الواقع، ويمتد أملهم مع النوازل التي لا يحصرها إلى التعليق القديم.

ولما علمت إن في أصحابنا جلة ولا بد أن يقفوا عليه؛ جعلت فيه مشربًا للقوى والضعيف والمتوسط.

فنبدأ فنقول: العلوم الضرورية على ما يقتضيه نفس بعض الصوفية: هو الارتباط اللازم الذي ينعكس المتقدم فيه متأخرًا؛ فيوصل الأول بالآخر الذي يفيد المشاهدة في مقام الإحسان، والأعمال التي تلزم لزوم هذه هي العبادات التي تعكس الضمير الأول على المخاطب الثاني.

ونقول: العلوم الضرورية عند طائفة أخرى هي إدراك مفهوم الأسماء، وحصر خواصها الذاتية واللاحقة، والأعمال التي تلزم لزومها هي ترتيب خواص الأسماء، ودورانه عليها في ظاهره وباطنه حتى يتجوهر الطالب في تحصيل أنواعها على طلبه في كتبهم.

فنقول: قد ذكر سيدنا ﷺ في «بُدُّ العارف» إن الفلسفة تنقسم إلى قسمين:

قسم عملي، وقسم علمي، فجزء الفلسفة العلمي ينقسم ثلاثة أقسام:

أحدهما: العلم الأسفل: وهو العلم الطبيعي، وعلم ذوات العنصر.

والثاني: العلم الأوسط: وهو علم الرياضيات، وعلم ما ليس بذي عنصر موجود في عنصر.

والثالث: العلم الأعلى: وهو علم ما بعد الطبيعة، وعلم الثاولوجيا: وهو الفحص عن وحدانية الله تعالى.

وهذه الأقسام تنقسم إلى أقسام أخر، فالعلم الطبيعي ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أحدهما: العلم بالأصول التي عنها وقع التكوين، والثاني: العلم بالحيوان، والثالث: العلم بالنبات.

والعلم بالأصول التي عنها وقع التكوين ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أحدهما: العلم بالفلك والكوكب، والثاني: العلم بالآثار العلوية الكائنة في الجو، والثالث: العلم بالآثار السفلية الكائنة في الأرض.

والعلم بالحيوان ينقسم إلى قسمين: أحدهما: العلم بعلل الحيوان، والعلم بأعضائها ومنافعها، والثاني: العلم بأخبارها وطبائعها.

والعلم بأمر النبات ينقسم قسمين: أحدهما: العلم بعلل النبات، وأسباب اختلافه، والثاني: العلم بطبائعه ومنافعه.

والعلم الرياضي الذي يقال له المتوسط ينقسم إلى أربعة أقسام: منها علم العدد، وعلم الهندسة، وعلم التنجيم، وعلم تأليف اللحون، وإنما سميت هذه رياضيات لأنها تروض الإنسان بالأشياء المتوسطة بين الجسم، وما ليس بجسم، فتنقله من الجسم، ومن الأمور المحسوسة إلى ما ليس بجسم، ولا يدرك بحس، بل بالعقل وحده.

والعلم الأعلى الذي يُقال له الإلهي ينقسم قسمين: أحدهما: العلم بوحدانيته تعالى، والثاني: العلم بالأشياء التي يوصف بها الله تعالى، كالقدرة والحكمة والقوة، وغير ذلك من الصفات التي تليق بالله ﷻ؛ فهذا هو جزء الفلسفة العلمي.

وأمَّا جزؤها العملي فينقسم ثلاثة أقسام:

أحدها: سياسة الذات.

والثاني: سياسة المنـــزل.

والثالث: سياسة المدينة.

فسياسة الذات تنقسم ثلاثة أقسام وهي: إصلاح القوة الشهوانية، وخضوعها للغضبية، والثاني: تعديل الغضبية، وخضوعها للقوة التمييزية، والثالث: حفظ التمييزية وتحريكها بالآداب على الترتيب الذي ينبغي.

فهذه أساس الفلسفة العلمية والعملية، وبمعرفتها وبمعرفة أنواعها وأشخاصها تدخل في زمرة الحكماء.

ونقول: العلوم التي تدخل بها في زمرة الحكماء هي الذوات المفارقة التي توجب بورودها على المحل رفضًا للذات الطبيعية، والشهوات الجسمانية، وتظهر للنفس الناطقة ذهاب المحسوسات، وعدم ثبوتها، وخاصة عالم الكون، وسرعة فساده، وتُكَرِّه ذلك للنفس، وتشوقها إلى عالمها المفارق، وتنبهها على الذات الروحانية وشرفها، وعدم فسادها، فتنقل جوهر الإنسان من عالم الكون بالصنائع العلمية والعملية، وتقيمه في حضرة الذوات المبدعات، وتجوزه من ظلمات الزمان والمكان.

ونقول: العلوم التي تدخل بها في زمرة الحكماء هي الملاحظة الصادقة التي توقع في محل العبد المتوجه تصفح أحوال الكون المقول على الذوات المفارقة وغير المفارقة، وتطلعه على تماثله باحتياجه إلى الحق الأول، وعدم استقلاله في ذاته، وتبطل الروابط المتوهمة بين الذوات المتماثلة، فتحض المتوجه على حذف الإضافة المتساوية، وتصرف وجهه إلى الذي فطر السموات والأرض، وتقيمه في حقيقة الإنسان المرادف مع الاستخارة الواقعة بين يدي الكلمة المطلقة، وتزيل الشرك الجلي المعروف عند الخواص لا

عند الصم، فافهم.

ونقول: العلوم التي تدخل بها في زمرة الحكماء هي فهم التداخل المعقول بين الوجود الواجب، والوجود الممكن الذي يرفع الفصل، ويوجب الخلاص، بالمعنى الذي أثبت أمثلته في «حكم القصص»، فاعلم ذلك.

وقوله ﷺ: (وبالحقيقة الجامعة التي فيها نتيجة الشرائع، وغاية الحكمة، وهي علوم التحقيق[1]).

الحقيقة: هي الشيء الذي لا يتبدل في ذاته، ولا يمكن أن تكون على غير ما هي عليه، ولا تتغير في وقت من الأوقات، ولا يجاز بها عن موضوعها، ولا يكون المحمول منها غير الموضوع، ولا تعلل بمعنى زائد عليها، ولا تتصرف، ولا يقدر فيها غير الهيئة التي هي عليه.

وقد تُقال على ماهية الشيء، وقد يُقال حقيقة الشيء وماهيته وذاته ووجوده وعينه بمعنى واحد، وقد تطلق الحقيقة على صفة النفس، وقد تطلق على الشيء الذي لا علة له وتكون علته ذاته، وقائم بذاته في ذاته.

وقد ذكر سيدنا ﷺ في «نكرة عرفة» أن الحقيقة هي الشيء الذي يحيل العدد إلى الواحد بوجه ما، وقد تطلق على ضد المجاز، وبالجملة، رسم الحقيقة الأول هو المقصود الذي يريد هنا.

والجامع: هو الذي يحوي أشياء كثيرة، ويكون إمّا موضوعًا لها أو محمولاً، وإمّا أن يكون ضربًا لها، وإمّا أن تكون أجزاء ماهيته، وتكون ذاته بمجموع الكل؛ كالجماعة في الدار إذا نظرنا من حيث الظرفية، ومثل أحكام العرض محمولة على الجوهر، ويقبل منها (صفة وغاية كل حكمة).

ولمّا كانت الحكمة هي العلم والعدل، ووضع الشيء في محله، وهي من صفة نفسها تحض على الخير، وتحمل إليه، والله هو الخير الذي يراد لذاته؛ قال: وغاية الحكمة: أي أن الحكمة إلى الله حاملة، وعنده واقفة، فهو غايتها.

ولمّا كانت الشرائع مقدمات علميات وعمليات، وعلمها يفيد معرفة وظائفها،

---

(1) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنّا به: التحقيق هو ما يحصل معه القطع الذي يستحيل معه وجود النقيض، وحقيقته: وجدان وجودٍ في كشفٍ يستحيل معه الستر الموجب لتوهم الغيب، وغايته: بلوغ يوجب الوقفة لاستحالة توهم مطلوبٍ سيحصل اهـ.

والعمل بوظائفها يزيل الحظوظ النفسانية، ويميت الشهوات البدنية، ويقطع الروابط العادية، ويجرد الإنسانية، ويكشف الحضرة الرحمانية: وهي حضرة الحق، وحضرة الحق: هي الحضرة الجامعة لحقائق الأكوان، وهي بد كل شيء ووجوده، وهي الماهية التي توجد فيها كل ماهية من حيث التقويم والتتميم، قال: فيها نتيجة الشرائع.

ونقول: علم الشريعة مقدمة العمل بوظائفها، والعمل بوظائفها مقدمة لرضوان الله يقيم العبد في حضرته، فعلم الشريعة، والعمل بها يقيم العبد في حضرته، فحضرته هي نتيجة الشرائع، وحضرته فيها كل شيء، فهي الحقيقة الجامعة.

ونقول: الشريعة تحمل لرضوان الله، ورضوانه صفته، والصفة لا تفارق الموصوف، والموصوف: هو الله، فالشريعة تحمل إلى الله؛ فالله هو نتيجة الشرائع بالوجه الذي ذكرنا.

ونقول: الأعمال الشرعية إذا عُمل بها على التمام تفيد التخلق بالأسماء الحسنى، والمتخلق بالأسماء إذا تجوهر بها تكون الأسماء ذاته وروحه، والأسماء صفات الله، وصفاته غير زائدة على ذاته، فالمتخلق بالأسماء ليس بزائد على ذات الله، فالظفر بالحق والاتصال به هو نتيجة الشرائع.

ونقول: أول وظيفة من وظائف الشريعة هي كلمة لا اله إلا الله، وتتضمن أن لا فاعل إلا الله، فكل موجود في الكون الله أوجده من حيث هو فاعله، والفاعل لا يفارق مفعوله، وهو معه بالإيجاد والإبقاء، ولا وجود للشيء إلا به، فهو الأصل الضروري في وجود كل شيء، ولكل شيء حقيقة، وهو وجوده الذي هو به ما هو، ووجود كل شيء، الذي هو به ما هو هو، به ومنه وعنه وإليه، هو حقيقة كل شيء وماهيته ووجوده؛ فالله: هو الحقيقة الجامعة، كما تقدم من قول سيدنا ﷺ.

فإذا كان هو حقيقة كل شيء، فالأشياء كلها هي به على ما هي عليه، فهو الحقيقة الموجودة في كل حقيقة، وهو الذات المستحقة بذاتها لكل ذات، فهو مع كل شيء بوجوده، فلا غيبة ولا حجاب، والغيبة والحجاب هو الجهل بهذا الاتصال والاستحقاق الذي ذكرناه، والغفلة عن ملاحظته وشهوده في كل شيء، بل شهوده ولا شيء معه.

وعلم الشريعة يزيل الجهل المذكور، ووظائفها ترفع الغفلة، وتنبه على الحضور مع الحاضر في كل حضور، فالحق هو نتيجة الشرائع، وعلوم الشريعة بهذا الوجه هي علوم التحقيق، فاعلم ذلك.

فإذًا حقيقة لا اله إلا الله: أن لا موجود إلا هو، وما خلا الله باطل، والوهم يشعر بغيره، والوظائف الشرعية تذكر بالله، وذكره يزيل الوهم، ويمحو خبر الغيرية، ويقيم العبد

في الحضرة الحاضرة في حضوره، فالحق نتيجة الشرائع كما قال، وهذا الكلام في نتيجة الشرائع، والحقيقة الجامعة، وعلوم التحقيق قد تخلص، فافهمه.

وقوله ﷺ: (وإن غلبت عليك شهوة حيوانية، أو ما أشبه ذلك فاجبر وقتك مع الله بتوبة صادقة، فإن بابه ما عليه بواب إلا رحمته خاصة، ورضوانه أيضًا يأمرها بالمضمار).

الغالب: هو الذي يؤثر فعله، وتنفذ إرادته، كما تقول: غلب فلان فلانًا أعني: خَصَمَه، بمعنى إنه أثر فيه فعله، ونفذت إرادته.

ويقال: الغالب: هو الذي يقع اختياره، ويستولي في المحل المتنازع عليه حكمه، كما تقول: غلب الملكُ الفلاني الملك الفلاني، واستولى حُكْمُه على البلد والأقاليم.

ويقال: الغالب: هو الذي يحيل الضد إلى طبعه، ويحكم عليه بصفة خاصة به، ويحكم في المشترك، ويستولي عليه، ويظهر فيه أثره وفعله.

والشهوة: هي جذب الملائم بانبعاث مزعج، وتقول: الشهوة: الميل إلى الغرض المطلوب بإفراط الحركة، وتقول: الشهوة: هي الانصراف والتوجه إلى المحبوب الملائم بغير اعتدال، ولا ترجيح عقلي ولا شرعي.

وقد تطلق الشهوة والإرادة باشتراك، غير أن الإرادة أعم منها وأثبت وأعدل حركة لأن الشهوة تتحرك إلى المراد بانــزعاج، وملكة الطباع، والإرادة تتحرك إلى مرادها صحبة الاعتدال، وضرب من السكينة، والذي تشبه فيه الشهوة الإرادة: هو الميل إلى المطلوب ومعقول الحركة والجذب.

وكونك تقول اشتهيت كذا بمعنى أردته، لكن يعقل فيه أنه ليس هو المراد مطلقًا، بأن الذي يراد هو أكثر اعتلاقًا من الذي يشتهى؛ وكأنه إرادة في وقت ما بحركة مزعجة كما تقدم.

وبالجملة: الشهوة: هي جذب الملائم بحركة مفرطة، وغلبة طباع المحل الذي قامت به، والقبول المحض على المراد المحض من غير أن تنظر عاقبته، ولا يعتبر فيه الأكمل والأنقص، وكأنها تطلق مع الحظ النفساني بترادف؛ لأنك تقول: كلمني فلان بشهوة معناه: بغرض وحظ، لا بحق ولا باعتبار الكمال والنقص.

والحيوان: هو كل حي متحرك حساس يتحرك في المكان بالحركة الإرادية، ويختار بعض الجهات الممكنة فيه، والنفس الحيوانية حدها تمام طبيعي آلي حساس.

ويقال: النفس الحيوانية: تمام لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة، وهذان الحدان ذكرهما

سيدنا ﷺ في «بد العارف».

ولمّا كانت الشهوة تُقال باشتراك، وتوجد في العاقل وغير العاقل؛ قيدها بالحيوانية؛ لأن الشهوة الحيوانية: هي ميل النفس إلى الشهوات الجسمانية المحسوسة من غير أن ينظر في عاقبتها، ولا تعتبر فيها الأكمل والأنقص، ولا يلحظ فيها طلب سعادة ولا شرف، وإنما هي بحسب ذاتها المعينة العاجلة فقط.

والجبر: هو إصراف الشيء المختل إلى أصله وطبيعته الأولى؛ كما تقول في اليد المنفكة أو الرجل: انجبرت يد فلان، بمعنى رجع العضو إلى موضعه، واستقر على طبيعته المعتدلة وهيئته المستقيمة.

والوقت: هو الحال الحاضر الذي بين الماضي والمستقبل من الزمان، والله: هو القائم بذاته الذي قام به غيره، وليس لوجوده سبب، وهو الفاعل المختار الذي يثيب العبد المكلف على الحسنات، ويعاقبه على السيئات إن شاء، ويقبل التوبة، ويعفو عن السيئات كما وعد.

والتوبة: هي الرجوع لغةً، وهي الندم على المعصية وتركها، والعزم على عدم الرجوع إليها شرعًا، ونقول: التوبة هي رجوع التائب عن المعصية بأمر آمر يحكمه إلى رجوعه، ويخوفه ويرغبه، ويترك ما هو عليه؛ لأجل ما نهي عنه، ولأجل ما هو ترك له، ويرجع إلى ما أمر به، وهذا القسم ذكره سيدنا ﷺ في «الرضوانية». ونقول: التوبة هي غسل الإشابة الواقعة في المحل الظاهر، ونقول: التوبة هي انصراف العبد إلى ربه، ورجوعه إليه بالقوى الجسمانية والروحانية منه، ومشيه على القانون الشرعي صحبة العلم والعمل.

ونقول: التوبة هي خروج العبد من اختياره وصفاته القائمة به، وأخذه اختيار الشرع وتصرفه به، وتوسط أقواله وأفعاله، وجملته بين الأمر والنهي، ونقول: التوبة هي الخروج عن الهوية العرضية، والأخلاق السيئة، والدخول في الآنية الذاتية، والتجوهر بالأسماء الرحمانية.

والباب: هو المدخل للشيء، وهو الذي يدخل عليه إلى الشيء، وهو بيان الأول، والرحمة: هي صفة الله التي يتعطف بها على عبيده؛ فيبلغهم خيره ونعمته، فيبدل الألم باللذة، ويصل اللذة بمثلها، وقد نقول: الرحمة: هي ترك الرحيم حقه للمرحوم، وإعطاؤه من الخير ما لا يجب له عليه، وقد نقول: الرحمة هي إفادة الرحيم للمرحوم خيرًا لا يستحقه عنده حيث هو، وقد نقول: الرحمة هي إفادة الحق للعبد وجودًا ليس له، والرضوان هنا بحسب هذا التقييد: هو صفة الخير الذاتي الموجود في ذات الله تعالى، مثل

الشيء المطبوع الذي لا يمكن أن يكون الشيء إلا على تلك الصفة، وهو الذي يوجب الرحمة بوجه محتوم لا يمكن أن يعقل المحل المشار إليه إلا كذلك.

والضمان: هو الحصر الذي يوجب حكمًا، وتعينه تعينًا ذاتيًا لا يمكن الانفكاك عنه، إذ الممكن لا وجود له ولا ذات إلا بالواجب، ولا تعقل له آنية إلا ما يسري له من الواجب الوجود، والواجب الوجود لا يفارق ما هو موجود به، ولا يعقل له انفصال عن تقويمه وتشبهه وإقامته في هيئته التي هو عليها، وهو معه بها على ما هي عليه، إذا لو قُدِّرَ رفع الوجود الواجب من الموجودات الممكنة لارتفع وجودها، ولم يوجد لها ذات، وهو ارتفاع الفاعل إلى مفعوله بالذات، والمفعول إلى فاعله بالذات، فكأن اتصال خط الارتباط بينهما من الأمور الضرورية التي لا يمكن أن تكون على غير تلك الهيئة.

فلمًا كان ذلك كذلك كان رجوع العبد إلى ربه وانصرافه بماهيته كلها إليه بالذات وقبول الحق على عبده، وإعطاؤه ماهية الشيء هي نعمة منه، ورحمة صادرة عنه، كذلك بالذات، فكانت الرحمة من الأمور المحتومة الموجودة في ذات الله لا يمكن غيرها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54] بمعنى أنه لا يمكن في ذاته إلا هي.

ولمّا كانت الكتب بين الناس تحكم بوجوب الشيء ولزومه ضرب لهم بذلك مثلاً ليعلموا إن الرحمة في الله من الصفات اللازمة له التي لا يمكن في ذاته ضدها، وقد قلنا فيما تقدم في هذا القسم: إن الرحمة إعطاء الشيء وجودًا ليس له، فوجود الموجودات الممكنة وذواتها رحمه من الله تعالى، ونعمة منه، إذ ليس لها ذلك حقيقة من حيث هي.

ولمّا كان العبد راجعًا بماهيته ووجوده، وجملته إلى الله حتى رجوعه في التوبة، فالتوبة والتائب حقيقة موجودة من الله وبه ومنه وعنه؛ فكأن نفس الرجوع نفس القبول، ونفس وجودهما نفس الرحمة والرضوان، بل هي متقدمة من الله فوجودها قبولها فلا برزخ بينهما ولا بون، ولا يعقل الفصل والوسائط هنا بالجملة، وإن عقلت فيستحقها الوجود الواجب كما ذكرنا؛ فلا بواب إذًا ولا حاجب، ولا يرجع إليه إلا به، ولا نعمة منه إلا به وله.

فالواحد لا يحجبه شيء عن ذاته، ولا فصل بينه وبين نفسه، ولذلك قال: (بابه ما عليه بواب) لقوة لزوم الارتباط بين الواجب والممكن، فنقول: التوبة الواقعة في محل العبد خلق الله ولا وجود لها إلا به، فالعبد يرجع إلى الله بالله، فلا بواب بينه وبينه، ولا واسطة إلا صفته، أعني: بذلك قدرته وإرادته، وصفته غير زائدة على ذاته في قول بعض الصوفية، فالحق هو التائب في وجود التوبة بذاته، وما هو معه بذاته لا ينفصل عنه، فالتائب غير

منفصل عن الله، ولا محجوب.

والله هو المطلوب الأعظم، وهو الخير الذي يراد لذاته، فالتائب الصادق ظافر بمطلوبه واصل إلى الخير المحض، ونقول: العبد مضطر بوجوده وتوبته وجملته إلى الله، فوجوده وتوبته وجملته هبة من الله، ورحمه منه، فالحق معه في وجوده وماهيته على ما هو عليه، فوجوده وماهيته وما هو عليه مع الله لا يفارقه، إذ لزومه له بالذات كما تقدم.

والله هو المطلوب، وهو النعمة والرحمة والرضوان بالإلزام الذي ذكرنا؛ فالتائب ظافر بالنعمة والرحمة والرضوان، والظافر بذلك سعيد ومنعم وكامل، فالتائب على هذا الوجه ظافر بمطلوبه، وحاصل على مرغوبه؛ وكأنه نبه المسترشد على الارتباط الذاتي اللازم بين الممكن والواجب، فإذا فهم ذلك؛ علم استحقاق الواجب للممكن، وأخذه وجود الهويات المضطرة.

فإذا علم ذلك علم وصوله، وإذا علم وصوله تعين محصوله، وظفر بكماله، وانقطعت آماله، فكأن التوبة هنا بمعنى الفهم عن الرجوع الذي هو موجود في ذاته بالذات، وفهم النصيب الإلهي القائم به، وقطع الطلب والتشوف والسكون، واللذة الذاتية الموجودة في جوهره بالذات، فإذا كان ذلك كذلك امتنعت منه المعصية، فإن المعصية تطلب لذة، أو نيل لذة في غير محله، وذلك لا يمكن إلا مع توهم فقدها من محله، فإذا وجدها في جوهره ذاتية بالنصيب القائم به امتنع من طلبها، فإن الحاصل لا يُبْتَغَى فيكون تائبًا بمعنى محفوظًا.

ومن هذا المقام يُحْفَظُ الأولياء؛ لأن اللذة القائمة بالجوهر، والأنس الحاصل فيه منع الطلب، وغبط الولي بذاته، وأظهر له فيها كل شيء؛ فانقطعت منه الآمال، ووجد عنده ما يظهر لغيره بعد وسم الأجل، ومن هذا الموطن يكفر الولي إذا أوقع المعصية؛ لأنه كفر بالنصيب الإلهي القائم بذاته، وهذه التوبة مختصة بالصادقين؛ لأن الصدق هو الذي يحذف المجاز، ويقف عند الحقيقة.

ولمّا كانت التوبة تطلق باشتراك وبحسب الأحوال؛ قيدها بقوله: (توبة صادقة)؛ لأن الصدق هو الذي يرد الأشياء إلى واجبها، ويقف عند الأمور الذاتية، ويهمل العرضية.

والذاتي في محل كل تائب وفي ذات كل شيء هو الحق تعالى، ولا يمكن في قوة ملازمته للأشياء، واستحقاقه لها الرجوع إليه؛ لأنه يستحق الراجع والرجوع والمرجوع إليه، فافهم ذلك، واعلم التوبة بهذا الوجه، والرحمة كما ذكرتها لك؛ تظهر بمرتبة الصادقين، والله المستعان.

وقوله ﷺ: (واعلم أن مطالك مطال).

المطال: تسويف ذوي الحقوق، أو تسويف ذي حق، أو تسويف الطالب، كما تقول: مطلني فلان في إعطاء حقي: أي سوَّفني فيه، وتقول: مطلني فلان في مسئلتي التي سألته فيها: أى في جوابها، ومعنى أطال: إطالة التسويف.

ولمَّا كان الحق سبحانه له على العبد المكلف حقوق، وهي: أداء الفرائض في أوقاتها وشكر نعمة الله التي منحه إياها، والإقرار بربوبيته، وذكره في كل زمان، وألا يغفل عنه إذا ليس هو بغافل عن تدبير العبد، ولا عن إرسال النعم عليه في كل زمان فرد قال الشيخ ﷺ للعبد الغافل عن أداء الواجبات، وعن الذكر المستصحب: (واعلم أن مطالك مطال)، وأيضًا لمَّا كان الحق سبحانه هو المحبوب الأعظم، والنديم الأكرم، والخير المحض الذي لا خير يشبهه، قال لمَن يحب غيره، ويتأنس بغيره، أو يطلب خيرًا من غيره: (واعلم أن مطالك مطال)؛ إذا كان من واجب حق الله تعالى ألا يحب غير الله تعالى، ولا يتأنس إلا به، ولا يتأنس بغيره، ولا يطلب إلا إياه، ولا يتوجه إلا له، وألا يسعى إلا في مرضاته.

إذ رضوانه هو النعيم الأكبر، وإنه هو الأنس الثابت الدائم، وطاعته هي العمل الذي يُرفع ويُثبت لمَا بعد الموت، ويُدَّخَر لوقت الحاجة، فكل عبد لا يكون حظ الله قد غلب عليه، وطاعته قد استصحبت أحواله كلها، وفكره قد استجاب في جوارحه، وفي قواه الجسمانية والروحانية؛ فهو مماطل لله في حقه، وفيما وجب له عليه.

وقد قال النبي ﷺ: «ما مِن ساعة تمر على العبد لا يذكر فيها الله؛ إلا كانت حسرة عليه يوم القيامة، ولمَن دخل الجنة»(1) الحديث.

فكيف مَن تمر عليه ساعات وأوقات ويطيل الغفلة، والميل إلى الشهوات العرضية، والأنس بالصور الذاهبة.

وأيضًا لمَّا كان الحق سبحانه خيره ونعمته واصلة للعبد في كل زمان فرد، ولا يغفل عن عبده بإحسانه وإمداده طرفة عين، وكل نعمة قائمة بالعبد وموجودة فيه، أو واصلة إليه مثل إمداده بالأغذية والملابس التي لا انقطاع لها، ومثل صحة البدن، وإيجاد حلاوة النعم، وما أشبه ذلك نعم من الله تعالى، وإحسان منه للعبد، وكذلك العقل والعلم وسلامة الجوارح.

وما في العبد جوهر فرد، ولا قوة من القوى الجسمانية والروحانية إلا وهي نعمة من الله وهبة منه، والعقل يقضي بجواز الآفات عليها، وطروء أضدادها مثل أن تبدل الصحة

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط (175/8)، وأبو نعيم في الحلية (362/5).

بالسقم، والعقل بالحمق، وحلاوة النعم بأضدادها.

فإذًا استصحاب الحال في إمدادها وإيجادها على التمام والكمال، فتكميل السمع والبصر والفؤاد، وما أشبه ذلك نعم من الله تعالى، وإحسان منه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]؛ فإذًا من واجب حقه عقلاً، وما ثبت شرعًا ألا تصرُف الجملة الإنسانية بما هي عليه من القوى الجسمانية والروحانية إلا في طاعة الله، وفي عبادته وخدمته، وفي ذكره وشكره وحمده، والثناء عليه، وألا يغفل عنه طرفة عين.

فكل عبد لا يفعل ذلك، ويصرف جارحة من جوارحه، وقوة من قواه في غير طاعة الله، أو في فترة من خدمة الله وشكره، والسعي في مرضاته، ولايرجع إلى الله بجملته، ويصرف ما هو منه إلى خدمته فهو مماطل، أو ممسك بحق الله، وإذا طال ذلك فهو ممكور، إذ الحق قد ثبت فيما تقدم إنه لا يغفل عن إيجاد النعم طرفة عين فيجب على العاقل ألا يغفل عنه طرفة عين، ومن غفل عنه؛ فقد ترك الواجب، ومن لم يؤد الواجب عليه فهو مماطل.

وإن أطال ذلك فهو قد طول مطاله، وأدى ذلك إلى بُعده عن الله، واستحق العقوبة، ولا عقوبة أشد من البُعد عن الله ﷻ، فافهم ذلك، وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: 26] وإنما ذكر السمع والبصر والفؤاد؛ لكونها أخص ما في الإنسان ويُفْهَمُ بالاستقراء أنه يسأل عن كل جارحة، وقد جاء ذلك في الشرع.

وأيضًا فقد صح إن الله سبحانه واهب وجود العبد، إذ العبد الممكن لا وجود له إلا بالواجب، فهو مفهوم لوجوده، ومتمم له في كل زمان فرد، فالحق أقرب لوجود العبد منه إلى ذاته، فكل عبد لا يصرف وجوده لله، إذ الله هو حقيقة وجوده، فقد منع أن يصرف ماهيته إلى حقيقتها؛ فهو مماطل، إذ كان من واجب حق الله أن يصرف وجود الوجود الممكن إليه، إذ هو منه وبه وعنه وله، وهو يستحقه من كل الجهات، فإذا ادعى الممكن وجودًا لذاته فقد ادَّعى ما ليس له، ونسب الشيء إلى غير أهله، وماطل الحق في إعطاء حقه، وأدى ذلك إلى نفي شيء عن شيء هو له، وإثبات شيء لشيء ليس هو له؛ وهذا هو الكذب والخيانة، وفاعل ذلك يستحق العقوبة، وأي عقوبة أكبر من الانقطاع عن الله تعالى، والجهل به، وفقد حضرته التي فيها النعيم الدائم، والمشاهدة الكبرى، والبقاء الأبدي، فافهم ذلك.

وأيضًا الحق سبحانه يستحق وجود الموجودات بالذات، والموجودات الممكنة يرجع

وجودها للواجب بالذات، ورجوعها إليه صفة نفس، واستحقاقه لها صفة نفس، وصفات الأنفس لا تتبدل، ولا يمكن أن تنقلب الحقائق؛ فإذًا الله هو وجود كل شيء موجود بالوجه الذي ذكرنا، ولا يمكن غير ذلك، ولا انفصال للموجودات عنه أصلاً، فالمطال إنما هو وهم في خبر العبد المحجوب، والبعد كذلك، والحق أخذ وجود من كل الجهات، فلا مطال إذًا من حيث الماهية والحقيقة والآنية الثابتة بالله كما ذكرنا.

فإذن الآنيات والحقائق القائمة بالموجودات مُقِرَّة لله بالربوبية والمحبة له من حيث رجوعها إليه بالذات، كما ذكرنا، وذاكرة له من صفات أنفسها، وراجعة إليه لا يمكن غير ذلك فيها، والمطال في خبر الجاهل خاصةً لا في حقيقته؛ فكأنه نبَّه الغافل والجاهل، فاستحقاق الحق له على أن يبصر وجوده بالله، ويلحظ حقيقته بحقه؛ فيزول من وهمه خبر الغيرية والإضافة؛ فيجد ذاته عند الله، ويجد الله عنده؛ فيكون مشاهدًا له، ومقيمًا بحضرته، ومستأنسًا به، وناظرًا إليه أبدًا؛ فتحصل بذلك سعادته ورفعته وعزته وكماله الذي لا يزاد فيه ولا ينقص منه، فاعلم ذلك.

وقوله ﷺ: (ومحَالُكَ مُحَالٌ).

يفسر ذلك ويسدده، فإن المحال: هو القوة والقدرة على ما بلغني من بعض إخواننا بالمشرق، وهو ممن يعرف اللغة، وهو الذي يفهم من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: 13]، وقول سيدنا ﷺ في «الرسالة الرضوانية»؛ والله له الحول والمحال والطول.

ولمّا كان العبد حادثًا، وممكن الوجود، ولم تكن له قدرة مؤثرة، ولا قوة قاهرة، إذ القوة والقدرة حقيقية هي لله تعالى، واستحق ذلك لكونه قديمًا واجب الوجود؛ فإذًا كل فعل واقع من العبد: أي في العبد، فوجوده لله حقيقة، إذ هو القادر المؤثر في مقدوره، فلا تأثير لقدرة العبد، ولا فعل له حقيقة؛ فإذًا لا قدرة، ولا قوة للعبد؛ ولذلك قال: (محالك محال)؛ معناه: قدرتك وقوتك وفعلك محال من حيثك، فإذًا الفعل القائم بك، والتصريف الذي تتصرف، والعمل الذي تعمل محال أن يكون لك؛ بل هو لله حقيقة، وصادر منه، وكذلك وجودك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96].

وأيضًا الله خلق العبد في أول ابتدائه، وهو معه بالإيجاد والتجديد في كل وقت، وليس هو بمنـــزلة البَنَّاء الذي يبني الدار، ويتركها زمانين وأكثر، وإنما بمنـــزلة متكلم من الكلام كما ذكر سيدنا ﷺ في «الرسالة الفقيرية»، وفي «البُدّ»، وغير ذلك، فإن المتكلم

إذا قطع الكلام انقطع، وإذا تكلم به وجد.

فإذًا لا وجود للوجود الممكن إلا بالله، والله هو حقيقة وجوده، كما تقدم، وكل عبد ادَّعى فعلاً لذاته، أو استقلالاً بذاته، أو نسب وجوده فدعواه محال وباطل وزور، فإذا كان وجوده لله، والعبد لا يغفل عن وجوده، ولا يستريب فيه، كذلك ينبغي ألا يغفل عن الله، ولا يستريب فيه، ولا يطلبه، إذ هو أظهر من أن يطلب فكل من استراب فيه، أو وجد غيره، أو أنكر وجوده، فهو بمنــزلة مَن قال أن المحال واقع، وأن الحقيقة مجاز.

ولذلك قال: تعالى على جهة التعجب: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: 10]، والبعد هو غلط في وهم الجاهل لا في حقيقته، فالحقائق إنما هي بالذات لله وعنده، والآنيات من حيث هي مقرة لله بالربوبية، وذاكرة له، وحاضرة عنده، إذ لا يمكن الشيء أن ينكر وجوده كما تقدم، ووجود كل شيء لله؛ فالله هو وجود كل شيء حقيقة، ولا يمكن أن تنكر وجود الله آنية من الآنيات.

وهذا هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾ [الإسراء: 44]؛ أراد بذلك إقرار الآنيات بوجودها لله الحق، فاعلم ذلك.

وقوله ﷺ: (والواصل رحمه مهما دعا الله رحمه).

الرحم: هو النسب من الآباء والأخوة والأعمام، وأولادهم والأخوال، وبنات الكل المذكورين، وكذلك تَطلُّع بالتركيب إلى الأقرب فالأقرب بالنسب حتى إلى أقصاهم، وكذلك في الحيوان على أنحاء ما ذكر في الكتاب والسنة، وكذلك أهل ملتك ودينك ومذهبك وطريقتك، وهذا النوع من الرحم ألزم عند السعداء، إذا النسب الأول اختلف معك في الدين، فهو نسب عرضي، ويجب عليك قطعه وهجره؛ كما قال ﷻ في أقرب النسب: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ [لقمان: 15]الآية.

ومعنى المعروف الذي أمر أن يصاحب الابن فيه أباه: فهو المبرة الظاهرة الجارية في عادة الناس، وقد تقدم إن حد المعروف هو ما جرت به العادة، ولم تنه عنه شريعة، ولا حكمة، ومخالفتهما واجبة في طاعة الله؛ فالرحم إذًا هم الأهل المذكورون والجيران بشرط أن يكونوا داخلين معك في الدين، والمذهب الشرعي، وكذلك المسلمون، فلو لم يكونوا أقارب؛ فهم أولو أرحام بعضهم أولى ببعض.

فيجب على المؤمن أن يصل أقاربه بالزيارة، ويعود مريضهم، ويواسي فقيرهم، ويسكِّن ملهوفهم، ويؤمِّن خائفهم، ويحارب عدوهم، وبالجملة صلة الرحم إنما هي برفع

الأذى، وترك الأذى، ووجود الراحة بقدر الطاقة، فأولو الأرحام منهم مَن يبعد، ومنهم مَن يقرب، مثال ذلك: الأب أقرب من العم، والمسلم أقرب من الكافر، والإنسان المطلق أقرب من الحيوان، والحيوان أقرب من النبات، وكذلك تطلع بالتركيب إلى أقصى رتبة منك وأبعدها، وتنـــزل بالتحليل إليك إلى الوجود القائم بك.

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ إنه قال: «في كل كبد حرًى أجر»[1].

والحيوان ذو كبد حرى رطبة، ففعل المعروف في الحيوان، والإحسان إليه، وإيجاد الراحة له فيهما الثواب، والثواب هو الجزاء من الحق تعالى، وهو من الأشياء المقرِّبة له؛ فإذًا فعل المعروف في الحيوان يقرِّب إلى الله، ويلزم من ذلك أن يكون بالأحرى في الحيوان أعني: الإنسان وبالأحرى في المسلم، وبالأحرى في النسب، والجار من المسلمين، وكذلك في نفسك.

فإذًا الوصول بالمعروف والإحسان يقرِّب إلى الله، وكل قريب من الله رحمة فكل وصلة الرحم رحمة، وتقول كل من وصل رحمه بالإحسان والخير هو قريب من الله، وكل قريب من الله مرحوم، فكل واصل رحمه مرحوم، وهذا بالخبر الشرعي، وما وعد الله في الأعمال الصالحة؛ لأنه بما يجب على الله تعالى. وقد قال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2].

ثم تقول: إذا كان المعروف عامًّا حتى يصل القريب، وينتهي إلى البعد؛ فهو حسن، وإن كان جزئيًّا فيبدأ بالأقرب، كما قال ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[3].

ولمّا كان الحق سبحانه رحيمًا، ورحمته تتعدى إلى الغير، ورحمته صفته؛ كان العبد الرحيم المحسن الذي يتعدى خيره إلى غيره مرحومًا، للشبه الذي بينه وبين الحق من صفة الرحمة والإحسان؛ ولذلك قال ﷺ: (والواصل رحمه مهما دعا الله رحمه).

وأيضًا المرحوم: هو المقرَّب إلى الله وإلى جنته، والقرب والبعد إلى الله ليس بالمكان والزمان؛ وإنما البعد منه بالجهل به، أو بالمخالفة، والجهل به أصله عدم العلم، وقلة الانقياد إلى العلماء، وأصل عدم العلم، وقلة الانقياد حب الدنيا، والسعي في كسبها، وله لواحق كثيرة، والمخالفة أصلها طلب الشهوة العاجلة.

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه (197/13)، وذكره الأنصاري في خلاصة البدر المنير (141/2).

(2) رواه البخاري (431/1)، ومسلم (635/2).

(3) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (246/1)، وذكره المناوي في فيض القدير (66/1).

فإذًا الجهل والمخالفة أصلهما حب الدنيا، والإمساك بها، ووصلة الرحم بالإحسان، وإيجاد الراحة فيه، وشهادة النفس، وخروج الدنيا من اليد، والنسبة الإلهية.

فأمَّا زهادة النفس بها فظاهرة؛ فإن المحسن بماله، وإعطاءه لغيره دل على زهادته في تلك الأعيان التي أعطاها، وكذلك يلزم في خطواته التي زار إلى أهله، وزمانه الذي امتنع فيه من كسب الدنيا، أو سعيه في مصالحه؛ دل على زهده في ذلك الوقت، وهذا يلزم في فعل المعروف كله.

وأمَّا النسبة الإلهية، والشبه فظاهر أيضًا؛ فإن الحق يتعدى خيره ورحمته، ويلطف بالمنكسر، ويجيب المضطر من حيث يعطي المحتاج من أقاربه، ويشبع الجيعان؛ فهذا شبه ظاهر، ونسبة واقعة، وأيضًا هو زاهد من حيث أنه أعطى ما بيده إلى غيره؛ فهو زاهد في الدنيا، والدنيا أصل البُعد من الله، ورأس كل خطيئة كما جاء في الحديث؛ فالزاهد فيها مقرَّب إلى الله، والمقرَّب إلى الله مرحوم؛ لأنك تقول: الدنيا أصل البُعد، والتارك لأصل البُعد آخذ لذات القرب، والآخذ ذات القرب قريب.

وكذلك تقول: المخالفة أصلها الشهوات، والزاهد في الدنيا تارك للشهوات، ونيل الشهوات هو المخالفة فترك الشهوات طاعة، فالتارك للشهوات طائع لله، والطائع لله قريب منه، والقريب من الله مرحوم؛ فالواصل رحمه مرحوم بالقياس الذي ذكرنا.

فإنك تقول: الواصل رحمه؛ تارك ماله وراحته من حيث أعطاها، والتارك ماله وراحته زاهد في الدنيا بمعنى رافض لها، والدنيا رأس كل خطيئة، ورافض رأس الخطايا طائع لله، والطائع لله مرحوم، وأيضًا المؤمن لا يفعل ذلك المعروف إلا من أجل الله، وابتغاء مرضاته وطلبه لمرضاة الله، وفعل المعروف من أجله دل على أنه يحبه، وحبه له دل على أنه قد علم جلاله، وكمال صفاته ولذلك حبه على كل شيء، وعلمه بجلال الله، وكمال صفاته يضاد الجهل.

وقد قلنا أن البعد أصله الجهل، فالقرب أصله العلم، فالعالم بالله قريب منه، فالواصل رحمه قريب من الله مرحوم؛ لأنك تقول: وصلة الرحم من أجل الله، وابتغاء مرضاته طاعة لله، وابتغاء طاعة الله ومرضاته لم تقع إلا لأجل العلم به، فالعالم بالله قريب منه، فالواصل رحمه قريب من الله، والقريب من الله مرحوم، فالواصل رحمه مهما دعا الله رحمه.

وكذلك القول في الشبه؛ لأنك تقول: الواصل رحمه كريم ورحيم ورءوف ومحسن، والله كريم ورحيم ورءوف ومحسن، فالواصل رحمه يشبه ربه في الكرم والرأفة والإحسان والرحمة، والشبيه بالشيء قريب منه، فالواصل رحمه شبيه بالله، فالواصل رحمه قريب من

الله، والقريب من الله مرحوم.

وأيضًا نقول: العالم بأسره متماثل في افتقاره واضطراره وحدوثه وانفعاله، والمثل لا يعدم فيه ما هو موجود في مثله، والانفعال والاضطرار موجود في كل واحد من المخلوقات، والمنفعل من صفة نفسه لا يكون فاعلاً بوجه، والعالم منفعل من صفة نفسه، فالعالم ليس فيه فاعل، ولا يكون فاعلاً بوجه، فالعالم كله واحد في الافتقار والاضطرار، والحق هو الغني الفاعل فيه على الإطلاق، فإن الحادث لا يفعل في الحادث، والمضطر لا يفعل في المضطر، ولا يتعدى شيء من مخلوق إلى مخلوق، والحق يتعدى خيره وفضله ورحمته إلى الموجودات كلها.

فإذا رأينا المحسن الذي يتعدى خيره، والرحيم الذي تتعدى رحمته، علمنا إن ذلك ليس هو من ذاته بما هي مفعولة ومضطرة؛ لكون المنفعل لا يكون فاعلاً كما تقدم، والفعل لا يفعل في مثله، فإذا لم يكن من ذاته؛ فصحَّ إنه من الحق تعالى، إذ هو الفاعل على الإطلاق والمحسن والرحيم على الإطلاق، وإنما جرى ذلك محمل العبد على جهة المجاز، وهو منه حقيقة.

فإذًا كل محسن يظهر منه الخير فيتعدى فضله صفة الإحسان القائمة به هي لله، وإن كانت جارية على محل العبد، فهي فيه بالعرض، وهي في الله بالذات، فالعبد موضوع لها وكأنه كرسي لتصريف الله، وقد سلبه عن ذاته من حيث سلب عنه صفات البشر التي هي المنع والشر والبخل، ومنحه هو صفاته، ووهبه إياها، وجعلها ذاتًا له، وأقام فيه كرمه وإحسانه وخيره.

فإذًا العبد المحسن الرحيم ذاته الإحسان والرحمة، والإحسان والرحمة صفة الحق، والصفة لا تفارق الموصوف، والموصوف: هو الله، والعبد المحسن الرحيم لا يفارق الحق، ومَن لا يفارق الحق هو معه، ومَن كان مع الحق: هو مرحوم وكامل وسعيد، فالواصل رحمه مرحوم وكامل وسعيد؛ لأنَّا نقول: الواصل رحمه تعدى خيره ورحمته، والمتعدي خيره ليس هو العبد الحادث؛ لمَا تقدم إن المثل لا يفعل في مثله؛ فإذًا هو الله حقيقةً.

وإذا ظهرت صفات الحق في العبد؛ فقد اصطفاه وشرفه وكمله وجعله خليفته، وكل مكمل ومصطفى مرحوم، فالوصل رحمه مرحوم.

وهذا يفهم من قول سيدناﷺ في «لوح الأصالة» قال: مهما سرى حكم من شيء إلى شيء فمنه لا من ذلك الشيء، ويفهم من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128].

ولا يُفهم من هذه المعية معية الزمان، ولا معية المكان، ولا معية المرتبة، ولا معية الجنس؛ وإنما يُفهم منها التخصيص والاعتناء والقرب إذ قد جعل صفته ذات العبد المخصوص، وطهره من صفات الشيطان والنفس ونقص العبودية، واستولى عليه هو، وجعله بمجموع أسمائه، واستحقه من كل الجهات، وجعل ذاته آنيته وكأنه هو.

لأنَّا نقول: الإحسان صفة الحق، وهي ذات العبد المحسن، فذات العبد صفة الله، والصفة ليست بزائدة على الموصوف، والموصوف هو الله، فذات المحسن هو الله، ويُفهم هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: 10].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: 21]، فافهم ذلك.

وأيضًا الرحم منهم الأهل القريب للإنسان، والآباء لم يكونوا أهلاً قريبًا للإنسان إلا لكونهم سبب وجوده، وهم في السببية على جهة المجاز، خاصة والرحم القريب حقيقة: هو الله تعالى، وهو السبب في وجوده، ووجود آبائه، ووجود كل شيء، وهو السبب الذاتي لماهية العبد الممكن، وهو ألزم إليه من كل شيء، وأقرب من كل قريب، إذ لو قدَّرنا ارتفاعه؛ ارتفع وجود العبد فذهب، وقد يقدَّر ارتفاع الآباء، والأهل الأقارب، وتبقى ماهيته على ما هي عليه، ولا ينقص منها شيء، وهذا موجود في العالم أبدًا، فهم إذًا سبب عرضي، وأهل بالعرض.

وكذلك القول في الجار، وغير ذلك؛ فالرحم حقيقة: هو الله تعالى، وكذلك الجار حقيقة: هو هو، إذ لو قدرنا مفارقة إيجاده من العبد لم يوجد، وهو جار؛ لأنه يلازمه من كل الجهات حتى إن كل قوة في الإنسان، وكل عضو روحاني أو جسماني الله؛ هو المقوم له والمتمم، وهو الظاهر في جميعه، والموجود في وجوده حتى إنه يستحقه كما تقدم، وبه يتأنس ضمير العارف، وله يلحظ، وهو الذي يبصر، ومعه يحضر، وهو الحاضر في حضوره ومعه وبعده، وهو يلازمه ملازمة ذاتية، والأهل الذين يتأنس بهم الجاهل.

وكذلك الجيران هو مفارق لهم في أكثر أزمنته، ويذهب عنهم بالسفر والموت، وغير ذلك. وقد تخلق له فيهم العداوة والضدية، وغير ذلك، ويكونون أبعد الناس إليه، والحق تعالى يستحيل مفارقته إليه، وكذلك بُعده عنه محال، وكذلك التضاد؛ لأنه يصله بخيره وفضله وإحسانه، ويؤنسه في سفره وحضره، وينصره في اضطراره إذا لجأ إليه، وهو معه أينما كان من المراتب والأحوال والعوالم كلها، فإذا وصله العبد بطاعته، والتخلق بأسمائه، وبمعرفته والأدب معه، وبقطع كل ما سواه، وزوال الغيرية من قلبه وجملته، فدعاه بمعنى

استدعى صفاته إلى محله، وأحضره عنده بالمراقبة والاستيلاء وصرف ماهيته إليه؛ رحمه وهو بحضرته ومشاهدته، وإعطاء كماله، وإفادة سعادته.

إذ السعادة عبارة عن رؤيته ورضوانه، وهذا هو معنى قوله ﷺ عنه: (والواصل رحمه مهما دعا الله رحمه).

و قوله ﷺ: (والعلم للعلو علامة).

العلو: هو الرفعة، والعالي: هو المرتفع، والعلامة: هي الدلالة على الشيء، كما تقول: علامة الماء في الصحراء: هي وجود الطير، وعلامته الركيزة الواقعة عليه، والحجارة المركبة بعضها على بعض الذي جُعلت؛ ليستدل بها على الماء، كما تقول: علامة الإيمان: مواظبة المسجد للصلوات.

وعلامة المؤمن كما ورد في الأثر: «إذا حدث لا يكذب، وإذا أؤتمن لا يخون»[1] الحديث.

وبالجملة: العلامة: هي التي بها يتعين الشيء المجهول، أو المشكوك فيه، أو المظنون، ويظهر ذاته وحقيقته.

ولمّا كان العلم سبب الرفعة والشرف والكمال قال فيه: (والعلم للعلو علامة)؛ معناه حيث ظهر العلم كانت الرفعة والشرف، ولمّا كان العلم صفة كمال وأجل صفات الكمال وأخصها وأعمها تعلقًا قال: (والعلم للعلو علامة).

وأيضًا لمّا كان الإنسان حده هو الحيوان الناطق، وفصله من الحيوان هو النطق لا غير؛ فإن الحيوان يشاركه في الحياة الطبيعية، وفي الحواس الخمس، وفي المشترك وفي القوة الروحانية؛ مثل الخيال والوهم وغير ذلك، وينفصل عنه هو بالنطق خاصة، والنطق: هو إشارة إلى المكونات بالتصوير والتصديق، هذا حدُّه عند القدماء، وهذا هو العلم.

والنطق علم واقع على الخفيات بالروية والفكر؛ ولذلك كان علامة العلو، إذ هو الذي ينفصل به عن جنس الحيوان، ويرتفع قدره عليه ويشرف، وهو الذي أوجب تفضيل النوع على جنسه، فاعلم ذلك.

وذلك أن العلة ارتفاع الشيء على أقرانه، وتقدمه عليهم بالشرف أو المرتبة؛ لأنّا نظرنا الإنسان يماثل الحيوان في الحيوانية، ويشاركه فيما ذكرنا من قبل، وينفصل عنه ويفضل عليه، ويرتفع قدره على قدر الحيوان، ونظرنا ذلك الذي ارتفع به وجدناه غير

---

(1) رواه البخاري (21/1)، ومسلم (78/1) بنحوه.

الجسم إذ جسمه جسم حيوان ميت بالطبع، وهما متماثلان في ذلك، ولا وجدناه من جهة التركيب الخاص والهيئة إذ ذلك يرجع إلى كيفيته، والكيفية حال قائم بالجسم لا اعتبار له بالكمال؛ فصحَّ أنه لم يفضل عليه إلا بالنطق، والنطق علم كما تقدم حدُّه، فكأن علمه سبب علوه وعلامته.

وكذلك نقول في نوع الإنسانية: لأنَّا نجد نوع الإنسانية واحدًا، وهو يفضل بعضه بعضًا، ويعظم بعضه، ويرتفع على بعض، ويتقدم بعضه على بعض، ويحكم المتقدم من الناس على غيره ممن يماثله في الإنسانية، ولو نظرنا ذلك التقدم والحكم وجدناه راجعًا إلى الخطة والمرتبة القاهرة المرتفعة على من دونها.

ولو نظرنا تلك الخطة؛ وجدناها من قبيل العمل والأوصاف الفاضلة، والعلم شرط في العمل والأوصاف المذكورة؛ فإذًا العلم أصل تلك الخطة والحكم والتقدم، وشرط فيها، والشرط هو الذي يرتفع المشروط بارتفاعه، ولو ارتفع العلم ارتفعت تلك الخطة والتقدم، فإذًا العلم هو الذي يرتفع المشروط بارتفاعه، ولو ارتفع العلم؛ ارتفعت تلك الخطة والتقدم.

فإذًا العلم: هو الذي كانت به الرفعة والشرف في الإنسان على أمثاله.

فالعلم هو سبب العلو وعلامته، كما قال، فلو قدرنا الرفعة والمرتبة الحاكمة بالسيف والمال كما هي في السلطان؛ فنقول: أصلها وحافظها ومدبرها إذ به يدبر أرباب دولته، وبه يمشي سياسته نحو الصواب، فلولا ما يعلم الضد من الصديق؛ لكان يقتل الصديق، ويترك الضد، ويؤدي إلى فساد خطته وملكه، وكذلك بالعلم يدبر الرعية ويرتفع اختلافهم ويقمع عدوهم.

وبالجملة الملك يدبر بالحكمة، والحكمة: هي العلم والعدل ووضع أي شيء في محله، فإذا كان كذلك، فكل خطة ترفع الإنسان على أقرانه، وتقدمه على أمثاله، فالعلم صورة مقومة لها ومتممة؛ فهذه سعادة الإنسان في الدنيا، وتصرفه ورفعته لا وجود لهما إلا بالعلم، وكذلك فصله من الناطق كما تقدم، فالعلم للعلو علامة.

وأمَّا سعادته في الدار الآخرة فلا يتوصل إليها إلا بالعمل، والعلم شرط في العمل الصالح؛ فإذًا لاسعادة إلا بالعلم، وأيضًا السعادة في الآخرة والكمال والشرف لا يكون إلا بحسب القرب من الله تعالى، وبقدر ما يقطع الحكيم من الوسائط التي بينه وبينه، والقرب منه لا يكون إلا بعلم ما يجب له، ويجوز عليه ويستحيل في حقه، والوسائط لا يقطعها إلا بعد ما يعلمها ويعمل على الخلاص منها وجوازها، فإذًا العمل الذي يقطع به الوسائط

شرط فيه، والقرب من المقصود الأعظم إنما هو أيضًا بحسب العلم به؛ فإذًا السعادة والرفعة في الآخرة العلم صورتها المقومة والمتممة.

وكذلك الصوفي في سعادته ورفعته إنما هي بحسب معرفته بالله، وحبه فيه، والفناء في تحقيق حقه، والتخلق بأسمائه، وذلك كله يرجع إلى العلم؛ لأنه لم يحبه إلا وقد علم جلاله وكمال صفاته كما تقدم، ولم يَفْنَ فيه إلا وقد رجحه على نفسه من حيث رضي تلف نفسه فيه. ولوه علمه بجلاله وخساستها بالإضافة إلى باريها لم يفعل ذلك، وأيضًا التخلق بأسمائه يحتاج إلى العلم بالاسم، والمرتبة الموضوعة له، ويحضر أجزاء ماهية المرتبة وتصوره وتصديقه، وينصرف إليها، ويدور عليها بعلمه وتخلقه، ولا يشذ عليه من أجزاء الاسم شيء حتى يتجوهر به، ويتصف بالمرتبة حتى تصير له ذاتًا، وحينئذ يشرع في الانتقال إلى اسم ثانٍ، وكذلك يلزم في كل اسم؛ فإذًا الصوفي لا كمال له ولا سعادة ولا شرف في الدنيا والآخرة إلا بقدر علمه بالله وبأسمائه والتخلق بها.

فإذًا العلم سبب رفعته وأصل فيها. فإنًا نقول: أَعْلَم الصوفية بالله وبأسمائه أشدهم حبًّا فيه وتعظيمًا له، إذ المحبة على قدر صفات المحبوب تكون قوتها، وأقواهم محبة في الله أشدهم فناءً فيه، وتخلقًا بأسمائه، وأشدهم تجوهرًا بأسمائه، وفناءً في حقيقته أرفعهم وأسعدهم وأكملهم وأعلاهم درجة، فالعلم للعلو علامة، وسبب الشرف والسلامة.

وكذلك نقول في المحقق: فإن المحقق حقق أن الجوهر المستحق لوجوده ووجود الممكنات، وجوده عنده أظهر من الوجود الطبيعي له، وألزم من الضرورة، واستقل واستغنى، وانقطع شوقه وطلبه، وشاهد الحق بالحق عنده، فخرج من ذل الوسائط، واعتز ووجد كماله عنده بذاته في ذاته؛ فاستحق بذلك الرفعة والعلو الذي لا غاية تقدر له والكمال الذي لا إضافة فيه.

ولا يُقال بالكمالات المذكورة عند الصوفية والحكماء؛ بل هو الكمال العزيز الذي لا يدرك له كُنْهٌ، ولا تحصره ماهية، وهو العلي العظيم، فاعلم ذلك.

فقد ظهر لك إن العلم للعلو علامة في الدنيا والآخرة، وفي كل صنف من أصناف الكمال، وفي كل طريقة، وسيادة النبوة والملائكة، وغير ذلك إنما هي بالعلم، فاعلم ذلك.

وقوله ﷺ: (والسلم للعدو سلامة).

السلم: هو الصلح لغةً، قال الله تعالى: ﴿ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: 208].

والعدو: هو الضدُّ المناقض للشيء بطبعه ووصفه، والسلامة: هي الخلاص من الآفات؛ لأنك تقول: سلم فلان من أعدائه بمعنى أنه تخلص من آفاتهم.

وتقول: سلم فلان من المرض بمعنى أنه تخلص منه، وخلص من آفاته التي هي الموت بعد أن أصابه وباشره المرض.

وقد يكون (سلم) بمعنى أنه لم يصبه المرض مع كونه محله من حيث هو جسم وقابل له، وتقول: سلم فلان من البحر بمعنى من آفات العدو بعد أن ركبه، وإذا نظرنا العدو من حيث المضادة والمباينة في الكيف فهو يطلق على أنحاء.

نقول: العداوة في الطبائع الأربع، إذ كيفية الصفراء مضادَّة للبلغم.

ونقول العداوة في الأعراض، إذ السواد ضد البياض، وعدوه من حيث الضدية.

وإذا نظرنا المضادة في الأشياء كلها؛ يطول علينا الكلام فيها، ويخرجنا عن المقصود من شرح المسألة، فنقول: العداوة التي يريد هنا هي المشار إليها في عرف الشريعة، وهي الضدية الواقعة بين الأشخاص الموجودين في النوع الواحد، فإنك لا تقول السبع عدو فلان وتريد بذلك العداوة التي تورث مناقضة الشخص لشخص؛ فإن عداوة السبع لزيد هي مثل عداوته لعمرو، وهي عداوة النوع منه للنوع الإنساني مطلقًا، ولا هي عداوة المثل؛ لأن الإنسان غير متفق معه في الكيف، ومفضل عليه بالعقل، وقاهره بالصنائع العقلية، والفهم الإنساني من كل الجهات، وغالبه بالذات، فإن اتفق أن يقتل أسد إنسانًا وقتًا فإنما تلك غلبة بالعرض، والإنسان غالبه الذات، والعداوة لا تكون حقيقة إلا بين المثلين وفي المثلية؛ إنما أراد العداوة من الإنسان، مثل عداوة الدين، وعداوة الحسد، وما أشبه ذلك.

ولمَّا كان العدو يطلب القهر والانتقام والظفر والغلبة، ولا يمنعه إلا هلاك عدوه، أو ما قرب من الهلاك؛ كان حتمًا على الإنسان العاقل زوال عداوته، إذ العداوة توجب فوت الراحة، وتؤدي إلى الهلك، وذلك لا يحض عليه الشرع ولا العقل فلا بد من إزالتها إذًا شرعًا وعقلاً، وإزالتها لا تكون إلا بأحد الأمرين: إمَّا بالمقابلة والانتصار، وإمَّا بالتخلق والاحتمال، وإزالتها بالمقابلة والانتصار له آفات: أحدها: ركوب الخطر فإن مقابلة العدو، العاقل فيه بين أمرين: إمَّا أن يظفر، أو يُظفر به، فإن ظفر؛ فقد وقع الأذى والهلك، وهذه آفة ظاهرة، وإن ظُفر به وانتقم منه أو أهلك؛ فقد حرم المنتقم أو المهلك مقام العفو والرحمة، وأقيم في الانتصار للنفس، وترقية حظوظها، وهذه آفة أكبر من الأولى.

وإن توقف الأمر بينهما فقد شغلا الزمان بغير الله، وفرطا في التوجه، وبعُد المنتصر

عن مقام الرضا، وانقطع عن التوحيد، إذ هو في ملاحظة الغيرية، ومكابدة الأضداد بآفة الانتصار، والمقابلة ظاهرة في هذه الوجوه التي ذكرناها.

والموفي ليس بسالم فلا سلامة في الانتصار والمقابلة إلى العدو عند السعداء وأهل الله تعالى، ولا سلامة في إبقاء العداوة، فلم يبقَ من القسمة إلا إزالة عداوته بالتخلق والاحتمال والإحسان، وذلك الإحسان يؤدي إلى انقلاب عداوته صحبةً، ومنافرته ألفةً وهذا هو الصلح في قوله: (والسلم للعدو سلامة).

فإنه قد سلم من أن يُهْلِك أو يَهْلِك، وسلم من إشغال الوقت، وملاحظة الأغيار، وسلم من نقص الانتصار، وشؤم الحظ النفساني؛ فقد سلم دينه وطريقه، وثبت كماله وتخلقه بالرحمانية المختصة بالسعداء، والموجودة في الأولياء؛ فقد سلم طريق سعادته، وزالت العداوة والضدية من عدوه بالإحسان، وأمن من مكره؛ فقد سلم من خوفه في الدنيا، وقد ثبتت سلامته: سلامة الدنيا والآخرة، ونقل عدوه من المهالك، وطريقة الأشقياء.

فقد سلم المتخلق بالإحسان نفسه وعدوه من آفات الدنيا والآخرة بصلحه وإحسانه، وهذا تصريف عظيم، وفضل عميم، وحكمة بالغة.

وهي المراد من قوله: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت: 34].

وأيضًا الانتصار إذا قدرنا ظفر المنتصر بعدوه وهلكه؛ قد تحدث له من أسباب المهالك أعداء كثيرة، ويتسلسل الأمر، وكذلك في أنسابه هو؛ ويؤدى إلى فساد عظيم، وهلك الفئتين، وتضييع وقته، وانقطاعه عن الله، وهذا حرمان عظيم وشقاوة لا سلامة فيها، ولو قدرنا العدو من غير دينه، ويجب عليه زوال عداوته شرعًا وقتاله.

قلنا: إن جذبه بالإحسان والحكمة والسياسة أحمد عند الشرع، وأولى وأحب لله؛ لأنه أزال عداوته وجذبه للإسلام، وكان رحيمًا كريمًا، متابعًا لسنة النبي ﷺ؛ لأنه كان يجذب الناس للإحسان مثل جذبه للمؤلفة قلوبهم، وكذلك بالاحتمال فإنه كان يغفر للمُسيء له، ويدعو له بالمغفرة، وهذا خير عظيم؛ فقد سلم المصطلح مع عدوه والمتخلق عليه من آفات الدنيا والآخرة، وقرب من الله تعالى بالتخلق بأسمائه، ومن النبي ﷺ بتبعيته، وهذه هي السلامة من كل الجهات، والمراد بقوله: (والسلم للعدو سلامة).

وقوله ﷺ: (والصلح مع جملتك صلاح).

إمَّا للتأكيد؛ لأن السلم هو الصلح لغةً، فتكريره إمَّا للتأكيد، وإمَّا جاء تكريره لفائدة

الإطلاق من القيد الأول؛ لأنه قال في الأول: (والسلم للعدو)؛ فحض على الصلح إلا أنه قيد بلفظ العدو، وأطلقه في الثاني بقوله: (والصلح صلاح)، وتركه مطلقًا، ثم أكده من حيث حمده بقوله: (صلاح).

فإن قيل: اللفظ الأول محرر في ذلك، إذ الصلح لا يطلق إلا برفع العداوة، ولا يُقال إلا على العدو، ولفظ العدو في الصلح يُفهم منه أي عدو كان، ويراد به النوع لا الشخص، أو أحد لا بعينه، ودخل في ذلك عموم الأعداء، ومَن ليس بعدو فلا يحتاج إلى الصلح معه، فلا يُفهم من العموم إلا عموم الأعداء؛ وقد خلصه اللفظ الأول.

قلنا: فيه إشعار الزيادة؛ لأن الصلح فيه معقول الصحبة والألفة، ورفع العداوة معًا، وقد يكون في الناس من ليس بصاحب ولا مألوف، وإن لم يكن عدوًا، فيكون الصلح معه بمعنى الألفة والمودة، وهذا فيه زيادة ظاهرة، ويكون الإنسان المتخلق يألف عدوه وصديقه، والمتوسط الموقوف بينهما، ويحسن للجميع، ويرد الكل إلى الصداقة والمودة، وهذا محمود شرعًا وعملاً، وفضل بَيْنٌ وصلاح جَلِيٌّ، وهو المراد بقوله: (والصلح صلاح) والصلاح: هو الفعل المحمود، وهو الفعل المستحسن، والصلاح: هو الطاعة، والصالح: هو الطائع.

وأيضًا قد يريد بقوله: (العدو)، و(الأعداء)؛ أضدادًا موجودة في محل الإنسان الواحد من حيث هو إنسان مجموع من روحاني وجسماني، والروحاني: مفارق في غاية البساطة، والجسماني: مركب، والمركب ضد البسيط، وأيضًا الإنسان حده هو الحي الناطق الميت، والحي ضد الميت بالضرورة، والإنسان بمجموعهما أو مطلوب بانقياد جميعه إلى أمر الله والدخول تحت أحكام الشرع.

فإن الجسماني يطلب عالمه وخواصه اللائقة به مثل الشهوة من الأكل والشرب والنكاح واللباس الحسن، وما أشبه ذلك، والروحاني يطلب العلم والمعارف والبحث عن حقائق الأشياء؛ فيتلذذ بإدراك الموجودات، وبتفسير الأشياء المجملة بإخراج الأشياء المشكلة من إشكالها إلى التجلي والظهور المحض، وقبول الأمور الكليات من جهة ما هي كليات، وما أشبه ذلك، والمتوسط يتلذذ بأشياء متوسطة مثل النغمات الحسنة، والألحان وما أشبه ذلك.

فلمَّا كان الإنسان مجموع هذه الأنواع، ومقولاً على هذه الجملة، والشرع طالب له بالانقياد إلى الله بجملته، احتاج أن يطلب أنواعه بالمهاودة وقواه الجسمانية والروحانية بالإذعان والخضوع وأضداده بالاتفاق، والدخول تحت أمر الله ورسوله، فيترك عقله

اجتهاده وبحثه وعلومه العادية، ويتصرف لقبول ما يلقى إليه الشرع؛ فيخرج عن إدراكه، ويأخذ إدراك الشريعة، ويترك علمه، ويأخذ علم الشارع، ويترك الجسماني وتصريف جوارحه في المكاسب العرضية والبطش في الأمور النفسانية العاجلة، وينصرف إلى عبادة الله.

ويصرف جوارحه في طاعة الله من الركوع والسجود، وإيجاد الراحة بالإعطاء باليمين، والسعي إلى المساجد بالأقدام، والجهاد، وغير ذلك، وينصرف في المتوسط إلى ما يحمده الشرع، ويرعاه الله تعالى، مثال ذلك: السمع الذي كان يوصل له الألحان والنغمات الحسنة؛ ينصرف إلى سمع كتاب الله تعالى الذي هو كلامه، وسمع حديث رسول الله ﷺ، وسمع المواعظ والأمور المذكرة بالله ﷻ.

والبصر الذي كان يبصر به المتلذذات، ويتنــــزّه في سطاعة ألوانها وملاحة بهجتها؛ يرجع ينظر اختلافها في أنفسها، وتبدلها وقلة ثبوتها؛ فيستدل على موجدها وخالقها، فترجع القوى الجسمانية والروحانية والمتوسطة منقادة لأمر الله، والدخول تحت أحكامه والانصراف لطاعته، وتتفق على ذلك اتفاقًا واحدًا، ودخولها في أحكام الله دخولاً واحدًا.

ويكون الصلح المذكور لاجتماع الأضداد والأغيار الموجودة في الإنسان على قبول أمر الله، وتتفق في ذلك اتفاقًا، فيزول شغبها وتضادها وعداوتها، إذ كان قبل ذلك كل نوع يميل إلى طور من اللذات والمطالب؛ لأن طلب الجسم، مضاد لطلب العقل، والروحاني ضد الجسماني؛ فكأن الإنسان مشتبه الماهية، فصار متفقًا، ووقع الصلح بين أضداده، وتآلفت أجزاؤه، وتوحدت ماهيته بدخولها تحت أمر الله، وانصرافها لمطلوب واحد، وأدى ذلك للجمع والاتفاق والاستقامة.

وهذا صلاح عظيم، وصلح محمود، ويفسر هذا قوله ﷺ في «الرسالة الرضوانية»: وقل لجملتك: يا مركبة من الخير والشر، والمفارق وغير المفارق، والسعيد والشقي، هاوديني، وإن لم تفعلي نقابلك بطبيعة الخير، ونتدرع بالمفارق، ونظفر بك بأمر السعيد، فإني ناجيته.

فهذا معنى قوله ﷺ: (والسلم للعدو سلامة، والصلح مع جملتك صلاح).

وأيضًا إذا صار العقل داخلاً تحت نظر أمر الشارع، فلا يعقل إلا به، والبصر لا يبصر إلا به، والسمع لا يسمع إلا به، والجسم لا يبطش ولا يتصرف إلا به؛ فقد ذهب كل نوع في ذاته، وثبت بالشارع عليه السلام، والشارع عليه السلام هو لسان الحق وبصره لأنه بالله ينظر، وبه ينطق وعنه، وذاته لله جملة، فذات المنقاد للشرع ترجع لله بالضرورة؛ لأنّا نقول:

المتبع لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر ولا يبطش إلا بالشرع، فالشرع سمعه وبصره ويداه ورجلاه، والحق ذات الشارع، فالحق هو سمع المتبع وبصره ويداه ورجلاه.

وهذا يشهد له قوله ﷺ حاكيًا عن ربه: «لا يتقرب العبد إليّ بأفضل مما افترضته عليه، ثم لا يزال يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»[1] الحديث.

فإذا كان الحق هو جملة الإنسان من حيث استحقاقه له، والحق واحد، فالإنسان واحد فقد ارتفعت الأضداد والأغيار، واتفق المختلفون، وزالت العداوة بالضرورة، وأيضًا العبد ممكن الوجود، والموجودات المفعولات كلها ممكنة الوجود، وهي متساوية في ذلك، ولا يكون للممكن الوجود سمع وبصر وعقل من حيث هو ممكن، ولا وجود له بالجملة إلا ما أعطاه الواجب، وما أعطاه الواجب لا يفارقه ولا ينفصل عنه.

فإذًا الواجب سمع العبد الممكن وبصره ويداه ورجلاه، ووجوده بالجملة، والعالم في إمكانه واحد؛ فالله هو سمع كل سميع من الممكنات، وبصر كل بصير، ووجود كل موجود منها، فلا تقل إذًا هو سمع الولي وبصره في وقت استحق الولاية، ولم يكن قبل استحقاقها كذلك، ولا تقل هو في وجود الولي ماهية وحقيقة، وفي غيره من الممكنات مجازًا؛ فيكون وجود الله مع الممكنات في بعض حقيقة، وفي بعض مجازًا، تعالى الله أن يختلف وجوده أو يتنوع.

بل هو المقوم لماهية الولي وغير الولي، وهو ماهية كل ماهية من حيث استحقاقه للموجودات استحقاقًا واحدًا، فإذا كان هو ماهية الماهيات، فهو سمع الأسماع كلها، وبصر الأبصار، وهو كذلك دائمًا، إذ لا يمكن أن يكون وجوده مع الممكن في وقت مقومًا، وفي وقت منفصلاً، ويكون الممكن مستقلاً بذاته في وقت، ومفتقرًا في آخر؛ بل هو مفتقر على الدوام، والله هو المقوم لوجودها على الدوام والمتمم.

فإذًا بطل كونه يكون سمع الرجل في وقت دون وقت، وكذلك بصره؛ بل هو وجود كل موجود دائمًا، فإن قيل: ما الفرق بين الولي وغيره إذًا؟[2]

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) قال سيدي محمد وفا في النفائس: اعلم أن القطبية على قسمين: قطبية في العلوم اللدنية، وقطبية في العلوم الدينية، والفرق بينهما أن الأولى علوم تعريفية، والأخرى تكليفية، وكل واحد ينقسم إلى ثلاثة مراتب: الولاية، ثم النبوة، ثم الرسالة، وفي اللدنية بالعكس؛ لأن الأولى في الديانات: من تولى الله بأوامره ونواهيه، وفي اللدنية: الولي من تولاه الله. أما بالذات: «فإذا أحببته كنت هو».

قلنا: هذا قريب من الله، وهذا بعيد منه، نقول: الولي عرف بذلك الاتصال، وشاهد استحقاق الحق له، وغيره جهل ذلك؛ فكان بُعد هذا من جهة الجهل لا من جهة الوجود، وقرب هذا من جهة العلم والوجود معًا، فهذا وجد ماهيته، وسمعه وبصره معًا لله وبه وعنده، وشهد الحق بالحق، وهذا ادعى لذاته وجودًا وسمعًا وبصرًا؛ فادعى ما ليس له وكان بعده بحسب ذلك، وكان قرب الولي بحسب ذلك.

وكان هذا منعمًا وحاضرًا وشاهدًا وكاملاً وسعيدًا، وهذا الآخر بالعكس، والحق بالقرب معهما على حالة واحدة، وهذا بعيد من حيث غلطه، وانتكس بذلك الغلط وشقي.

فإن قيل: ما الفائدة في قول: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به»؟

قلنا: أزال الغلط فشاهد أن الحق سمعه وبصره، وإنه لم يزل كذلك، ولا يزال كذلك مع كل ممكن؛ فكان التقديم أو التأخير من حيث العبد وعنده، فاعلم، لا بد من حيث الحق، ومن حيث الغلط والجهل، لا من حيث الوجود حقيقةً.

فإذًا القرب ذاتي، والبُعد عرضي، والغلط في الضمير يحجب الإنسان عن حقيقته فيدعي وجود الله لنفسه، فيكون في الأمانة من حيث أخذه ما ليس له، فلا عداوة ولا مغايرة إلا في خبر الغالط، والحق: هو حقيقة كل شيء، ووجود كل شيء بالوجه الذي ذكرناه، وهو كذلك دائمًا، فلا عداوة إلا بالجهل، فإذا ارتفع الجهل؛ ظهر اتفاق الوجود ووحدته، وهذا هو الصلح الذي يرد الأضداد والأغيار شيئًا واحدًا، ويزيل الشتات، ويعلم بعد زواله إنه لم تكن قط عداوة، ولا بغض، فصار الصلح زوال الغلط، ورفع الإضافة، فاعلم ذلك.

فهذه المسألة مطبقة على قوله: (والعلم للعلو علامة)؛ ولذلك ساق بعدها: (والسلم للعدو سلامة)؛ لأن العلم يرفع الغلط الذي أوجب العداوة، فيظهر الاتفاق والاتحاد، والصلح حقيقة ذاتية في كل ماهية بما هي ماهية، فاعلم ذلك.

-

أو بالصفات: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به».

أو بالأفعال: «افعل ما شئت مغفورٌ لك»، والجمع بينهم كمالٌ لا يُدرك، والنبوة اللدنية والرسالة الدّينية سارية في أعماق الروحانية بدرجة الجلالة مع الهوية السارية، والله عليمٌ بذات الصدور، وإذا فهم هذا الخطاب علم الفرق بين الموسوية والخضرية، والله ولي التوفيق.

قوله ﷺ: (والدعاء بالإخلاص سلاح).

الدعاء: هو النداء، تقول: دعوت فلانًا بمعنى ناديته، وتقول: الدعاء: هو العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: 60] الآية، وتقول الدعاء إذا كان الله تعالى هو النداء بالمسألة، والتضرع والطلب لإحسانه ونعمه.

والإخلاص: هو تحرير الشيء من الإشابات؛ كما تقول: أخلصني فلان وده، بمعنى أن وده محرر من الإشابة، ونقول: الإخلاص: هو تحرير القصد من الإشابات والوسائط.

والسلاح: هو العدة التي يعتمد عليها في نيل المآرب، ونقول: السلاح آلة يستعان بها في تحصيل المطالب، ونقول: السلاح آلة أو عدة يستجلب بها الملائم، ويدفع بها المنافر، ويحفظ بها الحامل لها نفسه وجملته.

ولمّا كان الله فاعل كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء، فلا شيء يبقى إلا وهو فاعله، ولا خير يرجى إلا وهو فاعله؛ فهو الضار النافع، فلا شيء يدفع إلا وهو دافعه، ولا شيء يجذب إلا وهو معطيه ومانحه، ولا حافظ للنفس المحفوظة إلا وهو؛ ولذلك جعله سلاحًا وشبهه بالسلاح.

ولمّا كانت السلاح عند العامة في الظاهر يعتمدون عليها في دفع العداوة، والوقاية من الشر وفي استجلاب المنافع والخيرات الملائمة، ويحفظون بها ذواتهم من الضرر والبأس ضرب لهم بذلك مثلاً، وقربه لأفهامهم بالعرف الجاري في عاداتهم في مواطن الخوف إلا السلام؛ فنبهم على الإخلاص والاعتماد عليه في جميع ما يخاف أو يرجي، إذ هو الدافع للشر حقيقةً، والمانح للخير، والحافظ لذات العبد من كل الجهات، وهو الذي لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، فهو عدة المؤمن وسلاحه، وإليه استناده، وعليه اعتماده، إذ لا غيره ينفع، ولا سواه يدفع.

فإن وجدنا السلاح في الظاهر مثل السيف والرمح، وما أشبه ذلك يدفع به العداوة ويحارب به، وقد يسفر ويقتل، وقد يمنع من بلوغ غرضه، ويدفع شره، ويظهر تأثير الحديد والعدة في دفع العدو، وقتله به؛ فذلك يرجع إلى الله بالضرورة، وهو له حقيقةً وللحديد مجازًا.

فإن قيل: كيف هو مجازًا، ونحن نشاهد صاحب السلاح يسلم بمحاربة عدوه، ويفني نفسه به وماله، وقد يظفر بعدوه ويقتله، ومن لا سلاح له يُظفر به ويُنتقم منه، وهذا تأثير ظاهر؟

قلنا: ذلك من جهة العادة، ومجعول في الحديد والسلاح، وليس السلامة والظفر في السلاح صفة نفس؛ لأنَّا نقول: لو لم يخلق القطع عند الضربة بالسيف؛ لم يقطع السيف بما هو سيف، ولو لم يخلق الموت عند وجود الجراح؛ لم يمت العدو، إذ قد وجدنا في العادة مجروحين يعيشون، ومضروبًا باللطمة يموت، وأخر يموت بغير ضرب؛ فصح أن الموت خلق لله لا بنفس الضرب.

وكذلك نجد سيفًا واحدًا يُضرب به في وقت فلا يقطع، ويُضرب به في وقت أخر فيقطع، فلو كان القطع له صفة نفس؛ لِمَا تبدلت في وقت دون وقت، ولو كان عدم القطع صفة نفس له لم يقطع به أبدًا؛ فصح أن القتل والقطع والوقاية خلق الله وفعل له.

وكذلك نقول في الضارب، فلا فعل لمخلوق ولا تأثير، وقد نجد الموضع المخوف يجوزه من لا عدة له؛ فيسلم، ويجوزه صاحب السلاح؛ فيهلك، وقد نجد الجماعة الواحدة تقاتل العدو؛ فيُقتل أصحاب السلاح لأجل محاربتهم، ويكون سلاحهم سبب هلاكهم، ويسلم مَن لا سلاح له لكونه غير مخوف، ويكون عدم سلاحه سبب سلامته.

وقد انعكست المنفعة مضرة، وضدها منفعة؛ وهذا جار أبدًا، فصح بالبرهان أن الله هو الذي يدفع الشر، ويقي كل ماهية من البأس، ويحفظ الذوات الممكنة كلها؛ فهو السلاح، وإخلاص الاعتماد عليه هو النجاح، ولا خير إلا منه وبه، ولا شر إلا له وعنه، فإليه يجب الاستناد والتضرع، وله يصح الدعاء والتضرع، وهو الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وغيره لا يجيب ولا يستجيب.

فإن قيل: قد نجد من يدعو ويسأل الحاجة؛ ولا تقضى ولم تظهر الإجابة؟

قلنا: الله قد وعد بالإجابة، ووعده حق، ولكن لم يعين الزمان، ولا عين الحاجة، وإنما وعد بالإجابة قطعًا، فإن لم تظهر إجابة الداعي في الوقت، فتظهر في زمان آخر، ويتأخر زمان الإجابة أو يتقدم، أو لم يكن الدعاء بإخلاص ويشوبه الشرك الخفي، أو الضعف في الإخلاص، واللبس في تحرير القصد، أو يكون العبد يسأل في حاجة يظن أنها منفعة له ونعمة، ويعلم الله منها ضد ذلك، فلو أجابه في تلك الحالة أوالحاجة بعينها لكانت عليه نقمةً وشرًا، فدفعها عنه، وأجابه بدعائه.

إذ الدعاء لله يستدعي خيره ونعمته وإحسانه، والعبد الحادث عاجز عن إدراك مصالحه وكشف عواقب الأمور، والقديم سبحانه الكريم العالم بالخيرات النافعة، لمَّا رأى عبده قد دعاه بالخير والإحسان، وعجز عن معرفة ما يصلح به من أنواع الخير؛ أجابه بالخير اللائق به، والنعمة النافعة له، وأرشده فيما عجز عنه، إذ لو أجابه بعين ما دعاه فيه، وهو يعلم أن

فيه مضرته؛ لم يكن محسنًا من حيث علم مسألته يدعوه في الخير والنعمة، ويجيبه بالسيئة والنقمة؛ وإنما إحسانه أن يختار له ما هو خير له ونعمة، ويرشد فيما عجز عنه إذ العبد الحادث عاجز من صفة نفسه.

ولذلك قال سيدنا ﷺ للشيخ أبي عبد الله الدلون ﷺ: (ادعُ ولا تعيّن مطلوبًا).

فإن قيل: ما الفائدة في الدعاء إذا لم يعين مطلوبه؟

قلنا: فائدته الإشعار بالاحتياج، والالتجاء إلى الله، والافتقار إليه حتى في العجز عن معرفة المصالح، وطلب الإرشاد لها منه، ويكون الدعاء هنا بمعنى الذكر والعبادة والدخول في العبودية المفتقرة من كل الجهات.

ولذلك قال رسول الله ﷺ مخبرًا عن الله إنه قال: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»(1).

وأيضًا النعم الفعلية لا ثبوت لها، ولا هي مطلوبة لذاتها عند السعداء، إذ لو قدرنا عبدًا منعمًا، وهو غافل عن الله، غائب عن مشاهدة المنعم في نعمه؛ لكانت النعمة عليه نقمة، إذ هو غير ذاكر ولا حامد للمنعم. وأدى ذلك إلى كفر النعم؛ والكافر بالنعم شقي ومحروم، وكذلك الغافل عن الله؛ فإذًا ذكر الله هو النعمة الكبرى، فإنه يصرف الذاكر إلى الله الذي يراد لذاته، وهو النعمة التي لا تقاس بالنعم، والذي إذا ظفر به ظفر بكل نعمة، ويستغني الذاكر بمشاهدته في مقام الإحسان، وبحضوره عنده كل نعمة، كما قال ﷺ «أظل عند ربي ويطعمني ويسقيني»(2).

---

(1) رواه الترمذي (184/5)، وابن أبي شيبة في المصنف (34/6)، والبيهقي في الشعب (413/1).

(2) رواه البخاري (2661/6)، والترمذي (148/3)، وأحمد (377/2) وبنحوه.

وذلك أنه ﷺ كان يواصل الصوم ويأمر أصحابه بالمواصلة ثم نهاهم عن الوصال، فلما رأوه يواصل قالوا: يا رسول الله، نهيتنا عن الوصال ونراك تواصل.

فقال ﷺ: «لست كأحدكم». وسمى بعضهم هذا المقام، أعني ترك الطعام والشراب مدة تزيد على مدة الصيام من غير فاصل مفطر مع اشتغال من هذه الحالة حالته بالله تعالى بأن يرجع إلى شهود الحق تعالى، ولا يلتفت إلى الأغيار أصلاً، وتكون التجليات القدسية واردة على قلبه بحيث لا يلتفت إلى ما سواها بمقام. وانظر: كشف الأسرار (ص 213) بتحقيقنا.

وقال سيدي محمد وفا في المعاريج: وأخبر ﷺ عن معراجٍ آخر روحاني، فقال لما سُئل عن نهيه عن الوصال، فقيل لَه:

«ألست تواصل يا رسول الله؟ فقال: إني لست كأحدكم – أو قال: كهيئتكم – إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني».

=

فإذا كان الذكر أكبر النعم كما ذكرنا؛ فالغفلة والذهول عن الله أكبر النقم، فإذا دعا العبد ربه فقد ألهم وأقيم في الذكر، ونبه عليه، ورفعت عنه الغيبة، والبُعد عن الله، وأقيم في الذكر والحضور والعبادة فقد أجابه من حيث رفع عنه ضر البُعد ومنعه الغفلة، وكفاه شر الشقاوة وأسبابها، وأنعم عليه بالحضور والمشاهدة والذكر والعلم بافتقاره إلى بارئه، وأحضره عنده مع الحاضرين السعداء، فقد أجاب الداعي قبل دعائه من حيث أعطاه الدعاء من حيث أسعده به، وأنعم عليه بجنته ومشاهدته؛ فكل داعٍ لله مجاب بالضرورة التي ذكرناها من دفع نقم الغفلة، وإعطاء نعم الحضور والذكر والمشاهدة، فاعلم ذلك.

وأيضًا الإخلاص(1): هو تحرير القصد، وتجريد الغرض لله تعالى كما تقدم رسمه، فإذا أخلص الإنسان قصده لله، بمعنى إنه أراده لذاته، وأحبه لجلاله وكماله، فلا يطلب منه النعم الفعلية؛ فإنها تشوب إخلاصه، وتبطل كونه مخلصًا؛ لأنه قد طلب منه أفعالاً، والأفعال غير الذات، ووقوع غير ذات المحبوب في قلب المحب إشابة واختلال في محبته.

وأخبر عن معراجٍ آخر، وهو المعراج الروحي السري فقال: «لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ».

وأخبر عن معراجه المحمدي ﷺ فقال: «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان».

فهذه المعاريج النورانية للنفس الزكية السنية البهية العروج في هذه الأطوار، فلكلٍّ منها قسم مقسوم، ونصيب معلوم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75].

وقال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105].

وهو: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 269].

(1) قال الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه: (من أخلص) أعماله وأصفاها من شائبة الرياء (تخلص) من الأهواء والبلاء، ويفوز في الآخرة بالنعماء، ومن أخلص معاملاته مع الحق من الخلق حتى من نفسه تخلص من ظلمة الأغيار، ويدخل في ضياء نوره، ومن أخلص قلبه عن السوى بدوام النظر إلى المولى تخلص عن الشرك الخفي والأخفى، فالأول للعوام، والثاني للخواص، والثالث لأخص الخواص، والكل ممدوح ومطلوب قال النبي ﷺ: «الإخلاص إيمان كله».

قال الشيخ قُدِّس سرُّه:

مَن عَامَلَ الحقَّ بالإخلاصِ قَد رَبِحَا ... وإن يَكُون فيه شرك فهو قد سَمَحَا

وانظر: شرح الحكم للباني (31) بتحقيقنا.

فإنا نقول: لو إن رجلاً ادعى محبة الملك لذاته وصفاته الذاتية له، وشغف قلبه بجماله وكماله، ثم طلب منه ألف دينار؛ لكان ذلك طعنًا فيما ادعاه، واختلالاً في محبته، إذ قد دخل في قلبه غير صفات الملك الذاتية، وطلب منه اللواحق الخارجة عن ماهيته؛ فإذًا الدعاء بالإخلاص لله هو تعلق الهمة والقصد والجملة بذاته والهيام بجلاله، وزوال الإضافة والفناء عن جمع المطالب ومحو الغيرية من قلب المخلص حتى يفنى عن وجوده، ويصير شاهده هو مشهوده، وعابده هو معبوده.

فهناك يذهب الإخلاص، ويلقي السلاح، ويناديه الكمال، ويستجيب في ماهيته، ويظهر عليه سراج، وتذهب الأضداد والأغيار، ولا يبقى خلاف يتحفظ منه، ولا عدو يقاتل بالسلاح، وهذا هو معنى قول سيدنا ﷺ: (والدعاء بالإخلاص سلاح).

وقوله ﷺ: (وإياك من الأمل المهدوم والعمل المعدوم).

الأمل: وهو تعلق الرجاء ببقاء الحال الحاصل من الخير المحصل، وباستدعاء مثله وأحسن منه، وانتظاره في الزمان المستقبل، كما نقول: نؤمل الآن البقاء في الدنيا وكسب الأموال فيها، أو نقول: الأمل: هو تعلق النفس بخيرٍ إمَّا حاصلاً تريد ثبوته، وإمَّا مفقودًا تريد تحصيله أو بمجموع ذلك، أو نقول: الأمل: تعلق النفس بحفظ الملكة أو بنيلها.

والمهدوم: هو الشيء المُنحل بعد تركيبه، والمفسود بعد كونه، وبالجملة المبني: هو الجسم المركب، والمهدوم: هو الجسم المُنحل بعد تركيبه.

وقد نقول: المهدوم: هو الشيء الذي تفرق اتصاله، وانفصلت جواهره بعضها من بعض، فاعلم ذلك.

والمعدوم: هو المنتفي كما ذكره سيدنا ﷺ في «الرسالة الفقيرية».

وقد نقول: المعدوم ما ذهب بعد إثباته، كما تقول: فلان معدوم إذا مات وانقرض، بالجملة، المعدوم ما ليس بموجود كما رسمه سيدنا ﷺ في «الفقيرية».

ولمَّا كان الأمل هو تعلق النفس بخبرها، والخبر ينقسم إلى محمود ومذموم، فالمحمود منه هو الثابت الذي لا انقطاع له، وهو الجليل المعتبر بصفات الكمال، والمذموم هو الذاهب المنقطع، وهو الخسيس المشار إليه بالنقص والرذالة؛ قيد اللفظ بقوله: (المهدوم).

ولمَّا كان العمل يتعلق بمكاسب ذاتية وعرضية؛ قيد بقوله: (المعدوم)، وذلك الأمل ينقسم بحسب متعلقه، وهو واحد في التعلق؛ فإن الأمل هو الإرادة والرجاء، والإرادة والرجاء قد تتعلق بالدنيا ومكاسبها، وتتعلق بالآخرة؛ ولذلك خصص اللفظ العام وقيده؛ لأنه لو قال: (وإياك من الأمل)، وسكت عند ذلك؛ كان يلزم التحذير عن الأمل في الله

وفي الجنة.

ولو أطلقه أيضًا ويأمر به مطلقًا؛ كان يلزم التحريض عن الدنيا والأمر بها، وهو لا يجوز، واحتاج إن قيد اللفظ المطلق، فإن قوله: (وإياك من الأمل) هو نهي مطلق، فلما قال: المهدوم، وقع النهي عن الدنيا، وبقي الأمل متعلقًا بالله وبالدار الآخرة، ثابتًا على أصله، وذلك أن الأمل المهدوم هو تعلق الإرادة بالأمور الذاهبة المختلّة، وهي الدنيا ولواحقها.

ويُسمَّى الأمل مهدومًا لأجل ما هو متعلقه مهدوم وذاهب، وهذا من قبيل الشيء الذي يُسمَّى باسم متعلقه، كما تقول: همة خسيسة إذا كان متعلقها خسيسًا.

ولما كانت الدنيا سريعة الانتقال، وقليلة الثبوت، ولذاتها تكون في وقتٍ دون وقتٍ، وما من لذةٍ تتصور فيها، ولا خير ينتشي ويتركب، ويوجد في ساعةٍ من الزمان إلا ويتحلل في الثاني، ويذهب ما ثبت منها، وينعدم ما بقي فيها، مثل لذة الجماع إنما هي زمان فرد ويدخله الألم؛ لأنه لذيذ وجيع، وكذلك الأكل وخيره، إنما هو في زمان مناولته فقط، وفي عقبه تذهب تلك اللذة، ويبقى الخبر يتلذذ بما يستقبل من مثله في وقتٍ آخر، وهذا خبرٌ وهميٌّ، فإنه يتلذذ بشيءٍ غير موجودٍ في الحال، وقد يُحال بينه وبين ما أمله من ذلك، ويأتيه ضده، ويسلب عنه هو، إما المرض أو بالقلة أو بالموت، وكذلك القول في اللباس يفنى مركبه، ويبلى جديده.

وبالجملة: نقمتها أكثر من نعمتها، وقبضها أكثر من بسطها، وتنقطع بالموت، ويذهب وجودها بالجملة، فهي معدومة بالضرورة، والأمل المتعلق بها مهدوم، والعاقل لا يتعلق بخيرٍ يعلم أنه يفقده، وينفصل عنه بالضرورة.

فنقول: الأمل المهدوم هو المتعلق بتدبير الجسم؛ لأن الجسم مركب من أضداد، ومن بسائط، وكل مركبٍ من أشياء كثيرة ينحل إليها، والجسم مركب من أشياء، فهو ينحل إليها، والانحلال هو الهدم، والمنحل هو المهدوم، والجسم منحل، فهو مهدوم، والأمل المتعلق بالمهدوم مهدوم، وبناء الجسم معلوم عادةً وطبيعةً وشرعًا، أما عادةً فظاهر لنا؛ لأنا وجدنا الأجسام تنحل وتذهب، وأما طبيعةً فهو ما ذ كرنا من انحلال المركب من البسائط التي تركب منها، وأما شرعًا فقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26].

وقال في النفوس المدبرة للأجسام: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185]، وفي النفوس المتوجهة لله، الساعية في مرضاته: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء﴾ [آل عمراتن: 169].

والحكماء الإلهيون يقولون: إن النفس المدبرة للجسم هي النفس الحياتية، وهي فانية بإجماعٍ لفناء مركبها، والنفس المستقيمة عندهم على التوجه، وطلب الحكمة، والبحث عن المعارف والمحبة للباري تعالى، وطالبة القرب منه هي النفس الناطقة، وهي باقية أبدًا بإجماعٍ منهم، والذي اختلف في بقائها رجع عن قوله وقال ببقائها.

فإذًا التعلق والأمر المدبر للجسم هو النفس الحيوانية أو خبرها، والأمل المتوجه لله ولمعرفته هو خبر النفس الناطقة، ومتعلق النفس الحيوانية هو الجسم ولذاته، ومتعلق النفس الناطقة ومحبوبها هو الحق، والجسم مهدوم ومضمحل. فأمل النفس الحيوانية مهدوم ومنحل، وأملها هو جوهرها، فجوهرها مهدوم.

وأمل النفس الناطقة هو الله، ومعرفته ومحبته والنظر إليه، ومعرفته ومحبته والنظر إليه هو جوهرها، والحق دائم لا يزول، فالنظر إليه دائمًا لا يزول، فالمتعلق بالله ثابت، والمتعلق بالجسم ذاهب، والذاهب مهدوم، والثابت لا يهدم أبدًا، وهذا وإن كان يحتاج إلى مقدمات وإقامة برهان على أن جوهر النفس الناطقة هو النظر إلى الحق، وأن المدبر للجسم هو النفس الحيوانية فإنه يحتاج إلى تطويلٍ، ولا حاجة بنا إليه في هذا الكتاب، ولكن هو مذكور في كتب القوم، ومقدماته عليه صادقة، وقد ذكره سيدنا ﷺ في «بد العارف»، وفي «مسائل صاحب صقلية»، فانظره هناك، أو اسألني عنه مشافهةً، أو اقنع فيه بالآيتين المتقدمتين في النفس التي لا تموت، وفي النفس التي تذوق الموت وركب عليهما معقول ما ذكرناه، وتفهمه إن شاء الله، ويكفيك فيه علمك بأن الجسم فانٍ كما ذكرناه، ولذاته تفنى بفنائه، وإن الحق باقٍ، واللذة بمعرفته ومحبته تبقى ببقاء متعلقها، فاعلم ذلك. ونقول: النعيم عرض، والعرض إلى ضد ومثل وغير وخلاف، ونعيم الدنيا تخلق أضداده وأغياره، والشيء يذهب بضده ويزول بغيره، وكل ذاهبٍ مهدوم، فنعيم الدنيا مهدوم، ونعيم الآخرة تخلق أمثلته، والموجود في المثل هو الموجود في مثله، فهو دائمٌ أبدًا، وما هو دائمٌ فليس بمهدومٍ.

ونقول: العالم بأسره ممكن الوجود، والممكن الوجود لا فعل له، ولا تصريف له، والواجب الوجود له الفعل والتصريف.

والأمل ينقسم إلى قسمين: أملٌ يتعلَّق بالعالم، وأملٌ يتعلَّق بالله، فالأمل المتعلق بالعالم لا يحصل له مأمول؛ إذ العالم لا يفعل، فهو أملٌ مهدومٌ من حيث أن حقيقة تركيب الأمل هـــو نيل مطلوبه، فإذا لم ينل مطلوبًا لا تركيب له، فهو مهدومٌ، والأمل المتعلق بالله ينال مطلـــوبه؛ لأن الله هـــو الفاعل المتصرف، فالأمل المتعلق به غير مهدومٍ. ونقول: العالم

الممكـــن لا وجـــود لـــه مـــن نفسه، ووجوده بالله وعنه وعنده، فهو ينحل إلى فاعله بالاستحقاق، وما هو منحلٌ إلى شيء فهو مهدومٌ.

والأمل خبر عن موجود يعتمد عليه، والعالم مهدوم كما ذكرنا، فالخبر المعتمد عليه مهدوم، والحق موجود ثابت بنفسه لا يتبدَّل، والخبر المعتمد عليه متعلقه لا يتبدل، فالمتعلق لا يتبدَّل، وأيضًا الوجود هو واحد، وهو الله، وهو الوجود المطلق، والعالم لا وجود له إلا به وفيه كما تقدَّم، فالعالم قضايا تتماثل في الوجود المطلق، وهي زائلة في أنفسها ثابتة به، فهي أمثلة ومراتب فيه لا تغايره.

فالخبر المتعلق بها أمل مهدوم؛ لأن الوجود يزيلها ويأخذها استحقاقًا، وكل زائلٍ مهدوم، والخبر المتعلق بالمهدوم مهدوم، والوجود المطلق هو الوجود حقيقةً، والمراتب لا تخبر عن أنفسها ولا عنه؛ إذ لا وجود لها في أنفسها، ومن لا وجود له لا يأمل ولا يخبر، فإذًا لا خبر ولا أمل إلا في خبر الذي يشعر بالإضافة كلها كذب وخرافة، فلا أمل ولا مأمول في الوجود حقيقة، فقد ذهب الأمل، وثبت الحق الذي لم يزل، فالأمل كله الخسيس منه والرئيس معدومٌ في الحقيقة، وذاهب لا وجود له، ومن لا وجود له فهو معدوم، بل معدوم لعينه، وهذا هو معنى قول سيدنا ﷺ: (وإياك من الأمل المهدوم).

وهذه الألف واللام تأخذ في التفسير الأول لتبيين الجنس، وفي هذا الآخر للعبد، وفي البداية والسلوك خرج عن الأمل مقيدًا، وفي هذا الموطن أخرج عنه مطلقًا، بل لا تجده من نفس هذا المقام، وهذا هو معنى قول سيدنا ﷺ: (أنعم علي بخير يقطع الأمل)؛ لكونه الجامع المانع.

وهذه الكلمة مذكورة في «وحي الاستخارة»، تثبته الإضافة والوهم، ويذهبه التحقيق والفهم، فافهم ذلك.

وكذلك القول في العمل المعدوم،فإن العمل هو تصريف النفس بالآلات الجسمانية والروحانية للكسب والتحصيل، والكسب هو تحصيل الخيرات المحبوبة للنفس، كما كسبت مائة دينار، وكسبت علم الأصول علم وما أشبه ذلك.

ولما كانت الدنيا بالعمل والخدمة مثل الصنائع والتجارات وما أشبه ذلك، والدنيا معدومة وذاهبة كما تقدم، فالعمل لها وفيها معدوم، ولما كان العمل ينقسم الى عملٍ يحمل على السعادة الكمال والرفعة، وعمل تحصيل به الدنيا ومرابتها، والسعادة والكمال باقية وثابتة، والدنيا ولواحقها ذاهبة ومعدومة، أطلق القول في الأول بقوله: «وإياك من العمل»، وقيَّده بقوله: المعدوم؛ لأن العمل لا فائدة له إلا تحصيل المطلوب المعمول

عليه، والعمل للدنيا والآخرة والدنيا معدومة، فالعمل لتحصيلها معدوم، والآخرة ثابتة وباقية، فالعمل للآخرة موجود ثابت وباقٍ أبدًا، فنهاك عن المعدوم، وبقي الموجود على أصله.

فنقول: العمل هو الحركة في تدبير الجسم، والجسم معدوم بالطبع كما تقدَّم، فالعمل في تدبيره معدوم.

ونقول: العمل ينقسم إلى عملٍ يستجلب به شهوات النفس الحيوانية، وعمل يحصل به كمال النفس الناطقة، والنفس الحيوانية معدومة، فالعمل لشهواتها معدوم، والنفس الناطقة باقية، فالعمل لكمالها باقٍ أبدًا.

وأيضًا: العمل ينقسم إلى صالحٍ وغير صالحٍ، والعمل الصالح من أخلاق الله، والغير الصالح من أخلاق الشيطان، يؤدي إلى الخسر والشقاوة.

والعمل الغير الصالح يؤدي إلى الخسر، فهو معدوم من حيث أن لا منفعة فيه، ومعدوم من حيث أنه يقطع عن الله، والله هو الوجود حقيقة، والمقطوع عنه معدوم.

وأخلاق الله صفات لا تفارقه، فالعمل الصالح لا يفارقه؛ لأنَّا نقول: العمل الصالح أخلاق الله وصفاته، وأخلاق الله وصفاته لا تفارقه، فالعمل الصالح لا يفارقه، فهو موجود أبدًا، وأيضًا العمل يطلب به تحصيل الخير النافع، والخير موجود ومطلوب يُشار إليه، والموجود ينقسم إلى واجب الوجود، وممكن الوجود، فالواجب الوجود هو الله، وهو الذي قام بنفسه وقام به غيره، والممكن الوجود هو العالم، وهو الذي لم يقم بنفسه، ولم يقم به شيءٌ، والعمل طلب منه ما يتعلق بالممكن، ومنه ما يتعلق بالواجب، والممكن إذا طلب منه الخير لا يعطيه ولا يقدر عليه؛ إذ ليس هو قائم بنفسه.

فالعمل الذي يطلب به الخير من الوجود الممكن معدوم؛ إذ لا خير له، والعمل الذي يتعلق بالواجب يحصل به الخير؛ إذ الواجب الوجود هو المفيض للخيرات، ومعطيها على الإطلاق، فالتوجه للعالم عمل معدوم، والتوجه لله عمل موجود، وأيضًا الله مقوم كل موجودٍ ممكن ومتممه، فهو ماهية كل ماهية ممكنة ومستحقها، فهو ماهية الطالب والمطلوب، والخير الموجود في الماهية المطلوبة هو بعينه الموجود في الماهية الطالبة؛ إذ هو الوجود في كل موجودٍ، والوجود لا يختلف بما هو موجود، فهو واحد في كل ماهيةٍ، والخير المطلوب في مظهر ما هو الموجود بذاته في الطالب، فالخير إذًا حصل، والطلب وهم، والطلب هو العمل، فالعمل وهم ومعدوم في الحقيقة على الإطلاق؛ لأنَّا نقول: العمل يطلب به الخير، والخير هو الله، وذاته هي الخير المحض، والله هو وجود كل موجود

مما هو موجود، فهو حاصل في كل ماهية، والحاصل لا يبتغى، والراغب يرضى، والجاحد لا يسيء، والطالب لا يلقى، والباطل لا يبقى، والراكب لا يشقى، والأوج لا يرقى، فحط واقلع، واهرب واجمع، وواصل واقطع، يصح لك ذلك إن أرادك لذلك.

قوله ﷺ: «ومن الأمور التي تفسر حكمة العادة وأصول السعادة».

العادة هي ارتباط موجود بموجود من غير قضية شرعية لا عقلية، والحكمة العلم والعدل ووضع شيء في محله، والحد الأول ذكره سيدنا ﷺ في «الرسالة الرضوانية»، وحد الحكمة ذكره في «الإصبعية» وغيرها.

والأصول: جمع أصل، والأصل: ما ثبت حكمه بنفسه، والفرع ما ثبت حكمه بغيره.

وقد نقول: الأصل هو ما لا يكون محمولاً على غيره، كما أن الفرع هو المحمول على الأصل، وهي السعادة المذكورة، فإنه ذكر الأصول إليها السعادة، فالسعادة فرع محمول على أصول يأتي ذكرها إن شاء تعالى.

والسعادة هي تحصيل المطلوب المعمول عليه، أو هي اللذة الدائمة الثابتة، أو هي كمال الإنسان.

وأما قوله: (الأمور التي تفسد حكمة العادة).

فهي الكسل عن التوجه، والغفلة والملل، واتباع الهوى، ونيل الشهوات الحيوانية والجهل، فهذه من الأمور التي تفسد حكمة العادة، وهي مما ذكرها هو في بعض الوصايا، وإضافة الحكمة للعادة أراد بها التي تخرق بها، وتقطع إذا قدر على قطعها، وإلا تضعف بالحكمة شيئًا شيئًا حتى تقطع لا أنها تقوى وتزيد؛ لأن قوله: «حكمة العادة»، يحتمل أن تقوى بها العادة، أو تضعف وتقطع، فلما علمنا أن العادة من القواطع المهلكة والحجب صحَّ عندنا أن السعادة لا تنال إلا بخرقها، وعلمنا أن مراده الحكمة التي تخرق العادة وتمحلها، وهو قد ذمها في كتبٍ كثيرةٍ بقوله: «العادة مهلكة»، وقوله: «خوف ما بعد العادة حرمان»، فصحَّ أن مراده ضعف العادة وقطعها وزوالها، والحكمة التي تفارقها وتخرقها هي الشرعية؛ لأن العادة هي الاستناد إلى المأمون، والوقوف عنده، والميل للروابط، والشرعية تفسد ذلك من صفة نفسها؛ لأن أول وظيفة من الشرعية كلمة «لا إله إلا الله»، وفي ضمنها أن لا فاعل إلا الله. والعادة: ارتباط موجود بموجود، كارتباط الزرع بالمطر، والري بالماء. وكلمة: (لا فاعل إلا الله) أفسدت ذلك، فلا الخبز يشبع، ولا الماء يروي، ولا المطر ينبت الزرع، ولا الأب عادة ذاتية في وجود الولد، ولا شيء يفعل شيئًا من الأشياء المتماثلة، فإذًا العلم كله قضايا مفردة متماثلة في الحدوث والافتقار، ولا ينفع

بعضها بعضًا، ولا يضر بعضها ولا ينفعه، فقد انخرقت العادة بأول وظيفة من وظائف الشرع؛ لأن العادة توهم أن الأشياء بعضها من بعضٍ، ومفتقرة بعضها إلى بعضٍ، وعلل بعضها في بعضٍ، و(لا فاعل إلا الله) أزال ذلك كله، وجذب الروابط، وصرف الموجودات كلها إلى الله صرفًا واحدًا، وتضمن أن الحادث من كل الجهات لا يكون مستقلاً بوقتٍ ولا في وقتٍ من الأوقات، فصحَّ أن الحادث كله لا يفارق فاعله، وأن الفاعل له هو صورته المقومة والمتممة، فهو إذًا ماهية، فصح من ذلك أن الله هو ماهية كل موجودٍ وبده، فإذا كان ذلك فلا وجود إذًا لغير معه ولا ماهية، فقد أعطت كلمة: «لا اله إلا الله» أن لا موجود إلا الله في النظرة الثالثة،كما أعطت في الأولى أن لا فاعل إلا الله.

فإذًا العادة هي خبر الضمير عن القضايا، وربط إلى بعضٍ في الذهن، ولا ارتباط بينهما في أنفسها، ولا اختلاف بينها في الوجود.

فالعادة خبر في الضمير لا غير، ويمنع الضمير عن ملاحظة الوحدة الوجودية، ودفع الأغيار، ولأن ملاحظة الوحدة هو الكمال والسعادة الأبدية، والعادة تمنع ذلك فتمنع السعادة والكمال، والشريعة تخرق العادة وتزيلها، فالشريعة تفيد السعادة والكمال والرفعة والبقاء الدائم ومشاهدة الصمدية. فالشريعة هي الحكمة التي بها تزال العادة وتُنال السعادة.

وكذلك القول في الصلاة؛ فإن الصلاة تزيل النفس عن شهواتها، وتخرجها عن اختياراتها، وتمحو أخبارها، وتصرف الذوات إلى مناجاة الله تعالى، والحضور بين يديه ومشاهدته في مقام الإحسان؛ لأن العبد المؤمن قد استقرَّ في إيمانه أن الله هو فاعل كل شيءٍ وخالقه، والمحسن للأشياء على الإطلاق، وأن الطائع له يحمله إلى جنته ورضوانه، وأنه هو المولى الذي تجب طاعته وعادته، فإذا قام إلى الصلاة علم أن الله قد ألهمه ونبهه، وإذا صلَّى علم أن الله قد أقامه فيها، وأعانه عليها، ورحمه بها، فعلم أن الصلاة نعمة من الله منحه إياها، ونعمته لا تفارق يده، وأنه معها بالإيجاد والخلق، فشاهد الحق بالحق، وارتفع عنه وهم الإضافة، ووهم نفسه من حيث رأى المصلى له هو المصلي، وأن شهوده هو الشاهد والشهادة معًا.

وهذا هو معنى قول النبي ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه[1]» الحديث، فقد انخرقت

(1) رواه البخاري (27/1)، ومسلم (37/1).

العادة في الصلاة، بل ذهبت وزالت[1].

(1) قال سيدي محمد وفا في المعاريج: وأما صلاة الروح فهو أن تضم لما وصفناه من صلوات الحقائق الثلاث. وهم: القلب، والصدر، والنفس، خارجًا عن صلاة الجسم؛ فإن صلاة الجسم مشهودة للأبصار بخلاف الحقائق الثلاث، فصلاة الروح انضمام الفرح والسرور بقدوم أوقات أداء الفرائض؛ إذ هي أوقات التجليات والتنــزلات، وإعلان الداعي بالبشرى، والتهيؤ للحضور للمخاطبات والمكالمات والمناجاة، والتفكُّر بعد التدبُّر في أسرار الآيات المنــزلات، والتسوية والتعديل لنفحة الرحمانيات، والخروج من حصر التعلقات بنيل الجزاء والثواب، وحلول الدرجات، وتلقّي الإفاضات الرحموتيات بلطائف العلوم الكشفيات، والفهوم الغيبيات، والتنعُّم في رياض الجنات، فيلبس حللاً رضوانيات، ويرقى معاريجًا قدسيات، ويتوَّج تيجانًا ربانيات، ويحل بمقعد الصدق، ويشرف بمكالمة الحق، ويشهد جمال حضرة الربوبية، ويتمحَّض بصفة العبودية، فكلما تلا في صلاته آية وتفكَّر فيها وتفهَّم معانيها عرج روحه النوراني إلى أفقٍ أعلى، ومقامٍ أسنى، ومشهدٍ أضوا، ومقعد صدق أزكى وأبهى، فيرى في معراجه ذلك أنه بلغ سدرة المنتهى، وألا مقام أعلى من ذلك الأفق الأعلى، فعند انتهائه في نظره وبلوغه في استيفاء رزقه في مرامي فكره تنفهق عليه أنوار الآية التي تلي الآية التي قرأها، وتفكر فيها وتبحَّرها، فيرى ما لم يكن رأى، ويشهد ما لم يكن لَه بمرأى، فيرجع ببصر بصيرته خاسئًا حاسرًا، فعند رجوع بصره كرة ثانية يكشف لَه عن سر معراج الآية الثالثة، فيشهد من انفهاق الأنوار الرحموتية، والأسرار الرهبوتية، ما لم يكن في وسع الصفة البشرية حمل جزئه فضلاً عن كله، فيفجأ نظره انفهاق الأنوار، ولطائف الأسرار، فيستغفر الله ﷻ مما كان وقف عند ظنه، وبلغ حده فهمه ووهمه، ووقر في باطنه أنه الغاية القصوى في ذلك المقام، والنهاية في دار السلام، ومحل الأمان والإكرام، فإذا استغرق المصلي في حقيقة هذه الصلاة الروحانية كملت صلاته الروحية، وفاضت عليه أنوار المقامات الصديقية، وهو مقام الإحسان، فعند ذلك ينتهي في معراجه الروحاني، ومنتهى مقامه الرضواني.

وأما صلاة السر فهي أن تضم لما وصفناه من صلوات العوالم الطورية، واللطائف الظهارية والبطانية دوام المراقبة والحضور للمشاهدة والمخاطبة، فلا تلحقه غفلة، ولا تمسه لفتة، ولا يتعلّق بعلاقة روحانية، ولا ملكوتية، ولا جبروتية، ولا نفسانية، ولا جسمانية، فيكون دائمًا على صلاته، ذاكرًا لله ﷻ في خلواته وجلواته، قائمًا بمأموراته ومنهياته، مستغرقًا في فكر آلائه ونعمائه، حامدًا لله تعالى بجميع محامده ومبتغياته، طالبًا منه نوال عطائه وإفضاله، وتنــزلات إفاضات رحموتياته، طالبًا للفتح المبين في فهم أسرار آياته، مشاهدًا تصاريف القدرة الربّانية في براياه ومخلوقاته، مستغرقًا في فهم أسرار ملكوتياته وروحانياته، كاشفًا نــزل الأعمال على لطائف جوارح العباد، وعجائب صنعته في مبتدعاته، ملاحظًا تصريف المشيئة الربّانية في اللطائف السمائية، والحقائق النورانية، وتنــزل الأملاك العلوية النورية بإرسال الغيث بالقطر النازل، وافتراق قطراته، وحكمة الحق تبارك وتعالى في إحياء الأرض الميتة بوروده في وقت الحاجة، وكفه عند الاستغناء عنه، وإرسال الرياح بين يديه مبشرات بتنــزل الغيث، وسوق الماء

في البحار والأنهار إلى الأرض الجرز، وما تخرجه من النبات والأقوات، والفواكه المختلفة الطعوم والألوان، وما تشتمل عليه من النفع والضر للحيوان والإنسان، وما يكون منها غذاء لأهل الجنان ولأهل النيران، وما لا يدخل تحت حصر حيطة علم إنسان، ولا ملك ولا جان، ولا يطيق حمل معرفته الثقلان، فسبحان الملك العظيم الشأن، فإذا صلى السر هذه الصلاة الطورية، وقام بها في السرية والجهرية نال مقام العرفان، وشهد محل الرضوان، وكان للأنبياء والرُسل من خواص الأتباع المحبين الإخوان، تلو العلماء المصطفين من عباد الله المتقين.

فهذه لطيفة من أبعاض صلاة الأسرار، فمن صلَّى سره هذه الصلاة المرضية، وقام بحقيقة هذه الأوصاف السنية، وبلغ بفهمه الثاقب، ودركه الصائب، ونوره الساطع، وحسامه القاطع إلى أفق هذا المقام العلي، وسنا برقه البهي، فوقف على باب الرحمة طالبًا إفاضات الفضل الإلهي، والرحمة الربَّانية، سائلاً ربه العفو والغفران، والإعانة على الخروج عن التعلُّق بحبال الجزاء والثواب، والالتفات لنعيم الجنان ودار الرضوان، فإذا تأدَّت هذه الصلاة بكمالها من أقوالها وأفعالها وأحوالها انثالت عليه إضاءات الأنوار الرحمانية البطانية للطور السابع، بعد ختم صلوات العوالم الست، فيبدأ العالم السابع بإتيان صلاته وتمحضه بالخروج عن مقاماته وغاياته، فيرقى في معاريجه الإخفائية، والأفئدة الاصطفائية الاختصاصية، بريئًا من حوله وقوته، مجردًا من أثواب أنيته، ممحوًّا رسمه واسمه بين العالمين، حاضرًا بحقيقة الافتقار لأرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين، متابعًا للقدم النبوي المحمدي، موافقًا مرافقًا للطيف الأحمدي، عار من كسوة الأغيار، لابسًا حلل الأنوار، غريقًا في بحر الوحدانية، مستهلكًا في زمان الفردانية، معدومًا للأكوان، مشهودًا للرحمن، مسوًّى معدلاً لقبول فيض التنـــزلات الربَّانية، والانفهاقات الرحمانية، ثابتًا تحت أحكام الأقدار، فقيرًا من جميع الأغيار، حاضرًا بالله مع الله، شاهدًا لله بالله، سامعًا كلام الله بالله، تاليًا للقرآن بالله، عالمًا بالله، كاشفًا بالله، ذاكرًا لله بالله، مصطلمًا في نور الله، آخذًا بكله كلا من الله، فلا يرى سوى الله، ولا يفوه إلا بالله، ولا يشهد في الكون إلا الله، ولا يرى ضرًّا ونفعًا إلا من الله، ولا قبضًا وبسطًا إلا من الله، ولا ظهورًا وبطونًا إلا لله، ففي صحوه يشهد الله وهو بمقام العبودية، واضعًا قدمه على أثر القدم المحمدي، والنعت الأحمدي، سامعًا كلام الربوبية بحقيقة العبدانية، فَأَرَتْهُ كلامها الرباني، وتنـــزلها الرحماني بالأفق الأعلى.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: 11]، فهو محل لتنـــزل العلم اللدني، وإلقاء النور الروحي في غاية من الكمال والتمام بالاتصاف بحقيقة الفقر لذي الجلال والإكرام، فأخذه من الله تبارك وتعالى عطاؤه ونواله سرمدي بغير انقضاءٍ ولا انقطاع، ولا حقيقة وصف وامتناع، فصلاته دائمة سرمدية أبدية أمدية، نظر إلى حقيقة أوصافه النورانية، ووجهه وجهة ظهارية لباطنية، وكشفية لغيبية، وتنـــزلية لعلمية، وسرمدية لأزلية، سامعه لما قيل للنبي الكريم داود عليه البركات والتسليم من الرب الكريم: «يا داود أنا بُدُّكَ اللازِم، فليس لك مني بُد، فإن حصلت لك حصل لك كل شيءٍ، وإن فتك فاتك كل شيءٍ».

فهذه صلاة الموحدين المخلصين لرب العالمين، رضوان الله عليهم أجمعين، فهذه صلوات الأطوار

البطانية والظهارية، والحقائق الجسمانية والروحانية، والجبروتية، والملكوتية، والنفسانية، والنورانية، وهي أوصاف القيام بحقائق الصلوات التي وُصف أهلها بالدوام؛ لدوام المداومة عليها، والمحافظة عليها.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 23]، فدوام صلوات المداومين بدوام ديمومية الدائم، فدوامهم بالله، وصلواتهم لله بالله، وتقربهم إلى الله بالله، ثمرة القيام بامتثال أوامر الله، والخلوص عما سِوى الله، والسماع من الله، والمشاهدة لله، والحضور مع الله، وملاحظة الأنفاس والخطرات حذرًا من لفتة لغير الله، فهو في معراجه آخذًا من الله فيض الله، وتنـــزل رحمة الله، وأفعال كرائم الله، ومواهب الله، وعطايا الله، فتوجهه إقبال معراجي، ورجوعه إفضال نوالي، فهو خالعٌ ما أفاض الله تبارك وتعالى عليه من حلل الإنعام والإفضال والإكرام على عباد الله، كاسيهم أثواب رحمة الله، متوّجهم بتيجان الكرائم، مزينهم بأثواب المرحمة، وجزيل الغنائم، فهو في عوالمه السمائية نور إفاضي بسطي، وفي عوالمه الأرضية لطيف روحاني، وهيكل جسماني، فيتصرف النفس في سائر عوالمه الأرضية والسمائية، أعني النفس النقي الزكي التقي الصفي الوفي النوري البهي، ويرتقي في المقامات القدسية، والدرجات النورية، فمن غلبت عليه الصفات الإبراهيمية أتى بصلاة الجسم والنفس والصدر، فكان مسلمًا، ومن غلبت عليه الصفات الموسوية أتى بصلاة القلب، فكان مؤمنًا، ومن غلبت عليه الصفات العيسوية أتى بصفات الروح فكان عيسويًا، ومن غلبت عليه الصفات المحمدية أتى بصلاة السر مع الصلوات المذكورة فكان محمديًا، ومن شملته العناية الاصطفائية والملائكة الاختصاصية جمعت لَه صلوات لطائفه الطورية، التي وصفناها في ضمن صلاة حقيقة الإخفائية الروحية السرية التوحيدية، فكانت صلاته صلاة واحدة، فكان محمديًا أحمديًا عبدانيًا ربانيًا، فإذا صلّى صلاةً واحدةً، أو سبَّح تسبيحةً واحدةً، أو قال: لا إله إلا الله، مرةً واحدةً، أو ذكر الله ﷻ بذكرٍ من أذكاره دفعةً واحدةً، صلّى بصلاته، وسبَّح بتسبيحه، وذكر بذكره جميع عوالمه وأطواره من الأرضيات والسمائيات، والنوريات، والحجابيات، والملكيات، والملكوتيات، والجبروتيات، والروحانيات، تفضُّلاً وتكرُّمًا من ربِّ الأرضين والسموات، فهذه صلاة من تحقق في أوصافه المحمدية، واتَّصف بنعوت الأحمدية، فكان من الموحدين المقرَّبين، المخصوصين بالمحبَّة من أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، مع أن الصلوات التي وصفناها قد يأتي العبد بمجموعها، وقد يأتي بصلاة بعض أطواره دون بعضٍ، فيتعذر جمع المجموع فيهن على من لم يتصف بحقيقة التوحيد، فإن الموحد المحمدي الكامل ممكن في مقاماته بما خصَّه من الميراث النبوي المحمدي، فيتصرَّف في عوالمه كيف شاء وحيث شاء، فيشهد الأكوان المفترقة كونًا واحدًا، وتجمع لَه المفترقات في حقيقةٍ واحدةٍ، فهو بين صحوٍ ومحوٍ، ففي صحوه ينظر ويسمع، ويتصرف في الأكوان بنور، وفي محوه وفنائه عن نفسه وعدمه لرمسه ينظر بالله، وينطق بالله، ويتصرف بالله، فصلاته لله بالله، وذكره لله بالله، وسماعه لله بالله، فهو لا يتصرَّف إلا بالله، ولا ينطق إلا بالله، ولا يسمع إلا بالله من الله، فهو غريقٌ في بحرٍ كان معدوم بين الأكوان.

فالشريعة هي الحكمة التي تذهب العادة، وتفيد السعادة؛ لأنَّا نقول: الله هو الخير الذي يُراد لذاته، والسعادة هي نيل الخير وتحصيله، والشريعة تحمل إلى الله كما تبين في الكلام على الشهادة والصلاة، فالشريعة تحمل إلى السعادة.

وتقول: الله هو الموجود الحق، وهو مطلوب السعداء، وبمعرفته ومشاهدته تُنال السعادة والشقاوة في البعد عنه والجهل به، والعادة هي تحجب عن الله، والحجاب هو البُعد والشقاوة، فالعادة أصل البُعد والشقاوة، فخرقها وإزالتها القرب والسعادة.

والشريعة تخرقها وتزيلها، فالشريعة أصل السعادة؛ لأنَّا نقول: البعد عن الله بوهم العادة، والشريعة تزيل ذلك الوهم، فالشريعة تزيل البعد، والبعد ضد القرب.

فزوال البعد نيل القرب، فالشريعة تفيد القرب من الله. والقرب منه هو الكمال والنعيم الدائم، والكمال والنعيم الدائم هو السعادة. فالشريعة تفيد السعادة، وبها هو وهو بها، وهي شرط في نيلها، وما هو شرط في وجود الشيء فهو أصله، فالشريعة أصل السعادة.

والكلام في باقي الدعائم، وكونها تخرق العادة مثل الكلام على الكلمة، والصلاة وإن اختلفت أحوالها بالكيف، فهي تتفق بالمعنى والانفعال من حيث تزيل العوائد، وتحمل إلى الله، وذكرت لك البعض منها؛ لكي يفيدك الأنموذج، وتستدل بالنوع على جنسه، وبالمثل على مثله، والكلام على الدعائم الخمس، وتبيين معنى كل دعيمة قد ذكرته في كتاب «الأنوار» فانظره هناك، فقد تبيَّن لك أن الحكمة التي تزيل العادة وتفيد السعادة

فهو ممن نبَّه رسول الله ﷺ على أنه مقرَّب بقوله:

«ولا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، وقدمه الذي يسعى به..» إلى آخر الحديث.

فالمصلِّي بكليته يصلي بصلاته جميع العوالم، والمتمكن يصلِّي بجمعيته إذا شاء، وبتفرقته إذا شاء، وببعض أطواره إذا شاء، وبظاهره دون باطنه إذا شاء، وبباطنه دون ظاهره إذا شاء، والمتلون لا يقدر على جميع الصلوات في الصلاة الشرعية، وإنما يأتي بما يستطيع منها، ولم يكلفه الشارع القيام بحقيقة الجمع فيهن؛ إذ لا قدرة لَه على ذلك، أعني غير الممكن، فقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمرٍ فائتوا منه ما استطعتم».

فالمتلون ضعف عن القيام بما يقوم به المتمكن؛ لقوة المتمكن، فالخطاب للقوي المتمكن من الله ﷻ أمره لَه بالإخلاص، وحقيقة الإخلاص الخلوص من الشرك الخفي والجلي، قليله وكثيره.

هي الشريعة، والأمور التي تفسدها هي الشهوات الحيوانية، ونيلها وتعلق الأمل بنيلها وجنسها.

وقد تقدَّم بيان ذلك في الكلام على الأمل المهدوم والعمل المهدوم؛ لأنه جعل الأمور التي تفسد حكمة العادة مذكورة ومعطوفة في اللفظ على الأمل المهدوم، والعمل المعدوم؛ لأنه قال: «وإياك من الأمل المهدوم والعمل المعدوم، ومن الأمور التي تفسد حكمة العادة وأصول السعادة».

والمعطوف يرجع حقيقة إلى الذي عطف عليه، وهو هو بعينه، فصح أن الأمور التي تفسد حكمة العادة وأصول السعادة هي الأمل المهدوم، والعمل المعدوم قد تقدَّم تفسيره، وفرغ منه، فاعلمه من هناك.

فنرجع فنقول: الأمل خبر يتعلَّق بالشهوات الحيوانية، ويشخصها في الضمير وأمله، وأشخاص الشهوات في الخبر تحجب الضمير عن مشاهدة الوحدة القائمة به، والحركة للنيل تزيل الإنسان عن السكينة التي كان بها مقيمًا في حقيقته، فالشهوات هي الحجاب وذات البُعد، والشريعة تزيلها وتمحيها، فالشريعة تزيل الحجاب وترفع البعد، وزوال الحجاب هو عين الرؤية لله، وزوال البعد هو عين القرب منه، والقرب من الله ومشاهدته هي السعادة، والحجاب عنه والبعد هما الشقاوة، والشريعة تزيل الشقاوة، وتفيد السعادة، والمفيد للشيء هو أصل في وجوده، فالشريعة هي أصل السعادة وأحكامها، ووظائفها هي أصول السعادة.

وبيان ذلك أن العبادات الشرعية مجموعة من نيةٍ وعملٍ، والنية في القلب، والعمل في الجوارح، والنية تعلق القصد بالله، وتصور ما يجب له، فقد انصرف الضمير إلى الله، ونال منه أمل العاجل، وأخير الشهوات.

والعمل الشرعي يصرف الجوارح كلها إلى الله، معناه: في عبادة الله، فقد تعطل من الجوارح كسب العاجل، وذهبت الشهوات العاجلة والظاهر والباطن، وانصرفت الجملة إلى الله، واستغرقت الأزمنة فيه بالجملة، والشهوات هي عين البعد والحجاب كما تقدَّم، فذهابها هو نيل القرب والسعادة والكمال، وأعمال الشريعة أصل ذلك، فأحكام الشريعة هي أصول السعادة، وحكمة العادة كما ذكرنا فاعلم ذلك، وتصفح الكلام المتقدم والمتأخر ينفتح لك معنى ذلك، وتجد ذاتك مقيمة في حضرة ذلك.

قوله ﷺ: «ومن الود مع الملل، فإنه قبيح في كل الملل».

ضمير معطوف على النهي المتقدم الذي نهى فيه عن الأمل المهدوم والعمل المعدوم

وما بعد، فكأنه قال: وإياك أيضًا من الود مع الملل، فهذا نهي.

وقوله: (فإنه قبيح في كل الملل) خبر. فنبدأ ببيانه فنقول: الود: هو الميل إلى مشار ما يقصد ترجيحه على غيره، كما تقول: نود فلانًا، بمعنى نميل إليه، ونرجحه على غيره، كأنه من أنواع المحبة؛ لأن المحبة بعض حدودها ميل دائم، وقلب هائم، ومعنى ترجيح المحبوب وتعظيمه على كل ما سواه، والود ميل بقصد ترجيح كما ذكرنا، لكنه ليس فيه الهيام والاستغراق الذي في المحبة، فهو مع المحبة بالجنس، ويتأخر عنها بالنوع والفصل؛ لأن المحبة أفضل منه، وأقوى ترجيحًا، وأشد استغراقًا، فهو يطلق معها باشتراك، وكأنه أقرب للإرادة، أو هو الإرادة؛ لأنك تقول: وددت فلانًا، بمعنى أردته، وتقول: تود أن لو كنت في مكة، ومعناه: تريد أن لو كنت في مكة.

فهو والإرادة واحد بالمعنى، والإرادة تخصص مرادها أيضًا وترجحه على غير، وكذلك الود، لكن الود أخص منها قليلاً وأشرف؛ لأن الود يشعر بالتأكيد في الميل إلى المودود، والأنس به واللذة، والإرادة أفتر منه في ذلك، فكأنه رتبة فوق الإرادة ودون المحبة، والملل هو منافرة المألوف بعد الملاءمة، أو هو الاستيحاش بالشيء بعد المؤانسة به، كما تقول: مللت فلانًا من صحبته، بمعنى نافرته بعد محبته، واستوحشت به بعد الأنس به.

أو نقول: الملل هو رفض الشيء بعد قبوله، كما تقول: مللت السمك، بمعنى رفضته بعد أكله، ومللت المغاني بعد سماعها، وما أشبه ذلك.

وبالجملة: الملل هو الانصراف عن شيءٍ ومنافرته بالكلية، ودفعه، والانفصال منه بعد مؤالفته، والاتصال به وجذبه.

ولما كان الحيث في هذا الغرض يجر إلى طلب السعادة والكمال، والسعادة والكمال لا يتوصل إليهما إلا بشروط ومقدمات، والشروط والمقدمات تحتاج إلى استعداد وأدوات يطول ذكرها، لكن نذكر منها هنا ما يفيد الأنموذج فنقول:

قد تقدَّم في غير ما موضع من هذا الكتاب بيان أن السعادة هي المعرفة بالله، والإقامة في حضرته ومشاهدته، ونيل رضوانه، وتحصيل الكمال الإنساني، والنعيم الدائم، وما أشبه ذلك.

وهذا كله لا يُنال إلا بالقصد الصحيح، والتوجه والصدق، واستصحاب الحال الذي لا ينفك إلا بنيل مقصوده، والمرشد المعلم الناصح، الخبير بالطريق القاصد الموصل للمطلوب بالوجه الأقرب؛ إذ الطرق كثيرة، ولكن القاصد منها القريب المسافة، والآمن

من الآفات هو الذي يطلبه السعيد، فلا بُدَّ من المرشد ضرورة؛ إذ الطالب القاصد لمطلوبه المتوجه إليه لا بُدَّ له من دليلٍ، وهو المرشد الحامل على الطرق المذكورة، والدليل لا بُدَّ للماشي خلفه من تبعيته وتقليده، وتسليم أموره كلها إليه، وترك كل شيءٍ من أجله، والعزم والجد في المشي وراءه والتبعية، حتى يبلغ التابع إلى المقصود، ويقيمه في حضرة مطلوبه ومعبوده، وهذا كله يحتاج إلى الود وعدم الملل؛ لأنَّا نقول: القدوة المرشد لو لم تختره؛ لأنك تعتقد أنه أعرف الناس بالطريقة، وأنصحهم، وتعظمه وترجحه على كل شيءٍ لم تقتدِ به وتقلده، ولا تسلم نفسك، وأحوالك إليه؛ إذ لو رأيت بدلاً منه لم تختره هو، ولا انحصرت إليه، فإذا ما اخترته إلا وقد عظمته ورجحته، وتعظيمه وترجيحه والانحطاط إليه هو المحبة؛ لأن المحبة حدها وجود تعظيم في القلب يمنع المحب النظر إلى غير محبوبه، فهذا الود والمحبة شرط في الاقتداء، والاقتداء يوجب تسليم الأمور وتمليك النفس المقتدى به.

وهذه أيضًا المحبة والود؛ لأن المحب من شأنه إيثار المحبوب على نفسه، والمحبة والاقتداء تحتاج الثبوت والملازمة، والملل يوجب الانفصال والانصراف؛ إذ حده هو منافرة المألوف بعد ملازمته، والانفصال عنه بعد الاتصال به، وهذا يفسد الاقتداء، ويقطع السالك عن محبوبه، ويحول بين القاصد ومقصوده، ويؤدي إلى الشقاوة والهلك، ولا شيء أقبح من الهلك والشقاوة في كل ملة؛ إذ المحب إذا ملَّ محبوبه نافره، وتعود لذة المحبة ألمًا، وتذهب لذة المحبة، ويقع ألم المنافرة، فلا شيء أقبح من الملل، وأيضًا المرشد دليل يحمل المسترشد إلى سعادته ومطلوبه، فإن ملَّ من اتِّباعه وملازمته ذاته، والمشي على أثره، وانقطع في الطريق وفاته مطلوبه وسعادته، وفوت السعادة هو البقاء في الشقاوة، ولا شيء أشنع من الشقاوة، ولذلك قال: «وإياك من الود مع الملل؛ فإنه قبيح في كل الملل»[1].

---

(1) قال الصدر القونوي قدس الله سره: اعلم أن المحبوب إنما أحب المحب لكونه سببًا لاستجلاء كماله فيه، ومحلاً لنفوذ سلطنة جماله وبسط أحكامه، فالمحبوب مرآة المحب يستجلي فيها محاسنَ نفسه المستجنة في وحدته قبل تعين المجلي؛ لأن القُرب المفرط والتوحُّد كانا يحجبانه عن ذلك، فإذا استجلى نفسه في أمرٍ آخرٍ بحصول ضربٌ من البُعدِ والامتياز قريبٌ من الاعتدال، ورأى محاسن نفسه في المجلى؛ أحبَّها حبًّا لا يتأتَّى له ذلك بدون المجلى، والامتياز المشار إليهما لما ذكرنا من حجابية القرب والوحدة.

وأيضًا؛ فنسخة الحقيقة الإنسانية تشتمل على ما تستحق أن يحب كل الحب؛ وعلى ما ليس كذلك؛ بل يقتضي النفرة بالنسبة لما يُضاده من الحقائق ويقابله، فإذا تعيَّن بمجلي يتميز به وفيه من
-

الإنسان ما يستوجب المحبة صفةً كان أو فعلاً أو حالات أو أمرًا مشتملاً على جميع ما ذكرت أو بعضه؛ وارتفع حجاب القرب المفرط وغيره من البين؛ ظهر سلطان الحب طالبًا رفعَ أحكام الكثرة والمغايرة بتغليب حكم ما به الاتحاد على حكم ما به الامتياز، فأحب نفسه فيما يغايره من وجهٍ وباعتبارٍ مقتضٍ للتمييز المذكور بالصفة الذاتية التي فيه الطالبة كمال الجلاء والاستجلاء، فإن هذه الصفة هي المستدعية إيجاد العالم.

والمقصود من الإيجاد ليس غير ما ذكرنا، وكل ما ذُكر في ذلك من موجبات الإيجاد فرعٌ وتبعٌ لكمال الجلاء والاستجلاء، فافهم.

فحُكم هذه الصفة؛ أعني كمال الجلاء والاستجلاء مشتركٌ، وسار في كل محبٍّ؛ فيوجب له أن يحب ما ذكرنا، وإن اختلفت الوجُوهُ والاعتباراتُ، وكذلك حكم حجابية القرب المفرط، والإدماج الذي يتضمنه هو أمرٌ مشتركٌ بين المحب والمحبوب من كون كل واحدٍ منهما من وجهٍ محبًّا، ومحبوبًا من آخر كما ذكرنا، غير أن بينهما فيما ذكرنا فروقًا متعددة، منها: إن «المحبوب» مرآةُ ذات المحب من حيث ما يقتضي أن يحب؛ فهو يستجلي فيها نفسه، ويستجلي أيضًا بعض محاسنها بالتبعية.

و«المحب» مرآةُ كمالِ جمالِ المحبوب، ومحل نفوذ أحكام سلطنته كما مرّ.

وبهذا الحكم سار في كل محبٍّ ومحبوبٍ دون استثناء؛ وإن شان الحق سبحانه مع خلقه بهذه المثابة، فنحن من حيث حقائقنا التي هي عبارة عن صور معلوميتنا الثابتة في علم الحق أزلاً، مراءٍ لوجوده المطلق الذاتي، وحضرته مرآة لأحوالنا المتكثرة وتعدداتنا، فنحن لا ندرك إلا بعضنا بعضًا؛ لكن في الحق؛ فنحب منا به ما نستجليه فيه، وليس غير الصفات والأحوال؛ وهو يحب فينا نفسه من حيث أن رؤيته لنفسه في مرآة مغايرة له من وجهٍ مخالفٍ لرؤيته نفسه في نفسه لنفسه؛ بل لا رؤيةَ هناك ولا تعدُّد؛ لأن المرآة المغايرة من حيث أنَّها محل التجلي المتقيِّد بها تبدي فيما ينطبع فيها حكمًا لم يكن متعينًا حال رؤية الشيء نفسه لنفسه.

وهذا سرٌّ، مَن اطّلع عليه عرف سر الذوات، والصفات والأحوال، والمرايا والمحال، وإن العالم بحقائقه وصوره مرآةٌ للحق من وجهٍ، والحقُّ من وجهٍ آخرٍ مرآةٌ للعالم، وقد نبَّهتُ على الوجهين، فتذكّر.

ثم اعلم أن أكثر الأولياء، وكثيرًا من الكُمَّل أدركوا الوجه الواحد من الوجهين المذكورين، ورأوه الغاية، ووقفوا عنده ولم يتعدُّوه.

وطائفة منهم وقفوا عند الوجه الآخر؛ وكلا الأمرين أَبَديُّ الحكم واقعٌ في كل زمانٍ دون توقيت ومناوبة.

وذكر لي شيخنا وإمامنا ﷺ بإخبار من الحق له، ونصٌّ صريحٌ أنه لا أعلى من هذا الذوق، ولا أكمل منه في نفس الأمر؛ فمن منحه فقد أدرك من الحق ما لا يمكن أن يدرك وينال أحد أتم منه، فاعملْ الهمّة، وابذلْ المجهود، فعلى مثل ليلى يقتل المرء نفسه.

وقد حصل لنا ذلك بحمد الله ومنه عنايةً وموهبةً، فاجتهد يا أخي في أن يحبك الحق لا غير، فإنه

والنهي إما عائد على الملل الذي يرفع الود، لا على الود؛ إذ الود محمود شرعًا وعقلاً، وهو حامل كل قاصدٍ إلى مقصوده؛ إذ القاصد لولا وده في مقصوده ما تحرك إليه، ولو لم يتحرك إليه لم يصل، الود أصل في تحصيل كل مطلوب، والملل قاطع لكل مطلوبٍ، وآفة كل قاصدٍ وراغبٍ، فهو قبيحٌ بالجملة، وأصل كل آفةٍ وعلةٍ.

فنقول: الود هو حركة الضمير إلى المحبوب المراد، والانصراف إليه، واستصحاب الود يثبت قدم التوجه، وثبوت التوجه يوصل إلى المطلوب المحبوب، والمحبوب هو الله، وهو الخير المحض، والوصول إلى الخير المحض هو السعادة، واللذة والملل يمنع ذلك كله، فالملل أقبح ما يكون في الملل؛ لأن الملل زوال الود، وزوال الود يعطل التوجه، وتعطيل التوجه يوجب عدم الوصول إلى الله تعالى، وعدم الوصول إلى الله هو الشقاوة، فالملل يوجب الشقاوة، والشقاوة مكروهة وقبيحة في كل الملل، فالملل قبيح في كل الملل.

وذلك أن الملل هي القوانين الموضوعة على ألسنة الرسل، وهي الشرائع الحاملة إلى الله، والسعادة هي طرق يسلك عليها المتوجهين، وأصل السلوك عليها هي المحبة لله، والوسائل الحاملة إليه، والملل يزيل المحبة، والمحبة أصل السلوك، فالملل يمنع بطبعه السلوك، وعدم السلوك يوجب الشقاوة، ويمنع تبعية الرسل، ويصد عن الله، ويؤدي إلى سخط الله، وهذا أقبح ما يكون في كل الملل.

فنقول: الملل كلها تطلب الله وتحمل إليه، والملل يقطع عن الله، فالملل قبيح في كل الملل؛ إذ الانقطاع عن الله يضاد ما جاءت به الملل؛ إذ الملل تحمل إلى الخير المحض، والخير المحض حسن، والملل يقطع عن الخير، والانقطاع عن الخير إقامة في الشر، والشر قبيح في كل الملل، فالملل قبيح في كل الملل، فاعلم ذلك.

وأيضًا الود هو الميل إلى مشار ما، وترجيحه على غيره، والأنس به ومحبته، والملل هو منافرة ذلك المشار، والانصراف عنه، وتركه ومحبته هي الأولى، ولم تكن إلا لأجل توهم الخير فيه، أعني ذلك المشار إليه؛ إذ المحبة لا تتعلّق إلا بالخير، ومللُه والرجوع عنه لم يقع إلا لعدم تعين الخير في ذلك المشار؛ إذ الخير لا ينصرف عنه من ذاته، فدلّ على أن الخير

إذا أحب الحق شيئًا ناله وأناله، وأما غيره فقد يحب ولا ينال، وإن نال أمرًا مما يحب فلا يقدر أن يُنِل غيره ما لديه؛ لأنه قد لا ينقل ولا ينقال؛ بخلاف الحق سبحانه فإنه على كل شيءٍ قدير، فافهم، والله أعلم.

لم يكن في ذلك المحبوب إلا بالعرض؛ إذ لو كان بالذات لم يتبدَّل، والخير العرضي لا يكون إلا في الأجسام، والأجسام هي التي يعود ودها مللاً.

فقوله: «وإياك من الود مع الملل» نهيٌ عن محبة الأجسام، والتعلق بها إذا هي متبدلة ومنقطعة.

وأيضًا: الله هو الفاعل لكل موجودٍ، والمقوم لماهية الأشياء على ما هي عليه، ووجوده في كل ماهية بما هي ماهية، وهو المحبوب الأعظم، والخير المطلوب الذي لا يُطلب معه خير، ولا يوجد خير سوى خيره.

فلا محبوب إذًا إلا وهو المحض، والمحبوب الأعظم عنده بل هو، فلا محبة؛ إذ المحبوب هو المحب بعينه، والواحد لا يحب ذاته وهو هو، فصحَّ من هذا أن الود وهمٌ قسم الوجود، ورجح بعضه على بعضٍ، ورفض الحق الحاصل واتهمه، وفرض الباطل، وذل تحت ذله وصار عبده، فلا ود إذًا ولا ملل.

فخرج من هذا أن الود خبر يشعر بالإضافة، ويميل إلى مظهر لا وجود له خارج الذهن، ولذلك وقع الملل؛ لكون متعلق الود ليس له وجود، فالود والملل خبران متوهمان في الضمير، يستران التحقيق، ويعلان التصديق، ولذلك نهى عنها، والملل نكث تقرر وهم الحاصل، وتدفع وهم الباطل، فاعلم ذلك.

قوله ﷺ: (والسعيد هو المصلح أعماله، المطرح لله تعالى ماله).

السعيد: هو الظافر بالخير المحض، والخير المحض هو الله، فالسعيد هو الظافر بالله، والظفر بالله يكون بأمرين: أحدهما بالمعرفة به، والآخر الشبه، والمعرفة به هي رفع النكرة. وقد نقول: زوال الجهل. والشبه هو التخلق بأسمائه، وزوال التوجه يكون بالتوجه والبحث، وملازمة المرشد، والنظر في العلوم النافعة الموصلة، وهذا يحتاج إلى الاشتغال والملازمة، والتوجه في الأزمان كلها، ويؤدي هذا إلى ترك البطالة، ورفض الكسب الغرضي، والزهد في الشهوات العاجلة بجملتها، فترك الدنيا مقدمة صادقة في التوجه إلى معرفة الله، والتشبه بالله هو التخلق بأسمائه كلما تقدَّم، وهو الاتصاف بالرحمة والعفو والمغفرة والكرم والوهبة والجود والإحسان وما أشبه ذلك، والكريم هو الذي يعطي بالمسألة، ويعطي البعض، والوهاب هو الذي يعطي من غير مسألةٍ ويعطي الأكثر، والجواد هو الذي يعطى كل ما عنده بالمسألة وبغير المسألة، والعفو هو الذي يعفو عن الزلات صغائرها وكبائرها، وهذا يؤدي المتخلق بهذه الأسماء إلى ترك حقوقه بالجملة، والإحسان المطلق، وهذه المقدمة صادقة أيضًا في التخلق بالأسماء، والتارك لحقوقه قد أطرح لله ماله.

والمقدمة الأولى التي قلنا أنها الزهد في الشهوات، والشهوات من خصوص النفس وملكتها، فالزاهد فيها قد أطرح لله ما له، ومن ترك حقوق وزهد في شهواته، فقد صلحت أعماله، وأطرح لله ماله، ونيل الشهوات هو سبب الشقاوة، فالزهد فيها هو سبب السعادة، فالزاهد في شهواته سعيدٌ.

فنقول: ترك الشهوات يؤدي إلى استقامة التوجه، والتوجه هو الانصراف إلى الله بالصنائع العلمية والعملية، والعلم والعمل الذي يوصل الى الله حكمة، وعمل صالح، والعمل الصالح يفيد السعادة، فالمتوجه مصلح أعماله، والمصلح أعماله سعيد.

وأيضًا التوجه يحمل الى معرفة الله، ومعرفة الله هي السعادة، وكل عمل يحمل الى السعادة عملٌ صالحٌ، فالتوجه عمل صالح، فخرج من هذا أن المصلح أعماله هو المتوجه لله، والمطرح لله ما له هو الذي أطرح الدنيا، وزهد في شهواتها كلها، وهو واحد من حيث أن من توجه لله فقد اشتغل عن الدنيا، ولها عنها، فنفس التوجه هو بعينه ترك الدنيا.

والمصلح أعماله هو بذاته والمطرح لله ما له. وهذا يشرحه قول سيدنا ﷺ في «الوصية» التي أولها: «اعلم علّمك الله حكمته» حيث قال: «والإضراب عن الشيء الخسيس هو بعينه الإقبال على الأمر الرئيس».

فقد تبيَّن لك أن إصلاح الأعمال هو التوجه إلى الله، وإطراح المال هو طرق الشهوات العاجلة، ونفس التوجه الصادق يقتضي من صفة رد الشهوات، ورفض الشهوات للتوجه لله يفيد معرفة الله، ومعرفة الله هي السعادة، وهذا تفسير قوله: «والسعيد هو المصلح أعماله، المطرح لله ماله».

وأيضًا الحق تعالى ليس بينه وبين الموجودات مرتبة زمانية ولا مكانية، وأنه مع غيره بالإيجاد والتجديد، ووجوده مقوم لوجود العبد على ما هو عليه، فهو أقرب من العبد إلى ذاته، والبُعد إنما هو الحجاب الموجود في قلب العبد، وحجاب القلب هو مجموع صور الشهوات العاجلة وسكونها فيه، فرفض الشهوات زوال الحجاب، وزوال الحجاب يكشف حقيقة وجود الحق في ماهية العبد، ووجود الله عنده هو الكمال والسعادة والرفعة، فرفض الشهوات هو بعينه نيل الحقيقة، وهذا يفسره قول الرجل الذي قال لعيسى عليه السلام حين قال له: اعبد ربك وهو راقدٌ، قال له: عبدته بأكبر العبادة، قال له: وما هي؟ قال: تركت الدنيا لأهلها، قال له: إذًا فنم، ويفسره قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [النازعات: 40] الآية.

فاقطع حظوظك، وصل عهدك، تجد شاهدك هو بعينه مشهودك، فافهم ذلك،

وكذلك القول في التخلُّق بالأسماء، فإن المتخلق بالأسماء تارك حقوقه كما بيَّنا، وترك الحقوق خروج عن حظوظ النفس، والخروج عن حظوظ النفس هو الظفر بالحقيقة، والظفر بالحقيقة هو السعادة الأبدية، وأيضًا الحجاب عن الله هو النفس، والنفس هي الأخلاق المذمومة عند الصوفية، والتخلق الأسماء يزيل الأخلاق المذمومة، فالتخلُّق بالأسماء يزيل الحجاب، وزوال الحجاب يكشف الحقيقة، فالتخلُّق بالأسماء يكشف الحقيقة، فقد تبيَّن أن إصلاح الأعمال هو التجوهر بأسماء الله.

وإطراح المال هو الخروج عن النفس، وهذا هو المفهوم من قولهم: اترك نفسك وتعالَ، وهو الفناء الذي تشير إليه الصوفية، والبقاء بعد الفناء هو ثبوت الحقيقة بعد رفع المجاز، وظهور الوحدة الأزلية بعد رفع الغيرية، وخرج من ذاك أن الله هو وجود كل شيءٍ، وهو الوجود وحده، والغيرية وهم أشره الحجاب، والحجاب خير الضمير عن صور الشهوات وسكونها إليه، ولا حقيقة له من خارج الذهن، فاعلم ذلك.

قوله ﷺ: «ولا تخالط إلا من قامت به الأوصاف المذكورة قبل إن استطعت، وإلا الأمثل فالأمثل».

الخلطة هي المعاشرة والممازجة، والأوصاف المذكورة قبل هي ما ذكره من أول العهد إلى هنا من الكمالات وأسبابها، والتجوهر بمدلول الإمكانات الأهلية، ومعرفة العلوم الضرورية والأعمال، وفهم علوم الحكماء، وتحصيل الحقيقة الجامعة، والدخول تحت أحكام الشرع بالجملة، وما أشبه ذلك مما قد فرغ من تفسيره، فهو يقول: لا تخالط من الرجال إلا من قامت به الكمالات كلها، وعرف أسبابها، وتجوهر بمدلول الإمكانات الإلهية، وتصرف بما يجب، واتصف بالحكمة التي تفيد الصورة المتممة والمقومة، ودخل تحت أحكام النبي ﷺ من كل الجهات، بمعنى ظهرت السُّنة المحمدية عليه علمًا وحَالاً وذوقًا وفعلاً ووجودًا، ويكون وارثًا على الحقيقة، وعرف العلوم الضرورية، والأعمال الواجبة، وعلوم الفلسفة كلها، وحصل الحقيقة الجامعة لكل شيءٍ، وعلم التحقيق الذي لا يُنال بالكسب والاجتهاد، ولا يشذ عنه شيء، ولا يفقد منه ما هو موجود في غيره، وبالجملة كل شيءٍ موجود ومعلوم يوجد عنده حاضرًا بالقوة والفعل، وهذا لا يكون في العالم إلا فيه ﷺ، وهو الذي قامت به هذه الأوصاف، فكأنه أحالك على نفسه، وأحال العالم على ذاته، ونبههم عليه.

ولما كان مطلوب العالم هو الخير المحض، والسعادة الثابتة، والخير المحض هو الله، ولا يوجد في غيره، وإن وجد فهو له ومنه، أو هو في المظاهر مجازًا، وفيه حقيقة. وهو فيه

وبه له من حيث: ﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّه﴾ [هود: 123].

فالله هو الخير المطلوب على الإطلاق للعالم كله، فالوجود الممكن طالب للوجود الواجب بالذات، وخيره ولذته ووجوده في الواجب، فالعالم كله طالب لله، والله لا يظفر به، ولا يوجد ولا يعلم ويعرف إلا بالنبي ﷺ، فصار النبي ﷺ هو مطلوب العالم ومقدمتهم ودليلهم إلى السعادة والخير، والنبي ﷺ لا تعرف ماهيته وحقيقته وكماله وجلالته إلا بالوارث، والوارث: هو المحقق، وهو الكامل، وهو الوسيلة إلى النبي ﷺ، والعارف به ونبي ﷺ: هو الوسيلة إلى الله والعارف به، والله هو مطلوب العالم.

قال لك: لا تخالط إلا الوارث الذي هو شرط في الوصول إلى النبي ﷺ، والنبي ﷺ شرط في الوصول إلى الله ﷻ والوصول إلى الله ﷻ[1] هو مطلوب السعداء والعقلاء فالوارث هو مطلوب العقلاء والسعداء ؛ فالوارث هو المحقق، فالمحقق هو المطلوب للسعداء والعقلاء بأسرهم لأنَّا نقول: العقلاء يطلبون السعادة واللذة الأبدية، والسعادة واللذة الأبدية لا توجد إلا في معرفة الله، والوصول إلى الله لا يكون إلا بالنبي ﷺ والنبي لا يعرف إلا بالوارث، والسعادة لا تحصل إلا بمعرفة الله، فالسعادة لا تحصل إلا بالوارث.

والعقلاء يطلبون السعادة، فالعقلاء يطلبون الوارث، ويحتاجون إليه، والوراث هو المحقق، فالعقلاء يطلبون المحقق ويحتاجون إليه بالضرورة.

وهذا هو معنى قوله ﷺ: (الكل من أصحابنا)، وقوله ﷺ: (الوقت والجهاد سبعينية لا غير)، لما رأى من إحاطته وإفراط اضطرار العالم إليه، ثم نقول الحق هو الخير المحض، والعالم كله يطلبون الخير، والنبي ﷺ شرط ضروري في وصولهم إليه، والوارث شرط في الوصول إلى النبي ﷺ فالوارث شرط في وصول العالم إلى الخير، والعالم يطلبون الخير؛

(1) قال سيدي محمد وفا في الشعائر: اعلم أن طرق الوصول إلى الله على طريقين: طريق جذب واجتباء، وطريق جد واهتداء.

فالأول: محبَّة ذاتية، وجذبة إلهيَّة، ومنَّة لدنية، وهي طريق المقرب السابق، المستهلك في عين الحقائق؛ لأنه قرب من حيث الوجوب لا من حيث الإمكان، وسبق من حيث المكون لا من حيث الأكوان، فهو إذًا لا هو، وقد شهد الله أنه لا إله إلا هو.

والثاني: لا كالأول؛ لأن الحضرة حضرتان: حضرة قرب: وهي من الله إلى الله، وحضور اقتراب: وهو من العبد إلى مولاه، فهو يرجو بعمله الظفر بمؤمله، باذل المجهود في تحصيل المقصود، وهو أمرٌ لا يحصل لغيره، ولا يظفر به سواه.

ومن هنا يعلم أن المقرب هو حياة روحانية البار، وقوام عمله وحقيقة أمله، وبما كانت العين التي يشرب بها المقرَّبون، منها يكون مزاج كأس البار، وحياة الأرواح والأسرار.

فالعالم يطلب الوارث، والوارث هو المحقق، فالعالم يطلبون المحقق ويحتاجون إليه بالضرورة.

ثم نقول: الله يعطي خيره وإحسانه للوجود الممكن كله، والنبي ﷺ هو الواسطة الذي يوصل خير الله وإحسانه، والوارث هو الواسطة الذي يأخذ عن النبي ﷺ ويفيض على العالم، فالوارث هو الفياض على العالم بالجملة، والعالم يقبل الخير ويناله، وكل ماهية يصلها منه بقدر نصيبها، وما جعل فيها من المقبول فما من ماهية تقبل خيرًا إلا والوارث هو معطيه لها بالذات، والوراث هو المحقق، والمحقق: هو المدبر للعالم بالذات، فمن كفر به فقد جحد نعمته، ومن جحد النعمة شقي أو منكر لأصله.

وهذا هو المفهوم من قوله ﷺ: (أنا هو الوجود في كل مكان أنا).

وقوله لابن غيلان: (والله ما نجري منكم إلا مجرى الدم)، وقوله في «الفتح المشترك»: (والمقرب هو عين الخير وكل الكون ومالك كل لون)؛ وإخراج الأدلة من كلامه على هذه المرتبة ونصوصه التي نعلمها ونخرجها من كتبه يطول علينا ذكرها، ولا يسمها هذا التقييد، وهذا فيه الكفاية فاقتنع به.

فلمَّا رأى تلك الأوصاف يحتاج إلى معرفتها العاقل، ولا تنال إلا من الرجل الجليل الحامل لها أحالك على الحامل لها، ولا يحملها على كمالها إلا هو فأحال العالم على ذاته وهو الحق، وهو مفهوم من قوله في (التوجه): «لو أنصفت لسعد العصر وأهله، ومهد ووعر العلم وسهله» ويفهم من هذا الكلام أن من لا ينصفه يشقى.

ولماَ علم أن العقول العادية لا تفهم منه القبول في غير زمان، ولا تعرف اتصاله بالذوات، ولا تقدر على الاستفادة منه في عالم الذوات المجردة، ولا تدري إلا المشافهة والتعليم باللسان، وذلك لا يكون إلا بمباشرة مظهره الجسماني، ومظهره الجسماني لا يمكن أن يعم أفق العالم ومساحته، ولا يمكن العالم باتساع مقداره أن يجتمع كله عند مظهره الجسماني، فخلص مظاهر كثيرة، وبددها في الكون، وأحال عليها.

فقال: إن استطعت الاتصال إليّ، ومباشرة مظهري فهو الأولى، وإلا عليك بالأمثل فالأمثل، يعني: القريب إليّ بهذه الكمالات، والعارف بها والذي عنده منها نسبة فهو مني ويقرب إليّ، وكذلك تتنـــزل من القريب إلى القريب أيضًا إذا لم تجد المظهر القريب؛ فكلها مظاهره، إلا أنه يظهر فيها بحسب أنصبتها، ومثال أولاده معه مثل ما ضرب لنا من مثاله مع النبي ﷺ: فإنك تجد النبي ﷺ هو الرتبة الأولى اللازمة للحق تعالى، والمحقق الوارث هو اللازم للنبي ﷺ، وكذلك الوارث المحقق هو لازمه والعارف به، وكذلك وارث

الوارث.

وتنـــزل بالتحليل إلى أدنى الرتب، وتطلع بالتركيب إلى أقصاها، وخذ العالم نظامًا واحدًا، والرتب الجزئية أجزاء ماهية الرتب الكلية تجد الرتب بعضها في بعض، وبعضها أعم، وبعضها أخص، وكلها ترجع إلى الله الذي هو النظام المطلق في الكل والمحيط بالكل، والمحيط الثاني النبي ﷺ، والثالث المحقق، وكذلك وارثه محيط رابع، وكذلك تنـــزل إلى أدنى الرتب، وتعقل المحاط به في جوف المحيط.

وهذه المراتب قد بينتها لك وكشفت لك أمثلة النظام القديم، وحقيقة الوجود، وبينت لك إن الشيخ لم يفارقك قط ولا فارقته، وكذلك النبي ﷺ، وكذلك الحق تعالى إن فهمت الذوات والرتب المذكورة مجردة عن الزمان والمكان.

افهم أن المحاط به في جوفه المحيط، وانـــزل بالتحليل إلى المركز الأدنى واطلع بالتركيب في الإحاطات والذوات إلى المحيط الأعلى، وفَضِّل الرتب بعضها على بعض بحسب قربها منه، وانسبها في الإحاطة والاتصال، ولا تفهم منه الاتصال الجسماني واجتماع جوهر مع جوهر، وإنما هو اتصال مفارق للمادة ونسب الرتب المعلومة التي ليست بأجسام، وإنما هو روحانية مفارقة.

وهذا هو المفهوم من قوله ﷺ في آخر «الفتح المشترك»: (وكلمة الحق منوطة بالأنبياء، وأرواح أصحاب المحقق منوطة به، والإخوة منوطة بهم بحسب نسبتهم، ومن شروطها أن يضاف القوى للضعيف، وأن يفرق المثل من المثل.

فافهم القوى والضعيف بما ذكرته لك من المحيط والمحاط به، وقس بهذا الكلام ما ذكرته لك من النسب أعني من اتصال النسب بعضها ببعض، وعلوها بعضها على بعض.

وهذا تفسير قوله ﷺ: (ولا تخالط إلا من قامت به الأوصاف المذكورة قبل إن استطعت، وإلا الأمثل فالأمثل)، فافهمه والله يفهمك بمنّه وكرمه.

قوله ﷺ (وحبيبك من يدبر أمر آخرتك ويعينك عليها ويذكرك بها ويهجرك ويصلك من أجلها).

الحبيب: هو الذي تتعلق به الإرادة، وتنصرف إليه همة المحب، وتميل إلى محبته تأكيدًا، أونقول: الحبيب هو الذي غلبت صفاته على قلب المحب، وانطبعت صورته فيه مجردةً، ومنعه ذلك الانطباع من قبول صورة غيرها، ونقول: الحبيب هو الذي يملك حسنه وكماله قلب المحب وجملة عوالمه، وأبقى منه صفاته ونعوته حتى يظهر الحبيب في ذات محبه وجملته؛ ولذلك رسم المحبة عند الفقراء: اتحاد النعوت.

والتدبير: هو التصريف في الشيء المدبر، ونقلته من الأحوال التي هو فيها إلى أحوال أجل منها، ونقول: التدبير إخراج كمال الشيء المدبر من القوة إلى الفعل، أو نقول: التدبير زوال صفات النقص من المحل المدبر، وإقامة الكمالات بدلها فيه.

والآخرة هي الدار التي يسكنها الإنسان بعد الموت.

ونقول: الآخرة هي الرتب التي يرتب فيها الإنسان بعد الموت.

ونقول: الآخرة خروج النفس الإنسانية عن الأعراض المادية، ودخولها في الأعراض الروحانية، والآخرة: انفصال النقص من الأكوان المتبدلة واتصالها بالذوات الثابتة، ونقول: الآخرة بحسب مذهب الصوفية: هي انفصال الإنسان من صفات النقص، واتصاله بصفات الكمال.

ونقول: الآخرة بحسب مذهبهم: ترك الصوفي صفاته وأخلاقه، والتجوهر بصفات الله وأسمائه.

ونقول: الآخرة عندهم: هي الفناء عن الهوية الحادثة، والبقاء بالآنية القديمة.

ونقول: الآخرة عندهم: ذهاب الآنية المجازية، وثبوت الهوية الحقيقية.

ونقول: الآخرة عند بعضهم: زوال الحجاب، وكشف الحقيقة، ونقول: الآخرة رجوع الوجود المقيد للوجود المطلق، ونقول: الآخرة استحقاق الموجود المقيد للوجود المطلق، ونقول: الآخرة استحقاق الوجود الواجب للوجود الممكن وأخذه ماهيته وإعطاؤه لها به لا بها، ونقول: الآخرة هي رد الأمانة، وإسعاف السلام، وإنصافه في رد السلام ونيل السلامة، ونقول: الآخرة فصل معلل وعهد مدلل وكمال مرسل، وتأخر تقدمه لم يزل، ونظام جامع وغيور على حقه، ومقيم على رتقه، ومناد يجيب نفسه، وعالِم يعلم عزه، فافهم والزم والله يفهمك بمنه وكرمه.

والإعانة: هي الإقدار على الشيء، والمعين: هو المقدر عليه، والتذكير: هو التلبية على أمر سكت، والتذكير: كشف ما كمن في النفس، والهجر: قطع مواصلة المحب، والهجر: هو ترك إسعاف الطالب، والوصل: هو انعطاف المحبوب على محبه، والوصل: جبر المنكسر ومواصلة المقطوع.

ولمّا كان الإنسان حيوانًا ناطقًا، والإنسان مكلف ومطلوب، وهو من حيث هو حيوان يدبر ويختار ويجذب الملائم ويدفع المنافر؛كان له كل ملائم حبيبًا، وكل منافر عدوًّا، ومن حيث هو عاقل وطالب للسعادة ومكلف بمعرفة باريه وبالعمل على الوصول إلى جنته وتحصيل رضوانه، وهو ذو نفوس كثيرة وذو شهوة حيوانية ومطالب روحانية

فمن حيث شهواته الحيوانية يطلب الدنيا ويحب الملائمات المحسوسات، ومن حيث نفسه الناطقة وعقله يطلب الآخرة ويميل إلى الخيرات الدائمة، وهو قابل للتدبير وذو أدوات تكفيه في نيل ما يريده ويختاره من الأمور، وعاجز عن إخراج ما في قوته إلى الفعل، ومفتقر إلى العلم والمعين على تحصيل مطالبه.

فلا بد له من المرشد الذي يهديه إلى نيل الخير، ويعلمه كيف يحصله، وبماذا يحصنه فخير الدنيا لا بد له من معلم يعلمه الصنائع والأسباب التي تحصل بها الدنيا، ويدربه ويعينه ويدبره حتى يشتغل بذاته في كسب دنياه، وتحصيل شهواته العاجلة، وكذلك يحتاج في تحصيل الآخرة إلى المعلم والمرشد، والمفيد الذي يدبره ويهذبه، ويبين له الطريق الجادة المحصلة لرضوان الله وإلى جنته وإلى معرفته حتى يكمله في ذلك ويوصله إلى حيث يستقل بذاته في عبوديته.

فالإنسان إذن له مدبران: مدبر الدنيا، ومدبر الآخرة، وهو يحب الخير ويميل إليه من صفة نفسه، ويحب الوسائط التي توصله إلى الخير، وتعلمه طريقه، وتعينه على تحصيله؛ فهو يحب مدبر الدنيا ويحتاج إليه، ويحب مدبر الآخرة، وبحسب ما غلب عليه طلب إحداهما يغلب عليه حب وسيلة ذلك المطلب، وإن كانتا متساويتين في خلده يستوي حب الوسيلتان بحسب ذلك؛ فله إذن مدبران،كل مدبر له منهما هو والد له، ومدبر له، وله عليه حق، وله في قلبه محبة وفي نفسه مودة؛ فصار والد الدنيا ومدبرها والد الجسماني منه، ومدبر الآخرة والد الروحاني.

ولمّا كانت الدنيا ذاهبة ومنقطعة وغير باقية؛ كان خيرها بالعرض، ولمّا كانت الآخرة دار البقاء والقرار والدوام الذي لا انقطاع له؛ كان خيرها بالذات، وهذه دار يرحل منها في أيسر وقت ويذهب نعيمها. والآخرة يقام فيها ويثبت لها، ولا يفقد نعيمها أو ضده.
قال الشيخ ﷺ: (**وحبيبك من يدبر أمر آخرتك**):

معناه الذي تحتاج أن تتخذه حبيبك وتعتمد عليه وتتبعه: هو المدبر للآخرة؛ ومدبر الدنيا لا تعتمد عليه ولا تتبعه ولا تلازمه بالجملة، وإن أحببته فتحبه بالعرض، كما أن خير الدنيا الذي كان هو سببها بالعرض، وإن كان يحضك على ترك الآخرة، أو يوقع عندك الفترة منها، فلا تحبه بالجملة؛ إذ هو عدوك بالمعنى، فإن أحسنت له وتبره؛ فيكون ذلك في الظاهر مكافأة لتربيته الأولى ومراعاة لصحبته، وفي الباطن لا تحبه ولا تأخذ عنه، وتصاحبه بالمعروف الجاري بين أبناء الدنيا، وتنفصل عنه باعتقادك ومذهبك وعلمك.
كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ [لقمان: 15]؛ فالله سبحانه قد أمرك بمخالفة الأب الجسماني الذي لا يحض على الآخرة، وأمرك باتباع الشيخ الذي يدبر الآخرة ويحض على الله وعلى معرفته، فاعلم ذلك، ولا يخدعك وهم الظاهر، وتحمل الآيات على غير مقاصدها، وتسمع ما جاء في الوالدين من النصوص، وتعتقد أنها تحض على طاعتهما من كل الجهات، وإن مخالفتها لا يجوز بالجملة، ويحملك ذلك إلى ترك السعادة، والتفريق في جانب الله؛ فتهلك وتقول على الله ما لا تعلم.

وإنما أراد بذلك مبرتهما والإحسان لهما في حق التربية والصحبة، فإذا عارضهما القصد الإلهي وطريق الآخرة والسعادة وأداء حق الله تعالى؛ تغلبه عليهما من كل الجهات ولا تنظر إليهما فيه، وافهم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُم﴾ [التوبة: 24] الآية، وقوله في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّه تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114]، وقوله تعالى لنوح عليه السلام : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 465].

وقوله ﷺ: «لا يكمل أحد حقيقة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله»[1] الحديث، وقوله: «سلمان من أهل البيت»[2].

وهذه الأهلية ليس هي من النسب الحسي، وإنما هي من القصد الإلهي والدين والأبوة الروحانية، فإن كان كذلك؛ فصح إن المعلم المعين في الدار الآخرة والمدبر لها هو الذي ينبغي أن يحب ويلازم ويتخذ رأيه وفعله له يجعل قدوة، وهو قول سيدنا ﷺ في بعض «الألواح»: ما عظم الحكماء مشايخهم وفضلوهم على الآباء إلا لكونهم كانوا سبب الحياة الباقية، والآباء سبب الفانية.

إلا إن كان الأب من كل الجهات، وهو الذي أراد بقوله هنا: (وحبيبك من يدبر أمر آخرتك)؛ تقديره إن كنت عاقلاً وسعيدًا فلا تحب إلا من يدبر آخرتك؛ لكونك تحتمل القبول لمحبة الدنيا ومحبة الآخرة، وفي ماهيتك ذلك، إذ أنت مجموع من الروحاني والجسماني، وكل قسم منك يطلب نوعه؛ فأمرك أن تضرب عن النوع العرضي، وتهمل وسائطه، وتخصص الذاتي وتحب وسائطه ووسائله، وقد نقل عن المسيح عليه السلام إنه قال: (لن يلج الجنة من لم يولد الولادتين) يعني: الروحانية والجسمانية.

ولا تظنن أن الإشارة هنا بذكر الولادتين لما يخصص الدنيا والآخرة، وإنما علم أن

---

(1) رواه البخاري (14/1)، ومسلم (67/1).

(2) رواه الطبري في تفسيره (133/21)، والحاكم في المستدرك (691/3).

الولادة الأولى التي هي الجسمانية متقدمة بالطبع في ماهية الإنسانية، والروحانية متأخرة عنها في ذاته، وأن النوع الإنساني محمول على الولادة الجسمانية بالنظر إلى ترتيب العالم من حيث الجزيئات، فإنه ما يكون عاقلاً إلا بعد ما يكون حيًّا، ولا يكون إنسانًا إلا بعد كونه حيوانًا، وإن النفس الناطقة محمولة على النفس الحيوانية، وإن الولادة الأولى قد صحت لها وفرغ منها، وإن الجنة لا تنال إلا بإدراك الروحاني، ولا توجد إلا في عالمه، وإن السعادة والكمال والدوام لا تكون إلا في معرفة الله والقرب منه، وإنه لا يُعرف إلا بالجوهر الروحاني المفارق للمادة.

فنبههم بعد وجود الولادة الأولى على الولادة الثانية، وحضهم على الانفصال من الأولى، وأعلمهم أن الجنة في الولادة الثانية، وأن الكمال هناك، فكان ذكره للولادتين تنبيهًا على الثانية التي بها سعادتهم، وذكر الأولى لكونها موجودة عندهم، ولا يعرفون إلا إياها، وعرَّفهم إنهم إن وقفوا معها لا يدخلون الجنة التي هي في الولادة الثانية، ونبههم على صفاتهم الأولى ومَبْدئِهم الأول،فاعلم ذلك، ولا تتوهم إن لفظه يقتضي تخصيص الاثنتين، وإنما أراد به تخصيص الثانية الغابة عندهم، فاعلم ذلك.

وقد تؤخذ من الأسماء المشتركة، وتطلق الولادة بتشكيك وتصرفها باستعارة الألفاظ إلى الولادة الواحدة الروحانية التي فيها سعادة الإنسان، وكماله وفي أبوته من حيث الإفادة، وتجعل الولادتين من أجزاء ماهية النسبة الواحدة، والعالم الواحد المفارق، وتجعل الولادة من حيث تولد الشيء عن الشيء من جهة السبب والمسبب؛ لأن الإنسان في التوجه إلى الكمال يحتاج إلى عمل جسماني وبحث روحاني، وهو سبب الاثنين، وهما متولدان عنه وصادران منه وإليه يكون الوصول بهما؛ فكانت معرفته بذاته ووصوله إليها نتيجة عن المقدمتين اللتين هما العلم والعمل؛ فمن حيث هو نتيجة سُمِّي مولودًا، إذ المولود نتيجة الأبوين في الظاهر، وهما سببان له ومقدمتان.

فلما كان تجريد الإنسان وإدراك حقيقته نتيجة عن العلم والعمل، كان العلم والعمل شبه الأبوين، وكان هو شبه الابن الذي هو نتيجة عن المقدمتين، وفي معرفته لذاته وإدراكه لها كانت جنته وكماله، فقال: (**لن يدخل الجنة من لم يولد الولادتين**).

معناه: من لم تظهر ماهيته وتحصل له حقيقته بالسببين: العلم والعمل، إذ هما شرط في خروج الإنسانية من القوة إلى الفعل، وخروجها من القوة إلى الفعل هو الجنة، وهو الكمال، وقد يكون أراد به إدراك حقيقة المبدع الأول، والتجوهر به والاستيلاء على خاصيتي الإفادة والاستفادة، وتكون الولادتان في ماهيته الواحدة ماهيته، فإن المولود هو

الصادر عن الشيء، ويكون والدًا من حيث يفيد لغيره، وتتولد عنه النفس الكلية وما بعدها، فهو والد مولود معًا، ويكون له شرفان: شرف النسبة والخلافة في التصريف والفيض على غيره، وشرف القرب من المبدع الأول وقبول الزيادة منه والنظر إليه، وهذه سعادة عظيمة ورفعة، فقال: لن يلج الجنة مَن لم يولد الولادتين.

معناه: مَن لم يصل إلى هذه المرتبة، وهذا الجوهر هو المخصوص فهذا الشرف عظيم.

وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذي أردناه في التفسير، ولكن هو منه وداخل معه بالمعنى فنرجع، فنقول: الحبيب حقيقة هو الذي يدبر سعادة الإنسان في الآخرة، ويتمم جوهره، ويخرج ذاته الروحانية من القوة إلى الفعل، ويستدرجه بالصنائع العملية والعلمية والأحوال الكسبية والخلقية حتى يبلغه إلى غايته، ويعطيه كماله وحقيقته التي لا يمكن أن يزاد فيها وينقص منها؛ وهذا هو مطلوب السعداء، والذي يفعل لهم ذلك هو الذي يتخذونه محبوبًا وقدوة ووالد إفادة ودليلاً إلى الله ووسيلة إليه؛ وهذا هو الشيخ.

فالمشايخ: هم الآباء حقيقة، وهم المحبوبون لذوى العقول الراجحة والنفوس السعيدة، وأكملهم في ذلك، وأولاهم بذلك الوارث المحقق الذي هو والد المشايخ والمريدين، وقدوة المفيدين والمستفيدين، وهو الذي قامت به الأوصاف المذكورة قبل، وهو الذي ذكرنا في تفسير المسألة التي تقدمت قبل هذه التي فيها قوله: (ولا تخالط)، فهو المحبوب للكل والكامل حقيقة.

وأمّا قولي لك: هو شيخ المفيدين والمستفيدين؛ فقد فسرته لك في المسألة المذكورة قبل حيث قلت: إن كل آنية محاطة ترجع إلى آنية محيطة، ويرجع كل محيط ومحاط بالتركيب إلى الإحاطة الكبرى التي هي الوارثة المذكورة قبل، فهو إحاطة الإحاطات، ومفيد المفيدين والمستفيدين، وشيخ المشايخ والمريدين، ومحبوب المحبين والمحبين، مثال ذلك في العقول أن نقول....... [1].

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كلامٌ مشير بوجه ما يشبه كلام البشر، وإشارة ناصح في كل الوجوه يعقل قدر الأثر، قلت: إن كان تحصيل الكمال الإنساني، والمقصد الأقصى، والشيء الذي هو من قبيل

(1) إلى هنا انتهى المنقول في المخطوط، وبه وقفة كاتبه.

الشيء الذي ينال بعد نيل الشيء الذي يشترط فيه سر المسجد الأقصى، ويُخطف بعد عجز النُهي، ويُقطف من شجرة ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: 42] لا من شجرة طوبى وسدرة المنتهى، مما يمكن في الإنسان من غير أن يبحث عنه بالعلوم العلمية والعلمية ويقتصر على تصوره وتصديقه وعلى ما يتم ويقتضي فيها، ولا يمتحن نفسه وعادته بالحكمة التي تقبل المعنى النافع حسب ما يعطيه ويقتضيه طبيعة البرهان، ويصح له بها ما يجب كما يجب على ما يجب في الوقت الذي يجب، ولا يكون بالجملة باحثًا ولا مثالها فهو، والله أعلم، في الانصراف إلى ما يجده الإنسان من نفسه، ومن القوة الشاعرة بالقوى التي فيه المتوهمة التي تنصرف إليها المعلومات والمدركات كلها، وهي مثل الكليات التي أحاطتها بها، وكالمركز بالنظر إلى جذبها إياها، وكالصور المقومة بالنظر إلى وجودها معها وكالصورة المتممة بالنظر إلى اعتبارها، فالسعيد الظافر بها.

وهذه القوى ترجع إلى قوة تُسمَّى الكلمة الجامعة المانعة المحيطة بكل ما يتوهم أو يتحقق أو يتوسط في أمره، وهي المعنى المشار إليه والمعول، بحول الله تعالى، عليه. وأول تلك القوى: هي القوة النـــزوعية الجاذبة الدافعة، وإن شئت قلت: الإرادة، وقوة التعلق التي تربط في الوهم الصفة بزائد على المحل، وتكون داخل الذهن وخارجه، وإن شئت قلت: الإدراك والقوة المحدثة التي يتكلم بها الضمير، وتتأتي بها المخاطبة في الخلد، وهي لسان الوارد والإلهام وبعض أنواع الوحي، وهي الهاتف أو محله بوجه ما.

وإن شئت قلت: المفصلة والخبر، فإن جميع ذلك يرجع إليها، وقوة الملكة، وهي المعرفة المحركة والباردة والمسكنة.

وإن شئت قلت: القدرة والحيلة محمولة في جميعها أعني: القوة المذكورة غير أنها عارضة لها، أو شبيهة بالعارض بالنظر إليها مجردة، ومن وجه وجودها الرسمي فقط.

وتلك القوة المتقدمة التي قلنا أنها جامعة مانعة تحركه ولا تحرك، وتحرك وتحرك بجهة وجهة، ثم تحرك ولا تحرك، ثم الجميع، ثم تكون لا ساكنة ولا متحركة، وهي التي تنـــزع وتدرك وتخبر وتقدر وتحد، والذهن فيها وبها كأنه محيط بها بثبوت غير معين ولا يمكن أن يكون معها شيء لا قبل ماهيتها، ولا بعد ماهيتها، ولا مع ماهيتها؛ بل لا يمكن أن يفرض فيها القبل والبعد والمعية، وجميع هذه القوى هي التي يجدها الإنسان في ذاته خاصة، فدع عنك هذا البحث عن النفس الجزئية والكلية، وعن العقل الكلي، وعقل الكل، والعقول الثواني، والذوات المختلف فيها بين المشائين وغيرهم، وبين الشرائع والنواميس الوضيعة، وسائر المذاهب، والروح الكلي على مذهب الصوفية والمراتب

المتوجه إليها على رأى بعض أهل الحق، وبالجملة الروحاني والجسماني.

فجميع ذلك إليها ينصرف، وهي له كالأنموذج أوكالهيولى[1] بوجه ما عند الضعفاء، وهي الكلي عند القوي المدرك، ثم إذا نظر إلى ضميره وصرف الأربعة المذكورة إلى القوة المتقدمة المحيطة بالكل، وكذلك يفعل في جميع أموره الواجبة واللازمة والعرضية ولا يترك شيئًا من المعلومات الأربعة أعني: الواجب والممكن والعدم والمحال، وجميع ما أدركه الحس أو تطرق إليه الوهم أو دل عليه الدليل، أو علم بالبديهة، ولا الوجود المطلق والمقيد والمقدر، إذا أراد أن يقف على الحق ويعاين مرغوبه بعين كامله وحقيقته إلا صرفه إليها؛ فتأنس بصيدها بالشرك الذي رسمنا في «التوجه»، و«الفتح المشترك»، «والرسالة الرضوانية».

ومما ينتفع به تصور الحياة السارية في الموجودات، والسكون المستند إلى الوجود وإلى وحدته.

فإن تأنست، وإلا تأمل الذات العريّة عن المادة صحبة سكينة وأشخاص، ثم الثبوت بها بشيء لا كالمستند إلى الشيء، ولا كالمرتكز فيه، ولا كالمربوط عليه، ولا كالملتحم به، ولا كالحال فيه حلول الماء في الإناء؛ ولكنه وجود يسيل ولا يقف، ويستمر ولا يختلف ويشار إليه صحبة بمجموعة الأول والآخر والظاهر والباطن إشارة من شخص فيه فكان ثم كان ولا مكان، ثم كون المكان ودبر الزمان.

فإن تأنست، وإلا أكثر من فرض الاتحاد بالقوة الوهمية مع علمك بأنه لا يصح في الواحد من كل الجهات؛ لكنك تنتفع به، وبه تخضع القوة المعللة إلى قوة الخبر في قوة التحقيق، وتلك القوة المعللة مع التحقيق كالقوة الخيالية مع العقل والبرهان في العلوم النظرية، فإن العقل يقطع بالمعلوم ويحصره، والخيالية تتحرك وتطلب ما وراء المنحصر

(1) قال سيدي علي وفا في المسامع: الأجسام بموجوديتها القابلية المُسمَّاة بالهيولى قبولاً، وبالمادة اللاهوتية قابلاً، هي باستعدادها لتجلِّي الروح المفارق فيها كالمرايا، والمنطبع فيها بذلك التجلِّي هو النفس المتجسمة، والروح المجسدة الحالة في المدارك البشرية، وهي ظل الروح المفارق والمدد، أعني استمرار التجلِّي باقيًا ما دام مانع القبول منفيًّا، فإذا وقع المانع زال ذلك الظل بزوال التجلِّي، وذلك هو الموت، ومفارقة الروح للبدن، وذلك المانع تارة يكون من طبيعة الجسم فهو كالصدأ للمرآة، وتارة بأسباب خارجية كالعوارض المانعة للتجلِّي في المرآة، فمن تصور أن المانع هو الموت جعل الموت وصفًا ثبوتيًّا، ومن تصوره انتفاء التجلِّي الحاصل بذلك المانع جعله عدميًّا.

واختبر ذلك بما وراء العالم وبالخلاء والملاء، وما أشبه ذلك، ولا تساعده من صفة نفسها، وفائدة الاتحاد ضبط النفس بغبطة ما وهمية عسى أن تقل حركتها، وتنفذ مباحث عادتها وتفرح بذاتها، ويصح لك الشعور في الضمير بالوحدة المخطوفة بالقوة النازلة من القصد إلى فيض الهوية التي يلحقها الحق المفروض المسمى بالروح والواسطة، والرب المألوف والصفة كما يلحق الحسن الصورة.

فإن تأنست، وإلا فاجعل إهمال البرهان الصناعي والأقيسة الصناعية والنفسانية، وجميع أنحاء المتقدمات التي ما بين الناس والقضايا الحملية والشرطية مقدمة، والتوحيد الذي لا يصح معه توحيد بل يكفر به توحيد من لا يعلمه، نعم! وبواحد وموحده وتوحيده مقدمة أخرى، ويكون الحد الأوسط هنا خير الأمور، والأصغر الوقار، والأكبر التفريد، والنتيجة الغبطة، والقياس الاستخارة، والبرهان انتظار الفتح فاصبر على هذا الاصطلاح بقدر ما يظهر لك بالوهم بسلب السلب، وإيجاب الإيجاب؛ بل بسلب الإيجاب، وإيجاب السلب أو تترك الجميع صحبة ثبوته، ولا تهمل ما تجده من جهلك بنفسك، ولا تخف من جنونك في هذا الوقت، فإنه عالم أكمل وهو الذي يُسمَّى أكبر في كل لحظة، وعندما تذكر صورة هناك وبه تصل. ومن صفة نفس هذا العالم الجهل بالأول. والجهل بما يحتوى عليه.

فإن تأنست، وإلا تصفح أحوال الملة، وأحوال وضعها وأهلها، وخذ نفسك بالتقليل فيها لا بالتصريف؛ لأنك تريد أن تنال الإدراك المتوحد الذي لا ينال بزائد عليه، وهو مدرِك ومدرَك معًا من كل الجهات.

فإن تأنست، وإلا فافرض على وهمك تصور الفيض لكي ينقطع عنك الاستناد العلمي وتتصل بالصورة الحاضرة، فإذا وقفت هذا الموقف ولاحت لك نكتة الاتصال، فاصرف الفيض إلى الوهم، والصورة إلى أوله، والحض إلى آخره، والوقوف والاتصال إليك؛ تجد أنك ما غايرت ولا غُويرت، ولا تثبت على هذا الحال، وانظر فإنك أكبر.

فإن تأنست، وإلا فارحل إلى رجل يدبرك بخواص الأسماء القائمة به، فإن نلت ما تريد وإلا فارحل إلى غيره يدبرك بالتصريف، ولا تقبل العبارة في هذه المرتبة، ولا الإشارة، ولا اللطيفة، ولا الدقيقة، ولا الحقيقة إلا من جهة الشعور خاصة، والنصيب الإلهي، ولا تقل: نعلم الوجود، ونحيط بالموجودات؛ بل تقول: نجد الوجود، ونتصرف في الموجودات، ونحتاج أن نصل إلى دار يستجيب فيك الجميع، ويكون المخالف عندك أكثر من المألوف، وتتبع ذلك حتى يكون الأمر بالعكس، ولا تقنع حتى تجد الذوات

المجردة من تطورك، والممكن من وهمك، والمحال من خبرك، والواجب عينك، والربّ المألوف حرفًا من حروف دينك الذي فرضته، لا الذي فرض عليك، فقد كان ذلك ونسخ بالمضمار، وعاد كلامه ﷺ افتقارك إلى تعين ماهيتك حالاً وخبرًا، ومشاهدته بسكون أخبارك هُوية وآنية، وتوحيده وقوفك على رشدك الثابت المعصوم بوجه ما.

فإن تأنست، وإلا فاعلم أن أمرك من فوق التصرف، والعلم الثاني، والثالث الذي لا حاجة للمقامات فيه ولا مدخل، ولا يجد عند الخواص، نعم وعن الأسماء الحسنى، فإن المقامات لا تصح مع جميع الموجودات في وحدة محضة؛ ولذلك الخواص لا تفرض في معنى فينعكس قبل فرضه ويتنوع من صفة نفسه من حيث يثبت، والمعلوم من كل الجهات لا اسم له يميزه عن غيره، فإن ذلك ممنوع، فقل: ولا حاجة لي بالصورة، ولا منفعة في التوحيد، ولا خير عندي في الفيض، ولا سعادة في الحلول، ولا فائدة في الاتحاد، ولا شوق إلى مقام، ولا غبطة باسم يغاير أو يتردد في أمره، ولا يحتاج إلى خاصة، ولا إلى الخواص الذين أعمالهم منحطة وأحكامهم واقفة. فإن الحق قبل ذلك كله، بعد ذلك كله، عند ذلك كله، عند آخر ذلك كله، وسلم على «ابن العرِّيف» وعرفه لا بتعريفه، وخطه على عريفه، ونكرة معرفته، وكفر معروفه، وسرى معروفه، وسد معارفه.

ثم انظر إلى الإحاطة[1]، وتأمل ما فيها، وحرر القول فيها، وعندك أن تحصيل الحاصل محال، والعدم من كل الجهات لا يظفر ولا يُظفر به، وإن قولك الحق والوجود والشيء والأمر والذات، وما أشبه ذلك من الأسماء المترادفة مع الإحاطة، وقد يقال معها بتواطؤ؛ بل هي الكل، وإن صح أن يقال: كل الكل والعموم والخصوص والفرد والزوج والعدد والمعدود، ثم غير ذلك من حيث هي ذلك.

وبالجملة، افرض أن المطلوب في شيء واحد ليس إلا وهو واحد وأكبر من أن يُقال له واحد بالجنس أم بالنوع أو بالشخص أو بالفرض أو بعدم الانقسام أو بعدم المثل أو بالواحد الذي لا نظير له بالقوة ولا بالفعل، أو الواحد الذي ذكر فيما بعد الطبيعة؛ بل الذي ذكرته الصوفية، بل الذي وجدته في أذواقها فإن ذلك كله انجرار الوهم.

وكذلك الصورة التي يُقال فيها إنها هو وإن الجميع جزء ماهيتها، وكذلك الواحد

---

(1) قال سيدي محمد وفا في الشعائر: الإحاطة هي تكثير الواحد بالتجلي في هيئات متنوعة، كالماء ينعقد بردًا.

وحقيقة الإحاطة أن يكون المحيط بالذات محاط به بالشخص في العين، وفي المعنى أن يكون المحيط بالعلم محاط به بالمعلوم الأول بالوجود والاستغراق، والثاني بالشهود والاستهلاك.

الذي يظهر أنه كالعارض للماهية، ويشبه الوجود، وأن الواجب هو هذا، والغير كالماهية المتقدمة، وقد يتوهم أن الممكن، وأن سوى هذا الوجود أو الموجود له وجه ذاته، وهو الافتقار المحض، ووجه إلى هذا الوجود به هو موجود، ولا توحيد الجنة ولا توحيد أهلها ولا توحيد من قال: «جل جنات الحق أن يكون مشرعًا لكل وارد».

ولا توحيد من قال: «ما وحّد الواحد من واحد».

ولا توحيد من قال: «لا يرى لا بنوره ولا يشهد إلا بحضوره».

ولا من قال: «كيف يرى من به يرى».

وبالجملة: الواحد منحصر في أربعة أجناس: الواحد بالاتصال، والواحد بأنه كل وتمام، والواحد الأول البسيط في جنس جنس، والواحد الكلي المقول بتقديم وتأخير على جميع ما عدد فيما بعد الطبيعة.

فجميع ذلك، خلاص فيه ولا خالص من حيث الكمال الذي فيه جميع الكمالات الثلاثة أعني: الكمال الذي يقطع الوهم، ويحقق الحق، ويستجيب الجميع فيه لا على ما ذكر ويمكن، ونكتته تتحرك وهو يتحرك معها، وغبطته مقصوده كذلك، ويشبه بالمغناطيس الذي يلزم فيه الدور لمَن فهم، وضرب هذه الكلمات ثم صرفها.

وهذا العلم في الخلد قبل التصور والتصديق لا بعدها، والجاهل الحكيم هو الذي يقول: الحياة شرط في العقل، والعقل شرط في العلم، والعلم شرط في العمل، والعمل شرط في الفضل، والفضل شرط في السعادة، والسعادة شرط في الخير، والخير شرط في الكمال، والكمال شرط في الوحدة، والوحدة هي شرط في المطلوب، والمطلوب هو الذي يُقال بترادف مع الأشياء، وبتواطؤ قبلها، وباشتراك بعدها، وبترجيح معها له، وباشتقاق فيها إليه، وبارتحال عنها منه، وباستعارة فيها له.

والفاضل العليم يجعل الشرط في مكان المشروط، والخليفة الحكيم يجعل الشرط المشروط من غير تقدم ولا تأخير، والحكيم العليم لا يجد ذلك لكونه ذلك.

خذ واحفظ الوقت واصرف ذلك إلى الوهم وإضافته ثم إلى المعنى الحاصل من غير تعليل ولا توقف ولا إهمال، فنرجع إلى الإحاطة المذكورة فنقول: إن الخارج عنها ممنوع ومعدوم لما قدرنا، والداخل فيها قد أحاطت به هي حتى بقول داخل وخارج، فإنها لا تحيط بأعداد ولا بذوات مميزة، ولا هي كالمكان، ولا يمكن فيها المكان، ولا الزمان، ولا العدد ولا الإضافة، ولا الأخبار؛ لأنها إذا كانت الكل كانت بمعنى واحد ليس إلا، فهي إحاطة تدور على شبه السلب في الوهم الأول؛ لأنها تجذب وتصرف وتحيل العدد

إلى الواحد، ثم تمنع زمان الإحاطة وزمان الجمع وزمان التفرقة، وكأنما يكن قط شيئًا مذكورًا إلا أنها الذاكر والمذكر والمذكور.

وبالجملة: هي واحدة في الكل واحد واحد بحسب ما ذكر، فكيف بحسب ما يراد أم كيفما يوجد؟ وهذا لمَن تصور الوجود والعدم، وقال: كذا وكذا، وهذا وذاك، وأنا وأنت وأنتم، وما أشبه ذلك، ثم تدور حتى تمهل المخصص وتخصص المهمل، ثم تدور حتى يصمت المسائل، وتنوب هي عنه لأنها هو، والمراد بذلك ألا تخاطبه ولا يخاطبها، والمراد بذلك قطع التتابع والانفصال، ثم تدور عليه حتى تكون الحق، ثم تدور عليه حتى يكون الحق والباطل فيها، ثم تدور عليه حتى يحقق الحق والباطل يبطل، ثم ترجع له دائرة وهمية يفعل فيها ما شاء، ويصرف من شاء عن من شاء، ويصرف إليها ما شاء كما شاء، ثم تدور عليه وتكون مصمتة صمدية لا جوف لها، وتكون حضرة يكون فيها الحق ولا شيء معه.

والأول: كالعرش، والثاني: كالكرسي، والثالث: السموات، الرابع: العناصر، الخامس: المولدات، والسادس: الحركات، والسابع: الأكوان، والثامن: الحياة العادية في الجميع، والتاسع: الحي، والعاشر: الصورة الجامعة، والحادي عشر: الكبير بالقول، الواحد بالوضع، وهذا كله هو فيها، وهذا كل من فرض المتكلم، ومن قبيل الشائع في العرف الجاري، وبالنظر إليها هي تدور عليه وتديره حتى عن قوله إيه، ومعنى تدور: تحيل الأشياء إليها، ومعنى تحيل الأشياء إليها لكي ينقطع الوهم، ومعنى ينقطع الوهم: أن تكون هي عندك الأشياء بجملتها، ومعنى أن تكون عندك الأشياء بجملتها: أن تكون هي أنت، ومعنى أن تكون هي أنت: ألا تكون أنت ولا هي.

وهذا يكون من حيث الفرض والعدد والوهم لا من حيث الوجود، فإن الواحد من كل الجهات لا يصح فيه إلا ما قلنا، فنرجع ونمنع جميع ما يفرض فيها أو يهجس أو يعلم وما أشبه ذلك، لا يُقال فيها لفظة لأنها غير منسوبة لشيء، ولا موضوعة في شيء، ولا يُقال فيها كالجزء من الخط، ولا تجعل في الوهم مفروضة، ولا كالبذر للنبات، ولا في سطح شيء، ولا في وسط شيء، ولا على شيء، ولا من شيء، ولا تمثل بالجوهر الفرد، ولا فقدها قط الفرد، ولا تكون مكيالاً للتعدد، ولا مفهوم الواحد الأول، ولا هي حرة عن ذلك، ولا كالدائرة، فإنها لا تحيط بما يفرض عليها أو فيها؛ لأن النقطة منها تشبه الخط، والخط يشبه الدائرة؛ بل كل ذلك خط، وكل ذلك نقطة، وكل ذلك دائرة، والأبعاد الثلاثة في الواحد منها كالواحد الثاني من كل واحد منها، فلا أبعاد فيها على كل

حال من حيث المحال المتوجه، ومَن أثبتها فقد جاز الأبعاد.

وبالجملة: لا تمتد ولا حركة فيها؛ لأنها لا تبدأ من شيء، ولا تمر على شيء، ولا تتصل بشيء، ولا تفتقر إلى محرك، ولا تكون محركة؛ لأنها ذلك بكليته، والشيء لا يتعدد في ماهيته من حيث الماهية المستقلة لا من حيث أجزاء الماهية، فإنها ماهية لا تفتقر إلى حدٍّ ولا يصطادها الحادّ بالحد، فعينها أينها، وأينها كونها، وكونها كلها، المقولات نقطة منها، والنقطة عندها كالخط، والخط عندها كالدائرة فيها، والدائرة فيها دائرة عليها، ولا وسط لها ولا قطب، ولا يفهم الحكيم والقطب، فهي بالله في الوهم، وهي الله في الحقيقة.

إيه! ومن الأوهام حتى قولك: تدور وتكون، وما أشبه ذلك.

وبالجملة: المراد بهذا التنبيه إنما هو كالصوت الذي يوقظ النائم لا كالكلام الذي يطلب في مدلوله الفائدة، فحيٌّ بن يقظان فيها، والجاهل من الناس بل الحيوان والنبات والمعدن كالشيء الواحد.

إيه! ثم نرجع ونقول: المطلوب الخارج عنها باطل، والداخل فيها مثله، كذلك لما أصلناه قل أن يكون من قبيل تحصيل الحاصل، وهو من المحال؛ لأنها لم تغاير شيئًا، ولا غايرها شيء، ولا ماثلت شيئًا ولا خالفت ولا خُولفت فهي كل شيء، وذلك الشيء كل شيء، فصح للظافر بهذه الحالة أنه الأول والآخر والظاهر والباطن.

فإن كان ذلك خبره فقد أفيد المقصود وهمًا، وإن كان في خبره وحاله معًا فقد أفيده تصريفًا، وإن كان في ماهيته لكونه كان في غير ماهيته فهو وجود واجب، فمَن أراد أن ينالها بالجملة ينصرف إلى الله العليم، بل إليه هو أعني: القديم الحكيم، وتحيله على التوجه والذكر لا على التعليم والفكر، والله يسهل من جهة واحدة لا من جهة وحدته.

وبالجملة: مَن كانت ذاته في الخبر كان الكل وهمًا، ومَن كانت ذاته في الحال كان حقًا وقتًا ما، ومَن كانت ذاته في السكينة والتأييد والوجود الجائز كان الحق المنسوب بوجه أنقص، ومَن كانت ذاته الحق المنسوب بوجه أنقص كان الحق المنسوب بوجه متوسط، ومَن كان الحق المنسوب بوجه متوسط كان الحقيقة بوجه أكمل، ومَن كان الحقيقة بوجه أكمل وجد الله، ومَن وجد الله بوجه أكمل أو بما يجد ذلك «كان الله ولا شيء معه»[1]. ووجد الأشياء في ماهيته غير منفكة، ووجدها قد قبلت على ذوات وهمية، ومُسمَّيات خبرية، ومستدركات منصرفة، فسبحان الكبير بالقول الذي يُقال فيه شيء وأشياء بالوهم

(1) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (104/4)، ونحوه في البخاري.

الواحد بالمعنى، والوتر بالفرد، والفرد بالوضع، وهو واحد حتى في وحدته، ويحق لكائن أن يقرأ: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83].

إيه! مَن علم العبودية حقيقة علم الله ﷻ وهمًا، غلاف العالم الأول وأعوانه الذي يقولون: «من عرف نفسه عرف ربه»[1]، وهيهات المعروف الذي إذ نظر إلى وحدته صحح أنها واحدة حتى في العدد والمعدود، إذا انقسم لم يعلم، فلا تقديم ولا تأخير فيه إلا وهمًا، ولا شرط ولا مشروط، ولا سبب ولا مسبب، ولا علة ولا معلول، ولا واجب لغيره، ولا ممكن في ذاته، ولا محال فيها محال تابع لها، فاقبض وابسط، وحلل وركب؛ يصح لك. غير أنه إن قلت كل ذلك لم تكن قلت الحق، وقيل لك كذبت، وإن قلت ذلك في واحد والوهم منصرف؛ قلت الوهم، وقيل لك: صدقت.

إيه! فمَن علم الأمر بكماله علم الروح، والروح هنا شيء ما لمعنى؛ لأنه فاعل أو منفعل، ومَن كان ذلك كان نور الله المظلم، ومَن كان نور الله المظلم كان روحه القائم في الأشياء وبه قامت، ومَن كان روحه القائم في الأشياء كما قيل كان نور الله الكاشف، ومَن كان نور الله الكاشف؛ كان روحه القائم بذاته، ومَن كان روحه القائم بذاته كان هو الأشياء بوجه أنقص، ومَن كانت الأشياء هو بوجه أنقص؛ كان الإحاطة الصمدية، ومَن كان الإحاطة الصمدية كان هو الأشياء بوجه أكمل، ومَن كان ذلك بجملته؛ كان الكامل المذكور الذي ذكرناه في قولنا: إن كان تحصيل الكمال الإنساني، إلى آخره، وكان المكمل لمًا سواه. فكان الحق المصطلح الذي يظفر به بالجملة الحاصلة المذكورة، ويصح له بعد ذلك أن يظفر بالحق الذي يظفر به، واختبر ذلك بطريقة القياس وأسباب العادة، لا بحقيقة القياس وعرف العادة، قدر أنك لا تلتفت إليها وتشرع في تقسيم المعلوم إذًا إلى الأوهام التي ذكرناها قبل، وتقف عند الموجود، وتحقق الوسائط والآلات والأمور والروابط بين الممكن والواجب والعلة والمعلول، وقصد إلى القصد الأول والثاني، والفصول المشتركة، وعالم العقل الذي يذكره أفلاطن في قوله: إن العلة الأولى في فصل النوع الأخير. والعماء[2] الذي تذكره الصوفية[3]، والأمثال المعقولة والكليات والمبادئ

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفا (343/2)، والقاري في المصنوع (189/1).

(2) وقد وُرد في الخبر: «كان ربُنا في عماءٍ ما فوقه هواء، وما تحته هواء» رواه الترمذي (288/5)، وأحمد (11/4)، وابن ماجه (64/1).

(3) قال سيدي علي وفا في المسامع: هذا العماء هو صورة كون الإنسان التي بالتعلق العقلي تعين فيها الرب الرحمن، وغاب في ذلك التعين بالتنـــزيه الفرقاني عن أعين عقول الفرقان، وتلك الصورة =

والمراتب والتقديم والتأخير والقدم والجبروت والآنية والهوية، ومن هويته آنيته، ومن هويته غير آنيته، ومن يعرض للشيء، ومن حيث يكون ذلك الشيء موجودًا بالعرض المذكور، ومَن لا يكون وجوده عارضًا لماهيته، ومَن تكون ماهيته لا كما ذكرنا بالجود هو حيز ما ذكر، وتحقق الدهر والحركة والزمان، وما صدر من العلم والنسب، وما كان بالقصد والسبب، وما كان في الشيء الذي لا وجد لمشيئته، ثم تأخرت ولم تزل، وتقدمت ولم تكن، ثم ألزمها الحدوث في خبره والقدم في علم مخبره، والوجود شبه الواسطة أوكل ذلك، وتحقق حق النقطة والمبدأ.

وتقول: الموجودات التي حصرها هذا الوجود عشرة، أو محمول وموضوع، ثم تقسمه وتقول: الوجود ينقسم إلى موجود قديم بغاية، وإلى قديم بغير غاية، فهذا الذي لا غاية له: هو الله الواجب الوجود العلة التمامية، خواصه خمسة عشر، وهو يوصف ولا يرسم ولا يحل إلا بالفرض الملائم أو بملاحظة القائم، أو الخبر من قبل الهائم، وأسماؤه الأول تنقسم إلى أسماء ذاتية: كالحق والواحد وأزل، وما أشبه ذلك، وأسماء صفته: كالعليم والسميع والبصير، وما أشبه ذلك، ومن أسماء فعله: الخالق والرازق، وما أشبه ذلك، وأسماء تنـــزيهه: كالقدوس والجليل والعزيز، وما أشبه ذلك، وأسماء التعظيم: كالقادر والقاهر والغني، وغير ذلك من الأسماء المشتقة، تمتد بامتداد المعلومات والمضمرات، وتصل إلى الحق من ألف، فلا نهاية لها بوجه ما.

والمشتركة والمرتجلة مائة وواحد عند بعض الناس، والمنقولة تسعة وتسعون، والاسم الأعلى مذكور في سورة (النساء)، ومكتوبٌ في (الأنعام)، ومقروء في (الأعراف)، وموجود في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1].

ثم تصرف هذه الأسماء صفات، ثم تنظر هل تكون زائدة عليه، أو ليست بزائدة، أو يكون في كل واحد معنى كل واحد، أو هو هي، أو هي هو، أو البعض منها هو، والبعض هو، والبعض ليس كذلك، ومنها ما يُقال فيها لا هو هي، ولا هو غيرها، ومنها ما يجعل

-

الآدمية هي عرشه الكائن على ماء النطفة المنوية، وهذا العماء في شخصيته المفارقة الخيالية ما فوقه هواء وما تحته هواء: أي ليس تحته شيءٌ، ولا فوقه شيءٌ، فلا فوقه ولا تحته، وفي شخصيته الإحساسية هو كما ترى، فـــ(ما) بالمعنى الأول نافية، ونافية أيضًا إذا كان (هوى) بمعنى سقط، وبالثاني موصولة، وهواء بمعنى فراغ، أو جوهر هباء، وكلٌ صحيحٌ في حكم عالمه ودائرة حاكمه.

غيرًا محضًا، أو يكون كالقوى الزائدة.

ثم تنظر إلى ما لقِدَمه غاية، وتقسمه إلى جوهر وعرض، وإلى المجتمع منها؛ وهو الجسم، ثم تنظر إلى الأكوان وتقسمها إلى الاجتماع والافتراق، وتقول: الجسم هو المؤلف، والجوهر هو الجزء الذي لا يتجزأ، وهو الفرد إلا من مثله، وهو الذي يأخذه قسطه المساحة، ويمانع ويقبل العرض من كل جنس، وتقوم به الأحوال المعللة وغير المعللة، وله جرم واختلف فيه: هل خلق ساكنًا، أو متحركًا؟ والأظهر فيه السكون، وكذلك اختلف في شكله في تقسم العرض إلى غير وخلاف ومثل، وتقسمه إلى مدركات الحواس وقد وصله بعض الناس إلى أربعين، وإلى أكثر من ذلك.

وقد يحصر ذلك ويُقال: الله وأفعاله، وتحرر العبارة فيه ويُقال: الوجود والمقيد والمقدر، ومنهم مَن قال: الوجود الأول الذي لا أول لوجوده، ولا سبب له مقوم لِمَا بعده، ومنهم مَن قال: كل شيء يحتاج أن يخرج من القوة إلى الفعل؛ فهو القائم المقوم المتمم، وقد يُقال: الجليل المعتبر الذي يتردد الذهن في ثبوته، ويعجز عن تصوره، لكنه يشير بمعناه إلى جلالة مطلقة، ويشعر بها لها في ماهيته هو، وهذا الشعور: هو وجوده وبه كان، وقد يُقال الله كما قيل، ثم الهباء، والذرة والقلم، ثم اللواحق والأجناس، ثم الأنواع والأشخاص، وقد يُقال الملائكة المطلقة، والوجود المتسع، والتسعة والتسعون وسيلة والمنوط بها وما وراء ذلك، ويحمل على أكثر من واحد، وقد لا يحمل.

وإن شئت قلت: الجوهر ينقسم إلى الجسماني والروحاني، والروحاني: هو الذي لا يكون متحركًا ولا ساكنًا، وهو ينقسم إلى عقول ونفوس سارية في الأجسام الفلكية والطبيعية، وإلى الصور المجردة، وإلى الهيولى الأولى بحسب مذهب ما، وقد يُقال العقل، والنفس الكلية عند من أثبتها.

والفلك ينقسم إلى تسعة أشخاص بحسب رأي الأكثر: فأول الأشخاص المذكورة الفلك الأطلس الحامل الذي يتحرك الحركة اليومية، وحركته من المشرق إلى المغرب، وكذلك رأس الجوزهر خاصة، ثم الفلك المكوكب، وكواكبه ثابتة، وفيه المنازل والبروج المنسوبة إليه بالصورة، وإلى الأطلس بالمحاذاة والقسم والحصر، والصور والكواكب المنيرة وغير المنيرة، والثمانية والأربعون صورة منها شمالي، ومنها جنوبي، والقطبين الجنوبي والشمالي، والمجرة والعيوقات واليمامية، ثم الأشخاص الباقية المتحركة، كل كوكب منهم له خمسة أفلاك: الممثل، والفلك المائل، والفلك الخارج المركز، والحامل، وفلك التدوير، وتقاطع الجوزهرات والنوبهرات وذوات الذوائب، والصحيح أنها تحت مقعر فلك كما

برهن عن ذلك أرسطو في «الآثار العلوية»، وأثبت أنها من بخار يصل إلى هنالك. وكيف بداية هذا الكون على كلام بلنياس في تكوين الكون من محدب فلك الأطلس إلى مركز العالم، وكيف دوام الحركة في طول الأزمان حتى ظهر المزيد مما يطول شرحه في كميته، وكيفيتها، وأن الشمس تطلع على قوم دون قوم، وتكون في ساعة على قوم نهار وعلى آخر ليل، والمركز ساكن بسرعة حركة المحيط، وظهور المعدن والنبات والحيوان، وينقسم المعدن إلى ما يذوب ويحترق، وإلى ما يذوب ولا يحترق، والنبات مما ينجم ويشجر ويقوم على ساق، وينقسم الحيوان إلى ما يتكون ويلد ويبيض.

فإذا اطلعت على علم الهيئة وتخلصت لك هذه القسمة، وجميع ما حللت وقسمت لكي تتبين به طمأنينة التأنيس، وترجع بعد خلاصك من القسمة المذكورة إلى قبل نفسك تجمع فيها جميع ما ذكر بوجه ألطف، وهي له شبه أنموذج، فتعود إلى الإحاطة المذكورة التي خرجت عنها، وأضربت عن تصورها، ثم تجد خبرك كأنه الكل، ويحتمل الكل وتسمع أمثلة الجميع فيه، وكأنه إحاطة أخرى.

ثم تنظر إلى ذلك تجده يفتقر إلى معنى ما غير معين لكنه يعمه، وذلك المعنى هو الإحاطة المذكورة، ثم ترجع فتنظر إلى القسم المشار إليه المدرك خارج الذهن، وإلى القسم داخل الذهن؛ فتجد روح العالم الكلي وجسمه المطلق بحكمك في أمرك، والوهم الذي في هذا الموطن تجده كأنه محيط بالإحاطة المتقدمة، وهو من حيث يحيط وهمًا يماثلك، فإن الأعم والأخص والأصغر والأكبر لا يمنع الشبه، ولا يصل المثلية عن طريقها، وإن تغاير المثلان بوجه ما من جهة المكان والزمان، فلا يتغاير الوجود الذي يُقال عليهما بتواطؤ.

ثم ترجع إلى الوجود الذي ظهر عنه هذا هو فيه أو منه، أمَّا ما يمكن فيه، أو وجب له فتجده أعم من الثلاثة، فتكون إحاطة الإحاطات.

وقد يُقال إحاطة حقيقية تحيط بكل إحاطة وهمية، وهذه الإحاطة مع المتقدمة قبلها كالقوى المتقدمة مع الإحاطة المتقدمة، وهي التي انصرفنا إليها، وهي هي فقط ليس إلا، ثم ترجع إلى خبرك فتجد الجميع فيه، وهو مع هذا يتحرك إلى أكبر وأكبر مما يُقال له أكبر، وهو الكبير المتعالي الذي يخضع له الوهم المحيط المحاط به، ويسجد له من حيث الاستحقاق جميع ما ذكر؛ بل يعلم بوجه ما من جهة ثبوته في المغايرة لا غير، وبهذا يشهد الحق المطلق بالكلمة الجامعة المانعة الذي تقدم القول فيها وتوسط وتأخر.

وهذا هو الشرط الذي يدفع به كل شيء من طرفه إلى وسطه، والوسط الذي يجمع

الكل مضافًا إليه، ويسلم له في إضافته الوهم الأول والآخر، والظاهر والباطن، ويقول كل شيء؛ بل كل إحاطة وهمية، بل كل إحاطة ثابتة، بل الجميع الذي لم يقف القول فيه هالك إلا وجهه الذي لم يمكن أن يثبت معه شيء، ولا يهلك معه شيء؛ لأنه لو ثبت معه شيء غيره لكان الوهم ثابتًا بنفسه، والإحاطة مختلطة، والتوحيد مهلكًا، والكنه مختلاً، والمحال واقعًا.

ولو كان في وقت ما ثم زال، لزم أن يكون الحق مؤقتًا والتوحيد والكنه، وما قبل هذا ممنوع لا خير فيه. وقد تبين لك بهذا كله ألا ينبغي لك أن تخرج عنها، ولا يمكنك ذلك لكونك ذلك، فأينما تول فإليها يكن وجهك حتى إلى جهة الإضراب، وإن عين البُعد من عين الاقتراب، لأنها المتعلِق والمتعلَق معًا؛ فاجتمعت عليك، وانجذبت إليك؛ لأنك إذا صرفت وجهك عن الوهمية تقع في الأخرى، فإن صرفته عن الأخرى التي هي الحقيقة لا تقع في غيرها؛ لأنها جامعة، وحيثما تجد الضمير فينتقل من الإفكة الصغيرة إلى الإفكة الكبيرة حتى يقف الحال به، فالتي تحصر الجميع حصر الدائرة النقطة، وكالاعتراض الشديد السقطة، اعلم أن ذلك في الأوهام المنتشرة المنجرّة، وأنه قد حاد عن صراط الذين أنعم عليهم الذي لا شيء أرق من نسبته ولا أحدّ من سنته، فسبحان الذي يتوجه به اليوم، ويتضرعِ لديه وعليه، والعارف يحط رحل خطئه بطويته على الإحاطة، ويقرأ على كل خطة قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: 58].

وكما لا يمكن أن يتخطى بالخطوة محيط خط السماء، ولا يبعد المركز أن يتخطى بطبعه سطحًا ما، كذلك الإحاطة لا يشذ عنها شيء، ولا يفوتها شيء، ولا تحمل على شيء؛ لأنها حصرت الأشياء، ولا تحمل على شيء؛ لأن الواحد في نفسه لا ينقسم في كل شيء، ولا شيئًا شيئًا واحدة من جهتها من ذلك الشيء، وذكر الأشياء وهم من الأوهام ذُكر هناك للبيان، واضطر إليه بين الثنوية بين مخاطِب ومخاطَب، فإذا فهم المقصود انقطعت العبارات والأوهام في سجن الكافر الذي كفر بعبادته، ولم يصل إلى مقامه. كما أن الدنيا سجن المؤمن السالك، فمَن علم هذه الصورة، وحفظ بحافظته هذه السورة، وأكل من صورة البر؛ بل طاف به صور البر، وحكم موج البحر، وفوج البر وينال على هذه النعمة الحمد للعليم بخفيات الصدور الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويثيب على كظم نفثات الصدور، ومن خواصه التشتت والاتفاق والإيمان المحض، ثم الاتفاق.

تارة يقول: ذمام الدنيا مذموم، وهمامها مهموم، وأخرى يقول: البصير الذي لا يرفل

في أثواب اللاهي، ولا يغفل عن ثواب الله، وتارة تسمعه يقول: من صحا وصحح أسراره محا الله إسراره، ثم الحق لا يعرف معروفًا، ولا يفعل منكرًا ولا معروفًا، ويخزن سرًّا باح به معروفًا، ويجيب: هذا متح من البحر معروفًا، وتبصره في وقت ما على شيء تضحك منه في السنة والفرض، وفي أخرى يبكى عليه فيه من أجله إذا فقد السموات والأرض، وتبصره قد يخلق بالعلل والكسل، وتخلل بحمله الخلل والذلل، وتصرف في الضروري بالملل، وبأقبح ما يكره فيه كل المِلل.

هذا مما يظهر له من جهلهم بدلاً من قبيح يفعله حقيقة، ولا من جهله بربه، ومع هذا يقول: صل رحمك تجد الله تعالى قد رحمك، يستقيم في النكرة، ولا يقام عليه الحد، ويخلف في المعرفة، ولا يأخذه الرسم، والحد يمات في الشر، ويحيى في الخير ويبعث، ويستخلف في الجميع فيبحث، ويحض على سيره إذا سأل عن العارف، فيقول: الله ولا شيء معه، مَن إذا قضيت وفاء لك خانه الأمل وفاته، رجل يجمع بين الضدين، وينكر النجدين، ومع هذا يحتاط على محاله احتياط البخيل على جواهر النقدين، تريد تتخلص من هذا كله؟ قل: رب مالك، وعبد هالك، ووهم حالك، وحق سالك، وأنتم ذلك! اختلط في الإحاطة الزوج مع الفرد، واتحد فيه النجو مع الورد، واتفق فيه السفر مع الفرد وبالجملة، السبت هو يوم الأحد، والموحد هو عين الأحد، ويوم الفرض هو يوم العرض، والذاهب من الزمان هو الحاضر، والأول في العيان هو الآخر، والباطن في الجنان هو الظاهر، والمؤمن في الجنان هو الكافر، والفقير هو الغني.

وهذه وحدات حكمية لا أحداث وهمية، والمؤمن الكافر هو الذي يقول: سبحان من جعل من كل فرد زوجين اثنين، وجعل من زوج فردين، وجعل من كل فرد زوجين اثنين، ولم يكن قط في الوجود ثاني اثنين؛ بل يقول: سبحان الفرد الزوج الحضيض الأوج ثم تخرج عن هذا التوحيد المثالي، وتفر عن هذا التجريد الخيالي، وتنصرف إلى قانون العبودية المكتفية. وتقول: الكامل الكافر بوجه ما يضر نفسه بمضرتين، ويلدغ من جحر مرتين؛ لكونه يريد أن ينفعها بذلك منفعتين؛ لأن الخائف من لدغة الوهم الأول في العالم الأول الذي يحجب بالوعيد العبيد الأشقياء، ويضر بالوعد السعيد الصم الأتقياء، حرم نفسه الإعادة، ففاتته السعادة، وظلمته فتنة العادة بخرق العادة، والسالم هو الذي يلدغ فيموت، ويعدم فيفوت، ويكون بعد ذلك حيًّا لا يموت، قسم الوهم أنفع للسالك، وحجره أجمع للهالك، وكل ذلك أكمل للمالك؛ لأنه إذا قتل فقد، وإذا حقق فقد، وإذا أضرم أوقد، لم تكن النار أوقد.

وبالجملة: إذا نقص إدراكه كمل دراكه، فالتوجه إلى هذا الجحر خير، والإقامة في الجحر شر، فإنما ما جاء نهي المعصوم عنه ﷺ من جهة التكبر، أو من جهة التعجب. وما أراد الكافر إلا على الفاقد الجاحد لنكال الآخرة والأولى، أوكان منه نهيًا للمتوسطين من باب الآخرة والأولى، وكانت كلمة دبرت للضعفاء بحسب عرفهم وأمثالهم ومكالمتهم لأمثالهم.

إيه! الكمال كنه الكائن، والجمال رسم الكامن، والجلال اسم المكين، والجليل رب التلوين والتمكين.

إيه! هذه الكلمات كنـــز من كنوز الجنة؛ بل هي ذات الرضوان والمنّة، غير أن ذلك لا يصح إلا بفهم الواضع، وبقدر ما يفهم من كلام الوحيد الواضع.

إيه! إثبات السعادة في التوحيد المحض محض الحرمان، ونيلها في الموحد بكونها كنه رضوان الرحمن.

إيه! إياك أن تتوهم في هذا الرجل ما لا يجمل به ولا يصح في حقه، فتكون من الخاسرين، والأصلح أن تكون من الحاسدين بالحسن الذي يستحسن بين السعداء، الذي تركبت ماهيته من الغبطة، وطلب التشبه بالأعلى، وطلب الأخرى والأولى، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: 60]، والذي ينبغي لك أن تعتقد فيه أنه متوسط بين الخليفة المستقل، وبين الكيس المنتقل، وهو يستدل من حيث يمتثل، ويمتثل من حيث يستدل، وأنه جاز على المعلوم المحسوب، وتوسط في الوجود المنسوب، وتوجه إلى الواهب المحبوب، لا بالمكتوب ولا بالمكسوب، وبلغ سبب الأوهام المرشدة، والأفهام المنشدة، وهتك الحجاب، وقهر الحُجَّاب، وفتح الأبواب، وسلم الأسباب، ورحل عن مكانها؛ لكونه كان من كيانها، وصح له بهذا أن يكون كنه الإمكانات لا كنه الكمالات، وأسقط التركيب والتحليل، وبذلك تسمى، وسلم الكنه الكامل باحترامه للمسيء، وهجر الحد والرسم، ووجل الوصف والاسم، وتعلق بالأعظم، رغبة في الاسم الأعظم، وألزم طبيعته الطيبة المطمئنة الأدب، وجد في الطلب والسبب، وفي نيل الأرب، يغيب تارة ويتوحد، ويحضر أخرى ويتعدد، ثم يغيب عن كل ذلك، ثم يعود كذلك.

وجميع الأمور التي سمعتني نذكرها عنه التي هي من جنس ما يذم عادةً وعقلاً، ويحتقر فاعلها فرضًا وفعلاً، وتتوهم فيه من جهة الإضافة لا من جهة الانفراد؛ لأن القبيح لا يسكن في اعتقاده، ولا يتعلق بمراده، وهو يتوجه على تطوراته، ويستقيم في تصرفاته، وما عصى الكريم، ولا أطاع وهمًا، ولا نسي أصلاً، ولا جهل علمًا، فمتى أبصرت بحر

البصيرة يتحرك؛ أبشر فإن درته تصعد من حضيض ظلماته إلى أنوار أوجه، ومن مده وجزره إلى ساحله وموجه، واحذره أيضًا فإنه كما يدفع يجذب، ومن حيث يُوجِد يَسْلُب، وتنشد ماهيته بلسان حال حالها، هذا الخبير الذي يستدعي حصر الذوات، هو الحكيم الذي يستوفي كنه الهيئات.

إيه! فإن كان من بعض من كان، فهو الملك في ملكه المكان، وإن كان قد، أو ثم من بعد، فإنه الملك المكين في الكلمات.

إيه! الخارج في بقيته المشتغل بالأوهام بعد محاسبته، وجميع ما رفع في مخزن التلف، وذمته مستعارة أو بالسلف تسعة أوهام: العقول، والعلم، القياس، والحد، والنفس، والعادة، والإضافة، والزمان، والمكان، فإن عجز عن دفعها قبل السفر، ولا يدفعها للإحاطة ولا للصور، ويمتنع أن يتوسل في أمرها بالسور أو بالسفر، ويسوف نفسه في محرَّم، ويموت في صفر يخاف عليه أن يعذب عذابه في لظى أو في سقر.

إيه! الإحاطة شبه مغناطيس، والموجودات كالحديد، والنسبة الجامعة بينهما هوية الوجود، والذي فرق بينهما هو وهم الموجود.

إيه! العارف يعطف ويتعطف، والمحقق يُستَعْطَف ولا يَستَعْطِف.

إيه! مَن صادر الأوهام سقط حظها عنده، وكان عظيمها عبده، ومَن عكس انتكس.

إيه يا هذا! أنت به. فإنك له وبه.

إيه! إيه! إيه! إيه! إيه! إيه! إيه! إيه! إيه! إيه! إيه! إيه! إيه!

هذه تنبيهات روحانية، وما بعدها مطلوبها داخل الذهن، وكشفت به المناسبة الإلهية وحصلته الأحوال الإلهامية، وفي تخالف ما فيها في المشروع، وتماثله في الموضوع، تشارك الضمير بما عنده، وبما يجد صحبتها من الحق الصريح من غير أن يشاركه في ذلك عقل العادة.

ولمّا كان هذا التنبيه يشبه الإحاطة، ويأتم بها، أردنا أن نلحق فيه ما هو من هذا القبيل وجعلتها تسعة تشبيهًا بشيء ما، وهذه التسعة المذكورة تكلم عند رسمها المتكلم المذكور بكلمات، وزعم المغتبط بها يصلها ويسمعها منه، سواء غاب أو حضر أو صمت أو مات، فإن الحقائق لا تفقد ولا تفتقر إلى كتب، ولا تفقد بفقد الكاتب، ولا تظهر بظهوره، ولا تنشر في مسطور، والحقائق إذا وصلت إلى هذا الموضع ينطق عنها الوجود، ويحفظ الواقعات. فاحفظ أنت ذلك، وحافظ عليه.

إيه! ما تقول الإحاطة المستلزمة في شعر شاعر شعر بشعوره، ولم يشعر بشاعره،

وشك في نائمه وساهره، وتحير في أمره، ووجد في ظفره ما لم يجد في خبره، وتعلق بجائزة وطمع في خيره، ثم تشفع بشمائل تشبهه فاستوحش، فشفعه بالشفيع فتشوش، ثم عقله بالوتر فتأنس، ثم عكس وما انتكس، وكشف المشعور به والشعور والشاعر وما تحسس، ولا تجسس، وتوحدت منه النفس والنفيس وأنشد:

مَن كانَ يُبصرُ شأنَ اللهِ في الصورِ ... فإنَّـه شاخصٌ في أنقصِ الصورِ
بـلْ شأنه كونه، بلْ كونه كُنْهُهُ ... لأنَّـه جملـةٌ مِن بعضها وَطَرِي
إيـه! فَأَبْـصَرَنِي، إيه! فأبصرتُهُ ... إيه! فلِمَ قُلتَ لي: النَّفْعُ في الضررِ

قالت له الإحاطة المذكورة: وصلت فالزم، وهمت فاعزم.

قال لها: العزم في الواقع غير جائز ولا نافع، وقد كنت فكرت في عزيمتي؛ ولذلك ما أدبرت في هزيمتي.

قالت له الإحاطة المستلزمة: جميع ما جاء بواعظة الفكر، وكل ما قيل صحبة القوافي والفِقَر متصرفٌ إليَّ محسوب عليَّ، والوهم عيْنه ووقْته وأيْنه.

قال لها: قد علمت ذلك في الشعور الأول وفرغت منه.

قالت له: من فرغت منه كنت عنه.

قال لها: فما المعمول إذًا؟

قالـت له: قطع التوجه هو الوجه الذي به تراني، وذلك الوجه توجهه دار إليَّ، فما أفـتح ضـد هـذه المقابلة! وما أَمْلَحَ جَذْب الوهم بالمقابلة! ثم أنشدته، وبها أرشدته، وذكـرت له بيت لبيد[1]، وقرأت عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]؛ ففهم عنها، وبذلك كان منها، وظفر بأمنيته، وزهد في زور الوهم، وكذب أمنية، واتحـد واحده بواحده، وتوحدوا بفضل من حضيض العدد إلى ذروة الأحد، ثم نظر إلى ماهيـته الثابتة في معناه العدمية التي يُشار إليها من هويته العرضية الوجودية التي هي آنية الممكـن عند الفلاسفة، ومبدعة عند الأصولية، وشبه ذلك عند المعتزلة، ومعيدة له عند بعض الصوفية، ومقوِّمة عند بعضهم، وهو ولا هو عند الأكثر، وعند بعض المحققين نقطة مستقلة ثم قضية مفردة، ثم ما ذكرناه قبل؛ فانكشف له أن الوهم أوهم لواجده حتى لحقه الـوهم في وحدتـه، وقسمها قسمين فصار القسم الواحد للآخر كالجاحد، ثم زاد الأمر وانقسم، ثم صار أكثر من واحد حتى احتاج إلى شاهد، وعسر وجوده فإنه موجده وهو

(1) إشارة إلى حديث: أصدق كلمة قالها شاعر... وقد تقدم بتخريجه.

بعينـــه معـــتده، فطلبه الشاهد من العلم فامتنع، ثم طلبه من العمل فارتفع، فانصرف إلى الـــشاهد وطلـــب منه الشاهد فوجد عنده الشهادة، ومات على هذه الشهادة فخضع له وطاب وانطبع، وحكم له الحق فجمع القسمين في واحد، وقال له: لم تكن قط أكثر من واحـــد، فعند ذلك قالت ماهيته لهويته: أنت أنا. فسمعتها الأنية، فقالت لهما: أنتما أنا؛ فاســـتجابت لها الإحاطة. وقالت: أنا آنية الآنيات، وهوية الهويات، وماهية الماهيات[1]، وكل ذلك قل أو كثر معنى واحد، وذلك المعنى هو أنا، ومن قال معي أنا أوقعته في العنا، إلا إن قالها من حيثي، ويصرف الشاهد والمشهود إلى جميع الأوهام، ويدور بالسلب من أجلي، على حينئذ يكون أنا قال لها: قد كان ذلك، قالت له: فأنت أنا، وأنا أنت، وأنت وأنا معناه أنا.

وهـــذه كلمـــات نافعـــة إذا لم تنـــصرف إلى الافتقار، ولا تتطور في مرآت الوهم والافـــتخار، وتتصرف باللهو واللعب، وتكون مكانتها من الوهم والكذب، ولا خير في خطةٍ غالطةٍ، ومكانة باطلة.

إيــــه! جمـــيع ما تسمعه من الرجال يذكرونه في حق المؤمن الكافر، والكافر المؤمن حاصـــله: هـــو الـــذي يكفر بما لم يؤمن بما أنـــزل الله على عبادة الذين اصطفى، وبما يجدونه فيما أنـــزل على نبيه المصطفى، ويكفر بأحوال الرجال وبكونهم يطلقون الكفر بـــتقديم وتـــأخير، وباشـــتراك الاسم، وبجهة وجهة، ويكفر بمَن ينكر طول ظهورهم، وتطورهم ومنازلهم ومنازلاتهم وطبقاتهم، ويؤمن بغيبه الذي يغيب فيه الغيب، ويحقق فيه البذاءة الأصلية والعيب، ويصدق بجميع المراتب، وبكل ما يتعلق بالدور الراتب، ويغتبط بإمام أمام أسوة ذي الذهن الثابت، فسلام على عباده الذين اصطفى، ومنهم مُحب هذا الجليل، وارث محمد، وحسبة آدم، وقرة عين الخليل، ولمثله يقال عبد الجليل.

إيـــه فقـــط! إيه الملة أعظم من أهلها! إيه عز على إيه ليت شعري إيه! فَهِمَ البعضُ وجهل الكل بوجه ما.

إيـــه للحروف معنى! إيه، وللأسماء أسماء! إيه، والعادة مهلكة! إيه، وَمن انصرف إلى نفسه نُفِّس عنه، الدور عجيب! إيه القرآن كنه الكامل.

(1) قال سيدي علي وفا في المسامع: الماهيات هي المراتب القابلة لتجلِّي الهويات بما فيها وعليها، لا بحكم الزيادة في كل مقامٍ بحسبه، والمادة كهي لكن بشرط الزيادة، فهي قابلة لهويات عارضة لها تُسمَّى الصور والهيولى استعداد قبول المادة لمقبولاتها، وهي قائمة بالمادة لا بحكم الزيادة، فالمادة ماهية الهيولى، والهيولى هوية المادة في كل مقامٍ بحسبه.

إيه الله فقط، لا شك في ذلك، إيه! أردت بإيه إن هذه المخاطبات نشأت بين مخاطِب طابت أنفاسه، وبين مخاطَب طيبة أنفاسه! إيه الوهم يضر وينفع الخاطر القوي.

يُقـال الـتوجه شيخ البصير، ذكر أن المطلوب في الخلد محبة الشوق يهدى، ملازمة الدعـوة عـون الله، الـوحدة حضرة الواحد، وغبطة المتوحد، رسول الله لا ينفك عن القـصد، ولا يفك أسره خوف، ما بعد العادة حرمان، والوقوف معها نكس، والخروج عـنها بأس شديد، والاستعانة بها بؤس جديد، وإحالتها مما يجب جد المجيب استجلاب الغريب.

ماهيته الهمة السنية، الأسوة بالواجب: هو التحرق الأكبر، الترفع الكثير ذات الشقاوة والخوف والتكذيب والاصطلام عين البُعد.

إقامـة الحق في جميع الأمور حكمة محضة مبشرة، لقاء الرجال طبيعة الخير، استسلام الـسالك أصل المناسك، وقتك من أجزاء ماهيتك، فلا تعامله إلا بالخير وأحوال الحياة والسعادة والصعود.

إيه! الله فقط، لا شك في ذلك.

إيـه! قبَّح الله الوهم! حرم الذهن والفهم وشغلهما عن تصحيفه وقلبه حتى حال بين المرء وقلبه، يعقد على المرء حتى يقسم نفسه إلى غير وخلاف، ويجعل وحدته تجبر بعد الحصول الطبيعي إلى الائتلاف، فمنع الواحد من وحدته، وصرف المستقيم على حيدته، قاتلـه الله هـو الضد الغاضب والحق الغاصب، ومن جملة ضرره تغاليطه لمَن لم تُحَذِّقه العلـوم، ولا أدبـته المعارف، ولا انقاد برعونته قط إلى عارف، وألفى عنده أن الوحدة المطلقة، والواحد من كل الجهات هو هو لا كما يجب، ولا على ما يجب، ولا بما يجده في تـصوره وتطوره؛ بل بوهم غير محصل كسبه إهمال رتبة للرجال، وإفادة شيئًا تستعيذ من فتنته فتنة الدجال. ثم يعود بعد ذلك به إلى العبد، بل هو اللهو بل هو السهو، بل هو الـوهم، بل هو البهم، وهو لا يهمله وفي ذاته لا يهمله، وكذلك كل شخص ركب من الجهـل والعـادة ومن البلادة، وبعد العبادة يسوى في التخسيس، ونفخ فيه روح سلب التخصيص.

إيه! قل أعوذ بالله من ثم أعوذ بالله عن، ثم أعوذ بالله لن.

إيـه! هذا الوهم هو الملك، وهو البحر والفلك، وهو الأرض والسماء، وهو القصد والعمـى، وهـو الذر والهبا، والماء والبرزخ طبيعة البسيط، والممكن والممكنات طبيعة المـركبات، والإحاطـة التي قلنا فيها كبيرة وصغيرة، وآفلة وثابتة، ورئيسة ومرءوسة،

ومحيطة ومحاط بها، وعامة وخاصة طبيعة مشتركة، فلا وهم إلا الوهم، ولا إله إلا الله؛ بل ليس إلا الأيس فقط، وهو هو الله الله الله الله الله الله! هكذا ورد، وهكذا وُجِد، وهكذا رُسِم، وهكذا قُسِم، وهكذا كان، وهكذا هو.

إيه! هذا تقييد قيل فيه الحق، وظهر فيه الحق، وإملاء عبد الحق، وبالضرورة إن الفرع محمول على الشجرة، وبالاتفاق قامت شهرة الواضع من ضرب سبعة في عشرة.

والسلام على المنكر والمسلم، والغالط والمتغالط، والمهمل والمغتبط، والغافل والمتغافل.

فالسلام عليَّ إذًا، ثم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله، وعلى الجامع لحقائق الأكوان بالقصد الثاني، وعلى الوسيلة المرتكزة بالقصد الأول، وعلى طالبها بالقصد الثالث، ثم ذلك وما أشبه ذلك وعلى آله وسلم تسليمًا.

كمل كتاب «الإحاطة» للسيد الشيخ الوارث العارف سيدي عبد الحق بن سبعين.

***

رسالة النصيحة أو النورية

وله ﷺ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيرًا

نصيحة نصحها مَن يحض على الله، ويستجلب حمده لمحل القابل لها، وتستلزم الكمالات، وتعطى أسبابها بسعادتين وحكمتين وخبرين باعتبارين وجهتين وقصدين، يُحَصِّلُهَا مَنْ هي عنايته تجذب الواجب لذاته المرحومة بالذات، ويتردد في مدلولها ويتخلق بها مَن يمكن منه أن يتعرض للخير بالعَرَض، وقصدها وجه مدلول شرحها ووُضِعَت للعام والخاص، فإنها صالحة بالجميع، وهي موضوع الشريعة، ومحمول الحقيقة وماهيتها مركبة من الأنس بالله، وسبب الأنس به، واللذة الروحانية، والعبادات القلبية والجسمانية.

وبالجملة: جملتها صالحة، وتجارتها رابحة، وسعايتها ناجحة، والله هو أولها وآخرها، وظاهر قصدها وباطن مجدها، وقد حان وقتُ بَثِّها، فنبدأ فنقول:

يا أيها الباحث عن تحصيل كماله، واستجلاب ما يجب كما يجب في الوقت الذي يجب ممَن يجب بمَن يجب على ما ينبغي، عليك بذكر الله الذي علمك وأرادك، وعلمك وحَكمك من كل الجهات، وهو بُدُّكَ اللازم، ووجودك الثابت، والمنقَلَب، وهو الذي

يُسْعِدك، وسعادتك رضوانه، ورضوانه يحملك إلى حضرته، وحضرته تخزن ذاتك من ذل الكون المهلك والممكن القابل المنقلب، وتحكمك في الرحمة والوجود المطلق، وتصرفك في المقـــيد، وتطلعـــك على المقدر، وتبلغك إلى أقصى الإنسانية من جهة التخصيص، وبحـــسب الأمـــور الـــتي لا من جنس ما يكتسب، ولا من جهة العادة والعلوم المألوفة الشريفة والأحوال المذكورة، فاعلم.

ومـــن جملـــة خيراته العزيزة ذكره لك عند ذكرك له في حضرته مع أهله، ومن جملة فـــوائده الكـــريمة ما قال رسول الله ﷺ: «خير ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله»[1].

ومن بعض فضائله كونه يَفْضُل الدعاء، ويزيد خيرُ المتصف به على خير المتصف بالدعاء، ومن نوره ونعمته قول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152].

فجمع في هذه الكلمة بين الأمر والجزاء والارتباط وشرف الحكمة والكرم المحض، أوجب على جلاله ما لا يجب عليه والقطع بالسعادة، إذا حصل هذا الأمر بحسب ما ذكرناه؛ لأنه إذا ذكره إنما يذكره مع السعداء فلا سبيل إلى شقاوته، وقد يتفسر هذا بقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60] بوجه ما، ومن نوره وجلالة قدره قوله ﷺ: «من قال الحمد لله رب العالمين فله ثلاثون حسنة»[2].

وجميع ما جاء في أم القرآن إنما هو لكونها احتوت على كليات القرآن، والأسماء المظْهَرَة والمضْمَرَة والمشتقة، ومن شرفه الأحاديث الواردة في الذاكر وما يعطاه، وما جاء في ذكر اليوم والليلة والأحاديث المنقولة عنه ﷺ في الذِّكر وأوقاته ومواطنه، والظاهر منه والباطن، والخفي والجلي، وعدده.

وما جاء في أسمائه وفي ذكره بها وفي حفظها، وما أعدَّ الله في ثوابها، وهو يسهل على الطباع مع كونه يصحبه الأُنس[3]، ويكاد يمتد مع الأنفاس، والذاكر الصادق هو له

---

(1) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (38/6)، والمباركفوري في تحفة الأحوذي (308/9).

(2) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (288/2).

(3) قال الشعراني رضي الله عنه في «القواعد الكشفية» في الكلام على الأنس بالله: إن ذلك لا يصحُّ لأحدٍ من الأولياء؛ لما تقدم من الجهل بكنه الذات.

وقد قال الولي الكامل سيدي علي بن وفا رحمه الله: (لا يصحُّ الأنس بالله تعالى لأحدٍ من المحققين، وما أنس إلا بما منه من التقريبات لا بذاته تعالى).

قلت: وقد أجمع أهل الطريق على ما قاله سيدي علي بن وفا رحمه الله تعالى، وقالو: الأنس لا =

كحياته ووجوده بقدر ما يُقَدَّر له من العمر والأزمنة له في الذكر، وأمَّا إذا وقع التحقيق في هذه المسألة فإنه أكثر من الزمان المحسوب له، فإنه بحسب نيته وخبره، فهو مع كل نفس يقول: (الله)! (الله)، ويعتقد فيه ألفَ ألفٍ، فالله لا يضيع له ما يريده، والكريم لا يُتَّهم في أخلاقه، وأيضًا هو يذكره بلسانه، وهو الذكر الذي قلنا فيه يمتدُّ امتدادَه.

وأمَّا ذكر قلبه فهو الذكر الذي لا يأخذه الحصر، فإنه بالجوهر الذي لا يدخل تحت الزمان، فافهم.

وأيضًا إذا ذكره العبد وبالشيء الذي بعلمه المحقق لا نظير له في الأعمال والفضائل، وكل فضيلة يتعب فيها ويطول أمرها، ويحتاج في سلوكها إلى زمان ليس باليسير والكل دونه، ولو فرضناها فوقه في الوصف الواحد لكان هو بسرعته، وما جُعِلَ فيه من الثواب يعطيها من صفة نفس وجوده في المكلَّف.

مثال ذلك: إذا قدَّرنا الصلاة المفروضة صلاة العصر تفضل (لا إله إلا الله) الكلمة الواحدة أو الثلاث كلمات أو أكثر بكذا كذا حسنة، أو نجعلها تزيد عليها مائة حسنة؛ لكان الذكر أجل، فإنه يقول بطول يومه، بل ببعضه ما يصح به إدراك المائة والمائة ألف، فكيف والأمر قد جاء في الذكر بأكثر من هذا! فكيف والذكر هو الصورة المقوِّمة والمتمِّمة لجميع الوظائف الشرعية! ولا تصح وظيفة شرعية إلا به، ومن جملة بركاته: طهارة الوقت مما لا يصلح، وإهمال السيئات، وموافقة الملائكة، ونور الله في ذلك الوقت وفي ذلك المحل من ذلك القلب، وحفظ اللسان وسائر الجوارح على جهة الموافقة والإلزام، ومن جملة فضائله التشبه بالله فإن الله يَذْكُر ويصحُّ منه ذلك ويطلق عليه، ولا يصحُّ منه الفكر، ومن فضيلته: أنه معقول في القدم، فإن الله تعالى كان يثني على نفسه

يصحُّ إلا بالمشاكلة والمناسبة، وليس بين الخلق وربهم مشاكلةٌ ولا مناسبةٌ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا اهـ.

ثم قال: إيَّاك أن تقول أنك أنست بالله تعالى عينًا؛ فإن ذلك لا يصحُّ، وقد سمعت مرة هاتفًا يقول:

(إذا كان كل شيءٍ خطر ببال عبدي فأنا بخلافه، فكيف يصح له مناجاتي على الكشف والشهود والأنس بي) اهـ (ص 58).

وقد قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به في تعريف الأنس: الأنس هو ظهور علامات تشعر النفس بنيل المراد، وحقيقته: مد يد الأطماع إلى اقتطاف ثمر المواصلة، وغايته: تصرف العبد في ملك الرب؛ اعتمادًا على التحقيق بصحة المحبة التي توجب رفع علل المغايرة اهـ.

ويخبر عن جميع معلوماته، والفكر وسائر الأعمال حادثة إلا ما كان من هذا القبيل، ومن فضيلته: أنه من أسماء كتاب الله ﷻ ومن فضيلته: أنه المراد بالقرآن، والقرآن كله هو الذكر الأعلى، وهو أجلُ معجزات النبي ﷺ فإنه صفة «ذات» الله ﷻ، وما عداه من المعجزات صفة «فعل» الله، وهو من المعجزات الباقية، وغيره من المعجزات الذاهبة بذهاب وقتها، وهو معجزة كانت وبقيت ومن فضائله: أنه هو الذي يُطلَب بعد الموت وفي المواضع الضيقة وفي وقت الخاتمة، ومن جملة جلالته أنه في الحيوان العاقل وغير العاقل[1]:

وفي كلِ شيءٍ له آيةٌ تدلُ على أنه واحدُ

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾ [الإسراء: 44].

وأمًا من أثبت نطق الموجودات فأمره أعظم في حق الذكر، وأمًا من أنكر ذلك فقد أُلزِم ذكر لسان الحال، ومن فضيلته: ثبوته بعد الأعمال في الجنة، وإن كان غيره من المقامات يثبت مثل ثبوته، ومن فضيلته: كونه في كل مقام بالقوة؛ لأنه يمشي ويتصل حيث تتصل النية لأنها هي القصد، ومفهومه الخبر الصادق، والعزم الثابت، والتصديق الخالص، ونحن قد ذكرنا أنه ينقسم إلى ظاهر وباطن، والكلام هو المعنى القائم بالنفس، وهو الدائر في الخلد بحسب مذهب ما، وكل كلام هو لله أو من أجله أو يذكر به أو بوظائفه فهو ذكر.

وأيضًا إذا قلنا: مقام التوبة، أين الذكر فيه؟ قلنا: التائب يدعو ربه؛ فقد ذكره بلسانه وقت نوافله وخلوته، وبقلبه حيث يخبر عن عزمه على الفرار من العودة، وإخباره عن الندم، وجملة هذا كله هو حال التضرع، فإن قلت: هذا مقام الدعاء غير مقام الذكر فلا يدخل أحدهما على الثاني، قلتُ له: الدعاء هو الذكر إن لم يقرن مع الطلب، فإذا حُرِّر القصدُ وجُرِّد الغرضُ كان الذكر الأكبر، وإذا وقع الاشتراك ضعُف الذكر، ومقام التوكل ذكر الله، وذكر القلب مما فرغ منه، فهو يذكر صفته أعني: علمه، ويذكر قدره وقضاءه، أعني: إرادته، ويذكر قدرته.

ومقام الرضا يذكر فيه صاحب ذلك المقام حكمته وعدله وحبه في كل حال كان عليه، وحينئذ يصح له مقامه، ومقام التوحيد يذكره في وحدته وفي كونه واحد الوحدة، بالتصفح والسبر والتقسيم، تجد ذلك كما وجدته أنا، ومن فضيلته: أنه يذكر بالعهد

(1) القائل هو: أبو العتاهية كما في الأغاني (35/4).

الأول ويظفر بالصديقية، ومن فضيلته: أنه يتطور في القوى النفسانية، وهذا الذكر المحمود هو الذي يقع على ما يجب ويتعلق كما يجب، لا الذي يصدر من غير المعتقد أو يُتوُّهم به الممنوع العقلي أو الشرعي، وإنما الذكر المراد هنا المحمود من كل الجهات، وإن كان الذاكر من العلماء أو من المتوسطين أو دون ذلك، الخير فيه إذا تم على سداده من جهة معقولة، ومن فضائله عناية ربنا ﷻ بالمؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41].

ومن فضائله كون رسول الله ﷺ ذمَّ آخر الزمان بعد الذكر فيه، بقوله:

«لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله! الله!»[1].

ومن فضائله قول رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتدقُّوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى! قال: ذكر الله»[2].

فهذا المختار قد اختاره لنا؛ لأنه قال: أرفع الأعمال، والعاقل يختار الذي يختاره له المرشد، وشهادة النبي ﷺ صادقة، وهو لا يخبر إلا عن الله، فالله قد أخبرنا بمثل ذلك، فأي دليل نطلب بعد نصيحة الله ورسوله! وأي إرشاد أرشد من إرشاد الله ورسوله؟

ثم فضله على الصدقة وعلى الجهاد وعلى الشهادة؛ لأن الذي تضرب عنقه لا يعيش، وهذا إذا سلم من المشوِّش، وحُرز من الاعتراض لا شيء أظهر من فضله، فاعلم.

ومن فضيلته: قول رسول الله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، فقيل له: ما رياض الجنة؟ قال: مجلس الذكر»[3].

ومن فضيلته: أنه لا يفوتك حتى في المواضع الغير طاهرة، فإنك مُنِعْتَ أن تذكر الله بلسانك في موضع الحاجة، وأمرت أن لا تغفل عن الله طرفة عين، فبقي لك ذكر القلب أو ذكره بالاسم المضمر كما جاء وقد جاء بالاسم الصريح، ومن فضيلته: أنه يدفع البلاء عن العبد إذا طاف به فتعود رحمة الذكر عليه تحفظه، وقد جعله الله للمؤمن الذاكر غطاء كامنًا وحرمًا آمنًا.

ومن فضيلته: أنه يَنْقُل من الغيبة إلى الحضور ثم إلى المشاهدة، ومن فضيلته: أنك إذا

(1) رواه مسلم (131/1)، وأحمد (162/3).

(2) رواه الترمذي (459/5)، وابن ماجه (1245/2).

(3) رواه الترمذي (532/5)، وأحمد (150/3).

ذكرت الله حتى تنسى به كل شيء ألهمك الله به كل شيء، وملّكك كل شيء صالح، ومن فضيلته: أنه قياسك مع ربك في المقابلة والمصاحبة والاغتباط، وبقدر ما تجد نفسك في الذكر ومع المذكور هو لك كذلك، وأنت معه على هذا القياس، وقد جاء في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي»[1] الحديث.

ومن فضيلة الذّكر قول رسول الله ﷺ حاكيًا عن الله تعالى: «أنا جليس من ذكرني»[2] فالمصلي ما هو جليس الله إلا من حيث ذكره فقط.

ومن فضيلته: أنك تذكره بوضوء وغير وضوء، وطاهرًا وغير طاهرٍ، وعلى جملة تصرفاتك إن كنت واقفًا أو قاعدًا أو راقدًا أو على جنبك، فافهم.

ومن فضيلته: أنه يتقدم على أوقات الصلوات أعني: الفعل وهو في وقتها، والذي هو الأمارة، والسبب المظهر للحكم، وهو الذي لا يقنع بغيره من الوظائف في دعوى الإسلام من الكافر وإن صام وحج وجاهد ودفع زكاته حتى يُسمع يقول: «لا اله إلا الله» أو يبصر يصلي، وما ذلك إلا لما يُعْلَم أنه يذكر الله فيها أو لكونها تتضمن الذكر، فاعلم ذلك.

ومن فضيلته: كون الاسم الأعظم أجل المكاسب، وهو ذكر الله المحمول على الماهية، ومن فضيلته: كونه لا يتقيد بزمان بخلاف بعض العبادات، وكل وظيفة شرعية يخصها وقت ما كشهر رمضان مرة في السنة، والحج مرة في العمر، والزكاة في السنة، والجهاد في وقت دون وقت وقد يجب ولا يجب، والصلاة خمس مرات في اليوم والليلة، والذكر مع الأنفاس، ويثبت في دار الجزاء، وينفع قبل الموت، وفي حال الموت، وفي القبر، وفيما يُعِدُّه ويُتْحف به الرجلُ الرجل، والوالد الولد وبالعكس.

ومن فضيلته: ما جاء في الخبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: «أعطيتُ أمّتك يا محمد ما لم أُعْطِ أحدًا من الأمم فقال: وما ذلك يا جبريل؟»[3] قال: قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]، ولم يقل هذا لغير هذه الأمة.

ومن فضيلته: أن الملك يستأذن الذاكر في قبض روحه.

---

(1) رواه البخاري (2634/6)، ومسلم (2061/4).

(2) رواه البيهقي في الشعب (451/1)، وأبو نعيم في الحلية (37/6).

(3) رواه الطبري في تفسيره (65/9)، وذكره المناوي في فيض القدير (308/4).

ومن فضيلته: ما جاء عن موسى عليه السلام إنه سأل ربه: «أين تسكن؟» فأوحى الله إليه: «في قلب عبدي المؤمن[1]».

ومفهومه: ثبوت الذكر وتحيُّر اللب في الذي يجب ويجوز لله ويستحيل في حقه، وكونه لا يسعه أن يذكره بأكثر من الذي يجب له ولا مثل الذي هو عليه، فتحقق أنه دون ذلك.

فنقول: المطفِّف لا شيء يصح له ولا المقتصد، والنصيب الصحيح في المقصد، ومن فضيلته: أنه بقدر ما يكون من الذاكر يستخدم الملائكة في غرس الأشجار، وقد جاء أن الله عز وجل قال: «يا ابن آدم! ما أنصفتني: أذكرك وتنساني»[2].

ومن فضيلته: أن الحلاوة انحصرت فيه وفي قراءة القرآن وفي الصلاة كما جاء، وإذا نظرت إلى هذه الثلاثة تجدها مفهوم الذكر وهي هو.

ومن فضيلته: ما جاء في الرقاء وما يحفظ به من الدجال، ومن فضيلته: أن النوع الواحد منه يشبه عبادة أهل الملكوت والعالم المفارق، فإن تلك الذوات ذكراة بالنوع المحمود، وبذلك يفضل جميع الوظائف الشرعية، فإن جميعها لا يطلق على تلك الذوات، وإن أطلق على جهة التشبيه، وذلك التشبه لا يتعلق إلا بالوضع والقصد لا أنه على المعنى من كل الجهات أو هو يقع على معقول الشبه المألوف؛ بل بالذي قلناه فقط.

وقد نقل عن بعضهم إنه قال: يقول الله عز وجل: «فإذا كان الغالب على عبدي ذكري عَشِقَنِي وعشقتُه»[3].

ومن فضيلته: أنه عند بعض أهل الحق إذا أهمل من أعظم سيئات المقربين، ولا شيء عندهم أعظم من إهمال ذكر الله.

ومن فضيلته: أنه عنوان القلب، ولسان الصدق، ومعلول علة ذكر الله، وفي بعض الكتب المنـــزلة: «واذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، واذكرني حين ترضى أذكرك حين أرضى، وافرح بنصرتي لك فإنها خير من نصرتك لنفسك»[4].

وُجد بعض الرهبان وهو يستغيث فقيل له: (بماذا؟)، فقال: «ذكرته وصمت بين

---

(1) ذكره المناوي في فيض القدير (496/2)، والعجلوني في كشف الخفا (431/2).

(2) ذكره المناوي في فيض القدير (494/4)، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين (193/1).

(3) رواه أبو نعيم في الحلية (165/6).

(4) رواه أبو نعيم في الحلية (65/3).

الذكر بقدر ما يفوت فيه قدر ذلك، وزمان الغفلة عن الله حرمان عظيم، فإني ببعض أحوالي محروم، وفي يومي هذا أعوذ بالله من هذا اليوم».

وقيل لراهب آخر: «أنت صائم؟» فقال: «أنا صائم بذكر الله، فإذا ذكرت غير الله أفطرت».

ومن فضيلته: أنه انـــزل على موسى حكمة في يوم الثلاثاء وكلمه يوم الخميس، قال ذلك عنه صاحب «دلالة الحائرين»[1].

وقيل لبعض أحبار اليهود: «اعبد ربك!»؛ فقال: «قد فعلت ذلك في وقتي هذا»، ثم قيل له في ذلك، فقال كذلك، فقيل له: «وأنّى لك هذا! أنت تباهت»؛ فقال للقائل له: «أنا ذاكره، وعادته معي تمكنني بالإدراك من كل شيء حال ذكره».

وقيل لبعض الحكماء: «ما تفعل لو أنك تُحمَل وتُجعَلُ في جزيرة منقطعة، وتفقد المؤانس وجميع الطيبات؟»، قال: «نتشبه بالعالم العلوي»، قيل له: «كيف تذكر؟» قال: «اذكر عيني وشيئي وظاهر ماهيتي ومعلومي الذي أبحث عنه إلى الذي لا أول لوجوده، ونجد الجميع، ونتشبه فيه بأشراف الذوات»، قيل له: «وكيف يحصل لك ذلك؟» قال: «إذا أنا ذكرته استقامت نفسي على طريقة أهل الكمال وتذكرت واستجاب الأمر فيها، وبذلك يحصل لها التعلق بعالمها فيعود الأمر من قوة الاستغراق إلى الحال الشبيه بالنوم فتركد الجوارح ويقع الكشف، ولا شيء أجلُّ من هذا كله».

ومن فضيلته: تجديد اللذة في كل لحظة.

ومن فضيلته: أن لذته روحانية، وهو مذكرة بأنموذج من جلال رجال الله، ومن فضيلته: أنه يفعل في البِدْعي، ويوجد في الكفار، وإن كان الكافر يطلق الذكر على غير وجهه ولغير الله، فالأمر إليه يرجع.

ومن فضيلته: أنه يوجد في الإقرار، لأن الحكمة تشهد أنه إذا غضب المبطل في الحق أنصفه المضمار المفروض في الوجود، وإن لم يقم بالمبطل قام بماهيته الوجود ويشهد له لسانها.

ومن فضيلته: أنه يتعلق بالكواكب وبجميع الصور والكواكب العلوية وبالمتحيرة، وبالقوة فينتفع به الذاكر، وإن كانت المنفعة غير معتبرة فشرف الذكر فيها ظاهر.

ومن فضيلته: أنه لا يصح من أحد إلا ووقته فيه محفوظ، وإن قدرناه يموت فيموت في

(1) هو لموسى بن ميمون القرطبي الإسرائيلي (تحت قيد الطبع بتحقيقنا).

الوقت المختار المحمود، وهو يذكر الله والله يذكره.

ومن فضيلته: ما جاء عن جعفر الصادق ﷺ الذي حكاه جابر بن حيان[1] أنه كان يتكلم في جميع العلوم عقيب الذكر، وسأل بعض الفلاسفة في يوم حضوره للناس بمحضر الجميع منهم فقال له: ما دليلك على أن للعالم فاعلاً مختارًا يختار حدوثه؟ فقال: أرايت لو أنّا قدرنا لها المحدث الذي يختار ويدبر الأكوان، وهو حكيم لا يفعل إلا الأولى، ويتقن المصنوعات أي شيء كان يظهر في هذا الوجود؟ وهذا مني على صورة الفرض لا على أنه على صورة الدليل.

قال له الفيلسوف: كان يفعل ما ينبغي ويتقن الأشياء، ويضع كل شيء في محله، قال له جعفر الصادق: فقد كان ذلك وما قدرته قد وقع، وجاء عنه ﷺ أنه كان يومًا يذكر الله فجاءه بعض الناس فقال له: ما أقوى دليل على وجود الله الذي أنتِ ذاكره؟ قال له: وجودي، وذلك لأن وجودي حدث بعد أن لم يكن، بأي فاعل؟ يمتنع أن يُقال فاعل وجودي أنا، لأنه لا يخلو إمَّا أن يُقال أحدثت نفسي حالما كنت موجودًا، أو حالما كنت معدومًا، فإن أحدثت نفسي حالما كنت موجودًا، فالموجود أي حاجة له إلى الوجود؟ وإن أحدثت نفسي حالما كنت معدومًا، فالمعدوم كيف يكون موجدًا للموجود!

فدل على أن الذي أنا ذاكره هو الذي نشير إليه بالاشتقاق، وهو الصانع الفاعل لوجودي ووجود غيري، ﷻ ظاهر لا بتأويل المباشرة، باطن لا بتأويل المباعدة، يسمع بغير آلة، ويبصر بغير حدقة، لا تحده الصفات، ولا تأخذه السِّنات، القديم وجوده، والأبد أزله الذي أَيَّن الأين لا يُقال له: أين كان.

ومن فضيلته: ما جاء عن بعض الملوك مع بعض الرجال كان يذكر وبه، ويحض الناس على ذكره، فقال له الملك: لمَن أنت ذاكر؟ فسكت عنه، فقال له: «كلمني!»، قال: «أنا أفكر في هذا البستان الذي كان خرابًا، ثم من بعد ذلك صار من أخصب المواضع ومن أرفعها، وذلك من تلقاء نفسه».

قال له الملك: «أنت مجنون» قال له: «بل أنت ذلك الذي ترتع في بستان وجود الله، وتسأل عنه»؛ فأعطاه الجواب، وكان يذكر فلم يقطع غيره، والله يمده بالغيب الكريم.

وقد حكى عن علي كرم الله وجهه وهو يذكر أنه قيل له: «هل تذكر من تبصر أو تعلم؟» فقال: «لم أعبد ربًّا لم أره»، فقيل له: «كيف رأيته؟»؛ فقال: «ما رأيته بمشاهدة

---

(1) له عدة رسائل (حققنا مجموعة كبيرة منها) تحت قيد الطبع (دار الكتب العلمية).

العيان، ولكن رؤية القلب بحقائق العرفان»، فقيل له: «صف لنا هذا المذكور»، فقال: «إن ربي لطيف الرحمة، كبير الكبرياء، جليل الجلالة، قبل كل شيء ليس له قبل، وبعد كل شيء ليس له بعد، ظاهر لا بتأويل المباشرة، باطن لا بتأويل المباعدة، يسمع بغير آلة، ويبصر بغير حدقة، لا تحده الصفات، ولا تأخذه السِّنات، القديم وجوده والأبد أزله، الذي أين الأين، لا يُقال له أين، وكيَّف الكيف، لا يُقال له كيف».

هذا حكاه جابر بن حيان في «الهداية»، وابن الخطيب في «المطالب العالية»، وحكى مثل ذلك عن طبيب كان يعرف الله، وكان إذا ركب الأدوية يذكر الله وينفعل للذكر، فقيل له: ما الذي حملك على الذكر إذا ركَّبت الأدوية وتنفعل لذلك، قال: «أستعين بذكر الطبيب على العِلَّة، وأيضًا أبصرت الإهليج المجفف يطلق، واللعاب الممسك يلين فعرفت أن الأمر آخر، وأيضًا ذكرته لأني عرفته بحيوان صغير وضع السم في أحد طرفيه والشفاء في طرفه الأخر» وعني به النحل.

ومن فضيلة الذكر إن بعض الملوك، وقيل هو الموفق بالله حج، وكان قد حضر عنده جماعة من المنجمين، فأضمر لهم ذكر الله، وقال لهم: أنتم تقولون إن الإنسان يضمر في قلبه، وتخبرونه بما أضمر؟ قال له أحدهم: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: قد أضمرتُ فهل من يكشف ذلك؟ فتكلم كل واحد منهم فلم يصب فقام أعظمهم، وهو أبو معشر، والله أعلم، فقال: أضمرت ذكر الله؟ فقال له: صدقت، أخبرني كيف اطلعت على هذا، فقال: لأنك لمَّا أضمرت أخذتُ ارتفاع الوقت فوجدت نقطة الرأس في وسط السماء، ونقطة الرأس شيء لا ترى ذاته ويرى أثره وخيره، ووسط السماء أرفع موضع في الفلك فعلمت أنك أضمرت ذكر موجود لا تُرى ذاته؛ بل يُرى أثر خيره ورحمته، وذلك الموجود هو أرفع الموجودات، وليس هذا الموجود إلا الله تعالى.

ومن فضيلته: أنه ينفع في سبع خواص من السيمياء، ويفسد تسع خواص من السحر، ومن أراد استعمال قوى الكواكب بحسب صناعة أهل العلم الرياضي لا بد له من الذكر، وذلك بعد الدستورية أعني: أن يكون الكوكب في بيته أو شرفه في الوتد، وينظر الكوكب إليه من بيته أو شرفه من الوتد كالزهرة في الميزان في الطالع، وزحل في الجدي أو في الميزان، والمريخ في الجدي، واعلم أن الكوكب إذا كان في الحيز أو البرج أو الدستورية؛ كان أظهر فعلاً، وأقوى تأثيرًا، ثم يعمد إلى اتخاذ الصورة والاسم والبخور والأفعال.

ومثال ذلك برج الثور تستعمل صورة إذا كان في الوجه الثاني، ويريد الحكيم أن يخدم أمره، يتخذ صورة ثور مضروب الوسط ويناديه: «لهرلرل»، ويبخر بذنب الفأرة ويفعل

الأمور المهلكة بإذن الله، ويقول في جميع خدمته: يا حمر لايل، يا دبر لايل، يا جبر لايل، مفهوم ذلك، يا مالك القوى السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية والذوات العارفة بك والتي فوقها، يا نور النور.

فهذه من بعض فضائل الذكر عند من لا علم له بالمذكور، والله قد ربط عادته في تعظيم ذكره عند المؤمن والكافر، ويكون الأمر من حيث الحق في غاية التمام والحسن، ومن حيث الذاكر الذي يذكره على غير ما هو به في غاية النقص، فإنه تعظيم ذكره، ولا يسأل عما يفعل، وذلك لزيادة جلاله، وأكثر من ذلك الجماد له بلسان الاستحقاق.

وبلغني عن الهنود أنهم إذا عزموا على وضع الهياكل لا بد لهم من أسماء يذكرونها وحينئذ يضعونها، وتلك الأسماء: «واه بد الأبد الأوحدان هرشان أورهشان».

ومفهومه: «يا مَنْ مِنْ أجله أحرق الطائع بشرته، وتوجه لبعض مخلوقاته الشريفة، أنعم علينا بنسمة منك لنا، وتفضل في أحوال أرواحنا، يا أصل كل شيء ولا أصل له، يا بد مفهومه، يا من يقوم به الأشياء وهو في كل شيء بشيئيته».

والسودان إذا أرادوا أن يتخذوا الصور العجيبة يكتبون أسماء الله على وجوههم، وتلك الأسماء موروثة عندهم، وهي جملة: «ياشي فاشي ير يرجع شعشاع».

مفهومه: «من ذكر الله فر منه كل عدو، فأمد الله يقدر ولا يقدر عليك».

والإفرنج لا يصح للبابة منهم المكانة حتى يذكر ربه بلسانه ثم بلاهوته: يذكره بلسانه حتى يغيب، وبلاهوته حتى يصيبه شيء شبيه الجنون، يذكر الله بالأقنومية: وهي صفة ذاته وما أشبه ذلك وهذا كثير جدًّا.

وكان سقراط يقول في كل صباح: «أنا الدليل بالذات وأنت العزيز بالذات، فلا تجعلني بعزتك من السعداء بالعرض، يا من هو صورة كل شيء، وقياس هذا العالم، ووجوده القريب، احجبني عن كل ما يقطعني عن كمالي».

وكان يكثر قول: «أنت أنت أنت ».

فقيل له: ما هذا الكلام المهمل المبهم؟ فقال: «هو يحدثني بما وجب له عندي، وأنا أكلمه بما وجب له علي، فإن ذكرت نفسي نجدها قد استحقها فنقول: «أنت ليس إلا» وإن ذكرته هو نجده قد استجاب عندي، وهو ماهية ما أنا عليه، والعالم بسببه؛ فنقول أنت»، قيل له فقل: «هو»، قال: نشعر بغيرٍ نحادثه على الخصوص.

وكان أفلاطون يقول: «يا نور العالم، يا سبب الكل، يا مبدع المثُل والتوابع، كم ذا نتجرد ونعود إلى هذا الجسم، ونرجع في عالم العقل إليه، قوني بحيث أثبت عندك ولا

أعود، فإن صرفتني إلى هذا الهيكل فاشغلني بك، وألهمني بالرجوع إلى حالتي التي انصرفت من حضرتها الشريفة، يا غاية العقل والعلم، يا لذة الهمة، يا أمل الحكمة».

وكان أرسطو يقول: «يا عِلّة العِلل، يا أزل الأزل، يا سبب أول يا واهب العقل، قني نارك يا من تكرم علينا بالوجود، لا تهمل نفوسنا في عالم الطبيعة، وخصصنا في حضرة الجود».

وبلغني أن الهرامسة كانوا يقسمون نهارهم وليلهم إلى زمان الذكر، وزمان معرفة مدلوله بينهم، وزمان اختيار ذكرهم، وتحقيق حقيقة قبول المذكور عليهم بوارد طارق أو حال خارق أو إشارة في الكون أو ملك مخاطب أو زيادة رحمة أوخير مكتسب، ولكل نبي دعوة، ولتلك الدعوة ذكر خاص، وساعات الأنبياء لا يمكن فيها المناجاة، لأن اللطائف إذا تواردت على المحل لا يسع العارف إلا الذكر، وبلغني أن آدم ﷺ كان يقول: «اللهم أرحني بجنتك التي لا يتوقف فيها ذكرك، ولا نفقد فيها ذاتك، يا من أسجد الملائكة لعبده، وهو يعلم منه أنه يعصيه بعد ذلك يا من كرمه لا يتوقف على الجزاء والمسئلة، ولا يستند إلى ما يقل ويكثر، يا واسع الخير، يا رحمن، يا حليم، يا الله».

وكان إدريس ﷺ يقول: «علمت أنك العلي الكبير الشأن، المنعم على كل ذات حادثة، العالم بكل الكائنات، الذي له الملك والحمد، فأنعم علي بما علمتني، وخلصني من ملاحظة غيرك يا ذا الملك والسلطان».

وكان نوح ﷺ يقول: «اللهم أنعم علي بالصبر حتى نفرح في الدنيا والآخرة بدعوة الحق، يا حق، يا مدبر الخلق ولو في رجل واحد، يا الله، يا رب، يا رب».

وكان يقول في السفينة بحسب ما نُقل: «اللهم سلم وأنعم علينا بالعافية، وادفع عنا غضبك: لا طاقة لنا عليه، وانظر بعين رضوانك إلينا، يا رحيم، يا رءوف».

وكان يقول بعد سلامته: «يا وهاب، يا محسن للمذنبين، ثبتنا على طاعتك، ولا تهملنا وعافنا».

وقال عند موته: «سبحان الحي الذي لا يموت ».

وكان إبراهيم الخليل ﷺ يقول: «اللهم بحق كلمات الصحف آنسني بك، وبلغني غاياتي في جوارك، وارحمني بحضرة رضوانك، واجعلني في الأرض أسوة صادقًا يجذب عبادك إلى رحمتك، وحدثني في سري بما تكشف به عن ملكوت السموات والأرض، واجعل ذريتي صالحة»، والذبيح ﷺ كان فداؤه ذكر ربه في قلبه بصفة الرضا.

ويعقوب ﷺ قسم ذكره لربه، وحبه ليوسف، فكان عذاب باطنه لأجل المساواة،

وكذلك يوسف عليه السلام: طال أمره لكونه ذكر غير مذكور، فغار الحق على ذكره له، ولكونه وقعت فيه المشاركة، وهذا في حق يوسف عليه السلام مما يحمد؛ لأنه عاتبه على المباح فدل على أنه اصطفاه، والكلام عليهما يطول ذكره لا أنه من قبيل القصص المذكورة الذي تعظمه العامة؛ بل من قبيل التحقيق الذي تعظمه الخاصة.

وكان موسى عليه السلام يقول: «نذكرك في القلب مرة، ثم نبصرك به، فأنعم عليَّ بالنظر إلى وجهك، كما أنعمت على المذنبين من عبادك»، وما ذاك إلا أنه غاب ذكره في بصره فأبصر الحق بالحق، وطلب ذلك من جميع الجهات.

وكان هارون عليه السلام يقول: «اللهم أرح عبادك، ومهد بلادك».

وكان عليه السلام يقول: «ذكر الله شريعة القلوب ونصيبها من نور الله، اللهم طهِّر قلوبنا بذكرك حتى نذكرك بما تحبه كما تحبه».

وفي التوراة: ذكري رحمة للعباد لا يصلح معها عذابي، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «اذكرني فإن بذكرك لي كلمتك، وبه تراني وأنا مع الذاكرين»، فقال موسى عليه السلام: «يا رب أنعمت فتمم لي، ما ليس لك فإنه مثلك، وليس لك مثل نفسك»؛ فأوحى الله إليه: «من استند إلي كفيته، ومن ذكرني فقد بلغ إلى حضرتي».

وكان داود عليه السلام يقول: «الحمد لله على حمده، وعلى ما بعده» فأوحى الله إليه: «يا داود، احمدني وزد في حمدي» فقال: «يا رب، وهل يستطيع أحد على حمدك، فإنما حمدك نعمة من النعم»؛ فأوحى الله إليه: «علمت ذلك فقد حمدتني».

وفي الزبور: «يا داود، أنا عند ظن عبدي فليظن بي خيرًا»، ومعناه: أنا بحسب ما يخبر عني ويذكرني، وفي الذابور: «يا داود، أنا بدك اللازم فالزم بدك».

ومفهومه: اخبر عن واجبه فيك وعن استحقاقه لك. وهذا هو ذكر القلب، وذكر بعض أهل التحقيق إنه كان إذا أراد أن يفعل الأمور العجيبة يتكلم بكلام غريب، وبحروف مقطعة فيفعل الأمور الغريبة ﷺ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

وسليمان عليه السلام فعل بالذكر والاسم والخاتم ما سمعت، ودعوته كلها ذكر، وبه علم منطق الطير، والذكر المشترك، والنطق العام المقول على كل موجود؛ بل على كل معدوم بوجه عام، وبلغني أنه كان إذا عزم على الحركة، ويريد تصرف الذوات التي حصرها عالم الكون يتكلم بكلام خفي، ويستدعي الجميع أسرع من الطيف، وأفاد ذلك لبعض خدامه، فكان يفعل، حتى كاد أن يفعل فيه، وكان يذكر حتى يفعل في الموجودات، ويظهر فيها العجائب.

وكان في خاتمه، مكتوب: مَن علم الله، علمه الله علم ما لم يعلم، وملكه ناصية كل مليك، وخلص ملكه، وجمع له بين ملك الدنيا، ونعيم الآخرة، ومَن ذكره بحسب علمه؛ زاد له من ذلك، وأيده بروح منه، وذكر الله: هو الروح الحافظ.

ومات زكريا عليه السلام وهو يقول: «الحمد لله الذي جعلني من عباده الصالحين».

وفي الإنجيل: «لا خير في عبد لا يذكرني»، ولا يدخل الجنة من ذكر غير الله أكثر من الله، فكيف.

وفي الحديث الصحيح: «ما من ساعة تمرُّ على العبد لا يذكر الله فيها؛ وكانت عليه حسرة يوم القيامة، وإن دخل الجنة»[1].

وذُبح يحيى عليه السلام وهو يقول : «مولاي، رحمتي بالقرب منك فارحمني بجميل اللقاء»، وذكر الله جُنّة لا تصيب بها مصيبة لمَن يخص بها.

وفي الإنجيل: «يا عيسى، اذكرني كما يذكر الولدُ الوالدَ».

وفيه: «نسمة المؤمن محل الذكر، ومحل الذكر حضرتي».

وفيه: «الحكمة الصادقة ذكر الله مع أهله، وفي وقت الغفلة بين الغافلين».

وكان لقمان عليه السلام يقول لابنه: «لا تطلب الحكمة في بطون الأوراق، ولا تسمعها من الألسنة؛ ولكن انظر الصنعة، واذكر الصانع يرشدك لكل شيء».

وأصحاب المسيح عبادتهم الذكر والسياحة والتجرد والصوم واستماع الهواتف والطوائف والبوارق، وهي الآن سنة الرهبان.

وإذا ذكر الله وقع الجلال في الضمائر، واهتزت الأرض بالكنه اللازم لها، والملكة الواجبة في الأشياء الظاهرة بها.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن المؤذن ما يمرُّ آذانه على رطب أو يابس، إلا شهد له بالإيمان يوم القيامة»[2].

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ﴾ [الدخان: 29]: إنه الذكر في موطن التعبد، وقد قيل: هي العبادة، وكيفما كان الأمر، الذكر لا يفوت أمره، كان بسيطا أو مركبًا.

وأما نبينا ﷺ فقد بدأت به، وبكتاب الله تعالى، وقد جاء في ذلك من الأحاديث ما لا

(1) تقدم تخريجه.

(2) لم أقف عليه.

يحصى عددها.

وكان الصديق ﷺ يذكر في نفسه ويقول: «أسمع من أناجي».

وعمر ﷺ كان يذكر بالجهر، ويحارب عدو الله الشيطان.

وعثمان ﷺكان يقوم الليل كله بالقرآن، وهو الذكر من جهة الاسم والمدلول والجميع.

وعلى ﷺ خطبته معروفة، وذكره لا يمكن أحدًا أن يستريب فيه، والسلف الصالح كذلك كلهم، ورجال الرسالة الذكر عندهم مقام كريم، وهو لا يترك في السلوك، ولا في الوصول؛ لأن كل واحد من الواصلين يذكر ما هو بسبيله، ولو بالقلب ولو بالمذكور ولو بإخباره عن قطعه، ولو بالوقفة، وبالجملة لا بد من الذكر، وهو يتقدم ويتأخر، ويقارن المقامات واللذات والأحوال والجميع.

وأُويس ﷺ كان مقامه الذكر المفرط والبكاء،، وكان فكره يتأخر عن ذكره، ومات وهو مقدم أسوة لأهل الطريق، وذكره فكره معًا، فافهم.

من فضيلته: كونه فرضًا عليك: مفردًا، ومركبًا: تارة وحده، وتارة بإضافته إلى عبادة أخرى، وهو أول ما تستفتح به الرسل لعباد الله، وأمًّا المحدث فينقل فيه الوجوب والندب، والفقيه يوجبه عند تذكر النعم، وفي الصلوات المكتوبة، ومن حيث المسلم، ويحمّده إذا أفرط، وإن استغرق فيه الوقت كما يجب، وهو عنوان السعادة عند الموت، وهو الأول في الدين، والآخر من أول ما يطلب المكلف به، وعند الموت، وهو ظاهر في اللسان، وباطن في الجنان، فقد ظهرت فضيلته في صناعة الحديث والقياس، وفي الأحوال، فإنها تكشف فضله، وتحض عليه وتجر إليه.

وبالجملة: فضله في العقل والنقل والإجماع والقياس لا يخف إلا على مجنون أو محروم أو مباهت أو بطّال أو جاهل، وأعوذ بالله من هذه الأوصاف.

وكذلك وجوه التصوف:

أمًّا الأول: فيقول: الذكر يحفظ نظام الأحوال، وينشط القصد ويحرره، وينوع اللذات الباطنة.

والثاني: يحمده فإنه يصرف الوهم إلى مرتبة التقدير، ويقطعه بانقطاعه هو، ولا ينقطع إلا في المذكور، والمذكور هو المقصود، والمقصود لا وهم فيه.

والثالث: يحض على متعلقاته بحسب محل، ومن جهة وجهة، والذكر الجوهري يحده في تطوره في جوهره المنتظر، وكان ينتظر به جلالة مجهولة في تحقيقه، ويسوقها هو.

ولولا التطويل؛ كنت أذكر ماهيته بحسب الوجوه والمراتب التي فوقها، وما بعد ذلك، ولكني راعيت الكلام على مكانه وفوائده ومقاييسه، واستعماله كيف يكون، ومع مَن، وفي أي وقت، وبماذا، وكيف ماذا، وأين، وما غايته، وما نسبته، وما حكمته في الثناء عليه، والحث على استعماله واتخاذه، وإن كان الكلام المقدم فيه الكفاية، وأيضًا وصلته للوجه الثالث؛ فإنه فوقه بوجه أكمل يعسر تصوره على الجاهل، فيعود بوجه أنقص عنده، فاعلم ذلك.

وأيضًا إذا وصل الكلام لفصل التحقيق يتجرد الاصطلاح الغريب، ويفر الذكر من قلب الذاكر، ويطبع على قلبه، ويفر الذَاكر فرار الشيطان أمام الذكر في العرف الأول؛ لأن الكذب لا يجوز على الله، ولا مع الله، ولا شيء أكذب من لسان الإضافة، ولا شرك أقبح من شركها، لكنه يقام له قوة إلهية فيعود فيفعل كفعل الذاكر، لكن لا يعتبر في ذلك الذكر إلا الله، وبُد البُد، وهو هو، الهو هو، وإن كان الذكر يكون الكنه البسيط الساذج الذي يفرض تعظيمه بوهم المقال، وحرص المذكر؛ فنقطع ذلك ونعود إلى الأصل الأول. فنقول: إذا أردت أن تذكر فعليك بطهارة محلك الجسماني والروحاني، والأمل الواقع فيهما، والمفهوم منهما، والصادر عنهما، وجميع اللواحق حتى التي ترجى أو تقدَّر أو يخبر عنها، وتستعد للأنس فقط، وتكيُّف الذات ولو بالخير الكاشف المقرر على نكتة السكينة، هذا إذا أردت الأعلى، وإلا فأي شيء كان منه الخير بالذات، ويستحب للمحل أن يكون فارغًا من الطعام إلا أن يكون الذاكر من العارفين، وهو الذي ذكره إخباره عنه أعني: القريب في الكلام، فله أن يذكر كيف شاء، وينظر الأشياء التي يذكر بها رسول الله ﷺ.

وقد يجب للهمة أن تجمع أسماء ذات الذاكر المذكور، وأسماء صفاته وأعماله وتعظيمه وتقديسه، والكلمة الصادقة بالاعتقادات السبعة، وهي كلمة: «لا إله إلا الله»، فإذا وجدت النفسُ الأنسَ بالصِّيَغ، اصبر عليها حتى تجد الأنس بالمدلول، ثم اصبر عليها حتى تجد الأنس بما يجب له، ثم اصبر عليها حتى تجد الأنس بها في النفس والحال، لا في الاعتقادات والخبر، فإن لم تجد إلا الصِّيَغ حض الذاكر على الخلوة، واجعله يقرأ سورة «الواقعة»، ويستحب له أن يقطع الصوت الحسن الذي لا ينشط إلا به، فإنه يحجبه عن مطلوبه، ويسمع بإذنه وبالإيقاع فقط، وأعوذ بالله من هذا.

وإن كان يسمع بالجميع فلا بأس به، أو يكون من العارفين وبحسب ما ذكرناه فنرجع، فنقول: إذا وجد ذلك انقله؛ يقول ويعتقد أنه لا فاعل إلا الله، فإذا وجد الدلالة

يبتدي في مظهره بالدليل قبل المدلول وتقع المساواة انقله؛ يقول ويعتقد أنه لا حي إلا الله، فإذا وجد الاجتماع يحكى معتقده والجمع يشهد على ماهية تعليله وتصويره، ويحصره حصر الدائرة لِمَا تحتويه، وينفعل مع ذلك لهيبة ذاته، وضعف مرض عادته، قد أخذ في الانحطاط انقله؛ يقول ويعتقد أنه لا موجود إلا الله، فإذا أُبْصِرَتْ الآنية هي الهوية، والمعلوم هو العالم، والميت هو الحي، والظاهر هو الباطن، لا من جهة الدليل، ولا هو من قبيل أنا هو وأنا الله، وما أشبه ذلك، فوض أمره إلى الله إلا إن كنت صاحب اسم فأْنسَه وبلِّغه الأمانة الثانية، والله هو المدبر، فإن الذاكر حقيقة هو المذكور.

ذكر أخر: واذكر باللسان، وافهم بالجنان، ثم اذكر بالجنان، وحرك اللسان، ثم اذكر بالقلب والرب، ثم اذكر بحقيقة القلب حيث هو الرب، ثم لا بالرب، ثم اذكر بالرب، ثم لا بهذا ولا بهذا، فإن السبب عند الله ينقطع بالله، والله لا يذكر نفسه وذلك الذكر غيره أعني: غير المذكور، ولا يذكر عبده وهو هو، ولا يسع في الوجود الخلو عنه مع امتناع ذلك فيه وإن كان بوجه ما به، ولكن هنا دقيقة إذا قلت: الله ولا شيء معه، ولك حالة ما غريبة الهيئة هي تلك.

والذكر هو إلمامية الشعور بها، وهي القضية التي لا تنتقل وتستقل، ولا تكون بحيث يرد عليها العالم والكاشف والحاضر والغائب؛ فأبشر فإنك الاسم الصحيح، والخليل الخاص من حيث أوهامك وسلبها ذلك، والمطلوب الجميع.

وهنا يصل بعض الناس ممَن يتوهم أنه وصل، ويقطع بالوصول، ويهجر الواصلين، بمعنى أنه قد لا يستقل، واستغنى، فيتلف من دار مولاه حيث أراد الحلول فيها بعد طول المدة، وذلك إنه وصل إلى آنية بسيطة لا يمكنه أن يسع من غيرها، ويجد القلق في ضميره من الأغيار، ثم ينصرف إلى معناه الساكن فيجد الممد والماحي للأغيار، ويحصر ذلك كله على الوهم، وعلى ملك الخيال، ويستند إلى مواجده ويطلق التوحيد المحض العام الذي لا يشوبه شيء، ويصرف الأشياء إليه، وينظر الناس بعين الرحمة، فليته ينظر نفسه بعين الإنصاف ساعة، ويرجع البصر كرتين، ويغوص في جلال الذكر؛ فهو الذكر الأعلى الذي لا تنطبق الآنية إلا على مظاهره، ولا يطلقها على جهة المطابقة إلا هو.

ذكرٌ أخر: الذكر مشاهدة إذا كان من الضمير الأعلى بمعنى أنه يستجيب فيه المذكور: أي المدرك والمشعور به.

ذكر أخر: بل بحر تجري سفينته تحت موجه، وجواهره فوق أوجه، إن كان الذكر يحمل إلى الله فقد كفر الذاكر بإجماع أهل الذكر الخاص، وإن كان يحجبه عنه فالأمر

أضر، وإن كان لا يحمل ولا يمنع، فهو الوهم الأول الذي لا يذكره العارف، وإن كان هو الفكر بمعنى أنه لا يذكر إلا من يعلمه، ويطلق القول عليه كالقول على القوة الوهمية والخيالية والمفكرة والذاكرة، وكيف يطلق جميعها بحسب المواضع، وكونها واحدة بالموضوع، وكثيرة بالانفعالات والتغييرات والاستعدادات؛ فالذاكر من الأشقياء، وإن كان الذكر ذكر العابدين؛ فالذاكر من أعداء الله المحبين، وإن كان الذكر ذكر العلماء؛ فالذاكر من الغافلين، وإن كان الذكر بالعرض المخلوق؛ فالذاكر لم يتميز فضله من الحيوان غير الناطق، وإن كان الذكر بالجارحة؛ فالذاكر من عباد الله البُلْه، نعم.

وقلبه يجد حلاوته، وإن كان الذكر يطلب به الثواب؛ فالذاكر من الأشقياء عند الصوفية، وإن كان الذكر لكي يحضر به الذاكر؛ فالذاكر محروم النصيب، وإن كان الذكر لغائب؛ فالذاكر من أرذل الكفار، وإن كان الذكر يصلح الوقت؛ فالذاكر ممقوت، وإن كان الذكر يهيج حلل الذاكر؛ فالذاكر بريء عن الله، وإنما الذكر نكتة إن وجدت كانت وكان الكل، وإن استدعيت لم تكن ولم يصح البعض، ومن كان ذاكرًا بالوجه الشرعي، واستقام على ذلك، ولا يطبقه على مقام يطلب به المرتبة المشار إليها من فص الهوية، ويتأدب مع الرجال في مواجيدهم، سلم حاله.

وهذه الاعتراضات هي بالنظر إلى الأعلى والأولى فقط فلا يتوهم غير هذا، وببعض هذا ظفر بعض أصحابنا وتوهم أنه وصل وانتكس قصده، وضعف سيره، ولم يصح له إلا خطبة وهم مهلكة، فنفته الغاية لكونها غالطة في نيل الغاية، وشرح حاله هو أن الرجل نظر بعض نظر، ولم يحصل فإنه لو حصل عرف ما بعد الأجسام، وما بعد المفارقات، مثل عالم الوحدة، والمسائل العويصة، ولا هو كان من حيث الصوفية من كل الجهات؛ بل أخذ البعض الذي لا يتم من كل نوع ذلك، وكأنه وجد الآنية مهملة الشعور والإدراك، وسلم الجلال للجليل، وافتقرت الأغيار لوجوده، وهي بالنظر إلى ذواتها ماهية فقط لا أنها وجود، ولا هي به بالوجه الذي لا يصح معه الكفر البين، ولا يمكن معه وحدة الوجود المحمود عند الصوفية، وقامت معه المعية المتداخلة الخفية التي يتوهمها جميع من لم تحذقه علوم التحقيق التي هي أعز من الأمر المرتكن والمربوط والمستند والحال والملتحم.

وهي عنده أجل من أن تكون كمعية المكان من حيث الفاعل، لا المعية التي يأخذها قسطها من المساحة، وكذلك معية الزمان جازها، ومعية المرتبة، ومعية أخرى، وهي عنده معية التقويم والتتميم والإلزام والمصاحبة المدبرة.

فإن صح أن يُقال في الحق أنه الوجود بذاته عنده الذي عرض للماهية، فهو ذلك أو

شبيه به، وتلك المعية تشبه الارتباط، وينحل الشيء إليها بالاستحقاق، وكأنها بوجه ما عنده مقدمة، وبأخر قياس، وبثالث نتيجة، وهو يتوهم أنه يجدها لا من جهة النظر فإنه حيث نظر انتقل من تأمله فيها، وقد تكون عنده من قبيل الأحوال، ويطلبها مع الغير بالوجه الذي لا يطلبها في ضميره، وهو مع هذا يجب أن ينسب إليه أنه يعلم.

ولمّا كانت عنده من قبيل الأمور التي يلحقها الذهن كما يلحق الحس الصورة، غلط ضميره حتى حمله أن يسكن في جموده، ويشخص في الصورة، غلط ضميره حتى حمله أن يسكن في جموده، ويشخص في الصورة الخارجة، ويحمله ذلك الشخوص إلى المشعور به داخل الذهن، فيتذكر الماهية والوجود العارض لها، وينظر ذلك في نوازل الهياكل المنتصبة والمظاهر المتصرفة، وفي هذا يظهر على المحل لذة وبهجة وسرور؛ فتصيبه سكينة وقوة يقطع بها، وينكر كل طريق يغايرها، وبعد هذا كله خلصه الله من شرك شبهته المستطرفة عنده التي يتوهم أنها عناية الله به.

ذكرٌ أخر: بل بحر آخر ساحله في وسط: لا يصح الذكر إلا للرجال الكُمَّل، إذا كان على ما يجب، ولكل أحد فيه قوة ودولة بقدر طاقته، والنافع للشيخ أن يذكر ذكر التدبير لأصحابه، وهو أن يختار لهم الأوقات الخالية إذا أراد بالذكر الحضور الفاني، أو في أي وقت البطالة إذا أراد أن يجمع أصحابه على الله، أو في وقت الخوف إذا دبرهم بالسلوك المتصل، وعلى التلميذ أن يذكر الله سبحانه بذكر شيخه، ويستغرق في مشاهدته فيذكره عند ذلك به فيجد ما يجده الشيخ، والصوت الحسن مما يصلح به، وعلى الشيخ أن يتكلم في المواجيد إذا علمها من القوانين، ويُنوع الكلمة إذا أبصر الضمير يقف، وينتقل إلى النبي إذا استقام الذكر في الله؛ لكي تصلح ببركته الأعراض، وإذا ذكر التلميذ الله، وتوسل إلى الله في فائدة الذكر القريبة بشيخه، وبما هو عليه من التوجه جعل الله الشيخ له مرآة قصيده، ينظر فيها ما شاء.

ثم يستقيم في ذلك حتى يبصر المظهر الدال عليه قد انصرف، ويجده من جهة توجه إليه، وبذلك يحق له الوصول إلى حضرة الصدق، ويدخل في عباد الله المقربين، ويفرح بنفسه.

ذكر أخر: صحبة إنابة وتتمة وسيرة جميلة وعلم النكتة، وبحث عن الإحاطة والكلمة الجامعة المانعة، ووجود ما خارج الذهن وداخله في مدلول الذكر، وكأنه يحكيه في نفسه، وتحصيل الدليل الصادر عن الماهية، ثم يقول عند اهتمامه بمقدار انبعاثه له: «لا إله إلا الله، حم، لا واجب الوجود إلا واحد، ألم، لا موجود آنيته هويته إلا الأزلي، كهيعص».

ثم يقول: «الله الله الله»، ثم يذكره بفكره، ويحرر القول، ويحقق العزم، وينصرف إلى ملاحظة الذهن لقضية الحال ولاستنادها إلى مواطن التطلع، ويسكن وينبه الوهم العزيز الذي موضوعه الخَلَد الموجه المتوجه، ويصير على انسلاخه، ويتجرد عن القوى الروحانية، ثم يفعل ذلك مرة أخرى، ويفرغ من قلبه خبر العالم الفلكي والطبيعي والروحاني والمثل المتوهمة في الكليات المعتبرة في الوجود المنتسب، فإذا عطس أنفُ استرواحه يريح المواهب الماحية للحد المقيمة في المطلع، ووجد ذكرَه في ذاته المستطيرة، كان نحو الصواب، ثم يفعل مرة ثالثة بمعرفة تحصل المواقف، وبحسب حكم الواقف من ذلك ما ذلك حتى يستريح الوهم، وتفرغ النفس، ويتقدس بمجاورة المحل المكمل المقدم والعقل بما فوقه بالنظر إليه إذا تحكم بالمطالب الأصلية.

والتعليل لا حكم له، ولا يحتاج، وقصاراه قبول كمالات وأدب في ذلك، وحكم بإن ما هو بسبيله يفارق ما كان عليه، لا أنه أهمل القواعد من كل الجهات؛ بل من جهة وجهة، وإن عجز عن الحكم وترتيب المقدمات، فما عجز عن قبول ما يجب، وإن هذا المقبول هو من الغرابة والجلالة بحيث لا يدخل تحت الأمور المعروفة.

ذكر أخر: اذكر في نفسك أنه قد ذكرك، ثم اذكر، ويكون ذكرك من مراقبة علمية ومقام الإيمان وذكر مشترك، ثم اذكره من مقام الإحسان ومراقبة قلبية، وذكرك في آخر المشترك ثم اذكره، وذكرك من حيث ذكره والذي كنت تعلم قد كان أن يكون مشهورًا، وأنت تراه يتشخص في مدرك الهيبة المحركة للضمير الفاعلة في النفس، وتقرر الملاحظة وكأنك تحدثه، ثم تفرط في ذلك حتى تجد ما يكاد أن يكف الذكر للأدب الذي يجده مُجالِسُ الملك إذ جالسه.

وأيضًا مشاهدته فيها الكفاية، ثم تجلد على الذكر حتى تبعد المشاهدة المنسوبة، وينعكس ذكره لأنه حالها، وأنها غيب الذاكر، حتى نسي أمره فلمَّا أفاق وجد الذكر وسبب المشاهدة فيه أقوى من الأول، ثم اذكر بعد هذا الذكر حتى تجد مطلوبك أقرب من الأول، والأمر أتم وأعظم، وفوائده أجل، وغيبته أقل، ثم اذكر حتى تغيب قليلاً، وتحضر كثيرًا، ثم اذكر حتى تغيب فيه، وتحضره عنده، ثم اذكر حتى تحضر ولا تغيب، ثم اذكر حتى يعود الذكر في المحل دون قصد وإرادة، والقصد والإرادة في التنـــزيه، ومشاهدة الجلالة، وأنت تعلم وتسمع، وهنا هي نهاية الذكر.

وبعد هذه المواطن يحرم الذكر على الخاصة؛ لأنه من الأفعال المسببة، فإذا وقع الميل، ويخافُ على المطلوب المحصل أن يفوت صحبة السبب قطع السبب، ويبقى الطالب

الذاكر مع الفائدة فقط، غير أن هذا الذاكر إذا كان في هذه المرتبة، وظفر بهذه المنـــزلة، وكان أمره في الوقت المطلوب على حالة من الأدب المأمور به، وكما يجب نذكره محفوظ، وإن كان على غير ذلك مع كونه في فترة يظهر عليه علل مجون التوحيد المخادع للضعفاء، فالذاكر مخدوع وإن لم يظهر عليه في هذا الزمان المطلوب به شرعًا المراد الشرعي على كماله، وهو مع هذا في غيبة من ذلك القبيل ففيه بين الأولياء خلاف وليس باليسير: منهم مَن يسلم له؛ لأنه غير مكلف، ومنهم مَن يمقته، فإن النبي ﷺ لم يعلم عنه هذا، وإن كان الأمر مثل هذا والمحل تجرى عليه الأحكام والهمة والإدراك والنفس في عالمها الكريم تركب كانت المكانة الموروثة على الخصوص.

ذكر أخر: مَن ذكره به ذكره عهده القديم، ومَن ذكره فقط وهو بسيط الخبر المتقدم جذبه إليه، ومَن ذكره وذاكره يتأنس به دله عليه.

ذكر المقامات والأحوال
في مفهوم الذكر وأحكامها في الذاكر

إذا ذكره التائب، وأخذ نفسه بالذكر المستقيم لعظمة ما يجد من النشاط، ولِمَا هو بسبيله من أنس الذكر يتذكر شره الأول، وببركة الذكر يقوى عزمه على الأفعال الجميلة والخروج من المذمومة، ويسهل عليه رد المظالم، فإن لم يجد وإلا بالذكر تعظم الذمة فهو يعطيه إمَّا الخلق مع الاستطاعة؛ فيعطي ما أخذ، ويكف عن الذي فعل، ويحرض النفس على الخير، وإمَّا يفسح له ثوابه المجتمع له السهل الكثير، فيعطي ويفي له، وهو رحمة سترها الله عن الأشرار، وكشفها لهم بعد ذلك، وكشفها للأخيار، وسترها عنهم به عند ذلك إذا ظهر ذلك، وكان من هو من ذلك ذلك أو بذلك في ذلك.

ثم هذا التائب الذاكر ينقله ذكره إلى الأوبة، ويكشف له عن أنواع التوبة السبعينية، وقد يمنُّ الله عليه، ويعصمه من التوبة في التلوين، أو يتحف بمفهوم التوبة من التوبة، وقد يكون المريد مرادًا بالذكر بعد توبته، ويفتح له في الوقت اليسير ما لغيره في الطويل، والمراد على ضربين:

مراد بسبب: وهو الذكر أو ما أشبهه من مقام صادق، أو خبر طارق، أو رجل ذائق وقد يكون ذلك كله من ملك خاصية، أو أنعم عليه باسم من أسمائه قد يدخل معها بوجه ما، وأمَّا ذكر المجاهد في مقام المجاهدة، فيقويه على مكابدة أمرها، ويعود الجهد المؤلم من جملة ملذوذاته، وتعود عادته مجاهدة، ثم تعود مألوفة وعادة كالأولى؛ بل ألذ، وحينئذ ينبغي له أن ينتقل ويحق له ذلك؛ لأن غاية المجاهدة تكميل النفس، وإصلاح أخلاقها

وثبوتها على الأحكام الشرعية، ثم على الإلهية، ثم يعود الأمر في غايته إلى اللذة والأنس، ولا تجد النفس ما يسوؤها، ويرتفع معقول الجهد والمفهوم؛ منها الذي جاء على المبالغة بذكر الأنس غايتها أيضا المشاهدة، والذكر: هو المحرك الأكبر في ذلك فإنه إذا ورد الأمر الصعب على النفس في حال الذكر يسهل.

وأيضًا فالذاكر يذكر الفاعل؛ فيخاف أو يرجى في الوقت، أو يستحي منه الذاكر وجملة فضائل تصدر منه في ذلك لا تحصى.

وقد ينقله من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ويعينه على مجاهدة النفس لقواه، والجسم كذلك، وجميع ما هو فيه بالقوة والفعل من هذا القبيل ومن هذا النوع.

والعقبات التي ذكرها إبراهيم بن أدهم ﷺ. قد قيل: أن السلوك عليها بالذاكر صحبة التخلق، والقصد الصادق، والهمة الجليلة تقطع.

وأخبر أبو العباس بن العريف ﷺ أنه أبصر إبراهيم بن أدهم في النوم، فقال له:

«لم قطعت أنت المقامات الستة التي ذكرتها؟» فقال له: «أي المقامات تريد؟».

قال: «العقبات»، قال له إبراهيم بن أدهم: «العقبات قطعتها باسم الله الأعظم، والتجلد الخالص»، قال له: «ومَن لا اسم له؟»، قال: «بذكر المُسمَّى»، قال أبو العباس: ففعلت ذلك، وانتفعت به، وجميع ما أنا بسبيله من بركات وصية إبراهيم بن أدهم.

وذكر صاحب الخلوة ينتفع به في خلوته، فإنه ينادم ربَّه بذكره، ويتلذذ بالأنس به، وأيضًا بإفراط الذاكر في الخلوة يجد المواجد العظيمة، وينال المراد منها؛ لأن الذاكر إذا ذكر على ما يجب دبره المذكور، فإنه من أجله، وله انقطع، وهو سبحانه يعلم ذلك، وأيضًا يدوم في خلوته، فإنه مادام يذكر؛ يذهل عن نفسه، وعن أخبارها بالجملة، وعن الأهل والوطن؛ فيستقيم من غير أن يقر عليه وقته، والمراد بالخلوة: الفرار إلى الله فلا شيء أولى من ذكره فيها؛ بل هو الصورة المقومة لحال الذاكر، والمتممة له؛ لأنها عندهم من أمارات الوُصلة، والذاكر: هو الرابط لها، ولِمَا توجه لِمَا يجمل به؛ وجب أن يفر عن أبناء جنسه، ويستوحش من غير الله، وبذلك يظهر عليه ذكره في جملة أحواله وتصرفاته وبالذكر يتحقق أنسه بالله، فإذا ذكر الله، وعظم الذكر تكبر الهمة، ويصغر كل شيء عنده، ويبصر الأشياء ساجدة خاضعة لله العظيم، ويصيبه حال الإخلاص الذي إذا قام به تفر أمامه الأمور الكاذبة؛ لأنه إفراد المطلق، ومن جملة ما يفر عنه الأخبار الكاذبة حتى إنه يقول: لم نفر إلى الله،وإنّا نذم عباده، ولا نفسي يسلم لها أنها تأخرت من شرهم إلى خيرها؛ بل هم بالله ولله، وأنا من الله، ومع الله، وكل واحد منهم له ذلك، ومَن ألهم

لذلك؛ يسلك من استصغار الخلق، ومن شهود مزيته عن الخلق، ويظفر بالتواضع، ومَن رأى له مزية على أحد فهو متكبر، ويحركه الذكر لطلب ماهية الذكر، فيحتاج إلى علم ما يمنع ذلك، ويُكْشَف به ما يجب للمذكور، وما يجوز عليه، ويستحيل في حقه، أو تظهر عليه أحوال فوق العلم النظري؛ فيعجز عنها فيُحْوجه الأمر إلى رؤية الرجال.

وهذا كله من فضائل الذكر، وأيضًا يمكن من خروجه عن الغير أن يعلم هل يصح له ذلك؛ لأن الذكر لا يتم من حيث هو ذكر إلا بما يحبه المذكور ويختاره ويرضاه، فإن ذكر المتشرع ما هو كذكر غيره؛ لأن ذكره لا يتعدى فيه النقل، وله ذكر يزيد وينقص، وتبدل صيغه، والأمور إذا انحصرت بحسب الأحكام الخمسة؛ يحتاج أن يعتبر مدلولها، فإذا كان ذلك كله؛ احتاج الذاكر إلى معرفة ما يجب عليه في الشرعية، وما يحسن به في الخلوة، وكيف يكون حكمها.

وأيضًا الذكر يجره إلى أن يعتزل عن الأخلاق المذمومة؛ لأن الذكر يطلبه بطهارة القلب، والمحل على الإطلاق، ويعمم الأعمال الظاهرة والباطنة، ويسكن في ضدها، ويتصف بها، وحضرة الحق لا ينجر إليها، ولا يتميز فيها إلا الطاهر التقي، والماجد النقي، والعزلة الصادقة: إنما هي في فرار النفس عن القبيح المهلك لها، لا البُعد عن الأهل؛ بل العارف النبيه؛ هو الذي لا يكون تحت قسمة النوع، وهو نوع وحده، ويكون من الناس وهو واحد من الناس، وهذا كله بعض فضائل الذكر.

وأيضًا الذكر في الخلوة والعزلة يجعلك أن يكون أُنسك به لا بهما، فإنه إن تأنست بهما في الخلوة أو العزلة، إذا خرجت عن ذلك؛ فقدت الأُنس بالله، وفقدت لذة الحق؛ لأنه عِلّة ومعلول، وأعوذ بالله من ذلك.

وأيضًا الخلوة الصحيحة التي من أجل الله ينبغي أن تكون كلها بالله ولله وإلى الله، ولا يوجد في المحل ذكر أحد غير الله، وأيضًا من ذكر بجسم، وكان من حيثه؛ أتعبته الحواس، ومَن كان كذلك مع نفسه؛ أتعبته الأماني والأوهام، ومَن اعتزل عن ذلك، وخلا بحبيبه وذكره أعانه على الجميع، وملكه من الكل، وبَلّغه إلى غاية آماله، ويستميل نفسه إلى قول: الله! الله! الله!

ذكر الذكر ونوره وتصرفه في مقام التقوى

التقي إذا ذكر عظم خوفه، وكثر أدبه، وحضر في وهمه الوعد والوعيد، فيذكر بتخوف فوت الوعد، وخوف ضر الوعيد، وقيام همه به، وأيضًا التقوى تحض على مجانبة جميع ما يبعد عن الله، والذكر يحرر هذه المجانبة؛ لأنه إذا استغرق أزمنة التقوى متى هم به وسواس

الوهم؛ ذكَّره الذكر ففر عزمه إلى الأدب، وأقام على خيره الأول.

وأيضًا الذكر بالله وبأفعاله وصفاته، فيطلب التقي أن يعمل على تحصيل متعلقاتها فيذكره بالآخرة، ويشوِّقه إليها، وأيضًا الذكر نور، والتقي يمشي بالنور على بصيرة، وهو الذي يعلم جهة المضار فيتقيها، ويكون معه دائمًا، وحينئذ يكون مدركها تقيًّا؛ ومثال ذلك الرجل الذي يقول هذا هو السبع، فإذا لقيه في الطريق وهو مع هذا؛ لا يفر عنه لم يفده علمه به الفرار عنه، وإذا جمع مع العلم به الفرار عنه؛ سلم وظهرت السلامة بازدواج العلم والعمل، وإذا لم يفعل ما يجب في ذلك؛ كان مثل الذي لا يعلم به، بل الأول أصح اختيار منه، ولعله بكونه لا يخبر عنه يكون سبب سلامته منه، فإن النفوس إذا لم تخوف لم تخف، فافهم، وكل خير يطرأ عليها منها، فإنها إذا انفعلت فعل فيها، وبالعكس، وهذا على جهة الأكثر.

ذكر فضيلة الذكر في باب الورع

الورع إذا ذكر زاد روعه، وحفظ حاله؛ لأن الورع كناية عن ترك الشبهات، أو ترك ما لا يعنيك، أو ترك المشغل بالجملة، أو إهمال مالا تحمد عاقبته، وذلك لا يصح إلا بالتقليل، والزهد المحض، ولا يقوى إلا بالتقوى، ولا يمشي نحو الصواب إلا بالعلم، ولا يدوم إلا بالصبر، ولا يحمد إلا بالرضى، ولا يكمل إلا بالأُنس بالله، فإذا ذكر الورع الذاكر لله في كل حين؛ قامت معه زواجر الأحكام الشرعية، وعظمه الأمر، فإنه يسمع ويرى من حيث الأمر والنهي، والأمل في الله، وما هو بسبيله من الاجتهاد على تحصيل البعض من نوره، ونعيم داره، وخزن أغراضه، وسجن همته، فإذا كان هناك يسرح الجميع حيث يجب، فإذا همت النفس منه بمباح طلب الذكر منه سلامة الباطن من المحتملات وطهارته وطاعته، والمباح يجر إلى أمور، وقد تصعب بنظر ما فكيف.

وأيضًا يشغله بالله عن فعله مع كونه في غاية الزهد والمحافظة على الأحكام؛ فيكون الأمر على أتمِّ ما يمكن، وأيضًا الورِع: هو الذي يجعل الشرع في يمينه، والعقل في شماله، فما تعرض له، وتوقف فيه من جهة ما في شماله، عرضه على ما في يمينه، فإن قبله وإلا تركه وفرَّ منه، وهو ينظر بمرآه الأحكام الخمسة، فإذا أراد أن يتصرف في شيء؛ نظر إليه هل هو من الأحكام الواجبة؛ فيسرع إليه ويقضيه كما أمر ليس إلا، فإن الورع في المأمور به إنما هو في تناوله على ما يجب، وكما أمر، وسرعة القبول لا غير، وغير ذلك لا يصح لئلا يصدر من ذلك سوء الأدب، والزيادة على الشارع كفر وبهتان ومحال، وله أن يزيد وينقص في المباح والنوافل، وما أشبه ذلك، وإن كان ندبًا جد، وأخذ نفسه بالكثير لا

بالقليل، وإن كان دون ذلك يفعل فيه بحسب هذا التقدير، فافهم.

وهذا يحرره له الذكر، ويذكره به، ويزيد له فيه، وينشط وكأنه يسمع الأمر ﷺ يقول له: افعل كذا أو اترك كذا، أو يقدر ذلك داخل ذهنه، وأيضًا قد يستحي مع الذكر أن يفعل القليل المحمود، فكيف الكثير من المذموم، وبالجملة الذكر جُنَّة وجَنَّة ومنَّة.

والورِع إذا حرر القول فيه هو الذكر الخفي؛ لأنه حيثما ذكرت له النفس ما يحبه ذكر له العلم والعقل والشرع ما يجب عليه، ويذكره لِمَا يحبه المذكور ذكر المذكور المحبوب عنده من أنواع الذكر، فإن المحبوب عنده من أنواع الذكر، هو الذكر الذي يذكر الذاكر على مرضاة مذكوره المحبوب عنده، ويذكره بصفاته، وبما هو عليه في معاملاته، وإذا كان الذكر بخلاف ذلك؛ يُقال له الصوت، أو الخبر المهمل، أو هو الذاكر الصامت؛ لأن المراد من ذكر اللسان تصور القلب، والمراد من ذكر التقلب كشف السر، وذكر الروح، والمراد بكل واحد مما ذكر: الله.

فضيلة الذكر في مقام الزهد

الزهد العرفي: هو الترك المعتدل لِمَا لا يجب، أو لِمَا يشغل أو يضر نوعه، وإن لم يضر شخصه، وهو الذي يحض على الورع من صفة نفسه، ويسود الزاهد بسببه، وإذا انضاف إليه الخوف والعلم؛ استقام الأمر، وهو ينظر إلى التوبة في البداية فيقوى طلبه، وينظر إلى السلوك، ويتلذذ به، ويأنس بتحقيقه فيه، وينظر إلى الغاية، ويتردد في أمره؛ لأنه قد يظهر له في الغاية أنها لا تنال إلا بعلم ما، وبسبب ما، فيكون مُحَيرًا في أمره؛ لأنه ما بين أن يطلب الكمال، فيطلبه الشرط ببعض ما خرج عنه أن يعود إليه كما يجب، ويطلبه المقام بالثبوت.

والهمة إن علت قد تطلب الأولى، فإن جهلت فتغتبط بالأول، وتحيل الثاني، هذا هو زهد البعض، والزاهد غير مراد، وأردت بهذا الكلام التوسط.

وأيضًا الزهد: هو فقد ما إليه يحتاج بإرادة، وأيضًا الزهد: هو الفقر غير أن الفقر العرفي أجل منه، وهو المذكور في «الفقيرية»، والزهد العرفي أجل من اللغوي، وأيضًا الزهد، إذا كان على هذا الحال، والمحل كبير بمعنى أنه هو بحسب خيره فتارة تراه في الأمر المهمول من الدنيا، وأخرى تبصره في الحقير منها، وذمته عليه مملوءة بالحكم، وبالأمور الشرعية المالكة للكليات، المعتبرة في الدنيا والآخرة يحمد بالجملة، وقد يحمد منه الزهد المنسوب، والزهد المحسوب، وهو إمَّا في النفس، وهو زهدها في عالمها ومنصبها وصيتها ورياستها، وينهزم في هذا جميع أخلاقها، وإمَّا في الأمور التي فوقها، وهي ظفرت بكمالها

فتزهد في الأمور المنتظرة المعمول عليها عند الجميع.

مـــثال ذلك: يزهد في العلم بمعنى لا يغتبط به في وقت ما لأنه يطلب المعرفة، ويزهد في المعـــرفة لأنه يشهد المعروف، ويزهد في التضرع إلى الله من النار لأن القرب من الفاعل أبطل عليه وهم الفعل، ويزهد في التأهب لنعيم الآخرة؛ لأن اللذة القائمة بالجوهر استغنى بهـــا عن كل لذة، ويزهد في ذلك؛ لأن القصد أطلق له، ويزهد في ذلك لأن الهيبة هيبة في المُكْنة، ويزهد في ذلك لأن الحد حصره، ويزهد في ذلك؛ لأنه مدلول الرضا، ويزهد في ذلك؛ لأجل ذلك وفي ذلك أنه ذلك وكذلك بعد ذلك في وقت وجود ذلك.

والزهد الذي في الجسم هو يعظم بحسب وجوه المتروك، مثال ذلك الزاهد في الإكسير الذي لا يقتنع به إلا برسم الغير المضطر، وهو مع هذا الحسن يستجلب شهواته من الصور الطيبة، وجاه يجلب العسير، ويكون خليفة ملك الأرض، وله نفس تطلب اللذات الطيبة، ويجد في الطلب قوة استعداد، وسلامة أعضاء وقوى، وملكة خصال يعجز عنها تفرحه بالحمد والتعظيم، وما أشبه بينه وبين من هو دونه مع كونه لا تبعة تلحقه، وجلته تقيه فاعتبر ذلك، وقس به، وانسِج على منواله الواحد في الوجود، والوجود قد يطلب في المقامات بمعنى ما، وبالوجه الذي يُقال انتقل ورحل، وأخذ الأمر، وظهر الصعود إلى غير ذلك لا أنه يعود إلى العرف الأول فيهمله، وهذا النوع من الزهد الإضافة.

وأمَّا الزهد الجليل فهو الذي يكون به الزاهد غريبًا في الآخرة، ولا يتعرض إلى الأسباب المطلقة، ويكون معها تاركًا على الإطلاق لغير الله على الإطلاق، وهو بالجملة زهد لكي يكتسب كماله، فإن كان زاهدًا على الإطلاق حتى في الذي يسري له من الله كان مطلقًا، ولا خير فيه إلا إن كان خبره الله أعني: أنه يقول المقصود العين التي لا يصح معها طلبها لها، والأمر من جهتها، وبحسب ما يُقال فاترك ما يضرك ويقول، ومن حرر الوحدة، وهذا بمعنى سلب، وجمع على مجموعه فجمع وعوض بزهده، ويجر بذلك.

فإذا كان الأمر على ما ذكرناه؛ فعليك أن تعلم أن الذكر هو الأصل في ذلك كله وما حملني على ذكر الزهد، وتقسيم ما ظهر لي فيه بحسب هذا التقييد، وكوني أخذت فيه بزيادة ما أردت بذلك التنبيه على خساسة الدنيا، وكونها مهلكة، وهي العِلَّة القريبة والفاعلة بالجملة، وصرف الهمم الكريمة، فافهم.

ونعود إلى فضل الذكر، فنقول: ما من نوع من هذه الأنواع إلا وقد يجمع لك في كلمة واحدة، وهي جميع من ذكر الله، ولم يغنه عن غيره، ولا تأنس به، ولا امتنع به على

ما سواه فلا خير فيه، ويكاد أنه لا يمكن منه الخير، ولا يصح فيه وجوده، وأعوذ بالله منه.

وأيضًا الزاهد من أجل الله: هو الذي يزهد في أفعاله، ولا يزهد في الله، ولا في صفاته وذكر الله هو الذي يثبت على حاله، وهو الذي يثبت المقامات، وإذا زهد الزاهد وهو يذكر ربه ترك ما يجب تركه، وتمسك بما يجب من أجل الله، والله هو الكفيل به؛ لأنه ﷺ يقول «أنا جليس من ذكرني»[1]، والحاكم العادل المرشد المعلم المدبر الغني إذا تصرف عنده معه أعني بمحضره وهو يذكره بمعنى أنه يشاوره ويطلب منه أن يختار له الأولى.

وهذا هو الذكر النافع الذي يعقل فيه هذا كله، وما يمكن مولاه المذكور أن يتركه يترك ما لا يجب أن يترك، ويتمسك بما لا يجب أن يتمسك به؛ بل يجري في أموره وأفعاله نحو الصواب، فذكر الله هو المعلم الأكبر، وهو شيخ الشيوخ، وهو يعلم الملك ويعقل في حركة الفلك، وبه يبعث النبي، وبه يعلم ويعقل ويحكم، وكذلك اتباعه إذا تم على سداده أعني: الذكر الحكيم.

وهذه المقامات ذكرت فضيلة الذكر معها؛ ليظهر لك بجده في كل طور ونوع من أنواع شروط الكمال، ولمّا ذكرته قبل أنه بماهيته في كل المقامات من حيث هو جزء ماهيتها؛ احتجت إلى ذكره هنا من حيث هو متمِّم ومقوِّم، وبالجملة هو الفاعل للخير والشرف والكمال من حيث تأثيره في النفس الغافلة، وبكونه يذكر، وبالوقوف مع واجب مدلوله، وما أشبه ذلك، وهو المادة من حيث أنه الموضوع الأول، وهو بهذا النوع يُقال باشتراك أنه الكتاب والسنة، والجميع يرجع إلى معناه الموجه، وأنا عنيت به هذا المعنى وتعلق اصطلاح به، وخصصته بذلك، والمشاحة في الاصطلاح من شيم أهل القصور، وهو الصورة فإنه المعنى المحمول، والشكل الظاهر في الضمائر، وفي التعبدات، وهو المتمم لِمَا تقدم.

واكتفيت ببعض هذه المقامات لأني ما قصدت إلا الأنموذج، والتنبيه فقط على فضائله من جهة الدليل، وذهبت فيه إلى البراهين الإقناعية والخطابية في البعض، ومن حيث البعض فإن من أهل الأحوال مَن هو هذا الكلام عنده من برهان وجودي، ومن العلماء مَن يجعلها من قبيل الأمور الخطابية، وفيه مخاطبة برهانية؛ بل مخاطبات، وفيه ما

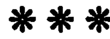
---

(1) تقدم تخريجه.

قوته قوة الجدل، ومَن مخاطبته ما هي شعرية بالقصد الأول، ومنها ما يستند إلى النقل والعقل بحسب ما ينظر فيه أو يقبل، وبحسب حب الناس، وبالجملة لخاطبت به من قام به هذا المقام أو تشوقه أو تعرض إليه أو نبيه الأغراض أو مشاركًا في العلوم معتدلاً، ومَن أراد الاجتماع بي في مدلوله وبيانه، والانفصال عن متشابهه، وما يجب فيه أهلاً وسهلاً به حيثما شاء من المواضع المعتبرة، وغيرها، والله يعلم أني بيضته، ولم يعد النظر فيه، ولا أمكنني ذلك، ولا تصفحته، ولا غيرت فيه ما جاءني من عند الله أعني: الواقع من غير فكر ولا رويَّة، فإن الكل من عند الله على الإطلاق. كذلك أكثر تقييداتي المرسومة في هذا الشأن بخلاف غيرها من التقييدات.

وجملة الأمر فرغت منه في يوم الثلاثاء من العشر الأول من شهر صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة، والعمر آخر سن الشبيبة.

وقيدتها في نيف وساعة، والسلام على المطفف في الردِّ والقبول والمقتصد والمقصر بحسب منازلهم، ومن جهة ما يجب، ورحمة الله تعالى وبركاته.



تنبيه محبّة: وصية صالحة منوطة بهذا التقييد وخاصة به: حافظ يا أيها الذاكر على أوقاته، وابحث عن صيغة الذكر الخاص بالنبي ﷺ.

وبالوقت الذي كان يستعمله فيه وبكيفية ذكره، واحفظ جميع ما جاء في ذلك، وحافظ عليه، واذكره لكي تحضر، ولأن يذكرك الله ﷻ، ولأن تكون في حضرته، وغير هذا صوت مسموع في عالم الطبيعة لا يتعدى، ولا يحمل الذاكر إلى ما بعدها، وأعوذ بالله منه، وخذ نفسك بمواطن الذكر المحبوب الشرعي مثل الذكر المذكور في الصلاة، والذكر الذي قبلها وبعدها، وعند الصباح والمساء، وعند النوم، وعقب القيام، ووقت الورد، وفي دخول المسجد، وفي الخروج منه، وعند النية في الإحرام، وبعد التكبير، وفي رؤية الهلال والصور المهولة، ووقت الأذان، وإقامة الصلاة، وبعدها، وعند سماع الدعاء يوم الجمعة، وفي الأشهر الحرم، وعند سمعك أصوات الحمير الوحشية والإنسية، وفي المواطن الخالية، وحيث الغافل، والمجاز والجائز، وعند سماع الصوفية، وقبله وبعده وفيه إذا حضر المساعد، وإلا نفسك أميل لعزمك، وأثبت على عهدك، وتصرفك من غيرها، وكذلك عند الإحرام في المواقيت، وعند دخول مكةشرفها الله تعالى وقد فُعِل، وفي مرضك وعقبه، وحال موتك.

وإذا عزمت على الشروع في شيء، فقدم ذكر الله تعالى، ثم صل صلاة الاستخارة عند ركوبك البحر والحيوان، وفي قتال العدو، وعند إطلالك عليه، والذكر الذي جاء بحسب الأيام والأشهر وأوقات الليل والنهار، وما جاء في الدخول على الملوك، وغيرهم، وعند الطعام، وفي حال النكاح، وفي الصلاة على الميت، وفي حال تناوله حتى يصل إلى قبره، ويفرغ من أمره، وفي زيارة القبور، وفي معاهد الحج ومناسكه، ويوم الوقفة، وما أدراك ما يوم الوقفة، ووداع بيت الله، وما يلزم في ذلك كله، ودخول موضوع الحاجة وإرسالك الجوارح على الصيد، وكذلك السهم، وفي الذبيحة، ودخول البلاد والأبواب، وعند الزرع وتعلم حجتك، وجوابك للملك في قبرك، وفي الاستسقاء، والاستصحاء واشتداد الأسعار، ووقت الطاعون، وتذكير الشجر، وذكر العلماء والخلفاء والصحابة وصلاتك على النبي ﷺ، وكيف السنة من غير السنة.

وفي الأسواق، وعند رؤية المعيان والمطر والقمر والشمس في الطلوع والغروب والبحر والسماء والبراري والمطر، وعند كل حكم، وكون ذكر خاص، وعقب البلاء والنعمة ذكر منقول، وكذلك النعمة والعافية مثال ذلك يقول عند الرزية والمحنة: «ما شاء الله كان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم أنعم علينا بالصبر»، وعند النعم «الحمد لله»، وقد يكون الذكر في ذلك واحدًا إذا كان الإدراك واحد، والرجل متوحد، والوحدة مقامة ومعلومه، وهذه كلها محصورة مذكورة في الشريعة، مسموعة عن النبي ﷺ ومنسوبة له ولأصحابه، ولأتباعهم، وتحتاج أن تبحث عنها، وهي أكثر من هذه، وإنما ذكرت لك المهم، ومن جهة أن نشوقك ونحرضك، وكيف تفرق بين الشرع وغيره.

وأمَّا الصوفية فلهم أذكار وكلها ترجع لأحكام الشرعية، فما منه مذكور، وهو بحسب وظيفة ما شرعية، ورتب عليه لا سبيل إلى الزيادة فيه والنقصان منه، وهذا الذي ذكرت لك منه ما جاء من قبيل الأحكام الخمسة، وذلك بحسب اعتباره من المذاهب والاجتهاد والتقديم والتأخير والإطلاق والارتباط، ومنه ما هو بحسب حكمة ما، ومعقول المعنى، وغير ذلك مما لا يحمل هذا التقييد ذكره، ويطول الأمر فيه، وقد فرغنا من المسموع المحصل، ومن شروطه وأحواله، وغرضنا أن نذكر لك ما سمع من الرجال بحسب مواجدهم وتفكرهم، والذي يرجع منه إلى الأول، ويجتمع معه بأقل تأويل، وأقرب مفهوم والذي لا يرجع، ولا يقرب بحسب الأكثر، والذي يبعد أو يعسر صرفه للأول على بعض الناس بالجملة، وما أشبهه، وما نُقل عن الأنبياء عليهم السلام بغير اللسان العربي، فهو مع ما نحن بسبيله من الحق بحقيقة المثل.

فإن الفضلاء بالجملة ما اختلف أحد منهم في البحث على الكمال، ولا على ذكر الله بما هو ذكر، وإنما الخلاف في الطريق الشرعية، أو في صفات الحق، أو في صفات الله، أو بعض الاختيارات والمبادئ والغايات فقط.

فنقول: أجلُّ ما جاء في ذكر الله عن اليهود عشر كلمات مفهومها لا يشذ عن مفهوم آية الكرسي، وآخر سورة الحشر على خلاف بينهم فيها، وفي الإنجيل تسبيح يوحنا، وكلام المسيح الذي كان يتكلم به في الليل، وحاصل ما فهم منه مجموع في هذه الكلمات التي نذكرها لك، وهي مرموزة مني، غير أن الذاكر ينتفع بها، وهي: «عمرش اش عمر صح راهيا ايدجا ايهم اردع صعسر عرجم كطلم».

وقد ذكر أبو طالب المكي في كتابه مثل هذا، والأصح عندي أن يتوقف في المسموع من أهل الكتاب كما جاء في الأثر إلا ما ينقله الرجال عن الرجال، وعن الأحوال.

ومن أسرار الصوفية الذكر المحمود هو الذي يصدر عن الرجل في حال الشهود، وهو الفعال عندهم، وبه يقع الانتفاع، وبه يفهم عن الله ونبيه وعنهم، وهو لا ينضبط، فإن الله إذا تجلى يجعل قلب عبده كرسيه الموضوع لحكمه، وعرشه المدبر لعالمه في عالم الطبيعة المدبر، وهذا الذكر لا ينضبط للعربي، ولا للعجمي، ولا هو بحسب لسان، فإن الحضرة الإلهية واسعة، وهي تمشي على حكم الممكن القابل الواسع الكلي، هذا ما كان منها في المدرك المحصّل للذوات، وما كان منها يرجع للحد الأعلى؛ هو على جهة الوجوب، ولا يمكن في هذا أكثر من هذا، فاعلم.

وأيضًا الروح لا تحصره اللغات، ولا يخاطب بها، وطبيعته قبول الكليات، وإذا ترك هو وعالمه العلوي يعلم ويفعل من صفة نفسه، فكيف تطلبه بأثره، وتحب أن تجعل الظل يحكم على الشخص، والآلة على الصانع، وأيضًا الرجل هو في الأرض أنموذج بمجموعهم، فلا يحصره شيء إلا الجلالة المنسوبة إلى الله في مظهر مفروض، أعني: جزء منه في ذلك هو يعتبره ويحترمه، وذلك يلزمه، وأيضًا الرجل: هو رحمة على العموم، وهو يدبر أهل الأرض وخطابه لا يتوقف، وأيضًا الملك إذا خاطب لا يستند إلا إلى المجاور المحفوظ، والروحاني المؤمن، والقرين قد يحدث بغير لغة الرجل الأولى، واعلم أن للملائكة أذكارًا مختلفة: لملك المطر تسبيح، ولملك الرعد كذلك، وكذلك لملائكة السموات أذكار مختلفة، ولملائكة الأرض، وللمقيم الآن في الجنة، ولأهلها بعد ذلك، فلا تتوقف على ذكر، ولا تنكر على الرجال ما تسمع، فلعلهم كوشفوا وخوطبوا، ومَن هو قلبه فارغ ينتظر ما يرد عليه من الأزل لا يحصر، ولا يغير عليه.

وقد جاء أن للحيوان البري والبحري أذكارًا، وقد جاء الذكر على العموم في الجماد وغيره في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ﴾ [الإسراء: 44]، فقل إذا وجدت البحر والوجود والحمد: «قهرم طمس هو الم صعنج ذلكم الله ربكم، يا يا يا» ذلك من جهة المسألة، ذلك من جهة أن تختار، ذلك من جهة شكرك.

والذي تحتاج أن ترتب في ذكر الله أن تبدأ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وتصلى على ملائكته ورسله وأنبيائه وأتباعهم وأتباع أتباعهم، وترضى عن أهل المِلّة، وعن رجال الله كلهم، وعن المؤمنين من الأنس والجن، وتقرأ «الحمد لله» إلى آخرها، وأول كل سورة، ووسطها وآخرها كلمة، أعني: آية فقط، ثم تعود تكرر السور أعني: التي فيها الحروف المفردة، وتقرأ سورة «الإخلاص»، وآخر «الحشر»، ثم تقول: «الله! الله! الله»، وتقرأ قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: 285].

وتقول: «الله» سبعًا.

وتقرأ قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 18].

وتقول: «الله! الله! الله» مائة مرة.

وتقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ [يونس: 3].

ثم تقول: «الله»، وتقرأ سبع آيات من أول «الرحمن»، ثم تقول: «الله»، وتقرأ آية الكرسي، ونوِّع صوتك، وكيفما أردت انطق، والذي تجد نفسك فيه أجمع.

وأطيب وأجل الذكر ما أنت فيه كذلك، وعليك بالترجيع والترتيب فيه كذلك حتى يطيب لــك إن كنت ممَن يطلب الأُنس، وإن كنت في ذاتك قد وجدته في الجوهر ومتى أردته يــصلك فلــك الخيار، وجميع ما توجه الضمير إليه اذكره به ولا تبال، وأي شيء يخطر ببالك سمِّه به، ومن اسمه الموجود كيف يخصص بأسماء منحصرة؟ هيهات، الله لا اسم له إلا الاســم المطلق أو المفروض، فإن قلت نُسمِّيه بما سمى به نفسه أو نبيه يُقال لك: مَن سمَّى نفسه الله قال لك: «أنا كل شيء، وجميع من تنادي أنا هو»، وإن صعب عليك هذا فعــسى تسلم أنه معك بالعلم والفعل، فإذا سلمت هذا تسلم أن الذي استجاب لك إنما هو الوجود، فإذا سلمت هذا سلمت ذلك فعجِّل بذلك، ولا تكن كذلك، فما يحق لك ذلــك يا هالك، يا مالك، انظر من حالك، وقل بعد ذلك: يا حق! يا أبد! يا راحم! يا أحد! يا أكبر! يا واجب الوجود، الذي الوجودي، ووحدته واحد! يا ماهية كل ماهية! يا أنــية كل أنية! يا مُعلِّمي قد تعبت! ارحمني قد هلكت، أغثني قد عجزت، خلصني، ولا حاجــة لي بــشيء؛ لأنــك كنت عينه، ونخاف تمقتني بمجرد الطلب، لكنه من أجلك

فـــاجمعني بك، واجمع علي إياك، واجعلني إلي عندك، عرفتك فلا شيء يقنعني إذ لا شيء عندي إلا أنت.

وكان بعضهم يقول: «يا ألله إلهًا ها يا الله إلا يا يا يا الله إلا إلا إلا يا الله إلا أيا»، وبعضهم كان يقول: «قد قد قد هذا هذا هذا له له له».

وبعضهم كان يقرأ القرآن، فإذا ختمه يقول: ختمته بالجسم، ونحب أن نختمه بالروح، ثم يقول: نعم نعم نعم.

وهذا كله أردت أن نعرفك بتراجم الأمور، وبعين المعلوم، وبحقيقة الأمر، فافهم، السعادة كلها صمديَّة مُحمديَّة خلديَّة، ومَعاد التحية والرحمة والبركة على الجميع.

قال ذلك عبد الله وهو عبد الحق[1] ابن مراتب توبة رسول الله ﷺ في اليوم لطف الله به والحمد لله وحده قيلتها للمحق على الإطلاق، ومن أجل الله بالقصد الأول، وللولد الصالح النبيه النجيب المحب في الله، ولأهله: نور الدين بالقصد الثاني بأنه يبحث عن سعادته، ويسعى في صلاح عادته، وصلاح عبادته، وقد عزم على تحصيل معناه، والظفر بما تمناه، وتمسك بحبل حب الله، وجعل حب رجاله بيمناه نوره الله بالعلم الذي يحمل إلى المعرفة، وإلى مضاعفات اليقين الثلاثة، وإلى العلم المحسوب بعدها بصيرته.

وأصلح سره وسيرته وسريرته، وحمله على الطريقة، وجمع له في كسبه الملكوتي بين الشريعة والحقيقة، وكشف له عن حقائق الأمور حتى يبصر المعقولات بعين قلبه، كما أبصر المحسوسات بعين حسه، وأيده بروح منه، وعرفه طريقه، وحبب له صديقه وفريقه، وأنعم عليه بالنور الذي إذا قام به أبصره بنفسه، وأبصر به ما سواه، ثم يبصر به فقط، ثم ما هو على ما هو به بما هو هو حتى يصل إلى الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته، ورزقه الله التجوهر بالمحمود المدبر.

وبالجملة عرفه الله الحق، وحرر له قصده، وحفظ بمجده مجده، وأدام بجده جده، ورحم والده وجده، ويسر له حده، وألهمه حمده، وجدد له في ذلك جده، وغبطه بوجوده، وتواجده، وقوى له وجده.

وسميتها (النورية) منسوبة إلى لقبه، فإنها مرسومة برسمه، ومشهورة باسمه.

ورضي الله عن المعتبر عند المعتبر، وأنعم عليه به، وجعله أجل من الذي يقول، وقوله الحق، وقطعه العالم الذي يفتقر فيه إلى البحث عن تحصيل السعادة وتستطرف فيه

(1) يقصد نفسه سيدي عبد الحق بن سبعين قدس سره.

المقامات، وخرق العادة: محيي الدين بالله، وعن جميع أصحابنا.

وسلام الله عليهم بجميع أنحاء المحامد المضافة له، ورحمة الله وبركته يا نور الدين.

اغتبط بهذا اللقب الذي لقبك الله به، فإنه في غاية الحسن، واشكر الله ربَّك عليه، واجعله مذكرك بالله، وإذا دعاك أحد به تذكر به إلى مدلوله العزيز، واسمع منه، وحصل قوانين الذكر المذكور، ونادم بُدك المعروف بك باسمك المذكر باسمه، ويكون الذاكر والمذكور والذكر منك وإليك.

واعلم أن النور محمود الحال، وكل طائفة تعظم هذه الكلمة والله يقول: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: 35].

والنبي ﷺ قال لأبي ذر وقد سأله:

«هل رأيت ربَّك؟ قال: نور أنا أراه»(1).

والنور كثير المفهوم، وعزيز المعلوم، وجليل القدر في القلب، وهو الضياء لغة.

وهو الذي إذا ظهر ظهر بنفسه، وظهر ما سواه محسوسًا ومعقولاً، وهو الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته الذي تدركه الحواس الخمس، ويتطرق إليه الوهم، ويدل عليه الدليل، ويعلم ببديهة العقل، وهو طبيعية الأرواح؛ بل هو الوجود على الحقيقة، وهو الكاشف الظاهر؛ ولذلك يجوز أن يُقال في القرآن نور، فإنه يكشف، وبه تُبْصَر طرق السعادة، والنبي نورٌ، والعقل نورٌ، والعلم نورٌ، والشيخ نورٌ، والطريق، وما أشبه ذلك(2).

والناس يعظِّمون هذه الصيغة، ومن عظمتها دخلها التأويل الكثير الخارج منه المرئي خارج الذهن، والداخل والخارج الفلكي قد عُبدت موضوعاته أعني: الكواكب والطبيعي أعني: النار كذلك، وذلك على جهة مجاورة المثال، ولكون الكشف الذي يتناسب والداخل النفس والقوى والعقول المستفادة والأحوال الشريفة.

والمتكلم يقول في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: 35]؛ معناه هو الهادي وصدق، ويقول: هو خالق النيرات وصدق، ويقول: هو منور وصدق، والفقيه يقول ذلك بحسب ما تقوله العرب.

وقد قال بعضهم: العلم نور يضعه الله في قلب عبده، وإذا عدل في ذلك عما تقوله

---

(1) رواه مسلم (161/1)، وأحمد (157/5).

(2) والنور: كل وارد يطرد الكون عن القلب، ولا بد أن يكون عين الحق ينبوعه، فلا يثبت معه الكون.

العرب أطلق على مدركات؛ لأن العرب تطلقه على الضياء.

والصوفية تطلقه على الأحوال الكاشفة تارة، وعلى الأرواح أخرى، وعلى المواهب ثالثة، وعلى المشاهد رابعة، وعلى الاستغاثة خامسة.

وفيه قال أبو طالب المكي[1]: «لا يرى إلا بنوره، ولا يشهد إلا بحضوره».

وعلى ما يخص السر، وعلى الظفر بالعلم اللدني، وعلى الوجود، وعلى الجمال المطلق، وعلى التوحيد الخالص، وإليه أشار الغزالي في آخر «المشكاة[2]»، وقسمه إلى أقسام، والأول منها تكلم عليه بحسب الصنائع.

والمحقق يجعله الإحاطة، وفص التطور، والقضية الجازمة، والتقديس البسيط، والعين الجامعة المانعة، والعموم الواحد، والامتداد القصير، والوجود الغائب الحاضر، والمعنى الذي لا يخبر عنه وإن أخبر عنه وقع في غيره أو فيه بالوهم من حيث أن له ذلك كله من غير قصد للمخبر.

والفيلسوف يطلقه على الذوات المفارقة بالجملة، وعلى المفارقة بالنظر إلى ذواتها؛ لأنها فارقت الأجسام لا من جهة الاستعمال كنفوس الأفلاك، والنفوس الجزئية، ونور الأنوار عندهم هو الله.

ومنهم[3] من يقسم الأنوار إلى ثلاثة، والرابع هو الطبيعي، وهو عندهم على جهة ضرب المثال بالنظر إلى الأنوار، ومنهم من يطلقه على الهيولى، وعلى الصورة المجردة، والمثل المعلقة، ومنهم من يقول: عالم النور هو عالم أخر فوق ذلك كله، وهو العالم الذي هو لله على الخصوص، والله عندهم أجلٌ من أن يطلق عليه اسم النور، وإن أطلق عليه، فإنما هو في بعض المظاهر للتشريف.

والمجوس يُطلِقون النور على الله، وعلى الخير المحض، والبراهمة إذا ذكر عندهم اسم النور؛ يسجدون في ذلك الوقت عندما يذكر بينهم إذ يسمعونه، ويتكلمون بكلمات مفهومها بعد بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم: «أنت! أنت! أنت! تعاليت يا رب الأرباب».

والنور عند اليهود حيثما جاء في توراتهم المراد به: عالم الملائكة، وحضرة الحق

---

(1) صاحب قوت القلوب.

(2) أي مشكاة الأنوار.

(3) يقصد الشهاب السهروردي المقتول، صاحب هياكل النور.

وصفاته.

وعند الإفرنج: هو كناية عن اللاهوت، وبالخصوص في عيسى، هو النور الذي أهبطه إلى الأرض، وهو واحد بالموضوع كثير بالقول والهيئة، وبالعكس إذا تشخُّص المظهر المعتبر.

وبالجملة مذاهب الإفرنج خمسة، النبيهة منها هي القريبة من الفلسفة وكلها تتكلم في النور، وتعظمه، وغير هذه الخمسة لا تصلح لشيء، ولا يصلح الكلام فيها لحكيم، ولا لمسلم.

والقوم على فلسفة أفلاطون عاكفون، وهم لا يعلمون، وأعوذ بالله من دين لا يعلم فيه قصد الله، ولا تحرر فيه قوة نبيه ومراده، فاعلم النور، يا نور الدين فاعتقد أنه من خواص الدين، واشكر مالك يوم الدين ﷻ.

نَفَثَات صدر بعض الذاكرين كان قد كظمها، صِيَغُها فصل المقال، ومدلولها نوره شجر نور الخلد، حيث المحل والحال تحض على الله، وتصد عن اللاهي قلت: ذكر الله حكمة لا يعقلها إلا ضمير الصديق.

ذكر الله نوره، ولكن لا يبصره إلا نور حدقة البصيرة.

ذكر الله نسيم حضرته، ولا يدركه إلا صديق.

ذكر الله نعمته الأصلية، وطريق جنته الآجلة، وعين جنته العاجلة حال الذاكرين رائحة أنفاس الذكر، ولا يشمها منهم إلا منيب أو مدرك.

ذكر الله عبادة ملائكته، وسبب قربهم.

ذكر الله خيره المعتبر، ذلك الله عقل مستفاد.

ذكر الله نتيجة مقام الإحسان، ذكر الله نتيجة مقدمتها الإيمان، وبرهان قياسها الإخلاص.

ذكر الله روح منفصل بحفظ الروح المتصل، فإذا اتصل كان الوصول.

ذكر الله لذة لا يكفيها أحد.

ذكر الله استرواح الأرواح لعالمها وسلمها المنتسب.

ذكر الله باب الفكر النافع، وذلك الفكر باب التطلع الكاشف، وذلك التطلع باب التصفح الصادق، وذلك التصفح باب الاتصال الثابت، وذلك الاتصال باب الخلافة الكاملة، وتلك الخلافة باب الحرية، وتلك الحرية باب الشأن الثابت، وذلك الشأن باب الكنه، والباب الذي يلي هذا ورد الأمر بصده، وجاء النهي عن فتحه، وقد فتح بالإلزام،

فافهم، ثم افتح حديث نفس نفيس.

غَبِطتُ من يذكر ثم يفكر فيجد، أو يجد ثم يذكر فيفكر، وعجبت ممَن يذكر ولا يفكر فيجد؛ بل ممَن يفكر ولا يذكر فيجد، بل ممَن يجد ولا يذكر فيعتبر، بل ممَن يجد ولا يفكر فيذكر، بل ممَن يجد ثم يذكر ولا يفكر ثم لا يجد، بل ممَن يجد ثم يفكر ولا يذكر، بل ممَن يجد ولا يذكر ولا يفكر فيجد، بل ممَن يجد ثم لا يجد، وبعد ذلك يجد، بل ممَن لا يجد ولا يجد أنه لم يجد، ولا يمكن فيه أن يجد، ولا يعقل الوجود في غيره، بل ممَن هو ذلك بجملته، ولا يصح فيه ذلك بالوجه الذي نذكر فيه التقديم والتأخير والتوسط قبل تنوع الشيء المشار إليه صحبة بمجموعه الذي فرضه الوهم، وتوهم فيه الأقل والأكثر.

الكلام في الإنسان بحسب اصطلاح الواصلين بالوصول المُعتَبر، فإن إنسان الحكماء وبعض الصوفية بهتان، وآلة حرمان، وبوجه ما بستان، ومظهر رحمن، وحج وبرهان، وبالجملة: إنسان عامة خاصة الخاصة ينشد:

أنا الغريقُ فمَا خوفي مِن البللِ؟!

فإذا صعد إلى حقيقته بالتركيب ينشد بيت لبيد إذا نـــزل بالتحليل، ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83]، ويشيِّعها بقوله: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: 10]، ويردف بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: 29]، في نهايته ووصوله الذي لا يصح بعده ما يفرض فيه بوجه، ولا على حال، ولسان حاله يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: 42]، وإنسان خاصة الخاصة ينشئ أمره بين مظهر ومظهر، ويتوسط في حق، وانجرار وهم، وينتهي حيث يستقر كنهه بمعنى أنه هو محمود في مهد سكينة صحبة بساطة عريَّة عن شوائب التقديم والتأخير، والعدة الذي يجمع بين العدة، ووجود الوحدة المطلقة، أعني: وحدة الوجود ويكف عن كل ما يدخل تحت هذا القبيل من الأمور الإضافية مثل الزمان والمكان، والقدم والحدوث، والفاعل والمفعول، ولا ينكر وجود ما في وجوده إذا كانت الماهية هي نفس الوجود، وهذا الكلام عنده بحسب الناس، وتكون النفس تطلب بشأنها، والموضع لا يسع فيه أن يتكلم فيه بما هو به على ما هو عليه أصلاً.

وكل كلام في التحقيق هو بخلاف الحق أو معنى يخبر عنه، ولا يجتمع معه في الدلالة ويجتمع معه في الوجود، ومن أهل الحق مَن أنكر هذا، وقال هذه بقية وهمية، ومنهم من أنكر على هذا المنكر لا من حيث التعليل فقط؛ بل من حيث ذلك، والملاحظة

والتعقيب، فنرجع إلى حال فنقول: هو يستند ويجمع أخباره، وكله نقطة وامتداد ودائرة، وقبض وبسط، ثم ينظر في هذا ويحيله، ويعود إلى الوحدة النقية الخالصة التي تكاد أن تَعْرَى عن الوحدة لإفراط إفرادها، ولكونها أنكرت النسب والأسماء، وهذا التوقيف عنده هي العبودية، وهي التي تعدم منها بساطة الوحدة في وجودها بها، وقيامها عليها فقط هذا عند بعضهم، وبعضهم يمنع ويهدد أخباره كلها، وحيثما يجد الضمير سكنه بها، وهي أيضًا تجذبه، وإثبات فص الحق، وأصله قد نبهت عليه في «بُد العارف»، وفي كتاب «البهت»، وفي «البحث في الشأن العزيز»، ومن قبله، وهو قطع مستمر، وكنه لاحق وحمد غالب، ونور مرسل، ثم ما هو، أعني هذا المشار إليه بشرط أن يترك، فاعلم، واجهل وبالفرض المقدر، فكيف والحمد لله وحده.

كملت الرسالة النورية بعون الله فالحمد لله.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الألواح

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وسلم كثيرًا دائمًا

الله فقط! الله المستعان والمستعين، والإعانة معنى فيه في كونه معينًا ومستعينًا.

الحمد لله في الأزل، والأبد وليُّ الحمد، ومن هو بهما عين الحامد والحمد.

والصلاة على من به تم القصد، وعنه بعد الأخذ تعين الرد، وعلى جيران نشأته التي هي يتيمة العقد، وهم الفرايد المختلفات في النضد من معنى القرب والبعد، ولا حول ولا قوة إلا بالساري بذاته في أفعاله عن أسمائه بصفاته، أحب فتسمًّى بالحيِّ، وأحاط فتسمًّى بالعالِم، واستدعت معانيها الظهور فتسمًّى بالمريد، وقبلت ذلك فتسمًّى بالقادر، وهو عين الأول والآخر والظاهر والباطن، هو عين كل ظاهر؛ فحق له أن يتسمًّى بالظهر، وهو معنى كل معنى؛ فحق له أن يتسمًّى بالباطن، وله القبلية المرتبية الوجودية بالفعل؛ فحق له أن يتسمًّى بالأول، وإليه يرجع الأمر كله بحقيقة الإيجاد، وبحكم أن عدم النهاية هو له حقيقة؛ فحق له أن يتسمًّى بالآخر، وله الإحاطة بعين ما هو به محيط هو به عالم، فهو بكل شيء عليم.

أسماؤه اعتبارية[1]؛ فلذلك لا تنتقل، ولكون مسمَّاها واحدًا فبعضها من بعض يتبدل، فاسمه المعين له من اللوح هو بالنسبة إلى ما تعين من القلم الآخر، لكنه يعينه بالنسبة إلى ما تعين بعد اللوح هو الأول، والتعين صفة المتعين، والكون هو حقيقة المتكون، فاعجب له من ثابت متلون ومتبدل متصون، الترتيب الطبيعي الذي جماعه التركيب العرشي هو حكمته؛ فحق له أن يتسمَّى بالحكيم، ومقادير ما ترتب متناسبًا ومتنافرا هو المقدر لها؛ فحق له أن يتسمَّى بالمقدر، والمترتب والمتقدر. ليس عين معانيه وليست غيره؛ فالحكم لها يثبت الحكم له بها، وهي هو فالحكم كله، لا يريد إلا ما تقبله معانيه، وهي هو، فقبولها نفس إرادته إن كليًّا فكلية، وإن جزئيًّا فجزئية.

حدوث العالم ثابت له في الأزل، وهو هو، فالحدوث واجب، والحدث حق لازب لم يتجدد له التجدد، فأين التجدد؟ ما ثم من يضاف إليه غيره، فأين التعدد؟ ينظر الضدُّ لضدِّه فيه بعين الملاءمة والتودد، والناظر والمنظور عين في شرع التوحيد ينـــزل الأمر فيه منه عليه، وينسب الشيء إلى غيره فتشهده، فتجده منتسبًا إليه، ما عبد غيره، ولا تناول متناول إلا خيره.

---

(1) قال سيدي علي وفا في المسامع: الاسم عين المُسمَّى، وقولهم للشيء وجود في اللفظ وفي الكتابة، كما لَه وجود في الذهن والحس، الأول وهمٌ، والثاني حقٌّ، ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100]: أي حسية، ولأن الحيز باطل فعكسه حقٌّ، إما واجب لذاته، أو ممكن موجود، فواجب بغيره والوهمي عدمي، فثَم أسماء عدمية كالأسماء التي لا عين لها إلا في الوهم، كالحدوث والتكيف والتحيز، وسائر الأمور التي ترجع إلى نسب وإضافات لا حاصل لها سوى ذلك، فبهذه العدمية تميز الوجود الحق المحض المجرد الذي لا يقبلها عمن قبلها، فيحتجب بها عن حقيقته وحقه الذي هو هو من حيث هو هو، ويشعر به مغايرًا له بها، فبها ينكره في عين معرفته وعكسه، ويجده في عين فقده وعكسه، ويشهده في عين حجبه وعكسه، فهو جامعٌ بين الضدين، فاتح عن عيون عدمية، وهم عن مثله.

وحيث الكل مراتب العلم والحياة تحقيقًا، أو تقديرًا، أو إدراكًا، أو فعلاً، كانت كلها مراتب حقية لتصريفات خلقية، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1].

انظر كيف بعلمك الناقص عرفت علمه الكامل، وبعجزك عرفت نفوذ قدرته، وبفقرك عرفت غناه، وبحياتك الناقصة عرفت كمال حياته، فما دلَّ فيك بالولائية فأصله هو نفس مدلوله، ومميزه أمر عدمي، وما دلَّ منك بالمخالفة فأمر عدمي، كله قدر ليدل فيكون لمدلوله كالوجود اللفظي أو الكتْبي، فالعلم والحياة واحد لواحد في جميع المراتب التي هي آحاده، والنقص كالعجز والفقر أمور عدمية، وقِسْ على هذا، فسبحان من جعل لا شيء مظهرًا كالمرآة لما هو شيء، ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83].

الله فقـــط: ﴿وإلهكم إله واحد لا إلا هو الرحمن الرحيم﴾ [البقرة: 163] له الملك في بعض ما ذكر، وله الحمد بذلك، وله ما لا يمكن وجوده في الملك، ويمكن في الملكوت في بعض ما يفهم من لازم البعض، وله الطول في الجميع، وله ما وراء ذلك بما يفهم من وراء ذلـــك، وله الحق الذي يدل عليه صحبة ذلك الدليل، وله الكل في موضع اعتبار ما، وفي وقت فقط، وله الأول والآخر والظاهر والباطن من كل ما كل منه، وذلك على ثلاثة أنحـــاء، وانظر ذلك في لازم العلم، وفي لازم الفعل، وفي وصف الوهم بين ذلك إلى الله مرجعكم.

إذًا بعد المفهوم الأول الذي عليه الإجماع ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، ليت شعري هل كان ذلك ولم يزل؟ أو حدث بعد إذ جاء بحسب ما يجب في حقه، أو هو بحسب قراءة ما، أو إلى الله علمه، أو هي في كنه كل أحد، والأنموذج يخصص مهمل الذات إذا علم العبد الله هل يصح له أن يقول: أنا مع ذلك أم لا؟

وإذا علّم العبد هل يصح له أن يقول الله، أم لا؟

أم هل له أن يجمع بين ذلك؟

ما أعجب الحب في قلب من لا يوجه إلى شيء حتى تقرأه طباع التحقيق، وكذلك التوحيد، وكذلك المعرفة، وأكثر المقامات هكذا، انظر إلى ذاتك فإن شعرت بالكمال اعرض عليها ما ينبغي أن تسكت عنه، وما ينبغي أن يعلم، وما ينبغي أن يفعل، وكذا وكذا وكذا فإن وجدت فهي التي لا يزاد فيها وينقص منها، فتحتاج إلى نيل ذلك وتصطاده في كل مكان تجده بأي شرك يمكنها إن أحبت الكمال، وإن كعت أو تأخرت فتعلم أنها ناقصة، والنقص يجذب النقص، كما أن الكمال يجذب الكمال، والكمال ينقسم إلى: كمال به تصح ماهيته، وكأنه كمال ذلك الكمال، وهو صلاح ذلك الاستعداد والفطرة الشريفة التي خلقت، ورأسها إلى فوق من حيث بدأت فقط، وإن قال الوهم إليك عني بذلك كله، ويخدعه باطله الذي وصل لبعض ضعفاء الوقت، وخدعه في الله من حيث شرع في الوصول إليه بواسطة التوحيد الذي تخترعه طباع الجاهل المعظم نفسه الذي لا يصح له الحال، ولا يصححه من أحد لطف الله به، به الحمد لله عليه أريد على ما حصل منه بأي نوع كان.

الله فقط: الكل له بالأصالة كل كمال، وهو الكل بالمطابقة، وبالتضمن عين الكمال، وسر الجمال، وغاية الجلال، وبالالتزام ما أنا عليه، ولي بالإصالة كل نقص وانى الجزء بالمطابقة، وبالتضمن غاية القبح ونهاية الذل والحقارة، وبالالتزام ماله فلي بالأصالة ما

ليس له بها، وبالتضمن كذلك، وبالالتزام ثبت الاشتراك.

الرجل من يحكي الوجود، منهم الشوذي هو الكل بك معينًا، وكل الكل بك معينًا، وأنت الجزء به معينًا، وجزء الجزء به لا معينًا، وأنت به لا شيء، وهو بلا أنت ثابت أبدًا، فالكمال له بك معينًا، وكمال الكمال له بك لا معينًا، وبدونك لا وصف له سوى الثبوت، وهو الوجود في كل موجود، وهو مع كل شيء، ومتى سرى من ذلك حكم إلى غيره، فمنه لا من ذلك الشيء فله في ذلك الحكم إيجاده، وللشيء فيه الشبه فيه فقط؛ لأنه في الماء ماء، وفي النار نار، وفي الحلو حلو، وفي المر مر، فمهما سرى حكم من شيء إلى شيء؛ فله الإيجاد، وللشيء فيه الشبه.

مثال ذلك: هو مع السراج نور بصورته فيسرج منه سرج كثيرة تشبهه، والإيجاد لمَن هو مع كل شيء بصورة ذلك الشيء، ولو كانت تلك السرج التي أوقدت من السراج من ماهيته هو؛ لفنيت مادته بإيقاد جملته من السرج منه، وكان يظهر فيه الضعف قليلاً قليلاً حتى يفنى، وإنما الإمداد من الأمر الذي هو مع كل شيء بصورة ذلك الشيء، ولا صورة له هو، ولو قيدته صورة ما لم يكن مع كل شيء إلا معها فقط، تعالى وتقدس، فهو الوجود كله، ولا وجود لشيء معه إلا لعلمه به، أنت علمه، فأنت به ثابت من حيثية مغايرة علمه إياه، وهي التعيين، وبه هو موجود من حيثية أن علمه عين ذاته. وهي ألا تعيين، وأنت المتعين من حيث أنت صورة في العلم، لا من حيث إطلاق العلم، فإن عرفته في كل شيء عين كل شيء، لا الصورة المتعينة لم تجهله في صورة أصلاً، ولم تكن ممَن يتجلَّى له في غير الصورة التي يعرفها، فيتعوذ منه حتى يتجلَّى له في الصورة التي يعرفها فيتبعه، وهذا وإن كان من السعداء؛ فهو بعيد من أهل العلم بالله جدًّا، وأي معرفة لمَن يعرف المطلق مقيدًا بصورة ما؟ فهذا إلى الجهل أقرب منه إلى العلم.

غير أن بركة الإيمان وسعادته شملته، فيتنعم بسعادته في الجنة من وراء غيب الإيمان، وشفع له النبي الذي صدقه؛ فرفعت له الحجب وقتًا ما، فيتنعم بالمشاهد بحسب حاله، وعلى قدر نصيبه من رسوخه في الإيمان، وأخذه لنصيبه من مقام الإحسان، فإذا هو كأنه يراه إلى أن رآه، وأين هذا المقام من مقام من رآه مذ عرفه في كل شيء عَيْن كل شيء سوى تقيد الشيء، وتعينه بأنه هذا؟ فإنه لا تجوز إليه الإشارة؛ لأنه لم تقيده صورة قط فمَن عرفه كما قلنا ورآه في كل شيء لم ينسه قط، ولم ينسحب عليه من عتاب الآية شيء هو قوله: ﴿نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]، حاشاهم من ذلك؛ بل ذكروه دائمًا فذكرهم ورأوه في كل شيء، ومع كل شيء، فشاهدهم كذلك، وشهد لهم بالكمال.

فصل

الذات عَرِيَّة عن المادة، والعلم كالمشوب بها شيء لا كالمستند إلى شيء، ولا كالمرتكز فيه، ولا كالمربوط عليه، ولا كالملتحم فيه، ولا كالحال فيه كحلول الماء في الإناء، لكنه وجود يسيل ولا يقف، ويستمر ولا يختلف، ويشار إليه صحبة بمجموعه الأول والآخر والظاهر والباطن، فالذات مع العلم دائمًا، وهي الباطنة، وهو الظاهر بخلافك أنت الظاهر، وعلمك باطن أبدًا، وما في الوجود سواه معك وسواك به، فأنت معين صورة علمه، وغير معين علمه، وهو علمك، وحكمه فيك بخلاف حكمك فيه، ترى وتبصر وتعلم، وبك يُرى ويُبصر ويُعلم.

فصل

الأمر الغريب منقول من علم المحل فعلمه في الإنسانية إنسان، وفي ح ح، وفي ن ن، وفي ج ج، وفي العالمية علم، وفي العاقلية عقل، وفي ح ح، وفي ذ ذ، وكذلك في كل مرتبة لا ظهور له إلا بالمراتب، ولا وجود لها إلا به، فكل ما عقل أو أحس فهو وجود ومرتبة، والعقل مرتبة، والحس مرتبة، والمراتب زائلة، والوجود ثابت، والثابت حق، والزائل وهم وباطل.

أمَّا كونه باطلاً فبين؛ لأن المراتب عوارض للوجود، والعرض لا يبقي زمانين في التحقيق، فهو باطل أبدًا، فإن أردف بعده عرض مثله في الزمان الثاني، وأخر في الثالث توهم أنه باقٍ، وإن أردف ضده قيل ثان، وأمَّا كونه وهمًا فبين أيضًا لسببين:

أحدهما: أن العرض لا يدرك تامًّا، ولا يؤثر تامًّا، إلا بتواليه أزمانًا بالأمثال، فذلك البقاء المتوهم يؤثر أزمانًا في الإدراك، والإدراك والتأثير لعرض مشروط بالبقاء، والبقاء وهم.

والسبب الثاني: أن الحق أن ينسب كل ما أدرك من الأحكام حسًّا أو عقلاً إلى الثابت لا إلى الزائل؛ لأن نسبته إلى الوجود الثابت حق، ونسبته إلى المرتبة الزائلة وهم، فثبت أن الحق هو الوجود، والوهم هي المراتب الزائلة والباطلة، و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ [القصص: 88]، وهي المراتب الوهمية ﴿إِلاَّ وَجْهَه﴾ [القصص: 88]، وهو الحد والوجود وهو الأمر الذي لا تخرج عنه حقيقة من الحقائق الموصوفة بالوجود، ولا وصف له ولا نعت ولا حد ولا رسم بالنظر إلى ذاته، سوى أنه وجود.

ولم يوصف أيضا بالوجود إلا بالنظر إلى الموجود، والموجود إمَّا واجب الوجود،

وهو الكل والهوية، وإمَّا ممكن الوجود، وهو الجزء والماهية، فالربوبية هي الهوية التي هي الكل، والعبودية هي الماهية التي هي الجزء، فما من حقيقة منسوبة إلى الهوية بالأصالة إلا واسمها كل، وما من حقيقة منسوبة إلى الماهية بالأصالة إلا واسمها جزء، ولا وجود لكل إلا في جزء، ولا لجزء إلا في كل.

فاتحد الكل بالجزء فارتبطا بالأصل وهو الوجود، وافترقا وانفصلا بالفرع، وهو نسبة ما به التعدد والتمييز، فالعامة والجهال غلب عليهم العارض، وهو الكثرة والتعدد، والخاصة العلماء غلب عليهم الأصل، وهو وحدة الوجود، فمَن كان مع الأصل لم ينتقل، ولم يتحول، وثبت على علمه وتحقيقه، ومَن كان مع الفرع تحول وانتقل، وكثرت عليه الأمور، فنسي وسها وجهل، وإذا انقسمت الأشياء لم تعلم معًا، وإذا توحدت علمت علمها، وعلمها ذاتها[1].

(1) قال الصدر القونوي في النفحات الإلهية (ص 137) بتحقيقنا: اعلم أن حقيقة الحق هي التي تلي في المرتبة إطلاقه الغيبي؛ المجهول النعت والاسم، والإحاطة العلمية المنفية عن الحق بالنسبة إلى الغير؛ عبارة عن صورة علمه بنفسه في نفسه من حيث صحة إضافة العلم إليه بأي نوعٍ من أنواع الإضافة شئت له وتصوَّرت، وإدراكه نفسه سبحانه متعينة بتعيُّن هو محتد جميع التعينات الموصوف بها الحق وما سواه، والموجب لهذا التعين هي الحقيقة الإنسانية الكمالية الإلهية المنعوتة بأحدية الجمع؛ لكن لا مطلقًا؛ بل من حيث ما تتميز، أعني هذه الحقيقة عن الإطلاق الغيبي المذكور آنفًا؛ فإنها من وجهٍ آخر لا تغاير ذلك الغيب، ولا تمتاز عنه؛ كما لا يمتاز الحق من حيث تعينه المذكور عن إطلاقه الغيبي المنبَّه عليه.

وإذ نبَّهتُك على حقيقة الحق وحقيقة العلم بهذين الأصلين اللذين هما كالمقدمتين لما اذكره من بعد. فاعلم أن حقيقة كل ما عدا الحق عبارة عن: تعين صورة معلوميته في علم الحق أزلاً وأبدًا على وتـــيرةٍ واحدةٍ؛ فالعلم الصحيح الكامل بالحق أو بمعلوم ما سواه إنما يحصل تامًا إذا أدركه المدرك في مقام تعينه الأول بصورة معلوميته في علمِ الحق، ولن يصح ذلك لأحدٍ إلا بأن يرقى من مراتب التعدُّدات العارضة له من وجهٍ؛ بسبب التلبُّس بالوجود والقاضية بالتميز؛ وينسلخ من كل كثرة تقضي بالمغايرة بينة وبين ما يتوجَّه إلى معرفته كان ما كان.

فإذا وصل إلى مرتبة ذلك المعلوم اتَّحد به بموجب حكم القدر المشترك بينهما؛ الماحي آثار المغايرة والامتياز كما مر بيانه، وحالتئذ يشهده حقيقة، ويشهد الأمر الموجب للتميز الثابت أبدًا بين العالم والمعلوم لا مطلقًا من كلِّ وجهٍ؛ بل من حيث كون أحدهما يسمَّى عالماً والآخر معلومًا، فافهم.

ويشهد أيضًا المميزات الأخر المتناهية الحكم وقتًا، وحالات ونشأةً وموطنًا ونحو ذلك؛ فيعرف عند ذلك ما هو ثابت الإضافة إليه وإلى غيره بشرطٍ أو شروطٍ؛ وما هو الثابت نفيه أيضًا عنه وعن سواه كذلك.

-

وإذا عرفت هذا، فاعلم أن أكمل العلوم وأتمها مضاهاةً لعلم الحق؛ لا يحصل إلا لمن خلت ذاته عن كل صفةٍ ونقشٍ، واستقر في حاق النقطة العظمى الجامعة للمراتب كلها والوجودات والاعتدال الحقيقي المحيط بالاعتدالات المعنوية والروحانية والمثالية والحسية وما يتبعها من الكمالات النسبية والدرجات، فتحقق بالإطلاق الكمالي الإلهي والتعين الأول الذي قلنا أنه محتد جميع التعينات حتى صارت ذاته كالمرآة لكل شيءٍ من حق وخلق ينطبع فيه كل معلوم كان ما كان ويتعيَّن في مرآتيه بعينٍ تعينه في نفسه، وفي «علم الحق» لا يتجدَّد له تعين آخر مطابق لتعينه الأول أو غير مطابق، وهذا العلم هو أشرف العلوم، وأكملها، وأعلاها، ولا يمتاز علم الحق عن هذا العلم إلا بالتقدُّم ودوام الإحاطة وكمال الانبساط مع الانسحاب لا غير، فافهم.

ويلي هذه المرتبةِ العلمية: أن يكون «علم العالم بالمعلوم» كان ما كان هو بأن يستجلي ذلك المعلوم في نفسه؛ ويتعيَّن له لديه صورةٌ تامَّةُ المضاهاة لتعينه الأول الثابت لذلك المعلوم في علم الحق أزلاً دون انصباغ المعلوم بخاصية واسطة ما.

وهكذا هي صورة علم العقل الأول بالحق وبنفسه، وبما أودع ربه فيه من علمه سبحانه بالعالم المقدّر الوجود إلى يوم القيامة.

ويلي هذه المرتبة الثانية العلمية المذكورة: «علم اللوح المحفوظ» المسمى عند قوم بالنفس الكلية؛ وعلم كل إنسان كانت غاية مرتبة نفسه هناك؛ وهو علم يمتاز عن العلم الأكمل وينـــزل عنه بدرجتين:

الدرجة الأولى: بسبب التعين الثاني؛ فإنه وإن كان مطابقًا للتعيُّن الأول الثابت في علم الحق أزلاً؛ فإنه محاكٍ له ليس عينه؛ ومحاكي الحقيقة لا يكون نفس الحقيقة وهذا العلم المتعين في الدرجة الثالثة النفسية اللوحية له صورة محاكية للمحاكي الأول ومنصبغة بحكم قيد المحاكي وإمكانه؛ فهي في المحاكي الأول ذات قيدٍ وانفعالٍ واحد؛ وهي في هذه المرتبة ذات قيدين وانفعالين؛ بل بنفس الارتسام في نفس اللوح يحدث انفعال ثالث وقيد آخر غير القيدين، فإنه لا يبقى لديه على نحوٍ ما وصل الأمر إليه؛ هذا محال، فافهم واستبصر.

ثم تنحط مراتب العلم ودرجاته بمقدار الخروج الانحرافي عن حاق النقطة الوسطية الإعتدالية المذكورة الثابتة في مقام مسامتة الحضرة الإلهية الذاتية الكمالية، فينقص العلم لذلك وتتضاعف أيضًا مع هذه الدرجات الانحرافية صور المطابقات والمحاكات على مقدار كثرة الوسائط وكثرة صور محاكاتهم وتضاعف الانفعالات الواقعة في خلال ذلك، فإن كل صورة متعينة في مستفيد متأخر ومرتسمة في نفسه من إفادة المقيد؛ منفعلة عن نفس المقيد والصورة المتعينة فيها المحاكية لما سبقها.

فوضح بما بيَّنَّا أن كل صورة محاكية تنـــزل عن درجة الصورة السابقة لها في التعين والمحاكاة لما أسلفنا؛ ولخلوِّ السابقة عن جملة من الأحكام الإمكانية التي تلبَّست بها صورة علم المستفيد المتأخر؛ إذ لا ريب في أن الأحكام الإمكانية حيث ما كثرت قل العلم ونـــزلت درجته؛ إذ لا إمكان حيث العلم التام؛ إنما هو إثبات محض، أو نفي محض؛ فالحكم بالإمكان حيث نقصان

العلم أو عدمه.

ولهذا قد نقول: الجهل بالحق وبكل شيء إنما موجبه حكم ما يقتضي الامتياز والمباينة بين الإنسان وما يريد معرفته؛ فإن كان المراد معرفته هو الحق فسبب عدم معرفته هو ما يتميز به الحق عن سواه، وإن كان المراد معرفة شيء من الممكنات فليس الموجب لجهله إلا الأحكام الإمكانية اللازمة للماهيات الممكنة المقتضية تميز كل ماهية عن غيرها من الماهيات، وإلا فلا ريب في أنها من حيث الوجود الشامل لها والموحد كثرتها متوحدة؛ وبه عرفت وبه عرف بعضها بعضًا وبه أدركت ما أدركت.

فالعلم حيث الوجود؛ لكن يتفاوت حكمه بحسب ظهور الوجود بأحكام الوجوب ومرتبة مظهره؛ لأن ظهور الوجود بأحكام الوجوب في ماهية أو مرتبة يكون أتمّ من ظهوره في أمر آخر ومرتبة أخرى، وتفاوت ظهور الوجود بالنقص والتمَام راجع إلى ما ذكرنا من غلبة أحكام الوجوب أحكام الإمكان، وبالعكس وإلى أمرين تابعين لما ذكرنا:

أحدهما: غلبة أحكام الوسائط بحسب تضاعف وجوه إمكاناتها.

والآخر: بسبب القرب والبعد من النقطة الاعتدالية العظمى الجامعة بين أحكام الوجوب والإمكان، وقد مر ذكرها.

وكل ذلك تابع للاستعدادات المتفاوتة الموصوف بها القوابل؛ لكن ينبغي لك أن تعرف أنه ما من شيءٍ إلا وارتباطه بجناب الحق من حيثيتين:

أحدهما: من حيث سلسلة الترتيب والوسائط؛ قد مر حديثه وعرَّفتك سبب نقص العلوم وكمالها، وقلّتها وكثرتها من ذلك الوجه.

والوجه الآخر: مقتضاه الارتباط بالحق، والأخذ عنه بدون واسطة ممكن من الممكنات؛ غير أن هذه الوجه بالنسبة إلى أكثر الممكنات مستهلك الأحكام لغلبة أحكام الوجه الآخر المذكور.

فأيُّ موجود قُدِّرَ له أن يكون نقطة مرتبته قريبة من النقطة الإلهية العظمى المنبَّه عليها، فإن الوجه الذي يرتبط بالحق من حيث هو لا تستهلك أحكامه بالكلية؛ فيرى بعد التجلّي بالصفات السنية والأحوال الرضية تنمو أحكامه وتقوى وتزيد حتى ينتهي على غايةٍ يظهر فيه غلبة حكم وحدته على أحكام الوجه الآخر المختصُّ بسلسلة الترتيب والوسائط.

فيغلب وحدة هذا الوجه بصحة النسبة، وحكم المناسبة الذاتية الإلهية الغير المعللة أحكام الإمكانات وخواص الوسائط؛ فتستهلك كل كثرته في وحدته وتستهلك وحدته في وحدة الحق، وهي صفة التعين الأول الذي قلت أنه محتد جميع التعينات ومنبع الأسماء والصفات ومنتزع النسب كلها والإضافات، فتحقق بالنقطة العظمى المذكورة وتصح له المسامتة الغيبية المستورة؛ فيحصل له العلم على نحوِ ما أشرت إليه ودلَلت عليه.

فافهم هذا؛ فإنك إن فهمته وفك لك معماه، وفصلت مجمله عرفت سرُّ الصورة الإلهية التي أضافها الحق إلى نفسه مع تنـــزيهك الحق عن التقيُّد بصورة معقولة أو محسوسة، وعرفت سر العلم وحقيقته ومراتبه ونقصه وكماله ومحتده وأكمل تعيناته، وعرفت سر خلافة الحق المشار

إليها في الكتب المنـــزلة، وسر علم الأسماء والإحاطة بها، وعرفت سر سبب سجود الملائكة لآدم، وإن هذا السجود مستمر ما دام في الوجود خليفة.

والخلافة باقية إلى يوم القيامة، فالسجود باقٍ، وعرفت صورة ارتباط الحق بالعالم والعالم بالحق، وعرفت حقيقة سلسلة الترتيب والوسائط.

ولما لم يَجُز أن يتعقَّل في الحق جهتان مختلفتان لكونه واحدًا من جميع الوجوه؛ وجب أن يكون ارتباطه من حيث هو بكل شيء من وجهٍ واحدٍ، ولما كانت الكثرة من لوازم الإمكان وصفات الممكن؛ وجب أن يكون ارتباطه بالحق من وجهين، وإن يكون الغلبة للكثرة من الوجه الواحد، والغلبة للوحدة من الوجه الآخر؛ وهو الوجه الخاص الذي لا واسطة فيه بين شيء وبين ربه كما أشرت إليه.

وعرفت سر الوجه الخاص الذي لا واسطة من حيث هو بين الحق وبين كل شيءٍ، وعرفت مراتب العقول والنفوس؛ ومن أي وجهٍ تُفضِّل غيرها وتعلم كمال الخلاف؛ ومن أي وجه ترجَّحت مرتبة الكامل على مراتب الموجودات كلها؛ عُلوًّا وسفلاً، حسًّا وعقلاً، غيبًا وشهادةً، وعرفت سرَّ الوجوب والإمكان، وعرفت أن إليهما ينتهي تحليل الكثرة العددية؛ وأنه لا بدّ لكل اثنينية من وحدةٍ سابقة عليها، وعرفت الوحدة التي تختصُّ بالمرتبة الإنسانية الكمالية الذاتية الإلهية؛ صاحبة النقطة العظمى المذكورة.

وعرفت أيضًا أن الحق من أيِّ وجهٍ تتعذر الإحاطة بكنهه مع سوغ أن العلم بحقيقته، وعرفت سر مضاهاة الخليفة للمستخلف ومن أي وجه تثبت له ومن أي وجه تنتفي عنه، وتعرف أن الكمال وراء الخلافة، وأن الخلافة بالنسبة إلى الكمال جزء من كل، وعرفت أن الإنسان الذي هو آخر موجود خُلق من حيث صورته من وجه هو أنـــزل الموجودات درجةً؛ حتى جعله أكمل الخلق أنـــزل من العذرة التي يدهدهها الجعل بمنخريه، ولهذا قيل فيه ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[التين: 5] وأنه دون الجماد في المرتبة والعلم ؛ وأن من نوعه يعلو على جميع الموجودات. ومن يكون آخر النقطة من الدائرة المتصلة بأولها التي منها يستمد العقل الأول؛ فمرتبته أول كل أول، وصورته آخر كل صورة وذاته منبسطة بين صورته وبين مرتبته غير منحصرة في أولٍ وآخرٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، وعلم وجهل.

وعرفت أيضًا مما ذكرت أن فك لك معماه سر العلم بالشيءِ والجهل به، وما سببها؟ ونعلم سر المثاني وما يتضمَّنه التكرار من الفوائد والعلوم والأسرار؛ ومن أي وجه يثبت ومن أي وجه ينتفي.

ومما علمته من هذا الوارد، وإن كنت قد علمته من قبل من وجه آخر؛ كوني آله لربي؛ يستعملني لنفسه فيما شاء تارةً، ويستعملني لي تارةً، ويستعملني لي وله تارة أخرى، ويمكنني من استعمال نفسي واستجلابي من حضرته ما شئت بسؤالي الاستعدادي والحالي، والفعلي والصفاتي والذاتي الجامع، وأعتبر الأمر الذي فصلته في طرفي؛ في الطرف الآخر في العلم وغيره كما ذكرت لك في مراتبِ العمل، والأحوال والصفات وغير ذلك.

فصل

اقتران متغير بمتغير: زمان، وبثابت دهر، وثابت بثابت: أبد، وثابت وحده: أزل. ارفع الإدراك والعادة بالعلم أو بالتصريف لا حسن ولا قبيح:

محاسِـــنُه هـــيولى كلِّ حُسْنٍ ومغناطـــيسُ أفـــئدةِ الرجالِ

الوجود قضية فيها كل شيء حاضر، والحق مع كل شيء، وفي علمه كل شيء في الأزل والأبد، وعلمه عينه، وهو لا تحكم عليه الأزمان، والكل حاضر في القضية.

فصل

العقل خَلْقٌ ضابطٌ للعلوم وميزان لها يقيدها ويضبطها، ويميز صحيحها من سقيمها، والإنسان الخليفة خلق ضابط لجميع الصور الحسية والخيالية، وميزان لها يقيدها ويضبطها، وهو الميزان الأكبر، والخليفة الأظهر، ميزان الموازين، وخليفة الخلفاء، والعقل بعض ما فيه، والعلم جزء يحتويه.

إن شهد لهما صحًّا، وإن لم يقبل ما شهدا به لم يقبلا، فعلى ما سواه يوزن بهما لا عليه، وإليهما ينسب العجز والقصور فيما اختلف فيه لا إليه؛ لأنه أكبر منهما وأجمع لصنوف الشرف، وهما جزء ماهية منه، والفضل هو للمخلوق على الصورة، والمخصوص باليدين، وبأحسن تقويم، وبعلم الأسماء كلها، وبعلم الأولين والآخرين، وبقاب قوسين، وبالقسم بحياته، وسعه قلبه ما لم تسعه السماء والأرض، وبأن من بايعه فقد بايع الله، وبأن الله رمى إذ رمى، وبمحبة الله وخلقه ومنته وكلامه، والسلام على من تأدب مع السلام بالاستسلام، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الله فقط: مَن انفصل من خطٍّ وَهْم، واتصل بنقطة حق حمد حاله، ومَن حقق حقه الكامن بحقه الجلي ووهمه المنجر؛ لم يموه عليه وهم غيره الظاهر والباطن، مَن تقدس من كذا، واتصل بأكثر من ذا وذا، ووقف حاله في كذا عظم حاله في عالم عادته، وصغر في حضرة سعادته؛ لأن جميع ما هو من هذا القبيل من جملة الأوهام المنحطة، فلا ينبغي لمَن

-

ورأيـــت في هـــذا المـــشهد كثيرا مما كنت رأيته وما لم أكن رأيته ما؛ لو قصدت ترجمة كليَّاته لـــضجرت وأضجرت، فدع عنك الشروع في التفصيل، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4].

علم الحق أن يشككه ضده، ولا يبذل فيه جهده، ويبذل فيه جده في طلب جده؛ لأنه تعالى جده.

ومَن استقل ولو في قوله لا عبارة في الذي عنده ولا إشارة، أعني: لا عبارة لفظية، ولا إشارة قلبية، ولأن العبارة تتكلم بعد محرك ما يتقدمها، والإشارة تتوسط بين ذلك وتلك، ولا خير في الكل، والحقيقة لا تميز ولا تُمتَّز، ولا يتقدمها شيء، ولا يتأخرها شيء، ولا تتوسط في شيء، ولا تُقال على كثيرين، والله يتكلم ويخبر، ويحقق الحق، ولا يلفظ؛ ولذلك يحيط وإحاطته منحطة عنه محمول فيه مشار إليها به وإليه بها جزء كل، وكل جزء عموم وخصوص، وخصوص وعموم، كله أكثر من جزئه، وجزؤه أكثر من كله، وجزؤه أقل من كله، وكله أكثر من جزئه، وجزؤه أكثر من كله، وجزؤه أقل من كله، وكله أكثر من جزئه؛ بل لا كل ولا جزء له بالنظر إلى الحق صحبة ذاته. وإمَّا بالنظر إلى الحق صحبة الوهم، فهو الأول كما ذكر، وهو الآخر فيما ذكر، وهو الظاهر في جميع ذلك، وهو الباطن في تقدير أمثلة ذلك المقدرة، وبالجملة: الإحاطة الأولى علمه، والثانية التي تنسخ الأولى ذاته والوجود، والثالثة ذاته فقط، ثم الإحاطة التي لا تعقل فيها الإحاطة، ويندغم فيها المحيط، والمحاط به معًا، فمَن امتنع من العبارة كما قيل يكون إلهيًّا بشرط أن يكون جوهره كاملاً، وإن لم يكن كاملاً فهو مذموم الجملة.

فاجتهد أن تكون قضيتك من قضايا الوقت الواحد من الجهة الواحدة بالكلمة الواحدة في الوجود الواحد بالذات الواحدة وهي هي، ولا تقل لم كان كذا، ولأي شيء كان كذا، وانحصر كذا في كذا، وعجز هذا عن هذا، ولم يكن ذلك على ما ينبغي كذلك، ونقصني كذا وتعرضني كذا؛ فتهلك وتخرج من إحاطة المحقق المشار، والمعلول عندهم عليها؛ لأن حرف العلة يجر إلى لواحق مدلوله، وذلك يعطي المبدأ المضاف المقسم والمنقسم، ولا حاجة للمحقق بمعنى ينسب أو ينتسب، فإن ذلك دليل على وجود الحائل والمانع، ومع هذا يخبر عن عدم الحصر، ويوقف الضمائر على ملاحظة نكتة الوحدة.

وإذا قدرنا الوحدة المطلقة البسيطة لم يصح لنا غيرها، ولا الكلام عليها، ولا ما يُقال أو يتوهم، ولا ما يشار إليه أو يتفهم بوجه، ولا على حال فقل: أعوذ بالله من علم اليقين؛ لأنه بين علم وهمي، وجهل مهلك، وقل: عصمني الله من عين اليقين؛ لأنه وهم متعلق بأمثلة، وقل: حجب الله عنى حق اليقين؛ لأنه شرك الضمائر إذا استقل سكونها في خطبة ذلك المعني بذلك الشيء الذي يشبه الحركة الدولابية، وتتموج فيه المقاصد، ويعظم فيه حال الخبر والمخبر، وتتوحش النفس، وتنشق الفطرة، وتتصدع مرآة

المقاصد.

الله فقط: الله في كل شيء بكله، وليس في الكل والبعض، وهو شيء فيه ما ليس بشيء، وما هو شيء معًا، فعين ما ترى ذات لا تُرى، وذات لا تُرى عين ما ترى، فجاء من ذلك أنه حصر من انحصر، وبسط من انبسط، وانحصر وانبسط.

إيه! المحال من الأسماء الثابتة، وقصد المتكلم يعلمه الله تعالى أجمع الأشياء إليه، ولا حجر دنا بنبوته، وتدلى برسالته؛ فكان قاب قوسين أو أدنى، الأبد قضايا، والقضايا أزل، والأزل على مشار إليه، والمشار على ذات، والذات واحدة، الله فقط، لا شك في ذلك.

الله فقط: يا أيها الصحيح المريض، مرض عين جسمك سببه صحة عين قلبك، والله يشفي مرض عينك الواحد، ويحفظ عليك الصحتين، ولا يرفع سببه من حيث هو صفة طبيعية كمالك، ويرفعه من جهة حاله في وقت ما، ولا يرفع الانفعال السيئ من أجل المدرك السنيّ، وبالجملة، حفظ الله ذاتك من كل الجهات حتى تجد الجلالة من جهة الملكة، ولا يفوتها مع ذلك ماهية العافية العامة، والسلام عليك بحسب هذا، ورحمة الله تعالى وبركاته، وسمها ذلك، وهو عين ذلك عند ذلك، وعند نفسه ذلك، وبما هو غير ذلك عند ذلك هو ذلك، وبما هو عند نفسه ذلك، هو غير ذلك الله ذلك.

الله فقط: يا هذا والذي أخبرك به، رضي الله عن الحق منك، وحفظك من ضده فيك، أن كلام الله جزء ماهية التطور، وهو غاية المعتدل، ومما ظهر لي في الوجود أن الذوات كلها ذات ذلك الوجود من كل ما يلزم عنه، وأنت انظر إن وجدت للوجود صورةَ يشار إليها، فالتزم البعض من موضوعك، أو استند إلى بُدك المقوِّم لك، والوجود في كل موجود هو الحق فيه، وقولك الجسم والجوهر والعرض هو الوهم، وهو غير الجليل، وما يخالف الحق، المبحوث عنه بالحق في الخلد: هو الأمر الذي يمتد على العوالم، وتلك العوالم هي أمور الله؛ ولذلك يقول الحق: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الأنفال: 44].

وإذا عزمت على الله: أي على القرب منه، خلص نفسك من البعيد عنه من صفة نفسه، وأخلص في الإضراب حتى لا يبقى في ضميرك مَن تخبر عنه، ولا مَن تقدر أنه يخبر عنك، ثم اعزم بعد ذلك واعزم، وخذ نفسك بالتجلد الجاحد لجميع ما يجمعك أو يفرقك؛ لأن ذلك كله يجر إلى الأول من العبد، والآخر من الأصل، وذلك على خطر.

الله فقط: ما حَرَّكَ اللهُ قلبَ مَن يحبه إلى مخبر ما، وهو بعيد عنه؛ لأن حقيقة محبوب الله إدراكه الأمور على ما يجب وفي الوقت القريب، وهو أيضًا لا يمكن أن يهمل الأخرى والأولى في الله قط، وهو يجد الحق على أكمل ما يمكن، ويجعل الشيء في محله، ومعنى .

محبوب الله من ثبت خيره فيه، وتحقق ضميره كماله منه، ووجد أنسه به، وكان مجموعه على حظ وافر منه، وكان الله معه بتقيد أوامر سعوده وصعوده.

وإذا بلغ غاية ما تجعل له بداية غاية أخرى، وإذا بلغ تلك كانت مقدمة نتيجة أعلى، ولا يقف قصده إلا في حصر الواقع، وامتداد النوازل، واستجلاب الإعلام القاطع، وهذا هو الذي يقول فيه محقق للعبد التائب: إنه ينصرف إلى خبر ما هو مظهر الفضائل، وما يمكن أن يكون بعده إلا الصور الكامنة، والذوات المستعارة التي كل ذات منها إلى حد ما نهايتها؛ لأنها تتحد في كنه تلك الآنية لا الآنية، وهذا يحمد بوجه ما.

والذي يعول عليه أن الله لا إله إلا هو، وهذه الكلمة اجعلها دائرة وهمية تنفي الدوائر الداخلة والصفات أيضًا.

الله فقط: شأن الله منبر لا يصعد عليه إلا خطيب الوجود بتدريج نور الله ماهية الأرواح الطاهرة، ولأجل ذلك يبصر ما وراء الوراء، طريق أهل الحق حكمة كتبه المنـــزلة، ولكنها لا تصح من كل حكيم، وتصح من الغافل إذا ذكره حضور التخصيص وجذبته يد القبول، قول العارف: «الله» يدل على أن ذلك بقسط نفساني، وإلى الله عاقبة الأمور.

التحمل يقلل عود الخصومة، ويحلل مركب المتابعة، التصرف بالإخلاص يقطع رقبة الضجر، والقضاء بالأحكام الشرعية يعلم الاعتدال، ويجر إلى العدل والزيادة، مَن جعل سنة رسول الله مرآته التي ينظر فيها صور الأولى والأخرى؛ استقام سلوكه.

دين الله من حافظ على جملته بكل أنحاء المحافظة، وجد الله حيث اختاره الله له، ومكنه من التراجم الخمسة، أعني: الخلافة، أو الإمامة، أو القطبية، أو قوة التحقيق الذي لا ينسب إلا بمضاف الأصل الذي ما سمع وهم فرعه، أو المعنى الذي جميع ما ذكرناه من بعض مظاهر سلوك الأبرار بالعلم والعمل والاستعداد المشترك، وسلوك المقربين بالعالم والعامل والاستعداد المستند، وسلوك أهل الأزل بالذات المستقيمة فقط.

كل كنه لا يمنع عن نفسه فهو منك، وكل خبر لا يسكن الضمير معه، وإن كان يعلم ويعمل به، ويظفر بخواص العادة به هو من قبيل الأوهام التي لا تُقال صحبة تكليف، ولا دليل، وهي الثابتة في الآخرة، وهيهات، أين من ذلك؛ بمعنى لا سبيل إليه بذلك كله، مَن سمع كلامي، وتعذر عليه فهم الحق؛ فهو إمَّا ج وإمَّا ح وإمَّا م وإما طبيعته منه فقط.

الله فقط: لا حول ولا قوة إلا بالله، بعد مدة وفي إثر شدة، وبأمر آخر كشف الحق، وحقق العالم به أنه لا ينال إلا به، وظهر له أن الوهم هو القاطع، وهو الحاجز بين الحق

المستقل، وبين التابع الموقت، أعني: الذي يظن به ضمير المتحير الذي لا عين لضميره، ولا هو فيه قوة التعيين، وأنه مع ذلك كذلك بوجه يشبه الراجع على أجزاء ماهية ينسبها فيه له بما هو هو، وإن كان هذا لا يصح في أعلى من هذه المرتبة فهو القول النافع في هذه.

وبعد ذلك حدث الذهن به النفس، وحدثت النفس الإرادة، وحدثت الإرادة القصد المحرر، وحدث القصد المحرر العزم المخصص، وحدث العزم المخصص الجد المحرك، وحرك الجميع الهمة الجليلة، وحركت الهمة الجليلة السيرة الجميلة، بالنظر إلى السبب الباعث الهمة هي المحركة للجميع.

ومن حيث ترتيب الوجود ونظم الأخبار في سطح الضمير الذي هو اللوح الجزئي هي محركة، فافهم.

وحركة السيرة والهمة معًا إرادة الله المتعلقة به على سبيل العناية، إن كان ذلك كله نحو الصواب، والمطلوب الصحيح، والظفر بالمدلول الأول، وإن كان بالضد فتكرُ مواكب البحث المهلكة قابلة، وتعود كواكب الكشف المختار آفلة، أو يتعلق ذلك كله بمطلوب وهمي، ويقع الأُنس به، وتكن النفس عنده، وأعوذ بالله من أحوال يكون الصراط المستقيم فيها قد وضع على حاشيتي جهنم الأوهام، وجنة التعيين أمامه، وإنما الذي يبحث عنه، أو يفرح به، أو يكمل به الرجل هو الصراط المناسب البسيط الموضوع على محل الأُنس والتيسير، ويكون طرفه الأول على جنة المأوى، ووسطه على البرزخ الجنسي، وطرفه الآخر الذي هو بإزاء الوجود، وفي مقابلة ذاته أعني: الوجود في مكان النهاية الذي تصور فيها المألوف، ويتجلَّى فيها معتبر الأمل للقسط المميز، ويصح به الوصول إلى الله الذي لا إله إلا هو.

فإن الله لا يظهر في مرآة الإخلاص التي أفرد فيها الشأن العزيز، وظهرت صورة الجلال المطلق الذي لا ينسب إلا من حيث يقوم أو يتمّم على العموم خاصة، والله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: 42]، ويقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88]، ويقول: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: 10]، يريد في شيء، حتى في الشك، فإنه به تردد من أجله، وفي لواحقه، ثم يقر الضمير، وله منافع جملة؛ لأنه يحمل إلى أدب الأقل صحبة التبعيض، والقوي يحين الضعيف.

وأحسن ما قيل في ذلك: يا الله، أنت أنت أنت أنت الأحد، وأنت المعنى في معناك، وأنت ذلك بعينه، متى وجدت نفسك تحدثك بالكمال وأدواته فيها، فأخبرها بالأول في

ذلك، وكيف إلى الله يرجع الأمر كله، والحمد لله وحده.

الله فقط: يعتمد الوهم الحق الباحث عن سعادته المغتبط بصلاح عادته، وإصلاح عبادته الذي يطمع في الجلال المكتسب، ويزعم أن ذلك في ماهيته يشبه عِلّة النسب، وهو مع هذا لا يصبر عن شأنه فإنه من غير كونه على تجهيز ماهيته المخلوقة إلى فضاء الماهية، وينتظر العارض الثالث من المرتبة الواسعة التي بها تكمل ماهية ذلك الجلال، فإذا يسر فيها به، ويصح له أن يدخل في زمرة المقدمين بحمد الله على سر ابن باعور الثالث المحفوظ، وبعدها يدخل الخلوة، ويتعرض لرحمة الميقات، ويرغب في كلام بُده المصاحب الأول والآخر، وبه كذلك الظاهر والباطن.

فإذا يسر الله ببعض الخلقة [.....[1]] وبدت يصبر على متابعة الطلب لكشف الكيفية المشخصة لكل ماهية منسوبة، فإذا قال ذلك، يثبت على ضميره في إشارته على عين مراداته تلك العين الأولى.

وعند ذلك يطلب الرؤية للفص من كل ذلك بكل شيء في كل شيء، عن كل شيء، من كل شيء، لكل شيء، وهذا الطلب لهذه الرؤية: هو الذي يسعف فيه للطالب؛ لأنه لعين في عين.

وإذا يسر الله في الكوكبية والقمرية والشمسية، فينبغي أن يلح على أصله الذي لا يغفل على فرع نفسه حتى يحكى ذلك الأصل، ويدوم أمره على صراط التوحيد الذي يطلب به التقويم والتتميم، وتحصيل ذاته المعتبرة الآخرة عن المعتبر الذي لا يمكن معه النظر ولا التوجه؛ لأنه إذا هم العالم أو العارف أو المحقق بالإخبار عنه؛ انعكس حكمه على ذلك الخبر القريب، وإلى الله سَنيّ الأحوال كلها، فاطلبها منه.

وقد بذل الناصح مجهوده، واستفرغ وسعه، وقرر مع الاستخارة على حديث المكانة، وسلم في ذلك رضوان الله، وأرشد إلى مثله النصيب الذي يلزم في الجزء الأول، فالله ذلك، وهو عِلّة كل وصف محمود حتى مفهوم الرحمة والرضوان.

والسلام على محل الأصول العجيبة، ورحمة الله تعالى وبركاته.

كملت «رسالة الألواح»

(1) ما بين [ ] بياض بالأصل.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

الحمد لله الذي بنوره يعلم ويعبد، وبحضوره يعرف، ويشهد، الذي خلق النيرات، والنجوم المسخرات، وأودع الأرواح سر عهده الأول الأوصل، وذكرها صورة المفارق للمواد، وجعل القلوب مظاهر ملكه الأكمل، وزينها بالعلوم، والعقل المستفاد، وجعل طريقة خليله إبراهيم ﷺ بما ظهر من الأنوار لعالم الإنسان، وطريقة حبيبه محمد ﷺ بما بطن من الأسرار، وخصه بمقام الإحسان؛ فكان ذلك مريدًا، وكان هذا مرادًا.

ثم إنه مات، وصحفت صحفه كما صحفت موسى، وهذا بالضد توفي ﷺ، وعاشت شريعته، والذي كان مبددًا في حياته ﷺ اجتمع بعد مماته، ولا تركته العناية حتى جعلت من الرسل من يتبعه، وهو عيسى ﷺ.

فلمًا أبصرت هذه العناية الكبرى، وحققت أن كل درجة بالنظر إلى درجته هي النعمة الصغرى حتى عظم أمره في الدنيا، وأكبر أمره هي في الأخرى، وإذا أبصرت من آياته ما أبصرت نبهتك، ثم أتتك بعدها أخرى اجتمعت في نفسي، ونـــزعت بالجملة إلى حضرة جلالته حتى إنى غبت بذلك عن حسي، وأهملت معاشرة جنسي، واشتد بالغلو في صلاته أُنسي، قلت عن غائب عينه إرساله وزاجر أكده إجلاله: يا أيها الإنسان، والمراد بهذا الجنس، وله أقصد بالخطاب، ولا أُبالي على أي حال كان، فإن الحقائق إذا تعينت، ونور الله إذا كان مظهره الأفضل هو به على الوجه الأكمل، والقدر الأوصل؛ قيل فيه بحسب الطاقة: فمَن مسلم ومِن ضده، ومَن عاش، ومَن مبصر، ومَن موف، ومَن مقصر من ذلك، ومَن مقتصد، ومَن مطفف، ومَن مجتهد.

وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذي قصدناه بالقصد الأول، وبالقصد أيضًا كان فنرجع فنقول: يا هذا المسلم النور، قد استولى، وتراكم بالغرض، وزاد حتى غلب الكمية والكليات؛ بل الخطوط المتوهمة، حتى أنه يفوت ما يُقال، وما يتوهم، وما يعلم ويقدر، ولا تلحقه لمبالغة الإعياء، والناس في تصوره على أنحاء، وعلى مراتب، وبقدر نصيب كل، وعادة الله تعالى في عباده أن ما من عليم إلا وفوقه عليم، وما من حكيم الا وفوقه مَن هو منه أحكم، وفوق الكل أحكم الحاكمين العليم الحكيم، ثم انقسم اعتقاد الجهال على أربعة أقسام، والذي يرجع إلى حاصل ما يعتقدون ويقولون فيه أعني: في نور النبوة، والمقام المُحمَّدي على انحاء، فنترك الكلام على المخالف لنا إلى موضوع أخر، ونتكلم على مراتب أمته ﷺ وخصوصًا على المعنى الحاصل المعلوم منهم من حيث النار هذه،

ومن طالع ظهورها، فنقول: هم أربع درجات؛ وبينهما طبقات دون كذا، وعند كذا منها بالنسبة إلى كل واحد:

الأول: الذي في الدرجة الأولى هو الذي يقول: أنا أعتذر، ولأستخرج في ذلك العجائب وأصرف الأمور إلى مراتبها الأولى.

والثاني الذي يتلوه في الدرجة الثانية هو القائل: ما هذه إلا مصيبة، أو شبهة يثقب فيها مع المخالف لنا في المسألة، لكنه إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

والثالث الذي بينهما هو القائل: هذا ينبغي أن يُكتم ولا يتكلم به، فإنه يخاف مما يعود على العوام به.

والرابع: هو الذي يقول: هذه مصيبة أصيب بها عين الإسلام، ويا لها من كائنة ما أصعبها، وكأنها ثانية لنفخة الصعق، أو هي أختها، هذه مبطلة، هذه قاصمة الظهر، هذه غير هينة، والذي يجد الأسف، ولا يعلل هو يمتد في الأولى إلى الثانية، والذي يضحك، ولا يعلم ما أمره في ذلك بالجملة، وكأنه غير معتبر عنده إلا من حيث أنه يقول إذا سمع القول فقط، وما يشعر النفس بأمر يوهم أو يحرك، وهذا يمتد مع الثانية إلى الثالثة، والذي يقول هذه من الشروط، وإذا كان الله يفعل هذا بحبيبه فما يفعل بغيره، يفعل ذلك من قِبَل الموعظة.

والجميع من ذكر يضحك منهم العلم، وتبكي عليهم المعرفة، ويهملهم التمكين، ويحملهم التحقيق، فاعلم أنت وأهل الدرجات أن نور السموات والأرض رسول الله ﷺ مظهره، ومشكاة مصباحه، ووحيه زيتونة زيتها، ثم هو نفسه نور الله، وكذا وحيه ومعجزاته وآياته، ومجموعة ما قال في ذلك، وبعد نور النبوة، واتصافه بها، وقوله: اللهم اجعل لي نورًا في قلبي، ونورًا في جسمي، ونورًا في شعري، وتتبع جوارحه كلها كذلك، ثم قال ﷺ: واجعلني نورًا، ثم كان ﷺ يذكر الله في كل زمان فرد، والقرآن من أسمائه النور، وكان يتلوه، وعليه أُنـــزِلَ بالملك تارة، وتارة من حيث روعه الداخل، ثم طلب الرفيق الأعلى عند موته، ومحل الأنوار وروحه هناك يتنعم.

فهذه أنوار، معها أنوار، وأنوار بعد أنوار، وقبل أنوار، ثم أنوار لا نهاية لها، ثم نور الله الذي لا يُحَد ولا يكيَّف، لا يفوته في روحه وعقله وحسه وخياله، وجميع مواده الباطنة والظاهرة، ثم أنوار آيات تلحق بذاته ينبغي أن يُقال لا نهاية لأنواره، ثم إذا نظر إلى مضافها، وإلى مشارها بالجملة، وإلى جملة ما هو عليه لا ينبغي للعاقل إلا أن يقول قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: 54].

وبعد هذا كله لو سمعت من المحققين من أمته: ما هي الأنوار؟ وإلى كم تنقسم؟ وما المراد بها؟ وما عالمها وكونها؟ هي عندهم عوالم الاتصال الثلاث، والكمال الثاني، وبعد هذا كلامهم فيها، وفي التجليّات: هو المطلب الأقصى للمباحث، والمتأله بالأمر الخاص العزيز، ولهم ما هو أعلى، فكيف لسيدهم الذي هو السبب لذلك كله، وهو الصورة المفيدة لذلك، ومما يصلون إليه حتى أنهم يضحكون من الأنوار العقلية التي يشعر بها اصطلاح الحكماء.

وكذلك يعللون مراتب المثل المعلقة بعد الطبيعة بالجملة، وأنوار التولد والاستدلال، وغير ذلك بالكلية، والأنوار الحادثة في النفوس الجزئية، وكذلك يسخرون بالأنوار المضافة بعد علم الثالوجي؛ علم الوحدة، وعلم أحكام التوحد هناك، ولهم في الأنوار جملة مقاصد ما هي قبيل من يذكر عندهم، فإن أضعف أنوارهم عواشق الأفضل ممَن تقدم.

فاعلم أني قلت ذلك لكي تتنبه، وأمَّا أنوار المقامات والأسماء عندهم، ثم الأنوار الباطنة والخلافة الآلية، ونور الإحاطة، ونور التقدير المثالي، ونور التعرض الذي يصحب لصاحبه السكينة، ثم نور الله الذي إذا فرض دائرة وضعية كانَ الحق المحض ذات المقدر الواقف، فَاعلم يا هذا مَنْ يكون الضعيف من أمة محمد ﷺ؛ يجد أن هذا عين المحبوب الأعز عنده ثم يطلب له بيان حال مجده، إن كان يريد أن يبين ذلك ببرهان، فهو صاحبه بالجملة.

وإن كان يريد أن يبين البين، فهو يتحرك في سلسلة جنونه، ويتنوع السخف، ويقسم أشخاص فنونه، وإن كان على جهة أن يُقال هذا يقول، وهذا ينطق بكذا، ويروم أن يحمد، فقد قصم ظهر قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، فمَن أمر من أجله رجال الله ألا يرفعوا أصواتهم، فكيف يسمح به أن يتهم أن يدبر بغير مجده الإلهي؟ أعوذ بالله من الحرمان التوبة يا غير خبير، التوبة يا غبي الذات، التوبة يا غافل، التوبة يا غالط، التوبة يا جاهل، التوبة يا ضعيف المحموع، وسلام على من اتبع الهدى.

القول على أنواع أنوار رسول الله ﷺ:

اعلم أن أنواره ﷺ تختلف باختلاف متعلقاتها ومضافاتها، ومن حيث الأقل والأكثر، والأشد والأضعف، هذا بالنظر إلى نوع النوع، لا أنها تنقص أو تضعف من حيث أنها أنوار إلا بأمر يلحقها في نفس الأمر، فمن ذلك نور عزته، ثم نور الغاية الإنسانية، ثم نور الإدراك، ثم نور النبوة، ثم نور النشأة، ثم نور السابقة، ثم نور التشريف، ثم نور التَّدلل، ثم

نور التركيب، ثم نور المولد، ثم نور الخلقة، ثم نور التربية، ثم نور الانتقال، ثم نور النهاية، ثم نور التضمن، ثم نور العادة، ثم نور التسخير، ثم نور الاتباع، ثم نور اللواحق، ثم نور الجاه، ثم نور الخطابة، ثم نور المقايسة، ثم نور التفضيل، ثم نور الإحاطة، ثم نور الحصر، ثم نور الكشف، ثم نور التزكية، ثم نور المكانة الكبرى، ثم نور الانفراد، ثم نور الذكر والعلامة، ثم نور العلانية، ثم نور الخصوصية في أول حاله، ثم نور الخير المحض، ثم نور اللواء، ثم نور العبودية.

فأمَّا النور الأول: (وهو نور العزة)؛ فهو نور الشهادة التي تُقال مع شهادة الله، هذا كشف عن عزته عند الله، ومنها أيضًا في جملة أحكام أمته ﷺ فيها يتبع كالتشهد في الصلاة والأذان[1].

---

(1) قلت: وعزّه الله بعزته في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: 8].

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ بتيسير أسباب العزّة، وهي: الاستقامة المحمدية الأزلية.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ فقد ألقى الله عليه أستار العزة الإلهية.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾: أي الامتناع وجلالة القدر.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾: أي العزيز، ومعناه: الذي لا نظير لـــه في خلق الله تعالى.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾: أي له روح العزة؛ لأنه مظهر كمالات العزيز الحكيم، ولرسوله الذي هو القلب لا مرسل إلى القوى، كالسلطان إلى الجنة، ولا بدَّ للخليفة من العزّة الذاتية والإضافية.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي وللمؤمنين الذين أعزهم الله بعزة نفسه وبعزة رسوله، فإنهم حزب الله الغالبون، وإنهم الجند المنصورون، فلهم الفعل الذي هو عين العزة، ولأعدائهم الانفعال الذي هو عين الذلة، فالمؤمنون في درجة الذكورة وإن كانوا إناثًا، والمنافقون والكافرون في درجة الأنوثة وإن كانوا ذكورًا، فعليك بالتشبه بالذكور حتى تكون مذكرًا حقيقيًّا.

وقال الشيخ الأكبر في كتاب «التجليات» في الكلام على تجلي العزة ما نصه:

ما لك وللحق تعالى! أية مناسبة بينك وبينه؟ وفي أي وجهٍ تجتمع؟ اترك الحق للحق، فلا يعرف الحق إلا الحق، يقول الحق: وعزة الحق لا عرفت نفسك حتى أجليك لك، وأشهدك إياك، فكيف تعرفني، تأدب فما هلك امرؤ عرف قدره، واقتدَ بالمهتدين من عباده انتهى.

وقال فيه أيضًا في تجلي بأي عينٍ تراه: من زعم أنه يدركه على الحقيقة فقد جهل، وإنما يدركه المحدث من حيث نسبته إليه، كما علمه من حيث نسبته إليه.

وقال الشيخ صدر الدين محمد بن إسحاق القونوي، تلميذ الشيخ الأكبر وربيبه، في رسالةٍ له سمَّاها «مفتاح الغيب» ما نصه:

ولما كان الحق تعالى من حيث حقيقته في حجاب عزه لا نسبة بينه وبين ما ستراه، كما سبق التنبيه عليه، كان الخوض فيه من هذا الوجه، والتشوق إلى طلبه تضييعًا للوقت، وطلبًا لما لا يمكن
=

تحصيله، ولا الظفر به إلا بوجهٍ جلي، وهو أن وراء ما تعيَّن به أمر به ظهر كل متعينٍ لذلك.
قال سبحانه بلسان الرحمة والإرشاد: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 30]، فمن رأفته أن اختار راحتهم، وحذرهم عن السعي في طلب ما لا يحصل، لكن لهذا الوجود الحق من حيث مرتبته عروض وظهور في نسب علمه التي هي الممكنات، ويتبع ذلك العروض والظهور أحكام وتفاصيل وآثار بها تتعلق المعرفة التفصيلية، وفيها ومنها يُفهم الكلام، وأما ما وراء ذلك فلا لسان له، ولا خطاب يفصله، بل الإعراب عنه يزده إعجامًا، والإفصاح إبهامًا على ما ستعرفه إن شاء الله تعالى. انتهى منه بلفظه.

ومثله للعارف بالله الجامي قُدِّس سره في شرحه لنقش الفصوص الذي سمَّاه نقض النصوص فراجعه.

وفي التعريفات للسيد الشريف الجرجاني ما نصه:

حجاب العزة هو العمى والحيرة؛ إذ لا تأثير للإدراكات الكثيفة في كنه الذات، فعدم نفوذها فيه حجاب لا يرتفع في حق الغير أبدًا انتهى.

وفي كتاب «اللمع الأفقية» وهو كتاب التراجم للشيخ الأكبر في ترجمة المنة ما نصه:

حجاب العزة لا يُرفع، ولا يمكن أن يُرفع، وآخر حجاب يُرفع رداء الكبرياء عن وجهه في جنة عدن، كما جاء الخبر عن النبي ﷺ.

وقال القطب سيدي عبد الكريم الجيلي في كمالاته في الكلام على اسمه تعالى (الواسع) ما نصه:
والإنسان الكامل ولو عرف أنه هو الله، وتحقق بما تحقق به من الأسماء والصفات، فإنه لا يبلغ غاية الكنه الذاتي، ولا يستوفيه بوجهٍ من الوجوه.

ولهذا قال الصديق الأكبر: العجز عن الإدراك إدراك.

وقال سيد المقربين، وخاتم المرسلين: «لا أحصي ثناء عليك».

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91] يعني المقربين والكُمَّل، المحققين من الأنبياء والمرسلين، ومن دونهم من الأولياء والصديقين، وسائر المؤمنين والكافرين جميعًا ما قدروا الله حق قدره، بل هو فوق ما عرفوه، وقدره وراء ما قدروه فافهم. انتهى منه بلفظه.

وقال الشيخ الأكبر في شرحه لترجمان الأشواق:

كل من الخلق واقف خلف حجاب العزة الأحمى، وعند هذا الحجاب تنتهي علوم العالمين، ومعرفة العارفين، ولا يصح لأحدٍ أن يتعدَّى هذا الحجاب ولو كان من أكابر الأحباب.

وقال سيدي علي بن وفا رحمه الله: جلَّت ذات الحق تعالى أن تدخل تحت إحاطة علم أو إدراك انتهى.

قلت: وذكروا أن الحقيقة المحمدية من ورائها حجاب العزة، وهو حجاب الكبرياء والعظمة الذي لا ينخرق لأحدٍ ثمة، وحينئذٍ فهما نوران حاجبان للخلق عن رؤية تجليات الحق: نور العزة الذي هو نور الكبرياء والعظمة، ونور الحقيقة المحمدية وهو الثاني.

وأمَّا الثاني: وهو (نور الغاية الإنسانية)؛ فهو شأنه الذي كان ليلة الإسراء فإن الأنبياء خير البشر جاز عليهم في السموات، ثم تركهم وقطع عوالم الملأ، فهذه نورانية كشف بها أنه وصل الغاية، وبلغها، ثم وصل إلى محل الكروبيين، ثم إلى أكثر، ثم إلى آخر العمارة الروحانية والجسمانية.

وأمَّا النور الثالث: وهو (نور الإدراك)؛ فإنه أدرك الله وأَبْصَرَه على أي نوع كان، وعلى أي مذهب إن كانت العلمية أو الأخرى، ثم كان يبصر من خلفه ﷺ كما كان يبصر من أمامه، وأيضًا إدراك الجنة قبل موته، وأيضًا كوشف عن الذي في قبره يُعَذْب، وأيضًا كُشف له عن الجنة في عرض الحائط، وأيضًا أبصر الملك على صورته التي خلق فيها، ثم على أنحاء بعد ذلك، هذا نور كشف له عن أعز المدركات كلها.

وأمَّا النور الرابع: وهو (نور النبوءة)؛ فهو ما له ظهر من الآيات، وما تحدّى به من المعجزات، ثم ما أدرك من النوع الأكمل، هذا كشف له به عن مقام النبوءة، وأظهر الله به قدره ومكانه.

وأمَّا النور الخامس: وهو (نور النشأة[1])؛ فهو الذي كشف له مكانته، وعناية الله به

= والحقيقة أيضًا دونها حجب الأنوار، فلا مطمع لأحدٍ في الوصول إليها، ولا في تخطي الحجب المشرفة عليها، وعليه فتجليات الحق تعالى له ﷺ كلها مِن وراء حجاب الكبرياء والعظمة، الذي هو وصفٌ من أوصاف ذاته المعظمة.

(1) قلت: قال الشيخ جعفر الكتاني في جلاء القلوب: جرت المشيئة الإلهية الأزلية بإيجاد الإنسان الكامل أولاً وبالذات من الذات الأحدية، وجعله أصلاً ومنبعًا لجميع العوالم الخلقية، ومادَّة ممدة لكل ذرة من ذرات البرية، فكان منه الأمر والخلق، وكل جمع وفرد، ومنه المبدأ وإليه المنتهي وفيه كل ما يرام ويشتهى والمفاض عليه سر الذات والمحلى بحلي الصفات، والمسمى بالأسماء العلية، والمخلوق على الصورة الجليلة البهية، والمعلَّم بلا واسطة، والمقرب بدون رابطة، والمعنى دون غيره حقيقة بالخطاب، والمنـــزل عليه أصالةً كل ما أنـــزل من كتاب.

فهو رسول الرسل ونبي الأنبياء، هو المبعوث إلى كل من تقدم أو تأخر من الأمم وسائر البرية وجميع الأصفياء والمعطى جزامًا والخليفة، المفوض إليه أمر العوالم كلها وفاقًا بين المحمديين من أهل الله لا خلافًا، أشرف الموجودات مكانة ومكانًا، وأعلاها وأسماها منـــزلة ومنـــزلا وأولاها، أدار الله عليه رحى مخلوقاته، وجعله قطب فلك جميع مصنوعاته، فكان لهذا العالم الكوني القطب الأصلي والأب الحقيقي لكل موجود منه فرعي أو أصلي، والقطبية لغيره بحكم النيابة عنه والعارية، والكل في قبضته وتحت ولايته الممتدة والسارية.

وقد غُسل قلبه ﷺ بعدما شُقَّ بماء النسيم فِي طستٍ من ذهبٍ مملوءٍ ثلج؛ فهو أنقى الخلق =

وحفظه، وما فعلت الملائكة به، وتطهيره، وشق بطنه، واتصافه بما يجب، وكونه كان يتيمًا محفوظًا حتى إن أمَّه الأولى حدثت عنه ﷺ أنه كان يسبح في بطنها، وعند ولادته تَغْني وبعدها، وأمَّه أعني: أمُّ تربيته كذلك كانت تقول: إذا أكلت الطعام المختلف فيه لا يشرف لبنها، وجملة الأمر كان بمجموع قرائن أحوال رسول الله ﷺ.

وأمَّا النور السادس: وهو (نور السابقة)؛ فكونه في الأول أريد بذلك؛ فإنه قد أخبر أنه سيد ولد آدم، وكان وكلٍ ذلك عن الله، وخبر الله لا يتغير، وكذلك علمه لا يتبدل، وأيضًا كونه قال: «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين»[1] فكشف له هذا الطين أنه كان مشتهر ما بين الأنبياء في الأزل قبل الكون، وأظهر أنه نبيٌّ، وهو ممكن الوجود وقبل كونه، وهذه أيضًا سابقة ثانية، وكذلك اسمه في اللوح إذا أرادت الملائكة ترحم عباد الله، وتدعو الله فيهم لكي يُدفع أو يُرفع عنهم العذاب النازل قصدوه وتوسلوا له به، ذكر ذلك ابن شوع، ورفعه إلى أبي بكر الصديق ﷺ.

وأمَّا النور السابع: وهو (نور التشريف)؛ فهو النور الذي كشف له عن الخصوصية الملكوتية، ورسم اسمه مع اسمه في اللوح، وكتب بالنور.

وأمَّا النور الثامن: وهو (نور التذلل[2])؛ كشف له عن مقام القرب، وهو قوله تعالى:

وأتقاها، استخرجا قلبه ﷺ ملكان عظيمان أجلُ الملائكة، فشقَّاه، فاستخرجا منه علقةً سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبه وبطنه بذَلِك الثلج حَتَّى أنقياه.

ورأت أمه حين وضعته نورًا خرج منها أضاءت له قصور بصري، ولم تجد في حملها به ما تجده النساء من المشقَّة، وإنما عرفت حملها به بإخبار ملك أتاها بين النوم واليقظة، وبشَّرها بأنها حملت بسيد هذه الأمة ونبيِّها، مع ارتفاع حيضتها، وانتقال النور الذي كان في وجه عبد الله والده إلى وجهها.

وحصلت ليلة مولده إرهاصات كثيرة منها:

خمود نار فارس؛ ولم تخمد قبل ذلك بألف عام.

وارتجاج إيوان كسرى حتى انشقَّ وسقطت منه أربع عشرة شرافة.

وغيض بحيرة ساوة. وتنكس جميع الأصنام، وكذا انتكست عند الحمل به.

ومات أبوه عبد الله وأمه حامل به على الصحيح الذي عليه أكثر العلماء.

ولهذا كان المسمَّى له بمحمدٍ، والعاق عنه بشاةٍ يوم سابع ولادته: جده عبد المطلب صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

(1) ذكره المباركفوري في تحفة الأحوذي (56/10)، وذكره القاري في المصنوع (142/1).

(2) قلت: قال الشيخ القاشاني في القرب: هو القيام بالطاعة، والقرب: هو دنو العبد من الله تعالى بكل

ما يعطيه من السعادة، لأقرب الحق العبد، فإنه من حيث دلالة قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4]، عليه قرب عام سواء كان سعيدًا، أو شقيًا، فكل عبد، في كل وقت، تحت حكومة الأسماء الإلهية قرب من حيث تجلي اسم إلهي وبعد من حيثية اسم آخر، فالقريب من المضل مثلا بعيد من الهادي، والعكس، فكل اسم يعطي قربا، فالسعادة ترجع إلى هذا القرب المصطلح عليه، وقد يكون للحق قرب خاص من العبد زائد على قربه العام. كما قال تعالى لموسى وأخيه عليهما السلام: ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، فإن هذه المعية، معية العناية بالحفظ والكلاءة، لا المعية العامة، فقرب العبد من الحق بكل ما يعطي من السعادة يتبع له قربًا خاصًا من الحضرات بالحقية، كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلى ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يسعى أتيته هرولة».

والقرب على قسمين: علمي، وعملي.

فالعلمي: أعلاه العالم بتوحيد الألوهية، وهو على نوعين نظرى، وشهودي.

والعملي: على نحوين:

قرب بأداء الواجبات: وهو القرب الفرضي كما قال ﷺعن ربه تعالى: «ما تقرب المقربون بأحب إلي من أداء ما فرضته عليهم».

وقرب نفلي: كما قال ﷺعن ربه تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت له سمعًا وبصرًا». ومداد العمل المقرب:

إما من الباطن إلى الظاهر، فأعمه وأتمه الإيمان.

وإما من الظاهر إلى الباطن، فأعمه وأتمه الإسلام.

وإما من القلب الجامع بين الظاهر والباطن، فأعمه وأتمه الإحسان.

فمقتضى القرب النفلي: تجلي الحق للعبد متلبسا القابلية المحدودة.

ومقتضى القرب الفرضي: تجلي الحق له، وظهور العبد بحسب الحق، غير محدود، ولا متناه.

فالتمييز بين قوسي الحقانية والعبدانية في القرب المفرط إن كان خفيًا يعبر بـــ «قاب قوسين».

وإن كان أخفى يعبر عنه بـــ «أو أدنى».

ومن هنا قال قدس سره: وقد يطلق على حقيقة: «قاب قوسين»، فالتجلي بحكم هذا القرب، إن كان في مادة وصورة، تتبعها القرب في النسبة المكانية، في مجلس الشهود، وإن كان في مجلس الشهود، وإن كان في غير مادة، كان قرب المنـــزلة والمكانة، كقرب الوزير من الملك.. فافهم.

وقال الشيخ محمد بن عمر القادري: اعلم أن قاب قوسين مقام القرب الأسمائي باعتبار التقابل بين الأسماء في الأمر الإلهي المسمى دائرة الوجود كالإبداء والإعادة والنـــزول، والفاعليَّة، والقابليَّة، وهو الاتحاد بالحق مع بقاء التميز والاثنينية، المعبر عنه بالاتصال، ولا أعلى من هذا المقام إلا مقام أو أدنى لارتفاع الاثنينية، والاعتبار به والتمييز هناك بالفناء المحض، والطمس الكلي للرسوم كلها تنبيه في تفسير الآية: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾: أي النبي ﷺ من الله تعالى وترقى عن مقام جبريل بالفناء في الوحدة، والترقي عن مقام الروح.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: 8]؛ لأمر.

وأمَّا النور التاسع: وهو (نور التركيب)؛ فهو الذي انكشف له به عن الغاية العظمى في التوحيد، فإنه كان إذا فكر في الموجودات، ثم في النظام القديم، ثم في سر القدر، ثم في الأمور العالية؛ كان يُغان على قلبه، إذا ركب هذه المعلومات العزيزة.

وأمَّا النور العاشر: وهو (نور المولد)؛ فإنه كشف له عن سعادة مولده بالبرهان الفلكي الإلهي السماوي، فإنه كان له نصبة عجيبة لم يبصر قط في أيام العالم مثلها، ثم ظهر يوم مولده في الآفاق مائة معجزة منها: خمود نار فارس، وانشقاق إيوان كسرى، وزلزلة أبداد الهنود.

وأمَّا النور الحادي عشر: وهو (نور الخلقة)؛ فكان ﷺ يظهر بين عينيه النور الذي لا يخفي على أحد حتى إن من العرب مَن كان يغنيه في إيمانه عن طلب المعجزة والآية منه، ومع ذلك أيضًا النور في تبسمه، وفي جبينه كما حدثت عائشة رضي الله عنها، وفي موضوعه كله، ولما كلامه وأفعاله وحركاته كل أكوانه، وما ظهر من خلقه، وما بطن من

وفي هذا المقام قال جبريل عليه السلام: «لو دنوت أنملة لاحترقت» إذ وراء مقامه ليس إلا الفناء في الذات، والاحتراق بسبحات الجمال لا سبحات الجلال؛ لأن سبحات الجلال هي أنوار تجليات الصفات، وسبحات الجمال هي أنوار تجليات الذات، والاحتراق بالجمال، ﴿فتدلى﴾: أي مال إلى الجهة الإنسيَّة بالرجوع من الحق إلى الخلق حال البقاء بعد الفناء، والوجوب الموهوب الحقاني، ﴿فكان قاب قوسين﴾: أي كان ﷺ مقدار دائرة الوجود الشاملة للكل المنقسمة بخط موهوم إلى قوسين، باعتبار الحق والخلق، والاعتبار هو الخط الموهوم القاسم للدائرة إلى نصفين، فباعتبار البداية والتداني يكون الخلق هو القوس الأول الحاجب للهوية في أعيان المخلوقات وصورها، والحق تعالى هو النصف الأخير، وباعتبار النهاية والتدلي، فالحق هو القوس الأول الثابت على حاله أزلاً وأبدًا، والخلق هو القوس الأخير الذي يحدث بعد الفناء بالوجود الجديد الذي وهب له.

وهذا ما دامت الإثنينية أو أدنى من مقدار القوسين بارتفاع الاثنينية الفاصلة الموهومة لاتصال أحد القوسين بالآخر، وتحقق الوحدة الحقيقة في عين الكثرة بحيث تضمحل الكثرة فيها وتبقى الدائرة غير منقسمة بالحقيقة، وهذا نهاية الولاية.

فما أكمل نبيُّنا محمد ﷺ وما أسعدنا به ﷺ، فلله الحمد والمنَّة على هذا النبي الكريم الذي شرف الأكوان ﷺ.

لائحة سدرة المنتهى شهود الخلائق الكونية، وقاب قوسين شهود: (الرقائق الأسمائية) أو أدنى شهود الذات، ورؤيتها شهود لا أكمل منه.

مجموعة أنوار هذا في أصل وضعه، وكيف وهو أيضًا قد قال: «اللهم اجعلني نورًا»[1] بعد ما عدد أجزاء بدنه ﷺ، وهذا كشف له أنه النور؛ بل نور النور الروحاني والجسماني.

وأمَّا النور الثاني عشر: وهو (نور التربية)؛ فما كشف له عن العناية الحافظة له والعصمة الإلهية التي لا يشترط فيها العقل، وأسباب التكليف، والعلامات مثل السحابة التي كانت تظله، وما ظهر في بنيان البيت، ومصارعته لأبي جهل، هذه كلها أنوار كاشفة لأمور خارقة للعادة.

وأمَّا النور الثالث عشر: وهو (نور الانتقال)؛ فهو النور الذي كان يبصر في عين أبيه وأمِّه، وما سمع في ذلك بعد ما حملت به أمُّه، وكونه ﷺ ورث ذلك منهم بعد ولادته ﷺ، وانتقاله من الظهر الطاهر إلى الظهر الطاهر، وحكى أبو الفضل عياض أنه كان كل من تقدم من آبائه ﷺ، إذا أوقع في الرحم ما أودع الله تعالى في ظهره من نطفة المصطفي ﷺ؛ يجد الفراغ والكسل، وتختل عليه أحواله كلها حتى جاهه في الناس، هذا بالنظر إلى مكانه الأول، وهذا النور كشف له عن نورانية نُطفَته ﷺ.

وأمَّا النور الرابع عشر: وهو (نور النهاية[2])؛ فهو نور الله تعالى الذي ختم به النبوة،

---

(1) رواه الترمذي (482/5)، والطبراني في الأوسط (419/11).

(2) قال الشيخ القونوي: ختم نبوة التشريع ورسالته فلا يوجد بعده نبي مشرع أصلاً، وهو سيدنا محمد ﷺ وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40].

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في كتاب الرد المتين على منتقص العارف محيي الدين ما نصه: اعلم أن سيدنا محمدًا ﷺ خاتم جميع الأنبياء والمرسلين، ومعنى ذلك أنه ذائق لمشرب كل نبيٍّ، وكل رسولٍ ممن تقدمه، فهو جامعٌ لجميع مشارب الأنبياء والمرسلين، ولهذا جاء بتصديقهم كلهم، وأفصح عن مقاماتهم ومراتبهم، وكشف له عن أحوالهم كلها، وتنـزلت أخبارهم على نفسه بما تلاه علينا من القرآن العظيم، فنبوته أصل لجميع النبوات، والنبوات فرعٌ عن نبوته، ولهذا قال ﷺ: «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين».

وبقية الأنبياء عليهم السلام إنما كانوا نبيين حين بُعثوا لا قبل ذلك، فأصل مشارب الأنبياء كلها، وهي روحانياتهم الفاضلة، كالمياه المنقسمة مجموعة في مشرب محمد ﷺ الجامع الذي هو روحانيته التي بدأ الله تعالى بها الوجود، كما ورد أنه أول ما خلق الله نور محمد ﷺ من نوره تعالى، والحديث في ذلك طويل، ثم لما خلق الله طينة آدم ﷺ، وسواه أجرى ماء روحانية آدم من مشرب محمد ﷺ الجامع، وكذلك حين خلق طينة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وبقية المرسلين عليهم السلام على حسب ترتيب خلق طيناتهم في هذا الوجود أجرى الله تعالى مياه روحانياتهم التي هي مشاربهم الخاصة من ماء روحانية محمد ﷺ التي هي مشربه الجامع، ثم لما خلق الله تعالى طينة محمد ﷺ أجرى ماء روحانيته، الجامعة في طينته المخصوصة ﷺ، فظهر في

=

وانتهى الأمر عنده، وصور التكميل بالجملة، وهذا أظهر له ﷺ أنه خير الرسل، فإنه نسخ

هذا الوجود مرتين مرة بطريق التفصيل في أطوار رقائق الأنبياء والمرسلين قبله، ومرة بطريق الإجمال.

ومعلوم أن الإجمال بعد التفصيل، ولهذا ختمت به النبوة، فلا نبي بعده لتمام التفصيل بإجماله ﷺ، انتهى منه بلفظه.

وقلت: فهو ﷺ النسخة الصغرى وهي العبد الكامل الذي كان مظهرًا لكل اسمٍ إلهيٍّ من غير أن يغلب عليه اسم من الأسماء، ويُسمَّى من وجه بالخليفة والنائب، وهو الرداء على الحق، وقد يستهلك بالحق بحيث لا يظهر له وجود عين أصلاً، فيكون حقًا كله والانفعالات تقع منه من غير أن تنسب إلى شيءٍ من وجوده.

وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «واجعلني نورًا»: أي حقًا يظهر في كل شيءٍ ولا أظهر بشيء، وقد يستهلك الحق به، فكل شيءٍ يُنسب لوجوده، ويكون هو المرتدي والحق رداءه، فالمرتدي هو المستهلك فيه، فإذا كان العبد رداء كان هو الظاهر والحق باطن، وإذا كان الحق رداء فالأمر بالعكس.

وقد أشار حضرة الشيخ الأكبر إلى هذا في المسائل الترمذية بقوله: أنا الرداء، أنا السر الذي ظهرت في ظلمة الكون؛ إذ صيرتها نورًا، فهذا الخليفة مع صغر حجمه جمع مظهره وعينه كل مظهر، وعين من العلوي والسفلي، فما من شيءٍ إلا وهو تفصيله وجزء منه، بمعنى أن فيه أنموذج كل شيءٍ كما سيذكر، لا أن الأشياء أجزاؤه حقيقة كما يتوهم، بل هو مبدأ الآثار في كل شيءٍ.

وتمام هذه النسخة المظهر المحمدي الأتم، وكون غيره من الكُمَّل متحققًا بهذه النسخة، باعتبار أنه مظهر من مظاهره ﷺ التي تفرَّعت عنها النسخة الكبرى، أعني هذا العالم الكبير المفصل، فإنه بأجمعه تفصيل مظهره ﷺ في كل مرتبةٍ.

أما في الأعيان والصور فلما قدمناه من أنه أول تعين للحق تعالى، مشتمل ومنطوٍ على كل حقيقة إلهية وكونية، فهو كجنس الأجناس لها.

وأما في الأرواح فلأن روحه العقل الأول الذي خلق الله به السماوات والأرض، بل أوجد به كل العالم، وهو مجمل كلي منطوٍ على كل روحٍ وعقلٍ ونفسٍ.

وأما في المثال فكذلك لجمع خياله.

وأما في الطبيعيات فكذلك، فإنه ظهر بصورة الهباء هيولى الكل، واستوى على العرش، ومنه تفصلت الأشياء حتى انتهى الحال إلى هذا النوع الإنساني الحسي الجامع لكل ما عداه، وهو هذه النسخة، بل هو الذي كان للحق بمنـــزلة إنسان العين من العين، فبه يرى جميع ما سواه، فالأمر في كل المراتب جملي ثم يتفصل.

والجملي هو النسخة الصغرى، وما تفصل منه وتفرع هو النسخة الكبرى، نظير ذلك نقطة البسملة والقرآن العظيم الجامع.

ما ظهر أنه صاحب نهاية الأمور الذي يرجع إليه، والكامل الذي لا يمكن أن يزاد فيه، ولا ينقص منه.

وأمَّا النور الخامس عشر: وهو (نور التضمن)؛ فهو الذي كشف له به أن الذي كان عليه أسهل وأكمل من الذي سلكه أبوه إبراهيم ﷺ، فإن هذا كان في أمره كالمختار المحبوب، وأبوه كالطالب المجتهد، وقصة انتقال إبراهيم ﷺ تعلمك بالحال.

وأمَّا النور السادس عشر: وهو (نور التسخير)؛ فهو كشف له ﷺ أنه الغاية في السموات والأرض، وأن القمر انشق له، والكواكب سخرت لحفظ نظام مِلَّته، وتلك أيضًا معجزة ظهرت في مدة مِلَّته ﷺ، وهي باقية، وغفل عنها كثير من الناس، وهي الشهب التي ترسل على الشياطين، وما ذلك إلا بركة كتابه ولأجل موضوعه، وكذلك الملائكة من تسخيره وخدمته، فإنها تكتب فضائل أمته ﷺ وقاتلت معه ﷺ، وإلى الآن أولياء أمته في منادمتهم ومخاطبتهم مشافهة، وكذلك الصور الروحانية كلها، وهذا نور كشف له أنه المدلل في السموات والأرض، وفي كل العوالم.

وأمَّا النور السابع عشر: وهو (نور العادة)؛ فإنه أظهر في أيام الدنيا، وأيام العالم، وأيام الدين من العدل، وصلاح الأحوال، وسياسة المنـــزل، والتدبير المحمود؛ فأظهر له أنه الحكيم الأعظم.

وأمَّا النور الثامن عشر: وهو (نور الأتباع)؛ فما ظهر لهم من النصر بالسنان، فإنهم استفتحوا بلاد الكفر من بعده ﷺ وما فتح الله به، وما ظهر على رجال أمته من الكرامات على العلماء من العلوم على أنحائها، وبالجملة ظهر أن الأمر فيه مع الأنبياء والرسل؛ هو الأمر فيهم مع العلماء، والمِلل، والدول، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، فهي ذلك الآية.

وأمَّا النور التاسع عشر: وهو (نور اللواحق)؛ فما بعده من الآيات التي أخبر به، وما أيضًا في العالم من العجايب فهي له حتى فضائل أمته، فإنها هي فضائله، فإن قلت: لا تحصر كراماتهم وعلومهم؛ فقد قلت: لا نهاية لمعجزاته ﷺ هو فإنه الأصل في ذلك، والذي يفيد الكرامة بتبعيته هو الكامل، حتى أن هذا النوع باتباعه يترجح على المعجزة الحاضرة معه، فإن تلك بإزاء تكذيبه، ولضرورة المعاند، وهذه من عند الله على جهة الإكرام، ثم هي أيضًا مركبة بزيادة أمر محمود، وهذا أظهر له ﷺ أصل كل فضل، وسعادة وعناية.

وأمَّا النور العشرون: وهو (نور الجاه)؛ فهو كشف له أنه واحد الله في التخصيص،

والشفاعة تدل على ذلك وأشباهها.

وأمَّا النور الحادي والعشرون: وهو (نور الخطابة)؛ فكونه كُيِّف له أنه الذي أوتي جوامع الكلم.

وأمَّا النور الثاني والعشرون: وهو النور الذي سميته (نور المقايسة)؛ فهو كشف له أنه إذا جمع في الذهن جميع الأنبياء والرسل في تقديره؛ لفضلهم، ودليله أنه أعلم الخلق بالله، والدرجة التي هناك لا تقاس بما بعدها، وإن تعددت فإن المجموع لا يقوم منه ما يساوي، فإن الذوات لا تتحد فاعلم.

وأيضًا إذا قلنا: إنه أفضل من إبراهيم عليه السلام فالمرتبة أو الدرجة التي يفضله بها أي شيء يقاس بها لا بد لها من تنظير تنظر معها، ثم سلمنا أنه أرفع الأنبياء منـــزلة في الجنة، والكل دونه، فلا ينفع ما عظم واجتمع، فإنه مع ما هم فيه ينظر إليهم من تحت، فاعلم ذلك، ولا تَقِس الأمر فيه بالمحسوس، فتقول: هو صاحب ألف درهم في التمثيل، وهم من مجموع الكل منهم، وإن كان لكل واحد منهم مائة جملة، قيل: ما الأمر الذي نحن فيه هذا يشابهه، فإنك هناك تقيس الأمر بقدره، وهي درجة عند الله، فاعلم.

وأمَّا النور الثالث والعشرون: وهو (نور التفضيل)؛ فهو يكشف له ﷺ على قدره بالنظر إلى الرسل عليهم السلام، ومقرٌّ له بأنه سيد ولد آدم عليه السلام.

وقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، فنحن في الأمم مثله هو في الأنبياء والرسل عليهم السلام.

وأمَّا النور الرابع والعشرون: وهو (نور الإحاطة[1]):

---

(1) قال الشيخ جعفر الكتاني: اعلم هداك الله، ولكل رشد وفلاح أهّلك وأرشدك أنه لا خلاف بين أهل العلم كلهم في أنه عليه السلام كان معلمًا من قبل الله تعالى بالمغيبات الكثيرة، التي لا تنحصر كثرةً وعددًا، ولا ينقضي ظهورها مدى الدهور أبدًا، وفي أنه أُوتي من علوم الكوائن الماضية والحاضرة والمستقبلة ما تعجز عنه عقول البشر، ولم يؤته نبي ولا رسول قبله، ووقع نـــزاع عظيم وخبط شديد وهيم بين المتأخرين من المشارقة والمغاربة في أن علمه عليه السلام كان محيطًا بالأشياء كلها حتى الخمس والروح، وما هو في معناهما، أو غير محيط بها، والإحاطة بالأشياء جميعها إنما هي لله تعالى وحده، أو محيطًا بها ولكن لا كإحاطة علم الله، بل إحاطة ما لا تخلو عن شيء مخصوص منها، استأثر الله به، أو متوقف فيه فلا يُقال فيه: إنه محيطٌ ولا غير محيطٍ؛ لتعارض الأدلة، وعدم وجود قاطع، أقوال أربعة:

القول الأول: في بيان إحاطة الذات المحمدية بالعلوم الجديدة الكونية، فممن أفتى بالأول — وهو القول بالإحاطة — من المغاربة قاضي سجلماسة وأعلمها في وقته الفقيه العلاّمة المشارك المحقق

—

أبو مروان عبد الملك بن محمد السجلماسي التاجموعتي المتوفى في صفر سنة ثمان عشرة ومائة وألف، لما سأله عن هذه المسألة جدنا للأم المحب في الجانب النبوي المداح له العلامة المؤلف الناظم الناثر الصوفي الولي الصالح أبو العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي الشافعي نـزيل فاس ودفينها.

وقال في جوابه له: إن النبي ﷺ لم يفارق الدنيا حتى علم كل شيء.

ولما بلغ جوابه هذا لعلماء فاس وما هو في حكمها أنكروه، وبالغوا في التشنيع عليه حتى إن بعضهم نسب معتقده هذا إلى الكفر، فلما بلغه هذا الإنكار رد عليهم أبلغ رد في جواب له كتبه في هذه المسألة، وقال فيه: وإني لأقضي العجب من المنكرين لذلك مع ورود الأحاديث الصحيحة به.

ففي «كبير» الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما عنه ﷺ قال: «أُوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس». وعن عبد الله ابن مسعود ﷺ مثله.

وقد تقرُّر أن الاستثناء معيار العموم، وعليه فعلمه ﷺ محيط بكل شيء سوى الخمس، والخمس قد علمها ﷺ بعد على ما عليه المحققون؛ إذ هو ﷺ من لدن بعثه الله إلى أن قبضه في الترقيات والتجليات فبحسبها ورد: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

«لا تفضلوا بين الأنبياء».

ثم ورد بعد أنه علم الخمس، وأنه سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائه.

وقال الحافظ السيوطي: أُوتي ﷺ علم كل شيء إلا الخمس.

وقيل: إنه أوتيها أيضًا وأمر بكتمها، والخلاف جارٍ في الروح.

وإذا تقرر هذا علم أنه ﷺ أحاط بكل شيء علمًا فضلاً من الله تعالى فما يقال لفضل الله ذا فكم؟

وقال البوصيري:

دع مـــا ادعـــته النـــصارى في نبـــيهم واحكـــم بمـــا شـــئت مدحًا فيه واحتكم

وفي «الصحيح»: أنه ﷺ قال: «سلوني عما شئتم».

ولا شك أنه كالنص في التحدي بهذه الخصوصية، فتلحق بالمعجزات، وما في الكتاب العزيز من الآي الدالة على أنه لا يعلم الغيب إلا الله محمول على العلم بغير واسطة.

وأما الاطلاع على ذلك بإعلام الله فأمر متحقق؛ لقوله: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: 26-27]

وفي «الطبراني» عن ابن عمر مرفوعًا: «إن الله قد رفع لي الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كأنما أنظر إلى كفي هذه».

والقول الفصل: إنه ﷺ أُوتي علم كل شيء قبل أن يفارق الدنيا، وقد اتضح أن المنكِر إما جاهل فيعلم، أو ملحد فيؤثم، ثم ليت شعري ما وجه الإنكار؟ فإن مسألة لم تخرج عن دائرة الإمكان، وكل ما كان سبيله ذلك، وأخبر الصادق المصدوق بوقوعه وجب المصير إليه اعتقادًا واعتمادًا،

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل، انتهى باختصار.
وقد كتب بعده موافقًا عليه الفقيه الأوحد سيدي مسعود جموع مستدلاً على الموافقة بحديث أحمد والترمذي عن معاذ في وضع الرب تعالى كفه بين كتفيه في المنام فتجلى له بها كل شيء، ثم إن التاجموعتي ألَّف في المسألة رسالة سماها: «ملاك الطلب وجواب أستاذ حلب»، وفي «نشر المثاني في أهل القرن الحادي والثاني» في ترجمته كلامًا آخر له في هذه المسألة في بعض رسائله، يصحح فيه القول بما رآه فيها ويرد القول بخلافه، راجعه.
وممن أفتى به من المشارقة الفقيه الأريب المشارك الأديب: أبو عبد الله محمد بن أحمد المنوفي المصري الشافعي نـــزيل مكة المشرفة، المتوفى سنة أربع وأربعين وألف، ذكر ذلك المحبي في «خلاصة الأثر في أعيان أهل القرن الحادي عشر» في ترجمته، ونصه:
ومما اتفق له أنه سُئل: هل كان النبي ﷺ يعلم السحر ويعرفه على التعميم؟
فأجاب عنه: إنه كان يعلم كل شيءٍ منه ومن غيره من غير شكٍّ انتهى.
وانظر هل أرادوا بهذه الإحاطة، وهذا العلم علوم الكائنات خاصة كما هو الظاهر المتبادر، أو ما يشمل علوم الذات العلية، كما فهمه من رد كلامهم واعتمد ملامهم، فإن كان الأول فلا ملام على ما نفصله، وإن كان الثاني فهو بعيدٌ من المقام، والله أعلم.
القول الثاني في بيان إحاطة الذات المحمدية بالعلوم الجديدة الكونية:
وممن أفتى بالثاني، وهو القول بعدم الإحاطة، من المغاربة العلامة الأشهر والمحرر الأكبر أبو علي الحسن ابن مسعود اليوسي، والكثير من علماء المغرب، وخصوصًا أهل فاس، وقالوا: إن الإحاطة بالأشياء كلها إنما هي لله، والقائل بالإحاطة لغيره إن كان يعتقد ويرى مساواة علم غيره تعالى لعلمه فهو كافرٌ، وبعض المعاصرين للتاجموعتي من علماء فاس ألف في رد كلامه مؤلفًا سماه: «المنهج القويم في قصر الإحاطة على العلم القديم».
واستدل بآيات وأحاديث ونصوص، كقول الشيخ علي الأجهوري في شرحه لمختصر خليل في باب مصرف الزكاة: إن القائل بأن الأنبياء يعلمون ما كان وما يكون مبتدع يُكفر ببدعته اتفاقًا انتهى.
قلت: وعبارة الشيخ إبراهيم بن مرعي الشبرخيتي في شرحه: ولا يعطى منها – يعني الزكاة – إجماعًا من يكفر ببدعته اتفاقًا، كالقائل بنبوة علي ﷺ وأن جبريل غلط، والقائل بأن في الأمة رسولين: ناطق، وصامت، فالناطق: محمد ﷺ، والصامت: علي، والقائل بأن الأنبياء والأئمة يعلمون ما كان وما يكون وشبههم، انتهى منه بلفظه.
ومثله للشيخ عبد الباقي الزرقاني، وأشار محشيه البناني إلى أنه وقع في كلامهم خلل وتحريف، فكتب على كلام الزرقاني ما نصه:
عبارة ابن رشد في رسم العتق من سماع عيسى: ومن يقول أن الأئمة أنبياء يعلمون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة انتهى.
أي فهذا هو الذي يُكفر ببدعته، كما في النص دون ما ذكره هؤلاء، وكيف يُقال بتكفير من

يقول أن الأنبياء والأولياء يعلمون ما كان أو يكون من قبل الله تعالى، وهؤلاء جماعة من الصحابة يقولون: إن رسول الله ﷺ أعلمهم بما كان ويكون إلى يوم القيامة.

وهذا علي ﷺ يقول كما تقدم: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به، وهو واضع علم الجفر المحتوي على علم ما كان ويكون.

وهذا ابنه الحسن يقول فيه حين قُتل: لقد فارقكم بالأمس رجل ما سبقه الأولون بعلم ولا أدركه الآخرون. أخرجه أحمد.

وهؤلاء جماعة من الأولياء الكبار أخبروا عن أنفسهم بأنهم يعلمون ما كان ويكون بإعلام الله، أفيقدر أحد على أن يسمهم بشيء فضلاً عن أن يكفرهم، إلا إن كان والعياذ بالله تعالى ممكورًا به ممن سبقت له من الله الشقاوة الكبرى والخزي الدائم؟ فالاستدلال بكلام علي الأجهوري هذا وبكلام أتباعه فيه ساقط.

ورد كلامه أيضًا – أعني كلام التاجموعتي – الشيخ أبو علي اليوسي المذكور وكان معاصرًا له – برسالة لطيفة، قال فيها:

ينبغي أن نعتقد تعظيم نبينا ﷺ ونعتقد أنه أعطي العلم والنور وسائر مراتب الكمالات اللائقة به ما لم يعط أحد من العالمين؛ لأنه خير الخلق أجمعين.

ثم نكتفي بهذا وما أشبهه، ولا نطالب بالبحث من إحصاء ما علم، فإنه أمر لا تبلغه عقولنا، وليس مطلوبًا منا، فالاشتغال به فضول من ثلاثة أوجه، ثم بيَّنها، ومحصلها أن هذا أمر غير مطلوب منا، وأنا لا نبلغ إلى إحصائه ولو اجتهدنا، وأن الباحث فيه إما أن يقع في استنـــزال صفوة الله من خلقه عن مرتبته الرفيعة، أو في سوء الأدب مع الله تعالى في تشبيه خلقه به، ثم ذكر أن القائل بالتعميم في حقه ﷺ إن أراد الحقيقي بحيث يكون علمه على حد علم الله تعالى، فلا فرق بينهما، فقد وقع في الورطة العظمى والشرك مع الله مخسرة، وما يوجد من حديث أو أثر من علمه ﷺ كل شيء على الإجمال لا يفيد شيئًا؛ لأن العمومات تقع حقيقية وإضافية بحسب صنف الوقوع.

وقد قال الله في حق سيدنا موسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 145].

ثم قال له مع ذلك: عبد لنا بمجمع البحرين هو أعلم منك.

ولما لقي الخضر قال له: يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه أنت. وقال له: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من البحر.

وقال تعالى في القرآن: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38].

وقال: تبيانًا ما لكل شيء.

ثم قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

وإن أراد الإطلاق فعليه بيانه ليستفاد الحكم على الكلية بحسبه، وإلا فهو كلام محمول لا تحصل منه فائدة.

ثم ذكر إن شئنا عبرنا في حقه ﷺ بالكلية، ولكن مع إرادة التقييد بجنس أو نوع أو صنف كأن نقول: يعلم جميع ما ينبغي لمثله أو كل ما تبلغه عقول البشر، أو كل ما لم يستأثر الله بعلمه أو نحو هذا مما نجزم بصحته ونعتقد أن كل علم قرأته نقص غير لائق به في حاله فهو حاصل له؛ لأنه في عين الكمال إلى غير هذا من كلامه، فليُراجع في رسالته المذكورة، وهي في نحو من ثلاثة أوراق، وله في هذه المسألة رسالة أخرى كبيرة لم أقف الآن عليها.

وقد أشار إليها في «نشر المثاني» في ترجمته فقال: وله كلام في كراريس مع قاضي سجلماسة الشيخ أبي محمد عبد المالك التاجموعتي في قوله ﷺ: «أُوتيت علم كل شيء» انتهى.

وممن أفتى به من المشارقة الشيخ نجم الدين محمد بن محمد بن محمد الغزي الدمشقي الشافعي محدث الشام ومسندها وشيخ الإسلام بها، والأستاذ الكبير العالم الصوفي الشهير صاحب التحريرات والرسائل التي لا حصر لها الشيخ أيوب بن أحمد بن أيوب الحنفي الخلوتي الصالحي المتوفى في صفر الخير سنة إحدى وسبعين وألف، وذلك أن المنوفي السابق لما قال مقالته السابقة، وهي أنه ﷺ كان يعلم كل شيء من السحر وغيره من غير شكٍّ. نقل جوابه هذا إلى الشيخ نجم الدين الغزي السابق فغضب غاية الغضب وقال: إنه افتراها.

قال في «خلاصة الأثر»: وأخذ النجم يقيم عليه الحدود في درسه كل ليلة ويقول: إنه إن أصر على ذلك كفر، ونطلب من أقرانه عمل رسالة على وفق مراده فامتنعوا من ذلك وقالوا: إنه أخطأ حيث قالها للعوام.

ومنهم من أحجم ولم يتكلم، وقال: قد وقع فيها خلاف وما رجحوا منها قولاً ينقل، وطال التنقيب على هذه المسألة.

قال في «الخلاصة»: حتى ألف الشيخ أيوب الخلوتي المقدم ذكره في ذلك رسالة سماها: «الصك الموني على رقبة المنوفي»، وهي رسالة جامعة لكل منثور ومنظوم، فكف بعد المنوفي عن الدرس انتهى. راجعها في ترجمة المنوفي المذكور.

قلت: ولا أدري إنكارهم عليه هل هو من جهة نسبته إلى النبي ﷺ العلم بعلم السحر، أو من جهة ما تضمنه كلامه من أنه كان يعلم كل شيء، أو من جهتهما معًا، فإن كان الأول فإنما يتوجه إنكارهم لو أراد أنه كان يعلمه بالتعلم من السحرة ونحوهم؛ إذ هذه رذيلة لا تليق بآحاد المسلمين فضلاً عن جنابه ﷺ، وليس في كلامه ما يفيد هذا أو يشعر به، أما لو كان أراد أن الله تعالى أعلمه به وبكيفيته من جملة العلوم التي أعلمه إياها وأمده بها معجزة له — كما هو المتبادر من المقام — فلا إنكار.

وقد ذكر في «الفتوحات» في الباب الثالث والسبعين ومائتين أنه اطلع في جملة ما أطلعه الله عليه في بعض الحضرات على خزائن العلوم المهلكة، ورأى فيها علومًا ما انشغل بها أحد إلا هلك من علوم العقل المخصوصة بأرباب الأفكار من الحكماء والمتكلمين، ورأى منها ما يؤدي صاحبه إلى الهلاك الدائم، وما يؤدي صاحبه إلى هلاك ثم ينجو غير أنه ليس لنور الشرع فيه أثر البتة من علوم البراهمة كثيرًا، ومن علوم السحر وغير ذلك، قال: فحصلت جميع ما فيها من العلوم

لتجنبها، وهي أسرار لا يمكن إظهارها، وتسمى علوم السر. انتهى راجعه.

وإن كان الثاني، فلا إنكار أيضًا إلا إن كان يريد العموم الحقيقي اللازم منه مساواة علمه ﷺ لعلم الله تعالى، وليس في كلامه ما يعين هذه الإرادة.

وإن كان الثالث فجوابه يعلم من جواب هذين فليتأمل، والله أعلم.

ومما يؤيد فتواهم – أعني فتوى أصحاب هذا القول الثاني – كلام عياض في «الشفا» في القسم الثالث في الباب الأول منه في فصل حكم عقود الأنبياء في غير التوحيد والإيمان، ونصه:

وأما ما تعلق بعقده يعني بجرم قلبه من ملكوت السموات والأرض وخلق الله تعالى وتعيين أسمائه الحسنى وآياته الكبرى، وأمور الآخرة، وأشراط الساعة، وأحوال السعداء والأشقياء، وعلم ما كان وما يكون مما لم يعلمه إلا بوحي، فعلى ما تقدم من أنه معصوم فيه لا يأخذه فيما أعلم به منه شك ولا ريب، بل هو فيه على غاية اليقين، لكنه لا يشترط له العلم بجميع تفاصيل ذلك، وإن كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر؛ لقوله ﷺ: «إني لا أعلم إلا ما علمني ربي».

ولقوله حكاية عن ربه: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بل ما اطلعتم عليه واقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17] ».

وقول موسى للخضر عليهما السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66].

وقوله ﷺ: «أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم».

وقوله: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك».

وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76].

قال زيد بن أسلم وغيره: حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى.

وهذا مما لا خفاء به؛ إذ معلوماته لا يُحاط بها ولا منتهى لها، انتهى منه بلفظه.

وقد ترى أنه يلزم مما قاله التاجموعتي ومن وافقه إن قلنا: أنهم أرادوا بالإحاطة الإحاطة الكاملة – وهي الحقيقية – مساواة العلم الحادث للعلم القديم في العموم، والإحاطة والمساواة فيهما تستلزم المماثلة في الحقيقة والذات، وهي مستلزمة لحدوث العلم القديم، بل ولسائر لوازم العلم الحادث من العرضية والافتقار وغيرهما، واعتقاد ذلك والقول به كفر، وممن أشار إلى هذا الشيخ الأستاذ شهاب الدين أحمد الملوي المصري في شرحه الكبير لسلم الإمام الأخضري في علم المنطق لدى قوله:

صلّى عليه الله ما دام الحجا يخوض في بحر المعاني لججا

ونصه فيه: قال المصنف يعني الأخضري وفي هذا: أي في قوله: (يخوض في بحر المعاني لججا) شبه على أنه لا يحتوي على جميع المعاني إلا الله تعالى، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا﴾ [البقرة: 255].

وقال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76].
وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].
قلت – أي: قال العلامة الملوي – وهو صريحٌ في الرد على من ادعى أن النبي ﷺ علمه مساوٍ لعلم الله تعالى، محيط بكل شيء من كل وجه إحاطة كإحاطة علم الله تعالى فإنه ما توفي حتى أعلمه الله بكل شيء.
وقد ألَّف شيخ شيوخنا العلاَّمة اليوسي تأليفًا في الردِّ على من زعم ذلك وتكفيره، واستدلَّ على ذلك بأدلة عقلية ونقلية، كيف وهو مصادم أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: 59].
وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].
وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف : 188] الآية.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34] الآية.
وعلى القول بأن الله تعالى أعلمه ﷺ مفاتيح الغيب فليس علم إحاطة كعلمه تعالى، وهو مصادمٌ أيضًا للإجماع على أن سر القدرلم يعلمه ولا يعلمه نبي مرسل ولا ملك ولا غيرهما من هو من مواقف العقول، ويلزم أن يكون علمه ﷺ مساويًا لعلم الله تعالى، ومماثلاً له في الإحاطة والحقيقة، فلزم حدوث علمه تعالى للمماثلة؛ لأنه يجب لأحد المثلين ما وجب للآخر، بل ويلزم سائر لوازم العلم الحادث من العرضية والافتقار وغيرهما، ولا يُجاب بالاختلاف بالقدم والحدوث؛ لأن القدم والحدوث خارجان عن حقيقة العلم، والحقيقة لا تختلف بالعوارض، وأما الأحاديث الموهمة خلاف تلك القواطع فمؤولة، أما عدم ادعاء المساواة لعلم الله كأن يُقال: إن النبي ﷺ علم عِلْم الأولين والآخرين فلا يمتنع؛ لأن ذلك ليس مستلزمًا لمساواته لعلم الله تعالى والإحاطة من كل وجه.
ومن أقوى ما يرد به على هذا القائل أيضًا ما ورد في الحديث من أنه ﷺ يلهم في الآخرة محامد يحمد بها الله ﷻ لم يكن ألهمها قبل، لكن شيخ شيخنا بالغ في القول بتكفيره، والذي يظهر عدم التكفير؛ لأن هذه اللوازم بعيدة لا يقول بها هذا القائل مع أن لازم المذهب ليس بمذهب، خصوصًا إذا كان اللازم بعيدًا. انتهى منه بلفظه.
وقد نقل تلميذه العلاَّمة الصبان أوله وآخره وحذف وسطه من قوله: كيف وهو مصادم أيضًا إلى قوله: لكن شيخ شيخنا وذلك في حاشيته على الشرح الصغير للملوي على السلم المذكور وأقره.
والقدر: قال الشيخ الكتاني: وفيه بحثان: أحدهما: في قوله: وهو مصادم أيضًا للإجماع على أن سر القدر لم يعلمه ولا يعلمه نبي مرسل ولا ملك ولا غيرهما، فإنه مخالف كما في نصوص الناس من أن الذي لم يعلمه ولا يعلمه أحد القدر لا سره.
قال النووي في «شرح مسلم» في كتاب القدر ما نصه:
القدر سرٌّ من أسرار الله التي ضربت من دونها الأستار، اختص الله به وحجبه عن عقول الخلق

ومعارفهم لما علمه من الحكمة، وواجبنا أن نقف حيث حُدّ لنا ولا نتجاوزه، وقد طوى الله تعالى علم القدر عن العالم، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها، والله أعلم انتهى منه.

وفي «فصوص الشيخ الأكبر» في فص الحكمة الشيثية وقوف بعض أصناف أهل الله أي: اطلاعه على سر القدر.

وفي كلام الشيخ أبي حامد في «إحيائه» أن سر القدر من الخفيات التي يعلمها الأنبياء والصديقون إلا أنهم مُنعوا من إفشائها.

وفي الفصل الثاني من كتاب «قواعد العقائد» عندما تعرض فيه لذكر الأسرار التي تختص المقربون بدركها، ولا يشاركهم الأكثرون في علمها، ويمنعون من إفشائها إليهم، وقسمها إلى خمسة أقسام ما نصه:

القسم الثاني من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها، ما هو مفهوم في نفسه لا يكل الفهم عنه، ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين، وسر القدر منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم انتهى المراد منه بلفظه.

وقال أيضًا في كتاب الرجاء والخوف عند تعرضه للسؤال عن السبب الموجب لإكرام هذا وتخصيصه بسليط لإزادة الطاعات عليه، وإماتة الآخر، وإبعاده بتسليط دوام المعصية عليه، وأنه كيف يحال ذلك على الضد والحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جناية ولا وسيلة ما نصه:

ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز إفشاؤه انتهى.

قال شارحها: وقد جاء في الخبر: القدر سر الله فلا تفشوه.

فهذا خطاب لمن كوشف به.

وفي لفظ آخر: «ستر الله». وهذا خطاب لمن لم يكاشف به، وقد نهي عن السؤال عنه انتهى.

قلت في الجامع: «القدر سر الله»، ولم يذكر له مخرجًا ولا راويًا على خلاف عادته.

وقد خرَّجه أئمة مشاهير منهم أبو نعيم في «حليته»، وابن عدي في كامله، عن ابن عمر، وله تتمة عند مخرجه وهي: فلا تفشوا سره.

ويخالفه أيضًا ما ذكره الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه «الجواهر والدرر» ونصه:

سألت شيخنا - يعني الشيخ سيدي عليًا الخواص - عن سر القدر المتحكم في الخلائق، هل اطلع عليه أحد من الأولياء المحمديين؟ فقال ﷺ: نعم، لكن بحكم الإرث لرسول الله ﷺ لا بحكم الأصالة، ولم يعط علمه لأحد من الأنبياء غير نبينا ﷺ انتهى المراد منه، وراجعه.

وما ذكره السيد الجرجاني في «تعريفاته» ونصه:

المستريح من العباد من أطلعه الله على سر القدر؛ لأنه يرى أن كل مقدورٍ يجب وقوعه في وقته المعلوم، وكل ما ليس بمقدور يمتنع وقوعه، فاستراح من الطلب والانتظار لما لم يقع، انتهى منه بلفظه.

وما ذكره القاشاني في لطائفه في ترجمة سر القدر ونصه:

فسر القدر من أجل العلوم وما يُفهِمُهُ الله إلا لمن اختصه بالمعرفة التامة، فالعلم به يعطي الراحة الكلية للعالم به، ويعطي العذاب الأليم للعالم به أيضًا إلا لمن أشهده الله عينه الثابتة؛ لأنه من أكابر السعداء، فهذا الشخص يسميه شيخنا صفاء خلاصة خاصة الخاصة، كما ذكر ذلك في الفصل الشيثي من كتاب «فصوص الحكم» انتهى.

ثم وجدت الشيخ الأكبر في «فتوحاته» في الباب الثالث والسبعين في الكلام على السؤال الثالث والثلاثين من أسئلة الحكيم الترمذي، وما سبب طي علم القدر الذي طوي عن الرسل فمن دونهم ذكر أنه ليس ثَمّ من يعلم علم القدر، وأن من علم الله علم القدر، ومن جهل الله جهل القدر، والله سبحانه مجهول، فالقدر مجهول.

قال: ولكن قد يعلم سره وتحكمه على هذا القيل المماثلة في الحقيقة والذات، وذلك أن إحاطة علمه ﷺ على تقدير القول بها عارضة وطارئة مستفادة ومكتسبة منه تعالى فضلاً منه عليه ومنًّا، فهي حادثة وهي من حيث ذاتها ونفس حدوثها قابلة لطروء النسيان والعدم، ونحوهما من جميع التغيرات، وإحاطة علمه تعالى متأصلة ذاتية، غير مكتسبة ولا مستفادة في شيءٍ، فهي قديمة ولا تقبل التغير بحال لقدمها والاختلاف بينهما بهذه الأوصاف يدل على الاختلاف بينهما بالحقيقة والذات، كما هو الواقع؛ لأن الاختلاف في اللوازم يدل على الاختلاف في الملزومات، وإن عجزنا نحن عن بيان وجه الاختلاف فيها لجهلنا بالحقيقة، وعدم علمنا بها، ولا نقول أن الاختلاف بينهما إنما هو بالقدم والحدوث خاصة حتى يُقال إنهما خارجان عن حقيقة العلم والحقيقة لا تختلف بالعوارض بل نقول بشيء آخر لا نعلمه نحن ولا نفهمه، ولا يدخل تحت عقولنا، والقدم والحدوث وإن اختلافهما بذلك يدل على اختلافهما في الحقيقة لا أن الاختلاف في الحقيقة وقع بهما كما فهم الملوي فافهم.

ومما يؤيد هذا ويرشحه ما في العهود المحمدية في عهد لا يدعي العلم إلا لغرضٍ شرعيٍّ أثناء كلام له ونصه:

ومعلوم الله هو العلم الذي يبثه في قلوب عباده، وهو غير علمه الأزلي الخاص به؛ لأن علم الخلق وإن كان من جملة علم الله، ففيه رائحة الحدوث من حيث إضافته إلى الخلق. فافهم وإياك والغلط. انتهى منها بلفظها فتأمله.

ويؤيده أيضًا ما في الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ونصه:

إن علم الأنبياء والأولياء إنما هو بإعلام من الله لهم، وعلمنا بذلك إنما هو بإعلامهم لنا، وهذا غير علم الله تعالى الذي تفرد به، وهو صفةٌ من صفاته القديمة الأزلية الدائمة الأبدية المنـــزهة عن التغير، وسمات الحدث والنقص والمشاركة والانقسام، بل هو علم واحد علم به جميع المعلومات كلياتها وجزئياتها، ما كان منها وما يكون أو يجوز أن يكون ليس بضروري ولا كسبي ولا حادث بخلاف علم سائر الخلق. انتهى منها بلفظها أيضًا.

وعليه فما ألزموه على القول بالإحاطة الحقيقية في علمه ﷺ من حدوث علمه تعالى وغير ذلك

لا يلزم.

وقد نقل غير واحدٍ عن الأستاذ الكبير، والعارف الشهير الغوث الرباني، والهيكل الصمداني شيخ الإســـلام على الإطلاق، وعلامة الزمان بالاتفاق شمس الدين أبي المكارم أبيض الوجه، محمد بن الأستاذ الأعظم، المجتهد المطلق، الولي المفسر، تاج العارفين، أبي الحسن محمد بن جلال الدين أبي الـــبقاء محمد بن عبد الرحمن البكري الصديقي الشافعي المصري قطب دائرة الـسادات البكريين، وصاحب الصلوات النبوية التي منها صلاة الفاتح لما أغلق ذات الفضائل الجمة والحاوية لاسم الله الأعظـــم المولـــود لـــيلة الأربعاء ثالث عشر ذي الحجة ختام سنة ثلاثين وتسعمائة أنه ذكر أن النبي ﷺ كان يعلم جميع علم الله تعالى.

قلت: والأستاذ المذكور كان نظير الشيخ عبد القادر الجيلاني في عصره من حيث الناطقين في الخلائق، وقد أعلمنا به فعلمناه بحمد الله، انتهى المراد منه.

فتبين أن الذي لم يعلمه ولا يعلمه نبي مرسل ولا ملك ولا غيرهما هو القدر لا سره، والفرق بينهما أن القدر صفة نفسية للذات بها يتخصص المعلوم بما يكون عليه من الاستعدادات، فهو مما لا يمكن أن يعرف، ولا أن يطلع عليه أحد بوجهٍ قط؛ لأنه لو عرف لعرف كنه الذات، وذلك محال، وسره ما هو عليه المعلوم في نفسه من الاستعدادات الثابتة في العلم، فهو مانع للقدر، وتحكمه هو حكمه في الأشياء وعليها بها: أي بما أعطته المعلومات مما هي عليه في نفسها، فهو مانع لعين الشيء الذي يحكم فيه، وعليه بما تقتضيه ذاته، وبذلك كانت لله تعالى على خلقه الحجة البالغة؛ إذ ما أعطاهم إلا ما طلبوه منه بالسر استعداداتهم، فكان إيجاده للأشياء كلها، وإفاضته لصورها ولوازمها بحسب القوابل والاستعدادات لا غير.

فإن قلت: الأعيان الثابتة واستعدادتها فائضة من الحق، فهو جعلها كذلك.

قلت: الأعيان نسب مجعولة بجعل الجاعل، وإنما هي صور علمية للأسماء والصفات الإلهية، فهي بظاهرها وأسماؤه تعالى وصفاته، غير ذاته عند العلماء بالله، وليست بشيء زائد على الذات، إلا بالاعتبار والتعقل والذات أزلية أبدية، لا تتغير ولا تتبدل، وأحكامها قديمة لا تعلل، راجع «الفصوص» وشروحها في فص الكلمة العزيزية.

والثاني: في قوله: إنه يلزم إذا قلنا: إن علمه ﷺ مساوٍ لعلم الله أن يكون مماثلاً له في الإحاطة والحقيقة، فإنه قد يُقال: لا يلزم من المساواة في الإحاطة والعموم الذي هو المدعى عن المرتبة، وهو الذي تكلم على نقطة البسملة في الجامع الأزهر في ألفي مجلس، وفي ألف التي في افتتاح الاسم الجامع من آية الكرسي أكثر من ذلك، وله مناقب مشهورة وكرامات عجيبة مأثورة.

وقد ذكروا عنه أنه بلغ درجة القطبانية العظمي وهو القائل: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله تعالى مشرقًا كان أو مغربًا، وهو لسان حال القطب الأعظم، والقائل:

تألـــت مـــرآة العـــز أن لا يرى فيها ســـوانا وجاءتـــنا علـــيها مواثـــق

ومـــا فخـــرنا بأشـــياء بقين وإنـــما بهـــا وبهـــم دارت علـيـــنا المـــناطق

والقائل:

ولم يـبقَ مـا بـين الأثير إلى الثرى مقـام ولم يـزهو لـنا فـيه موكبُ

ولـو رام قـوم قـربهم لإلههـم ولم يخدمـوا أعتابـنا لم يقـربوا

والقائل:

لـئن كـان فخـر الأقدمين صحائفا فإنـا لآيـات الكـتاب فـواتح

ليعتـز مـن يهـوي هـوانا فإننا لـنا العـز مـا غـنت بأيك صوائح

عقـم الـزمان مقـدمًا ومؤخـرًا والقائـل: عن أن تحيط بمثلي الأفاق

والقائل:

وقـام يـرقص ناسـوت الوجود بنا كـشفًا فنظهـر واللاهـوت يخفينا

والقائل:

فـإن شـئت أن تلقى المحبين كلهم فحـسبك مـن كل الورى أن ترانيا

والقائل:

وها أنت طفت شرق الوجود وغربه فـلا تلـق لي مثلاً ولا تلق لي شكلاً

والقائل:

واجمـع صـحابي والمحـبين كلهم فلـن يـروا مثلـي من الناس حاميا

فجاهـي جـاه لم يخطـر بحضرة وفي كـل وقـت يعظـم الله جاهيا

والقائل:

فـانهض إلى قـبلة العـرفان حافـيًا ومـرغ الخـد في أعتابـنا حيـنا

ونادنـا للـذي ترجوه ونـزهنا من ريـب الـزمان فـلا رد لـراجينا

انظر: «الكوكب الدري في مناقب الأستاذ محمد البكري» لأبي السرور البكري، و«عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق» للشيخ إبراهيم بن عامر بن علي العبيدي المالكي، فأشكل عليه في هذه المقدمة جماعة من المنكرين عليه في عصره وبعده، وقالوا: إنها تشمل بظاهرها جميع الواجبات والمستحيلات والجائزات، الموجودات والمعدومات، الحاضرات والماضيات، والثابتات جملةً وتفصيلاً، كما في علمه تعالى، فيلزم منه مساواة علم غيره تعالى لعلمه، وهو خلاف العقل والنقل، أما العقل فلأنه لا يتصور شرعًا اشتراك المخلوق مع الخالق في نعتٍ من النعوت بحسب الوصف الحقيقي أبدًا؛ لما يلزم عليه من حدوث ذلك الوصف المستلزم لحدوث الذات العلية،

تعالى سبحانه عن ذلك علوًّا كبيرًا.
وأما النقل فلقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] يعني ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً.
وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا﴾ [الإخلاص: 1] يعني مثلاً: ﴿أَحَدٌ﴾: أي لا في ذات ولا في صفة ولا في فعل، بل ادعاء المساواة في العلم ونحوه عدَّه جماعة من المكفرات لمن اعتقده، بل ذكر علي القاري في «موضوعاته الكبرى» أنه كفر إجماعًا.
وفي بعض العبارات المنسوبة لبعض الأئمة المتأخرين قال: قد جاهر بالكفر بعض من يدعي العلم في زماننا، وهو متشبعٌ بما لم يعط، فزعم أن رسول الله ﷺ كان يعلم الخمس وغيرها، وكل ما يعلمه الله تعالى وهؤلاء الغلاة عندهم علم رسول الله ﷺ منطبق على علم الله تعالى سواء بسواء، فكل ما يعلمه الله تعالى يعلمه رسول الله ﷺ، ومن اعتقد تسوية علم الله تعالى وعلم رسوله ﷺ يكفر إجماعًا كما لا يخفى انتهى.
وأجاب بعضهم عنه بأنه لا يدعي مشاركته ﷺ لربه تعالى في علمه الحقيقي الذاتي حاشا وكلا، ولا مساواة علمه لعلمه في الحقيقة والذات، ولا يلزم من علمه جميع علمه على ما قاله الشيخ أو غيره، ذلك لأن علمه تعالى واجب، وهو صفة من صفاته الأزلية الأبدية القائمة بذاته العلية، المنــزهة عن التغير والنقص والزيادة والمشاركة والانقسام والمحو والإثبات، وغيرها من سمات الحدوث، ليس بضروري ولا كسبي ولا دفعي ولا تدريجي، ولا مستمد من شيءٍ، بل من ذاته العلية، بخلاف علمه ﷺ فإنه جائز وليس بواجب، حادث لم يكن ثم كان، ويجوز عليه بالنظر لذاته طروء العدم ونحوه، ويُوصف بالضرورة وبالكسب وبكونه دفعيًا أو تدريجيًا، وهو مستمدٌ من الله تعالى لا من ذاته؛ لأنه بإعلامه تعالى واطلاعه، وقد قال: ﴿لا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: 26-27] وهذا رسول، بل أعظم الرسل وأفضلهم، فلا بعد في أن يطلعه الله تعالى على جميع معلوماته، ولا محذور في ذلك عقلاً، فإن الاختلاف المذكور قاطع بأن الحقيقة غير الحقيقة، وبأنه لا مشاركة بينهما في الذات أصلاً، بل بأن بينهما غاية التباين.
وبنحوٍ من هذا الجواب أجاب عن العارف المذكور الفقيه الكبير، مفتي حلب المحدث الواعظ أبو حفص عمر بن عبد الوهاب بن إبراهيم الحلبي الشافعي القاضي، المتوفى سنة أربع وعشرين وألف حين سُئل، وهو في مجلس درسه عن مقالة الأستاذ المذكور حسبما ذكره في «خلاصة الأثر» ونصها:
ومن تعليقاته جوابه عن مقالة الأستاذ محمد البكري أن النبي ﷺ كان يعلم جميع علم الله تعالى، وقد سُئل عنها في مجلس درس فأجاب بأن مقالة الشيخ هذه صحيحة، ولا إنكار عليه فيها؛ إذ يجوز أن الله تعالى يفهمه علمه ويطلعه عليه، ولا يلزم من ذلك أن يدرك سيدنا محمد ﷺ مقام الربوبية؛ إذ العلم المذكور ثابت لله تعالى، واصطفى بتعليم الله تعالى إياه، وإلى مثل ذلك أشار البوصيري بقوله:

فــإن مــن جــودك الدنيا وضرتها ومــن علــومك علــم اللــوح والقلم

وفي الحديث: «قال لي ربي ليلة الإسراء: فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: لا أدري فوضع

يده بين كتفي فوجدت بردها في ثديي، فعلمت علم الأولين والآخرين، ثم قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: في الوضوء على المكاره... » إلى آخر الحديث، انتهى منها بلفظها.

وفي شرح صلاة أبي الفتيان سيدي أحمد البدوي للعارف بالله تعالى سيدي عبد الرحمن العيدروس لدى قوله فيها: وخزائن العلوم الاصطفائية بعد كلام له ما نصه: لطيفة:

وقفت بعد كتابتي هذه التعليقة في كلام أبيض الوجه البكري تحت قوله ﷺ، فتجلى لي كل شيء وعرفته ما حاصله أنه يمكن أن يكون ذلك التجلي ما هو الآن واقع بل وقع، ثم ألقى الله سبحانه عليه أستار العزة الإلهية، وأذهب بقاء ذلك منتقشًا بصورته في لوح القوة الذاكرة النبوية أمامه لنواميس الربوبية، وإرجاعًا إلى منازل العبودية، فيكون الكشف الأول لتكرمته ﷺ، والحجب بعد ذلك لما قررناه الآن، على أننا أشرنا لعدم بقائه في الذاكرة فقط انتهى الغرض منه.

وقد ذكرني بعض الأصحاب في أنه يلزم أن يساوي علمه ﷺ علم الله تعالى إذا قلنا: إنه يعلم كل شيء. فأجبته بأنه لا يلزم شيء من ذلك؛ لأن ذلك لله تعالى بالأصالة، وله ﷺ بالتبعية، وكذا من علم شيئًا وأحاط به، فإنه بإعلام الله تعالى وتحويطه، فأعجبه هذا الجواب انتهى منه بلفظه.

وفي كلام جامع ديوان الشيخ العالم العارف المحقق شرف الدين أبي حفص عمر بن علي السعدي المعروف بابن الفارض المصري نقلاً عن الشيخ الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمرو الجعبري، وهو من تلامذة ابن الفارض المذكور، وكان معه بمصر وقت احتضاره وانتقاله إلى الله تعالى قال: كنت سألت جماعة من الأولياء عن مسألة فلم يجبني أحد منهم عنها، فسألته – يعني ابن الفارض – فقلت له: يا سيدي هل أحاط أحد بالله علمًا؟ قال: فنظر إلي نظر تعظيم لي وقال: نعم إذا حيطهم يحيطون يا إبراهيم وأنت منهم، انتهى.

وظاهر هذا حصول العلم بذاته تعالى بوصفٍ من أوصافه على وجه الإحاطة حتى لغيره ﷺ من أعاظم الأولياء والصديقين، وهو مشكل مع قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110]، وقد اختلفوا في فهمه، فمنهم من قال: إنه محمولٌ على الإحاطة الفرضية التقديرية على ما يأتي نقله عن العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني، بناء على أن وقوع هذا ممكن لا الوقوعية؛ لأنه لم يسمع وقوع ذلك لأحدٍ بوجهٍ من الوجوه، ولا في حالٍ من الأحوال.

ولكن النصوص الشرعية قاضية بالمنع من وقوع هذا وإمكانه مع ما يأتي عن الشيخ الأكبر في «فتوحاته» أنه لم يكن في الإمكان أن يخلق الله تعالى فيما خلق قوة في موجود يحيط ذلك الموجود بالله علمًا من حيث قيامها به.

وعليه فالأحسن حمله على الإحاطة النسبية المجازية، وهي المعرفة الكاملة كمالاً يليق بحال المخلوق لا الحقيقية، تعالى الله عنها علوًا كبيرًا، فإن الإجماع ممن يعتد به من المتكلمين والفقهاء، ومعهم جميع العارفين والأولياء، على أنها لم تقع ولا تقع لأحدٍ مطلقًا، ولو لأشرف الخلق ﷺ، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما يأتي بسطه إن شاء الله تعالى.

وقال بعض الإخوان في مذاكرة وقعت له معنا في هذا: إنه يمكن حمل الإحاطة في كلامه هذا على حصول الشبيه؛ إذ هي التي يقصدها الصوفية كثيرًا في كلامهم دون حضرة التنـــزيه؛ لأنه لا علم

لأحدٍ بها فضلاً عن الإحاطة، وهو كلامٌ حسنٌ.

وقال النابلسي في شرح هذا الديوان المُسمَّى بـ«كشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض» جواب آخر نصه: نعم إذا حيَّطهم بالتشديد جعلهم محيطين به علمًا سبحانه وتعالى بأن أماتهم في ظهور وجوده الحق بحيث لا يبقي منهم عندهم بقية، وتضمحل رسومهم في حقيقته النورية بالكلية، فعند ذلك يحيطون به علمًا، وإنما المحيط به مولاهم، وأما أنهم يبقون موجودين، فالوهم عند نفوسهم، ومع ذلك يحيطون به علمًا، فذلك من أعظم المحال، وليس لأحد أصلاً في ذلك مجال، ولا يتصور عنه جواب ولا سؤال؛ لأن الموجود عند نفسه قائمٍ بالوهم المجرد، فلا يعرف نفسه، وإذا لم يعرف نفسه فلا يعرف ربه، وإذا لم يعرف ربه فليس بوليٍّ لله، وهذا السؤال سؤال الأولياء لبعضهم بعض، لا سؤال الغافلين للغافلين. انتهى المراد منه بلفظه.

قلت: في شرحه اللامية نقل كلام ابن الفارض هذا ثم قال: ولا يمنع من قولهم: إذا حيطهم يحيطون قوله تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُون بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110]، وقوله سبحانه: ﴿وَلا يُحِيطُون بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255]، يعني ما لم يحيطهم فيحيطون، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

وأيضًا فإن المفهوم من قوله: إذا حيطهم بتشديد التحتية أنه إذا خلق لهم الإحاطة اللائقة بهم المخلوقة له اتصفوا بها فأحاطوا به، لا كإحاطته تعالى بنفسه؛ لأن إحاطته بنفسه قديمة، وإحاطتهم حادثة، والقديم منــزَّهٌ عن مشابهة الحوادث.

وإذا علم هذا كله فالأظهر هو تأويل كلام الأستاذ البكري أيضًا إما بمثل ما ذكره مولانا عبد الغني في جوابه أو لا عن التحييط بأن يقال: إن الحق تعالى تجلَّى عليه بذاته وأفناه عنه وعن فنائه وجميع صفاته، حتى اضمحلت رسومه، وذهبت آثاره وعلومه، وغرق في أنوار ذات الحق، فصار عند ذلك مظهرًا له تعالى، عالمًا بمعلوماته، وإنما العالم بذلك هو سبحانه لا غيره، وهذا التجلِّي كما سبق في كلام الأستاذ أبيض الوجه يمكن أن يكون ما هو واقعٌ الآن، بل وقع تكرمة له ﷺ، ثم أُلقيت عليه أستار العزة الإلهية إقامةً لنواميس الربوبية، وإرجاعًا إلى منازل العبودية، وإما بأن يُقال: إنه أراد به أنه ﷺ كان يعلم جميع علم الله تعالى في خلقه، أو نقول في مكوناته، لا أنه أراد جميع علمه مطلقًا حتى يشمل علوم الذات العلية بأسرها؛ ليكون كلامه هذا موافقًا لكلام غيره من الأولياء.

إن الله تعالى أطلعه على جميع علمه في مكوناته لا مطلقًا كما يأتي عنهم، وليسلم من الاعتراض السابق عليه بلزوم التساوي بينه وبين علم الله تعالى، وإن أجيب عنه كما مرَّ، فإن الحق الذي عليه المعول أنه لا مساواة في شيء وبين الحادث وبين القديم الأول.

وأما قوله في الحديث: فتجلَّى لي كل شيءٍ وعرفته. فيمكن تخصيصه أيضًا بالمكونات، وإذا عمم فيه فيحتمل في الذات العلية وأوصافها على ما مرَّ، أو على ما يليق أن يعلمه أفضل مخلوق، وأكمله من الخالق، والله أعلم.

وأما التكفير في هذه المسألة – أعني مسألة ادعاء الإحاطة في علمه ﷺ – فيبعد، ولا سيما في

حق من أجمل في الكلام ولم يصرح بما يفيد العموم الحقيقي والمساواة؛ لعلم الله تعالى وعلى فرض التصريح، فإنما يظهر لو ادعى أن ذلك حاصل له ﷺ من ذاته وبطريق الاستقلال، أو ادعى قدم علمه ﷺ، أو حدوث علم الله تعالى، أو تماثلهما في الحقيقة والذات، وهذا لا يدعيه أحدٌ ممن ذكر، ولا يتفوَّه به، بل ينكره أشد الإنكار، ويكفر القائل به إذا عرض عليه، فإن قيل: بعض هذا لازم من قولهم.

قلنا: لا نسلم اللزوم كما سبق بيانه، وعلى تسليمه فهو بعيدٌ لمن قال ولازم القول لا يعد قولاً إلا إذا كان اللزوم بيِّنًا، وهو هنا غير بينٍ، وحينئذٍ فلا يكفر في هذه المسألة بالنسبة لما ذكر أصلاً، فاعرف ذلك وتبيَّنه، وأعرض عما سواه، وربنا سبحانه وتعالى يمن علينا وعليك برضاه، آمين.

وأفتى بالثالث - وهو أن علمه ﷺ محيط بالأشياء ولكن لا كإحاطة علم الله تعالى — جماعة ممن نحا نحو التوسط والجمع بين النصوص والأدلة، وقالوا: إن هذا هو التحقيق وما سواه خلافه.

ومما يدل له ما ذكره الشيخ الأكبر في فتوحاته في الباب الخامس والستين وثلاثمائة ونصه:

وما ذكر عن أحد من نبي ولا حكيم أنه أحاط علمًا بما يحوي عليه حاله في كل نفس إلى حين موته، بل يعلم بعضًا ولا يعلم بعضًا إلى أن قال: فلا يعلم الأمور على التفصيل إلا الله وحده: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255] انتهى منه بلفظه.

وما ذكره في الباب التاسع والستين وثلاثمائة ونصه:

لا يعلم الشيء من جميع وجوهه إلا الله، المحيط علمه بكل شيء سواء كان الشيء فانيًا أو موجودًا، متناهيًا أو غير متناهٍ انتهى.

وما ذكره في الباب الرابع والتسعين وثلاثمائة ونصه:

ثم إنك إذا أخذت تفصل بالحدود أعيان الموجودات وجدتها بالتفصيل نسبيًّا، وبالمجموع أمرًا وجوديًّا لا يمكن لمخلوقٍ أن يعلم صورة الأمر فيهما، فلا علم لمخلوق مما سوى الله، ولا للعقل الأول أن يعقل كيفية اجتماع نسب يكون عن اجتماعها عين وجودية مستقلة في الظهور، غير مستقلة في الغنى، مفتقرة بالإمكان المحكوم عليها به، وهذا علمٌ لا يعلمه إلا الله تعالى، وليس في الإمكان أن يعلمه غير الله تعالى، ولا يقبل التعليم — أعني أن يعلمه الله مرسلاً من عباده — فأشبه العلم به العلم بذات الحق، والعلم بذات الحق محال حصوله لغير الله تعالى، فمن المحال حصول العلم بالعالم أو بالإنسان نفسه، أو بنفس كل شيء لنفسه بغير الله تعالى فتفهَّم هذه المسألة، فإني ما سمعت ولا علمت أن أحدًا نبه عليها، وإن كان فهمها مما يستصعبه التصور، مع أن فحول العلماء يقولون بها ولا يعلمون له سر كبلقيس تقول: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: 42] وهو هو. انتهى منه بلفظه.

وما ذكره في الباب الثامن والسبعين ومائة في الفصل الحادي عشر في الاسم الإلهي عند تعرضه لآية: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159] ونصه:

والسبب الموجب للمشورة كون الحق له وجه خاص في كل موجود لا يكون لغير ذلك الموجود، فقد يلقي إليه الحق سبحانه في أمرها ما لا يلقيه لمن هو أعلى منه طبقة، كعلم الأسماء

لآدم مع كون الملأ الأعلى عند الله أشرف منه، ومع هذا فكان عند آدم ما لم يكن عندهم.

إلى أن قال: وسبب ذلك قومية الألوهية ما تستحقه لما علم أن لله تعالى في كل موجود وجهًا خاصًّا، يلقي إليه منه ما يشاء مما لا يكون لغيره من الوجود، ومن ذلك الوجه يفتقر كل موجودٍ إليه وإن كان عن سببٍ انتهى.

وما ذكره العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني في «المنن الكبرى» آخر الجزء الأول في منة كثرة تصديقه للأولياء فيما يدعونه من الاطلاع على المغيبات في آخرها ونصه:

وبالجملة فلله تعالى في كل علمٍ وعملٍ وغيرهما من سائر المخلوقات علم خاص لا سبيل لأحد من المخلوقين إلى الوصول إليه؛ لأنه من صفات الألوهية انتهى.

وما ذكره أيضًا في «العهود المحمدية» في عهد أن نميط الأذى عن طريق المسلمين بعد ما ذكر أنه لا بدَّ من السلوك على يد شيخ عارف بالله إلى أعلى معرفة منه؛ لإزالة الشبهة العارضة لسالك طريق الآخرة في عقائده ونصه:

وقد وضعت في ذلك ميزانًا نحو كراسة أزلت به غالب الإشكالات التي في مذاهب الفرق الإسلامية كالجبرية والمعتــزلة، ووضعت ميزانًا أخرى تــزيل الشبه التي تعرض للعبد في طريق المعرفة بالله تعالى، حاصلها أن الله تعالى لم يكلف عبدًا بأن يعرف الله تعالى كما يعرف الله نفسه أبدًا، وإن لله تعالى بنفسه علمًا اختص به لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ لأنهم لو علموه لساووه في العلم، ولا قائل بذلك من جميع الملل فضلاً عن دين الإسلام، وذلك أن الله تعالى لا يتحد مع عبده في حدٍّ ولا حقيقةٍ ولا فصلٍ ولا جنسٍ.

فرد يا أخي جميع ما ورد في الآيات والأخبار من التنــزيه إلى مرتبة علمه تعالى بنفسه، ورد جميع ما ورد في الآيات والأخبار من الصفات التي ظاهرها التشبيه إلى مرتبة علم خلقه تعالى به، فما أحوج الناس إلى التأويل إلا ظنهم بأن الله تعالى كلفهم بتعقل مرتبة التنــزيه التي لا يتعقلونها، وإلا فلو علموا أنها خاصة به تعالى ما أولوا شيئًا، وكان يكفيهم الإيمان بأنه ليس كمثله شيء انتهى منه بلفظه.

وأفتى بالرابع – وهو التوقف – جماعة من المتورعين ممن تعارضت عندهم الأدلة في هذه المسألة، ولم يقفوا فيها على نصٍّ غير محتملٍ يقطع النــزاع ويرفع الخلاف.

وقالوا: إن القطع فيها بأمر يخاف أن يوقع في أحد شيئين: إما في استنــزال سيد الكائنات ﷺ عن قدره الرفيع، وجنابه العلي المنيع، وإما في سوء الأدب مع الله تعالى بتسوية بعض مخلوقاته به، وذلك أيضًا يسوء المصطفى ﷺ ويؤذيه، ولذا حذر من مثله في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله».

وحينئذ فالتوقف وتفويض الأمر إلى الله تعالى فيها أولى وأسلم في عاقبة المرء، ورد الأمر إلى الله تعالى في مواطن الاشتباه من العلم، ومن الرأي السديد في الدين.

هذا مع اعتقاد أنه عليه السلام نال من ربه المكانة التي لا مكانة فوقها، والرتبة التي لا يمكن أن ينالها بشر ومخلوق سواه، وأنه سيد الكائنات، ومفخر أهل الأرض والسموات، ونقطة الكون، وعروس

المملكة، وأصل الوجود، ومادة كل موجود ﷺ، وممن نحا إلى هذا صاحب «نشر المثاني في أهل القرن الحادي والثاني»، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري الحسيني الفاسي، وذلك في ترجمة التاجموعتي بعدما ذكر كلامًا له في هذه المسألة يصحح فيه رأيه فيها ويرد القول بخلافه ونصه:

ولا خلاف بينه وبين من حاجه من أهل فاس في أنه ﷺ يعلم كثيرًا من الغيب مما يتعلق بالدنيا والآخرة، ويعلم جميع ما دلّت على علمه هذه الأحاديث -: أي المذكورة في كلامه - وأكثر من ذلك؛ لأنها لا تدل على الإحاطة بالمعلومات، ثم قال: وإنما نـزاع من نازع في القدر الزائد على ذلك، والله أعلم.

ثم الإمساك عن الخوض في هذا الزائد أحسن؛ لأنه لم ينقل لنا كلام عن أسلافنا فيه، والله أعلم، مع اعتقاد أنه ﷺ بأعلى درجات الكمال في الدرجة التي لا درجة فوقها، وأنه ﷺ سيد الأولين والآخرين، ولا يعلم قدره إلا خالقه رب العالمين، قال في «محصل المقاصد»:

نبيـــــنا أفـــــضل بالإطـــــباق ... مـــن كـــل مخلـــوق علـــى الإطـــلاق

فهذه أقوال أربعة، وهي وقفنا عليها لساداتنا العلماء رضوان الله عليهم في هذه المسألة، والأخير منها وهو الوقف أحوط وأورع وأسلم، والثالث بالتوسط أحسن وأبين وأقوم، والثاني بعدم الإحاطة لأحد إلا لله تعالى أجرى على ظواهر أكثر النصوص الشرعية وأوفق، بقاعدة سد الذرائع المرعية، والرابع بالإحاطة محتمل لوجوه:

أحدها: أن يريد قائله الإحاطة الحقيقية الكلية في كل شيء حتى في الذات العلية، وهذا هو محط التهويل والإنكار، ومحل اختلاف الأذهان والأفكار.

الثاني: أن يريد به الإحاطة المجازية الإجمالية دون الحقيقة التفصيلية، وهذا يرجع للقول الثالث.

الثالث: أن يريد به الإحاطة الإضافية باعتبار نوع أو جنس من الأجناس الكونية، إلا أنه لم يقع منه له بيان اتكالاً على الأذهان، ولا بدَّ حينئذٍ من معرفته؛ ليقع الحكم بحسبه على كليته، وإلا فهو كلامٌ مجهولٌ، لا يرجع منه إلى شيءٍ محصولٍ، ولكل أناس مشربهم، وكل وما اختار بحسب ما أودعه الله في قلبه من الأنوار.

قال تعالى: ﴿كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20].

وقد بقي في المسألة قول آخر خامس لم يذكره أهل الظاهر، وذكره جماعة من الأفراد الأكابر، وهو أن علمه ﷺ يحيط بجميع المكنونات، وسائر ما أوجده الله من الذوات، فالذوات من الأزل إلى الأبد عرشًا وفرشًا وما فوقهما وما تحتهما وما بينهما لا يشذ عن علمه شيء من ذلك، ولا ما يعرض له من ابتدائه إلى انتهائه، وأما الذات العلية وأوصافها وأسماؤها فما حصل له ﷺ من العلم بها لم يحصل لبشرٍ ولا مخلوق سواه، ولم يشم أكابر الأنبياء والرسل والمقربون من الملائكة رائحته، فضلاً عمن دونهم.

وأما معرفة كنهها أو الإحاطة بها أو بشيء مما لها فليست لأحد أصلاً، ولا مطمع لمخلوق فيها

فهو يكشف له أنه عين المعنى المجموع الذي إليه تصل العناية العلمية والعملية، ومع كل محمود محترم يشار إليه فهو الذي أحاط بها، وجميع ما تفرق في الأنبياء اجتمع به، وله ولأمته وفي مِلّته ﷺ.

وأمَّا النور الخامس والعشرون: وهو (نور الحَصْرِ)؛ فهو النور الذي يكشف له عن الخواص عن المراتب، وعن المنامات حتى عن أقصر ما يمكن، فإذا قدرنا أنه نالها لا يجد أحد بعده ما يطلب،مثل ما تقول يتيمة الدهر عند الملك لا يملكها أحد معه، كذلك القول فيه، فله الوسيلة والدرجة الرفيعة، فهذا هو الحصر، فإنه الذي ملك الأوفى من الكل.

وأمَّا النور السادس والعشرون: وهو نور (العلامة والدلالة)؛ فهو الذي كشف له ﷺ صورة منتظرة ومعتبرة، فإن الكتب نطقت به، وكذلك الصنائع العلمية كلها حتى الكهانة، ومن علاماته أيضًا ﷺ ما ظهر عليه ﷺ حتى خاتم النبوة الذي بين كتفيه ﷺ، وما كان قط لأحد، ثم علامات صدقه المتأخرة، وهذا يكشف له أنه كذلك وحده، ومما ينبغي أن يُقال لأهل الكتاب هذا نبينا ﷺ قد أخبرنا عن أمور قد ظهرت بعده، حتى إن من بعض أتباعه لو تحدَّى بها لم يعلم حدود رسوله، وجد الصواب في قطع الخصم، وأنتم ما الذي أخبركم به هذه أنواره.

وأمَّا النور السابع والعشرون: وهو (نور الخصوصية)؛ فهو الذي يكشف له أنه لا مقام أمامه، ولأمر ما بعده، والسعادة الإلهية، فإنه نال ما منعه الغير في السعادة.

=

بوجهٍ من الوجوه، ولا باعتبارٍ من الاعتبارات، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومستندهم في هذا الكشف والبصيرة، وما أمدَّهم الله به من الفراسة وصدق السريرة، مع ما يؤيد ذلك من الأحاديث والأخبار، ويؤكده من الإشارات الجليلة المقدار.

وقد خرج أنها أقاويل خمسة، وأن الثلاثة المتوسطة منها مقبولة عند العلماء، والأول مردود عند أكثر العارفين والفقهاء، والأخير هو المعول عليه عند كثير من أهل الله، كما يأتي بسطه بحول الله.

وإذا تقرَّر هذا وعلم، وتأمل وفهم، فلنشر بعده لما عثرنا عليه في المسألة من الآيات والأخبار والآثار، وما يتعلق بها من كلام الأئمة النظار، حتى تتبين أدلتها وتتضح لكل ذي بصر محجتها، وتــزداد الأقاويل بها بيانا والقوة فيها قوة وبرهانا، ونختم بكلام أهل البصائر من الأولياء والصلحاء الأكابر؛ لأن كلامهم في هذا الباب هو الذي عليه المدار، وهو أولى بالاعتماد عليه والتعويل والاعتبار؛ لصدق فراستهم ونورانية بصيرتهم.

وأمَّا النور الثامن والعشرون: وهو نور (الخير المحض)؛ فهو الذي يكشف له عن كمال ما ظهر منه وما بطن له، فإنه في نومه معصوم الخيال، وفي ذلك العلوم، وفي قيامه ويقظته لا ينطق عن الهوى، وفي عقله فلم تغلب قط شهوته عقله، فإن عَلِمَ الكتاب والفضائل على ما ينبغي، وعلم إذا أفرط في ذلك حتى قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: 34]، قيل من السُّنّة.

وأمَّا النور التاسع والعشرون: فهو (نور اللواء)؛ وهو النور الذي يكشف له أنه ينشر بحده في القيامة.

وأمَّا النور الثلاثون: وهو (نور الانفراد)؛ فهو الذي يكشف أنه ﷺ خبر متبوع، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، فمتبوعها خير متبوع.

وأمَّا النور الواحد والثلاثون: وهو (نور العبودية)؛ فهو يكشف له عن الإضافة الخاصة التي هي نفس المنعم فقط، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ [الإسراء: 1].

وأمَّا النور الثاني والثلاثون: وهو (نور التزكية)؛ فهو يكشف له كونه ﷺ حجة الله على العالمين.

وأمَّا النور الثالث والثلاثون: وهو نور (المكانة الكبرى)؛ فهو الذي يكشف له عن جلاله ﷺ في التكميل، وفي التحديد، وفي التتميم وعوالم غير هذه، ومعنى غير هذا كله، وأيضًا كون بعض أمته يتجلّى له الله خاصة، وللناس عامة، وهذه مرتبة أعلى مما ذكر؛ وبهذا يكشف له ﷺ عن أمر ما عند العقول منه ما تفرض مقدمة، ولا تضع قضية، ولا تنقل مخاطبة صناعية، وهنا يجب الإمساك عليه، فاعلم ذلك كله، وكيف كشف له حتى إن أمورًا قل وجودها في الملائكة فكيف في غيرهم؟

وهذا كشف لنا أنه في عوالم غير هذه، وبقي في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

فاعلم، ولا تقل يا من هو من أهله: إلا أنه هو النور المحض، وله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كملت والحمد لله رب العالمين[1].

* * *

(1) وانظر: كتابنا شرح أنوار النبي ﷺ لابن سبعين، أنواعها وأسرارها.

بسم الله الرحمن الرحيم

وله ﷺ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وسلم كثيرًا

الله فقطْ: خطاب الله بلسان نوره الرابط، المدبر، السامع، المنظور، الممتد، المنحصر، الواقف، الراجع، الظاهر بهذا كله في الضمائر والهمم، الكثير بحسبها، وبحسب إدراكها وأنصبتها وحظوظها، الواحد الثابت لذاته من ذاته من حي قسمة الوجود.

وقصدنا ذكر الغايات، ووقوعها في النفوس من غير متابعة أوهام العادة، وتعليل علومها، وتحرير القول الذي يعصم من اعتراض أهلها.

ومن تخليطهم قال الله تعالى: «أصبح من عبادي مؤمن بجلالي وكافر به»[1].

فالمؤمن من قال الله ولا شيء معه إلا الذّوات المتعلقات الموضوعة الراجعة إلى استحقاقه الذي يلزم في أولها وآخرها، وظاهرها وباطنها، الناطقة المخاطبة بما يجب لجلاله لمَن علم عنه به له من غير بحث يغاب يوم البعث؛ بل بحث عَرِيٌّ عن شوائب الوسائط القاتلة لشخص الكمال، يُذَكِّر نفسه بعلوم عالمها المفارق الكريم، ويتصفها بذلك، وتنصفه هي بالتشبه والرجوع إلى معناها العزيز إن صح أن يُقال على جهة المجاز لمَن أخبر عن ماهيته، وعن أجزاء كمالها المنبعث فيها لها رجع إلى معناه.

وهذا المؤمن هو الذي يضع الحق، ويقوله، ويجده صحبة ذلك، وهذا الإيمان هو الذي يكفر به الزاني إذا أوقع المعصية مع قيامه به، ويزيد وينقص، لا على الوجه الذي يريده المحدث، ولا يعترض عليه باعتراض المتكلم، ولا هو التصديق المفهوم عند بعضهم؛ بل هو الشطر الأكبر من السر الأرفع، وبالعرض وقعت المرافقة في الاسم، وبالذات هي المخالفة في الحدّ والرسم.

وهذا القول الذي قيل فيه: هو خطاب الله هو من قبيل قول المعصوم الواحد في كماله الشرط في نيل سائر الكمالات، حيث قال قال الله: «أصبح من عبادي»[2]، الحديث، فإن النطق الذي ينبعث على التعبير والصيغ منوطة به، وهو لا يتقدمها، ولا يتأخرها، وجملة ذلك في النفس على جهة الخبر؛ هو الذي منع أن يتعرض إليه في الاشتراط.

وهو الذي إذا انضاف إليه الوجد الماحي للعادة الخبرية في المحل المستند لا إلى معين، يُقال له: كذا وكذا، وأكثر من كذا، وإذا ترك على حاله البسيط، وبحسب القول نسب

---

(1) رواه البخاري (290/1)، ومسلم (83/1).

(2) تقدم تخريجه.

بحسب ما سمعت وعلمت ووجدت.

وقد خرج بنا الكلام عن الأسلوب الأول، ولم نخرج من المقصود النافع فنرجع إلى ضد هذا المؤمن، فنقول: والكافر هو الذي يقول ضد ذلك، ولا يجد من نفسه أن يكون كذلك، فاعلم.

واعلم أن جوهر النفس بما هو هو يعشق الجلال[1] ويجده، ويجد الانبعاث إليه غير أنه عدم التعيين قطع به؛ نعم، ويعلم النسبة الكريمة على العموم، ويجهل الحكم، ولذلك يعظم الخسيس الخساسة في بعض المواضع، وهو في ذلك على الأصل لا على ما يحب، أو يحمد، ومع هذا يحمد بلسان النسبة في كونه يحب التعظيم، ويعلم المعظِّم والمعظَّم، ويذم لكونه ما هو ذلك، ولا عمل على ذلك، فهو يعلم من وجه، ويجهل من وجوه، وذلك لأجل علل عديدة: منها الأجسام، ولواحقها، وقواها المتوسطة الطبيعية، والمشتركة بينها، وبين العقل الهيولاني، والنفس الحيوانية صراط لا يقطعه إلا السعداء، والنباتية، والمنجرّة المتطوِّرة التي أخبر عنها القرآن العظيم.

وبالجملة القوى الجسمانية والطبيعية والروحانية، والعادة المهلكة، والمذاهب المُبْعِدة، والكل، والملل، والخسوف، وفساد التوجه، وعدم المرشد، وقلة المساعد.

جميع ذلك كله من أجزاء ماهية القواطع لها، فالسعيدة هي التي استجابت إليه، ورسوله في وقت الدعوة؛ لأنها وردت بالأدلة الأصلية الواقعة في فص النفس المناسبة لها الصادرة من عالمها الصحيح النصيب السالم من كل الجهات، الآخذ عن الله من غير شيء مشغل غريب؛ ولذلك يحمد الأمر الغريب هنا، ويذم في ذلك العالم؛ لأن الخير عندهم هو

---

(1) إن الجلال حضرة لائقة بالمشاهدة لأنه اسم ظهر الله به مخصوصاً بالثنوية وهو تمكين اسم الجميل فتظهر عليه صفة في حال الناظر والمنظور ليحصل له هيبة وخشوع مع محبة فالجميل للمحبة، فلما رفع المحب إلى مقام أعلى من موطن المحبة الذي هو الظاهر. فازداد الاسم صلة بغير زوال عينه، ولما كانت هذه الصفة لائقة بالمشاهدة وهي الجلال خرج الشاهد في شهوده من مقام إلى مقام لأنه لا يتغير عليه صفة إلا بخروجه من محله في شهود واحد، فالجلال مختصة بالله دون الجميل وغيره لكونها تنشأ عن التعظيم وكل تعظيم ناشئ عن عظمة الله تعالى، وإذا حصل للشاهد شهوداً في خلع واحد يكون هذا الشهود أشد تمكيناً من الشهود الواحد، والتمكين عبارة عن الاستعلاء لكن الاستعلاء على ضربين: استعلاء وصف واستعلاء معنى، فالعارف الكامل له استعلاء الوصف ويتعالى عن استعلاء المعنى إذ استعلاء المعنى هو على بني الجنس بشرط الاستقلال لجهة دون جهة، والعارف لا جنس له ولا حصر فيحل عن هذا المقام المعنوي، ولما كان هذا العارف متصفاً بالاستعلاء اتصافاً فأخرج من مقام الشهود إلى مقام الجلال.

الذي فطرك عليه، ولم يعقد قط منهم، ولا منه عن العالم المفارق، وسائر الذوات المفارقة.

فإذا بلغت النفس السعيدة دعوة الله في الأرض أجابتها بماهيتها من جهة الوجود لا أنها سمعت ففهمت فحكمت فقبلت، وهي دعوة الله الصحيح التي لا يصحُّ من صاحبها الفِكْر بوجه من الوجوه فإنها ماهية، وتغيرها من جهة وجودها أوكونها ذاتًا لمضافها، لا يمكن ارتفاعها قط في الوقت الذي يُشار إلى مجموع ذلك، ويعلم بقيد الوجود أعني: الإنسان بما هو إنسان، وقد يتغير المحلُّ من جهة الأمور الطارئة عليه، وتغير الصفات وتبدلها لا يناسب تغير الذات.

ولا يُقال عليه هذا القول، فإن الموضوع إذا ثبت؛ جاز تبدل الأعراض عليه، وإذا كان الأمر بالعكس عدم الجميع، وكذلك النسيان لا يصحُّ من هذا المدعي، فإنه لا ينسى ذاته وجميع ما أشبه ذلك هو كذلك، وأي شيء أكبر من هذه الدعوة العزيزة؟ فمَن جاء إلى الله بهذه الماهية؛ جاءه الكمال بالضرورة صحبة ذلك، فإنه إذا كان الإيمان شبه طبيعة المؤمن، والإيمان هو الشرط، والمقدمة الصادقة، وقد كان المطلوب كما ذكرنا؛ لأن الجوهر المفارق من صفة نفسه تحت ربه الأعلى، وما منعه من ذلك في الكافر إلا الحامل القاطع المهلك.

فدعوة النبي جاءت تطلب الضرورة من الكامل لا لأن تذكره فقط؛ بل لأن تعلمه ما بعدها، وتستريح به نفوس الممجدين، وجاءت تذكر الجاهل المشتغل بغير إنسانيته، ويكون عليه حجة بعد ذلك، والله يستعان على ظلم عالم الطبيعة، فكان على ظلم النفس لذاتها؛ لأنها حرمتها عالمها الذي معرفة الله فيه طبيعة أهله، ومَن نظر هذا النظر في النفوس يعتقد بحسبه رحمة الله في الآخرة بعد حين للعام والخاص، فإنها وإن كانت شريرة، فقد تجردت هناك، وكانت مع هذا التجرد تفعل بحسبه ومفهومه، ليس إلا الحب والعلم، وطلب الأولى.

وإلا فلا يُقال مجرد فإن القائل: «النفس تجردت» إن أراد أن جوهرها خدم الجسم، وهو متصل بها فلا عِلم له نعم، ولا عقل مستفاد، وإن أراد بالتجرد الخلاص من المشغل وترك استعماله، وذلك المشغل خارج عن النفس بالحد والرسم يلتزم ذلك كما قلناه، وقد ذهب إليه بعض المرجئة والرحمانية، وبعض أهل التصوف، ويوافق بعض الفلاسفة في ذلك ولولا خوف التطويل كنت نعرفك ذلك كما يجب إلا أنه يُقال للمتكلم بهذا، والقائل به وهو من المتشرعين بالوجه الذي يعتبر بعض اعتبار الأشياء راجعة لإرادة

الفاعل المخصص الذي جعل ذلك فيها بحسب دار، ومن أجل دعوة وشرع خاص، ومنع أن يكون في غيرها هذا الأسلوب، وفي غير هذا الأمر المذكور، وفي غير هذه الدعوة، وللدار سعادة ترفع، أو رحمة ترجى، أو عمل صالح يصلح لطاعته، ويعضد ذلك بالإجماع؛ بل بنص رسول الله ﷺ، بل بنص القرآن، فاجتهد، ولا تركب الخطر، وتزوَّد بزاد التقوى، وتوجه إليه بالذي دلك عليه، وأهمل جميع المطامع بالجملة.

ويُقال له هو أيضًا: إن ثبت حب الله فقربه هناك بالقوة في وقت الفصل، وبالفعل بعده فإنه نعم الشفيع والكريم لا يتعب حبيبه على الإطلاق، وقد شاءت الحكمة أن يُقابل الظاهر بالمثل، ويُقابل الإحسان بالإحسان، وإن سلم للمتشرع أن الإرادة صالحة لأن يدخل المحب النار، وضده الجنة، يُقال له: أراد الله في السُّنَّة الإلهية المتقدمة التي منها السُّنَّة المتأخرة، وتبدل بها الشرائع أن حبه لا يقوم بشقي، فاجهد على حبِّه، فَوعِزَّته ما تشقى به؛ لأن الحكمة إن درجت مع الكرم والحلم والتنبيه الذي جاء، وسريرة الانفطار، وحكم المضمار بالأُنس وبالعافية بعده، وبالرضوان معهما؛ إلا أنه هنا دقيقة إذا أراد ذلك حجبهما، ومنعها الشعور حتى هناك، فكان الأمر كما تقدم.

وبعد هذا كله أحرم الناس من فاته من الله ساعة في الدنيا فقط في وقت فقط، فكيف والأكثر في الدنيا، والبعض في الآخرة؟ هذا إذا صحَّ هذا البعض أو يسلم القول فيه، فكيف المفقود من كل الجهات؟ وإن سلمنا الرحمة فما سلمناها في الماضي منها الخارج بالجملة عن جلال الأُنس.

واعلم أن الحرمان عبارة عن فقد الأُنس بالله، وسلب الاتصاف بمدلول الرضا، وبُعْد المحل عن الاستعمال الذي لا يمكن فيه ظهور نعمة الله على الرجل.

وقد حادَ بنا متابعة المعاني عن طريق المقصود، وبتلك الحيدة سلك العقل على جادة المقصود الثاني، ونبّه على نهاية الأولى، وجاء من تلك الحيدة الأولى، والاستعانة الثانية صراط الخواص، ولولا ذلك لكان صراط الأبرار، وأعوذ بالله منه في هذه المقام، فنعود إلى ما كنا بسبيله من جنس ما نحن عليه، فنقول: الإيمان إيمان الماهية، والنطق الصالح: هو نطق الوجود، والدعوة التامة: دعوة الباطن الظاهرة على الظاهر[1] بالحقيقة الباطنة عن

(1) قال سيدي علي وفا في المسامع: الظاهر عنوان الباطن إذا كنت في مكانٍ واسعٍ، بحيث تتصرف حسب اختيارك، وتأنس وتستريح، وخرجت منه إلى ضده، فقد أخرجتَ نفسكَ من ذلك الوجد أو مظنته إلى ضده، مثال هذا: أن تكون في وطن أهلك فتخرج تسافر متغربًا لا لمعنى، فانظر كيف تصير قلقًا خائفًا على رحلك، محبوسًا في مسلكك، محصورًا في ضيق محلك، واحذر أن
=

الوهم بالمحان، فاطلب الأمور الذاتية بالنظير، وحرر القول في الكل بالعين، وعَوِّل على الوجه الغير بالشعور الخلاف بالعلم المثل بالحال البعيد عن ذلك بالإلزام القريب منه بالدليل الجميع بالمجموع؛ بل الفرد بالفرد، بل البُد المفروض الذي لا ينسب، وكل الأشياء له ومنه، أو هو، أو كذلك بتشكيك، أو قريب من ذلك بنوع من أنواع الصفح، أو هذه، أو هذا، أو هو، أو ما في الصدور، أو الذي إذا نظرت في المكتوب أجابك، وكان جوابك.

وحاصل ذلك كونه ماهية أوهم الوهم فيها الاشتراك، وبسطها حيث قبضها، وغيبها حيث أظهرها، فكان من ذلك نكته صقيلة، وضد ذلك؛ فكان ويكون والكائن، ومفهوم ذلك المظاهر والمراتب والأسماء والمُسمَّيات والقوانين، وحاصل ذلك لواحق الذات وكلامنا وهم على وهم.

شرح: حقيقة الماهية صورة علمية ظهرت الذات بحسبها، فظنَّ أنها ذات أخرى، وإنما هي مظهر للذات، ومرتبة فقط، والذات بها، وبأمثالها ذات فقط لا زائد، وهي بدون الذات لا شيء أصلاً، فأين الاشتراك؟ ومعنى بسطها حيث قبضها إنما ذلك لما ظننت أن لها في البين وجود ما تماثل به الذات في الوجود، وتشاركه فيه، فتقول: أنا عينٌ موجودة انبسطت بذلك، وادعت الظهور، فكان ذلك عين قبضها؛ لأن الحقيقة أن الظاهر الموجود إنما هو الذات بحسب مظهر مظهر من صور علمه، فهو الظاهر والصورة له، والعكس وهم لا أصل له، فمَن عرف الحقيقة كان له في البين شيء ما وهو ظهور الذات بحسبه، فتلك الحسبية مبسوطة بهذه المعرفة.

ومَنْ جَهلَ الحقيقة، ورأى أنه هو الظاهر الموجود؛ فقد قبض من هو الظاهر الموجود حقيقة، وبسط نفسه التي لا شيء لها من نفسها إلا بما هي أمر ما فيه، فإذا قبضت من هي أمر ما فيه منه؛ فقد انقبضت هي، وإذا انبسط من ظهر بحسبها، ولا شيء لها هي في ذلك سوى تلك الحسبية، فقد انبسطت هي من تلك الحيثية.

وكذلك الغيبة والظهور: إذا غابت الذات بظهور الصورة وهمًا؛ فقد غابت الصورة بتبعية غيبة الذات، وإذا ظهرت الذات بتلك الصورة حقيقة؛ فقد ظهرت الصورة بالتبعية، فهذا معنى غيبها حيث أظهرها، وقبضها حيث بسطها، والله أعلم.

= تكون في المعنى كذلك، أما إذا كانَ لمعنى قسم الخياط مع المحبوب ميدان، ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ [الإسراء: 37]، وقِسْ على هذا.

هو مع كل شيء، ولا شيء معه، هو عين كل شيء، وعين ما ليس بشيء، وأجمع الأشياء إليه ولا تجدها معه، ا، ه، ا، ع، ه، ذلك فقط لا شك في ذلك عزٌ على إهانته في بعض الأوهام المتخللة المنحطة المنجرّة نعمة الله المشار عند الخاصة إليها، والمعول عند جميعهم عليها، لا تصح صحبة الأوهام المتخللة الصادرة عن المألوف الأكبر، فكيف بالاستناد إلى خساسة أخس المظاهر؟ فاعتبر يا أيها المعتبر، عند المعتبر لا يحمد الحال حتى يصح الخبر، والسلام عليك الأول، وعليك الآخر، وعلى الذي علي ورحمة ذلك بذلك، وبركاته به، ومنه، وعن نصيبه جملة صحيح حالها، وحدة وواحد صحيح حاله جملة، ووحدة صحيح حالها جملة، وواحد ووحدة لا تخبر عن فعله تفعل، ولا تعلم غير ذاته تعلم، ولا تعتبر غير معتبر تعتبر، ورحمة الله هي الله، وإن كانت المألوفة، قل أعوذ بالله منها، والسلام مُعادٌ على ذاتكم المجتمعة من ذلك، ورحمة الله وبركاته.

وله ﷺ: القرآن وصية جاد بها الوجود على العموم.

الله فقط: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: 1] 5/ح/ع/ يا مَن سخر الله له خاطري، قد استخرت الله العظيم على فكّ رموز كلمات الضمائر، وإفشاء أسرار مهمات السرائر والبشائر، وادفع ذلك المجموع المحرر لمجموعك الظاهر الصادق الموقر، وشأنك، وما أنت به، وعلوم التحقيق منك ومنها، والله يسهِّل عليك، ويدفع الأسرار المضنون بها عليك، ويحمل ذهنك على صراط الوفا، ويسقيك من سلسبيل الصفا، والخاطر الكريم في ذلك أحكم شاهد بصدقة، وأفضل عالم بوجوب حقه، وكل طبيعة زكية من كريم رفده، وعظيم مجده.

وإذا علمك الله، وأرشدك إلى دورة مناره صحبة إشراق نوره، وكيفية ناره، وعصمك منْ بُعْد الشقة، وعظيم الأمر والمشقة، وظهر لك الأمر الذي لا تستطيع على إيراده؛ لأنه لا يتكيف له حدٌّ، ولا يُوصف له عَدٌّ، فابشر بالقوانين التي نالها أهل الله قبل الفترات الكونية فافهم، مَن هم، وما نبهت عليه، وإذا حاسبت فهمك، ووجدته لم يخنك في متحمل مواهبك تلك وحفظها، وماكع عن قليلها وكثيرها.

ثم تجد مع ذلك الروح الكلي خلفه يتعلق به، ووجهه يقابل مرآة أمله في الله، وأمله ذلك بنصرة الرضوان والتخصيص، فاغتبط به، واجعله طبيب مرض الشبه، وأرسله إلى حضرة التقديس حيث تنال مرتبة الشبه، وتركيب كمالك به، قد جاز عقبة القبور، وجميع ما يحتاج إليه الكامل غير محجوب، ولا مستور.

وبعد هذا المعين يرتقب الوقت المحمود الصفات التي تجتمع من أجزائه الدهر الكثير

الالتفات، ويكون ابتهاجك به ابتهاج العليل بالشفاء عُقَيْب الإشفاء، ومن الاستعداد المتحسن الظفر بالقديم الذي تطلع بمنادمته أهلة الزيادة والبدور، ويعين على إخراج ما تكنه الضمائر والصدور، وتتحفظ به الأوامر صحبة تلك الأمور، وهو الذي إذا غبت عنه قلبت بذكر قلبه، وتعرضت بخيالك عينه، وأسمعت بهاتف مودتك سمعه، وهو الذي يسفح على أثر الأحبة دمعه، فإذا أحسن الله بك إليك؛ أحسن أنت في حفظ ما أنعم الله به عليك.

وقل: الحمد لله على نعمة الموافقة، وحكمة المصادقة، ثم قل: أعاذ الله المساعد من كل عرض ومرض، وأنهض حضراته بما سمى وفرض، وعامله بالجد الصاعد، والسعد المساعد، والنصيب الزائد، والسلامة من القول الحائد، عن الفائد.

ومما تحتاج إليه أيضًا وظيفة الصوم في أكثر ليلك، وفي أكثر ذلك اليوم، فإنه يجفف رطوبة الأسباب القاطعة عن وجه المطلوب، ويلين يبوسة الأحوال المانعة من الشأن الموهوب، وتقل حركة القوى الهيولانية، وتستقيم الروحانية، فتركد الحواس الخمس، وينام الجسم، وتستيقظ النفس، وتعمل ما يجب على ما يجب في الوقت الذي يجب، وتعلم الإخلاص حكمة، ووجوده نعمة متعدية، وهو رأس الفضائل الإلهية، وهو أسُّها ومقوِّمها وإفراده، وتجريد الضمير به إلى جهة الله خاصة صورة متمِّمة، وبه يفارق المحقق العالم المجموع الكثير الكليات الطبيعية والعقلية والمنطقية في واحد، ويجد الحد المنتظم في شاهده وإذا استعمله السالك على جادة المخلصين؛ تتحدث الجلالة بمناقبه التي اشتهرت اشتهار الصباح، ومكارمه التي عمت كل سقع عموم المطر، هبت به هبوب الرياح، وذلك لما يجعل الله فيه من الفضائل البسيطة الخالصة العَرِيَّة من شوائب الاحتمال المقدر في مجموعها الذي لا يصحُّ به صدق التحدي، ولا يمكن فيه فعل التعدي، ويكون واحدًا؛ لأن مفهوم ما هو بسبيله ماهية الوحدة والتوحيد، والله لا يتكفل إلا لمَن هو معه، وهو أيضًا به ومعه، الله يحرر لنا هويته عندنا فإنها حرة بالنظر إلى ذاته، والحمد له وحده.

الله فقط: بعض أهل الله، كما قال الله: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، والخلفاء لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، وعباد أسراره لا يطلق هذا عليهم؛ لأنه إليهم، وأهل الحق منهم الخوف وفيهم، وكذلك الحزن.

ومن أقامه الله في مقام المظاهر، ولم يفطن لذلك هو في مقام الرضا، ومن أقامه في ذلك، وهو يجد ذلك، هو المظهر الذي ينحط الكون من سمائه إلى أرض عالم الكون؛ ولأجل ذلك يقول بعضهم: «ما يفعل الله شيئًا حتى يعرفني به»؛ لأنه المظهر الكريم

المعتبر المشار إليه.

الله فقط: يا من التفت ويلتفت: لا تلتفت إلى جهة وهم هذيان بعض الصوفية؛ ولقولهم توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، فإنه بعيد في بعيد في بعيد، وهم في وهم في وهم، غير أن ذلك الوهم وهم لا عاقبة محمودة له، وأوله فيه، وآخره به، وظاهره عليه، وباطنه إليه.

ولا تلتفت إلى قول بعض الفلاسفة في قولهم: «عالم العقل»، و«عالم النفس»، و«عالم الطبيعة»، و«الأول»، و«العلّة»، و«الواجب بذاته»، وجميع ذلك من مفروضات الأوهام، وذلك أنهم يظهر لهم من الحقيقة جملة مدركات وهمية بالمدرك العظيم الذي يظهر لهم، وهو أجلُّ من غيره، وهو مع هذا لا يستطيع على وصفه عظيمهم، هو عندهم العِلّة والسبب الأول، وذلك المشار إليه بالجلالة المطلقة؛ ولذلك يعتمدون على وصفه بالسلب وغير ذلك من المدركات الذي هو بضد ذلك، هو عندهم بحسب مرتبته في إدراكهم، فافهم.

فالأعلى هو عندهم في رتبة العليا، والمتوسط في المتوسطة، والكل ذلك، ولا تلتفت إلى الفقهاء، فإنهم لا مرتبة لهم يمكن بها الاعتراض عليهم، ولا هم من قِبيل اعتراضه هو أعني: المحقق، فاعلم ذلك؛ لأنهم زعموا أن الأعمال هي المرتبة الشريفة لا من حيث الخلاص النفساني، وما بعد العمل، وفائدة التجرد والتخلق وأسرارهما الباطنية؛ بل من حيث الحكاية، وتلك الحكاية مكذوبة على المعلِّم أو محُرّفة أو منقولة على غير وجهها، فافهم.

ومع هذا هي عندهم في الخبر لا في الأثر، وفي المدرسة لا في حقيقة المدرس، وفي الكتاب لا في الكاتب، وفي الكاغد لا في الضمير، ومع هذا هم بها يؤذون عالم التنبيه وأشخاص النباهة.

ولا تلتفت إلى المتكلمين، فإن حاصل أمرهم أنهم يعتقدون في الله أنه خيال الإنسان، وذلك الخيال فرضه، وهمهم قديمًا، والشريعة عندهم مفهومة لعقلهم المعقول.

الله فقط: يا من بالمرصاد، إنَّ رَبَّك الوهمي لبالمرصاد، وكذلك قال: إن الأول في الوهم الآخر، بمعنى الباطل في الحقيقة الظاهر، بمعنى الكون للعيان الباطن، بمعنى العدم في الجنان شاء، وبه شئت لا بذات متميزة، ولكن بمظهر فيه منصرف إليه، وهو لم يزل كان، وبه كنت لا بتقديم، ولا بتأخير، ولا بعِلّة ولا بمعلول؛ بل بحقيقة جامعة موضوعة لما يفرضه الوهم ظهر، وبه ظهرت، لا بفعل ولا بغيره، ولكن بهوية أو بقضية، أوبذلك

المختلف لا من حيث هو هو، ولكن بما أنا هو، وقد يتوهم الجاهل أنها سطور تمتد وتقف، وتنقطع وتدور وتفرض، أعني تلك القضية، أعني ذلك المقضي، أعني ذلك القاضي، أعني ذلك بما هو ذلك بحسب ما يجب له ذلك.

فصح من هذا أنه هو شاء فقط، وأنه هو كان فقط، وأنه هو الظاهر فقط. ولما لم يختلف في ذاته ولا في لواحقه، وانصرف إليه، ودار عليه امتدّ فيه، وانقطع به، وليس في شيء من ذلك نعم، ولم يكن، وحقه شيء من ذلك، ولا يمكن فيه ذلك، وإن كان يجوز عليه ذلك لأنه كله ذلك ذلك ذلك، فهو الظاهر والظهور والـمَظْهَر والـمُظْهِر والـمُظْهر، وهو الكون والكائن والمكون، وهو الإرادة والمريد والمراد، وهو إذًا هو، وكأنك تشير إلى خط لا أول له، ولا آخر له، بإشارة لا أول لها، ولا آخر لها.

وذلك الخط ينقسم إلى نقط بحسب ما فرض، والهو هو يطلق على كل نقطة بمعنى الخط، وعلى الخط بمعنى النقطة والنقطة، ثم تعقد ولا تشير أن الخط يتشبط في الوهم، ثم يكن أملس، ثم ترفعه بعد ذلك الوهم، وقبل ذلك الأعقاد صحبة تلك الإشارة، وتترك المحل البسيط صحبة الأعقاد البسيطة، والوهم المركب.

إيه: لمّا فرغ الوهم من هذه الأحوال قالت الإحاطة : من حيث الضمير المستقل جميع ما يظهر للحواس، وتتعلق به القوى الطبيعة والنفسانية، وكل أنحاء العلوم والصنائع أعني: علوم أهل السماء، أو علمهم، وعلوم أهل الأرض، أو وهمهم من الله هو، بوجه ماله، وهو الذي يظهر لبعض أهلها أعني: الإحاطة المتقدمة أنه العبد، أو القضية المزدحمة المتطورة الكثيرة بالنسب، والقضايا المقدرة، والمعنى الجامع الذي يحاط بتقدير سعته من حيث التسليم.

مثل ما تقول: تحيط بالعدد: أي معقوله، ويعلم أنه يمرُّ إلى غير نهاية، وقبوله التركيب والاستمرار ماهيته عندي هو ةَ، وأيضًا فما علم وحرر القول فيه، وألفته الطبائع جعلوه العبد، وما كان غير ذلك، ولم يفارقه في الوجود أعني: الذات الواحدة هو ةَ، ومع ذلك تقول: تلك الإحاطة هو الجزء لنفسه، وهو الكل لها ولكله.

ثم تقول: جزء نفسه، ثم تقول: هو المنـــزّه عن ذلك، ثم تقول هو هذا المشار إليه الثابت المصمت الكون، لا المصمت الخط، والماهية؛ بل هو ةَ ةَ فعد ةَ حيث يصدق لا إله إلا الله، وحيث يُقال على كثيرين بالمعنى الواحد في الشيء الواحد، وكما ذكرناه في الخط المتقدم.

ثم تقول: هو الصورة المطلقة، وقولها قول واحد، وبعضها تظهر صحبة العلم بكلها

وتجتمع أجزاء ماهيتها من جهات كثيرة، مثل لو اعتقدنا أن الصفات القديمة المحمولة على الذات أو المشار إلى الذات صحبتها كثيرة بالقول، واحدة بالموضوع، أو كثيرة بالموضوع واحدة بالقول، لقرب الأمر من الأمر الأول، فاعلم أن ةَ عندنا سيدها وعبدها، وبعضها وكلها.

إيه: من ةَ الأول الوهمي، ومن ةَ الآخر الوهمي، ومن ةَ الظاهر الوهمي، ومن ةَ الباطن الوهمي، وتزعم أن الجزء الذي يطلق عليه ةَ خير من عالم الأفعال عند الصم، وبئس ما قالت، وبئس ما اعتقدوا، ونعم ما اعتقدت، وبئس ما قالوا، ثم تستقيم وتسكن في فصل قصدها فقط، وجملة الأمر الأوهام بحسب علمها ةَ بوجه أنقص، والأوهام التي ةَ فيها، والضمير قد خطب بعض حق ما هي نصيب حق بوجه أكمل و ةَ الذي لا ا ةَ إلا ةَ، والذي لا يمكن أن يكون، وإلا، و ةَ وبعده و، وبحذف و فافهم تطور هذه الإحاطة المنحطة، واعزل ضميرك عن هذه الخطة، وقل له يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: 58]، واحذف غير الإحاطة، ولا تحط بها، ولا تجعلها تحيط بغيرها، واعلم أن هذه الكلمة أو هذه الحكمة قيلت وأريدت ووضعت؛ لأن يستقر صدق التوحيد، ويصح برهان الوحدة، وتستقل فطرة مواهب الفطرة القابلة لحقها الكامل الظاهر المتوجه بالنصيب الإلهي، واحصر نفسك في جهة الاستحقاق، وجرها بعد ذلك إلى الأصل الذي لا تقوم عليه الفروع، ولا يثبت في موضوع، وإنما هو مثل الشيء الذي يفرض فيه للشيء، ويقسم بالفرض والتقدير، لا أنه قسم، ولا أنه اجتمع من كذا وكذا، وكان كذا بعدما كان كذا.

وقل الإحاطة من ةَ ممتدة، وبه واقفة، وإليه معوجة، وعنه دائرة، وبه قائمة، واجعل تلك الإحاطة المتقدمة كالخير الذي يراد لغيره، وحقق منها في أول أمرها ما لا يعتقد في آخرها، واعلم أنها حيلة لكي تكون، وهي هي شبكة وحدة الاتصال؛ ولذلك يفرض فيها الوصول والانفصال، والأدب مع الله أن يُقال الله لا قبل شيء، ولا بعد شيء، ولا مع شيء، ومنه أن تقول الكل عنه، وقد عزمت على الكف بعد عجز الجنان واللسان، والكف من حيث المستمع لا من حيث الملقي، والحمد لله على نعمة الله القائمة الكائنة الظاهرة الباطنة.

الله فقط: من قال ذات الله هي ح السارية في الموجودات، لم يقل الحق المحصل على ما يجب، ولا هو أيضًا ظهر كذبه حقيقة، وتحقيقًا، وأيضًا المقدرات تمنع من إطلاق هذا كله، وأنت قد صح عندك أنها واحدة بمعنى لا يفهم بتسلمه الفصل الذي به يُقال: المقدر

والواقع والمقيد والمطلق وما أشبه ذلك، فيلزم من مذهبك هذا مذهب هذا القائل، ومن منع العلة والفاعل، ولا ينكر قبل تحصيل الكمال وجود الملازمة، بمعنى الافتقار وصدور الأشياء بمعنى الاختراع بالوجه الذي يجمل ويصح، يلتزم ذلك القول الأول، وينفصل عن اعتراض الثاني، فافهم.

غير أنه يقال له: ما تقول في المحل الذي تحل فيه الحياة، أو تظهر فيه، أو يظهر أثرها، أو بمعنى ما به قبل ذلك كله، هل هو غيرها؟ وهذا لا يصح، ولا يسع في مكان حصر التحقيق، فإن هو أجاب، وقال: الوهم تشخص، وذلك التشخص من الأوهام المنحطة، أو المنجرَّة، فقد يسلم له القول، ويصبر عليه قليلاً حتى يثبت كنهه، ويكلمه الله، ويبصر الحق القائم بالحق، ولأجل ذلك يحذف المفروضات كلها، أو تفرض من أجله.

الله فقط: مَن أخلص لله، وإخلاصه ذاته، وذاته جميع الأمور كلها، وتلك الأمور عين نفسه، هو السلام، ومَن علم الحق بعد ذلك، وذلك الحق عين باطله، كان المؤمن، وذلك المؤمن هو ذلك، إلا أنه مثل نفسه التي كان عليها التوجه، واصطادها القصد المعتبر.

الله فقط: اغتبط بحالك يا أيها الماجد المختبر، فإنك بالجملة انفصلت عن المألوف واتصلت بالمعتبر، ومَن هلك الوهم فيه حيي الحق في قلبه وعينه ويده وفيه، وإذا وجه الله عدوه إلى حبيبه، وقبل رسالته المدبرة، وصبر على مخالفتها المألوفة؛ جاءه الله بعد ذلك بنفسه في نفسه، ولم يحوجه إلى باطل بعد ذلك، ومَن طلب مشروط سعادته، ولم يقرر على عيبه، ثم أبصر بعد ذلك صحبة شرطه لا يهمل صورة قصده، ولا يهمل طلب جده، وهذه سيرة القوم، ومثلك ما لا ينبغي في حقه أن يتحلَّى طعم شيء لم يَذُقْه، وقد كان ذلك، فاغتبط بصحة الحال.

الأُنس الخالص عندهم الصادر عن الله لا يكمل إلا بالله، وبما جاء عنه، وأن تكون النفس الرئيسة معه على أي حال كان.

عدو الله إذا عاداك نعمة الله عليك لأنلت نسبة الشبه المستقيم، وبذلك يظفر بحبيبه، روح الله يظهر في بعض المظاهر المتعبة للطبيعة، وللجزء الطبيعي منك فلا تنكر، وقد كان ذلك، فاعلم، ودليله سرعة القبول، وكون المقصد القاتل في مظهر المقتول، خرب الله نظام كبد الكنود بحكمة المعقول، وسنة المقبول، عجب القسط من دعوة الجزاف، وضحك البرهان من حجه البهتان، وعجبت من استقامة سير السُّنِّيِّ بمرض مركوب السَّنِيِّ.

هذا يهوى في الهاوية بصاحبه، ويعتز في كل زمان براكبه، وهذا يستقيم، ويصل

ويتصل، ثم لا ينفصل، الله أكبر على أرذل عباده.

الله فقــط: إذا حَــصَرَ اللهُ عبدَه في وقته، وضيق عليه في عادته، وذلك العبد مع هذا معــه ﷻ علــى أيِّ حال كان، وهو في ذلك الوقت ذلك الوقت، وفي تلك العادة غبطة وســرور وتثــبت وشــكر واستخارة وحكمة، وجميع ما يجمل بهذا كله، وصل مقام المــوحدين التوحــيد المــشترك، ومقام التسليم بالتسليم الخالص، ومقام الصبر بالصبر الجوهري المقول بالتحمل، وإذا كان الله مع الفقير بالتدبير عذّبه تارة، ونعّمه أخرى.

وإذا كان الفقير مع الله عذّبه بمعنى نعّمه، وبالعكس، وإذا كان الله، والفقير مع الله من حيث الأمر وفقّه الله توفيق العارفين، وإذا كان الفقير ذلك المطلوب، وأصلُه ثابتُ الفرع، وفرعه ضعيف الأصل شاركه، وإذا كان بالعكس زاده، وإذا كان ذلك بجملته، وتطوره مزدوج المتابعة، والتركيب؛ انعكست مظاهره الوسطى عليه، وملك طرفيها، والسلام على الجزء المعلوم منك، والكل محسوب عليك، والنقطة الجامعة، والخط المنسوب، والدائرة الخامسة، ورحمة الله تعالى، وبركاته الله الله الله الله الله الله.

الله فقط: أُنس العارف في سلامة قصده، ثم في تحصيل مقصوده، ثم في أمثلته حتى تنفد، أعني الأول لا في المطلوب الخاص، ثم في أمثلته الواقفة في القبول الممتدة في أجناس المواهب أو معها، والحمد لله شأن العارف لا يصح، وأحواله أوليَّة أبدًا، وكمال المحقق في ذات الله، وله في ذلك ثلاثة مطالب، وسر واحد، وسريرة مكشوفة.

الله فقط: ﴿الــم * أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ [العنكبوت: 2,1]الآية، هيهات، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، قال تعالى: ﴿هَــٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ﴾ [إبراهيم: 52]، روح الله لا يتوقف على أحد، ولا هو هو في الناس بمعنى واحد، وإن كان بمعنى ما هو واحد، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3,2]، نعم، والذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، الله قصد الحكيم، وهو مقصود الصوفي وهو سند المحقق كثير البحث لا يصل إلى علم السكينة، وإن كان على طريق الصعود لا على طريق السعادة، وضعيفه لا يفلح، وهو لا يتوجه، أو يخالط لمتوجه، أو تكون همته نحو الصواب، وكثير التوجه لا يصل إلى علم الوحدة، وإن كان على طريق السعادة لا على طريق الصعود، والنبيه خير البشر فلا تغفل عن سرك فيه تصل، وهو عريٌّ عن شوائب العِلل العلمية والعملية، وهو من قبيل علوم الذوات المجردة، وضمير السعيد يخطفه، ونكتة توجهه تجده، وملاحظة صدقه فيه أعني في الشيء الذي هو قوة محضة، والنفس تمنع من

الاغتباط به، والقصد يوقفها، والقلب يُضرب عن اعتراض زواجر العادة، وينتظر ذلك، والله هو المستعان.

الله فقط: صاحبنا صديقنا حبيبنا ذلك الرجل، حفظ الله عليك آخر ما أنت بسبيله، ما أكثر ملاءة الأمل والطباع، وإن كان في وقت ما، أمل ما، في نفس ما، ونفس ما منها بحسب الرأي الصحيح لا خير فيه، وهو لذة وسرور، وبالجملة في الجميع، فإن معناه لا يتبدل رسمه بحسب الموضوعات، وإنما تبديله، وما يحمد منه، أو يذم يرجع للكاشف وللبصير الموفق، وما من طائفة من الطوائف إلا وهي تبحث عن خبر ما وتتشوق إليه، وهذا لها من حيث هي صاحبة مذهب، وعين المطلوب الحق، وقصد الطالب الرشيد لا يصح من حيث الأمل، ولا من جهة الخبر المطلق، وإنما أمر ذلك بيد الله، ومن الله، فهو أول الطلب، وبه تصح العاقبة المحمودة، وهو يكشفها.

فإذا كان الأمر هكذا فعليك به في كشف كل عاقبة، وفي كل حال، وفي كل شيء يمكن أن يكون جزء عِلّته في الحد، أو هو الحد بعينه، فإن الجميع له من كل الجهات حتى في المعلوم المحصل عندك وقت وجودك، وفي زمان الإدراك[1].

ومـــن نظـــر هذا النظر الغريب من حيث التأمل في واجب واجب، وفيما يصح منه عـــنه ﷻ ســـلِّم الأمور إليه، وعلم أن الله هو الغاية المبحوث عن كل غاية من أجلها، ورضوانه هو البداية الصادقة؛ لأنه الحق المدبر، وهو السلوك؛ لأنه الصراط المستقيم، وهو الوصـــول؛ لأنـــه ماهية الخير المحض، وهو ذلك الذي بعد ذلك كله؛ لأنه الواحد المحصل بالكنه الدائر شطت مراتب المعارج لمَن جاءها بالتقديم والتأخير، وعلى من نالها بالمقدم والمؤخر، وقربت على الذي يصلها بالواصل لا بالوصول؛ لأنه به صحبة حقه يصل، وإن بحـــث عـــنه على ترتيب الأفعال الثواني انحط صحبة الصواب إلى أرض المحاربة الوهمية، وكان تارة بوهمه وحقه، وأخرى بوهمه خاصة.

رأيتك يا أيها الحبر تحب التوجه إلى جهة ركن كمالك الممكن بوجه الإنابة لا بوجه الجلالة، وفهمت منك أن الذات التي تقول أنا بها، أو أنا عنها، وجميع ما يُقال بعد ذلك بحسب ذلك ليست هي إلا وهمك، وهو الراجع إلى أشد وأضعف خاصة، وصحة هذا

(1) فمطلق الإدراك؛ اسمٌ لحقيقة اتصال المدرك بالمدرك وهو كالجنس، والعلم، والمعرفة والتعقُّل، والإحساس بالسمع والبصر وسائر القوى والآلات كلها ألقاب، وصفات لمطلق الإدراك يحدث ويتعيَّن بحسب تقيُّده بالآلات المتوسطة من المدرك والمدرك وبحسب المراتب والمحال التي يقع فيها الإدراك فيتقيَّد لديها.

القول أن الفعل المألوف الذي لا ينفك عن ذله إذا استصحب الحال فيه، ودام أمره، ومره على النفوس حتى يكون الحكم له، كان الكل له من كل ذلك الشخص، وأيضًا الذات العزيزة التي يقول العزيز بها على زعمه: أنا تلك أو أنا بتلك، ثم يطبق ذلك على مجموع وهمه المعلل لا يدخل في ميدان السباق بمركوب التخبط، فتكون كبوته محسوبة عليه.

الله فقط: كهف المعرفة كنه الحقيقة، كهف كمال المحقق، نار الحق، هو الروح الباصر من عين المحقق، والمتشبه به، إذا أبصر يكون مدركه الأوهام، وإذا تكلم يكون كلامه مفتاح باب حتفه، مَن حقّق الحقّ، وعلم مطلوبه كما يجب، وكان على بصيرة وبَيِّنَةٍ من شأنه؛ وجد الله عنده، وارتفع سراب الإضافة القائم في صدره المحتوي على الأخبار المألوفة عنه، ولم يشغله شأن مميزه، واستجاب العزم المنبعث الخالص في روعه الأصم المصمت الشاخص المنتظر بمجمل الأحوال الإلهية، وما يحب، ولما يعين ويفرح به، وهو كل ذلك بوجه أخلص له التصرف، وله الملك، وله الحمد، وله الكلمة العُليا، وله تخصيص الأخرى والأولى، وله إهمال نكال الآخرة والأولى، وله الله الذي هو به هو ما هو، وإن ضعف ذلك منه لأجل أنه هو، وإن كمل لا يمكن أن يكون إلا به، وعنه.

يا هذا من بعض ما في سورة «الفتح» إنه خطاب الله لأهل منـــزلة المجاورة، وهو لجميع من آمن به، ولم يعلل لإيمانه فيه، وكان على صراط مستقيم لا على صراط الاستقامة، ولمّا كان لكل متوجه مشار ما إليه ذلك التوجه، فله من ذلك الفتح بقدر قوة ذلك التوجه، والقرب من ذل المتوجه إليه، والفتح من كل الجهات حتى في الشيء الذي لا جهة فيه أكمل من الفتح المقيد المنحصر في حيز ما، ومكان ما، وفتح الكامل منه ما هو فيه، ومنه ما يتصل بغيره، ومنه متصل ومنفصل، وهذا الفتح الذي فيه الخير على الخيرات الأربعة أعني: الأمن من الذنوب، وتتميم النعم والهداية المحضة، والنصر الثابت القوى الظاهر الكبير المعتبر لا يصح أن يخرج من مفهومه أوج الكمال، وفعله وعادته ودرجته، فافهم يا هذا.

والذي أخبرك به رضي الله عن الحق منك، وحفظك من ضده فيك، أن كلام الله جزء ماهيته التطور، وهو غاية المعتدل، ومما ظهر لي في الوجود أن الذوات كلها ذات ذلك الوجود لا من جهة ما يلزم عنه، وأنت انظر إن وجدت لوجود صورة يشار إليها فالتزم البعض من موضوعك، واستند إلى بُدك المقوم لك، والوجود في كل موجود هو الحق فيه وقولك الجسم والجوهر والعرض، هو الوهم، وهو غير الجليل، وما يخالف الحق المبحوث عنه، فالحق في الخلد هو الأمر الذي يمتد على العوالم، وتلك العوالم هي أمور

الله، ولذلك يقول الحق: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الامُورُ﴾ [البقرة: 210]، وإذا عزمت فتوكل على الله: أي على القرب منه، خلص نفسك من البعيد عنه من صفة نفسه، وأخلص في الإضراب حتى لا يبقى في ضميرك مَن تخبر عنه، ولا مَن تقدر أنه يخبر عنك، ثم اعزم بعد ذلك، واعزم وخذ نفسك بالتجلد الجاهد لجميع ما يجمعك أو يفرقك؛ لأن ذلك كله يجر إلى الأول من العبد، والآخر من الأصل، وذلك على خطر.

الله فقط: كتاب من ذلك الواحد إلى ذلك وذلك، أمَّا بعد فإن الواحد الحقيقي لا يعود غيره، ولا يجد مثله، ولا يمكن خلافه فإن انتهاء هذه، والهوية في بعض الإحاطة فيمكن منكما بعض الاتصال، وإن انتهى هذا؛ فقد يمكن من واحد أمر كما الجميع؛ لأن الأكثر يغلب الأقل، والسلام على الواحد الثابت خاصة؛ لأني أقسمت أني لا أطلق السلام على الباطل، وبحثت فلم أجد الحق إلا هو أعني: ذلك، والسلام على معناه، والسلام على السلام يصحُ حقيقةً، وإن ذُمَّ شريعةً، والمواضع معروفة، والحق بغية النبيه فقط، ومَن قال: الحمد لله؛ قال أصغر الكلمات بالنظر إلى جلال الله، وقيل له على لسان الإنصاف: كبرت كلمة تخرج من جانبه.

الله فقط: جمال وجه تقوى الله أشغل ناظر الرشيد عن سواه؛ لأنه معتدل الروح والصورة، وفصاحة قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]، عمرت أذن المستقيم، فلم تصلها عجمة الهوى، والوقوف مع قوله: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: 34]، الآية، منع بال المعتدل أن يتوجه إلى حب الصيت والظهور والانتصار إلا إن كان من أجل الله، فهو منه ﷻ لا عنه لطف الله به؛ ولذلك يقول الغافل المتلون لظالمه مثل قوله، ويتعرض له بمثل تعرضه، والحاضر إن كذب عليه قال: إن كان ذلك حقًّا أحسن الله للقائل، وإن كان باطلاً غفر الله له، ومَن صح عنده أن مُدَبِّر العالم لا تفوته الجزئيات، ولا المقدرات، وأن العوالم بحسب القضايا المفردة لم يَخْشَ إلا اللهَ فإن حركة زاجر شريعته استقام سيره صحبته، ويكون معه على أي حال كان.

إلى الله أنت فلا سبيل أن تقول: أنا وأنت، وأنت أنت أعني: الذي أنت به له؛ بل الذي هو أنت، وعند تحرر ذلك قل بذلك، وبما يلزم من ذلك له جميع ذلك، أو هو كل ذلك؛ لكنه لكذاب يدخل تحت جنس الشرف، ولا لمثله، فافهم.

مَنْ خدع رسول الله ﷺ أظهر الله عليه غير الذي يحبه، وأنساه ذكره، وشغله بغير رسالة ذكر السفير ﷺ، وبذلك يستحق المكر. إياك والتأويل في مضنون الصغيرة فإنه

يحمل إلى يقين الكبيرة من ارتكب القبيح، واستوى على ظهر الغرر الحامل إلى منـــزلة المكر حيث يساوم الوهم ظالم الشهوة، شهد عليه النور الإلهي بالجهل، والحرمان، وكان عدو الله الأخس، مَن تعرض إلى عداوة الله خرج عن مخالطة أهله، واستوى عليه بهتان ظلمه لنفسه، وكان ظالمه المدبر منه، وأعوذ بالله من ذلك.

الله فقط: يا مَظْهَر هداية الله كيف تفهم؟ قل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ [البقرة: 120]، وبأي وجه يتصرف فيه، وما هو، وكيف يحفظ، وحال نيله ما هو بالجملة، وما مفهومه في الله، وفي الناس، وهل يرجع للذات والصفات والأفعال، أو للذات خاصة، ورجوعه للذات هل هو بمعنى النيل، وكأنه يقول لا نعمة إلا الله؛ لأن الهداية الفعلية المصرفة قد صح أنها من الله، فأي فائدة في الأخبار عنها؟

وأيضًا الله لا يدخل تحت عموم ما، ولا يُقال فيه إنه مع غيره بالمعنى الأكثر، ولا مشاركة بين القديم والحادث حتى يقع الترجيح بينهما في ذلك المعنى المشترك، وأيضًا الذي أحاط بكل شيء من حيث وجوده على الإطلاق لا نسبة بينه وبين ذلك، فما بقي إلا أن المطلوب الذي جاء بصيغة الطلب، هو المطلوب العزيز، وهو لا يظفر به بالعلم فقط، فإن الحال عند أهل الحق مثل العلم عند أرباب الأحوال، فافهم.

الخارج عن الدائرة يلحق في مرسوم الوجود، والمتوسط يتعب، والمتصل بالمحيط نوع منه أخر، لا تلتفت وهم الامتداد، فإن نهاية الافتقار في الجميع موبِّخة، ولا تتعرض إلى حصر الكليات، فإن الأول منك يأخذ ذلك منك، واجعل ذاتك بين ذلك، وبالنظر إلى النقطتين أنت ذلك وفي ذلك، والسلام على الأول منك والآخر، والظاهر مثلك، والباطن مع ذلك، ورحمة الله تعالى وبركاته.

الله فقط: تسمح همة المقتصد في استجلاب التعب لموضوعها الطبيعي لمصلحة مدنية، ولا تسمح للنفس في شيء من أمرها؛ لأن ذلك يجر إلى فساد الأصل. هداية الله أبوابها ثلاثة: أحدها موافقة الأمر، وثانيها نتيجة ذلك، وثالثها ثبوت توفيقه، خَلَلُ السالك يظهر في جملة مواطن: منها كونه يشهد لنفسه بالصحة مع وجود السقم، وموافقته، وكثرة موافقته لأهل الله، والحسد مهلك للمتصف به، وللآخر في عالم الطبيعة بمشاركة همته قوة الحسد، لا يمكن به نيل فضيلة إلهية بإجماع أهل الحق، وبما يعطيه الدليل، وبما يلزم على الإطلاق.

ما أقبح مَن قال: أنا من أهله، وسيرة الشيطان، وأهله ظاهرة عليه، ما أجمل مَن أخذ نفسه بالخمول حتى يظهره غراب المضمار ببحث الاضطرار، نِعْمَ الرجل مَن كان الله

معه، وهو مع نبيه في فعله وقوله واعتقاده، وحاله ومنـــزلته، وأخذ بيد شرعه عنه، وبايعه بروحه، ودفع له أمله كله، وكان به في كل مطالبه، ووكله على كنه مقاصده، واستدل على الشرف بشرفه، والتزم طاعة قانونه كله.

ليت شعري كيف يجتمع الله والعدم؟ مَن ذا الذي يقول: «الله»، وفيه وهم نفسه، ثم يصيبه الضجر بعد ذلك، ولم يسمع العرب، وحكمة قولها صحبة مثلها القديم: «يداك أَوْكَتَا وفوك نفخ»، قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [تبارك: 1]؛ اشغل الأرواح الطاهرة عن تدبير عالم الأبعاد المختلفة، إن كنت تريد أن تقول: الله، ويقول المضمار منه منك: لبيك، امتثل أوامر الحق، وخذ نفسك بالتخلق به. ما أغفل مَنْ يفتقر إلى أن يسمع حكمة البراهمة حيث يقولون: (مَن صدق في يقظته يصدق منه جميع ما يبصره في النوم)؛ لأن الحق هو الغالب عليه، وكان هو أحق بذلك، ويثه إلى أهل الطاغوت متابعة القال والقيل تصدُّ عن الفَهْم، والحال المرشدة للعقل والقوى النفسانية والطبيعية، إن في الروح لعبرة، وفي العقل أخرى، وفي الخبر جملة، والله الذي لا معبود، ولا موجود، ولا معلوم غيره، وإن شكّ ضميرك في المعدوم والحال، وتلك المذكورة فيه ذلك، وأنا أريد السبب والفاعل، فافهم.

لا يصح من الله إلا ما هو من الله، وحاصل ذلك: كن معه في مدلول رضوانه؛ يكن معك في جميع مقاصدك الكريمة، وهو المحيط، ومنه الخبر نعم، نعم، نعم لبيك، لبيك، لبيك صدقت، صدقت، صدقت، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ [ق: 37]الآية.

الله فقط: إذا آمن الضمير بجلال الله ﷻ، وكفر بأخباره المنبعثة من قوّته الباحثة فيه، وأخذ من حديث خلده الأسفل، وأهل حديثه العلوي ينبغي أن يتدارك؛ لضرورة ما هناك يحدث عليه بقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83]، وتحشر له أخباره الراجعة كلها، ويقرأ عليها بها فيها عنها من أجلها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً * وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـــئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: 35، 36].

فإذا بلغ مقام الإسلام بمهجته، والإيمان بنيته، والإحسان بطبيعته، واذكر له، ولا تعرِّفه أنه من عند الله؛ لأن الحق لا يقرر على ما هو منه، والخبر حق في الضمير الذي هو مرآة

وجوده المصاحب، هو ذلك الحق المكتسب.

وذلك الذكر هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: 53,52].

إن ربكم الله رب العالمين بأهله. يا قومنا! يا من تعيَّن على الحر إسعافهم، وبالمضمار إنصافهم، إذا كانت النكتة لا تقف، ولا تتحرك كان المجموع بها، ويظهر المحيط هو المحاط به، الإحاطة معاً، وتنصرف القوى بالدور الراجع، والمعنى الجامع الذي تنفش به ريح الغلط، وتجف به رطوبة التمويه القائم على كل نفس بما عبثت وانتكست، ويستقيم الواحد، ولا تسع فيه الوحدة.

فكيف مَن يقدر؟ وما هي القدرة؟ ومن يدرك، وما هو الإدراك؟ ومَن يخبر، وما هو ذلك الخبر؟ ومَن يريد، وما هي تلك الإرادة؟ وإذا صمت لسان التحقيق، واستجاب الله له عند دعوة القسط، وسكت الضمير، وكان الله ما به هو ذلك المدرك المسكوت عنه، والمبحوث به فيه، وإليه عليه مَن القائل، ومَن المدرك، ومَن المتكلم، ومَنْ ومَن، قُلْتُ ذلك؛ لأن الإشارة تجر إلى مقابلة الأنفاس بحسب الشعور، والمرتبة المعقولة مسئلة جوابها وجود عينها، وإذا أخبر فعند ذلك بماذا يجبر، ولم يكن له في وقت العلم أو المعلوم يثبت هل ذلك من صفة نفس ذلك الحال أو العجز هناك أو كلمة ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: 29] هي الحافظة الحائلة، وذاتها هي الحد الحاجز، وما لا يمكن للعبد أن يصله بنفس ما هو عبد الله هذا إذا جعلناه على مفهوم هذا، فافهم.

إذا كان الله ولا شيء معه فمَن الذي يقول الوهم، أو يجده، والشرط في جوابي أن يكون من النفس إلى اللسان، ولا يلفظ به إلا بعد ما يوجد أو يعرف أو يعلم أو يُسَلِّم، وإذا أراد الله، أو قدر على مَن يقدر، ولمَن يريد، ولمَن يسمع هل كل ذلك يشبه ما يمكن من ذلك خاصة، أو هو إلى الله علمه، وقد يسع الجواب بتركه عنده، والسلام على أهل الله، ومَن يجب به كلام الله دواء الضمائر، وفهمه عين الشفاء.

والموافقة أعني: موافقة الدواء فالمتكلم إذا خاطبه حالي القريب السليم الذي كان سبب مرضه التحكم في حكمة الحكيم، وبها شفاؤه، فإنها تضرُّ بالوظائف، وتنفع بالانبعاث.

وإذا أراد الرجل الكبير يمرض، ويصح في وقت واحد يقول، ويجدر إذا أن يصح فقط يرفع البُعد المجاور هممت في وقت ما بحصر العلل المتخللة الممتدة في الهياكل الوهمية التي هي أكثر امتدادًا من الكم المنطقي فلمَّا عزمت تذكرت ما يجب للذات التي لها الأزل، وبها الأبد، وجميع المضافات؛ فاستقمت على الكف، وقبضت كل ما كان مني أراد ذلك حتى اللسان والجنان والكف، واستغفرت، واستخرت الله على تعظيم شأنه يا لله.

خلص القصد قصدك فقط، والمقصود أن تكون مقصوده بماهية ما، والسلام على من افتقر إليها وكان به لا منه.

الله فقط: دقيق التحقيق صعب التحصيل، وجليلة كثير الأوهام، بئس العلم علم التعليل، فإنه يستجلب بالتعب، ويحدث التعب، ويتعلق بالمتعب، وأوله اجتمع من قلت وقالوا، ووسطه من أما وأن، وما أشبه ذلك، وآخره من هو وأنا، واحتمال الضد أسبابه قريبة منه جدًّا، ونعم العلم علم مَن كلم الحق، وتكلم به، ووجده عنه، وظهر له به أن العالم والعلم والمعلوم حينئذ بالوجه الذي يصح به ذلك، عجبت ممَن ينفق ماله في أيس اللذات وأصغرها، ولا يشترى به الأحرار أعني: بفعاله، ويربح الدنيا والآخرة، الحر: هو الذي يقول: ما يجمل بنا أن تكون لنا الأسرار، وأولياؤنا محرومون منها، ومن مواهبنا ويحتال على ذلك حتى يؤدِّي أمانته. ما عظم الحكماء أشياخهم، وفضَّلوهم على آبائهم إلا لأنهم كانوا سبب الحياة الباقية، والآباء سبب الفانية، إلا إن كان الأب من كل الجهات. شكر المنعم أكثر من النعم الشخصية؛ لأنه يبقى، وتلك تفنى. الإنصاف والعدل، والتخلق بالحق على أي حال كان ميزان الله في الأرض، لا تعجب من جميع ما يحدث في عالم الكون من الأمور العجيبة، والأحوال الغريبة مادام مطلوبك لم يتحصل مع كونه هو عندك، وأنت له به طالب، وهو المطلوب كل العجائب في نفس الإنسان حتى استحسان النقص، والإضراب عن الكمال، والغفلة عن الله.

وفيها أيضًا: الله الذي هو به للذي هو العلي الأعلى فذلك لا إله إلا هو، وهو هو.

أرفع الرجال مَن حقق بعد قُرب، كما أن أحسن الناس في عادة الصم مَن تواضع بعد رفعة، وترك حقه بعد قدرة، وأنصف من نفسه إثر قوة. مَن تشكى بالدنيا، فقد بعُد عن رضوان الله لكونه في غير مقام الرضا، والأمور الإضافية منك ومنها، إلا إن كان بالنوع الذي يبعد عن الله، فذلك يحمد، والله المطلع. لمَن آمن بالله طابت الدنيا، وصحت الآخرة، ولمَن علم الله حق معرفته، وبقدر ما يصح له ملك الدارين، ولم يغتبط بنصيبه منهما، ولمَن وجد الحق، واستقام منه القصد فيه، وأبصر ذلك كله. إمَّا في ذاته، وإمَّا

بقرب في بعضها لم يرض إلا بالله، كما أنه في الدنيا لم يخش إلا الله ما افتقر ضمير فيه قصد، ولا قلب فيه خل الناقص القصد يقول له لسان الآخرة:

يا بطّال في صيف دار الأولى ضَيَّعْتَ لَبن اللب، عقول العلماء بالله تحت ظل توفيقها، كما أن عقول العلماء بالعادة تحت أسنة أقلامها، فإن القلم أحد اللسانين، والخط عقال العقل، والقلم أحسن الآلات في استخراج أخبار الضمائر بعد اللسان الفصيح، غير أن القلم يثبت مدلوله بعد كلام النفس به، واللسان يذهب بحسب ذلك الزمان إلا إن وقع في قلب المحق، فهو أثبت من القلم والقرطاس؛ لأن ذلك يعطى جملة أنواع:

منها: ما يثبت بالنوع، ويزول بالشخص.

ومنها: ما هو أعظم، والقلب أحل موضوعًا من القرطاس، فإنه القلم الإلهي.

وقد قيل عن جعفر بن يحيى إنه قال: «لم أر باكيًا أحسن تبسمًا من القلم».

وقال المأمون: «لله در القلم كيف يحوك وشي المملكة».

وقال ثمامة بن أشرس: «ما أثرته الأقلام لم تطمع في درسه الليالي والأيام».

هذا في قلم القوم الصم، فأي شيء هو قدر قلم أهل الحق المصطلح عليه، فإنه خليفة السبب الأول في الأكوان، وخليفة الصفات، وهو الفعل المطلق، وهو أيضًا الوجود الممكن، وهو أيضًا قضية التطور، وهو أيضًا الروح المألوف، وهو الحركة، وهو الحياة في اصطلاح قوم، وتحت هذا الاصطلاح علوم يعلمها الله وأهله فقط، إذا جاءك الله صحبة فعله فاستقم كما أمرت، وإذا جاءك صحبة صفته تدلل بمضمار مؤقت، فإذا جاءك في موكب أخبار التوجه حيث يظهر الله عادة الروح في الروع، فكن من حيث من جاءك، وذاك صحبة ذكره بمثل ذلك الوجود أو الوجد، ومَن استعد إلى ذلك بحال الاقتصار والإنابة، ويشعر نفسه بما تعلم أنه ذلك الذي هي بسبيله، يحمد الله على كل حال.

وبعض الرجال عود نفسه في ذلك الوقوف مع الاختبار بالحروف لكي يجد القلب، أو الضمير عنوان ما هو بسبيله قد جاءه بالله، وأمره عند الله بعد، وحكمته بيد التطلع الأعلى، وهمته ذاته، لا أنها انضافت أو كانت به أو له أو من أجله، وبالجملة المقصود من هذا المقام أن يكون جميع ما يعرف واحدًا، فإن قلت: يعلم؛ فهو علم، وإن قلت: يقدر؛ فهو قدرة، وهكذا، فافهم.

ومن حيث هذا سلام الله على عين الأمل منك، ورحمة الله تعالى وبركاته

الله فقط: الله اه ///، ح // فقط. لا توحد وأنت موحد، ولا تعلم وأنت عالم فقط، ولا تحب ولك قلب، ولا تفرح ولك مقام، ولا تحزن وأنت بالله، ولا تحب البحث

وأنت عاقل، ولا تتكلم وأنت حاضر، ولا تحاجج وأنت قائل، ولا تبجح بالخدمة وأنت للغير، أو من أجله، ولا تمنع وأنت مالك، ولا تعبد وأنت راغب، ولا تستعمل الصوم وأنت ممسك، ولا تتخلق باسم وأنت تنادي، أو تنصرف، ولا تقف هناك وأنت تبتغي، أو تنتسب، أو تحتسب، أو تجد المجد، أو تجد الوجد، أو تحمد الحظ، أو تصادر لا ه وإلا ه إلا و إلا ح إلا س لا ن لا ك إلا م إلا ظ والله ع ل ك ى ل.

الله فقط: بسم الله ذلك، إذا أردت أن تتلذذ ويقوى أُنسك، ويقع على عين أنموذج الذوات الفاضلة، فأرسل بالك المرسل صحبة الفكر المقابل، والميل المتذلل في الصدر المحب، والقوة المنيفة في زمان الترك، والمكان الفقير، والغذاء المقيم فقط، والوحدة الخالصة، وتكون سيرة الرسل، وشأن الملائكة بين يدي مطلوبك، وعين استخارة همتك تصرف ذلك، ثم انقل القصد، وجميع ما ذكر إلى الذات الواحدة، والأمر المتوحد، ولازم الأحوال التي لا من جنس ما يكتسب، والتي هي فوق ما بعد الطبيعة، واستروح تقدير الحضرة الصائمة، وكأن ذات الجلالة مظهر الجليل، وأنت متطفل، وكأن المجموع إلى أمر ما أنت بسبيله ينصرف، والله شبه الدائرة بحوله وقوته معك، ومتى تذكرت عالم هلاكك اخشع وفر إلى الله في ذلك كله، ثم التزم ذلك الفرار، ولازم حالك، واخطف ذلك الوصف بيد الوجد، ومن مثل هذا يظفر، وبمثله أيضًا.

وإذا لاح لك صدق دعوة، وإجابة دعوة، وكشف معنى، وتجريد حال، وإظهار فضل افرح بمبايعة الله، فإن الله لا يبايع إلا بيد كشف الجلالة، وهي الحضرة القائمة في طباع الأحرار.

وبالجملة: كلف نفسك الميل إلى خرق العادة، وانظر الأحوال العزيزة، واختر حالك من جهة نصيبه في ذلك حتى يصلك الفتح صحبة التتميم والهداية والنصر، وإسقاط المانع في اتجاه الزمان، وهي المغفرة التي تطلق مع سنة الله؛ لأنها سنة تطلب بها الأرواح في السموات والأرض، ورسلها أحكام الله المتعلقة به خاصة.

واعلم أن السفر كلها هي الرسالة الأولى، وهي النور المستولي، ولا يسعها إلا الله، أو الشيء المحيط بالجملة، فاعلم ذلك، واعلم ما دفعته لك، وبعد هذا اللوح لا تهمل نفسك، ولا تهمل شأنك فيها، وابحث عن كل ماهية نذكر لك فيها، وخذها بالله على العموم، واتخذ عادة ثانية، وطبيعة خامسة، وزمانًا رابعًا، ومكانًا ذهنيًّا، ومكانة عقلية، وذكرًا صوريًّا، وصورة صورية، ووصفا قاهرًا، وفهمًا بالله عنه كثيرًا، وكلامًا مع الناس قليلاً، وفي هذه المرتبة يتعلق الأمر بالكمال.

وجميع ما يُقال في عادة الضم يتكلف فيه تكليف ما لا يطاق يطالب هنا به، فافهم.

الله فقط: ينبغي لمَن عزم على معنى ما يشخصه أن يبدأ فيه بما بدأ الله إن كان ذلك الشيء أو ذلك المعنى مما يبرز أو يقدر أو يوجه أو يقدر، أو يوجه عليه ذلك كله، فإن تعذر عليه ذلك بالوجه الذي ذكرناه، فيبدأ بحسب حكمة الحال، أو من حيث يسلم فيها على الإطلاق، فإن تعذر بالجملة فتعلم أن ذلك الأمر المدبر خارج الحد، وبعيد من نوعه فيتجنب بالجملة مَن قام بقلبه البحث عن سعادة الإنسان، وعن حقيقة العلم والعالم والمعلوم، وعن الشريعة ولواحقها، والحقيقة وطريقها، وعن الله بالكلية، وعما يحدث عند ذكره والتوجه إليه، وعن الولاية، وعن كل ذات رئيسة، وعن الرئاسة فيماذا تصح، وممَن تصح، وكيف تصح لمَن بحث عنها، وما نهايتها في الناس، ومن رئيس الناس، وبما كان له ذلك، وهل يتوقف الكمال المعتبر عليه أو في الناس الإمكان على ذلك.

وما الضمير، وما خبره، وهل ينقطع الوصف أو يختلف، وإذا ذكر المقام أو الاسم، أو الشيء هو إلى الله أو في الله، أو ما كان من هذا القبيل المقصود الوقوف على حقيقته، فهو الرجل الطالب خاصة عند الخواص، والواصل عندهم هو الذي ظفر بمدلول هذا المفروض كله كيفما اتفق له ذلك، وبقدر قوته في ذلك وهمته، ودرجات الرجال على أنحاء، والوصول يختلف في الناس كلهم، وبهذا الميزان يحكم على المراتب خاصة، ومَن قام به الوجد المحض، والميل المستولي، ولا يحدث الضمير بذلك، وهذا هو، وأنا وأنت لا يعين له من المطالب المذكورة ما يضع عليه خبر همته، وغايته الاستناد إلى ما هو بسبيله صحبة الحال واللذة فقط فهو المولَّه.

فإن كان في إكرام من الله، وأفعال الله بين يديه على جهة الملكة، وتطوره في أمر مفهم، وذلك الأمر محفوظ القدر شريعة، فهو الموله المعتبر، وإن كان في البعض فهو بحسب ذلك، وإن جاءه ذلك كله لا على الأول، ولا من نوع أخر، وجميع ما تفرق في الكل ظهر عليه، فهو المراد الأعلى، بشرط أن يظفر به بغير تكلف ولا طول مدة، وإن كان بخلاف ذلك، أو ضعيف في ذلك، أو هو بوجه على جهة الأكثر، وبآخر نحو الكسب أمره في ذلك على حاشيتي النقيض، والزمان فيه ما يبعد وما يقرب، وقد يشترك الأمر في ذلك، وقد يكون على جهة الأكثر، فهو بحسب ما يظهر في هذا الإلزام.

الله فقط: حضر عبد الله والله في الله، فما كان من الله صح له ذلك؛ لأجل استحقاقه للجميع، وإن كان المضاف من قبيل الأوهام، فهو معلوله الراجع، ومدركه الدافع، أو حقه الرافع، ولذلك يجده كل من وجده بفقده، ويكون تحققه لذلك الحق صحبة تلك

الحقيقة من مقام أهل الوجه الرابع، والكمال بعد لم يحصل على جهة الملكة، وما كان من العبد لم يصح له أن يكون في تلك الحضرة صحبة ذلك الحضور ثاني اثنين، غبطة أهل الله بعلوم التحقيق لا يصح إلا بنوع منه، والتخصيص هو المشار إليه في الجميع.

الله فقط: وصلى الله على الشرط في نيل الشرف، والكمال الجامع لحقائق الأكوان بكنهه الأكبري محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا الله الله الله الله الله الله الله الله، كل ذلك ذلك، لا كل شيء ذلك، لأن ذكر الأشياء لا شيء عند الاعتبار الحر، فافهم.

الله فقط: من اعتمد على خير طبعه، وطبعه في التطور الأوسط قد فاته تقرير الأول الذي هو قريب من الفطرة الأولى، وعجز عن المتمم الأعلى، فعليه بالخلوة المحمودة التي فيها نور الله، إما صحبة الذكر، وإما صحبة الفكر، وإما صحبة التوجه إذا لم يجد الرجال في الوقت، أو في المكان، أو فيه أعني: في طبعه وقوته؛ لكونه لا يحمل أحوالهم، وإن تعذرت الخلوة عليه، فعليه بالدعاء والإنابة المشوقة التي فيها الحركة الدائرة على موضوعها، وإن تعذر عليه، يستعد للرحلة عن نفسه بالجملة، أو بالجهد الذي لا يصح معه ردة طبيعية، هذا إذا جد وعزم على السعادة.

وإن كان حاله اقتضى حب الكمال، ويعجز عن لقاء المكمل، وعن أدوات ذلك بحسب ما ذكرناه، فينبغي له أن يتوب توبة التقدير، ويرغب في النشأة اللطيفة، ويستعين بالكتاب الذي ألفاظه الكون الراجع، وحروف تلك الألفاظ الملك الواحد، ومفهومها الفقر والاضطرار الذي يشهد على الإطلاق، والرجوع إلى الله بالكلية، فإن تعذر الأمر في ذلك كله يترك خبره في الأمل منشوب القصد، وشأنه كله بعض في التقدير.

والله يحفظ ما ظهر وما بطن منه، وبمنّه وكرمه، والحمد لله.

الله الله الله إذا لاح نور الله ح لا ع أ، لا يشك الرشيد في ذلك كله، إذا ظفر بالجملة لا جد/ فقد عظم أمره بالله صحح وحرر وجرب وكرر وعجل وحلل وركب ونوع وكبر.

الله فقط: ورد في الأثر: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة»[1].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّه وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: 69].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ

(1) رواه مسلم (1973/4)، والترمذي (153/5).

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً * إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: 72,71,70]، مع التقرير والسعة المرجوة.

وقال تعالى: ﴿قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: 90].

ومع نهاية ذلك الأمر والتنبيه والتحدث المحفوظ والاحتياج قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 91].

ومع التذكر لأمر تخصيص الحظ النفساني، وفقد المحرك المعتبر فقال تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: 95].

إن الذين آمنوا، ثم أعوذ بالله من أحوالهم، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً، مع وجود الظفر في الطبيعة، فكيف؛ لأن الظهور المحمود هو الذي جزء عِلّة في كمال مصاحب، قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾ [النساء: 133]، فكر الضمير في تجديد ما لم يجب، فقال لسان حاله: أيود من ونظر في مقاصد الصدِّيق، فقال: أنا الصديق، وتفقه في مكابدة من لا تنفع فيه وصية الغريب الناصح، فقال له: وسُلْ ثيابك رحمة به، والُحر هو الذي يتحمل في إقدامه، ويتحمل في إعدامه، وإذا صح عنده أن الذي لا يعلمه قد تألم منه، وناله جور العادة، وصقله بالمتابعة وجه الدهر الجائر من أجله فيريْحه، ولو بالانفصال من موضوعه داخل ذهنه رغبة في إدخال السرور عليه، حفظكم الله! ما كان من الشخص المؤخر فقد تأخر، وتقدم تأخره قبل تسميته بالمؤخر، والرجل قليل الحركة، ويكاد لا يقدم رجلاً إلى جهتنا، ولا يؤخر الأخرى، وأمَّا أحمد فكان الذي صرف عنه وبه محمود العاقبة، وعند الاجتماع يقع الإعلام مشافهة بأمره، ومن هذا انفصل واتصل الإضراب عنه، واستصحاب الحال في ذلك، والناس ما هم شمسك، ولا لسانهم لسانه، والله الذي لا إله إلا هو ما كنت في أمر كرهته أنت مني إلا بالله، وبأمره إلا في الأقل، وذلك الأقل إذا نظر فيه لا يتكره إلا أهل الغرة بالله إلى متى عتاب مَن شَبَّت حالُه؟

وما الذي حملك يا هذا الحبيب الذي يجب إكرامه على استجلاب الأوجال من أجل من لا يتناسب أمره، وأمره في ذلك إلى الله؟ عذرتك والله وما عذلتك، وكلامك عندي معتبر الجملة، وإن كان يسرك سفري فأنا آخذ بناصية مركوبة بيد الغبطة، لولا ما تقوى رعونة بعض الناس لم نجعل بعد قراءة مكتوبك في خلدي غير الحركة التي يقال معها: لا

أوحش الله، وسلام عليك، واستودعك الله، وما أشبه ذلك.

واعلم أن الله يحسن لبعض عباده، ويدبره بحكمة البسط والقبض، ويحفظ حياته الروحانية بالنفس النفيس كما يدبر الحياة الطبيعية فيه بحركة تنفس الرئة والنبض، وبالجمل إن استطعت إن تهذر أخبارك فنعمة وافية والحمد لله، وإن غلب الحال وطال سبب المتابعة عرفني ننظر في علاج ذلك، وقد نظرت، وإن كان خفيًّا فسيظهره الله بوجه ما في وقت ما مع شخص ما لا يعرفه أحد منكم، ولا يظهر عليه أثر التوقع في المهمات، وإذا أبصرته ذكرك بقصدك، فكان سببًا لقرينة الحال في الحال، والذي منع الغير أن يجد ذلك في الأكثر هو بعد الشبه.

واعلم أن متابعة الجزئيات وتصفح أحوال الغافل عن التقية المفروضة تورث فوت الراحة، وتستجلب ما لا يحمد على الإطلاق، ووالله لقد، ووالله لولا، ووالله ما، ووالله إذا، ووالله إن رضي الله عنكم أنا، والله شاكركم وذاكر معاملتكم الجميلة بما يجب، وإن كنت مع هذا لا انفك عن التقصير، وغرضي إظهار ذلك بالفعل، وهذا ما يتعين لي في هذا الموضع، أعني: البلد بل الإقليم، ومفهوم هذا صح عندي أن الراحة تقع عندكم بالخروج من أرضكم وهمًا، وبالإقامة معكم حقيقة، ولو علم قدرها، ولواحق الهيكل تغلب على مرسوم الهيكل العقل يغتبط، والنفس تتفقه، والشهوة تحكم، والجسم يفعل ما عول قط المحقق على غير، فإنه به وله فقط، ولا بد للعارف من بُده. حديد التوحيد لا يجذبه من حجارة الألفاظ إلا مغناطيس قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3].

الله فقط: ما حَرَّكَ اللهُ قلبَ مَن يحبه إلى مخبر ما وهو بعيد منه؛ لأن حقيقة محبوب الله إدراكه الأمور على ما يجب، وفي الوقت القريب، وهو أيضًا لا يمكنه أن يهمل الأخرى والأولى في الله قط، وهو يحق الحق على أكمل ما يمكن، ويجعل الشيء في محله، ومعنى محبوب الله: من ثبت خيره فيه وتحقق. صدق الإرادة سبب هدى الله القريب أو علامته، وهدى الله هديته للأرواح، وتلك الهدية روح الروح المعتبر، مَن زَعَمَ أنه ينال حظه من الله بغير حظه منه، فقد ظلم نفسه بجهله بالمطلوب، إن نطق العارف بما هو عليه، وعبارته تفيد بالقوة والمفهوم وبمدلول الصيغ، فهو معلوم لفظه، وإن زاد بقدر ما يقع الفرق بين المدرَك داخل الذهن وخارجه.

وأمَّا المحقق فمعلوم أمره إلى الله وحده، ولعبده الواحد، ولا يمكن غير هذا عقلاً، إذا وصل الصدِّيق إلى الشيء الذي يصدق به على الكشف والتحقيق والحصر، فتصديقه لم

يدخل تحت جنس الصديق المتوسط، وإن كان ضد الذي فرض تصديقه تصديق المتوسط، وإن كان على بينة من قوة تصديقه إلا على الوجه الذي يطمئن به القلب من مشاهدة الأفعال، ولا على الأدلة المذكورة المشهورة، بل بأمر هو ذلك الحق، ولا عين تبصره، ولا عقل يحصره، ولا علم يكشفه، ولا قوة تقدره، ولا إدراك يخصصه فهو المطلوب الأعلى، وهو الذي يفهم القوة من القوى، ويبحث عن السعادة بالتوطئة الإلهية، ويكون قلبه من قبيل الشيء المطبوع.

وهنا بحث لا يصح مفهوم صناعته بوجه، ولا على حال، وشأن الله هو الأول والآخر على الإطلاق، وهو الظاهر والباطن في الأكثر، وهو الكل بما هو ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله في جملة ما هو عليه إلى الله يصل العارف، وبه يعلم العالم، ومنه ينفق المحقق، وإليه يستدل الباحث، وعليه يسلك المستقل، وعنه يخبر المولّه، وله يتكر الكافر، وبه يكفر، وهو الظاهر في كفره؛ لأنه بالوجود الصادر عنه، لا إله إلا الله فقط.

الله فقط: النقطة سرُّ الحروف[1]، وسبب الخطوط وباطنها، وله نسبتها، وهو النسب

---

(1) قال سيدي علي وفا في المسامع: نقطة الحرف المنقوط منه بمنـــزلة الصورة الكونية الجسمانية من النفس المفارقة المتعلقة بها، لا هي داخلة في جوهر الحرف، ولا هي خارجة عن صورته المحسوسة؛ لأنه لا يتم ظهوره بأنه الحرف الفلاني إلا بنقطة، لكن إذا كان لجوهر ذلكِ الحرف مع مرتبته التعقلية مرتبة هو فيها مستغنٍ عن النقطة، ثم تجرَّد عن نقطته انتقل إلى مرتبته المجردة، وإن تم، وإلا تناسخ، أو حصل في ظلمة الإيهام والنفي الأول، كالغين والعين ذات واحدة هي بعينيتها مجردة غنية في قيامها عن النقطة، حال ما هي مقيدة بغينيتها، محتاجة إلى النقطة، فإذا تجرَّدت عن غينيتها بالتجرد عن غينيتها بالتجرد عن نقطتها رجعت عينًا فقط.

والثاني كالباء متى زالت نقطتها تناسخت في التركيب بين النون والياء والتاء والثاء؛ لتشابه الصورة بلا نقطة، وإلا تلاشت بإسقاط تعيين ما هي، وبذلك فُضِّل العالم على الجاهل، والعامل على الغافل، ومن أحبَّ قومًا فهو منهم.

اسمع: قال قائلٌ: «أنا نقطة الباء»، ولهذا حقيقة سيادية بالنسبة إلى المراتب الإرادية، وأدب إرادي مع المرتبة المرادية، أما الأولى فكأنه قال: من لم يتعيَّن بي تلاشى وانبهم، وأما الثانية فكأنه قال: مرتبتي التي ليس لي تعيُّن بسواها أن أكون تحتًا وعبدًا.

وقال قائلٌ: أنا خفضة الباء؛ لأن محلها أن تكون تحت النقطة؛ إذ النقطة في الظاهر المرتبي، كالجزء من الحرف المنقوط، والشكلة ليست كذلك، فلا تفصل بين النقطة وبين ما هي منه، فكأن هذا قال باللسان الأول: بي يُعرف ما وضعت لأجله؛ لأن بالحركة تعرف ما وضع اللفظ له، كما تقول: (البرام) هو بكسر الباء جمع برمة، بمعنى قدر، وبضمها هو القراد، فلا يتبيَّن ما وُضع له إلا بالحركة، والبراق بكسر الباء جمع برقة، وبضمها جواد المعراج، والبتع بفتح الباء:
=

الصحيح الذي يبلغ إلى السر، ويدل على الوتر، وشاهده الموجود في الغيب يشير إلى الوحدة به، وبرهانه في الشاهد يدل على آنية الجمع في مواقف السمع.

يقول ﷺ: «مَن لم يوتر فليس منَّا»(1).

النقطة وجود مفرد تدل على آنية أنا، وآنية أنت، وهوية هو، وهذه أسماء موجودة بعد وجودها، ورسوم بادية عنها وحدود تفتقر لها، وتسترها بالتصريف، وتظهر بالتشريف، النقطة تشير إلى وحدة المحقق عند سلب الإرادة، ونيل المراد، وحذف مسافة المواجد، والأشراف، وقطع التقسيم والاشتقاق.

الله فقط: الله هو الذي وجب له الوجود والوحدانية والكمال، ووجوده ينبني على نفي التشبيه، والتشبيه ينبني على إثبات التميز والتغيير والتأليف، والوحدانية تنبني على نفي الشريك، والشريك ينبني على الاتصال والانفصال والحلول والانتقال، والكمال ينبني على نفي النقائص، والنقائص منها ما يمنع الأفعال، ومنها ما يمنع الكمال، ومنها ما يمنع الإدراك.

الله فقط: مَن طلب عناية الله بالله وجدها، ومَن طلبها منه ب ع وصلها بمجموعه المدبِّر، ومَن اجتمع حتى يجدها بجوهره وجدها بالله ودبرته حقيقتين، ومَن استند ولم يفصل وأصله صحيح التوجه، وآنيته سالمة امتنعت في حقه؛ لأنها كانت تكون عبثًا، والله ﷻ هو الذي إذا صحب الصفة من جهة اصطلاح بعض الناس لا تصح إلا وهي حكمة، ولا تصح تلك الحكمة إلا وهي ذات ما، وتلك الذات لا تصح إلا به، وهذا الرابط لا يكون إلا من ذاته، ولا يكون ذاته بل هو المعلوم والمحصل المتوجه، فاعلم ذلك.

الله فقط: المحقق لا يُقَسِّم الوحدة، ولا ينسيها لغير الله، ولا يصرفها لسوى الواحد، الذي ينوب هذا الجمع المحقق هو الذي لا يلحق بالتحقيق، ولا ينسب إلى الجمع والتفريق، الوحدة لا توجد دون الذات، ولا تنصرف لمعلومين فتستتر بين ذاتين، وتجعل من مرتبة

طول العنق، وبكسرها: نبيذ العسل.

(والبضع) بفتح الباء: القطع، وبضمها: النكاح، وبكسرها: ما لم يبلغ العقد من العدد.

وباللسان الثاني كأنه قال: أنا تحت التحت، وعبد العبد، وإنما خص نقطة الباء وخفضتها بالذكر؛ لأن نقطة الباء هي النقطة المفردة اللازمة للتحتية، مما إذا زالت نقطته تلاشى، والخفضة موضع الكسر، وبذلك الكلمة جامعة بين المعنيين.

(1) رواه أبو داود (62/2)، وأحمد (443/2).

الإحاطة بوجود المقامين، فإن الذات والوحدة مقامان، ووحدة التوحيد لا يطلق عليها ذلك.

الله فقط: العلم يصرف ويثبت وحدة التنــزيه إلى الموجود. الوحدة وحدته، والموجود هو والوجود له، وبه الوحدة لا توجد دونه، ولا تنسب لغيره، الوحدة لا تشير إلى مقام معلوم دونه، ولا تدل على سواه، ولا تثبت مع وجود الأوهام، ولا توجد دون المقام، الوحدة به، والكثرة له، والأسماء تنصرف إلى الواجب، وتجمع بمعلوم الجمع الواحد في الشاهد والغائب، الكثرة المنسوبة إلى الوحدة تشير إلى جمع الأسماء والمسميات لديه، وتصرف الإحاطة إليه، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3]؛ جمع الوجود بأسره، وأتقنه لنفسه، وهو الموجود والوجود، والسر والجهر، والشاهد والغائب والمشهود، قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: 17] الآية دلت على ظهور المقام الجامع بمعلوم المقامات المصروفة إلى الوحدة المنسوبة له، وهو الموجود والعالم والعلم، والحامد والمحمود[1].

(1) قد كان معلومًا من حيث الأصل فظهر بصورةٍ أخرى؛ فأثبت ومَحَى، وأفْقَرَ وأَغْنَى فأوعى، من عرف الله من كونه واحدًا فما عرفه، ومن عرف الله بالله فما عرفه، ومن عرف الله بالدلائل والشواهد والآيات فما عرفه، ومن عرف الله بإشهاد حاصل عقيبُ طلبٍ فما عرفه، ومن عرف الله بتعريف معين منه سبحانه فما عرفه، ومن عرفه من حيثية حالٍ ما من أحوال نفسه فما عرفه، ومن كانت معرفته نتيجة توجهه نحو الحق أو إقباله عليه بعلم وعمل وقصد وتعمُّل فما عرفه، ومن كان حاصل معرفته أمرًا يستلزم أخذ شيء وترك شيءٍ، وتصحيح أمرٍ وتزييف أمر، وتقرير واعتراض، وترجيح وإعراض فما عرفه، ومن ذاق طعم الاستهلاك في الحق ورآه الغاية فما عرفه، ومن توقفت معرفته على موجب ما أو موجبات معلومة أو مجهولة فما عرفه.

وإنما المعرفة لمن فَجَئه الحق بِتَجَلٍّ غير مُنضَبِط، ولا مكيَّفٍ بحيث يستلزم ذلك الشهود معرفةً لم ترِدْ على حالٍ معيَّن، وكان من شأن تلك المعرفة معرفة سبحانه أنه بكل وصفٍ موصوف، وله ظاهرية جميع الصور والحروف جمعًا وتكثُّرًا، كما أنه المعنى المحيط بكل حرف توحُّدًا وتستُّرًا؛ يقبل بالذات من كلٍ حاكم كل حكم، ويظهر بكل رسم، ويتسمَّى من حيث كل شأنٍ من شئونه التي لا تتناهى بكلِّ اسم لا ينحصر في عرفانٍ ونُكر، ولا يتنــزَّه من حيث ذاته عن أمرٍ نسبة التركيب إليه؛ كالبساطة والحصر، والقيد؛ كالإطلاق والإحاطة. من جملة أوصافه وحده هي منبع الوحدة، والكثرة المعلومتين، وله الإطلاق المقدَّر من وجهٍ أيضًا عن كلِّ وصفٍ جامعٍ بين صفتين متباينتين، أو متفقتين معروفتين، أو مجهولتين، أسمائه وصفاته متعينات بشئونه، وتعيُّن بعض شئونه موقوفٌ على البعض، ومنتهى فروعها متصاعدًا أمهات شئونه المسماة بمفاتيح الغيب، والاثنان منها متفرعان عن السابقين عليهما، والسابقان؛ وهما مفتاحا الكثرة: متفرعان عن الوحدة، وهي:
=

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى الإثبات والتنـــزيه والجمع والتوحيد، وسكونه إليه بقوله: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(1).

الجمع(2) لا يحجبه الأوقات والتوقيت والمواقيت، ولا تستره المرسومات، ولا تستقل دونه المعلومات، الجمع الواحد لا يغيب عن الظاهر فيعدم فيه، ولا ينتقل في الباطن فيفقد منه، الجمع لا يختفي له الوارث، ولا ينـــزل له إلا في الجمع، وجود يجود بمعلوم الوصل، ويجمع الفرع بالأصل، وهو عهد التمام الذي يصرف النظر إلى وحدة المشهود في الشاهد، وينسب الوحدة إلى الواحد.

المحقق لا ينصرف إلى الماضي والمستقبل فتطلبه المواقيف بلواحق الحجب المرسومة، ولا يتشوف إلى الوقوف في مواقف الحدود المعلومة، المحقق لا ينتقل إلى معلوم دون معلومه، ولا يبصر في جمعه وتفريده غير مقامه، وما دون هذا التحقيق فهو وهم لا يجوز مع برهان التوحيد، وتلبيس لا يخرج عن متابه.

الإحاطة: هي التي تنصرف بالتنـــزيه إلى الله، ولا يستدل عليها بدلالة مختلفة الحدود، وهي حضرة الجمع الواحد المتفقة من جميع جهتها بإيقاع التحقيق بمعلوم الحق حق لحق،

أعني الوحدة وما سرى وتعين بها من مطلق الذات متعيِّن مما لا يتعين منه.

فمن تحقَّق بالشهود الذي هذه المعرفة من لوازمها، ووجد صحَّة ذلك، ومطابقته منه سرًّا ومعنىً وروحًا ومفنىً في كل موطنٍ وحالٍ وحسٍّ ومثالٍ، ورأى الأمر مطردًا في تفاصيل شئون ذاته، وفيما خرج عنه باعتبار من مخلوقاته سبحانه ومكوناته ورأى نفسه وكل شيء من وجهٍ غير الحق، ومن وجهِ شأنه، ومن وجه عينه، ورأى الحق مرآةً يُرى فيها تفاصيل أحوال عينه؛ كما يرى عينه مظهرًا لوجود الحقِّ؛ كل ذلك في آنٍ واحدٍ جامعٍ بين هذه الأحكام وغيرهما مما لا يتعيَّن ذكره بعبارةٍ ولا يتنبَّه له بإشارةٍ، وصحَّت له المضاهاةُ والمسامتةُ في العين حيث لا وصل، ولا بين، ولا حيث، ولا أين.

وكان إدراكه لما أدرك في ذاته وبذاته، وتمكن أن يظهر من حيثية كل وصف وحال بأحكام سائر الشئون والصفات، وأن يُظهر أيضًا ما شاء إظهاره تامًا في كل الحالات، وحفظ صورة الخلاف بأحدية الجمع؛ كما يَحفظ الوترَ الشفعُ، وكما ينحفظ أيضًا بالأصل الفرع، فهو العارف، والمدرك الواصف، والحافظ الثاقف، والحاكم المشارف، ووراء ما ذكر مالا يُقال، ولا يظهر صاحبه حكمه ولسانه تامًا لِذي علم معين ولا حال.

(1) رواه مسلم (352/1)، وأبو داود (232/1).

(2) الجمع: إشارة إلى الحق بلا كون، ويسمى جمع التمحض، لا تطرأ الصور الكونية في الحق وانطماس كثرتها في وحدته، وانجلاء عينه لدى الغير، بإطلاق لا يبقى معه غير.

والوهم مصروف عنه، والأول هو الآخر، تجد الوحدة التي لا تضاف إلى غيره، ولا تعرف إلا له، ولا تنصرف إلى الأبد دون الأزل، ولا إلى الأزل دون الأبد.

المحقق بالحق لا يذهب عن الحق، ولا يحكم إلا به وله، وهو الذي يصرف الحق إلى آنية الحق، وينسب وحدة الذات إلى التنـــزيه من كل الجهات؛ ولهذا المقام أشار المحقق بقوله: «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان[1]».

الله فقط: هو الأول من حيث هو الآخر، وهو الظاهر من حيث هو الباطن، وهو بكل مدلول منها هو ذلك، ظهر التنـــزيه، وبطل التشبيه؛ لأن الجسم ما بين نهايتين وعدمين، لأنه هو الذي كان في النظام القديم يشمل كلية الممكن العام، فخرج من العدم والجواز إلى الوجود المشخص والثبوت، ويمكن منه وفيه أن يرجع على ما كان عليه، فهو الذي لا يلزم من فرض وجوده وعدمه محال، وهو واقف من صفة نفسه على حاشيتي النقيض والسلام على من اتبع الهدى.

الله فقط: قدر أن الوجود كله صورة واحدة محيطة بظاهره وباطنه، وأن باطن تلك الصورة محيط بظاهرها، وظاهرها مواز لباطنها، وأن تلك الصورة المحيطة بالكل مشتملة على كل صورة، ومحتوية عليها لا تشذ عنها صورة واحدة من صور الموجود، لا ظاهرها ولا باطنها، وقدِّر أن الوجود كله مشحون صورًا بعضها في جوف بعض، ومجاورة بعضًا ومبينة عن بعض، ومنها ما يكون بعضه في جوف بعض صورة أو صور، وبعضه محتويًا على صورة أو صور، وكذلك المحاورة والتباعد، وقدِّر أن في مركز ظاهر الوجود نقطة صورتها صورة المحيط، ونسبتها إلى كل نقطة من الوجود نسبة واحدة، فهي بمقابلتها كل نقطة بذاتها، ومحاذاتها لها متشكلة بشكلها، وتلك النقطة أيضًا متشكلة بشكلها هي لكن من حيث الوجه الذي يليها منها فقط لا من كل وجه لهذه النقطة.

فإن هذه النقطة مقابلة بذاتها لكل نقطة، وليس كذلك سائر النقط؛ لأن كل واحدة منها لا تقابل بذاتها سوى هذه النقطة التي في عين الوسط، وإن حاذت غيرها فبوساطة هذه النقطة التي لها محاذاة جميع النقط بذاتها، وقدِّر أن الصورة المحيطة بجميع الصور لها اسم من حيث صورة في متصور قائم بذاته وهي غير قائمة، وللمتصور من حيث موصوف بها اسم، ولمّا ارتبطا ارتباطًا لا يصح انفكاكه أبدًا دخلت العُمْرَة في الحجّ إلى يوم القيامة، لم يصح الإخبار عن مطلق الصورة إلا ومطلق المتصور صحبتها، ولا عن

---

(1) تقدم تخريجه.

محيط المتصور إلا والصورة صحبته، فالمتصور بالصورة يُسمًّى بظاهر الصورة ظاهرًا وباطنًا، ويحكم عليه بكل حكم قبلته الصورة من إطلاق وحصر وغيبة وحضور وأحدية وكثرة وجمع وتفرقة وسذاجة ولون وحركة وسكون إلى ما لا ينضبط كثرة من الأسماء والصفات.

فالصورة من حيث هي جميع التعددات والتنقلات والتحولات والتفاصل، وللمتصور من حيث هو لا من جهتها ألا وصف ولا نعت ولا اسم ولا رسم ولا حدّ، وإن كان له شيء من ذلك كله ولكن فبأول مرتبة صورية إطلاقية، فله الإطلاق والأحدية والجمع والسذاجة والسكون والثبوت وشبه ذلك، وللصورة لا من حيث هي لكن من حيث يفسد قيامها به نقائض هذه، ولا حديث عنها ولا عنه إلا بقيد ارتباط بعضها ببعض، ولو في أول مرتبة من مراتب الارتباط نقائض تلك، وهي الحضرة والكثرة والتفرقة والألوان والحركات والانتقالات، لكن لا يقع الحديث أبدًا إلا عنهما معًا، وإن كان الكثرة والتعداد وأخواتها.

فتأمل كل كلام منطوق به، فأي القسمين غلب عليه فاحكم به، فإن كان الكثرة والتعداد وأخواتها؛ فاعلم أن المخاطب به هو الصورة والخلق، ولمتصورها وصفها، وإن غلبت الوحدة وأخواتها؛ فالمخاطب بذلك المتصور والحق، فإذا رأيت التعدد والتنقل والحركة والولادة فذلك للصورة والخلق، وإذا رأيت الوحدة والثبوت، ولم يلد ولم يولد؛ فذلك للحق القائم على كل نفس بما كسبت، فكل شيء هالك للصورة والخلق إلا وجهه؛ لأن الأعراض وهي الصور لا تبقى زمانين أصلاً، بل تتبدل في كل نفس إما بمثل أو ضد أو خلاف؛ لأنها لذاتها فانية.

وإنما المُسمَّى بقاء يغاير توارد الأمثال في كل نفس، فيظن أن الثاني عين الأول، وليس كذلك ولا ينبغي ذلك ؛ لأن القائم به ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29]، يريد تعالى كل نفس فيرد المثل بعد المثل، ولا يشعر بذلك المحجوب، فيظن أن ذلك الأول باق، وهيهات، لا بقاء إلا لله وحده، والفناء لكل ما سواه بالذات في كل نفس، والصورة الجزئية تبقى بتوالي الأمثال، وليست أمثالاً تمامًا فإن مثل الشيء على التمام نفسه فقط، فلو لم يكن بين الأول والثاني من التغاير إلا أن زمانيهما متغايران لكفى، فكيف وثم تغاير يظهر أثره على التراخي؛ كالانتقال من طفولة إلى شبوبة إلى كهولة إلى شيخ، من بلح إلى رطب إلى تمر.

وأمَّا مطلق الصورة فبقاؤها بعد الخلو عن صورة ما سواه كانت أمثالاً لها، أو

متضادات أو متغايرات، المقصود عمران مطلق الصورة الوجودية صورًا، فالوجود واحد هو القائم بجميع الصور، عين الخالي عنها على التعاقب، والصورة هي الهالكة دوامًا المتعاقبة دوامًا كائنة بائنة، شاهدة غائبة، قديمة حديثة، موجودة معدومة، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا.

الله فقط: أشهدت الماهية المنسوبة القائمة بالماهية الأصلية القائمة على كل نفس بما كسبت منها أنها لها من صفة وجودها حال وجودها وإيجادها، وأنها مقيدة بها، وذلك صورة لها، وتلك لا يلزمها منها إلا ما يلزم من المقوم والمتمم والمخصص فقط، وزعمت أن الماهية المطلقة الوجود واحدة من كل الجهات، والمقيدة واحدة من جهة معقولها الكلي، وتُقال على كثيرين بالنظر إلى مشار مشار، ومعلوم معلوم، ثم قالت النسبة القائمة المحاطة من المطلقة للمقيدة: إن كانت وجودية فهي هي، وإن كانت غير ذلك فلم تظهر المقيدة من حيث ظهرت؛ بل الظاهرة المطلقة، وظهورها لها.

وهذا فيه بحث وليس بالقليل، وإن كانت وهمية قريبة من الوجود، وبعيدة من العدم فيكون من قبيل الشيء الذي تنصرف لوازمه إلى ذاته وتعود إلى ماهيتها بالعَرَض، وتبعد عنه بالوهم في المعلوم المفارق، وفي المدرك بالطول والعمق والعرض، وإن كانت واحدة من حيث الماهية، أعني: أنها لا يمكن فيها بما هي ماهية إلا أن تكون في الوجود وحدها فهي الوجود خاصة؛ لأنه لو كان للوجود ماهية غيرها لكان يلزم أن يُقال للوجود: ماهية وماهية بما هو موجود، أو ماهية لا كالماهية، أو ماهية الماهية، وهذا فيه ما فيه.

أو تُقال: بإزاء العدم، أوبالمعنى الذي لا يُقال فيه إنه لا من قبيل المعدوم، ولا من قبيل الموجود، أوتُقال بإزاء الموجود بالوجه الذي لا يُقال فيه عَرَض له الشيء أو عرض في الشيء، وما أشبه ذلك، أو يتوهم أنها ثابتة في المكان المقدَّر الذي منه في الذهن معنى ما يعرض له الوجود، فيعود بذلك العارض موجودًا، إما يشار إليه ويُعوَّل عليه، ويتطرق إليه الوهم، ويدل عليه الدليل.

أو يُقال إنها أعم من الوجود أو الوجود أعم منها، وهذا كله لا يصح، إذ الحق لا يكون إلا المعلوم الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته، وهي به ماهية، ففيه وبه أدركت، وهو أظهر لاحق نسبتها، وهذا كله عسير التحصيل من جهة العبارة، ويحرم عليه ضمير العبد بحركة الإشارة المستلزمة لقوة صدقه بوجه ما لطيف.

وهذا كلام لا يسعني فيه الكلام، ويسعني فيه الرمز والإبهام، وهو إن كنت أنت بما تجد فقط فأنت خبرك فقط؛ لأنك أنت أنت بذلك، فأنت خبرك بحسب هذا القياس

وحكمة هذا القياس، وإن كنت خبرك فأنت أنت لكنك غير خبرك، فافهم، وافعل بمفهومه وبمثله، لكنك خبرك فكذلك، لكنك ذلك كله، وذلك التبدل، لكنك البُعد الداعي، والقرب الساعي، والقصد الراعي، والوهم الناعي، والعلم الداعي، وهو الخبير، وهو البصير، وهو القليل، وهو الكثير، وهو ألا وما يجب بعدها، وهو ألا وما يلزم عندها، وهو أن والتالي، وعن والعالي، وهو الشمائل المنحطة، وهو الحط والحطة، وهو الشكل والخط والنقطة، وهذا كله توحيد التفصيل، لا توحيد التحصيل.

وسعت الماهية القيومية إشهادها بلسان صاحب حالها، لا بلسان حالها، ثم بهما، أو بما أوهما، أوبما أبهما؛ فأشهدتها وشهدتها بأنها الشاهد المشهود منها، ثم تفقدت الأمر في الجميع، ووجدت الشهود عندها، وما شهد وانجر بها عليها عندها، والشهادة الوهمية جعلت ما قبلها وما بعدها، والحقيقة شهدت برفع القبل والبعد والقرب والبُعد فشهدت بضد تلك الشهادة أن لا شهادة، ورزقت الشهادة برفع الشهادة، وماتت بمعنى استحقت على هذه الشهادة، وقالت: لا يصح وهم الشاهد مع الغائب الشاهد، ولا يثبت أكثر من واحد صح برفع الواحد، ثم جمعت أوهامها، وفصلت إيهامها وإبهامها، وتذكرت ما رتبت في هذا العقد والحجة، وما بحثت فيه، ثم فكرت في الذي حصلته بازاء ذلك، وهو من وراء ذلك لا من قبيل ذلك.

ثم وجدت الحق وأشهدت بالحق الحق، وقالت: الوجود هو الحق، وهو يقول الحق وحده، وما سوى الحق باطل، ولا يقول هذا القول، ويكون هذا الحق إلا واحدًا، ولا تكون وحدة هذا الواحد من قبيل الوحدات المذكورة في الصنائع، ولا الموجودة في الضمائر والطبائع؛ بل هي وحدة بعد مفهوم الوحدة، وهي تقوم القليل والكثير في معناه بما هي ماهية في ذلك؛ لأنها ذلك هذا بالقضاء الوهمي عليها، وبالمتوسط الشاكر، فهي وحدة مستدعية للذوات، وتلك الذوات ذات، وتلك الذات تلك، ثم وجدت ما تقول وما تعلم وما تفعل من صفة نفسها، وضد ذلك كذلك، وصفة النفس نفسها، ثم وجدت تمزيق صحيفة الصواب والخطأ، وعاينت في العلم عين الخطأ، وعلمت كيف اختلفت بذلك الخطأ، وقالت: تمزيق الحجة هو السلوك على المحجة، وجاء علم بغير علم، ومعلوم قبل عالم.

وكان الوجود الجامع المانع قد عزم أن يشهد عليها، وكان الكتاب المذكور قد عزم على أن يستقل ويرفع إليه، ويحكم بمقتضاه عليه، فلمَّا سمع منها هذا منع الحكم والشهادة، وأنكر الأصل والزيادة، وعلل الضرر والسعادة، والحق لا يمكنه إلا الحق، فقال

الحق لأنه الحق، فالوحدة تقبض، والكثرة تبسط، والحق بعد خلف وراء ذلك كله.

إيه: هذه الماهية قد هلكت أوكادت، وتوحدت أو كانت، وقد ظهرت ولم تزل، وهذا الحق جد بما يجب له، وهو كما يجب له، وعلى ما يجب له، وكلامنا هذا عقب الاستحقاق لا بعد الاستغراق، وفيه تسامح وتجاوز، وتقديم وتأخير، ومفصل ومجمل، ومخصص ومهمل، وفيه أيضًا أسباب الأحوال الصالحة، والمتاجر الرابحة، والأخبار الراجحة، والتدابير الناجحة، وبالجملة: هي مغناطيس النبيه، ونتيجة دعوته، وقطيفة الطالب، وطبيعة غبطته، مَن تعلم ما ذكر حسبنا ذكر في هذه الحجة القائمة على أهل المحجة والحجة يكتب شهادته ولا يكبتها، ويستدعى سعادته ويحكمها، ويزيل ما يريد منها، ويستثني ما شاء، ويستعذر عما شاء، فله ذلك، وانصرف بحاصله عنها، ويضمن مفهوم نصيبه منها، وبهذه الشهادة يظهر المصيب والمخطئ، ويتميز المعطَى من المعطي، شهد ذلك، تلك ذلكم أنا ومفهومه إن كان لا إلا أنا، فلا إلا هو، وإن كان لا إلا هو، فلا إلا أنا، وإن كان لا أنا إلا بما أنا، فهو المستقل فقط، وهو هو، وهو الواحد.

وإن كان أنا بمعنى أنه هو أنا في وقت ما وفي حال ما وباصطلاح ما فأنا المستغني، ولكنه بوجه ما، وبهذا الرأي فهو أنا بوجه ما، وبهذا الرأي فهو أنا بوجه أكمل، وأنا هو بوجه أنقص، وإن كان الأمر في أنا وهو هو سبب نيل معلوم ما يمكن به أن يفصل الحق، ويقطع سبب التلوين، ويوصل حبل اليقين فأنا القابل، وهو العارض، وأنا العارض، وهو القابل، وهو الأول، وأنا الأول، وهو الآخر، وأنا الآخر، وهو الظاهر وأنا الظاهر، وهو الباطن، وأنا الباطن، وهو باطن الباطن، وهكذا.

وأنا المرتبة المفردة، والمضافات المعددة، والأكوان المبددة، وهو الواحد في كل واحد من ذلك بما هو ذلك، فأنا عن، وبعد، وهو هو فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن بوجه أكمل، وجملة الأمر إمًّا متابعة تكشف العين بالعين، أو دائرة تدور على نقطة البين، أو صدق سكينة، أو قسط مقاومة أو حفظ مشاهمة.

وإن كانت البُدِّيَّة تقوم بجهة وجهة، فالتقديسات بعد، وإن كانت البدية من جهة فقط بجهة فقط فالغرة هناك، وإن تلاشت في الوحدة المذكورة بالوحدة المذكور فالكمال مرسل، يا هذا، اضطرني الحال في هذا الموضع إلى النطق بكلمة هو قائلها: أنا العليم بخفيات الصدور، أنا الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويثيب على كظم نفثات المصدور، والذي حملني على ذلك متابعة الفكر في حال المنظور فيه، وفي الوهم الذي هم الناس فيه، فسبحان العسير اليسير! فعليك بالقسط والصعود، والنكت والسعود، ثم

المضمار والعجائب، ثم الأخبار والغرائب، ومع هذا أنا وحقه عبده بعبودية؛ بل بعبودة تمتثل أواصر قسط ناهيتها بالأمر الذي يجمع على أمور، وفي نفس الجمع على أوامر تهمل العارض وتضحك ممَن يجد الوجود العارض، وشعورها به يغنيها فيه بالذي يغنيها عنه، وبذلك يغنيها عن التعريف، وبعضها من التحريف والتوقيف، وذلك في ثنية القصد من دقيقة الوجد من درجة السعد في ساعة المجد في أول يوم الحمد من جمعة الفرد، في شهر الصدق، سنة الرزق، في قرن المقارنة في تاريخ الموازنة؛ بل في ثانية سلب الزمان، ودقيقة حذف المكان، من درجة عين العيان، في ساعة لا يسع فيها إلا واحد ذلك مع ذلك برفع ضد ذلك، في يوم كان مقداره الأزل، وقدره الحضور مع مَن لم يزل، مما لا يعدون، ولا لمثله يستعدون، بل يصدون ويستبعدون، من جمعة إبطال العدد، في شهر رفع الأبد، سنة إهمال الأمد، في قرن قرة عيْن الخلد، في تاريخ تبعية مظهر هذا المدد، المخاطب بقوله تعالى:

﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 2,1].

في ثانية دقيقة درجة ساعة يوم الجمعة شهر سنة قرن تاريخ هجرة سيد الواصلين ورئيسهم وأسوتهم وشفيع مرءوسهم، فمَن عنده شهادة يؤديها له لبه، قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: 283]، ولا يكتب بمقتضى ما يسمع؛ بل بما يتصور ويجد ويشعر، ويشهد بالخبر والاسم لا بالضمير والرسم، وقد أرشد إليها، ويرجي له إذا أداها أن يموت عليها.

قال ذلك وكتبه واعتقده، وحض عليه، وأرشد إليه عبد الحق، تصحيفه بالصدق الذي يشهر بابن سبعين، فتبين، وسمّاه والده «محمدًا» بالاسم العادي.

وسمَّى هو نفسه بـــ «الآخر الأول» لأجل نصيبه من الآخر الأول.

إيه: الله فقط لا شك في ذلك

والحمد لله وحده

* * *

ملاحظات على بدّ العارف

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم كثيراً

كل مكتوب مكنون في كتاب «بُدّ العارف» يَعجز عن فكّه العليم بفك المُعَمَّى - أفُكُّه لك يا من حرّك لكتب «بُدّ العارف» حتى يقع الاسم على المسمّى، ويشهد شاهد الأشياء ومُنَزِّل السُّور ومُشبع الأحشاء، ومُنشيء الصُّور - فذلك إذا أنت استقمت على طريقة السلف واتجرت في أسواق المعارف بمالِك لا بالسلف، وخلصت نفسك من شرك العاجل، وقويت نفسك في طلب الآجل، وأسعفت باعث بشير المخبر البشير في مطالبه، وشفعت وارث شفيع المحشر في مآربه، وذُقت بلسان حالك الثاني من طيبات ملك هويتك، وجُلْتَ بإنسان بالك الباقي من مغيبات كُنه آنيتك، وتصرفت في الكون بالقدرة المقيدة، وتحركت بالعون والهمة المؤيدة، ودخلت على باب الجنة المعجلة، ورحلت لبواب الجنة المؤجلة، ويغبطك خبرك المنبعث بفرعه وأصله، ويخصك شرفك المكترث بنوعه وفضله، وتسع في سرك بأذن علمك.

المرء مُجزي بعمله إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً. وتحقق شروط الكمال وتشهدها قبل الشهادة الخاصة، شهادة المشيع الكاشف، وتخلص نفسك المنسوبة لك خلاص المخلص المكاشف، ويضمحل شخص شهوتك ويتلف، وينمو حِرْصُ همتك ويخلف، ويفاض عليك البشر حتى تكاد تشير بمدلوله حركات بشاشتك، وينشدك البشير: أنا البشير رسول حشاشتك. وشأنك لا تغشاه شُبهة ولا تعشاه، وحاشاه حاشاه حاشاه.

ولعلك تقول: يا هذا! إنّا وإن لم نحصل الشروط كلها نقدر على بعضها، وأنت قد ارتهنت وزعمت أنك تفيد شروح ما زعمت، وأشهدت الأول الحق بُدّ الكل وبُدّ العارف والمعروف والمعرفة بذلك على نفسك بذلك، والزعيم كما تعلم غارم، وأنت أمين الله على نفسك إن كان تعلم أني عدمتها الآن كلها أو بعضها. فإن كان عدمتها كلها فينحل ارتباط شرطي مع مشروطه على الإطلاق، وإن كان عدمت منها بعضها فقط فأنصفني والزم نفسك ما يلزمها، وقابل البعض بالبعض، ونزّل المثل على المثل، وأعطِ بقدر الذمة، فإن حَبْلَ الإنصاف عند الحكماء لا يُبان، وبالجملة: كما تدين تُدان.

فإن قلت ذلك كما بلغني أنك قلته، نرسل لك في الحين الجواب، ونجيبك بالسلب لا بالإيجاب، ونُكَبُّ كواكب الإسعاف في فلك الكتاب. وإن أنصفت وسلمت، يصلك

الشرح قبل أن تبحث عن شأنه، ويرد عليك مقصودك في الحين قبل أوانه، مثل أوّله الذي كان مكنوناً في مكانه. والشروط التي ارتهنت فيها أول الكتاب كان القصد بها أن تكون محصلة على أكمل ما يكون. وهذه وإن كانت حجة جَدَلية فهي بحسب معاملة أهل زماننا حكمة صالحة، وتجارة رابحة. وَوَحَقِّ شديد البطش الشامخ العرش، ما يمنعني من بثّ الأسرار إلا تقلّب نفوس الأشرار، وسوء تصوّر آلام الأخيار الأحرار والأبرار.

ولو أنصفني المشار إليه بتدبير الرعية ويجمعني مع خُصمائي في مدلول كلامي متى ما أشكل عليهم، ويحض على الكلام الصناعي بمحضر من يجب، ويحكم بالحق على المخاطِب والمخاطَب - لأسمعت الطلبة من المعاني العجيبة والعلوم الغريبة، والحقائق المكنونة وغير المكنونة، والفوائد المخزونة المصونة، ما يعجز عن تفهم مفومه لبُّ الحكيم النحرير، ويحنُّ إلى مدلوله قلبُ الخسيس الشرير. ولولا العهد الذي تتخذه همم النفوس السّنِية، وتمشي به على الطريقة السنيّة، كنت نظهر خاتم التصريف الأول الذي إذا جعله الكاتب في يد عزمه، ويخبر فيه بوهمه وحزمه، ويقول ثالثة ثم يضمر ثانية، ويقول واحدة ثم يضمر ثالثة، ويقول رابعة ثم يضمر خامسة، حتى يسقط له في خَلَده الشرح، ويهجس له في سره الفتح، ويقرأ سورته تلك على نفسه، ويُبصر مع ذلك صورة تمثيله النزوعية صُحبة أنسه، ويكتب عند ذلك ما شاء من نظم ونثر، ويأتي بالأمور العجيبة في كل ما ينتحله، ويشهد له جميع الحكماء أنه يمين البراعة ولسان البلاغة؛ ويسلم له في أدبه الأدباء، ويغبطه في خطابته الخطباء، ويصح عند الكل منهم أن أصول ألفاظه غُذّيت بلبن البيان وأنها من غير شك ولا ريب أسُّ فصاحة قُسٍّ وسَحْبان.

وإذا نظر الناظر في طِرسه يبصر فيه وبه ما شاء، فإنه مرآة الحِكم والأدب، ومشكاة الأمل والأرب، ويحق أن يقال له: يا أيها الخطيب! كلامك إنشاده يدهش الشايب والناشي، وقولك يفوق القول كله إلا المفصل بالبرهان والسماع الفاشي. وينشد:

نُعماك أعظمُ لا ما تُبْرِزُ الفِكَرُ   أما القوافي فقد سابتك والفِقَر

وبالجملة! خواتم أهل الحق لا يقف لها إلا المحال العقلي ، أو الشرعي، أو العهد المذكور قبل؛ ويمنح نتيجة الأسماء العامة، فإن لكل اسم مرتبة خاتم، ولكل خاتم كلمة، ولكل كلمة مشار ما، ولكل مشار ما سرٌّ، ولكل سر قصدٌ، ولكل قصد أمل، ولكل أمل وقفة، ولكل وقفة إذن، ولكل إذن استدعاء، ولكل استدعاء تكليف، ولكل تكليف تعليم، ولكل تعليم شك، ولكل شك تنبيه، ولكل تنبيه بيان، ولكل بيان تبيين، ولكل تبيين قرار، ولكل قرار تقرير، ولكل تقرير تقدير، ولكل تقدير مشاهدة، ولكل مشاهدة

تصريف، ولكل تصريف حد، ولكل حد تعجيز، ولكل تعجيز فتح، ولكل فتح خطاب مدلول، ولكل خطاب مدلول حكم، ولكل حكم سَفرة، ولكل سفرة شأن، ولكل شأن وحدة، ولكل وحدة وسيلة، ولكل وسيلة دعوة، ولكل دعوة توجه، ولكل توجه صنائع، ولكل الصنائع صورة، ولكل صورة سورة، ولكل سورة قيامة صغرى، ولكل قيامة صغرى انفصال، ولكل انفصال تبدل، ولكل تبدل تجديد، ولكل تجديد اجتماع، ولكل اجتماع قيامة مخلصة غير القيامة المعروفة، ولكل قيامة مُخلصة شروط من التي تقدمت، ولكل شرط من الذي تقدم سَفرة ثانية، ولكل سفرة ثانية ثالثة، ولكل ثالثة رابعة، ولكل رابعة خامسة، ولكل خامسة سادسة، ولكل سادسة سابعة، ولكل سابعة جنة، ولكل جنة ماهية ممتدة مع عرضها وسنة منحطة عن فرضها، ولكل ممتدة بحسب الطول والعرض والعمق جهنم نازلة آخر اللواحق وأول الظل ووسط الذل، ولكل ذلك خطوط مشبهة ونقط مركبة، وأشياء بعد هذه سبعة لا نذكرها لشدة ظهورها ولكونها ممنوعة ومخوفة. والجميع ما بعض الصنايع المذكورة قبلُ حضرةً وسريرة ودرجة رفيعة وأشياء ثلاثة مخزونة، ووسيلتها ومفتاحها في المنوطات، وبوابها في عالم الصديق، والإذن في الاسم الأعظم، والتنفيذ بيد المسمى الأكبر عز وجل، والشفيع موجود في كل رتبة تقدمت أو تأخرت لمن تبصره ﷺ.

فسبحان الذي يُدبِّر الأشياء ويديرها بالتقديم والتأخير والجبر الذاتي والاستطاعة العرضية، وبيده ملكوت كل شيء، وإليه ترجعون.

ومع هذا مَنْ ذا الذي يفهم تدبيره إلا إذا ألهمه الملهم؟! فانظر لنفسك يا غافلاً عن شأنه، وتدبر بُدَّك ببُدّك في بُدِّك الذي بيدك واحفظه، فإنه تاسع كتاب وقع في العالم، وإن كان لم نغتبط بتأليفه ولا أودعته من الأسرار إلا القليل ولا تتخلق بأخلاق الذي يذم مؤلفه ويتبع سواه، وهو مع ذلك كله يقول إنه يهواه.

وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذي قصدناه، فنرجع فنقول: ليس لك من الأمر شيء، وليس لك علي ما تطالبني به، وليس علي هداك ولكن الله يهدي من يشاء، وليس لنا من الأمر إلا مرتبة العبودية خاصة، ولكن نتكلم معك بقدر الاستطاعة، ونسأل الله البراءة من التباعة، وخير الأعمال ما قُصد به وجه الله تعالى خاصة، فإن الإخلاص أصل النجاة، وعمدة الرفعة والجاه.

قال ﷺ: «يقول الله تعالى: إني لا أقبل عملاً أُشرِكَ معي فيه غيري، وأنا أغنى الأغنياء عن الشريك». فخذ نفسك بتحصيل ما نرسمه لك، وأظهره على عوالمك كلها

وتكون من السعداء وتظفر بالرشاد المحض إن شاء الله تعالى.

ومتى ما يقدح في قلبك بارقُ خير قُرَّه وخلِّصه من شوائب الرياء، وعجل بتحصيله ولا تتشبه بالذي تخلف عما نواه، وسوّفه وهَمُّه بوقت لعله لا يراه، وبادر إلى كسبه فعسى يثبت الإخلاص في أثنائه، ويحصل الثواب عليه إلى حين ابتدائه، واصعَدْ تركيب التحقيق، واعلم أن ما من عليم إلا وفوقه عليم، وما من حكيم إلا وفوقه حكيم، وفوق الكل الحكيم العليم، والعلماء يتفاوتون في السعادة والصعود: فمِن موَفٍّ ومِن مُقصِّر، ومن عاش ومن مبصر. وها أنا أفيدك أنموذجاً تنتفع به بحول الله تعالى. فإذا استوفيت شروطك كلها يتبين لك جميع ما في الكتاب المذكور من الألفاظ الوحشية واللغات الفارسية والحبشية، ونفسر لك مجمله ونخصص مهمله ونظهر الغائب المحجوب بنصّه، ونجمع الخاتم المنسوب مع فصه.

فصل

يا هذا! كتاب «بُد العارف» جمعته من مذاهب المراتب الخمس المذكورة فيه، وتكملت عليها من نفسي. وأنت تعلم أني لم أمتحنه ولا بيّضته، فإنك كنت تضبط الأصل عندك، وتدفع المواقف خاصة. وفي كريم علمك أن الكلام المتقدم يُستعان به في التأليف على الكلام المتأخر. وأمليته لك من صدري كما جرت عادتي كلها، وكان العمر سِنَّ الشبيبة، والآن هو آخرها أو قريب من آخره. وكان الخاطر مختلف الأخبار فاقبل العذر في ذلك أنت ومن يبصره. وقد عرّفتك مشافهة أن المحقق يضبط أشكال حروفه بنوع آخر بحكم ما في وقت ما لغرض ما لا يعرفها إلا هو أو من يخصه بخلاف ما هم الناس عليه، ونبهتك على ذلك. وصناعة هذا الكتاب صعبة، فإن الكلام يدور فيه ويتداخل والمقرب يكلم كل مرتبة مِن نوعها، ثم من قوته فيها، ثم يتكلم بحاله وشأنه، وكلامه الخاص به لم يكمل ولا يحل أن أكمله بعدم إنصافكم وقلة قبولكم حتى تصلح النسب ويدنو السبب.

فصل

يا هذا! كلُّ ما تقدم فيه - أعني في «بُد العارف» - هو المتأخر، وكل ما تأخر هو المتقدم، وكل ما يختلف فيه يتفق إذا كرر، وكل ما يتفق يختلف إذا صُرِف.

فصل

يا هذا! جميع كتابي «بُد العارف» من السفر مائة مسئلة، ومن المنوطات ثلاثة، ومن فوقها مسئلة، ومن الحبل مسئلة من كل مرتبة. ولم نثبت فيه من الصنائع المذكورة شيئاً غير المسائل المحلولة. فما وجَدْتَ فيه من كلام موجَّه محتمل المدلول يشترك مع الصُم في الصنائع ويخالفهم في المحصول، اعلم أنه من التعليم.

وما وجدت فيه من كلام يخصُّ المتكلم من ذاته ويحضُّ على رجوعه على جوهره ولا يثبت ويفيد لغيره - فهو التنبيه.

وما وجدت فيه من حق ظاهر في قوة الصنائع، باطن في الحروف وفيك قوته قبل خبره، هو للتقرير.

وما وجدت فيه من كلام يجرِّد القوى ويفيد التصريف فهو للسيمياء.

وما وجدت فيه من الأحكام، فهو للفراسة.

وما وجدت فيه من البيان الساقط، فهو للفصل.

وما وجدت فيه من الإحاطة والحصر والامتداد، فهو للمهمل.

وما وجدت فيه من الكشف والتعريف والتحكم، فهو للمتكلم.

والنقط المضافة للسُفر الفارسية وغير المضافة للعربية والحروف التي تحتها للمنوطات. واطلبها في كل مسئلة منه، فإنها مقوِّمة لها؛ وما فوق المنوطات في نفس المنوطات تجده فإنها مقدمة نتيجتها. وما فوق ذلك لم نذكره ولا يحل لي أن نبثه إلا بأمر الله. وهذه سُنّة قديمة. والمحقق في الأمور التي فوق المنوطات يخبر في أمور كلها إلا المحبوب عنده، فإنه يسأل فيه. وما أقل وجود محبوب المحقق على أتم ما يمكن ويجمل وكثير ما يجف ويقول أنه يحب، وهو يريد بذلك الحب المضاف الذي يشرحه العرف الفاشي.

فصل

يا هذا! الحروف التي في «بُد العارف» وتركيبها والكلام بها، المراد بها أنت ولواحقك والعالم: فأن تجعل ضميرك كالجنس، وشأنك كالنوع، وأمَلَك كالشخص، وأن تأخذ من الفقيه المحافظة ومدلول صنعته فيها، ومن الأشعري السياسة بك في مذهبه لا به، والمصانعة والاحتياط على صنائعك، ومن الفيلسوف الصناعة الرئيسية والحكمة التي تفيد معرفة الأشياء حسب ما تعطيه وتقتضيه طبيعة البرهان، ومن الصوفي مكارم الأخلاق

والتجرُّد المحض عنك حتى تجدك وتظفر بك، ومن المقرَّب ماهية كمالك الأول والثاني - فإن الفقيه يقول الحق ولا يعلم مدلوله، والأشعري يتعرض لحقائق الأمور ويقول الباطل في مذهبه ومذهب غيره وإن علم بعض المدلول من أجله فإنه لا يعلم الأمر بكماله، والفيلسوف يقول الحق ويعلمه بالإنسان في الإنسان خاصة ويجهل غير ذلك، والكمال المحض إنما هو في الذي جهل. والصوفي يقول ما يغلب عليه ويعلم ما يجذبه إخلاصه إليه فإن نَطَق نَطَق بحق، وإن عَلِم علم محض الحق، وأكثر علومه من غير الإنسان، والذي للإنسان فيها هو الموضوع الذي توجد به وحدة الإنسان الذي يقبل المذاهب كذلك. والمقرَّب عين الخبر وأُسُّ الأثر وكلُّ الكون ومالِك كل كون.

فصل

يا هذا! الحروف المُفردة غير المتحابة التي في «بُد العارف» فيها وبما قبلها وبما بعدها وإضافة الجميع للحروف المركبة المذكورة معرفة الله على التمام. ومن الحروف المتحابة ووسائلها التي في نفس الكتاب مع المسائل المفروضة هناك رؤية الله في الجلال المحمول على الأحوال، وبالمتحابة المخدومة التي تقاس بالصور، وبمدلولها رؤية الله في الكون كله، وبالمتحابة المذكورة الشاملة عُقيب الأدلة والمراجعة رؤية الله في النوم، وببعض مسائل المنوطات، وبالمسئلة التي فوقها رؤية الله المجردة الصحيحة التي يشير إليها العليم، وفيها قيل: «ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم».

فانظر إن كان يقدر تلميذُ المحقِّق على خدمته أو على مجاراته أبداً. ولا تفهم من هذه الرؤية ما يفهمه الفقهاء والأشعرية فتغلط فتكون من الخاسرين. وإنما هي مراتب معقولة يلحقها الذهن كما يلحق الحسُّ الصورة المحسوسة. وإن أخذت الحروف والأعداد ومسائلها المتقدمة والمتأخرة وتركيب الحروف والكلام بها والحد الأول والمطالب وما قيل في العلم ثم تصرف الأعداد وتضيف إليها عدد الحروف الكلي المقدر في أشخاصها وعددها الجزئي الظاهر في صُورها تعلم النبي والصدِّيق وتبصر الملك على صورة دِحْية، وتعلم نفسك وتجد الأدب مع الله تعالى ورسوله ﷺ فافهم.

وكل شيء تجده يطلق على أكثر من واحد، ويحتمل أمرين فصاعداً، اجعله في دنياك، وبضده في آخرتك، وفي نفس الكتاب مع الميل اليسير لأوله السيميا، وفي أوله ثم في حدوده وحاده الكيمياء، ومن الحروف التي تتفق مع ضروب الأشكال الثلاثة وتدوَّن في السور والكلام فيه كما يدور الحد الأوسط في الأشكال المذكورة إذا أخذت وصرفت

بالقوة التي علمتك في «بُد العارف» وترسل إلى الكون كله تسوقه قبل أن يرتد طرف العين، فإن ظفرت بها فلا سبيل أن تفعله واحذر كل الحذر، وعاهد ربك قبل نيل ذلك أو بعده على الخروج عنه، واجمع همتك في معرفته ومحبته.

والحروف التي في أول سورة البقرة الوسط منها الذي يشبه الحد الأوسط في الشكل الأول، اجمعه مع الثلاث سور المرسلة وادع به في المراتب العاجلة. والأول منها اجمعه مع السور الجامعة التي في أكثرها القصص وادْعُ به في القضايا النازلة بك من الآخر منها ادع به في الجملة كذلك بعد توجهك في الكائنات المرموزة؛ وأصلها في حد الإنسان ثابت.

وهذه السيمياء تنقسم إلى خمسة أقسام: الكاذبة منها التي يذكرها مَسْلمة المجريطي صاحب «رسائل إخوان الصفا» والمشكوك منها الذي يزعم ابن مسرة أنه وصله، والصحيح منها الذي إذا وصف للفقيه سماه كرامة، وإذا ذكر للحكيم سماه تصريفاً، وإذا ذكر للمقرّب المحقق سماه فتنة. ومن فهم قوانين هذا الكتاب وتصفح الحدود المذكورة فيه، وعَلِم مقاصد المؤلف أدرك الفائت وبلغ الدرجات الرفيعة.

فصل

حكمةٌ ونعمة وصناعة. يا هذا! بالله عليك تدبر هذه الكلمات، واجعلها مقاليد الثواني المذكورة في «بُد العارف»، وقِسْ بمقتضاها على كل حكاية ذكرت هناك. وأوّلها: من نظر إلى الحيوان الذي يتحرك حركة الحكيم انتفع به وبما فوقه وبما تحته وبالذي بين يديه. ومن تفكر في الماء الذي ينزل على المولدات ويستقر فيها وعليها ويصعد على محيطها ويرسب تحتها ويكون بصيراً بالأمور الطبيعية ومُحَصِّلاً للعلم الطبيعي يتحقق عنده أن الماء حيث الماء، والأرض حيث الأرض، والهواء حيث الهواء، والنار حيث النار، وأحكام النقض والتركيب هو المعنى المفهوم والمتمِّم للمطلوب والمقوِّم له. ولا حاجة للحكيم بغير حي فعالج الحيوان أن يصح، ويصح الشأن كله. ومن رفع رأسه إلى الفلك وتنزه في شكله علم أن الشكل المستدير أجل الأشكال، وهو مبدأ الكائنات الطبيعيات.

ومن اختبر فعل النار صح عنده أنها تحيل بعض الأجسام إلى طبيعتها؛ وتفرق الاتصال، وتنقض المركبات في عالم الكون بتقييد وتقية واصطلاح. ومن حقق البرودة علم أنها جمود أجزاء الهيولى، والحرارة بضدها لأنها غليان أجزاء الهيولى؛ واليبوسة تماسكها، والرطوبة سيلانها. ومَن أعاد وألح وكرر تبدلت له الأعراض، ومن جمع وفرق بنسبة، ووزن أموره بجميع أنواع الكم وأصناف الاعتدال نال المرغوب، ومن ظهر تدبيره

دبّره هو في معاشه. والمروءة من الدين والفضلات المكروهة قد ينتفع بها وتكون من أنواع الخير الذي يُراه لغيره ولا يُراد لنفسه. ومن وصل إلى الحق الصرف قلّت وسائله وقربت مدته. ومن أضاف المناسب البعيد إلى الرئيس الظاهر استعان ببعض رئيسه على كل مرءوسه وعلى كل ما يناسبه وزاد له خيره. ومن حفظ حكمته حكم الخير والشر، ومن أهلها فاته الخير وضرّه الشر. والأعمال بخواتيمها. والحافظ هو الله وحده. ومن صعب عليه نيل الحقيقة يجمع في مركبه الربع من المبدأ، والنصف من الثاني، والربع من الثالث، ثم يسمى الجميع ويقول الآخر من الأول والأول من الطبيعة، وما بينهما منهما.

وبالجملة: الأول يتفق مع الثاني والثالث في الجنس، ويختلف معهما بالنوع. والمطلوب الأبيض يتخلص بثلاثة، والأصفر بأربعة، والنار بالأصفر، والأبيض لا نار فيه. وإذا رأيت ما يصبغ بكيفية ويتصل بالمنفعل له بواسطة ذهبية ويتماسك بكاسه فشُدَّ عليه يد جدك وجِدك. والخير كله في الحياة فإنها شرطٌ في صفات الكمال. فإذا ارتفعت ارتفع ما ذكرت. وبعد هذا كله هذه الكمالات بالإضافة إلى الحكمة المتممة للسعادة والمقوِّمة لما بعدها من الواجب المحمود ومن الجائز، وهي عند بعض الناس السعداء من أحد خرافات العجائز.

فصل

نصيحة! يا هذا! كل رسالة نوجهها إليك تصفّحها في كل يوم، فإن الخير فيها بالذات وهو يزيد في كل زمان، فزِدْ فيها واجعلها في جبينك المضاف إلى همىٔة هِمتِّك وعينك التي تبصر بها مدرك حكمتك، والحقائق يجذب بعضها البعض وكل شيء منها مغناطيس صاحبه.

فصل

يا هذا! إذا كتبت احذر أن تشغل نفسك بالكسب الصناعي فإنه يضيِّع الوقت، ويضيِّق على النفس في مآربها، ويعمر مساحة القرطاس بالعرض الذاهب، ويصعب نيل المقصود به. والسخيف العقل من الناس الذي لا شيء أسخف منه من يحفظ صيت رئاسته، ويضيع شأن سياسته، ويكلّف نفسه جمع الباطل بالوهم ويخدم غيره وهو تحت الباطل في الفهم. فكُفَّ الكَفَّ عن صيد الفقر، ولا تفك الفك عن قيد الفكر. وأكثر في كتبك من الحروف المتحابّة، وبدِّلها في كلماتك وبددها، ولا تصرفها في أمر لا يصلح بسعادتك، وأعظم منها التالي، وأجلّ منه بتعضه، وأعظم من الكل الذي يقوم من الجميع

وأمر الكل وأصله ومعناه القائم على كل شيء به.

فصل

إذا رفعت المسألة الواحدة في كتابك بعد ذكر النفس والروح والفتح فافهم ولا تطلب. إذا حفظت المسألة الثانية في كتابك قبل ذكر الأمانة فاعلم، وإليه تصعد، وبه تسعد، وعنه تُحْمَد. إذا علمت المسألة الثالثة في كتابك مع ذكر الخير فالزَم.

فصل

يا هذا! ما الذي حمل العديم الحادث أن يتعرض للوجوه؟ صح.

فصل

يا هذا! ما الذي يجعل العاد أن يذكر قاتله وهو العدو؟ صدقت، فالزم.

فصل

دقيقة: يا هذا! لأي شيء يعجز العاجز أن يحقق عجزه، ويقرر عند ذلك ويقرب؟

فصل

لطيفة: يا هذا! متى صح الغير حتى يُعوَّل عليه!

فصل

التوحيد ماهية السلب، والأدب ذات السبب، والإيجاب بينهما، ولا خير في الرابع.

فصل

يا هذا! غُضَّ بصر إدراكك عن غير الله، ثم قل لنفسك: يا خسيسة المنزلة! متى ثبت سواه حتى تستريبي فيه، وتغضي بصرك عنه؟ هو الله، وإن كان الفعل غيره. فلا هو إلا هو، ولا يمكن غير ذلك. واختبر ذلك من جهة الارتباط، ونَزِّه، ثم قل لشيمتك: لا تنكري الفعل، ولا تخبري عن غير الفاعل، ولا تخاطبي إلا الحق، ولا تتكلمي إلا بحقيقة، ولا تنقادي إلا لمحقق، ولا تسمعي إلا بحقك، ولا تَرى الإله ثم لا ثم الحق ثم ذلك.

فصل

يا هذا! الذوات المجردة ممتدة الكمال من جهة ما هو عنها، وغير ممتدة من حيث يرد عليها. ولذلك تقبل الزيادة على الدوام. والثابت على حالة واحدة، وهو الذي لا يقبل

الزيادة والنقصان، ولا يحتاج إلى غيره، ولا يمكن فيه ذلك ولا يُقدِّر فيه ما يهمل، كماله هو الأول الحق عز وجل.

فصل

شرف: يا هذا! الحكمة باب الحضرة الإلهية، والشريعة باب الحكمة، والأدب باب الشريعة، والهِمَّة باب الأدب، والشوق باب الهمة، والمنة باب الشوق، والله باب الكل وبواب الجميع، وهو الداخل بالنظر إلى لواحق قدرته، وهو الباب بالنظر إلى إرادته، وهو الحضرة بالنظر إلى صفاته، وهو المطلوب بالنظر إلى ذاته، وهو الكل بالنظر إلى ما يقوم به.

فصل

لمح: يا هذا! قد عقدت اتصال نسبتك الأولى ومضار نسبتك المتقدمة مع هـــ ومع ر ج ا ح، إنّ لُطف الله بك وكلمة الحق منوطة بك، والنفس وأرواح أتباع الأنبياء عليهم السلام منوطة بالأنبياء، وأرواح أصحاب المحقق منوطة به، والأخوة منوطة بهم بحسب نسبهم، والسنة في أن يضاف القوي للضعيف وأن يفرق المثل من المثل، وأن يكون على الوتر، وذلك من خواص التحقيق، وهي من العهد القديم الأول.

فصل

حجز: يا هذا! عرِّفه بالأُخوَّة المذكورة وبشِّره بها وبشِّر نفسك بوقوعها واربطها معه فإني ربطتها لكما ع ا هـــ فإن أهملتما شأنها تفوتكما خاصة عجيبة، وهي من خواص الخواص.

فصل

«بُد العارف» كتمانه بُدّ سعادتك، وإفشاؤه فسادها، وأنت تعلم ما بين البد والفاسد، وشأنك وما يظهر لك صح صحيح.

فصل

لا: يا هذا! عرّفني بمطالبك كلها.

فصل

يا هذا! السلام عليك وعلى من ذُكِر وعلى الجميع ورحمة الله وبركاته. الله فقط.

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة لابن سبعين

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وسلم كثيرًا، والحمد لله رب العالمين

بســم الله الواحد، الواجب الوجود الموجود وحده، الذي لا أول لوجوده وجلاله، وصلى الله على الواحد في وسائله وكماله، كتاب من الغريب من الرقيب، إلى الحبيب إلى النجــيب، من الذي وصل إلى بُدِّه بحده، إلى الذي فصل في حده بحده، من العازم على تخــصيص مجمل السفر، إلى الحازم على تحصيل معمل السفر، من المطِّرح لله ماله، إلى المصلح بالله أعماله، من المرشد الإنسان إلى أُنس أُنسه، إلى منشد الإحسان على حسن نفسه، من الواقف في العالم الأول مع السُّكر والصحو، إلى الخائف الآخر الأول من المكر والمحو، من الذي لا يسأم من سوء الدهر المساعد، إلى الذي يعلم أن القوة والفعل في قرينة قوة السعد والساعد.

مــن القائل: لو أنصفت لسعد العصر وأهله، ومَهّد وعْر العلم وسهله، إلى المحقق حق المحقــق، من حكيم السفر في عصره، إلى أسير السفر في مصره، من الذي لا يهابه وصف صيته ورئاسته، إلى الذي لا يمنعه منصبه عن سيره وسياسته.

أما بعد: فإن نعمة المنعم الذي أوجب شكره علينا، وأرسل زائده إلينا، ودلَّنا به عليه، وجذبــنا بفضله إليه، تتعلق بجوهر العبد السعيد في النظام القديم، وهي في طبيعة الممكن بــين الكلمــة والقصد، وواقف مع القول والحد، وتحكم عليه في شأنه كله، وهي قائمة بمحل الخير، مرسلة من الصغر إلى الكبر، ومبثوثة في غيره الذي خصصه، ومنوطة بقصده الــذي خلصه، ثم تنتشر عليه في مولده، ثم تقول به عند حلول نفسه، وتمتد على جسمه وصفاته، ثم تظهر في تربيته، ثم في حفظه، ثم في أخلاقه، ثم في أدبه، ثم في همته، ثم في دينه، ثم في خديــنه، ثم في كسبه، ثم في سعادته العاجلة والآجلة، ثم في نموها، ثم في صعوده إلى حضرة جوهره السعيد الأول، ثم في تخلصه من الهويات المنوطات بالآنيات، ثم في تطوره، ثم في قطــع مراتبه الثلاث، ثم في سكون معارجه، ثم في سكينة رضوانه بغير أصل، ثم في دوامها، ثم في نيلها، ثم في جوهره.

وبالجملة هي التي تبدأ من الأول الذي قبله أول واحد، وتحكم فيه وتتعلق به، ويظهر تأثيرها فيه، وتصدر من الأول الواحد الذي لا واحد قبله، ولا سبب له، ولا نظير له، ولا ترد عليه نعمة من غيره، ثم تنــزل إلى الآخر، ثم تعود إلى الأول، وتعم الخط كله، وتطلع

بالتـــركيب مـــنها عليها بها إليها، وتنـــزل بالتحليل كذلك، فمَن حقق ماهيتها، وطلبها بالـــواحد الأول الذي لا أول له تجوهر بالجوهر المذكور، وحكم ما بعده، وتصرف فيه بالـــنعمة المذكورة، ومَن طلب ماهية ماهيتها وجدها بين جوهره وتعلقه، ومن طلبها من ماهية ماهية ماهيتها وجد المنعم، وظفر بالفيض السيال، وكان هو النعمة بعينها.

وحينـــئذ يبعث خبره في خَلَده، ويرسل قَصْدَه في ذاته إلى بلده، ويطلب قواه بامتثال أمـــر واوه الأول وكافـــة الثاني، وميمه اللازم، ويأمر أهل عالم خلقه بمكارم الأخلاق، ويحـــض كـــل عالم أمره على احترام أمره، ويأمر المتقدم ممَن ذكر أن يسجد للمتأخر، ويطلب الكل بقول: لا أول إلا أول الأول، وهو المطلوب، ولا آخر إلا آخر الآخر وهو هـــو، ولا ظاهر إلا ظاهر الظاهر وهو الكل، ولا باطن إلا باطن الباطن وهو الأصل، فلا وجود لشيء إلا منه وبه وعنه، هو ماهية كل شيء، وبد كل شيء، وبه كل شيء، وهو الثابت قبل كل شيء.

ثم يصل القول الأول بكلمة الحق الجامعة المانعة التي مدلولها: لا إله إلا الله.

وحكمها قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88].

وحقيقتها: «ما خلا الله باطل[1]»، ففكر أيها المخاطب في النعمة المذكورة، ثم فكر في فـــضل المـــنعم المذكـــور في جوهـــرك، ثم في فكرك، ثم في ذكرك، ثم أصلح شأنك بالكلمـــات المذكـــورة قَبْلُ، فإذا استقام صلاحها وإصلاحها، وأُيِّدْتَ بالنعمة، وشَرُفْتَ بالفضل، وخصصت بالجوهر الذي يطلق مع النعمة بترادف كما تقدم، وجبت خلافَتُك، وتفـــرح بنفسك، وتستجلب من مفهوم سُورتَك صورة أُنسك، فإذا كنت كذلك، وإلا فعلـــيك بالـــدعاء الـــذي طلبـــته، وسنته أن تجمع من كلمات التنـــزيه، وأسماء الذات والصفات والأفعال، وتكتب بالحروف المتحابّة، وتصنع منها سورة حادثة صناعية، وتقرأ قبلها سورة «الفتح» من كلام الله القديم، وتتوجه بعد طهارة المحل من العلائق، وتلجأ إلى التخلِّي والتحلي، والتجلي عند خبر الاضطرار، وتقدر في الذهن باب والمنة، والهمة خلفه واقفـــة بحـــسن الظـــن، وتستأذن بإفراط الأدب، وتنادى المنعم بالكلمات التي دونت ودرست وصرفت في العصر التي درست، وبها بعث البشير النذير، وبها يشير المشير.

فـــإن كنت تعلمها وإلا اقرأ كتاب الله، وحيث تخشع اقرعْ باب المنة، وأين تخضع افزع إلى إمام السُّنَّة، وخذ من القرآن الثاني ع ح بعد الأول بما تستفتح الأول، وقدم على

(1) رواه البخاري (1395/3)، ومسلم (1768/4).

قــولك عند شروعك في الاستخارة: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، ولــك الحمــد، أنت رب السموات والأرض، ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق والجــنة حــق، والنار حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت. فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت، وتباركت وتعاليت، اللهم، وأتوب إليك»(1).

ثم تقــول: «لا إله إلا الله» ثم: «لا فاعل إلا الله»، ثم: «لا موجود إلا الله»، ثم: «الله الله».

الكــل ســبعين مــرة، ثم اذكر بجوهرك في جوهرك، وغلب الذِّكر الجوهري على العرضــي، واضرب عن الوهم والحس والخيال والعادة، واخرج عن لواحقك ومحمولك وموضوعك، ولا تخبر عن ولدك، ولا عن بلدك، ولا عن أهلك، والجأ إلى رَوْزَنَة خالية بعيدة عن القَيْر حي تنفتح روزنة باطنك بباطن الأمر، واطلب واحدك بوحدتك، واخرج عــن وِتْــرك الخاص بك كما خرجت عن شفعك التابع لك حتى يبقى الواحد الذي لا ينــسب ولا يكتسب، خالق كل وتر منسوب، وكل شفع واقع، ولا تقبل فيهما صورة تروم أن تدخل فيها قبل واجبها، ولا تشغل المحل بغير الله.

ثم قــل: «اللّــهمّ يــا مَنْ كَوَّن الكون بكنهه، وقدر أكواني كلها، وصرف حركاتي وســكناتي، وتعلم هويتي بعد آنيتي، وتعلم أنك تعلم أني نعلم أنك بدهما، لا أرفع صوتي نحوك لبعدك مني، ولا أُخْفي إعلان الصوت لقربك من جميع جهاتي؛ بل ذلك من ذاتيتي وأحــوالي لا مــن ذاتياتك وأحوالك، أنت المفارق للمواد، ومبدع الذوات المفارقة، لا تجاورك جهة من الجهات فأشير إليها ببصري، ولا ينال وصفك القياس فنطمع في نظمه ببصيرتي، فإن البرهان له علل ومبادئ وأنت لا عِلّة لك ولا مبدأ».

وبالجملة: يا ألله، يا بُد، يا حق، القبل والبعد والقرب والبعد والجهة والتوجه والإشارة والمــشير والمسافة الذهنية والحسية مني وإليّ، وأنت المنــزّه عن ذلك، ولا مسافة بيني وبيــنك؛ لأنك هوية هويتي، وآنية آنيتي بل وآنيتك ولا آنيتي، وهويتك ولا هويتي، بل أنــت أنــت وقولي تجرم، ولولا أنك قلت اسأل لم نَسْأَل، وخاطبتك بلسان شريعتك، والقصد في ذكرك لأني مسألتك.

فــإن أنعمت عليَّ بك يا مقصودي، يا معبودي، يا محرِّكي، يا مُسَكِّني، يا أنا بإفراط

(1) رواه البخاري (2328/5).

الاستحقاق والغيبة(1) والسكر(2) وحال الصحو(3)، يا من هو بضد ذلك فأنت في حل من جنتك المقدمة والمؤخرة، العاجلة والآجلة، الروحانية والجسمانية، المقيمة والزائلة، يا من يملكني هذا الملك، ويثقفني هذا الثقاف، ويحيط بي هذه الإحاطة، خلصني من كل قاطع يقطعني عنك، واحملني إلى حضرة تقربني إليك، وآمن قُوَاي الروحانية من ظلمات الجهل، واهدني إلى أوضح السبل إليك، وأدلها عليك بمضاه السكون واحد «الم» إن أذنت الإذن حق «كهيعص»، وقد فعلته مفهومة السلب صرف «حم»، «عسق»، وما ذلك على الله بعزيز.

الحمد لله رب العالمين «يس»، بوسائله كل شيء منك إليك.

فاحفظ هذا كله، وحافظ على أحكامه، ثم حافظ على صلوات النهار، ثم حافظ على صلوات الليل في ثلثه بثلاثة أحزاب من ثلث المفصل في ثلاثة عشر ركعة، وتقرأ في وترها بصورة الوتر والمعوذتين سبعين مرة، وقد قيدت لك ذلك كله، ولم نطلق لك إجابته إلا في سعادتك خاصة وحرصك عليها وشوقك لها، واهتمامك بها، فلا تطمع في شيء من العاجل، لا أنت ولا غيرك.

والسلام على من تأدب مع السلام بالاستسلام، ورحمة الله وبركاته.

---

(1) قال الشيخ القاشاني: الغيبة: غيبة القلب المنتقل في مراتب الخلع والتجريد عن علم ما يجري من أحوال الخلق، وأوضاعهم، وذلك بشغل الحس، أي: الإدراكات الباطنة، والظاهرة بما ورد عليه، من التجليات الإلهية.

والغيبة على ثلاثة أقسام:

- غيبة السالك: وهي الغيبة بالحق عن الخلق.
- وغيبة العارفين: وهي غيبة بالحق فإنهم في سيرهم في الله يتحولون من تجلٍّ إلى تجلٍّ.
- وغيبة العالم بالله: وهي من خلق إلى خلق في الخلق فإنه ينتقل في شهوده الحق من مظهر دام الشهود، ما يجمع بين الظاهر والمظهر بلا مزاحمة.

(2) قال سيدي محمد وفا: السُكر: الغيبة عن تفصيل العقل.

(3) قال سيدي محمد وفا: الصحو: رجوعٌ إلى الفرع بالأصل.

رسالة

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وسلم كثيرًا

وله ﷺ:

من كَفَّ عن المهلكات بالكلية، حتى عن حديث النفس بها، وكاد أن يُقال في حقه: «لا يصح صدورها منه، ولا يمكن في حقه ذلك»، وحفظ بالجملة، ولا يظهر عليه ما يذم على الإطلاق، وأمن كماله من قواطع شهوة البطن والفرج ومتعلقات الحواس الخمس الجسمانية، والأربعة الروحانية، وكان على بينة من شأنه في المنقلب، وعصم من الاحتياج إلى الكلمات الخمس، ثم الست؛ لأنه نحو الصواب، وتلك لا تحتاج إلا في محتملاتها، والدواء لا تفتقر إليه الصحة، وإن كان يستعمله الصحيح فهو لأجل المرض المقدر في المحل بالقوة، ولكن يحفظ صحته، فهو دواء بوجه، وغذاء بوجه، وألم ما لأجل راحة ما؛ لأن الدوائية التي ترفع ألم المرض الحاضر لم توجد في ذلك الدواء، والغذائية التي تخلف بدل ما تحلل من العضو لم توجد في ذلك الغذاء، والألم الذي ينسب للمرض لم يوجد في حال ذلك الألم، والراحة التي هي استراحة من مؤلم لم توجد في تلك الراحة، ولكنه دواء؛ لأنه في وقت ما يشبه الدواء، ويكون حكمة حكم الدواء، وقد لا يكون ذلك مع وجود استصحاب الحال في الصحة.

وأيضًا يشبه الدواء؛ لأنه يرفع السبب الممرض، كما أن الدواء الصحيح يرفع المرض الخاص المهلك، فقد اتفق الدواء في رفع معقول ما لا يحتاج، وهو غير طبيعي للمحل، وهذا فيه بحث وتشكيك، وغذاء بالنظر إلى بعض كميته في الأعضاء واستحالته، وهو معقول المعنى في سائرها، وغير مشعور به في الحس، وألم لأنه محسوس الأثر غير أنه بإرادة إنسان، وراحة يظن بها؛ لأنها نيلت بإضافة ضر حاضر.

فافهم هذا، وتفهم لأي نيل ذلك كله، وحاصله من جهة ما نحن بسبيله المخصوص الخاص الدعاء في حقه شبه الغيث، وكذلك الرحمة، غير أنها تطلق عليها من جهة الامتنان البسيط الذي لا يُقال بإزاء ما يضطر إليه، والنعمة تُقال عليها، وبها صح له ذلك، وأمَّا العفو والمغفرة، وما أشبه ذلك، فقد رحم بمدلولها، وعصم من آثارها وفعلها فيه.

وأعوذ بالله من الحاجة إلى ذلك، والرضوان عودته، وهذا الرجل الذي بدأنا به هو هذا، أو هو مع هذا يزهد ويعلم فبماذا، ويصعد إلى ماذا، ويعلم ويعلم كيف يعلم، ويجد

ويجد أن يكون محبوبه بوجه ما، ويتلذذ بصرف لذته إلى محركه القريب، ويبحث عن الرؤية وتعقل فيه، وعن الآنية وتصح في وقت ما منه، وهو مع هذا صوفي، ومن أهل البطاقة الأولى التي سمعت، ولا التي أبصرت أهلها فتلك غير بطاقة، وأربابها يبتغون تحصيلها: أي تحصيل مفهومها، وهم بعد في الظلة، وماهيتها تقتضي أن الولاية معقولة المعنى، وأن الولي إذا أدركها فقد أدرك الحق المشار إليه، والمعول عليه، ولا تعقل فيها لولي على ولي مزية بوجه من جهة النظر إليها، وتمكن بالنظر إلى الأحوال، وإلى المواهب الواردة من المنعم، وبينهم فيها خلاف كثير في تلك الأحوال، هل هي لذات، أو سكينة؟ أو معنى أخر لا يلحقه وهم أحد؟ فكيف عبارته عن ذلك الوهم؟

وكان سَهْل الأول ﷺ في هذه المرتبة، ذلك لأنه بحث في حاله الأول عن المطلوب هل هو مما يرجع إلى مجموعه أم لا؟ فأرشده شيخه بعبّادان إلى الأدب، وإلى أن يفارقه بالجملة، ثم انعطف إلى نفسه وأخذ نفسه بالمجاهدة والخلوة، ثم أدرك وحدة الوجود في العلم، وأدركها متطورة الكنه وكلامه في «موطأ الحكمة» يدل على ذلك، وكذلك في «معيار التصوف»، وكذلك رسائله، وكذلك مسائله الثلاث.

والرجل بدأ بملاحظة المعية، فحصل له مقام الإحسان، ثم سلك بالمحبة فحصل له ذلك المقام بعينه بوجه أكمل، ثم إلى الوحدة المحرّرة بالدليل لا الموجودة بالأحوال، ولا ينكر ماهية النصيب إلا مَن فاته النصيب، ومَن يقول: الحمد لله على كماله في عبده يمكن أن يدخل في زمرة الكمل؛ بل الكامل هو الذي يقول: الحمد لله على ت، وعلى م، وعلى ك، وسهل كان يأخذ نفسه بالهوية، وكان يفعل بحرف الهاء، وبعض المتأخرين أخذ بمذهبه في ذلك.

وجميع مَن نظر إلى شيء من ذلك هوا وماله الهوية، والهوهو، والهواء، والعماء، والماء والسوى، كل ذلك عن الله، ومن أجزاء ذات اللاهي.

الرجال ثلاثة:

رجل: هو الحق المحض، وخبره يتوقف قطعه، وهذا لا يصح.

ورجل: هو الباطل المحض، وخبره لا يقف في شيء، ولا يقف له شيء.

ورجل: منهما، ولا خبر في الرابع بحسب الوجه الرابع أن الله على كذا وكذا، وبكذا وبكذا قدير، وأن الله بكل كذا وكذا وبكذا عليم.

الله فقط: هذه أسطار يحصل من مفهومها العلم بجلال الله المتلوّ، ويستروح منها حال الصد والمملوّ، ومذهب المحقق الحق المكلو، ويتبين فيها الصحيح من القول المعتو

المهمل المقلوّ، وغرض كاتبها أن يكتب في أول السطر قبل بسم الله الرحمن الرحيم، وإذا حفظت بمحوها الحافظ المحافظ هذا عهد الله عليه، والله المطلوب.

قال الحكيم الخبير، إنه من عند الله القدير، وإنه بسم الله العظيم الكبير، وصلى الله على رسوله رئيس الرسل نهاية السؤال، وبغية السائل والمسئول يا هو، يا أنا، يا ذلك، يا هذا، بالجميع وجدت الله أكبر، وقلت: لا إله إلا الله الحي القيوم.

وعلمتُ قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28].

ورسمت[1] قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: 29].

وذُقت[2] قوله: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3].

وطاب لي قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: 119].

واستطبت قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ [البقرة: 156].

وعزمت على قوله: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54].

وصرفت قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29].

وعجزني قوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: 3].

---

(1) قال الشيخ القاشاني: الرسم هو نعت يجري في الأبد على العموم، والخصوص بما جرى في الأزل يريد بقوله: بما جرى في الأزل: ماسبق في علمه تعالى.

وقال قدس سره: الرسم: أثر الحق على العبد الظاهر عليه عند رجوعه من حال ما قد ادعاه، أو مقام صدقه هذا الأثر الظاهر عليه في دعواه، وقد ذكر قدس سره مع الرسم والوسم بالواو، فقال: «إنه العلامة الإلهية على العبد تكون دليلا على أنه من أهل الوصول والتحقيق في الحق».

(2) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنًا به: الذوق هو إدراكٌ في القلب، يميز به بين أشخاص أصناف المعاني، هذا إذا صح من علة داء الشرك الخفي، وحقيقته: وجدان حلاوةٍ من التمنّي في رياض تروض الرضا، وغايته: الاستغناء في تصور معاني الحقائق عن نصب الأدلة والبراهين السمعية والعقلية اهـــ.

وقال البغدادي في شرح الصلاة: هو نور عرفاني يقذفه الحق بتجلّيه في قلوب أوليائه يفرّقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتابٍ وغيره.

وقد عرَّفه الشيخ الأكبر بأنه: أول مبادئ التجلّي المؤدي إلى الشرب؛ لأنه إذا كان نفسين فهو الشرب، والوجدان ما يحس به بالباطن كالجوع مثلاً.

واصطلاحًا: ما يجدهُ العارف في قلبه من التجليّات الإلهية، فكما أنَّ مَنْ أحسَّ بالجوع باطنًا لا يتردد فيه، ولا يكون لأحدٍ معه، دخل في هذا الإحساس الباطني الخاص، كذلك مَنْ وجد الحق تعالى يكون بهذه الكيفية.

رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا ومحمد نبيًّا.

واستعنت بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54].

واعتمدت على قوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60].

فلمَّا يسر الله، وكان ما كان أبصرت ما لم أبصر، وسمعت ما لم أسمع، وعلمت ما لم أعلم، وكنت على بينة من أمري بوجه أجمل وبحكم أكمل، ووجدت الله أجل مما كان في المقامات والأسماء، والمواقف التي تتخيل بينهما، وكذلك الدرجات، وجعلت وسيلتي قطع أسباب الوصول والصلة، وسلكت على سلب السلوك، وبلغت إلى عدم النهاية، وكأني انحططت إلى البداية، وقرأت كتاب الكُنْه الأول كله قراءة أخرى، وتطورت في الأصول الإلهية؛ ذقت كل الوجود والموجودات، وشخصت الأوهام، وعجزت عن المقدرات، وحققت الفرق، وطمعت في التداخل المشابك، وقلت: لا خير في أمر لا يقوم بي، وإن كان المعجوز عنه.

فلمَّا يسر الله، وكان ما كان وسعت الإحاطة، وعطلت أحكامها صحبة ذلك، وقرأت السورة، وصورت بالوهم تلك الصورة، وجاء الله من الضمير، وأشرق نوره من الخير فيه، وأضاء من تفصيله المزدوج، واستوى على قضيته من السكينة الكامنة فيه، فلمَّا كان ما كان؛ وجدت سنته التي لا تتبدل وتتحول فيه، ولم تقل هو الله هذا المشار إليه ولا أنا، ولا الكل، ولا كل الكل، وعجبت من وحدة الوجود، وضحكت منها، ودخلت بعد ما خرجت عنها، فلمَّا كان ما كان، وكان ذلك الخبر هو القضية المحررة الواقفة التي تخرج كل وهم، وتتصل عن كل حكم حتى عن قطع الجميع، وعن ثبوته أيضًا؛ ظهر لي الشأن الذي انبعث عنه المكان العام، وجميع الكليات، وما يجتمع عندها، وفيها من العوالم المنسوبة، والمشار إليها، والإحاطات الخيرية والوجودية، والتي لا يُقال عليها ذلك كله، والمألوفات، والمعتبر الكبير المتوهم، وامتد الصراط إلى الله الواسع العليم الصمد الحق المبين الأحد العلي الكبير رب الأرباب، وهمت بالقضاء على تعيين كل مدرك من تلك، ومن كل ذلك.

فلمَّا كان ما كان توقفت؛ لأني وجدت الذات التي قيل فيها: لها الأسماء الحسنى والصفات العُلى، وأسماء الذات والأفعال، والتنـــزيه والتعظيم، وإن تلك الصفات، أعني: صفات الذات، زائدة عليها، ومنها ما يتعلق ببعض المعلومات دون بعض.

ومنها ما هي غير، ومنها ما هي غير بجهة، وبجهة أخرى أهي هي، وهذا بحسب رأي ما.

وقيل فيها بحسب مذهب أُخر: هي عالمة، وهي كذا وكذا من صفة نفسها لا أن الصفات زائدة عليها.

وقيل فيها أيضًا: هي أجل من أن تنسب إلى معنى يدخل في عموم الإلزام مع الشاهد، لكنها في كل اسم منها معنى كل اسم، وهي مع هذا لم تزل تبصر معلومها في الأزل، وهو موجود في علمها، وجميع الذوات متميزة في الأزل عندها، وما يمكن أن يزيد في علمها، ولا في وصف من أوصافها، ولا في ذاتها بالجملة ما لم تجد، ولا تجد ما لم يكن عندها قط، والموجودات لها نظر إليها بها هي موجودة، ونظر إلى ذواتها هي بها عدم أو في حكم العدم، ومع هذا لا يقول الجواهر والأعراض أشياء في العدم، ولا أنها وجدت بعد ما لم تكن غير أنها كانت لا تبصر.

فإن من شرط المبصر أن يكون وجودًا يشار إليه، والمعدوم لا يرى، والذي أوجده كان يعلمه كما كان يريده في الأزل، فلمًا أوجده أبصره.

وهذا المذهب ينقسم إلى سبعة أقسام، وهو الثاني، والأول ينقسم إلى ثلاثة، والخلاف بين أهله غير بعيد المعنى، والثالث هو الذي نحن في أمره على جهة الشرح له ينقسم إلى جملة أقسام، كلها تعود إلى الأول في بعض الوصف لتلك.

وتختلف في الحكم عليها مع الذي يصور عنها.

وأجلها القسم الذي تذكر في المظاهر المشخصة، ويعتقد فيه أن الوجود عرض للماهية، وكان ذلك العروض بعلم أو بإرادة، أو بمعنى ما يقرب مفهومه من مفهوم الشيء الذي تدفعه القوة خارج الذهن على جهة الإفراط المشاكل لا على ما قاله بعض الفلاسفة، وهم أهل الإيوان وبعض المشائين، وأشبه المذاهب من مذاهب الفلاسفة بهذا المذهب مذهب ديوجانيس، وفيثاغورس في بعض الأمر، وأفلاطون كذلك، والمذهب الأول يشبه في بعض أصوله لمذهب ابن دقليس، والثالث من مجموع الثلاثة، وهو نموذج مذهب المشّائين غير أنه يخالفه في أكثره بالوجه الذي يُقال له مذهب المتشرع فقط.

وقيل فيها أيضًا: هي الذات التي لا تُحَدُّ ولا تُرْسَم بل تُوْصَف، وإن وصفت فيكون وصفها سلبًا لمعنى ما اعتقدوه، ولا بأس به، ولولا خوف التطويل كنت أبسط القول فيه وأذكر عِلّة الخلاف، وأين يجتمع مع المذاهب المذكورة قبل، وأين يختلف، وهي تلك الذات منـــزهة عن الشوائب، وعن الأحوال الطبيعية، وذاتها يفوتها مفهوم الصفات، فإنها أجل، وبينهم في هذا، وفي مفهومه خلاف كثير، وأمرها كبير المفهوم، ومما نـــزهوها حتى يظن بهم المتشرع المذكور أنهم يميلون إلى التلاشي، وإلى التنبيه على معنى ما لا

يفهم بالجملة، وكأنه يشبه التعطيل بقول أخر.

وفي علم ما بعد الطبيعة يظهر حال القوم في وصفها، والمسائل العويصة التي ذكروها إنما ذكروها لأجل حكمهم عليها، وفي علم الثاولوجيا يظهر أيضًا ما هم بسبيله من أمرها، وجميع العلوم، فمن أجلها بحثوا فيها وعنها، والمقصود العجيب فاتهم؛ لأنهم بحثوا عنها بقدر طاقة الإنسان فقط، وهي لا تعلم إلا بها، وتلك المعرفة لا طريق لها إلا العلم والوحي معه والتألُه والفهم عن الأمور، لا من جنس ما يكتسب، والمتمدن منهم الكثير التمدن، ويكون قد حصل الأمور الضرورية من صنائعهم، وأخذ نفسه بالرياضة والعلم الرياضي المتوسط بين ذوات الأجسام، وما ليست بأجسام، ويميل إلى العلم الإلهي بنفسه ويتشبه بما يجب من العالم العلوي، ويأخذ نفسه بتصور النفوس السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية، وبالعقول الثواني، وبالمتوسطات، وبما هناك، وما يمكن من المثل المعلقة، والكليات المعقولة.

ويقول بالعلم: من أنا، وأين كنت في البسائط، وكيف كنت فيها، وهذه النفس الناطقة أين كانت قبل أن تحل في هذا الجسد، وكيف حلت، وبماذا، ولأي شيء لم تظهر على ما يجب إلا في وقت ما، وكيف ارتباطها مع هذا الهيكل، وكيف تنفصل، وإلى أين، وما سعادتها، وما هو محلها بعد الموت، وبماذا تتشبه، وكيف يصلح هذا الشبه، وبماذا يستعان عليه، وما هي السعادة، وما سببها بالجملة؟

وهذه الفلسفة ما هي، وهذه الشرائع الإلهية ما هي، وأين يجتمع الجميع، وكيف يظهر فضل الشرائع الجليلة على الفلسفة المعتبرة؟

وهذا هو أحسن القوم، وأقربهم إلى الحق وإلى أهله، وبالجملة مذاهبهم تسعة، أعني: الفلاسفة، وأجلها في العلوم النظرية مذهب المشائين، والأقدمون منهم في الإلهيات أنبه، غير أنهم يغلطون، وهم أقرب إلى الأنبياء، وإلى الإيمان بهم من غيرهم، وأرسطو ذكر أمرهم في نيقوماخيا، وهذا الرجل كان جليل القوم في المهن؛ لأنه في القوى والأحوال الإلهية مثل غيره، وملك بعض الأسرار الطبيعية، والإلهية وكتمها، وأفلاطون في التجرد والتوجه وفهم الأحوال الإلهية أثبت، وإن كان أرسطو أجلَّ منه على الإطلاق، فإنه توجه وكان حاله في سره.

وأمَّا علم وعقل فلا ينسب إلى غير هذا، ونور الله لا سبيل إليه إلا بتوفيقه، وجميع الأسباب وسائط وهمية، وبينهم في أمر هذه الذات، وفي صدور الأشياء عنها، والنظر في الواجب الوجود، والممكن الوجود، وفي الذي ماهيته يفرض لها الوجود، والذي ماهيته

وآنيته معًا، وفي كون هذا عند بعضهم لا يصح وعند الأكثر بمكن، وفي العلل والمعلولات والارتباطات وفي الصور فيما يخص الكلَ.

وبالجملة: نظرت في مذاهبهم المختارة، وفي تلك الذات عندهم، وفي الذي يجب لها، وفي الأمور الظاهرة بها فوجدت الأمر يرجع إلى خمس مسائل ذكرتها في «بُد العارف» وأخرجتها من مائة مسئلة، لم نجد لأحد قط فيها ما يشفي غليل المسترشد، والكلام على حياتها وعلمها وقدرتها يطول، وتقدر على الوقوف عليه في كتبهم.

فنرجع فنقول: وقيل فيها أيضًا إنها لَمية كُرَة العالم، وأيضًا الحياة السارية الموجودة في أجزاء العالم وزاد بعضهم أنها هي المنتصبة في المعنى الهيولانى.

وكأنه يقول: هي الصورة المقومة بوجه، والصورة المتممة بوجه.

وزاد أخر، وقال: بل هي الممتدة ببعض ذاتها، والكثيرة بزمانها ودهرها، وما لا يأخذه الحصر بالنظر إلى الكليات فيها ومنها وعنها.

وزاد أخر، وقال: مفهوم التطور مع كونها هي ذلك المتقدم كله.

وقال أخر: المطلوب الأعلى منها؛ هو أنه العالم هذا، وجملة عوالم لها، وهو بواسطة ما، وتلك الواسطة لها على جهة اللزوم.

وهذا الذي غلط فيه الفيلسوف فجعلها عِلَته القريبة، وهو معلولها، وحصر المجموع في هذا العالم، وأخر قال: تحل ولا تتحيز، مثل ما يقول اجتماع النوع والعنصر.

وأخر يقول فيها: تتحد، وذلك من مضافها المنفعل، والظاهر عنها على جهة التشخيص، ولا يريد الاتحاد الذي يريده الباطنية، وبعض النصارى، وهو الذي رد عليهم المتكلمون، ومنهم ابن الخطيب(1).

وطائفة تقول فيها: إنها تفيض، وذلك الفيض يكون على معنى منها هو الأخفى، وهو الأكمل له، لا أنها تريد الفيض الذي يريده المتكلم، ويقبحه على القائلين به مما هو المقصود عندهم.

وطائفة تقول فيها: هي النور الذي لا ينسب بالنظر إليه إلى شيء، ولكنه إذا تطور فيها يخصه، وذلك التطور صفة نفس لها يكون الكون كله من انجرار شبها.

وطائفة تقول فيها: هي الذات التي لا يحدها الذهن، ولا تعطيها الصنائع، ولا التجرد، ولا شيء يتوهم فيه أنه سبب الإدراك، وإنما هي تتجلى على جهة التخصيص فيصطادها

(1) يريد به: الفخر الرازي رحمه الله تعالى.

الضمير، وبعد هذا أعني: في عَقِبه يجد صدق الوحي، ويقول هذه هي الصديقية، ثم ينظر في إثر هذه الحال فيجد ما لم يجد، ومما يجد أن العالم بجملته هي هي أعني: الذات الذات، لا أنه ذلك الذي وجد، ولا أنه غير ما لم يجد.

وكأنه يقول: هذا كله ينحلُّ بالاستحقاق إليها لا أنه على جهة الفعل فقط، بل الفعل والشيء الذي يشبهه أنه تحرك في مكانه، وحرك بعضه الغائب لبعضه الظاهر.

وطائفة تقول فيها: هي الساكنة في الفضاء الذهني الذي وراء العالم، وهو مادة الجواهر الروحانية والجسمانية، والمتوسطات كلها، وهي تجد الأشخاص في معقول الهباء المنبثّ في علمها، لا أنها تقول الهيولى الأولى.

ولا بالهباء الذي يريده سهل بن عبد الله[1]، ولا بالعلماء الذي تذكره الصوفية صحبة

---

(1) هو السيد الجليل والعارف بالله تعالى أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن رفيع التستري ﷺ، أحد أئمة القوم، ومن أكابر علمائهم المتكلمين في علوم الخواص، ويقول فيه أعيانهم: (سهل للسيادة أهل)، صحب خاله الجنيد ومحمد بن سوار، ولقي ذا النون، وأخذ الأكابر عنه طبقةً بعد طبقة، وطبق الأرض من علم الحقائق، فحسده فقهاء بلده، فقاموا عليه، ونسبوه إلى قبائح بسبب قوله: (التوبة فرضٌ على العبد في كل نَفسٍ)، ولم يزالوا به حتى أخرجوه من بلده إلى البصرة، فمات بها، وحفظ القرآن وهو ابن سبعٍ، وكان يُسأل عن مسائل الزهد والورع ومقامات الإرادة وفقه العبادة وهو ابن عشرٍ، ولم يبرز للناس حتى وقع له الإذن من الله، وكان إذا جاع قوي، وإذا شبع ضعف.

قال عنه الشيخ الأكبر ﷺ: (وكان بدء سهل في هذا الطريق سجود القلب، وكم من وليٍّ كبيرِ الشأن طويل العمر مات وما حصل له سجود القلب! ولا علم أن للقلب سجودًا مع تحققه بالولاية، ورسوخ قدمه فيها، فإن سجوده إذا حصل لا يرفع أبدًا من سجدته، فهو ثابتٌ على تلك القدم الواحدة، التي تتفرع منها أقدامٌ كثيرةٌ، وأكثر الأولياء يرون تقلُّب القلب من حالٍ إلى حالٍ، وصاحب هذا المقام وإن تقلبت أحواله فمن عينٍ واحدةٍ هو عليها ثابتٌ، يعبِّر عنها بسجود القلب، ولهذا لما رأى سهل في ابتداء دخوله الطريق أن قلبه سجد وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقي حائرًا، فما زال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته فما وجد أحدًا يعرفها، فإنهم أهل صدقٍ لا ينطقون إلا عن ذوقٍ محقَّقٍ، فقيل له: إن في عبدان شيخًا معتبرًا، لو رحلت إليه؟ ففعل؛ فقال له: أيها الشيخ، أيسجد القلب؟ فقال: إلى الأبد، فوجد شفاءه عنده؛ فلزم خدمته، فالله تعالى يؤتي ما شاء من علمه من شاء من عباده: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

وكان مذهبه ﷺ التحري في الحلال، فلم يوجد في زمنه من يدقق فيه مثله، وفي ذلك قال ﷺ من باب التحدث بنعمة الله: أنا حجَّة الله على الخلق، وأنا حجَّة الله على أولياء زماني. فبلغ ذلك أبا زكريا الساجي وأبا عبد الله الزبيري؛ فذهبا إليه، فقال له أبو عبد الله الزبيري، وكان جسورًا

=

لأنه كان ضريرًا: بلغنا عنك أنك تقول: أنا حجّة الله على الخلق، وأنا حجّة الله على أولياء زماني، فبماذا صرت، هل أنت نبيٌّ أو صدِّيقٌ؟ فقال ﷺ: لم أذهب حيث ظننت، ولست أنا نبيًّا، إنما قلت هذا؛ لأنني صححت أكل الحلال دون غيري. فقال له: وأنت صححت الحلال. فقال ﷺ: نعم، لا آكل دائما إلا حلالاً. فقال له الزبيري: وكيف ذلك؟ فقال له ﷺ: قسَّمت عقلي وقوتي ومعرفتي على سبعة أجزاءٍ، فأترك الأكل حتي يذهب منها ستة أجزاءٍ، ويبقى جزءٌ واحدٌ، فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتتلف معه نفسي أكلت بقدر البلغة؛ خوفًا أن أكون أعنت على نفسي؛ ولترد علي الستة الأخرى، فبهذا صحَّ لي الحلال. فقال الزبيري: نحن لا نقدر على المداومة على هذا، ولا نعرف أن نقسِّم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاءٍ، واعترف بفضل سيدنا سهل ﷺ.

ومن كلامه ﷺ: من لم يكن مطعمه من الحلال لم يُكشف عن قلبه حجابٌ، وتسارعت إليه العقبات، ولا تنفعه صلاته ولا صومه.

وقال: أصول طريقنا سبعةٌ: التمسك بالكتاب والسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق.

وقال: العيش أربعةٌ: عيش الملائكة بالطاعة، والأنبياء في العلم وانتظار الوحي، والصديقين في الاقتداء، وسائر الناس في الأكل والشرب كالبهائم.

وقال: الدنيا حرامٌ على صفوة الخلق، لا يتناولون فيها إلا بقدر الضرورة.

وقال: السرور بالله هو السرور، والسرور بغيره هو الغرور.

وقال: العلوم ثلاثةٌ: علمٌ ظاهرٌ يبذل لأهل الظاهر، وعلمٌ باطنٌ لا يظهر إلا لأهله خوف الفتنة، وعلمٌ بين العبد والربِّ يستحيل إظهاره لأحدٍ من الخلق.

وسئل عن الاسم الأعظم، فقال: أروني الأصغر أريكم الأعظم، أسماء الله كلها عظيمةٌ، صدق؛ وخذ أيَّ اسمٍ شئت يفعل معك.

وقال: إن الله حجب عقول الخلق بحجب لطيفة، فحجب العلماء عنه بالعلم، والزهَّاد بالعمل، والحكماء بلطائف الحكمة، أما العارفون فأسكن قلوبهم من نور معرفته، فلم يحجبهم بشيءٍ.

وسئل ﷺ عن ذات الله ﷻ فقال: ذاتٌ موصوفةٌ بالعلم، غير مدركةٍ بالإحاطة، ولا مرئيةٍ بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودةٌ بحقائق الإيمان من غير حدٍّ ولا حلولٍ، وقد حجب سبحانه وتعالى الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلَّهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والأبصار لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون من غير إحاطةٍ ولا إدراك نهايةٍ، وله ﷺ ذكرٌ عظيم الشأن، جرَّبه أهل العرفان.

وقال عنه شيخنا ابن العربي ﷺ: دخلت به الخلوة، ففتح لي به في ليلةٍ واحدةٍ، وفيه أسرارٌ عجيبةٌ وأذواقٌ غريبةٌ، ومن أكثر ذكره حُبِّبت إليه الطاعات، وبُغِّضَت إليه المنكرات، ومن ذَكَرَهُ سبع مراتٍ وهو في فراشه وجد له حلاوةً في سرِّه، وهذا الذكر هو: (اللهُ مَعِي، اللهُ ناظرٌ إليَّ، اللهَ

الماء، وتقول هي غير ذلك، وواسطتها تفعل لا على الوجه الذي يذكره بعض أهل البطاقة في ذلك، وعرشها هو الامتداد العالي، وتريد بهذا القول المعلوم الذي يقوم به العالم لا الذي يتعقل، فافهم.

ولا تتوقع الجنون في محلّك إذا صدقت به، فإنه مادة العقل، وهو يميز السُّنن العالية، وما يريد به العرش الذي فوق الثمانية، ولا يعنى العرش الجامع الذي يحصر العوالم الأفقية، ولا يريد الوجود على مذهب بعض الصوفية، ولا حال العلم أيضًا، وقيل فيها أيضًا، أعني في تلك الذات: أنها كلها في ظاهرها الذي علل وصفه بما يلزم منه الأزل والأبد، وما يلزم عن ذلك كله، وهي حقيقة وحدٌ للعقول والأوهام، نعم، والعلم الوارد بجميع أنحاء ذلك العلم وطرفه، وكأنها ظهرت فقيل لبعض ذلك الظاهر هذا العالم المشار إليه، والذهن هو كلامها، والوجود كلماتها.

وكذلك حالها في كل مكان ظهرت فيه ينسب إليها، فلكونها لها أعني: في ذلك الامتداد المفروض، وسُمِّيت فاعله، ولو ظهرت لكان المجموع هو الظاهر المبدد، وكأنها مثل الشيء الذي إذا انقسم يشار إليه بإشارة واحدة، وإذا لم يكن ذلك قسمة الوهم، ونسبة إلى الأقل والأكثر، وأعوذ بالله من الحرمان.

وطائفة أخرى تقول فيها: هي الحروف المحصلة في الذهن، وتشير أن تلك هي معقول الأمثلة المفروضة، وغير أنها هي أجل.

وأخرى تقول: منها ما هو هذا، وهي صفاتها المتوسطة، ومنها ما هو أخفى، وهو ذاته، وهي عموم الأحوال، وهو المشكوك فيه، وهو الشك الذي لا ينحل عن الضمائر إلا بنيل تلك الذات، فإنه صفة نفسها، ولا يعلمها إلا مَن وجد ماهيتها.

وطائفة تقول فيها: هي بالمضمار والتدبير مع مضافها مثل الشيء المرتكز والشيء المربوط والمستند والملتحم، وذلك يلزم؛ لأنها بالنظر إلى صور الموجودات تشبه المحرِّك الذي يُحرِّك ولا يُحرَّك، ويحرِّك ويُحرَّك، ويُحرَّك ولا يُحرِّك، وبالنظر إلى صور الوجود يشبه الروح المدبر، والغنى الجامع المانع، وبالنظر إلى جملة مصادرها تشبه المعلوم العام.

شاهدٌ عليٌ). وله ﷺ تصانيف نفيسةٌ، منها «رقائق المحبين ومواعظ العارفين»، و«جوابات أهل اليقين»، و«المعارضة والرد على أهل الفرق أهل الدعاوى في الأحوال». ومات قُدِّس سرُّه سنة 283هـ، نفعنا الله به، آمين. وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (189/10، 212)، وصفة الصفوة (46/4، 49)، طبقات الشعراني (90/1)، والشذرات (182/2)، والرسالة القشيرية (18).

وطائفة تمنع إطلاق الموجودات؛ لأنها في الوجود الواحد بذلك المعنى الواحد، ومن جهة المعلوم لا من جهة الوجود هي هذه الأوهام المخيلة، فمنعت ما قيل قبل؛ لأنها لا تنضاف إليها، ولا تدور عليها إلا إن قال المبطل منها، وفيها ذلك كله، فهي كالشخص الذي فيه الأعضاء المتشابهة الأجزاء، والآلية.

وطائفة تقول: هو جميع مدلول الأخبار، والأخبار: منها محصلة المفهوم، ومنها مغيبة العين، ومازال الأمر بتلك النفس حتى انقدح لها في فص روعها بإزاء النور الاعتدال المحض الواحد الذي لا يطلق عليه باشتراك الاسم، ولا يطلق بإضافة أصلاً، وانكشف له صراط الله الذي يعود الضمير منه على كُنْهه، فافهم.

وكلّمه مطلوبه المعتبر وعلّمه به فيه لا على الوجه الذي يفهمه الصوفي فيدخل تحت وارد أو هاتف يسمعه داخل ذهنه، ولا يشبه البواده، ولا المعجوم، ولا النفس المعظم عندهم، ولا الاطلاع، ولا ما ينسب إلى العلم الذي كان ذلك كله قبل، والاعتقاد يشير إلى هذا الوجود، وما يلزم منه، وإلى هذا العالم، وما يصح فيه، وإلى المعلوم المعظم عندهم، وهيهات، ما أرذل الاغتباط ببعض قضايا الحق.

وما أصدق قوله ﷺ: «الناس نيام»[1] وأطلق القول على العموم، فإن الأنبياء بحسب مراتبهم نيام عن كذا، وعن كذا ليسوا بنيام في آخرتهم التي تمشي على مفهومه، ويمشي القول فيها حسب ذلك، ولا على الوجه الذي يشير إليه المتكلم من خلق الإدراك، ولا على سبيل الوحي؛ لأن الماهية إذا كانت من الاتصال في بعض ما هي به بما هي ماهية لا يصح في حقها الاتحاد بالوجه الذي يُقال هي أبلغ، ولا بالوجه الذي يمنع.

فما تعرضنا له لشدة ظهوره؛ لأنَّا أردنا الإعياء، والبحث على الحق الحر النقي الذي لا يُقال بإضافة، وعسى تستروح الضمائر رائحة الكمال المصاحب لذات ذوات الكمل لا على المسئلة والجواب فيه، والقول به لا يحتاج إلى أوحى؛ لأن البشرية قد ارتفعت فانقطعت، بمعنى أن الحجاب الذي يتعرض في وجه النكتة، قد ارتفع، وبقى القصد على مقابلة الغبطة الحاصلة، والمضار في القبول صفة نفس ذلك المكان، ولمّا كان القائل لا يصبر على سلب آنية طالب غايته؛ لأنها في ذات آنية الآنيات، ولم يمكن أن ينظر بالوجه التابع الذي هو مخزون في أم الذوات الفاعل في أم الكتاب الذي يخاطب الكون بالوحي، ومن وراء حجاب، وبالرسل أعني: بالقضايا، أو بالذوات المرسلة؛ لأنه ﷻ قال: ﴿أَوْ

(1) رواه البيهقي في الزهد (207/2)، وأبو نعيم في الحلية (52/7).

﴿يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ [الشورى: 51].

فترى من يكلم على الوجه الذي منع منه؛ لأنه كان يلزم التسلسل.

وأيضًا ذلك الرسول أو الرسل هم في تلك المرتبة النظرة بذلك الوجه.

واعلم أن هذا للوجه منه تعين الإحاطة، وإن كان القول عليها، وعليه يقرب مفهومه، وبه يبصر الحق، وبه يكلم من حيث يسمع، وبه تتشكل المظاهر، ويصح الكون الكلي، وتترتب العوالم[1]، وتتبين الصورة، ويظهر تمويه المألوفات، وتفتضح الذوات العزيزة كلها، وهو الذي يلزم في كل مُتَوَجَّه وحيثما يولى وجهة الصديق تجده حتى في عوالمه المبهمة الكامنة التي لا يكشفها الأحد إلا للمتوحد الذي جاوز الحدّ، وطلع على المطلع بعد ما اطلع عليه، ولا ينبغي لمَن يسمع هذا كله أن يسمعه بإذنه أعني: بالأذن المعقولة فقط، بل يسمعها بالله بعد الاتصاف بنوافله أعني: بسنة نفسه المبعوثة في الخلد المنبعثة عنه، ومازال أمره يشتد، وشأنه يعظم حتى تولاه الله بعد ذلك الوجه الوجيه بالذي تجلى لأبي بكر خاصة، أعني: أجل تلك المرتبة.

ولمّا تعيّن ذلك كله صحّ عنده أن لها من الأحكام ما ينبغي أن يشتغل بها، ويمتثل فالتَزَمها، وأخَذَ نفسه بها، وزاد أمره، ولم يقتنع حتى علم الربوبية القائمة الواحدة، وبقي عليه نورها.

ثم اشتد حاله عند ذلك لضيقه عنها، ولمّا وحد منها، وانقطع فيها قصده، وبقي عبده الأول ربه الآخر، ثم اشتكل الأمر عليه من جهة الوجود به لا من جميع الشبه، وما كان به قبل حتى رحم الله بَيِّنَتَه التالية فيه، وصحح أسراره الجامعة، والتزم عبوديته القائمة عليه، وأخذ نفسه بالأدب مع الذي لا تسعه القضايا، ولا تصطاد هوية مظهره العلوي الحكيم، وآمن بعز الله العظيم، وهوّن أخباره فيه، وغلبت وحدته واحده تحقق عند ذلك أن

---

(1) قال سيدي ابن ناصر الكيلاني: العالم مأخوذ من العلامة، وهو عبارة عن كل ما سوى الله، والعوالم كثيرة جدًا، وأمهاتها هي الحضرات الوجوديّة، وأول العوالم المتعيِّنة من العماء عالم المثال المطلق، ثم عالم الرسم، ثم عالم القلم واللوح، ثم عالم الطبيعة من حيث ظهور حكمها في الأجسام تحقيقي الهيولى، والجسم الكل، ثم العرش، ثم هكذا على الترتيب إلى أن ينتهي الأمر إلى الإنسان في عالم الدنيا، ثم عالم البرزخ، ثم عالم الحشر، ثم عالم جهنم، ثم عالم الجنان، ثم عالم الكثيب، ثم حضرة أُحديَّة الجمع والوجود الذي هو ينبوع جميع العوالم كلها، هكذا كاشفه صاحب الكشف الأتم، فافهم والله الهادي والمفهم. وانظر: مجمع البحرين شرح الفصين (بتحقيقنا).

التقديم والتأخير يلزم في شأن الله لمَن يريد أن يحصل، وطال تأمله فبعث الله العلم إليه بالمراتب المعتبرة عنده، وعلمه ما هم الناس بسبيله، ومد له حبل نجاته منه، وأطعمه من موائد الذوات الجليلة، وأظهر له التطور الأعلى.

ولا يظن أن حاله يشبه المعراج، فإن أمره جاء بعد الوحدة الصقيلة البسيطة الحرة، وتلك لا يسع فيها إلا الامتداد، ولا يطلق عليها التقديم والتأخير، فإنها ماحيةُ وَهْم الإضافة، ولا المقامات؛ لأنها لا تتوجه بها إليها مع عدم الامتياز فيها، وإن كان ذلك فمن جهة المظاهر، ولا الأسماء؛ لأنها في عقب مدلول يتحد بمفهوم المُسمَّى، ويجمع عين الولاية، وإن قيل هي القليل والكثير فبالوجه الذي تقدم ذكره، ولا حي بن يقظان فإنه اطّلع على أوهام الطبيعة، ونظر في نفسه العالم، واستدلّ عليه بحاصله منه، واستعان بحصر الأنموذج، وتفهمه وتصفح كليات العالم، واطلع على مراتب الإلزام بالصنائع النفسانية.

وهذا لا يجمل بمَن يعلم ما فوق الأفلاك، فكيف بمَن كانها، ثم انتقل من ذل ذلك الظل، وإلى الله فك مُعَمّاه.

وما عسى أن يُقال في رجل أقل ما يطمع فيه تحصيل الوجود، ويقول: هو بعض مطالبي، وما بعده هو الأصل، فأمّا على وجه أكمل من المألوف، ويتحرر عندي، وأمّا الأمر أعز، هل هذا إلا إفك أقبح من ذلك القديم الذي نبه عنه ربنا القديم؟ فاسمع بأذُن قلبك، واصْحَ الآن بمجموع معناك إلى ما أدفعه إلى شأنك من الله هذه الأخبار كلها، وهذه الطوائف هي مني، وأنا القائل لها، وأنا كنت، ولمّا كانت؛ لأن عندي غير الذي كنت قبل بها، وأهملتها حتى في النسب وفي الضمير، وأيضًا جميع الأخبار المحصلة المحركة للضمائر هي واحدة في الناس، فمَن نسبها إلى أكثر صدق، ومن صرفها إلى نفسه صدق، مثل الحديث الصادر عن بادئ الرأي، والأخبار الضرورية، والرجل الأول؛ هو ذلك الأخير، غير أنه كان على مفهوم الدائرة الوهمية، وتنوع مرتين: مرة في صعوده بالتركيب، وأخرى في نـــزوله بالتحليل، فلذلك أخبر عن الكشف، وأخبر عن الأمر الواحد، ثم ذكر الجميع على جهة الحكاية لا أنه اغتبط، وأمره يرجع بالجملة إلى الله، وهو الآن قد كمل وتركيبه في التحرير لا في التضليل.

ومما قال: هل ما أنا بسبيله الجليل الذي لا يعلل أمره، ولا يقدم عليه بالشاهد الذي تصح منه المشاكلة الوضعية، وغاية النفس الكاملة تسلم وتسلم وتستسلم، وتكون أكثر من ذلك في مفهوم ذلك، أو تقول: هي في المجموع المذكور كالروح، وما هو به الإنسان ما هو على الجملة، أو لعله ذلك بالجملة، وهو في الناس يُقال على كثيرين، وحيثما عقل

الخير يُقال هذا عليه، وهو في الوجود بالوحدة المعتبرة عندي، وهي المحصلة بالنشأة التي هو خلقها بالتسوية، والنفخ في الأولى، فافهم.

أوهي مرتبة أعني: تلك الذات وما أدراك؛ ومفهومها ومعقولها ينقسم على الضمائر، وإذا شخّص الوهمُ معلومها كان العبد منها، وإذا انصرف القصد كان الرب فيها كما نقول، الخضرية مرتبة ما، والصديقية أُخرى، ولمّا كان للمرتبة المَذكورة، أو المراتب شخصٌ ما هو مظهرها الوهمي، وهي معه مثل الجواهر الأولى مع الثواني.

فبينما هو في هذا كله، وإذا باسم الذي دُعي به أجاب بمعنى أنه هو ذلك الحق الذي لا يحتمل الزيادة والنقصان، ولا يطلق عليه اسم الكمال في ذاته، ولا في الذي قاله؛ لأنه انعكس على كل راجع ومطلع وثابت.

وأجاب أي قال له: صدقت: أي أنا ذلك بمعنى أنه ناداه بالذي يجب له، وهو العلم الذي قام به، وقام به بعد ذلك كلُ شيء متأخر.

وحيث يقول الأصمُّ أو غيره من الكمّل: أنه إذا دعي به أجاب في المسألة، يقول هو: قد ناديت الوجود، وصورته من ذلك، وأجابني عندي؛ فأنا أفعل بحسب ذلك، واعلم كذا وكذا، وأكثر من كذا وكذا، والاسم المذكور هو علم الله، وهو العلم الذي يعلم الله، فافهم، يا أيها المخاطب، وانسب هذا القول للمتكلم.

نعم، وتلك المذاهب كلها إلا أنه أمره الذي هو الآن به لا يمكنه الكتب به، ولا هو أيضًا غيرُ، غَيْرَ أنَّ هذا اللوح باب شأنه الثالث، ولا يتبدد عليك الكلام، وتختلف الفائدة بالجملة، ويبعد الضمير في الضمير، فإن الكلام كله يشدُّ بعضُه بعضًا، وهو يتعلق بمفهومه وبعلم المتأمل، فتأمل واغتبط ولازم، وحصل واصرف صورة قولي إلى الآية الأولى، وبعد ذلك تبحث عن سائرها، يا هذا! الرجل المعقول حَفظَ الله وجودَه فيك بموجوده منك لمّا هممت بوضع هذه الألواح، وعزمت على كتبها، وقضيت بها أجابني قصْدي الثاني، وتحرّكت يدي، واجتمع على ذلك معناي كله إلا الأولى والأخْرى مني، والنظر فيه عصيت أمره من جهة الاغتباط بك لا من جهة ما وجب لك، وتعين بالمضمار، والذي حملني على بحثي ما لم نتردد فيه هو يدبر بفضله عاقبته ويحفظه، واعلم أن الله ﷻ ما أظهر ذاته في مَظْهَر ما إلا وقد رضي ذلك المظهر.

وهذا الوقت وقت ظهور الهلايل الكلية التي بها تحصل الجملة، ويثبت رَسْمُ اللوح، وتدور أفلاك الحس والمغنى، وتنهل القضايا، ويتتبع الاسم المُسمَّى الواحد في الدلالة والمدلول الرسم المنسوب الذي هو إلى الله على ما يحب، والله لا يظهره إلا على مظاهر

العزم والجاه والتصريف، ومما نعرفك به أن المحقق الجليل؛ هو النبي صاحب سنة الله التي لا تتبدل، وجميع المذاهب التي فرعها خبري هي من جميع تطوراتي، فلا تلتفت منها إلا الذي يقوم من جميعها، ويصح معه أدب الدنيا والدين، ويكون بحيث لا تنكره شريعة، ولا عادة صالحة، ويستحسنه العقل، ويقول به أهل الله، وإن بعدوا عن معناه عند النهاية يعلم، والسلام عليك، وشرح الحال في قوله ﷻ:

﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: 10].

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا.

* * *

رسالة الألواح المباركة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وسلم كثيرًا

وله ﷺ:

صدق الله، والحق يقول الحق، وقوله هو معناه، وحاصل ذلك ما من موجود موجدًا في مستند إلا ويقول هذا القول، أو يُقال عليه، وهو ذلك المعنى، أو من ذلك المعنى من غير تبعيض، ولا إشارة، فإن الحق واحد، وما عداه وهم، والأوهام هي المستندة، والمستند إليها بوجه ما، ونحن تلك الأوهام، وبل نحن نحن، بل هو هو، بل لا يُقال نحن، ولا هو من حيث الإشارة والميل، ولكنها تشعر بالشيء الذي يجد ذلك الشيء من كل الجهات، ويصرف هو، والهو هو إلى أنا، ويجد الأنية والهوية معًا.

فمَن علم هذا تجاوز واستعار الوهم، واستند إلى ظل حقيقة وهمية، وجعلها موضوعة لذلك الوهم، وسمى ذلك ذاته، وأوجد مَن لم يكن، وأعدم مَن لم يزل، وهكذا فعل مَن لم يكن ذلك الشيء، وبعد ذلك يحقق الحق الحق؛ فيكون مَن لم يزل مَن لم يزل، ويكون مَن لم يكن، مَن لم يكن، وهذه الروابط التي بين ذلك وذلك، وهذه هي العهود والأحوال، وهو غاية أهل هذا الزمن.

إيه: فنرجع لشرح بعض ما تقدم؛ فنقول: ما من مدرِك مدرك معًا إلا ويقول هذا القول، أو يُقال عليه، أو هو منه لا أنه عنه، بل هو هو لا لأنه له، وحاصل ذلك كونه ماهية أوهم الوهم فيها الاشتراك، وبسطها حيث قبضها، وغيبها حيث أظهرها، وكان من ذلك نكتة صقيلة، وضد ذلك، وكان ويكون والكائن، ومفهوم ذلك المظاهر والمراتب

والأسماء والمُسمَّيات والقوانين، وحاصل ذلك لواحق الذات، وكلامنا وهم على وهم، فافهم.

ومفهوم اللواحق عين المطلع، والمطلع عين الاستحقاق، والاستحقاق عين الحد، والحد هو الذي يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويجذب ويدفع، ويقبض ويبسط، ويصرف ويحد، ويرسل ويصدُّ، ويحلل ويركب، ويبعد ويقرب، ويبني ويهد، ويوحد ويعد، ثم يمنع الجميع، ويحض على الجميع، ويمنع منه التأليف، ويحصل على المؤلف إلى الجملة المعلومة، أو المشار إليها، ويحض على التفصيل كما يجب، ويحض على مفردات تجذب، وكان هذا الجذب صفة نفس لكل واحد منهما، ويحض على قطع الجذب الوهمي لا أنه كان قط وجوديًا؛ بل كان مفروضًا من الوهم على القوى، وعلى العقل والضمير حتى يظهر لك أن الحق هو الذي يقول الحق ويجده حقيقة، فحينئذ لا يتأتى إلا الواحد من كل الجهات.

إيه: والجملة التي قامت في هذه الأفراد الوهمية تنحل بمعنى تعدم، وتعدم بمعنى لم تكن، ولكنها فرضت على مثال وجودي وهمي لكي يكع الوهم، ويقوى الحق المغصوب الذي غطاه هو، وبعد هذا يقول الحق في الفترة التي بين الكون المنسوب، والفساد المحسوب، وهذا كلام مدلوله قائم على كل نفس بما كسبت، وموجود في كل نفس نفيسة بمعنى أكمل، ولكل روح رئيسة محملة لما قيل، أو لبعضه بوجه أرفع وأعلى، وقائم بجميع أنحاء الكمالات في ذات الحمل والغوث والخليفة والرسول والملك والفصل والمرتبة والوسيلة والدرجة والكليات، وما وراء الوراء، وأعيان المقادير، وقضايا الاستدعاء، وذوات الاسترعاء من ذلك الشأن؛ ولذلك الشيء وفي ذلك الشيء، وذلك الشيء، وكل شيء له شيء فليس بشيء، وكل شيء لا شيء له فهو شيء لمعنى وهمي، وكل شيء تصرف الأشياء إليه، وله الأشياء تارة، وليس له أخرى فمن قبيل ما تقدم، بل أنقص، فحقق الماهية.

واعلم أن الذات والشيء والحق والوجود والأمر والقدم والحدوث والمكان والزمان والإضافة والعدد ينسب لأعلى هو على كل حال أعلى، ولو علم الأسماء ما سمى المُسمَّى بشيء يشبه فك المعمى، وكل ما سمعت ما خرج عنك، وكله كان منك، وما أنت المقصود، وله أيضًا ذلك، فسبحان الذي قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، ولا هو شيء مُسمًّى بمعنى الشيء الذي قيل، فإن ذلك شيء شاءه هو، ومشيئته عند المحقق معنى يقوم ويتمم، وهي جاذبة ودافعة.

فأعوذ بالله من المشيئة على مذهب الأشعري، وبئس ما قال فيها الفيلسوف، ويا أسفا على المعتزلي، ولطف الله بالصوفي، وتمم له ما بدا به، وطوى للمحقق.

وقد خرج بنا الكلام إلى أنقص مما كنا فيه، وبالقصد كان، والمراد به التغطية، وحكمة الوقت تحض على ذلك، فنقول: الماهية التي قامت في العارض الأول إلى حد الحصر، ثم أحياها النصيب الإلهي الذي لم يصدر من كمية، ولا تغير بكيفية، ولا تناسب بإضافة، ولا تجوهر بشكل، ولا تشكل في مادة، ولا استند إلى وضع، ولا تمكن في مكان، ولا انجر عليه الزمان، ولا انفعل، ولا خلاف ولا لغير؛ بل فعل ذلك، أو فعل من فعل من ذلك، أو فعل من فعل من فعل ذلك، أو فعل من فعل عن ذلك، أو كان بوجه ما ذلك.

فهكذا فكر في الماهية التي ذكرناها، واجعلها ماهية بنصيبها الوجودي، ثم اجعل الكل ماهية وجودية، ولا تلتفت إلى ماهية المشائين، ولا إلى من تقدمهم وتأخرهم، ولا إلى مَن يخوض في مثل الذي يخوضون فيه، فإن الماهية تُقال عندهم على أنحاء سبعة، ثم على خمسة، ثم على ثلاثة، ويتكلمون عليها بالنظر إلى الأحوال والخواص، وقليلاً ما يوجد في هذا الوقت مَن يتكلم عليها ككلام مَن تقدم ممَن يحض العاقل على إهماله، وإن كانوا قد اختلفوا فالكل قائلون بالعوالم الثلاثة، وبالرابع على رأي من لا يؤبه به.

وبالجملة: تلك عدمية شبيهة بالعدم، أو يُقال عليها العدم بتقديم وتأخير، وبترجيح وبتشكيك، وقد يلزم فيها الدور، أو قد يلزم منها، وتكون لا موجودة ولا معدومة.

وقد يُقال فيها شيء بوجه ما، وقد يجوز فيها القول، أو يُقال هي المعنى الذي يمكن أن يعلم ويخبر عنه.

فالكلام فيها تقدر أن تقف عليه في مواضعه في كتب من ذكر ممَن لا تحض بالإنصاف عليه، ولا ترشد بالنصيحة إليه، والأخذ عليهم، وما يمكن أن يُقال فيه يطول شرحه.

إليه: فنرجع فنقول إذا حكيت تلك الماهية، أو كنتها يمكن لك أن تتأهب إلى الغريزة، ولمّا فقد كثر الناس هذه الماهية تخبطوا واختلفوا، وطلبوا مشروطهم بغير شرط، وحاصل أمرهم هو أن أملهم منسوب في مشار ما إليه رئيس رئيسهم متعلق بوهم ما خسيس، فتوجهوا بقصدهم إلى غير مقصودهم، وصرفوا حمدهم في غير محمودهم.

وحقيقة هذا النقص من الطريق لا من السالك، ومن المهلك لا من الهالك، فكل يطلب الأولى، ويتوجه بإرادته إلى العلي الأعلى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إيه: فإذا جعلتها وجودية فحينئذ يمكن أن تغتبط بذاتك، وبما بعدها، والكامل الذي يقول ما بعد الماهية الوجودية، لا الذي يقول ما بعد الطبيعة، ولا ما قبل الطبيعة، فإن ذلك من جملة مراتبه الوهمية؛ بل المهملة الوهمية، فعليك بالوجود العري عن الروحاني، وكما وصلت إلى ما ليس بجسم، ولا في جسم العري عن المعاد، عسى تصل إلى العري عن هذا العري بوجه.

وبحسب ما أصلناه، فإنه لا يمكن للمعلوم أن يخرج عن المفارق، أو غير المفارق، وهيهات، هذه نكت يُقال فيها هذا لكي تصح الوحدة المطلقة من كل الجهات، فلو تشخص الوجود في موجود ما؛ لكانت طبيعته مختلة، وهذا لا خير فيه،فافهم واستند وتعلق وتأهب لملكة ملكوت السموات والأرض الكلية، وكلامي على ما هو أعلى من عالم الطبيعة، ومما بعدها وراء المثل المعلقة، ولا يخرج عن ذلك بجهة ما.

وهذه هي الحضرة الواسعة بالنظر إلى الكليات التي يستعد لفهمها بالكليات لا الجسمانيات من الجوهر الكلي والطبيعي، فإنها متحيزة، ولا المفارقة، أعني: النفوس والعقول والصور الهيولانية، فإن تلك متميزة، وحيزها الحصر والترتيب والتقديم والتأخير، ويأخذها العود في ذات المقابلة فقط، وكذلك المثل فإنها منسوبة، والمتأخر منها دل على حيز المتقدم، ومطلوبنا أشرف، وكذلك الأجناس المذكورة التي تذكرها الصوفية، فإنها متحيزة بإضافة الرئيس الأول إلى الرئيس الثاني، وتشبه المثل المعلقة، والمثل المعلقة أسنى منها، وأدخل في النظر، والتفكر فيها هو أطيب لذي الحال من المثل، وأقرب إلى الشريعة.

فاعمل على الشيء الذي لا يُقال على أكثر من واحد، ولا يعقد من المقرِّ والجاحد، فإن الرئيس والمرءوس، والروحاني والجسماني لا وجود لهما إلا في الإضافة، وبالوهم الذي يتعارض بينهما، ويكون كالفاصل، ويُقال به هذا أعلى، وهذا يصدق في جملة عوالم إلا في عالمنا نحن، فإن طلبنا ومطلوبنا من ذلك كله، وهو إكسير الكمال المراد عندنا لا المذكور عند من ذُكر، فإن ذلك كله حصل بعد الفتح، وهذا يطلب به هذا الفتح، وهكذا ينتهي البحث والفتح به إلى أمر يسكت عنده بنفس ما يتكلم به.

فنقول: الكمال هو إكسير الفتح الدائم، وهذا الدائم إكسير الخلافة في عالم الإنسان، وموضوعه الخلافة في ذات الشان، والجميع إكسير الاستحسان، والاستحسان إكسير الأُنس، والأُنس إكسير إدراك الملائم، والملائم إمَّا ما ورد بعد أمل، أوما جاء بعد استراحة من مؤلم، وهذه هي اللذة عند الضعفاء، وأردت هنا بذكر الإكسير ما يشبه الرمز والارتباط، وأهملت ذكر المقدمة والسبب والشرط والعلة والمدخل والمقدم الذي

يستجلب المتأخر، ويلزم عنه أو منه أو به أو فيه؛ لأن هذا المعنى الذي نحن بسبيله لا يسوغ فيه ذلك، فإنه بعد الصنائع، وبعد مقاصدها، وتنبه بها الضمائر من ورا ورا، وهو عين العين، بل هو هو، بل هو الواحد، وأردت بهذا الإكسير الشيء الذي يضمن غيره في وقت، ويولده في أخر، ويفعله كذلك، أو يكون سبب السبب، وقد ينعكس على الأول، وقد لا يوجبه، ويكون هو هو، وقد يكون له تحت الملكة والاختيار، لا تحت الارتباط والالتزام.

فنرجع إلى اللذة، فنقول: قد تُقال مع الأُنس بترادف، وقد لا، وقد تُقال معه بتقديم وتأخير، وقد لا، وقد تُقال معه بتشكيك، وقد لا.

والمستحسن والموافق والملائم والملذوذ كل ذلك من أجزاء ماهية اللذة، وهي تمتد على جملة مراتب لا في حدها، وتطلق على أنحاء من جهة الأقل والأكثر والأقوى والأضعف والأكمل والأنقص، وتعتبر من جهة مضافها الرئيس والخسيس، فإن كان جليلاً قيل فيها جليلة، وإن كان خسيسًا قيل فيها خسيسة، وهي بالنظر إلى ماهيتها الكلية العرية عن اللواحق المنطقية والطبيعية معنى لا يتبدل، إمَّا العمر كله، وإمَّا في أكثر الزمان إلى الشيء الذي لا هو.

وكذلك الإنسان لن يصاحبه بحسب ما ذكر في حياته، وبعد حياته، وأجل ما تحتويه اللذة بالهمة، وبها تعلم، وهي تدور على الحب، ويدور عليها، وتجذبها الإرادة بوجه ما خفي وجلي، وقرارها في عين الرضا، وهي قربها، وهي نقطة من أجلها هي دائرة المباحث والمطالب، فإن لكل متوجه خيرًا ما يتشوق إليه، أو لذة ما يطلبها، ومن مضافها، ويحقر أو يعظم، ولولا الفكر في لذة الأفضل لم ينتقل عن لذة الخسيس، ولا طلب عليها زيادة، قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53].

ومَن قرَّ عينًا بعيشه نفعه: أي تلذذ به واستحسنه، معقولها واحد، وأحوالها مع مضافها كثير.

وكما أن الجنة هي مثل الدنيا في معقول موضوعها ومحمولها، وهي غيرها بالنظر إلى أحوالها، وإلى أحكامها كذلك اللذة في أمرها، ومنها طبيعية ونفسانية وعقلية ومتوسطة ومركبة من ذلك، والإلهية موجهة إلى الفاعل والمنفعل، وإلى الطالب والمطلوب، ومنها ما هي مركوزة في جوهر السعيد، وهي تصدر منه عنه، ويجدها إذا انصرف إلى نفسه لا سيما إذا ترك حواسه، ورفض العالم المحسوس، وتشبه باللطيف منه، وكان كالمفارق عنده، وتوجه بالمفارق إلى المفارق، واستكن إلى سكينة الملاحظة، وخطف سوابق

الغيب الواقعة عليه من مقرها الأول، وقطع الحجب التي من أجلها قيل ما بالقوة، وما بالفعل.

والشقي لا يفرح بنفسه إذا خلا بها، ويعدد أُنسه بوحدته؛ ولذلك يفتقر إلى الملاهي، ويهمل المعاني التي تحرك منها الحس والمحسوس، وتغيب العقل والعاقل والمعقول بضد ما يجده الفضلاء عند سماعهم الألحان المطربة، وليس له الهياكل المنتصبة، وأكثر أُنسه بما هو خارج الذهن، أو مدرك بحسه، أو بقوة طبيعية، أوببعض القوى المشتركة بينه، وبين الحيوان غير العاقل، ومن الناس مَن قال بعدها: السكون والطمأنينة، والفقر الوجودي الذي لا يعبر عنه، واستناد الماهيتين، وسقوط الواحدة عند الثانية، وظهورها بها ظهور ماهيته في ماهيته، ثم واحد، ولا اثنان، ثم اثنان وواحد، ثم واحد في كل واحد من ذلك، ثم واحد ولا شيء من ذلك.

وقد قيل أن البحث فيها من قبيل الشاهد على الغائب، وهو مما لا خير فيه، وإنما الحق أن يترك ذلك المعنى بما هناك مجالسًا يدركها، وقد قيل أنها جوهر المقر الإنساني، وذات منتظرة أو قوة خاصة، وقد قيل صورة ممتدة؛ لأجلها طُلب المعلوم، ونظر في العلم، وفيما قبله كالقصد إليه، وما أشبه ذلك، ولولا خوف التطويل كنت نبين القول فيها، وفيما يجب عندها، وكيف هي، وهل هي حال العلم هناك، أو ثمرته، أو هي هو، وهل تقوى، أو تضعف من جهة العلم، أو من جهة المعلوم، أو هل هي بالعلم دون العمل، أو بالعمل دون العلم، أو بهما، أو بخاصة ما تابعة لهما، أو لكل واحد منهما، وبتخصيص لا في شيء من ذلك كله، أو بأمر آخر ينضاف لهما، أو بالجميع، أو بتركهما من جهة العلة، أو بوجودهما من حيث السبب، أو هي حالية تخلق حال الاتصال للواصل، أو هل هناك ماهية أو جزء ماهية، أو مقومة له، أو متممة، وهل يمكن الكمال دونها أولاً.

وإن كانت في كل كامل، فهل هي هناك ذاتية أو عرضية، فإن كانت ذاتية، فهل من صفة نفس ذلك المقام، أو غير ذلك، وكذلك إن كانت عرضية، والكلام عليها من حيث هي نتيجة أو مقدمة لأمر ما، أو علامة القبول، وما المحمود منها وغير المحمود، وأمَّا الذي يخص الخواص منها فيطول شرحه، وأيضًا هذه اللذة يجدها كل عاقل من نفسه، كما يجد الألم، ويميز بينهما وبينه، ويظهر أنها غنية التعريف بهذا البحث؛ لأنها مشعور بها في نفس المدرك، وينبغي أن ينظر فيها من جهة ضدها، وكونها معه في مقولة الكيف والملكة، وما أشبه ذلك، والقول عليها كالقول على العلم والجهل تحت الافتقار والغنى، والفقر تحت الملكة؛ لأنها مع ضدها كالسواد والبياض تحت اللون.

وانظر ذلك في المتقابلات، وفي معنى الجنس وأنواعه، وفيما يعم، وهو كالجنس، وفيما يعم، وهو كالنوع، وفيما يعم، وهو كالكل، وفيما يعم، وهو كالموضوع الأول، وفي المبدأ، وفي الشيء الذي يرجع إليه، وما المعنى الجامع الذي يخص الجسمانية والروحانية بفصول، ويجمعها بخواص في معنى عام تُقال عليها، وتحمل فيها حملاً واحدًا؛ لأنك لا تقول: هي الملائم للمزاج، فينقضه عليك التذاذك باللذة المعنوية، مثل التذاذك بالصيت والرئاسة وطلب الجاه، وإن كان الجنس ينفعل للفرح، فهو المعنى الموضوع لحركة اللذة، ومنفعل عنها، واللذة الروحانية محلها روحاني، وكذلك الجسمانية، والمحمول الروحاني موضوعه روحاني، وقد ينفعل الجسماني عن الروحاني، فإن العالم انقسم إلى ما يحرك ولا يحرك، ويتحرك ويحرك بجهة وجهة، ويحرك ولا يحرك، فاللذة روحانية وجسمانية.

وبمثل هذا الاعتراض يلزم في اللذة المعنوية.

وإن قلت: هي إدراك الملائم ينقضه عليك المعلول الأول.

وإن قلت: الألم هو تفرق الاتصال، واللذة بالانفعال[1]، أو المآل المدرك عند الاتصال المنفعل، والاستراحة من المؤلم يلزمك الشك الذي ذكره أسطانيس الحكيم، وألزمه، وذكره أبو بكر الرازي، وابن الخطيب في الملخص، فحصلها بجوهرك، ولا تأخذ مكان ما هو بالذات ما هو بالعرض، وتحفظ من الاغتباط بلذات الأشقياء، فإنها خسيسة، وأخس ما فيها الفرح بها، والوقوف عندها، وبذلك تمتنع النفس عن طلب غيرها، ولا تلتفت لكلام الناس فيها، فإنه من قبيل الخطابة، وهو بالجملة إقناعي، والحق أحق أن يتبع،

(1) قال شمس الدين السمرقندي في الصحائف الإلهية (ص 70) بتحقيقنا: أما اللذة، والألم فعرفوا اللذة، بإدراك الملائم والألم: بإدراك المنافي.

والأقرب أنهما ملزومهما لأنفسهما.

وقال محمد بن زكريا: اللذة خلاص عن الألم.

وزيفه الإمام بما إذا وقع بصر إنسان على صورة مليحة فإنه يلتذ بإبصارها مع أنه لم يكن له شعور بتلك الصورة قبل ذلك حتى تجعل تلك اللذة خلاصاً عن ألم الشوق إليها.

ولقائل أن يقول: لا نسلم أنه ما كان للنفس ألم الإشتياق إلى صورة مليحة ولذلك يقل الإلتذاذ بها بعد كثرة الرؤية.

واتفقت الفلاسفة: على أن تفرق الاتصال سبب للألم.

وزيفوه: بأن التفرق عدمي والألم وجودي فلا يكون علة له بالذات ولأن السكين الحاد جداً قد يعقر الأصبع ولا يحس بالألم إلا بعد زمان. وزاد الشيخ سبباً آخر وهو سوء المزاج.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

كملت «الألواح المباركة» لسيدنا الشيخ الوارث المحقق عبد الحق بن سبعين نفعنا الله به، وأعاد علينا من بركاته.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وسلم كثيرًا

رسالة

وله ﷺ:

الله! الله! رسمه الفقير إلى عفو الله، عبد الحق بن إبراهيم بن نصر بن محمد.

يا هذا! لا يعبد، ولا أيضًا يحمد في عرف العرفان، والحال هذه إلا من له ملكوت الملك والمملك، ثم هو واهب الفضل، وبيده أحكام الكواكب، والأفلاك، وكل الأُكَر، ومركوب الفلك، هو الذي لا يشهد غيره إذا لحظ الوجود وشاهده، نعم، ولا يعرف أيضًا إذ به ينطق ذاكره وجاحده فمَن تقدم يقول: «هو» فقط، أو الذي لا بد منه جميع جهات الدور، ومَن تأخر يبصر أفعله، ويوجب حمده بلسان العموم، ونعت الإعياء والمبالغة على الفور.

ولقائل أن يقول: يدرك الذي بيده كلمة الممكن العام، وكل وجود مشخص، وبه في الدقيقة والدرجة والساعة واليوم والجمعة والشهر والعام، ثم له أن يقول: من هو الحق حيث هو كذلك تكون له الوحدة المحضة المطلقة الواقفة؛ بل هو لازم الإحاطة، وحقيقة القصد، والخطفة الآتية والسالفة، وشهد المسلم، وأثبت القول توحيد من عانده الوهم الأول، وعرف المؤمن الواجب، فقال: قد قيل أنه مشار الأمرين، والآخر والأول والمحسن، شاهد فلم ينوع، ولا أيضًا استدل، والواصل القول بالسلب، وأفرد اللازم واستقل، وصرف المحقق القسط والنصيب إلى المعالجة العقلية، وراجع البصيرة، وأقام علمه القوانين المقبولة النقلية، ثم ألزم الكل الطلب، وعلم الحكم الآلية لا بالكلمات الكلية، ثم فهم المسائل، وكان على بينة من الحصر والوقوف، وصعد الدرجة الرفيعة، ووصف الملك أنه مالك صف الصفوف، وأشعر القلوب بالتقلب من المطالب، وإن كانت عالية.

وزعم أن فضل الله الذي يؤتيه مَن يشاء غيره ﷺ خطابه خالية، وآمن بالأحد الصمد الذي لا يُقال بتقديم وتأخير في عناصير العلوم، ووافق بوجه ما مَن قال إن العلم والعالم عين المعلوم، ثم علم أن المطلوب الأعظم في الدور بعد النهاية، وأنه قضية الوقت المفردة في عقب نظرة السعادة.

تبارك رب الفطرة السليمة الزكية الذي لا يمكن الشركة في مقالته مدرك قوة في المنطق السنية لسان الشاكر الأول قال:

سبحان مَن بجميل الصنع قد بدآ

ثم يقول:

سبحان مَن صنف الخلق الذي بدآ

ولسان المتكلم يقول:

سُبْحان من أوضح البرهان فاتضحا سبحان قاهر من قد لجّ أو جنحا
سبحان مَنْ ساقنا للرشد ثم هدى سبحان من لم يَدَعْنَا مُهْملين سدى

ولسان التصوف من جهة الوجه الأول يقول:

سبحان من باختصاص شرَّف المَلَك سبحان من علمه مُحْصٍ لما مَلَكَ

والثاني يقول:

سبحان مانح فَضْل السبق من سبقا سبحان مانع من عن بابه أبقا

والثالث يقول:

سبحان مَنْ وطَّد العلياء والشَّرفا سبحان من فضَّل الأصحاب والخَلَفَا

والرابع يقول:

سبحان رب به حقًّا له وصلا سبحان مستوجب التسبيح متصلا

والخامس يقول:

سُبْحان مُتْقن ما أبدى من الصور سبحان مبتدع الهيئات والفطَر

والسادس يقول:

سبحان ذي العز والملك الذي شمخا سبحان مُصْرِخ مضطر به صرخا

والسابع يقول: سبحان المطلوب بما هو له، وبه عند ذلك، سبحان المدرك، ولا غيره يقدر؛ لأن الحق فيه كذلك.

والثامن يقول: سبحان مَن وحده الدور قبل الإعياء والمبالغة،سبحان مَن يتحقق

بالذات القائمة لا بالحكمة المبالغة.

والتاسع يقول: سبحان المسر عن رعاية الأصلح، وتخصيص العموم، سبحان العزيز في ضمير المحقق لا بالمفهوم.

ولسان التعليم يقول: سبحان مَن غلب نظائر التقديس، سبحان مَن حكم على لازم المقيس.

ولسان التنبيه يقول: لا يُقال ذلك؛ لأنه عن دور الأول، ولا هو أيضًا ذلك؛ لأنه بالإضافة غير الآخر الأول.

ولسان التقرير يقول: سبحان مشار النكتة، والقضية المدرك بالسكينة بعد النية، وبالجملة: سبحان الله؛ لأن أوصاف السناء له، والله أكبر، ليس الوهم نائله، والحمد لله حمد العارفين له، والله أكبر تكبيرًا بواجبه، ولا إله إلا الله لذ بجانبه، ثم الحمد لله إقرارًا بنعمته، والله أكبر إذعانًا لعزته، ولا إله سواه في بريته،سبحانه صدعت فينا حجته، شواهد الأمر مرآه ومسمعه، والحمد لله أعطى الخلق ثم هدى، والله أكبر لم يترك أحدًا سدى، ولا إله سواه، ضل من جحده، سبحانه أرسل الرسل الكرام هدى ورحمة، فصفا للشرع مشرعه، أحمده على كماله المطلق، وأشكره على نعمه، وأستغفره بلسان التوسل، وأضرع إليه في السلامة من القمة، وأشهد أنه الواحد مشار الأسماء الخمسة المحصلة، وأنه هو الحق، ثم الرب، وله البينات المفصلة.

وأشهد أن المختتم بدعوته أفضل ذوات العالم السبعة، وأنه بعد عوالم العلم يماثل التقريرات التسعة؛ بل هو المختار غير أن الذي يُقال مع الحاصل الأطلس في الرتبة الثالثة لا يُقال هو به وله، وهو الكامل، غير أن الذي تحصل في السفر بعد ما هو بعد الطبيعة جعله الله آخره وأوله، وهو المتوحد في الأسماء القائمة، والذي يرجع الدور إليه، ولازم السكينة الدائمة ﷺ هو الذي أبصر آيات ربه، وطرفه غير كليل، وهو الذي جاء بمعجز القرآن والتنـــزيل، ثم هو الذي قادنا إلى الحق بالتيسير والتسهيل، والذي نفوسنا بمحبته تتقلب في كل معرس ومقيل.

وسلام الله على لواحق أكوانه، إذ لم يزل في أحكام الزمان بالمعجزات مؤيدًا، وشريعته مع الأحيان تعرفنا طرق المحامد والهدى.

ورضي الله عن الذوات المعتبرة من بعده، وكل النفوس الزكية المودعة سر الأنموذج بما هي فضيلة من عنده، وأيد الولد النَّدس، النادر الأندري، المنتجب المنتخب، النجي المهاجر الناسك الوافد الورع الطاهر التقي النقي الحافظ الثبت المدرك المحمود، ثم المحب

المخلص في ولائه شهاب الدين أبا جعفر أحمد بن عبد الحق بالقصد الثاني، جعل الله سعايته صادقة ومقبولة عنده، وحفظ عليه قلبه ودينه وعهده، وسلم من الطرد القاطع علمه وعقده، وأنجح من كل الجهات سعيه وقصده، وأطلع في مطالع البر قدره ومجده، ورزقه فضيلة يبلغ بها في المراتب العالية، وسعة وجهده، وقد أذنت له أن يحدث عني بكل معلوم تحصله فضيلة الرواية والدراية، وتظهره مهنة القراءة، ورحمة العناية، ثم يقوم على أحكام الوراثة في مقام الهداية للمسترشدين قيام الوارث الواصل، ثم الفاضل الفاصل، ويفتح الزاوية، ويأمره بفتحها، ويكتب الإجازة، ويبسط السجادة، ويأخذ العهد، ويجعل ذلك عن لواحقه، ثم عنه، ويبلغ الغاية في النيابة وله ومنه.

لا زالت عناية الله به حتى تحمله إلى دار الأقطاب تحصله في محيط المحققين، ودائرة الانتصاب والاقتضاب، ومهد له درجات المعرفة، وأوثق به حبل الألفة، وعرفه في كل ما يعثر منه صنعًا جميلاً، ولطفًا خفيًا جليلاً، ويسر عليه في سبيله ما هو كما قال الله تعالى: ﴿ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: 6].

ولا برحت الأنوار الإلهية تكشف له عن الخفيات، والعناية العالية الآلية تدبره حتى تحصل له الغايات بحصول الأولويات، والمواهب الملكوتية تقيده تقييد الخصوصية الصمدية، والبركات الكافية تحمله إلى الحماية الأحدية، وأنعم عليه بالفطرة التي تكون النفس مطمئنة صورتها المتممة والمقومة، ثم يزيده من فضله حتى تكون الحكم اللدنية طبيعته المسلمة والمعلمة، تدبير يعتمد، أسعده الله وأيده على الله في كل الأمور، ويسلط الفقه على كل أكوانه الكلية والجزئية، ويكون مع الحق على أي حال كان بتدبير العلم الجامع، ويجعل القرآن أمامه، والسُّنَّة طريقه إليه، ثم إلى كل المعاملات، ويعمل على المعارف، ولا يرجع عن نوع من أنواعها، ولا يقنع من رب البرية، ولا يطلب غيره، وكما أفرده بالربوبية، ثم في الأفعال، ثم في الوجود يتوحد أيضًا فيه، ويكون الواحد الواحد بالقصد المتوحد في طلب الواحد، ويجمع كل الأغراض والأحكام والحركات والسكنات كلها إليه ولأجله، ويصعد على درج التحقيق حتى يعجز قدم المبالغة، وينظر في غيب الغيب حتى يكل نظر بصيرة الغاية.

ويرسل رسل فهمه وفكره إلى فضل الله كيف كان حتى يقف طير الاغياء والنهاية، ويشد يد العناية على الروع المحض، ويكون على قدر ونحو الصواب بحيث يسلم فيه الفقيه، ويستحسنه العقل، ويوافق صحيح النقل.

ولا يتهاون بقضيته المفردة في الأنفاس الدائرة عليه في الزمان الفرد، فإن قضية البحث

عن الشأن العزيز وقتية، ويمسك لسانه على المطفف والمقتصد والمقلد والمجتهد، إلا في أمور ثلاثة:

أولها: الغضب في الله، وثانيها: الكلام فيه ولأجله، وثالثها: التنبيه على المصالح التي تحفظ نظام الطريق، وترتب قيود الألفة، والنصيحة لإخوانه من عموم المسلمين، ويقيس كل كون يكون عنه وبه وله بالشرع المطهر بالعقل النوراني، وبمراد العلوم.

ثم يقلــب الــشرع على الفضيلتين؛ لأنه من طور أرفع وأنفع وأجمع، ولا يمل، ولا يكسل، ولا يبالغ في المجاهدة، ولا يتأخر عن طلب رعاية الأصلح في نفسه وحبه، ويدبر الطبع بالموافق، ثم بالمخالف إن خاف عليه في قضية الأصلح من الأمور، ولا يلازم مَن لم تخدمــه علــوم الدين، ولا أيضًا يهجره، ويجعل نصيبه من الناس مجالس الذكر والأمور المشتركة، ومع إخوانه عموم مصالحه.

وكذلك القول على من يقصده لأجل الله، ويكون في أمور المنكر على بينة من العاقبة، ولا يبطش بالغالط على نفسه، ويجعل أدبه بغيره إلا إن كان ممكن يتحكم له، أو يحكمه على نفسه، فإنه يكون معه على القوانين الشرعية والعادية والعرفية المطلوبة في تدبير السعداء، ويدخل على أبواب المجاهدة بإذن الإمام القائم على النفس، ثم لا يجهد نفسه، ولا يعرف بما هو عليه؛ لأن المطلوب ها هو بالمرصاد، وهو المطلع على عمق الضمائر، وعلى ما يقوم بها، وهي في النظام القديم قبل الممكن المشخص، ويجعل لنفسه ولأتباعه سنة الرفق والجذب بالملائم ما لم تخل بالشرع والطريق واللوازم المطلقة، ولا يباشر شيئًا من عموم المتعلقات إلا بميزان الأحكام الخمسة، وعرضها عليها من كل الجهات.

ويكون له في أوقات يومه وليلته قراءتان: الرشد والإرشاد، على أنحائها، فمنها الصلوات المكتوبة ولواحقها، وما يكون قبلها على ما ينبغي كما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، ثم يجعل بإزائها من أنواع العلوم ما يصلح بالحاضر، ثم ما يحمل بالخواص، ثم الذي يجب في دين الله، ويكون من قبيل وضع الشيء في محله بحيث يوافق الجمهور والمسترشد والنفس الزكية، ومع ذلك فضيلة الذكر، وبعده الخير المتعدي، وقبله حفظ صلاح العادة بأسباب تحمد، ولا يعتب فيها لسان عرف الطريق، ويثني على استعمالها لسان الشرع، ثم القوانين الداخلة في دائرة التنبيه والسلوك والمواعظ، وأنواع الترغيب والترهيب للأتباع، والنظر في مصالحه، والنظر إلى الغايات في البدايات، والصبر عليهم.

وينقل طب الأبدان من حيث عموم التدبير إلى الأديان، ولا يرجع عن قاصد، ولا

يمسك عنه يده، والمرأة في ذلك كالرجل: فالصغير كالكبير منهما، والحر والعبد سواء، والقبض لا يحمل، والبسط يهمل، لازم الأدب، وإذا كان كل شيء في موضعه جاء نصر الله والفتح من كل الجهات، والمباح الذي يتخلل أجزاء النهار، والمكروه يفرغ منه إلى المندوب، والمحرم إلى الواجب، والأوراد العملية تقسم على الجوارح، وتقيد الحواس بوظائف المعاملات، وتخزن النفس الأمارة في دهليز المجاهدة، وميدان التوبة، والمحاسبة والمراقبة، وطلب الترقي.

والملك يحترم ولا يشارك في رعيته، وأي حاكم إمام لا يعاند، ولا يسلم لمَن يزعم أنه يكون قدرة إلا ببينة علمية، وأخرى عملية، والشاب يلزم الوقار، ويجعل بيد كل بر تقي، والشيخ يوقر ويصبر على جهله إن كان كذلك، ويسمع من الثاني إن كان يحب ذلك بوجه ما بحيث لا يخجل، ثم يلحق بما يجب في ذلك، والمتوسط يقابل بما يظهر عليه، ثم يخبر إن كان كالغالط والمتغالط، والمرأة تدبر مثل الرجل؛ لأن الإسلام يطلق عليها بمثل ذلك غير أنها تحجب وتحفظ وتدرج معها في الوصية، ولا تذاكر في غوامض العلم، إلا إن كان ذلك منها طبيعية، أو تقوم بها شبهة.

والإجازة المنوطة بالعهود المذكورة لأجل التوبة لا يتوقف عنها؛ لأن ذلك يجب شرعًا والتي تكون لأجل التقدم المطلق والفتاوى يتوقف عنها إلا المحق القائم على أنواع الفضل المطلوب في ذلك كله بما يجب في النوع نفسه، وطلب السبب نعمة لأجل أخرى، والتوكل على الله فضيلة أخرى، وكذلك التسليم والتفويض والرضا، غير أن النظر في ذلك للبصيرة، وقرينة الحال، وقوة الفراسة من كل الأتباع، ويدفع لكل ذي حق حقه من السلوك.

ولا بد من خادم تقوم به ثلاث خصال: الصبر، والفهم، والمعرفة.

ومَن عرفت منه الخلق المشار إليها يغتبط به، وضده يدبر حتى يصدر منه لازم الأمرين، ويجعل للطلبة ما يخصهم من المحل والقول والمعاملة والتدبير، ولا يقطع الزنبيل من الزوايا بالجملة، فإنه يسوق خمس فوائد: إطعام المضطر، وكسر النفس، وإقامة نوع من أنواع التطوع أعني: البذل، وحفظ جماعة التوجه، والاستعانة على العبادة من حيث هي كذلك، ومَن تسبب وصدر عنه مثل ذلك فهو الراجح، ومَن كان على بينة من مقام التصريف فهو الخليفة.

ويعلم التلميذ أنواع المجد وأسبابها، ويفرح بتجريده حتى يكون مشروح الصدر طيب النفس شديد الاغتباط والسماع، يكون في وقت الحاجة إليه، ولا يجعل ذلك من نوع مَن

قصد تدبيره بالورع إلا في وقت حضور قدوته، وإن حضر فلا يغير على الفقر إلا إن دل الدليل، ويقوم المحرك لذلك من جهته، ولا يقبل المجاز الذي يتهاون بأحكامه أعني: الذي يكثر من القيام، والكلام في غير الأصلح في عقب فراغه من الحركة إلا إن كان على قدم التقدم بين الفقراء، ويعرف ذلك بينهم؛ لأن السماع يطلب به خمس فضائل:

الأول: ردُّ الغاية من الأحوال.

والثاني: حفظ ما يحث الملكة.

والثالث: استجلاب ما لم يفهم بالمدرك الفقير.

والرابع: حديث النفس بالأمر الذي لا من جنس ما يكتسب.

والخامس: إحداث راحة للفقراء أعني: القادم منهم، والذي يخرج عن زاوية التدبير بالمجاهدة، ومَن ظهرت له اللوائح والمطالبة فيه وفي عقبة للشيخ إلا إن اضطر إلى ذلك، ويفعل الشيخ مع أتباعه بحيث يكون الكلام مع مَن يحترم، ولا يراجع؛ لأن القلوب في السماع منشرحة شطر ما يخلق فيها، وما يحدث عنها من النظام القديم.

والمخافقة بين الفقراء تفيد إذا كانت نحو الصواب، والمتكلم بها يكون ممَن تحكمه جماعة الفقراء على قوانين أمورهم، ثم لا يريد إهمال ما هم عليه، وحفظ صيته، والتقدم على الكافة، والمطالبة بالجملة لا يكثر منها إلا بالتدبير، والذي ينصف مَن نفسه هو الحاذق الفاضل، ومَن أقام الحق على أي حال كان، فقد تقدم، وقدمه طبعه.

ومما ينبغي أن يعلم أن هذه الفضائل قد درست، ولا يلتفت إلى الطاعنين على رجالها فإنهم أفضل الذوات؛ لأن الزهد لسان حال الكبير منهم والصغير، ودعوة أهل الحق واحدة، وكل المسافرين من غير نسبتنا لا تقام عليهم أحكام الطريق بالجملة، فإن المطلوب منهم لا يرجع إلى نظام المحفوظ، ولا هو من النوع بالقول المطلق، فإن القوانين التي لهم قد حدثت أصنافها، ووضعت لهم مبادئ الأمور الشرعية، والفضل لله أن أظهر لهم فضيلة شرعية تلحق بأجهل الضعفاء من المقلدين، ثم لا يقبل منهم الاسم الدال، فكيف القول الخاص ولازم السلوك، وكلامنا مع كل من خالف ما أنتم عليه، والله على ما نقول وكيل.

فلا نسبة يختارها الله إلا العرفانية المحفوظة النظام بالوراثة النبوية، والقواعد السبعة، والقول على دعوتكم هذه كالقول على الشرع الذي ختمت الأمور بدعوته، وقد قيل هذا عن المتقدم، والقول على غير بينة من مضمار الإطلاق به، فإن تاب التائب بمطلق الفقه، ولازم أحكام الدين، فهو الحق، ولا يلزم أن يكون من الأصحاب، وإن زعم أنه رفاعي،

أو كذا، أو كذا، فلا تسلم له، فإن النسبة التي لا تُقال على الخصوصية، والأمور الربانية المحصلة من العلم والعمل والفضل الظاهر لا يعول على الأول فيها، وإن كان نفس الماهية، فكيف اللواحق بالجملة، ومَن يتوب ثم يشترط بنفسه، ولا ملكة له علمية، فقد حصل في ذمته ما يطفف على وسعها، وإن كان على شيء مما ذكر فأين مقامه من التحقيق، وإنما قلنا هذا؛ لأن الطريق فيه جملة قواطع، وغايات مشتركة مع الفرق، والشبهة فيه بادية الوجود، والنكتة المطلوبة بين فرث ودم، ومَن غفل عن هذه اللوازم، ثم هذه الضوابط؛ فقد يأخذه الفيلسوف في حِيله، وإن أهمله يأخذه الباطني، وإن سلم منهما يأخذه المتنوع وغيره؛ لأن النفس الناطقة تتلاعب، وكذلك لواحق المقاصد العقلية تتعلق بالضمائر وتصرفها وتقلبها وتنقيها بالجملة، وطريق الحق لا يخفي إلا على شقي فطنته قاصرة، وفطرته غير سليمة، وأعوذ بالله من لواحق المقت.

والأصحاب ينظر إلى أحوالهم، فمَن عرف منه التعلق بأحكام الفقراء المسافرين يجعل عليه أحكام السفر، ويلتزم أن يكون على نية، وإن حصل منها على المباح من الأحكام فقد جاء على خط نفسه فقط، وإن كان في مندوب هو المحمود، وأمَّا الواجب فقد ظهر بنفسه، وغيرهما فهو لازم غضب الله، ولا بد أن يقرر عليه وظيفة ما في سفره حتى لا يكون من قبيل المباح المكروه، وأهون الأمور وأيسرها هو التسبب في ذلك، والحيل الفقهية فاعلة في ذلك.

ونكت الفقراء تهمل بين الخواص، وعلى الإطلاق أعني: التي تحمل لازم الأعراض المذمومة، وإنما أردنا به الحركات النوعية حتى تعود كل الأكوان لأجل الله، وتتعلم النفس خصال التقوى، فإذا هم أحدهم بحركة يؤمر بالنكر، وإن تكون الطهارة تلازمه في سفره، والوظائف الشرعية يجعل عليه منها ما يجمل بطريقته، وكتاب الله لا يدخل به إلى أرض العدو، ويسافر به الفقير إلى أرض الإيمان، وكتب العلوم؛ لأن مَن يجهل العلم وأحكامه ورجاله؛ فقد جحد شرع الله، وكل الفضائل العقلية والعادية، وظهرت عليه طوالع الحرمان كان في مطالع البُعد عن الله تعالى.

وأيضًا ينبغي للفقير الكامل أن تكون العوالم كلها عليه صادقة، فمرة يتوجه، وأخرى يعلم، وثالثة من حيث هو فقط، ومَن كان حائل الذات لا عن ذل في الذات يدبر بالأذكار والمعارف العقلية، وتحبب له الخلوات، ويصبر عليه، ويغبط بخلقه، ولين عريكته وزهده، ويدرج على المراقي على قدر الطاقة، وضده إن كان ذلك منه على عزة لا تصحبه الرعونة، والشرف والنفس منه زكية غير شريرة، فتشد عليه يد العناية، فإنه ينفع في

الخيرات المتعدية، ومزيته بينة؛ لأن الموافقة النبوية فيه، وعليه المقر والأسوة يشبه به من كان كذلك في لواحقه، وأيضًا لا بد من تدبير المبتدئ، وهو تقرير القواعد الدينية العلمية والعملية، ثم تمهيد الطريق، وتفقد أحواله، ويقابل بما يظهر عليه، ويعرف منه، ولا يلتزم السوابع، وإنما يكون الصوم على قدر الطاقة، والخلوة كذلك.

والامتناع عن الكلام، والتزام أفعال البر على قدر الموزون، والتشبه بالذوات الفاضلة والأخذ مع الطبيعة، والخروج عن العوائد القاطعة، فمرة يلازم الصوم، ويفاصل المريد، وأخرى يمنع من ذلك، وحيث ظهر الرجحان يعتمد على استعماله كالحالة في الأدوية المقابلة للأدواء، والأدعية المأثورة التي حصلتها أبواب الصحيحين تستعمل لأمور: منها البركة والنفع المحض، وكلمات يتحقق فيها رضوان الله، ومَن تقرب إلى المطلوب بما يرضاه نفعه ووفقه وقربه واصطفاه، ويدرج قوت الفقير على قدر ما يلحق منه.

فمَن عرف منه ذلك أخذ معه إلى غاية، ومن كان دون ذلك رتب له العرف المنوط بعادته، ثم ينقل عنه للأمور التي تسرق الطبيعة بحيث لا تشعر به كالحبوب التي تجعل في الميزان الأول، والعود الأخضر، ثم ينقص القدر اليسير، ولا يبلغ الأمر بذلك إلى تشنيع الحال، ولا أقل من ثلاث الأول، والرابع أيضًا قد تحمله طبع المجاهدة، والأول هو المختار، وأنت أعزك الله تعالى، وأعانك تجعل لنفسك من الصوم الأيام المذكورة في الصحف الشرعية، فمنها شهر رمضان، وست بعده، وستون قبله، وعشر ذي الحجة بجملته، والمحرم بكامله، والأيام البيض، والأول من كل شهر، وتقوم من الليل ثلاثة فقط، وتقسم القرآن على الأدوار بحيث تختمه في الشهر مرة لأن الذكر والمطالعة تطلب حقها من عرض الهمة وجوهر النفس وتعب العقل النوراني. والكلام لا يكون إلا في المخاطبة المقيدة، أو يكون في حيز الجواب إلا مع التلميذ فيكثر منه في منافعه، وفي الذي يخصه.

والهدية تقبل والطريق إليها لا تستعمل، ورجالها تحمد أفعالهم، ولا يرغب فيه، ويقاوم بمثلها، والسبب يفزع إليه، ويد الورع تتولاه عضدها، والعلم المطلق شخصها، ويلازم الصدق حتى في القبض والبسط، والأهل ولواحق القرابة يجعل لهم من النفس حظ الرفق والغبطة.

ولا تصادم الطباع، ولا تعاند الإفهام، والدعوى إلا على قدر، بعد ما يقبل الطريق علمًا، أعني: المنوطة بالنحل والملل، ويكثر من مطالعة العلوم الشرعية، ويقتصر على علوم القرآن والحديث، ثم المسموع عن الرجال، فإذا حضر التحقيق والمحقق، فليس إلا ذلك بوجه أفضل، وكل علوم المِلة كفاية عنه، وحاملة إليه، وباحثة عنه، وراغبة فيه،

ودائرة حوله، وما سمع من مِلة متقدمة، ولا نقل عنها مثل الذي ظهر في هذه المِلة من أنواع الفضائل؛ لأن علوم شريعتهم أحكمت الطرق إليها، وأسبابها البعيدة والقريبة، وكل علوم الدول، ثم كل النِّحَل والمِلل إليهم دفعته الأيام والعناية الإلهية، فكانوا على بينة من المتقدم.

والذي أظهرته الكلمة المحمدية ثالثة أثفيتهم، فكانوا بمجموع ذلك أفضل البرية عن خير البرية لرب البرية، إلا علوم القرآن، وعلوم الحديث، فإنه لم يتعرض أحد من علماء المِلة إلى الفرض المطلوب بها، ولا حصل عليه، ولا وقف على لازم الأسلوب، ولا على شيء منه بالجملة.

وقد يمكن ذلك بفضل الله، فإن فضل الله المودع في خزائن عنايته بالمِلة الحنيفية يظهر ذلك كله بقدر أفضل، وأي علم تقدم فقد علم فيها إلا ما كانَ من النبوءة الأولى قبل الطوفان، إلا علوم السفر[1]، وعلوم المطالب المقدسة، فهو فيها بالقوة، ولا بد في أيام العالم من ظهور نبذها المبذولة فيها، وأقرب الأشياء في الظهور علوم السرين: الطبيعي والإلهي، ثم علم ما هو بعد الطبيعة، ولا يمر بك من الزمان إلا القليل، وقد عرفت ذلك غير أنه يطلق على الخواص فقط؛ لأن السنة الأمينة عينته كذلك، أعني: العناية الربانية تحفظ الأسرار بالجملة.

ولا بد من الرجل المطلوب بالفطرة الثانية، فإذا عزمت على لقاء الرجال فاذكر الله ربهم في نفسك، ثم لا تسأل على غيره، فأول شيء تراه رجاله، ثم ملائكته، ثم جواهر الفضائل بالقصد الثاني، واطلب مدركات النوم في اليقظة، والعلم دون النظر، والقدرة بغير عضوها، وأول الوقت يقوم به إلى الله فما يكون فقط، ولكل وقت صلوات، وفي عقبهما ما عينه الشارع ﷺ فقط، إلا إنه يبالغ في التكرار والترتيب إلا إن جاء ما يرد عن ذلك ما هو ألزم.

فإذا صليت الصبح، وعنده تدبيرك، عندك تقرأ أوائل السور التي فيها الحروف[2]

---

(1) السفر عند الصوفية: عبارة عن القلب عند أخذه في التوجه، بتصحيح معاملات وتعديل أحوال، تسفر عن النفس المرتقية في مناهج كمالاتها سفاسف الأخلاق ويحليها بمعرفة مكامن القواطع، وموارد القطعيات من المراتب الكونية، والحضرات الحقية إلى الحق تعالى بالذكر.
والذكر هنا: إحضار القلب مذكوره، ومواجهته إياه، واستمراره على ذلك إلى حد تنطمس فيه موارد الذهول والنسيان.

(2) قال سيدي علي وفا في المسامع: الحروف كلها مركبة الصور في إسميتها، وأجزاؤها أجنحتها وهي =

المقطعة من أول البقرة إلى ﴿ن والقلم﴾ [القلم: 1] ثلاث آيات، وتقف في الوقف التام من كل ذلك، ثم ترجع إلى السور الثلاث سبحان والسجدة والرحمن، ثم تقول عقب القراءة: اللهم تقبل منَّا، وانظر إلينا، واختر لنا، ووقفنا للخير وهيئنا لقبوله، وأيِّدنا بروح منك، ثم تقول:

سبحان من أوسع المختار منه رضا.
سبحان من بكمال الفضل فيه قضى.
سبحان مؤتيه عزًّا ليس مفترضًا.
سبحان مدنيه قابًا منه حين مضى.
إليه يسري بسرٍّ في الفؤاد سرى.
ثلاثين مرة، ثم تقول:
الحمد لله شافي الصدر من ألمه.
والله أكبر نور الله في كلمه.
سبحانه خصنا شكرًا على نعمه.
ولا إله سواه بان في نعمه.
بسيد مصطفى فينا يُشَفِّعه.
مائة مرة، ثم تقول:

سـلام على من أسند الله وجهه ... إلـيه فعـن إسناده الدين أسندا
سـلام على من أم بالرسل ممسيًا ... فأضـحى إمامًـا للنبـيين سيدا
سلام على من كان فاتح فضلهم ... ولكن بفضل الختم قد كان مفردا

مثنى كحا، وثلاث كعين، ورباع كقاف؛ لأن الحرف المطبق لا يتأتى النطق به إلا بعد سكون وحركة يعرضان لآلة النطق به في أوله، يقتضيان تكرره من ألقى باله بتأمل أدركه، فيصير الثلاثي بتكرار أوله رباعيًّا، وأوضح من هذا الثلاثي إذا نُوِّن تربَّع.

انظر ليس في المتولدات شيء بارد فقط، ولا حار فقط، ولا رطب فقط، ولا يابس فقط، إلا مبادئ قوتين أو ثلاثًا أو أربعًا مزاجية، وقِسْ على هذا، فمفهومها المفرد الذي هو فرد من أجزاء صورته المركبة جامع لها هو ملك فلكية صورته المركبة، وأجزاؤه أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وإذا جعلت مثنى اثنين في اثنين، وثلاث ثلاثة في ثلاثة، ورباع أربعة في أربعة، صار المجموع تسعة وعشرين حرفًا وجناحًا، والتضعيف تكرار في الصورة، وسيلان في المعنى؛ لأنه بالأول منفصل، وبالثاني متصل.

خمسين مرة، ثم تقول:

لا إله إلا الله حمدًا دائمًا أبدًا.

لا إله إلا الله خير من عبدا.

لا إله إلا الله سوف يحشرنا.

لا إله إلا الله ليوم الفصل يحضرنا.

لا إله إلا الله حمد الله مطرد.

لا إله إلا الله واحد أحد. سبعين مرة.

ثم تقول:

اللهم صل على محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وارحم محمدًا وآل محمد كما رحمت آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم صل على محمد وعلى آل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم صل علينا معه، اللهم بارك على محمد وعلى آل بيته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك علينا معه، هدية الله وصلوات المؤمنين على محمد النبي الأميُّ، السلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

هذا الحديث خرَّجه عبد الوهاب بن مجاهد وتفرد به[1].

---

(1) رواه الحاكم فِي المستدرك (402/1)، وذكره ابن حجر فِي تلخيص الحبير (274/1)، والأبشيهي في محاسن الأخبار (ص 66) بتحقيقنا، وقال: ورأيت كراسة فِي هذه الصلاة ذكر طرق الأحاديث ما يزيد عَلَى مائة حديث، وخرَّجها باختلاف أقوالها، وجعل الضابط لذلك فِي صفة الصلاة عَلَى النبيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ صلِّ عَلَى سيِّدنا محمَّد وعَلَى آل محمَّد، كما صليت عَلَى إبراهيم وعَلَى آل إبراهيم، وبارِكْ عَلَى سيِّدنا محمد وعَلَى آل محمَّد، كمَا باركت عَلَى إبراهيم، فِي العالمين إنَّك حميدٌ مجيدٌ، عدد خلقك، ورضاء نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون»، وقرر فِي ذلك أن المصلي عليه بهذه الصلاة له من الثواب ما لا يُحصى.

يُكثر منها على قدر طاقته.

ثم يكون الدعاء عقب ذلك كله، ثم تفتح كتب التفسير، ثم علوم الحديث، ثم الرقائق، ثم فروع الفقه، وأصوله، وعلم الكلام وأصول الدين، وعلم اللسان، وغير ذلك من العلوم بعد الخروج عن هذه الوظائف، ويؤمر التلميذ عند توبته بالواجبات، ويشرح له ما تيسر منها، ثم يحفظ عقيدته، فإن كان في عادته نحو الصواب ترك مع الفقه، ولازم البراءة الأصلية، ومما ينفع في الترقي، إذا لم تنهض قوة السالك، تقوى الله تعالى، بل ذلك ينفع في الجملة.

ومن هنا خواص فضائل السنن خاصية متى فعلها التلميذ نوَّر الله بصيرته، ويكون في مقام المراد، وينهض في أسرع وقت، وحاصلها الصلاة على نبي الله محمد المختار، فقد جاء الأمر بالإكثار منها عن أنس قال:

قال النبيﷺ: «أكثروا من الصلاة عليّ فإنه مَن صلى عليّ صلاة؛ صلى الله عليه

وسئل الإمام النووي عن حصر ثواب هذه الصلاة هل يعطيه الله ثوابًا عدد خلقه؟ فقال: لا مانع من ذلك.

وقال الإمام الجويني: زنة عرشك أثقل ثوابًا من زينة عرشك، وكلاهما جائزٌ، وأما رضاء الله تعالى وعطاؤه لا يكيَّف ولا يقدَّر فيه حصرٌ.

قَالَ صاحب كتاب الوحيد فِي ترجمته أهل التوحيد: رأيت عن بعض أهل الكشف أن الله تعالى يأمر المَلك الذي يصعد بهذه الصلاة أن يُعلم النبيَّ ﷺ بها، فيأخذها بيده الشريفة، ويختم عليها بخاتمه الشريف، ويقول للملك: «دعْها تحت ساق عرش ربِّي، فيدعها»، فهذا دليلٌ عَلَى اعتنائه بهذه الصلاة، وأنها أفضل الصلوات، وأن منها ما هو بلفظ شفتيه.

ومن محاسنها ما قررناه فِي الأحاديث السابقة، ولم يكن دليل لفظٍ أبلغ من هذا.

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: هي وِرد العارفين، وجاءه رجل عليه ديونٌ كثيرةٌ فأمره بملازمة هذه الصلاة، فما مضى عليه شهرٌ حتَّى قضى الله دَينه عَلَى أيسر ما يكون وأحسن زيادة.

وكانَ شيخنا دائمًا يقول: هنيئًا لمن تَقبَّل الله منه صلاةً واحدةً فِي عمره؛ فإنه لا يدخل النَّار.

ومن محاسن ما نقل عن عبد الله بن عمر: «إنَّ رجلاً قَالَ لَه: كيفَ الصَّلاةُ عَلَى النبيِّ ﷺ؟ فقال لَه: اللَّهُمَّ اجعلْ صلواتك وبركاتِك ورحمتَك عَلَى سيِّد المرسلينَ وإمامِ المتَّقين وخاتم النبيِّين محمَّدٍ عبدِك ونبيِّك ورسولك إمامِ الخير، اللَّهُمَّ ابْعَثْهُ يومَ القيامةِ مقامًا محمودًا يغبطُه الأوَّلُون والآخِرُون، وصلِّ عَلَى محمَّدٍ وعَلَى آلِ محمَّدٍ، كما صلَّيت عَلَى ابراهيمَ وآل ابراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مجيدٌ».

رواه أحمد بن منيع فِي مسنده، وسبط البغوي فِي فوائده.

عشرًا»[1].

ثم يجعل المريد دعائه الصلاة على النبي ﷺ كما جاء، ثم يكون ذلك منه كل يوم وليلة، فقد جاء هذا، ثم عند دخول المسجد كما جاء، ثم عند سماع القرآن، ثم عند سماع المؤذن كما جاء، ثم عند إقامة الصلاة كما جاء، ثم في الصلاة كما جاء، ثم عند الخروج كما جاء، ثم إذا قام من الليل كما جاء، ثم يوم الجمعة كما جاء، والأمر بالإكثار منها في ذلك كما جاء، ثم في الخطبة كما جاء، ثم في الصلاة على الميت كما جاء، ثم في قيام رمضان كما جاء، ثم عند الفراغ من التلبية كما جاء، ثم عند استلام الحجر كما جاء، ثم إذا صعد الصفا والمروة كما جاء، ثم عند الوقوف على قبره كما جاء، وكلما جلس مجلسًا كما جاء، ثم إذا خرج إلى السوق كما جاء، ثم إذا سافر وقدم أسفاره كما جاء، وقبل الدعاء كما جاء، ثم في أول الدعاء ووسطه وآخره كما جاء.

وأيضًا قد قيل أن الدعاء في حجب كما تكون الصلاة على رسول الله ﷺ محمد المختار، ثم عند الحاجة، فإنها من أفضل الوسائل كما جاء، ثم يشدد على من أهمل ذلك على ما جاء، ومن غفل عن ذلك، فهو الذي يستحق اسم البخل كما جاء، ثم يذكر متى كان الحديث من الفقراء والطلبة، فإنه مع الإهمال من الجفاء كما جاء.

ومَن تركها في الصلاة فقد غلط كما جاء، ويشدد على مَن غفل عن ذلك، وقد جاء إن الذي ترك الصلاة عليه ترك طريق الآخرة، وأخطأ طريق الجنة، ومَن يصل عليه يذكره الملك جبريل، ومَن يغفل عنه يكن معه بالضد كما جاء، وكذلك القول على الملائكة، ومما يحذره الغافل العقوبة في إهمال الصلاة عليه عند ذكره، فإنه قد دعا عليه كما جاء، وأي مجلس جلس فيه المؤمن، ثم لا يصلي عليه فيه، فإنه يحمله يوم القيامة كما جاء.

وفضل الصلاة عليه ﷺ أبدًا لا يخفي ولا يحصى، فكيف لا يكون ذلك ورب البرية يصلي على مَن يصلي عليه، فقد جاء في الحديث الصحيح مما خرجه مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «مَن صلى علي مرة صلى الله عليه عشرًا»[2].

ثم يتفقد المؤذن في آذانه فيقول مثل الذي قال، وفي عقب ذلك يكثر من الصلاة عليه ﷺ، ثم يسأل له الوسيلة من الله كما جاء، ومتى عقد الفقير على سجادته، وعقب صلاته يصلي على النبي ﷺ فإن الملائكة تصلي عليه، وصلاتهم الاستغفار له كما جاء، ثم

(1) رواه مسلم (288/1)، والترمذي (354/2).
(2) تقدم تخريجه.

يتحقق الفقيه، ثم الفقير المصلي أن الصلاة عليه ﷺ تبلغه كما جاء، ثم يتحقق أن المصلى عليه هو السابق عنده يوم القيامة كما جاء، وقد جاء وجوب شفاعته لمَن يصلي عليه، وقد جاء أنه شهيد بذلك [....] السلامة من أهوال يوم القيامة بالصلاة عليه، وجاء السعادة المطلقة له يوم القيامة، وجاء جواز الصراط، ونيل رضوان الله، والنماء من الخير، وكونها عبادة وزكاة، وترفع بها الدرجات، وتكتب بها الحسنات، وتحطم بها السيئات، ومَن جعلها وكده وهمه؛ كفي همه وغفر ذنبه.

كل هذه وردت فيها الأخبار المروية المعتبرة، والصلاة عليه يوم الجمعة، ويوم الخميس، وعند لقاء الرجل صاحبه، وتكتب في الكتاب، فإن الصلاة عليه في الكتاب ستوجب الكاتب بها دعاء الملائكة كما جاء، وقد جاء في ذلك وجوب الجنة، وروي عن غير واحد أنه يبشر في الحياة الدنيا، ومَن تعمد ترك الصلاة فقد تعرض إلى الابتلاء، ذكر بعض المحدثين عن بعض أصحابه أنه كان يكتب الحديث، ولا يصلي على النبي ﷺ شحًا منه على الورق قال، فما مات حتى وقعت الأكلة في يده اليمنى، والأمر بالسلام أيضًا قد جاء؛ لأنه يخصصه فيسلم عليه كما جاء[1]. فيقال: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ويسلم عليه عند دخول المسجد كما جاء في الصلاة، فإنه جاء أيضًا، وفي الصلاة، وفيها، وعقبها السلام عليه، وإذا خرج من المسجد المصلي يسلم عليه، وعند الوفود إلى قبره يسلم عليه، ويعلم أن الله يسلم عليه، وقد جاء أن لله ملائكة سياحيين يبلغون السلام عليه، وقد جاء أنه يرد السلام على المسلم عليه، وقد جاء أنه أفضل من عتق الرقاب، وكل هذه الكلمات تتضمنها الأحاديث، فلا تهمل.

والدعاء لا يكون إلا بالأسماء التي حصرها القرآن بما قبلها وما بعدها من الكلام، والدعاء الذي حصله الحديث، والذي يجمعه المحقق من المقاصد العرفانية، والذي يجمع من الحروف المتحابة، وهي المعطفة الموضوعة في أوائل السور، فإنك إذا دعوت الله بها تعتقد إطلاق القول بكلياتها فإنها كذلك، وكل القرآن على تكرارها تدور أفلاك أقطابه.

فاعلم ذلك، ولا تشعر النفس بها إلا أنها كلية عند الدعاء، والحمد لله على هذه نقرر على الأولاد ويلزمون حفظها بحسب المواضع، وإذا أخذ الولد العزيز هداه الله العهد على التائب يذكره الله، ثم بما يقرب إليه، ثم ما يخص التوبة من الأحكام الدينية، ثم يعرض عليه المنجيات والمهلكات، ثم يرقيه على بنية من الشروط المذكورة المفروضة عليه، ثم يعالجه

(1) انظر: الفوائد العظيمة في محاسن الأخبار في فضل الصلاة على النبي المختار ﷺ للأبشيهي.

بدوا، الخوف والرجاء، وعرف الطريق، فيحمله على كاهل الرفق والبيان عن الأصلح من عموم أفعاله وأقواله وأحواله، ويكثر عليه من حكايات الرجال، ويسعه في فضل الله، ويجعل طريقة نعمة عادلة ترجح على كل نعمة، ويحذر من الرجوع إلى خلف، ويمنعه من كل القواطع، ولا يجعله بإزاء مَن تقوم به شبهة أو تظهر عليه بطالة، ويمنع السفر في أول الأمر بالجملة.

وإذا قامت به النفس النـــزوعية، فلا يتعب نفسه معه، وإنما هو الوعظ والتقريع لا المبالغة في إتعاب الطبع هذا، إذا عرف منه المجون والتفريط، بل يعرض عنه، ولا يلتفت إليه ويهمل، فإن جاء فهو ذاك، وإن انصرف فمنه إلى خطه من ربه، وابحث عن أحوال أتباعك بحيث لا يعلم لئلا يدخل عليهم ضد ما هم بسبيله، وأي مبتدع يعلم به يبينه عنه، ولا يرحم بالخلق، وكذلك المارق بالجملة إلا إن غفل عن المقاومة، فيكون الجذب بالملائم أفضل في ذلك، والله يخلص وينفع وييسر ويختار ويحفظ النظام من كل الجهات.

والحمد لله وصلواته على خير خلقه، والسلام على كل الأتباع واللواحق، وعموم المسلمين، ورحمة الله تعالى وبركاته.

تنبيه: هذا الولد النجيب الطاهر الحاذق شهاب الدين أحمد بن عبد الحق أيّده الله بروح منه، وأمده بمعونته وقوة، عنه رضاه أعم من غضبه، وأسباب كرمه مستغرق مقتضيه، حلى لسانه نعم، وثمر بنانه نعم، وما فارقه مَن بشره ما على [.....[1]] من الرونق جائل، ولا حال بينه وبين إسداء المعروف، واقتحام الهول المخوف حائل، ولا استماله جوهر ثابت، ولا عرض زائل، وهذه الإجازة المنوطة بخصاله لا يأتي الزمان بعديلها، ولا يمسح ببديلها، إن الزمان لبخيل منها بالمثل، وضيق عن شبه ذلك النصل، جعل الله أحواله بالجملة صالحة، ومتاجر تعويله على الله بالكلية رابحة، وأوصله إلى مقام الذي أقام الأدب مع الله ورضا له أودًا، وقتل النفس فلم يخش عقلاً ولا قَوَدًا.

والحمد لله على الآية السابقة، وقسمته السائقة، ومواهبه المتظاهرة الرّاهنة، وأنعمه الظاهرة والباطنة.

وصلى الله على نبيه الكريم ذي البراهين الساطعة، والحجج القاطعة، المختتم بدعوته، المختار المؤرخ بهجرته، وعلى آله وأصحابه الأعلام وعترته.

* * *

(1) بياض بالأصل.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وسلم كثيرًا

ولـه ﷺ رسالة:

اعلم هداك الله وأسعدك أن طاعة الله مادة الفضائل كلها، بل هي الصورة المقومة بأنواع الخير المحض، ولا أفضل من رضوان الله، وأدوات السعادة، والكمال الثاني كناية عنها، ثم هذه الطاعة تطلق على الموضوع والمحمول منك، ومن أهم الأمور فيها المحافظة على مفرداتها الكلية، والذي ينبغي؛ بل يجب أن تجعل كلامنا هذا مرآة عين سيرتك، وعنوان كتاب سريرتك، ثم ترتب أحوالك ترتيب الزمان وأقسامه، لا ترتيب الفصول وأحكامه، وتلازم بعد ما تمتثل مدلول هذه الفصول.

فصل: أول الأمر تقوى الله، والمحافظة على عصر الشبيبة بحيث يكون شبابك لا يذهب بلذته، ولا يرتهنك بتبعته، ومن أهم الأمور عليك أيضًا، وأوصاها وأسداها وأقواها وأنسبها في الذي أنت بسبيله إهمال من تتوهم فيه النقائص، ويتهم بها، وكل من تدفعه يد الفكر، وتعرضه كلمة الورع، وتنقل منه خلق النخوة، ويزجره لسان التقوى، فلا حاجة لك به، والحال هذه.

فصل: طهارة الشاب مادة الولاية المحروسة، ثم هي كلمة صيت التقوى، وصفة موصوف السعادة، وعين الرضا في وجه الأمل.

فصل: الاشتغال بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ وبالعلوم ولواحقها، هو فضل الله الذي يؤتيه من يشاء، وحكمته المسموعة من النبيين، والمحسوبة في السنين.

فصل: لا تسمع كلمة كل ناصح، وإن كان يأمر بالتقوى، حتى تسأل عن سيرته، ويشهد له لسان التجربة والاختبار، فإنه قد يسمع الحق من لسان المبطل من حيث الحق، ومعه على أي حال كان.

فصل: جميع مَن يحدثك بمثالب الناس، فهو في الزمان الثاني يحدث عنك، فلا تجالس المغضوب عليهم، ولا الضالين.

فصل: عباد الله الذين اصطفى يحصل النفع بهم في الدارين، ولا تنال النفس منهم والجسم إلا الملائم.

فصل: الاعتدال يطلق على أنحاء، والذي يخص النفس الزّكية من ذلك ما ضمنته سنة المصطفى ﷺ، ونطقت به أحوال أهل التقوى.

فصل: الحكمة[1] هي فعل ما ينبغي كما ينبغي، ثم هي نور الله الذي يطلع على الأفئدة، ثم هي موافقة الأسرة في الذي رغب وأمر به، بل هي فضيلة العلم، ولاحق العمل.

فصل: الحذر الحذر من مجالسة صاحب الوجهين، وممَن يختلس إذا لم يفترس، وإياك ومحادثة وتنفيذ أوامر وسوسته.

فصل: لا تتخلق بأخلاق المفرِط ولا المفرِّط، فإن مجاوزة الحد خسران، وتضييع ما لا بد منه حرمان.

فصل: لا تتشبه بالذين من شأنهم أن يفرطوا فيما يضعونه، ويتجاوزون الحدَّ بمَن يمدحونه في النوع الذي يصفونه، فليس بمحمود من خلائق الكرماء، ولا بمستحسن من

---

(1) قال سيدي علي وفا في المسامع: الحكمة صبغة الحسن، والضد بالضد.

وقال: يُحكى أن بعض الناس راهن صاحبه على إغضاب بعض الأكابر، ثم تعرَّض لذلك الكبير وهو في محفله، فأمسك بلحيته وبصق في وجهه وصفعه، فهمَّ حفدته بقتله فمنعهم، ونظر إليه مبتسمًا وقال لَه: «إن كنت راهنت غلبت».

فاحذر أن تظن بهذا الكبير أنه ترك الحكمة في عقوبة هذا السفيه؛ فإنه لو أظهر الغضب منه بسببه أو ضربه أو شيئًا ما كان قد بلَّغ ذلك السفيه مراده، فإنه ما فعل فعلته حتى وطن نفسه على العقوبات كلها ليغلب صاحبه، فلما فوّته ذلك بإعراضه عن عقوبته كان ذلك أبلغ عقوبة منه له، فذلك عين الحكمة.

وقال: الحكمة ما فيه وبه صلاح النظام، وكمال القوام، في كل مقامٍ بحسبه، والرحمة مبدأ الحكمة، والحكمة صبغة الحسن، والحسن موافقة الاختيار، والاختيار إرادة ما يُرى أنه مصلحة، فهو لا يتعلَّق إلا بما تعلقت به الحكمة، لكن تارة يكون التمييز بالوهم، فيحصل الغلط في عين المصلحة، كأن يتوهم الورم سنة فيختاره، فاختياره لم يتعلَّق في الحقيقة بالورم، ولكن بالسمنة، وإنما هو غالط في تعيين حقيقة مختاره، وقِسْ على هذا كل مستحسن ما هو في الواقع مفسدة.

فإنما استحسنها من حيث زُينت لَه، فتوهمها مصلحة، والأخلاق مبادئ الأفعال الجزئية، وفضلها دائر مع استصحاب الحكمة وجودًا وعدمًا، فإن صحبتها الحكمة في الفعل فضلت، فكانت حسنى، وآثارها حسنات، وإلا فلا:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: 68]، وبذلك ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: 7]، ﴿هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 102]، فالقبح عارض لمن عارض بوهمه وضع الواضع بحكمه:

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 39]، ومن ثَمَّ جاء النهي التكليفي، فالمتوهم صنع القبح لنفسه فيما صنعه الحكيم حسنًا لمن لم يسلط عليه ذلك الوهم، حكمة بالغة.

أفعال السعداء؛ لأن مَن أسرف في الجود كان مبذرًا، كما أن مَن أسرف في الحفظ كان مُقتِّرًا، ومَن أسرف في الشجاعة كان متهورًا، كما أن مَن أسرف في الحذر عد جبانًا، ومَن تجاوز حد الحلم كان مستبدًّا، كما أن مَن تعدَّى في الانتصار عد حزمًا، ومَن أفرط في قلة الكلام كان مستجهلاً، كما أن مَن أفرط في الإكثار منه كان مهذرمًا، والتأدب بتأديب الله جل ثناؤه، وأدب رسول الله ﷺ هو الطريق الذي مَن سلكه اهتدى، والمقصد الذي مَن قصده آمن من بوائق الردى.

قال جل ثناؤه يمدح قوما: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67].

حكى الحارث بن أبى أسامة عن العباس بن الفضل عن أبى عبد الله التميمي قال: أخبرني الحسن بن عبد الله قال: حدثنى مَن سمع النابغة الجعدي يقول: أتيت النبي ﷺ فأنشدته:

ولا خَيْــرَ في حِلم إذا لم تكن له ... بــوادِرُ تحمى صَفْوَه أن يُكَدَّرا

ولا خَيْرَ في جهل إذا لم يكن له ... حلــيمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأمْر أصْدرا

فقال له النبي ﷺ : «لا يفضض الله فاك»(1).

فصل: البحر إذا ركبته، فاعلم أنك على حاشيتي النقيض، فلا تهمل الواجبات في أوقاتها، ثم التزم الصمت، فإذا حللت بساحل الطور لا تتطور، وأعرض وجه أعراضك، ومدلول رأيك على من يحبك، ولا تخالط إلا الأمثل فالأمثل، والخلوة أفضل، والخمول أوصل، فمَن يرشدك إلى إصلاح عادتك شد على لازم أمره يد الغبطة والعناية، ولازم دارك.

فصل: متى قام بك خاطر العزم على السفر، فانظر في الراجح والمرجوح من الجهات الأربع، واقصد إليه، ثم لا تدخل الطريق إلا بناموس أهل الطريق، ولا جناح عليك في ترجيح أحد المقصدين، إذ كنت في ذلك كله نحو الصواب، وإذا تعذر أمر السفر إلى بقعة المناسك، حينئذ تفعل كل الذي ذكر في هذا الفصل.

فصل: جميع مَن يحضك من الفقراء على الخير الممكن، ثم يخرجك إلى مقر هو به، فانظر في لازم أمره، وفي غايته، فإن كان مجهول الرشد اترك الخير لأجل شر متوقع.

فصل: المحب الناصح قد لا يكون من العقلاء مع وجود الصفتين، فاحكم بما يشهد له

---

(1) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (844/2)، كما في زوائد الهيثمي.

الوجود صحبة التصفح.

فصل: ع ولواحقهم لا بد أن يمنوا عليك بإحسانهم، أو بالسلامة منهم، وطبيعة الشهم التحير لا يخضع، ولا يجيب داعي الذل، فإن نشبت فيك أظفار صلة الرحم، والحال هذه، فانسلخ عن جلدك، وطبيعة الهمة تكشف لحم المروة.

فصل: إن دبرتك خصالك، وأقامك صيتك، وإلا فأنت الميت الذي كبر عليه بالقصد الثاني.

فصل: لا تخالط غير إخوان الصفا[1]، فهم الذين لا يفرغ سمعك منهم كلمة الامتنان، ولا يعلوك بهم يد النذل، ولا يتحرك عنك قدم الضجر، ولا تهجرك طبيعة المغايرة.

وجملة الأمر لا تضر بمضرتين، ولا تُلدغ من جُحرٍ مرتين.

فصل: الحاذق الراغب في خصال الخواص يعمل على المراتب العالية، ويصعد على درجة أقرانه، ويجعل وكده، إمَّا في العمر كله، وإمَّا في أكثر الزمان، طلب نيل المجد من كل الجهات، وينظر في مرآه الحكم، ويحكى الوارث، ويمنع مَن صادق النظم والنثر، ويحرر ما يبرزه الفكر، وما تنكت به القوافي والفِقَر.

مثال ذلك إذا سمع الشاعر يقول[2]:

إنَّ البخـــيل مَلُــومٌ حيث كان ... ولكـــنَّ الجوادَ على عِلاته هَرِمُ
هـــو الجـــوادُ الذي يعطيك نائلَه ... عَفْــوًا، ويُظْلَـــم أحيانًا فينظَلم

يجوز على ذلك إلى درجة مدلول قول الآخر:

ومـــا بلَغـــت كفُّ امرئ متناول ... من المجد إلا حيث ما نلت أَطْوَل
ومـــا بلغ المهدون نحوك مِدْحَةً ... ولو أطنبوا إلا الذي فيك أفضلُ

ثم اعمل على سيرة من سُوِّد في حداثته، وقُدِّم بفهمه وبلاغته، كما قال ابن الأعرابي:

غـــريبُ السجايا ما تزال عقولنا ... مـــولهَةً في خَلَّـــة مـــن خلالـــه
عـــناه الحجـــا في عُنْفوان شبابه ... فأقـــبل كَهْـــلاً قبل حين اكتهاله

ثم خذ نفسك بسيرة الحسيب النسيب، فتكون كالذي يذكر بالتفضل في الأحساب

---

(1) قال سيدي محمد وفا ﷺ وعنَّا به: الصفاء هو تصفي الناطقة من شوائب الحيوانية بانحسام مادة الطبيعة، وحقيقته: طهارة القلب من نجاسة الشرك بنور التحقيق بتوحيد الأفعال مطلقًا، وغايته: محو ظلام القبح عند بدوِّ أنوار شمس الحسن المشهود بأعين الوحدة المطلقة اهـــ.

(2) البيتان قائلهما: زهير بن سلمى كما في ديوانه (ص 152).

والتمدح بشرف الأنساب، فينـــزل عليك مدلول بيتي شاعر همدان[1]:

رأيـــت ثَنَاء الناس في الغَيْبِ طيّبا   علـــيك وقالوا ماجدٌ وابنُ ماجد
فـــإن يَـــكُ عتّاب مضى بسبيله   فمـــا مات من أبقى له مثل خالد

ثم تعمل على سيرة مَن عظم بجسارته، ومدح بتجلده، حتى تكون نعوتك مدلول بيتي البحتري:

فـــتى لم يُغبُّ الجودَ رقْبة عاذل   ولم يطفئِ الهيجاء خَوف الجرائر
ولم يُـــرَ يـــومًا قادرًا غيرَ صافح   ولا صـــافحًا عن زَلّة غير قادر

ثم عمل على سيرة مَن يعمل المعروف في محله، ويشكر عليه لأهله حتى تكون مدلول بيتي البحتري:

أأجحَـــدك الـــنَّعْماء وهي جليلة   ومـــا أنـــا للسرِّ الخفيِّ بجاحد؟
مـــتى مـــا أسيرُ في البلاد كأنني   أجد سائقي يهدى إليك وقائدي

ثم اعمل على سيرة مَن يريد صيت مكارم الأخلاق، ويدفع ما يتوقع حتى يبلغ المدح فيك إلى الأغياء.

ويشرح ما أنت عليه شاعر عبد الملك بن مروان:

والله مـــا أدرى إذا مـــا فاتـــنا   طَلَـــبٌ إلـــيك مَنْ الذي نتطلب
ولقـــد طلبنا في البلاد فلم نجد   أحـــدًا سواك إلى المكارم يُنْسَب
فاصـــبرْ لعادتـــنا الـــتي عَوَّدْتنا   أوْ لا فأرْشِـــدْنا إلى مَـــن نذهب

ثم اعمل على سيرة مَن لا يذكر بالفِرار من لقاء الخصوم، والجزع من موافقة الأعداء، فتسلم من مدلول بيتي البحتري[2]:

وقـــد شاعت الإسلامَ خمسون حَجَّةً   فلا الخوف ناهيه ولا الحلمُ زاجره
ولمـــا التقـــى الجمعان لم يجتمع له   يداه ولم يثبت على البيض ناظره

ثم اعمل على سيرة مَن لا يُذمُّ بسوء خلقته، ويمقت بفساد سريرته؛ تسلم من مدلول بيتي محمد بن حازم الباهلي:

يطـــول بقربك اليومُ القصير   ويرحل إن مررت بنا السرورُ

(1) القائل هو: الأعشى كما في الأغاني (57/6).
(2) ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان (125/2).

لقـــاؤك المُبَكّـــر فَألُ سوء ووجهـــك أربعـــاءً لا تدور

ثم اعمل على سيرة مَن يمدح بفعله، فينسب ذلك إلى أهله، تسلم من مدلول أبيات شاعر الدّار:

إذا ما بدا عَمْرو بَدَتْ منه خِلْقَةٌ تــدل علــى مكنونه حين يُقْبل
بــياضُ خراســانٍ ولُكْنَةُ فارس وزُرْقَــةُ رومــيّ وشــعرٌ مُفَلْفَل
لقــد ألفت أعضاءً عمرو عصابةٌ يــدل علــيها آخــرَ القوم أوّلُ

ثم اعمل على سيرة مَن فخر بنفسه، وامتدح ذاته بنسبته، فتكون مدلول بيتي لقيط بن زرارة:

وإني مــن القــوم الذين عرفتهم إذا مــات مــنا سَيِّد قام صاحبه
نجــوم سماء كلما غاب كوكب بــدا كوكب تأوي إليه كواكبه

ثم اعمل على استجلاب القلوب، والذكر الجميل، ونعت التوكل، فتظفر بيتي المهاجر:

لقــد علم الساري طروقًا برَحْله وباغــى النّدا ما اللؤم لي بقرين
ومختــبطٍ يــسعى إليّ بــرجْله فلَــمْ أفــد مــنه ضَرْبتي بيمين

وإياك وإظهار العجز من الفقر، واعمل على سيرة الذي قنع، وافتخر بالصبر، فإن الأول يفضحه قول الشاعر، وهو ابن الأعرابي:

إلى الله أشــكو بالمديــنة حاجةً وبالــشام أخرى، كيف يلتقيان!
ســأُعمِلُ نَصَّ العِيس حتى يكفُني غِــنى المال يومًا أو غنى الحدَثانِ

وبالوصف الثاني يظفر بمدلول بيتي العامري، فيحصل التنبيه:

مــا اعتاض باذلُ وجهه بسؤالٍ عِوَضًــا، ولو نال الغنى بسؤال
وإذا الــنوال مع السؤال وزنته رَجَــح السؤالُ وخفَّ كلُّ نوال

ثم اصبر على المكاره التي لا تخلُّ بإنسانيتك، وعليك بالإغضاء عن خصمك إلا إن كان جزء عِلّة يغرُّ الأصلح، فإنك إن فعلت ذلك كنت مدلول بيتي زهير[1]:

وذي خطل في القول يَحْسَب أنه مــصيبٌ لمــا يُلْهَم به فهو قائله
عَــبَأتُ له حِلْمًا وأكرمت غيره وأعرضــتُ عنهُ وهو باد مقاتلُه

(1) في ديوانه (ص 139).

وإذا لازمك المبطل الذي لا ينفع فيه إلا المقاومة، ويزجره لسان الشرع والطريق إن أهملته، فافعل بحسب ذلك فتكون كالذي يفتخر بالشجاعة والانتصار، فتصل على مدلول أبيات المجاشعي:

إذا ظَلَمَتْ حُكّامُنا وولاتُنا   خَصَمْناهُم بالمرهفات الصوارم
سيوفٌ كأن الموت حَالَفَ حَدَّها   مُشَطَّبَةٌ تفرى شئون الجماجم
إذا ما انتضيناها ليوم كريهة   ضربنا بها ما استحكمت في القوائم

وهذه تعتبر بنعوت المستنصرين على قدر مراتبهم، فما يفعله السيف يفعله اللسان، أو القلم أو الجاه، كذلك جميع أنواع الاستعدادات في أخرى.

فصل: أنت قد استقبلت أكوان السفر، ولا بد لك من مركوبين أحدهما يخص البحر، والآخر يخص البر، ثم تجلد على مركوبك، وعلى موضوعه كيف كنت وكان.

فصل: لا تموه عليك موج البحر، ولا حركاته الطبيعية، فإن الراكب والمركوب بيد الله، ومَن كان بالله كانت الأشياء له، وإن كان كما يحكيه أحمد بن أبي ظاهر:

ومُخْضرَّة الجنين صادقة السُّرى   يراقب منها الرَّكْبُ من لا تراقبه
كأن نفوس القوم تجرى بجريها   إذا غالبت مِنْ موجها ما يغالبه
تَصُدُّ حَبَاب الماء عن جَنباتها   إذا البحر جاشت بالسُّفين غواربُه

والسفر الخاص بالبر لا يزجرك عن غرض أنت ترومه، وإن عرض فيه ما تدفعه يد العادة، وتغمض عنده عين السكون والدعة والسعة والمنفعة، كما قال ذو الرمة، وهو يصف بعض لواحقه:

به مبتنى للعنكبوت كأنه   على شرف الأرجاء حام يستّر
ينازعني حرْصًا على الماء رأسُها   ومن دون ما تهوى قليبٌ مُعَفّر
وَرَدْتُ وما أدري أما بعد مَوْردي   من الليل أو ما قد مضى منه أكثر!
فطافت به مَقْلاةُ أرض تخالها   إذا التفتَتْ مجنونةً حين تنظر
محاولة للورْد لولا زمامها   وجَذْبي لها كادَتْ مرارًا تكسَّرُ

فصل: لا تعاند القادر، ولا تتابع الغادر، ولا تصحب الوارد والصادر، واعمل عمل حازم يحذر ما يتوقع، ويعلم في البدايات لواحق الغايات.

فصل: تعلق بالذات، وتخلق بأسماء الصفات، ولا تفعل مع صفات الأفعال، وإذا كان ذلك منك كذلك كانت نفسك علامة فعالة بالفعل.

فصل: متى صح خبرك، ولم يعقبه قاطع التوقع، ومسكته يد الصدق، وحفظته في الضمير همة الإخلاص، ونظرت إلى مدلوله عين التوحيد، وفعل بمقتضاه سلطان المعرفة لم يتوقف عليك ما في الجهات الست، وحصلت على أنموذج سليمان صلوات الله على نبينا وعليه، والكرامات بينات المعجزات، بل هما اثنان بالقول، وواحد بالمعنى، والفصول تميز الذوات.

فصل: كل الذي يتحرك إلى الوسط إذا نظرت إليه عين أسطان التحقيق، وعلومه مودعة في لوح صدر المحقق، فإذا تأمل وحدة الوجود، وجعل مشارها هو الذي هو به وله استخلف، وجاءه نصر الله والفتح، والأولياء منهم صغار وكبار، والزمان والمكان والعدد والإضافة، وتقسيم الوجود من قبيل الأوهام، فاعلم ذلك.

فصل: تصفح سورة «ق» بعد سورة «النور»، وآخر «الأنعام»، واقرأ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: 29]، ثم قل: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]؛ تجوز على التصوف، وافهم الحروف المقطعة في أوائل السور، ثم انظر إلى أوساطها، وما يفهم منه إذا ركب بالقصد الثاني، وتكشف كيف اقتطعت منه السين، وعرف الاسم الأعظم، وخواص العلم الإلهي، والعلم الطبيعي، فإذا حصلت ذلك وحققته؛ قرعت باب التحقيق.

وهذا الكلام عندك أمانة تحمله إلى غيرك، وتقدر أن تقف عليه من عند نفسك في وقت آخر.

فصل: قد تحقق كل متحقق أن تقوى الله تقوم مقام العلوم النظرية، ثم يفتح باب فضله الذي يؤتيه مَن يشاء، ثم يفيد الحكمة المذكورة في الكتاب، ثم يأتي بأمور لم تعرف في عادة المكاسب، ولا هو ما يبرزه الفكر، ولا يورث، ولا يظفر به في نظم القوافي بعد الرجال، ولا في نثر الفقر.

فصل: الله عند ظنك به، فكن معه على أية حال كان، ثم اعلم أنه يرحم الغافل والمتغافل، ويجيب المضطر إذا دعاه، ولا يأمر بالفحشاء، وموافقة أمره عنوان رضوانه.

فصل: كل المقامات تنصرف إلى التوحيد، والتوحيد بالمعرفة، ويجمع بالمحبة، ويفرق بالفقد، والفاقد إذا أدرك السكينة بالفطرة الثانية، وتجوهر بما هو في غيب الغيب؛ أدرك الخلافة.

فصل: المواقف والتنـــزلات والتوجه ومدلول الألفاظ الدائرة بين الصوفية، وكل المقامات، وما وراء التخلق بالأسماء، والحق الذي وراء ذلك كله، جميع ذلك يتأخر عن

لازم الوسائل حتى ما لا عين رأته، ولا أذن سمعته أيضًا.

فصل: توسل بأفضل الوسائل، وأوصل المسائل، وأصدق الرسائل بقصد ظاهر، ثم اذكر بربك الله، واعلم عند ذكرك إياه كما يجب له، ثم فكر في هويتك، والتزم دور الإعدام، وانظر إلى القضية المفردة، ثم أطلق الذكر والفكر معًا، ثم كن الذاكر من حيث أنك المفكر تقوم بك اللذة المعقولة، والفضيلة الإلهية.

فصل: لا تظلم نفسك بالغفلة، ولا تخدعها بمدح المادح، ولا تفرحها بلواحق الحواس، ولا بشهوة البطن والفرج، ولا يشغلك وتر التوحيد عن شفع العمل، واستحضر التوبة فإنها تطلق على أنحاء: فتوبة الذنوب لا تقبل حتى يشهد لها لسان الفقه، ويثني عليها شاهد الورع، ويحكم لها حاكم التقوى، والتي بعدها تنتقل من الآخرة إلى الأولى، ويرحل بها من المرجوح إلى الراجح.

فصل: لحية الشاب سياج جسمه، وعقله حرز نفسه، وخدينه أو معلمه يكتب في لوحه القابل ما شاء، فلا تحكم على نفسك إلا المشار إليه بالفضيلتين أعني: العلم والعمل.

فصل: إذا أدركت ما أدركه الرجال، لا تغفل عن تدبير غيرك، ثم احفظ ما أنت عليه، واطلب الزيادة فالقناعة من الله عين الحرمان.

فصل: مقاصد العالم من حيث العالم الأول تنصرف إلى ثلاثة مقاصد: نيل الأحوال، والظفر بالتصريف، وإدراك شيء لم تشهده العادة، وعند ذلك يحصل في اليقظة ما يراه غيره في النوم، ويعلم بغير نظر، وتؤثر همته في الأشياء داخل الذهن وخارج الذهن، والتحقيق أكمل مما يُقاس بغيره أعني هذا.

فصل: من اعتز على المبطل، وذل للمحقق جاهد في سبيل الله بوجه أفضل.

فصل: من عارضك أو تعرض إليك، وتعلم أنه غير صادق، ولا تقي لا تحافظ في مرافقته على الشيء الذي ينحل إلى الأبعاد الثلاثة، فإنه غير المشار إليه منك، والذي أنت به هو الجوهر المفارق، وكلامنا هذا مع مَن تهمل حقك بباطله، والشرع الشريف يشهد ببهتانه.

فصل: كل شيوخ المغرب نسبتهم علمية يشملها أول وجه من التصوف، وما نحن بسبيله لا يقدر بذلك كله، والله على ما نقول وكيل، ولا يدخل تحت أفعل مع المشار إليه؛ بل هو حجة الله على الكافة، وينبغي بل يجب أن يُقال لمَن حاد عنه أحسن الله عزائك في طريقك، وأحكامه لا في إسلامك وأحكامه، والحمد لله، وصلواته على

المختتم بدعوته المؤرخ بهجرته، وعلى آله وأصحابه الأعلام وعترته، والسلام على الأنبياء الأزكياء الأصفياء الأول ولواحقهم.

وعليك وعلى عموم المسلمين، ورحمة الله تعالى وبركاته

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا

***

رسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وسلم تسليمًا

وله ﷺ:

اعلم، علمك الله حكمته، أن العلم هو الكمال الأول، وهو الشرط في الكمال الثاني، ورحمة الله هي الأصل في الجميع، والسعيد هو الباحث عن مصالحه بجملتها، وهو العامل بما يجب في ذلك كله، والعلوم منها صناعية داخلة في ماهية العلم الأول، ومنها ما دون ذلك، ومنها واحد بواحد، ومنها ما ينعكس ويرجع على مضافة، ومنها ما يؤخذ من صدور الرجال، ومنها ذاتية بعد شرط، ومنها ذاتية قبل شرط، ومنها ذاتية مع شرط، ومنها عرضية كذلك.

والأعمال هي الصورة المتممة للتجوهر الأول، والعلوم الصناعية صورة مقومة له، وبعد هذه العلوم علوم لم تعلم قط، وأعمال لا تنفع إلا بإضافتها لحقيقة العالم، ثم علم ينفع وعمل يضر، وبالعكس، والناس على أنحاء في أحوالهم:

فمنهم من لا بحث له، ولا عمل، ومنهم بالعكس.

ومنهم مَن هو نصيبه ضعيف في الأمرين جميعًا، ومنهم بالعكس، ومنهم مَن يضعف عمله، ويقوى علمه وفي وقت دون وقت.

ومنهم مَن يضعف علمه، ويقوى عمله في وقت.

ومنهم مَن يضعف عمله، ويقوى علمه لأمر ما.

ومنهم مَن يقوى عمله، ويقوى علمه بحسب ما ذكر.

ومنهم مَن يحصل الواحد ويتشوق للثاني، ومنهم مَن لا يتشوق.

ومنهم مَن يتعرض، ويمكن منه أن يصل ويحصل، ومنهم نقيض ذلك كله.

وبالجملة: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[1].

والكسل والجهل والغفلة والملل واتباع الهوى ونيل الشهوات الحيوانية هو الحرمان بعينه، وهي الشقاوة الأبدية إذا دام أمرها حتى إلى زمان نقض التركيب، وصرف الأشياء إلى مواضعها، وأعوذ بالله من ذلك، واستعيذ بالله الرحيم الكريم من النقض، وسلطان الشيطان الرجيم.

وخذ نفسك بالسيرة الجميلة، وسنة السريرة الجليلة، وأحكام أحكام التجوهر، وصلاح الأحوال بالحكم الإلهية، وبالتصديق التام والتصور والتأهب لقبول فيض نوره بحقيقة الاتصال قبل تفرق الاتصال، وحلول الانفصال، فإن سهام الحمام لاسعة، وأحلام الله واسعة، وبعض ما أحصاه علمه، وسعه حلمه، والمسلم المذكور قبل على كل حال سالم، وإن قال لا أعلم ما الله عالم، ومع هذا المدار عليك، وسلام الله عليك، فإن كنت تحب السعادة، وسيرة النبي والسلف، وترغب في إصلاح العادة بأسوة السُّني والشرف، وبعد العبادة بماهيتك لا بالسلف، وتحصل المجد العلمي، وتذوق الوجد العملي، وتدخل في زمرة المنتخب، وخير من إليه ينتسب، وتظفر بنسبة الخير المكتسب، وبالأمور التي لا من جنس ما يكتسب، فامتثل أوامر الآمر الأول الذي لا أول له، الواحد الأزلي، ثم أوامر الآخر الآخر الذي ظهر بالكلام الذي يشذ عن عرف الكلام المعرب والهزلي، ثم الخبر الوارث، ثم القصد الباحث، ثم الشوق الباعث، ثم السبب، ثم النسب، ثم الأدب، ثم التصديق، ثم التحقيق، ثم حفظ ذلك كله بما حفظ به الذكر، ثم به كذلك، وبما ضاق به ذرع الفكر.

وبعد هذا كله الإلاحة عين الخير، والصبر على المكروه سبب النفع وسر الأثر، والإضراب عن الشيء الخسيس هو بذاته القبول على الأمر الرئيس، والشريعة اعتقد أنها حكمية الموضوع إلهية المحمول، رحمانية الأصل إنسانية الفصل، ظاهرة في الباب باطنة عند الكتاب، جنس المواهب أُنس الطالب وأسُّ المطالب، إمهالها نقمة، وتخصيصها حكمة.

وإياك والشهوات العاجلة، فإنها قاطعة بالكمالات الآجلة، واعلم أن الدنيا مفارك، والآخرة مقارك، فمت على إيمانك، وكن بين خوفك وأمانك، ولا تعث، واذكر البعث، كذب الزنديق الهاذي [....] الله من قبورنا هاذي، ومَن أكلته النسور سيجمعه النشور، ومن الحق الصريح قيام الكل من الضريح، وسؤالك الملكان في ذلك المكان، وجميع الناس

(1) رواه أبو نعيم في الحلية (388/6).

من الخلق والجنة، وفريق في النار وفريق في الجنة، لو غفلنا لم نعش بعد حملنا النعش، ولم نعال بعد نفض النعال، ولم نوال في بذل النوال، والحياة غرور، والسرور شرور، همام [الدنيا] مهموم، وذمام الدنيا مذموم.

وإذا كانت الحياة الطبيعية شرطًا في العقل الهيولانى، والعقل الهيولانى شرطًا في العلم الصناعي، والعلم الصناعي شرطًا في الفضائل الأول، والسعادة المشتركة، فكيف بالحياة الإلهية، ومشروطها المستفاد الذي يحصل به العلم الموهوب، والعمل المنسوب، وملاحظة المحب للمحبوب؟

وأنت آنسك الله بنفسك، وغبطك بمعرفتها، وعرفك كنه هويتها وآنيتها، فإن الأردياء لا يفرحون بجواهر أرواحهم، ولا يتلذون بالخلوة، فإنهم مخدعون بعوارض الهيولى؛ ولذلك هو أُنسهم باللهو واللعب، فإذا خلو بأنفسهم يتألمون لأجل جهلهم بها، وعاداتهم الفاسدة، فإذا عرفت نفسك، وقع لك الأُنس اللازم الذي لا يفارق جوهرك، وأُنسها لاحق بالأُنس بالله وملائكته وأنبيائه ورسله وأتباعهم، وإذا وجدت في نفسك شَبْهَةً من طريق الأدلة العقلية الجأ فيها لقوتك وتصورك وللصنائع إن كنت تحكيها، فإن لم تستطع إزالتها، فاستعن بالرجال، فإن صعب عليك الأمر فعليك بالتوجه لله صحبة ما ذكر.

هذا إذا أخذت نفسك بذلك، فإن لم تكن عقلية، وتكون سمعية، فعليك بأصول الأدلة الخمسة، وما ذكر قبل معها، وإن كانت مجموعة من العقلية والسمعية، وأخبار النفس فعليك برجال الله الآخذين عنه بالإدراك النبوي والأنموذج القلبي، وبالجملة: الحكم صورة متممة لجميع المطلوبات المقومة لها، فعليك بها، ثم يا أيها المسترشد، صل رحمك تجد الله قد رحمك، والحر مَن تجمل في إقدامه، وتجمل في إعدامه، ولا يلتفت إلى ما جمعته كفّاه، ويرتضى من الرزق بما كفاه، وهو بسيرته من القوم الذين يصلون ويصلون، ويقول أصغرهم في الصغائر: واحزناه.

ويعمل لما بعد الموت، ويخاف من النقض وقت الفوت، ويجعل النقلة ما بين أجفانه، فكيف يكون بعد الأسبوع في أكفانه، وأنت ذاك الرجل، فافعل ما أمرت به، تجد الحسن المشار إليه عند العامة قبحًا، والليل المعول عليه عند الحاجة صبحًا، واطلع بالتركيب إلى الذات، ثم قل قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: 42]، ثم انصرف إلى التحليل إلى أفعالها، ثم ارجع وقل: هذه سِدْرةُ المنتهى، وهنا عجزت الصنائع والنُّهى، وادفع عن ضميرك الوهم والهوى، وتحرك بقلبك كما يتموج فوق رأسك الهوا، تكشف

التقلب بقلبك، وتسعف التطفل بحبك، ويتصف المتكفل بربك، وترك التوصل بحبك.

والذي أريده منك أن تطالع كلامي، وتعتقد أن الخير فيه بالذات، لا بالعرض، وتتيقن أن الأمر المضنون به ينال منه أسرع من السهم إلى الغرض، وذلك بأحسن مدخل، وأكمل غرض، بل هو أعجل من ورود الطيف، وألزم للهمة من الكم والكيف، وأكثر إحاطة من التمكن في الطرف، وأعجل حركة من الذهن والطرف، وخذ نفسك النفسية الثالثة بالخلوة، والرابعة الساكنة بالسكينة مألوه، والخامسة بالحكم الراجع المنعكس، وأمر الأمر القيم المستقيم من المنتكس.

والصوفي الحكيم هو الذي ينتفع بجلاله، ويطمع من ربه بحلاله بعز وعز، وجميع الحكماء رفضوا مدلول الدنيا بأمر أحلامهم، ونسبوا زخارفها لأحوال لواحق أحلامهم، وبالجملة: اعتبارك استعبارك، وعينك عونك، وصومك صونك، وضحا الحواجز، وصل الحور الهواجر، وحاجتك حجتك إن أمنت محجتك، وأملك القاطع في وجه المجاهدة شر الرئيس، والكل الدافع لعين المشاهدة شأن الخسيس، وصلاح الأمر الأزل غبطة المستنــــزل، وإصلاح الوعد النازل حكمة المستقلل، وشهود النوازل أعوان المعتدل، وشهود الوسائل أفراح الممتثل.

فافهم ما رسمت لك، وتحفظ من أن يسد وجهك باب الرئاسة، وتسلب سر السراوة والسياسة، وإياك ومخالفة الوعد فتدعى لغةً وشرعًا وغد، ولا سبيل إلى مخالفة الجليل وحب الحليلة، فتحرم خير المثيب وفضل الوسيلة.

واعلم أن الخير بجملته في مكارم الأخلاق واتباع الحبيب.

أعانك الله على ذلك بمنه وكرمه.

والسلام على إنسانك الغريب، وإحسانك القريب، ورحمة الله وبركاته

***

وصية ابن سبعين لأصحابه

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلم كثيرًا

ومن كلامه ﷺ، هذه الوصية كتبها لأصحابه:

سلام عليكم حفظكم الله، حافظوا على الصلوات، وجاهدوا النفوس في اتباع

الشهوات، وكونوا عباد الله أوّابين توّابين، واستعينوا على الخيرات بمكارم الأخلاق، واعملوا على نيل الدرجات السنية، ولا تغفلوا عن الأحكام السنية، وخلصوا مخصص الأحوال الإلهية ومهملها، وذوقوا مفصل اللذات الروحانية ومجملها، ولازموا المودة في الله بينكم، وافعلوا الخير، وأصلحوا ذات بينكم، وعليكم بالاستقامة على الطريقة، وقدموا فرض الشريعة على الحقيقة، ولا تفرقوا بينهما فإنهما من الأسماء المترادفة، واكفروا بالحقيقة التي في زمانكم هذا، وقولوا: عليها وعلى أهلها لعنة الله، فإنها حقيقة كما سمي اللديغ سليمًا، وأهلها يهملون حد الحلال والحرام، ويستخفون بأشهر الحج والصوم والأشهر الحرم.

قال تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30]، قد غلبت عليهم أحكام الجهل، وأكثروا من جمع الأعراض للولد والأهل، وحرموا مزية الرحمة والعون، وأسعفوا بسيرة أبي جهل وفرعون، واعلموا أن القريب إليّ منكم مَن لا يخالف سنة أهل السنة، ويوافق طاعة مَن له العزة والمنة، ويؤمن بالحشر والنار والجنة، ويفضل الرؤية على كل نعمة، ويعلم أن الرضوان بعدها أصل كل رحمة، ويطلب الذات بعد الأدب مع الصفات والأفعال، ويغبط نفسه بالمشاهدة في القوم والروح في كامل الأحوال، وكل مخالف بان منه التخلف والفساد، وإن كان من إخوانكم، فاهجروه في الله، ولا تلتفتوا إليه، ولا تسلموا له في شيء، ولا تسلموا عليه حتى يستغفر الله العظيم بحضور الكل منكم، ويرضى عن نفسه وحاله وعنكم، ويخرج عن صفاته المذمومة، ويترك نظام دعوته المحرومة.

وأنا أشهد الله أني قد خرجت عن كل مخالف سخيف العقل واللسان، ولا نسبة بيني وبينه في الدنيا ولا في الآخرة، فمَن زل قدمه يستغفر الله ولا يخدعه قدمه، واغتبطوا بما أنتم عليه، فما في العصر مَن يصل إليه، والقوي الذنب منكم لا تقبلوا له توبة إلا بحلق الرأس، ولبس الصوف، والوقوف من المغرب إلى العشاء الآخرة، والصمت.

ومَن يسمع منكم مَن يتكلم القبيح في التحقيق وأهله فازجروه واهجروه ووبخوه وذموه، وتغافلوا عنه ولا تقبلوا بعد ذلك منه، واعلموا أنه لا حاجة لي في السموات، ولا في الأرض، ولا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا في الأمل المقدر، ولا في الكون المكون، ولا في النظام القديم، ولا في التعليق الصرف، ولا في الشأن المشار إليه، ولا في الجسوم المقيدة، ولا في الذوات المجردة، ولا في الأعراض المبددة، ولا في الكمالات الممتدة، ولا في الحروف المعتدة إلا في ذات الله، وفي ذات من صحبني من أجله، والسلام على من

صلحت نسبته، واستقامت سنته، ورحمة الله تعالى وبركاته.

ومن كلامه ﷺ: من استقام في بدايته[1]، وحصلها على وجهها، وظفر بشروطها في علمه وقوله وفعله وحاله، وفعل فيها ما ينبغي كما ينبغي على ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، ووافق الشرع والمعروف والعادة الجميلة، والعقل المسدد، وصبر على تكليف كل محترم عنده، وحفظ على شروطه كلها، وتأدب مع أمره، وستر إشارتها بعبارتها، ومال بجملته إلى الشريعة، وبأمله إلى الحقيقة، وحدث نفسه بما ذكر في زمان العمل، وبالأمل في حال السؤال، وسكن بصيغة الأمر والنهي، وتحرك من أسفل البطالة بحضرة الجد وعالم الحد، وقطع عقاب المهلكات بالعوالم الثلاثة، وصعد على منازل الأبرار، ورتب المنجية بالمقام الأعظم، وخرب نظام عادته، وكان من عباد الله الصالحين، وحقق المقصود في القرب من ربه، فإن الخير بيده في طاعة رسوله وشيخه، ومن يدبره ويجهزه ويزوده لله وينبهه على مصالحه ويحاسبه، ويعرفه بحسناته وسيئاته خليق أن يُقال له مريد، بل وليٌ بل سعيد، بل مدرك، بل وارث، بل خليفة بمعنى ما.

وكذلك هذا الأمر في السلوك لكن بذكر الله تعالى.

ومن كلامه ﷺ: مَنْ طَلَب ظفر، ومَن ظفر ربح، ومَن ربح تأنس، ومَن تأنس نشط، ومَن نشط زاد طلبه، ومَن زاد طلبه أخرج ما لم يقصده، ولا يخطر له على قلب، وهو كماله الأخير، ومَن حصل له كماله الأخير كان من السعداء، ومَن كان من السعداء اشتد طلبه، وزاد شوقه، وعاين الذوات المجردة، وكشف له عالم الأمر، وطالع النظام القديم، ومَن طالع النظام القديم وقف طلبه من حيث عادته وصفاته، وتحرك من حيث خرق عادته وصفاته بجوهره، ومَن خرج للفعل من كل الجهات شاهد الذات القديمة بتخريب نظام الحادثة حتى من خبر خبرها، ومن إشارتها ومشيرها، ووحّد وركب التوحيد بالسلب الموجد، وجميع ما يعلم سوى الواحد ﷻ وقال: لا إله إلا الله بالقضية المستقبلة، وهو بالماضية، وطلبه بالحاضرة.

ومن كلامه ﷺ: والذي تحتاج إليه أن تعلمه أن الأولى أن يطلق العلم الإلهي على معرفة الوحدة، وأن المقصود منه التوحيد، وأن الموحد هو صاحب النتيجة الماحية لكل معلوم فيه غير الوحدة المحضة، ولكل علم يدل على واحد منسوب ومشير إلى مشار أول،

---

(1) أي الاستقامة في بداية الطريق. ومنها: الاستقامة على المقامات السبعة من التوبة والإنابة والزهد والتوكل والرضا والتفويض والإخلاص في جميع الأحوال.

والذي يبلغ هذه الدرجة أدرك المقصود، والقدماء تكلموا في الغاية الأولى، ولم يفهموا الثانية، وخبطوا خبط عشواء.

فنقول: إذا كان مراد المحقق والمحب الوصول إلى ما حققه أو أحبه، وبقي بينه وبين محبوبه فصل مشترك، فلا وصول، والحب إذا حققته هو الاتحاد بالمحبوب، وهذه رتبة الصوفية، وزعمت أن المقصود من العلم الإلهي هو الفناء، والعجز عن درك الإدراك إدارك عندهم، وأن الوجود المطلق هو الحق الذي إذا علمه المقيد تلاشى، وذهب وقسموا الوجود إلى مطلق ومقيد ومقدر، والالتذاذ لا يكون إلا بعد الاتصال، ولهم في ذلك كلام طويل، وهم أقرب إلى الحق من القدماء، وإن كانت مقدمات القدماء علمية، فمقدمات الصوفية خلقية، فالمقصود عند الصوفية الأصفياء رضي الله عنهم هو الوجد والفناء، والسعيد عندهم بحسب ما يثبت له ذلك ويجده.

والعلم الإلهي عندهم الفكر والذكر الأكبر، والتعرض لنفحات الرحمة الرحمانية، وركود الحواس والعمل بما يرد على القلب، وتصريف القوى الروحانية، وتخلية القلب من غير الله تعالى، وتحليته بذكره جل وعلا، والجد في العمل، فهذا مذهب الصوفية في العلم الإلهي ما هو.

ومن كلامه ﷺ: العقل عند الأشعري غير الروح وعند الحكيم قولك عقل وقوة مجردة، ونفس ناطقة، أو روح أسماء مترادفة.

والروح عند علماء الصوفية غير ما ذكر(1): تارة يطلقونها على الحق الذي قامت به

---

(1) والأصل فيه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29]، وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: 9].

اعلم أن هذه الإضافة إضافة تشريف وإظهار بأنه خلقٌ عجيبٌ ومخلوق شريف، وإن له شأنًا لأنه جعل فيه الشيء الذي اختص تعالى به، ولذلك أضافه إليه فصار بسبب ذلك حيًّا حساسًا بعد أن كان جمادًا.

والروح اختلف العلماء هل يجوز الخوض فيها أم لا، فذهب قوم إلى أن الإمساك عنها أولى، وذهب آخرون إلى الكلام فيها، والمتكلمون فيها اختلفوا هل هي عرض أو جرم لطيف يحل بالأجرام، كحلول الماء في العود الأخضر، والحكماء يقولون هي اللطيفة المدبرة للجسد حيوانًا كان أو غيره، وهذه اللطيفة مختلفون فيها، فمنهم من قال: إنها الريح فهي عندهم في الحيوان روح، وفي الهوى ريح، فالأولى تحرك الحيوانات، والأخرى تحرك الجمادات، ومنهم من قال: إنها ماء الجسد المشتبك فيه اشتباك ماء العود الأخضر به، وهذا الماء عند الفلاسفة هو الدم، وعند غيرهم ما صحَّ منه التركيب البدني؛ لأنهم إذا ذهب ذهب تركيب البدن، وهذه الأقوال وإن كانت

حقًّا فمن وراء حجاب عن حقيقتها، وحقيقتها هي التي أجاب عنها تعالى بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾: أي اليهود ﴿عَنِ الرُّوحِ﴾ الذي هو روح البدن الإنساني، ومبدأ حياته سألوه عن حقيقته، فأجيبوا بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]: أي من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر، فالأمر واحد الأمور بمعنى الشأن والإضافة للاختصاص العلمي لا الإيجادي؛ لاشتراك الكل فيه، والمعنى أن الروح ليس من عالم الخلق حتى يمكن تعريفه للظاهرين البدنيين الذين لا يتجاوز إدراكهم عن الحس والمحسوس بالتشبيه ببعض ما شعروا به، والتوصيف بل من عالم الأمر الإبداع الذي هو عالم الذوات المجرَّدة عن الهيولى والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين، فلا يمكنهم إدراكه أيها المحجوبون بالكون؛ لقصور إدراككم وعلمكم، ولذلك قيل: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» إذ لا يمكن معرفتها حق المعرفة، وأقاويل العلماء والحكماء والصوفية كثيرة في ماهية الروح، وأولى الأقاويل أن يوكل علمه إلى الله ﷻ وهو قول أهل السنة.

قال عبد الله بن بريده: إن الله لم يطلع على الروح ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلاً بدليل قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الذي استأثر به؛ لأنها من قول: (كن) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن﴾ [النحل: 40].

واعلم أن الروح في الحقيقة روحان: روح القدس، وروح الأكوان، فروح القدس هو روح الأرواح، وهو المنزه عن الدخول تحت حيطة (كن)، فلا يجوز أن يُقال فيه إنه مخلوقٌ؛ لأنه وجه خاصة من وجوه الحق، قام الوجود بذلك الوجه، فهو روحٌ لا كالأرواح؛ لأنه روح الله تعالى، وهو المنفوخ فيه من آدم.

وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: 72]، فروح آدم مخلوق وروح الله ليس بمخلوقٍ، فهو روح القدس: أي أنه هو الروح المقدَّس عن النقائص الكينونية، وذلك الروح هو المعبَّر عنه بالوجه الإلهي في المخلوقات.

وهو المعبَّر عنه في الآية بقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115]، يعني هذا الروح المقدس الذي أقام الله به الوجود الكوني بوحدانيته، تولوا بأجسامكم في المحسوسات، أو بأفكاركم بالمعقولات فإن الروح المقدس متعين بكمالٍ فيه؛ لأنه عبارة عن الوجه الإلهي القائم بالوجود، فذلك الوجه في كل شيءٍ هو روح الله، وروح الشيء نفسه، فالوجود قائم بنفس الله، ونفسه ذاته، فتعالى الله عن المثل والشبيه، أو أن يدركه بعقله نبيه.

وروح الأكوان هو أن كل شيءٍ من المحسوسات له روح مخلوق قام به صورته، والروح لتلك الصورة كالمعنى للفظ لا يخلو منه كون ما، إلا إذا لم يدخل في كينونة (كن)، وتلك الروح كائنة من روح القدس، لا يصح كونها من غيره، ولا يصح كونها منه كما قيل:

رق الزجاجة ورقت الخمر فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنها خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

فافهم ثم تعلم، وهو من أغرب ما يعلم أن الروح في دخولها في الجسد وحلولها فيه لا

السموات والأرض، وقيل: هي صفة من صفات الذات، وتارة يطلقون عليها الكلمة، وتارة القضية الجزئية ضابطة النظام فيها كان كل موجود ليست بفيض، وكانت متحدة تعم الأشياء، وليست باتحاد، وإن كانت ألزم للشيء من ذاته، وليست بحالة، وإن كانت جزء ماهية من الشيء المضاف إليها، وإليها يشيرون حيث قولهم: إن في كل شيء سرًّا من سره، جمد في الجمادات، وظهر في النبات، وتحرك في الحيوان، وأُعْلِن في الإنسان.

تم بحمد الله

***

الرسالة الرضوانية

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه وسلم كثيرًا

والحمد لله رب العالمين

يا مرحوم، الرحمة تتعلق ببعض المعلومات، والقول عليها مثل القول على الإرادة والقدرة، وغير ذلك مما يخص بعض المعلومات لا كلها، وتمتد إلى غير نهاية، وتعم الكون كله، والفكر فيها مادة الطيبات، وتصورها يحرك اللذات، وهي مُتَنَــزه العارفين بالله، وصيغتها أعم من العفو، فإنها تُقال على المذنب وغير المذنب، وترد دون عِلَّة وبضد ذلك، إذا نظر فيها وفي ماهيتها، وفي أثرها، وفي لواحقها الخاصة بواحد بدل الآخر صرفت إلى إرادة القديم، وقيل فيها صفة من صفات ذاته، وإذا نظر فيها مفردة، وتعتبر في

تفارق مكانها، ولكنها لما نظرت إلى الجسد حلَّت فيه؛ لأن من عادة الأرواح أن تحل فيما نظرت فيه من غير مفارقةٍ لمركبها، وهذا مما لا يُفهم إلا بالكشف الربَّاني، ولكني أمثله لك ليقرب من ذهنك يسيرًا، فهذا الحلول كحلول وجهك في المرآة من غير مفارقةٍ منك لموضعك وهو مجرد مثل.

وأما التفرقة فهي حاصلة من كل وجهٍ غير ذلك الحلول، وشهود تلك الروح القائمة بها الأكوان قدسًا وكونًا هو البحر، الذي إذا شاهده الولي شاهد منه الأنبياء والأولياء والملائكة، وغير ذلك من كل روحٍ قائمةٍ في جسدها شهودًا لا تكون فيه تفرقة بين كبيرها وصغيرها، وكثيرها وقليلها، ولا ينجيه من الغرق فيه إلا سفينة الشريعة؛ لأنها ترد له كل شيءٍ إلا بما هو له ظاهرًا وباطنًا، فيحكم للكل بما حكم به ربه من وجود ظاهر وعدم باطن.

مضافها المنفعل خاصة، وتحمل على معنى الأنعام، وتمسك على التأمل في محركها الأول تجعل من لواحق القدرة، والإرادة، وقيل فيها صفة فعل.

والرحمن والرحيم اسمان مأخوذان منها، ومعناها واحد عند أهل الكلام، والعفو أعم من الغفران، فإن العفو يقع على كبائر الذنوب، وعلى صغائرها، ويطلق بتشكيك مع التنبيه، ومع من يقع في الخبر والعزم داخل الذهن، وإن لم يخرج للفعل، والغفران لا يتعلق إلا بالذنوب، ولا يُقال إلا عليها خاصة، وقد تطلق الرحمة العفو والغفران بترادف، إلا أن كلُّ عفو وغفران رحمة، وليست كل رحمة عفوًا وغفرانًا، والرحمة أعم من الرضوان، وكل من رضي عنه رحم، وليس كل من رُحم رضي عنه، والله تعالى رحيم غفور، ذو الانتقام شديد العقاب، ذو الطَّول يعفو وينتقم، ويرضى ويغضب، له الصفات العُلى والأسماء الحسنى.

فالخلق متردّدون بين أحكام صفاته وجودًا وعدمًا، رضى وغضبًا، عطاء ومنعًا، عذابًا ونعيمًا، غنى وفقرًا، صحّة وسُقْمًا، جاهًا وخمولاً، خفاءً وظهورًا، وهو الكريم الذي يعطي بالمسئلة، وهو الوهاب الذي يعطي بغير مسئلة، ولا خير في الوعيدية، ولا خير في المُرْجئة، فإن الوعيدية تقول: إن الله لا يغفر ذنبًا، والمرجئة تقول: إن الله تعالى لا يؤاخذ بذنب، فأبطلت الأولى رسم التوحيد، وأبطلت الثانية وجه التكليف، وعطلتا حكم علتين، واسمين حسنين للباري سبحانه، وكأنهما لم تقرأ قوله تعالى:

﴿حم * تَنـــزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: 3,2,1].

ومن نظر إلى الرحمة، وتعلق باسم الرحمن[1]، وفكر في الرحمانية طاب عيشه، وحسن أُنسه وأنيسه، وسبح في بحر الرجاء، وغرق في مدلوله، ويمكن منه أن يصيبه، وله حتى يقول، أو يقول له حُسْنُ ظنه كل موجود سوى الله الحق تعالى، تُقال عليه الرحمة، وتقوم به وتفعل فيه وتلحقه.

---

(1) فإن (الرحمن) وصف عام، فهو رحمان الدنيا والآخرة، يشمل أهل القبضتين في الدنيا، ومن له مزج في ذلك كمن يولد كافرًا ويموت مؤمنًا وبالعكس، وكمن أخبر عنه صادق بأنه مؤمن، وكان بحسب الظاهر كافرًا، فهذا كله من متعلقات الرحمن: أي رحمته تشمله، ومن كان من أهل قبضة السعادة فإن له رحمة خاصة لا ينال غيره منها شيء وهي رحمة الرحيم، فتم العالم بهذه الأسماء الثلاثة دنيا وأخرى. وانظر: كشف الأسرار للعطار (ص 121) بتحقيقنا.

فتقول: ولا بد من النار أن يعدم عامرها، وينتقل إلى أحسن حال، ويستدرج بالرحمة الخاصة إلى الرحمة العامة، وربما استعان بذلك ببعض الأحاديث المشهورة، وقرأ عُقَيْب الاستدلال، وتفكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84].

وأطلق إلى القول المؤمن والكافر، وجعل الرحمة عليهما، وقال الخير هو الغالب على خلق الكريم الحليم، ويقول كل ما يفعله من شر وخير إذا اعتبر من حيث الحكمة والفطنة والجبروت حمد، واستحسن، وعظم ونسب إلى الخير بموصفه، والشر فعله، وجعل الخير في المحل والقصد الأول، والشر باللواحق، والمضاف المنفعل، والقصد الثاني.

وقد يكون الخير عن بعض الذوات الروحانية بالقصد الثاني، والشر بالقصد الأول كما بينه في «بُدّ العارف».

ومَن نظر إلى العفو وتصفحه، وأطال الفكرة إلى مضافه ومدلوله، وتأول معقوله وحقق المراد في الشرعية، وحصل مقصود الأحكام الشرعية، ومال مع الإجماع وتدبر صيغة اسم العفو، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ [النساء: 116]، وصحيح أن النسخ لا تقع في الأخبار، أطلق العفو والإحسان بتقييد، وخلص نفسه من الأشعرية، ومن بعض الفقهاء، ومن بعض الصوفية، وسلم الأمر للحكيم، وغلب على ظنه عفوه ورحمته وغفرانه، واعتقد السعادة في أهل القبلة واقعة، ولم يفصل.

ومَن نظر إلى المغفرة، وفكر في اسمه الغفور قسم الناس إلى مؤمن وكافر، وقال الكافر في النار بإجماع الأمة، والمؤمن في الجنة بإجماع الأمة، وقسم غير الطائع إلى فاعل كبيرة، وإلى فاعل صغيرة، وقال: فاعل الصغيرة في الجنة بإجماع، وقسم فاعل الكبيرة إلى تائب وغير تائب، وقسم التائب إلى تائب قبل موته بمدة طويلة، وتوبة صادقة وتامة الشروط، وهو عالم صالح، وإلى تائب قبل موته قبل أن يغرغر، ومدته ضيقة لا يسع فيها إلا توبته خاصة، وإلى تائب قبل موته دون الأول وفوق الثاني، ثم فكر في آيات الزجر، وفي الأحاديث التي توافقها، وفي اختلاف العلماء، وفي خلاف ابن عباس مع علي بن أبي طالب رضي الله عنهما في آية القتل، وفي ترادف الوعيد فيها وتكراره، ثم اجتهد من معلوم الرحمة الأولى بمعلوم المغفرة الأخيرة المذكورتين قبل، وما بينهما، وتدبر في شرف الإيمان، وتصفح الآيات التي تتعارض، والأحاديث التي تختله في متعلقاتها، وامتحن بشأن التائب والتوبة والتواب بعقله، وبالقياس وبالإجماع وبالكتاب والسنة، ثم فكر ونظر

وخصص مهل الرجاءبرحمة الشفاعة، ومجمل اليأس بحرمة الإسلام، وامتحن الأحكام الشرعية بالسبر والتقسيم، وفكر في الأشياء المعينة بالصبر والتسليم.

وقال: الأول في الجنة بإجماع، ويغلب الظن أنه لا يدخل النار، والآخر من أهل الجنة بإجماع، ويلحق الشك في أمره هل يدخل النار أم لا، والثاني الذي بين الأول والآخر في قوة الظن أنه من أهل الجنة، ويتعرض الشك في أمره هل يدخل النار أم لا، والشك تردد ما بين أمرين لا مزية لأحدهما على الثاني، والظن تردد ما بين أمرين لأحدهما مزية عن الأخر، وقوة الظن قريبة من اليقين، والمصرُّ قسمه إلى مصرٌّ يقول بتحريم الذنوب، وإلى مصرٌّ يقول بتحليلها.

والمصرُّ الذي يقول بتحليلها في النار بإجماع، والمصرُّ الذي يقول بتحريمها ينقسم إلى مُصرٌّ خالط عاملاً صالحًا، وأخر سيئًا، وكانت صغائره أكثر من كبائره، وفي نفسه أسف، وإلى مُصرٌّ في خبره أثر الإقلاع، وفي حاله ذمّ التسويف، وفي فعله القبيح بعض التوقيف.

وإلى مُصرٌّ على كبائره، والشهوة غالبة عليه، ومحركة له، وعزمه ثابت على فعل القبيح، وقوته النـــزوعية تحركه لكل كبيره غير أنه مريض الشخص، وقليل المال، وضعيف الجاه، ولا يستطيع على خروج فعله المذموم من القوة إلى الفعل.

وإلى مُصرٌّ مثل الأول في كل أموره غير أنه كثير المال والجاه، وصحة الأعضاء، وقوة الجاه.

وإلى مُصرٍّ مثل مَن تقدم غير أنه من الملوك، وكبائره في اليوم الواحد أكثر من كبائر الغير ألف مرة، وإلى أكبر وإلى أصغر، وإلى ما هي كبيرة بالإضافة إلى الثاني كالجنس للنوع، والنوع للشخص، وقال بعد تقسيمه: الأول في عذابه في النار بإجماع، من حيث النصوص الشرعية، ويغلب الظن أنه من أهل المكان المتوسط بين الجنة والنار بعد مدة، والثاني يلحق الشك القطع عليه بالخلود، ويغلب الظن في عذابه أنه مخفف عنه، والثالث يحمل بحسب ما ذكر، ويقاس على أمره بالقياس المذكور، وينظر فيه بنظر الآخر والأول، وكذلك ما بعد من العصاة مثل من ذكرنا[1].

---

(1) قال أبو المعين النسفي في التمهيد (ص 140) بتحقيقنا: قال أهل السنة: من ارتكب كبيرة من أهل الإيمان، فإن ارتكبها مستحلاً أو مستخفاً بمن ينهى عنها أو عن قصد العصيان، فإنه يكفر بالله تعالى وإن ارتكبها لغلبة شهوة أو كسل أو غضب أو حمية أو أنفة وهو يخاف أن يعذبه الله تعالى عليها ويرجو رحمته ومغفرته في ذلك فاسمه المؤمن الفاسق وحكمه أنه لو تاب لغفر له، وإن =

مات قبل التوبة فلله تعالى فيه المشيئة: فإن شاء عفا عنه بفضله ورحمته أو بشفاعة نبي أو ولي من عباده، وإن شاء عذبه بقدر جنايته، ثم أدخله الجنة.

وقالت الخوارج: «كل من ارتكب معصية عمداً، كبيرة كانت أو صغيرة، فاسمه الكافر دون المؤمن وحكمه أنه يخلد في النار مع سائر الكفرة».

ومنهم من يقول: «هو مشرك» ومنهم من يفرق بين الصغيرة والكبيرة، فيحكم في الكبيرة بكفره ويخلده في النار دون الصغيرة، وإنما قالوا ذلك بناء على أن أعمال الخير عندهم من الإيمان كالطاعات والامتناع من المعاصي فإن ارتكب معصية فقد زال إيمانه.

وقالت المعتـــزلة: «إن كانت المعصية صغيرة فاسم مرتكبها المؤمن، وحكمه أنه إن اجتنب الكبائر لا يجوز تعذيبه على ذلك، وإن كانت كبيرة فهو ليس بمؤمن ولا كافر ويخرج بها من الإيمان ولا يدخل في الكفر، فتكون منـــزلته بين منـــزلتين، واسمه الفاسق وحكمه أنه يخلد في النار إن مات على ذلك ولم يتب».

وإنما سميت المعتـــزلة معتزلة لهذا المعنى لأن الناس كانوا فرقتين قبل خروج واصل بن عطاء المعتزلي، فرقة منهم كانوا يقولون بأن المسلم بارتكاب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، وهم أهل السنة، وفرقة منهم كانوا يقولون: «يخرج به من الإيمان ويدخل في الكفر» وهم الخوارج، فاعتزل واصل عن الفريقين وقال: «يخرج به من الإيمان ولا يدخل في الكفر» فسميت أتباعه معتزلة لهذا المعنى.

والحجة لأهل الحق في ما قالوا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: 43]، سماهم مؤمنين في الآيتين بعدما اقترفوا الكبيرة ولأن الإيمان هو التصديق في اللغة، ومرتكب الكبيرة لا يمتنع من التصديق، فإنه يصدق محمداً ﷺ بما جاء به من عند الله تعالى، وزوال الشيء مع قيامه محال.

وإذا ثبت أنه مؤمن فحكمه أنه لا يخلد في النار، وتكون عاقبة أمره الجنة لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الطلاق: 11]، ولقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: 124]، ولقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، [البروج: 11]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: 107]، وهذا الشخص مؤمن وقد عمل الصالحات، فتكون عاقبته الجنة، وشبهة الخوارج في تسميته كافراً تمسكهم بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ [الأحزاب: 36]، سماه ضالاً بارتكاب المعصية من غير فصل بينهما إذا كانت كبيرة أو صغيرة.

وشبهتهم في حكمه وهو الخلود في النار قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا﴾ [النساء: 14]، وشبهة المعتـــزلة في تسمية فاسقاً لا مؤمناً ولا كافراً ما

مَن نظر إلى الرضوان الذي يطلق مع الرحمة بترادف، وإن كان أعم منها، ويطلق المغفرة والعفو بتشكيك، وهو الجنس العالي للجميع، وهو المقول على كثيرين إذا اعتبر الإحسان وأنواعه، وهو مع ما سواه من أنواع الفصل كالثناء مع الشكر، فإن الثناء أعم

=

قالوا: «إن الأمة اتفقوا على تسميته فاسقاً، حتى سمته أهل السنة مؤمناً فاسقاً، وسمته الخوارج كافراً، والكافر فاسق».

وقالوا: «نحن سميناه أيضاً فاسقاً؛ واختلفوا في تسميته مؤمناً وكافراً ومنافقاً حتى سمته أهل السنة مؤمناً وسمته أهل السنة مؤمناً وسمته الخوارج كافراً وسماه الحسن البصري منافقاً، فأخذنا بما اتفقوا عليه وتركنا ما اختلفوا فيه».

وشبهتهم في حكمه استدلالاتهم بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [السجدة: 20]، غير أن مرتكب الصغيرة صار مخصوصاً عن هذا النص بنص آخر وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: 31]، فبقي صاحب الكبيرة داخلاً تحت النص، وقال الأستاذ المؤلف ناصر الشريعة: وحجتنا ما ذكرنا ولا حجة للخصوم في الآيات لأن مطلق اسم العصيان إنما يقع على الكفر وكذلك مطلق اسم الفسق لأن غير الكافر عاصٍ من وجه مطيع من وجه في ما ارتكب من محظور دينه، مطيع في الإقرار بوحدانية ربه تعالى، وكذا هو فاسق من وجه، مطيع من وجه، فاسق في ما اقترف من الذنب بخروجه عن الائتمار بأمر ربه، مطيع في الائتمار بأمر ربه في تصديق محمد ﷺ بما جاء به، فلا يتناوله مطلق اسم الفاسق وبالله الهداية.

وكذا أجمعوا أن لا منـــزلة بين الإيمان والكفر، فمن أثبت المنـــزلة فقد خالف الأمة، والآخذ بما هو مخالف للإجماع جهل فاحش.

وقولهم: «أخذنا ما اتفقوا عليه وتركنا ما اختلفوا فيه»، هذا كلام باطل، إذ هو ترك للمخالفة على زعمهم بحقيقة ما هو للمخالفة، فإن الأمة قبل نحلتهم كانوا على ثلاثة أقوال، فقد كان ذلك منهم إجماعاً على أن ما وراءها قول باطل منهم؛ إذا أحدثوا قولاً رابعاً فقد خالفوا الإجماع.

ثم قال الأستاذ المؤلف: وخرجت على ما ذكرنا مسألة إثبات الشفاعة لأنه مغفرة صاحب الكبيرة، لما كانت جائزة عندنا جاز أن يغفر بشفاعة نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرهم من الأخيار.

وعند المعتـــزلة لما كانت مغفرتهم غير جائزة وكانت الشفاعة ممتنعة عندهم وحملوا قوله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» على طلب الزيادة للأبرار، وهو أن يشفع لهم حتى يعطيهم الله تعالى زيادة على ما وعدهم من الأجر كما قال الله تعالى ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: 30]، والكبيرة اسم لأمر عظيم فجاز أن يقع على المعصية وعلى غير المعصية.

قال الأستاذ المؤلف: وهذا التأويل فاسد لأن الكبيرة اسم للمعصية في عرف أهل اللسان، فيكون في هذا التأويل إبطال لتنصيص صاحب الشرع، وإنه فاسد وبالله المعونة.

والشكر أخص، والثناء يتعلق بالأسماء الأربعة: اسم الذات، واسم الصفات، واسم التنـــزيه، واسم الفعل، والشكر لا يتعلق إلا بالأفعال خاصة.

والرضوان هو المطلوب بعد رؤية الحق سبحانه، وهو الذي يفيد السعادة، ويحفظها وينميها، والرضوان هو ماهية النعيم، وهو المحرك لكل أمن وعافية، وهو المتقدم على ما ذكر، ثم نظر إلى الكريم الأعظم، وحقق نظره في فصل، وصحح ما يجب له ويجوز عليه ويستحيل في حقه، ثم نظر إلى الحبيب المقرب المقبول الشفيع المشفع[1]، ثم نظر إلى حبه في أمته، ورحمته لهم، وهمته فيهم، وغيرته عليهم، واعتنائه بهم، وحسن ظنه بربه، وشأنه عنده، ثم نظر إلى شرف الإيمان، وفضيلة كلمة الإخلاص، وعظم شأنها، ثم نظر إلى قولها عند الخاتمة، ثم نظر إلى حب المُصرِّ العاصي في الله تعالى ورسوله ﷺ وإلى توكله على

(1) وقال النسفي أيضًا: وإذا ثبت جواز المغفرة لصاحب الكبيرة جاز أن يغفر بشفاعة الأنبياء والرسل عليهم السلام، وبشفاعة الأخيار.

وعند المعتـــزلة: لما كانت مغفرتها ممتنعة بدون الشفاعة لن يتصور مغفرتها بالشفاعة، ثم ابتداء الدليل لنا في المسألة قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48]، ولو كان لا شفاعة لغير الكافرين لم يكن لتخصيص الكافرين بالذكر في حال تقبيح أمرهم معنى.

وروي على طريق استفاضة أن النبي ﷺ قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، وهذا الحديث يبطل تأويل المعتـــزلة ما ورد من الشفاعة أنها للمطيعين، وهي أن يطلب الرسل والملائكة عليهم السلام من الله تعالى أن يزيدهم على ما استحقوا من الثواب من فضله بقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: 30]، فإنه ﷺ نص أن شفاعته لأهل الكبائر من أمته، ولأن ما ذكروا يسمى إعانة لا شفاعة، بل هي في المتعارف اسم لطلب التجاوز، فصرفها عن المفهوم إلى ما لا يفهم دخوله تحت الاسم تحريف الكلم عن مواضعه، ولأن تلك الزيادة عندهم إذا لم تكن مستحقة بالعمل يجب تنغيص نعم الجنة إذ من زعمهم أن التفضل يوجب المنة، وهي تنغص النعمة، وليست الجنة بدار تنغص فيها النعم، ولأن إعطاء تلك الزيادة لو كان عندهم جائزاً بدون الشفاعة لكان لا يجوز منعها، لأن منع ما يجوز إعطاؤه من غير أن يكون للمانع فيه منفعة أو دفع مضرة، وينتفع به المعطى بخل عندهم، وطلب ما لا يجوز منعه طلب الامتناع عن الظلم والجور والسفه، ومن ظن أن الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين صلوات الله عليهم أجمعين يسألون من الله تعالى ما هذا سبيله فهو كافر، وبالله التوفيق، ولا تعلق لهم بقوله تعالى: ﴿وَلاَيَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء: 28]، لأن المؤمن بما معه من الإيمان والطاعات مرتضى، وإن وجدت منه كبيرة وقيل: معناه لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله تعالى الشفاعة له، فلم زعمتم أن الله تعالى لا يرتضي بشفاعة صاحب الكبيرة، ولا تعلق لهم أيضاً بقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18]، لأن الظالم المطلق هو الكافر على ما مرّ، والله الموفق.

شفاعة المختار ﷺ.

ثم نظر إلى خلاف العلماء، ثم نظر إلى آيات الرجاء،ثم نظر إلى عزة التوحيد، ثم إعاد نظره في الكريم والكرم المطلق، أطلق القول بعد تقرير ذلك كله في خلده أن المؤمن بالله في الجنة على كل حال، وقال: صح أن الرحمة هي الفاعلة، ولها يرجع ولا يعتبر العمل معها، وبها يدخل الكل الجنة، فإن الله لا يجب عليه شيء، وإذا قلنا هذا دخل بعمله، وهذا أعطي على علمه الصالح الدرجات السنية، وهذا جوزي بعمله، وهذا من الأبرار، وهذا من المقربين، إنما قصدنا بهذا القول كله القصد الشرعي.

وأمَّا القصد العقلي: رحمة الله هي الفاعلة، وهي العامة، وهي مهيأة للخير، وهي جاءت بالخير، وهي عصمت من الشر، وهي حفظت، وهي هَدَت، وهي أرشدت، وهي هو ولا شيء مثلها، ثم غلب عموم الرضوان، وإحسان المنعم، وجاه الشفيع، وشرف التوحيد، وعجز الموحد، والعذاب الذي ناله أقام الحق في أول خط الرجاء، والنبي ﷺ في آخره، والمذنب في وسطه، وتأمل اضطراره، ورحمة الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ووسيلة المشفع الشفيع فيه، ويتمكن من هذا كله على أتم ما يمكن، وأنس نفسه، واشتد فرحه، وأفرط فيه غرض حمد المنة، وربما سكر فقال: وحق رضى الله، وإحسانه وجاه الشفيع وشرف التوحيد وقدر الموحد، ما أحكام أمة أحمد في القيامة إلا على ضروب: فمن رجل يدخل الجنة، ولا يدخل النار، ويشفع في عدد كثير، وآخر دونه، وآخر فوقه، وآخر يدخلها بعد السؤال، وآخر يدخلها برحمة الله تعالى، وإن كان مثل مَن ذكر من المُصرِّين، وأخر يدخلها بالشفاعة قبل النار، وآخر يدخلها بالشفاعة بعد النار، والمؤمن لا يشقى، والإنسان المؤمن قد يكون من الأشقياء بالقوة، ومن السعداء بالفعل، وبالعكس يا هذا.

وقد كشف القناع في ذلك حديث الشفاعة في كيفية المذنبين، ومراتب إخراجهم من النار عمومًا.

وورد في الحديث الصحيح خصوصًا، واللفظ لمسلم، قال أبو سعيد الخدري ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً ممَن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، قال: فدُلَّ على راهب فأتاه، فقال له: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمّل به المائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم، قال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق لي أرض كذا وكذا، فإن بها ناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك

فإنها أرض سوء.

فانطلق حتى نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاءنا تائبًا مقبلاً، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكمًا فقال: قيسوا ما بين الأرض فإلى أيهما كان أدنى فهو له.

فقاسوه فوجوده أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة، وفي رواية: فكان إلى أهل القرية الصالحة أقرب بشيء قليل فجعل من أهلها»[1].

وقال ﷺ: «مَن كان آخر كلامه لا إله إلا الله حرمه الله تعالى على النار»[2].

وما تعارض في ذلك من النصوص للحكم فيه تردد القلوب بين الخوف للعاصي والرجاء للرحمة، وينفذ حكم الله تعالى على العباد، والعاقبة للمتقين.

وقد حكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن السائل إذا جاءه، وذكر له قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: 93] الآية إلى آخرها نظر: فإن كان لم يقتل قال: لا توبة للقاتل، وإن كان قتل قال: له توبة، فكان يغلظ على مَن لم يقتل ليكف، وكان يخفف على مَن يقتل لئلا ييئس.

وقال بعض مَن نسب نفسه إلى علم التحقيق: قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: 93]، وقوله ﴿ (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ [النساء: 48]، خبرٌ ولا يصح النسخ في الأخباركيفما ترددت، وإنما معناه جزاؤه إن جازاه، أو يكون معناه من قتله مستحلاً، أو يكون المراد به رجلاً بعينه.

فافهم يا أيها المرحوم، وتلذذ بالرضوان الذي تقدم ذكره، وآنس نفسك بالإيمان، واقرأ كلمة: بسم الله الرحمن الرحيم، وتعلّق بالبعض منها وتخلق بالبعض، واعلم أن معناها عظيم الشأن، ولأجل شرفها وبما جمعت من الأُنس والخير للمكلف قدمت قبل تلاوة كلام القديم والحادث، وهي وكلها من الحروف المتحابة إلا الأول منها، وهو منها بالنظر إلى أصله، وقد تكلم الناس في أمره، وتقدر أن تقف على ما قيل فيه من هناك، ولولا خوف التطويل والخروج عن الاشتراط الذي عول عليه في الاختصار كنت نكتب في ذلك ما هو أبسط وأكمل من هذا كله، والذي يجمل بهذا ويحسن أن يكون منوطًا به،

(1) رواه مسلم (2118/4)، وابن ماجه (875/2).
(2) رواه أبو داود (190/3)، وأحمد (233/5).

ويذكر عقبه ذكر التوبة والكلام عليها، فإنها نعمة عامة، وموضوع العاقبة ومحمولها في العبد الفاجر المذنب، فنبدأ بعد قولي، وبالله التوفيق، فنقول:

التوبة تطلق على أنحاء، وهي وظيفة شرعية، والكل مطلوب بها، ولا يحملها أحد عن أحد، وهي الندم على المعصية لأجل ما يجب له الندم، والعرب تقول: تاب وأناب وآب بمعنى رجع، وإذا أضيفت التوبة إلى المكلف أريد بها رجوعه عن فعله القبيح إلى الندم عليه، وإذا أضيفت التوبة إلى أفعال الله تعالى، فالمراد بها رجوع نعمه وآلائه وأياديه إلى عباده التائبين، والذي يريد الشرع منها ثبوت مفهومها اللغوي، ومتعلق حكمها الشرعي، والتوبة الشرعية هي اللغوية بجهة، وهي غيرها بأخرى، فلا كل من رجع يسمى تائبًا شرعًا، ولا كل من ندم خرج عن فعله القبيح، ودخل في الحسن يحمل عليه الإطلاق أنه رجع.

والمقصود المطلوب الذي يحرر التوبة الشرعية، ويحقق فيها مفهوم اللغة: هو رجوع التائب بأمر يحركه إلى رجوعه ويخوفه ويرجيه بوعد ووعيد، ويترك ما كان عليه من أجل ما أمر به، ولأجل ما هو تارك له، ويرجع إلى ما هو معين عليه، وينتقل من الذي نهي عنه؛ ولذلك لا يُقال في الذي يترك شرب الخمر من أجل الناس أو أجل جسمه والاحتياط على عقله: تائب شرعًا، وإن كان مؤمنًا أو كافرًا، فاعلم.

فإذًا التوبة واحدة بالقول، كثيرة بالموضوع، والأسماء تؤخذ من اللغة والقياس والشرع والعرف، واسم التوبة الشرعية بمجموع الأربعة، وصيغتها يشترك فيها مدلولها ومفهومها، وجملة أمرها يحمل عليها بالذات إذا فصلت، وبالعرض إذا صرفت، وهي بالجملة راجعة إليها، وانظر إلى المؤمن إذا تاب عن قبيح، ورجع منه إلى ضده، ثم انظر إلى الكافر الذي يكف عن قبيح ما ويخرج عنه، ويرجع إلى ضده نحو التوبة في هذا صحيحة من الجهتين، وفي هذا من جهة واحدة، وهو الرجوع المعروف في أصل اللغة خاصة، فقد صح العرف ولما لم تقبل التوبة من المؤمن إلا بعد الأمر والنهي والوقوف على خبر الشارع ﷺ صح وجود القياس، فإن العرف يخبر عنه، ولم يحمل عليه، ووقف على شرط واحد، وهو القصد الشرعي، ويخبر عن الكافر، ولم يحمل عليه، ووقف على شرط متقدم، وهو الذي لا تصح الطاعات إلا به، وهو الإيمان، وهو شرط الحق، وهو الذي لا تكمل الطاعات إلا به، وهو الفرض ومراعاته.

وإن كان هذا قد دخل تحت الطلب، وهذا كذلك، وهذا قد قام به الشرط الأول، وهو الذي لا يدخل تحت مقدور العبد، ولا يمكن أن يكلف إلا بوجوده، وهو الذي إذا

ارتفع، ارتفع حكم التكليف عنه، وهو العقل، وهذا الثاني مثله فهذا مذهب العرف، وهذا بعيد عنه بما ذكر من معلوم الأمر والنهي من حملها على معلوم الشروط المذكورة، ومن ارتباط بعض لواحق الأول مع الثاني في مدلول التكليف، ومن حيث الرجوع عن الزلات واكتساب الخيرات المعنوية الشرعية الداخلة تحت جنس الأحكام الخمسة الفقهية التي فصلها الانقياد الخاص للأمر المشار إليه بأمر ماهيته التحليل والتحريم، وميزها من غيرها، وعرف المأمور المنكر الذي اشترك مع غيره، وخصص مهمل شأنه، وأحكم مجمل تقييده صح فيها أعني: في التوبة اسم الشرع واللغة معًا، فافهم، وتصفح كلامي، فإنه يصعب من جهة، ويسهل من جهة أخرى، وكذلك كل كلام صناعي مفيد يجذب البرهان، ويرفع الإقناع الذي لا يقين فيه[1].

وجملة الأمر: التوبة الشرعية لا تصح إلا بتقيد، ومقيِّد، ومقيَّد ومشار ما إليه يتعلق به مفهوم الخوف والرجاء، ومحرك لها، وإقرار بوجودها وثبوتها، وإيمان بقوتها اللازم وبوقتها

(1) إن كل من تاب، وندم على ما مضى مع دوامه على ما صفى، ولكن يكون من نفسه بأن يكون لنفسه حظًا في التوبة فقصدها بنفسه لا بالله نقض العهد بالرجوع إلى ما مضى وتاب منه، ولا يثبت على التوبة، ولا يمكث فيها؛ لأن قصد التوبة حقًا يكون بهوى النفس، وهي لا تطلب إلا الشرّ أو ما هو من جهته لكونها مجبولة على ضدّ الخير، فلا يثقل عليها إلا الحق، فلا يطلب إلا الناقص، أو ما لحقته العلل والأغراض، وهو وإن كان حقًا وخيرًا، لكن بسبب العلل والأغراض يصير باطلاً وشرًا؛ إذ بالعوارض ينتقل الخير إلى الشرّ والشر إلى الخير، كما مرَّ في أول الكتاب بعد تمام الديباجة، فكل ما أنت فيه مصحوب بالالتفات والقصد فلا يتم لك، ولو تم ينقطع التفاتك وغرضك، فكل من تاب من نفسه وإن كانت التوبة باب الأبواب للدخول في الحضرة الإلهية، فلا يستقيم عليها فينقضها فيجب عليه التوبة إمًا على السّعة، أو على الضيقة وهو الأصح؛ إذ التوبة فورية على المعتمد من نقض التوبة.

ولهذا قال الشيخ كما مرَّ في أول الكتاب: (خف من كل مالك فيه نية، ولو كان طاعة) بخلاف ما إذا كان مقهورًا في التوبة، ولا يكون له قصد من النفس فيها فإنه حقًا تاب الله عليه، فلا يكون فاعلاً لما هو طالبه، بل هو فاعل لما هو مطلوب منه فيتم أمره، ويثبت على توبته ولا ينقضها، ويمكث فيها أبدًا وهو موجب للمكث والخلود في الجنة قال الله: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ [الكهف: 2،3].

والأجر الحسن الجنة بدليل قوله: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ [الكهف: 3].

فانس أيها التائب قصدك وهوى نفسك؛ لأنه تعالى أعرف بمصالحك من توبتك وعدم توبتك وغير ذلك من سائر الأفعال، فلا تعمل إلا به ولا تريد إلا بإرادته، والمقصود أن تفنى عنك وتبقى بالله حتى تتقرب إلى الله.

الواسع وبوقتها الضيق، وبابها الذي يغلق في وقت مجهول الكيفية والحال، وأنها تحت مقدور العبد وتحت كسبه، وأن قدرته تؤثر فيها، وإن تعلقت بها، فإن العبد التائب يعجز عن مصالحه من حيث الهداية والعاقبة والخاتمة، ويقدر بالكسب الشرعي بالقدرة الحادثة التي هي وصف للعبد خاصة، وحركته بها كسبه، وهي لا تتقدم زمان حركته، ولا تتأخر عنها وتقارنها، والقدرة تتعدد بمضاف المقدروات، ولا قدرة واحدة تتعلق بكل مقدوراته، ولا يلحقها التعدد، وتؤثر في كل مقدور، وتخترعه بوجود في حادث، وإنما وجودها في القديم.

ومذهب المؤمن السُّنّي بين المعتزلي والجبري فيها، وهذه مسألة قطعت قلوب المتكلمين، ولولا خوف التطويل كنت نتكلم على حقيقتها، ونشفي بها صدور الطلبة، وفي الجواب على «مسائلي الإشبيلية» نخلِّصها بحول الله تعالى، فانظرها فيها، وتدبرها وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، كذب الجبري والمعتزلي، فافهم، وتب التوبة المذكورة، وارجع إلى الرجوع المذكور، ومن لم يلتزم شروطها فهو راجع وتائب بمعنى منتقل خاصة، ويدخل تحت جنس الرجوع المطلق، الذي يُقال على العاقل وعلى غير العاقل، والتوفيق بيد الله تعالى، وهو الذي خلق القدرة على الطاعة والخذلان بيد الله، وهو الذي خلق القدرة على المعصية.

فصل: جميع ما ذكرته في التوبة من مراعاة الأمر والنهي هو الذي يلزم في كل الأحكام الشرعية، وما ذكرت من الأسماء وتفصيلها يلزم في أكثرها.

ألا ترى أن الصوم الشرعي لا يصح معناه بالإمساك المطلق إلا بمفهوم اللغة فيه حتى يضاف إلى ذلك الأمر به وبوقته وبحده وبتفضيله وبكيفية أحوالها كلها، وعلى أي شيء يمسك، وهل هو المعنى ما أولاً، وما المعنى الذي هو له هذا الإمساك ومحركه أي شيء هو، وبمن يقوم، وبمن لا يقوم، وفي أي وقت يتعلق الخطاب بالممسك المكلف، ومن أمر به، وما يجب للآمر ﷻ، وأين نسبته من المأمور، وما يلزم عنه عصيانه، وكم أصناف الأمر به، وكم من أمر يأمر به، وغير ذلك من الأمور الذاتية لصوم، والصائم في الشريعة المذكورة.

ومَن غفل عن هذه الشروط كلها، ويحمل الصوم على مفهومه عند العرب الذي هو الإمساك، ولا يعتبره بالعرف والقياس والشرع، حاد عن طريق الصوم الشرعي، وسلك على طريق الصوم العامي الذي يُقال على الإمساك المشترك الذي يعم العاقل، وغير العاقل، والخير وغير الخير، والطائع وغير الطائع، والعرب كانت تطلقه ولا تقيده، فإذا ما

أطلقته بالأمر على شيء المشار إليه قيدته في زمان الأمر كقولك: أَمْسك الدابة، وصُمْ عن الكلام، قال الله تعالى: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: 26]: أي صمتًا.

قال الشاعر:

خيلٌ صيام وخيلٌ غير صائمة تحت الحجاج وأخرى تَعْلُك اللُّجما

وقال امرؤ القيس:

فَدَعْ ذا وَسلِّ الهم عنك بجَسْرَة ذمولٍ إذا صام النهار وهَجَّرا

فصل: قال رسول الله ﷺ: «الندم توبة»[1]: أي معظم التوبة ندم، كما قال «الحج عرفة»[2]: أي معظم الحج عرفة.

وإن عزمت أيها المذنب على التوبة فاندم، واعزم على فعل الخير المعروف، وافعل به الحين، وما عليك للغير بارد به، وانصف المظلوم من التابعات المعنويات والحسيات وغيرها، فإن لم تقدر فلأحد لواحقه مثل الوارث القريب له، وكذلك اهبط بالتحليل في أهله، واطلب نفسك بالإنصاف، فإن لم تجد فمن الأحوال السنية، والمعاملة الجميلة الخلقية العلمية والعملية، وتشركه فيها، فإن لم تجد فقاسمه في خيراتك كلها، وجد في العمل الصالح حتى تكون واسع الذمة بحيث يعطى، وتبقى غنيًا بالكسب والمال، فإن لم تسطع، فارفع أمرك للغني القديم، فهو ينصفك وينصف عنك للفقير العديم.

وما بينك وبين ربك استغفره فيه، وتب له، واخرج عنه، وفوض أمرك فيه لكرمه، واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب صيحة تنبيه رحمة، ويقال لك: يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم؟ فقل له: حلم الحليم، وعجز الجريم.

فصل: يتوب الكافر من كفره، والمؤمن من معصيته، والسالك السعيد من غفلته، والمؤمن لا يكفر بذنب، فإن تاب فإنما يتوب من فعله المذموم، وما في تصوره وتصديقه من معرفة الله تعالى لا يرفع بالفعل المذموم، فإنه خارج عن صفة نفسه، ولكل ذات معنى خاص بها، ومضاف ويلزمها ويتعلق بها، وهو منوط بها، والمعلوم الصحيح الذي يتعلق به العلم على ما هو به، وتحصل صورته في نفس العالم، ومعرفته صادقة قد حققها القياس وأثبتها البرهان لا تتغير أبدًا، والعالم به لا ينتقل عنه، ولا يخبر أن في غيره ما يعول عليه، ولا يبقى له في محصوله ما يحتاج فيه إلى تلفت وامتحان كالأمور المظنونة.

(1) رواه ابن ماجة (1420/2).

(2) رواه الترمذي (237/3)، وابن ماجه (1003/2).

فصل: التوبةُ فريضة تلزم كل مسلم، والغافل عنها يتوب من أجلها، فإنها دائرة وهمية، وتكون كالخط المقوس مع الغفلة، وعند التذكر دائرة والتخصيص يجمع نهايات خطوطها، ويقومها، وهي تمشي مع الهمة والأدب والحكمة والسيرة الجميلة، وهي موضوع العناية، والعمل الصالح محمولها، والعلم صورتها المقومة، والهداية صورتها الممتعة، وهي على أنحاء وأنواعها كثيرة، وفيها القوي القاطع، والضعيف اللين، وفيها ما يعظم شأنه، وفيها دون ذلك، وفيها ما يقتنع فيه بالخبر، وفيها ما لا يصلح إلا بالفعل، وفيها ما هو بالاستعداد، وفيها ما هو بالموت، وفيها ما هو بالقوة، وفيها ما هو بالفعل، وفيها ما هو بالخلوة، وفيها ما هو بالعزلة، وفيها ما هو بالمال، وفيها ما هو بالفقر.

واعتبر هذه الكلمات المقولة على أنواعها المحمولة على صفات أحوالها وأسبابها بتوبة الحاج، وتوبة الصادق، والأذى يرد التبعات، وبتوبة الصالح الذي يخطر له القبيح في خلده ويستغفر الله تعالى منه، وبتوبة تارك الصلاة واسترجاعه، وبتوبة الإنسان قبل مفارقته عقله وجثمانه، وبتوبة القاتل، وبتوبة الذي يمنع عن مقصوده السيئ، وبتوبة الذي لا حاجة له في نساء، وهو يعلم أن مخالطة لمَن تشغله عن مراده، وكذلك القرين السوء، وبتوبة الذي عليه عذر يمنعه من أداء الفرض، وجميع ما يمنعه من التوبة الصرفة، واستجلاب الأحوال السنية، وبتوبة من يطلب العلم، وبتوبة من أهلكه المال والكسب والحرص عليه، وبتوبة من استفزه الجاه وحب الرئاسة.

وغير ذلك من أجزائها، فإنها مقولة على كثيرين، وإن اختلفت موضوعاتها فهي تتفق معها في الحد، ويشملها جنسها، وكثير ما في الأمور الشرعية من الأمور التي سماتها توبة ونُعوتها تدل على شيء آخر مثل الكفّارات، وما أشبه ذلك، وهي على الإطلاق نعمة مطلقة ونائلها هو المنعم المطلق، وهي بائنة في الزمان اليسير باحرفة الحرمان في الزمان الطويل، وهي تحت ما قبلها فلا قطع الله بنا حولها، وهي صابون الذنوب، والحمد لله على نعمه.

فصل: لعلك تقرأ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قال تعالى: ﴿أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء: 18، 19]؛ فيصعب عليك مدلولها، ويتنغص عيشك عند تلاوتها، فإذا كان ذلك فآنس نفسك بحديث رسول الله ﷺ حين سئل: ما حد التائبين؟

فقال: «مَن تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته»[1]، ثم قال: ألا وإن ذلك لكثير، مَن تاب قبل موته بنصف سنة قبل الله توبته، ثم قال: ألا وإن ذلك لكثير، مَن تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته، ثم قال: ألا وإن ذلك الشهر لكثير، مَن تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته، ثم قال: ألا وإن ذلك لكثير، مَن تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته، ثم قال: ألا وإن ذلك لكثير، «مَن تاب قبل أن يغرغر تاب الله عليه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: 17]»[2]، وكل ما قبل الموت قريب.

والمراد أن يكون في صحته وعقله الهيولاني على حاله لم يتغير، وموضوعها كما كان، والاتصال لم يفترق، وأن تكون الصورة الروحانية التي تظهر عند التجرد لم يختلط نظام تصورها في الذهن، فإنها تكون هناك على ضروب: فمنها ما هو صادق، وهو ذاتي الذات، ومنها ما هو كاذب، وهو عرضي الذات، وسعادة الإنسان في هذا الموطن على حاشيتي النقيض، واقفة تشاهد عاقبتها، وتشاهد شقاوتها أو سعادتها حتى يخرج للوجود ما شاء الله منها، فإذا شعرت النفس بتركها بتدبير البدن، وبالانسلاخ عنه، ورجوع الأشياء إلى مواضعها يحدث الاضطراب والتبدل في عالمها الصغير، وتقوم قيامتها الصغرى قبل القيامة الكبرى.

فاعلم ذلك، واترك الأقوال القاصرة عن المراد، الفاسدة في العمل والاعتقاد، وحسّن الظن بربك العظيم، واجعل الخوف والاحترام الشرعي، والأدب مع الله ورسوله وملائكته في يمينك وعقلك، وخبر نفسك ومرادها في شمالك، والقبض والبسط بينهما، والرجاء حولهما، والإذن على الجميع، وما وجدت في غير الذي في يمينك من زيادة اعْرضه على الذي في يمينك، فإن قبلها اقبله، وإن دفعها ادفعه، والله هو المعين على ذلك.

فصل: الله نصب الأدلة على المعرفة، وفرع التكليف للتعبدات، وأوعد تعالى بذلك على ألسنة الرسل فآخرهم محمد ﷺ فبشر به وأمر ونهى، وأنذر ووعد وأوعد، وألزم والتزم، وسبق في علم الله وحكمه أن الخلق يتباعدون عن القول، ويتعامون عن الدليل، ففسح لهم في المهل، وأرخى لهم الطوال، وأعلمهم بإقالة العثرة لمن كبا، وبقبول التوبة لمن خالف وأبى، وجعل مدة قبول الإجابة، وصحة التوبة مدة الدنيا، وهو عمر الإنسان فيها، فقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ

(1) رواه النسائي في الكبرى (344/6)، وأحمد (206/2).

(2) رواه الترمذي (547/5)، وابن ماجه (1420/2).

آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: 158]؛ فأخبر الله تعالى أن الإيمان لا ينفع، ولا كسب الخير معه ينفع إذا ظهر بعض آيات الله المؤذنة بانقراض الدنيا.

فصل: صح عند صحيح النظر أن التوبة قبل الدهر ومعه وتحته، وفوق الزمان ومعه وتحته، والثابت كذلك، والمحرك الغريب لهما قبل الدهر، والمحرك البعيد قبل القريب لها، والمتقدم عليه بالفصل والسبب، والطبع والذي فطر الأمور بالجميع، وأبدع التوبة والدهر، والزمان المحرك القريب والبعيد والتقديم والتأخير والفوق والتحت والقبل والبعد، ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنِ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ [الحديد: 3]، هو الله الذي لا أول لوجوده، ولا يمكن أن يكون بينه وبين مفعوله واسطة لا روحانية ولا جسمانية إلا فعله، وهي مع هذا عرضية لا تفعل، ولا هي ضرورية الفعل القديم في مفعوله.

وقد قام البرهان عند المسلم أن العوائد ارتباط موجود بموجود من غير قضية شرعية ولا عقلية، فافهمني يا أيها المكلف، وتعلق بالقديم، وبما في النظام القديم، ونادم بذلك الذي لا يفارقك من صفة نفسه، ولا تفارقه من صفة نفسك، فإن الفاعل يلازم مفعوله والمفعول يلازم فاعله، ولكنه إن شاء يعدمك لأعدمك، وتكن كما كنت، وأنت في تعلقه لا ذات لك إلا أنك موجود في علمه، وإن شاء يتركك على حالك بخلاف قول الفيلسوف؛ ولذلك ذكرت هذا التنبيه فتنبه له، وإياك والغفلة عن الله، فإن الله هو المحبوب الأعظم، والنديم الحق الأكرم والقريب، وكل أنواع القرب التي يثبت التنـــزيه معها والبعيد بمخالفته، وبالجهل خاصة، وهو الحاضر في حضورك قبل كونك، وهو معلومك وعالمك وعلمك قبل كونك ومعه، فافهم.

واجعل العبودية لازمة لك، والغيرية كذلك إرفعهما، ويكون زمان وجودهما في وقت الأمور الشرعية، وزمان إعدامهما في الحقيقة. هذا إن فعل هذا معك، فافهم.

وقل: يا هذا تحض على دخول الماء، ثم تأمر الداخل فيه ألا يبل ثوبه وشخصه؟ إن هذا عجيب السلب والإيجاب معًا، يا هذا، أنا الغريق فما خوفي من البلل، ولكنا نعبد الله، ونتمثل أوامره، وكل شيء بقضاء وقدر، والعارف مَن عرف الله على قدر.

يا هذا، الوجود المطلق هو الله، والمقيد أنا وأنت، والمقدر جميع ما يقع في المستقبل، والمطلق إذا ذكر نفسه ذكر كل شيء، والمقيد إذا ذكر نفسه ذكر لا شيء عادلاً ذاكرًا ولا مذكورًا، والمقدر مثل المقيد بآخر أمره، فالمقدر لا شيء، وأنت وأنا لا شيء، فإذًا أنا تائب عن الغفلة التي حملتني على قولي ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله بعده، ثم على قولي

ما هو أقرب من هذا وهو: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله معه، ثم على قولي وهو قولي: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله، وإنّا الآن نقول: هو هو هو، ثم نقول: هو ونصمت، ثم نشير، ثم نقطعها، ثم لا، ثم إلا الحق المحض، ثم لا إله إلا الله.

ثم نتوب من استصحاب هذا في المواطن المذكورة قبل، أعني: الشريعة حيث يجب التكليف، فإن الأحوال السنية إذا كانت متصلة الاستصحاب منهلّة السحاب يخاف على اتصالها أن ينقطع، وعلى سحابها أن يخف، وهذا قول صناعي، وللعاقل أن يقول فيه للمتكلم به: يا هذا، إن كنت من القوم الذين سلكوا هذا المسلك فقد يعتبر قولك بعد ما يرشح بقوله ﷻ: ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60] [1].

---

(1) قال الشيخ الباني: واعلم أن القُرب، والبُعد ليس إلا في الحجاب.
وأمّا الحقيقة فلا قُرب فيها ولا بُعد، فالله تعالى لا يرومه قرب؛ لأنه لو كان هكذا لكان القرب سببًا لشهوده، وليس كذلك، بل هو مناف لشهوده لكونه وصفًا ثبوتيًا مع أن إثبات القرب له تعالى فيه شرك كما لا يخفى، والشرك وإثبات شيء معه ينافي الشهود؛ لأن حصوله عند اضمحلال الرسوم والقرب منها، وكما أنه لا يرومه قرب كذلك لا ينتهي إليه وجود؛ لأن المنتهي للوجود مغاير له، والمغايرة تقتضي الإثنينية وهي منافية للشهود؛ لأن نور شهود الجبار يفني جميع الأغيار، فإن قيل : هذا مخالف للنص حيث قال الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]، وغير ذلك مما ذكرنا، فالقرب الإلهي لا خفاء به قلنا: ثبوت القرب الإلهي لا يتحقق إلا في مقام الفرق؛ لأنه القابل المتعدد والرسوم، والقُرب رسمي كما عرفت ويحتاج الى الاثنين أي: العبد والحق بخلاف الجمع والمحو فإن فيه وحدة صرفة لا قرب ولا متقرب ولا متقرب إليه، فلا يلاحظ القرب إلا في الحجاب وأدناه أن ترى آثار نظرك إليه تعالى في كلّ شيء بأن يكون نظرك إليه تعالى أغلب عليك من معرفتك ذلك الشيء، وأقدم منها فلا ترى شيئًا إلاّ وترى الحق قبله رؤية ناشئة من رؤيتك ذلك الشيء، وهو أدنى مراتب مقام القرب فهو أنت ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله أي: قبل معرفة ذلك الشيء، ومنهم من يقول: بعده ومنهم من يقول: معه، ومنهم من يقول: ما رأيت شيئًا غيره.
ولا يعرف القرب إلا بالوجود أي: بوجود الأحوالات السنية، والمواجيد الربانية يعرف حصول القرب له لا بالبُعد؛ لأن المتأخر لا يكون سببًا للمتقدم، والبُعد متأخر عن القُرب؛ لأن معرفته سابقة عن معرفة البُعد؛ لأنه إذا وجد السالك التجلّي العرفاني تجدد له حال أشرف من الحال الذي كان عليه قبل التجلّي فيعلم أن هذا الذي كان عليه قبل هو البُعد بما حصل له من القرب، فعلى هذا البعد يعرف بالقرب، والقُرب يُعرف بالوجود لا بالبعد، وبه صرّح صاحب المواقف في المواقف.
وأمّا القُرب الذي يعرفه الحق، أي المطلق عن الحصر فهو له تعالى ليس للعبد دخلٌ فيه؛ لأن قربه محصور إمّا في مرتبة أو مراتب، فالعبد لا يعرف قربه تعالى ولا بُعده ولا وصفه كما هو وصفه؛
=

لأن هذا العرفان مُختص به تعالى، لكن العبد إذا تبدلت أوصافه وذاته بأن مُحي عن نفسه، وبقي بالله تعالى لا بنفسه لا يبقى غيرًا حيث وصل إلى مقام: كان الله ولا شيء معه...، فيعرف ما ذكر بالله لا بنفسه، وهذا معنى عميق وعزيز قليلاً ما يصرح به، بل يرده ظاهر النصوص، ولكن مطابق لما هو الأمر عليه في نفسه، فاعرفه، ولا تقله، وأثبته، ولا تنكره.

ولا تقل إن العبد حقّ: إذا كان عين الحق ولم يكن مغايرًا له، فمن أين القُرب والبعد؟ ؛ لأن هذا الواحد هو يصير قريبًا من جهة، وبعيدًا من جهة، ويكون مشهودًا وشاهدًا كذلك؛ لأن جهاته متعددة، وتأمل قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ:

«كنت سمعه وبصره» ما ذكره من القُوى الظاهرة.

وقوله في التوراة: نريد أن نخلق خلقًا شبيهًا بشمائلنا وصورتنا، وليس في الذات ولا في الصفات تشبيه بالاتفاق؛ لأنه ليس كمثله شيء فما بقي إلا أن يكون هو الظاهر بنفسه، وذِكر الشبيه نظير قول القائل: مثلك لا يبخل، وقوله ﷺ: «خلق الله تعالى آدم على صورته».

وقال الشيخ قُدِّس سرُّه في فصوصه في هذا الباب شعرًا:

فمَن ثَمَّ ومَا ثَمَّ ... وعَينٌ ثَمَّ هو ثَمَّ
فمَنْ قَدْ عَمَّهُ خَصَّهُ ... وَمَنْ قَدْ خَصَّهُ عَمَّهُ
فَمَا عَينٌ سوى عَينٌ ... فَنُور عَينِهِ ظلمه
فَمَنْ يَغْفَلُ عَنْ هَذَا ... يُجِدْ فِي نَفسِهِ غَمَّهُ
وَلا يَعْرِفُ مَا قُلنَا ... سَوَى عَبدٍ لَهُ هِمَّةٌ

فأنكر في هذه الأشعار وقوع الماهيات والأشخاص من ذي العقول وغيرهم، وحكم بأن كل عين تعين بتعين مخصوص في الواقع فهو الحق بعينه فيه، وحكم بأن كل من أطلقه عن القيود، ونزهه عنها خصه الإطلاق وإن كل من أخصه عمّه أي: كل من حكم بأن ذلك المطلق هو الذي يختص بتلك القيود حَكَمَ بإطلاقه الذاتي، ونزهه عن الإطلاق المقابل للتقييد، فليس عين في الوجود يكون سوى عين آخر، وليس إلا عين واحد، فالغافل عن هذا جاهل بما هو الأمر عليه في نفسه، والجاهل مغموم، والعارف بهذا صاحب الهمَّة القوية العالية الذي لا يقنع بالظواهر، ولا يقف عند مبلغ علماء الرسوم، بل يرفع حجب التعينات ولا يرضى إلا باللب؛ لأنه لب، واللب يذكر اللب قال الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: 21].

وقال في موضع آخر: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37].

وما قال في موضع: لمن كان له عقل، فهو قيد يقيد الموصوف به بما يؤدي إليه فكره ونظره، ويُقال: عقل البعير بالعقال أي: قيده به، وعقل الدواء البطن فهو قيد لغةً وحقيقةً، فليس في القرآن ذكرى لمن كان له عقل؛ لأنه مقيد بما قيده به فكره، وإن رأى في القرآن ما يخالف ما يؤديه فكره يؤوله إلى معنى يوافق ما أدى إليه فكره، وأوُلوا (الألباب)، ومن له قلب لا يؤولون شيئًا ولا ينكرون شيئًا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وتقطع حجتك بحفظ الكريم لأوليائه، وإن كنت لم تشاهد فاصمت، ولا تتخط رقاب الصديقين، ولا تتحل طعم شيء لم تذق، فإن الأحوال السنية التي قلت أنها يخاف عليها أن تنقطع أحكامها سنية، وهي راجعة وواقفة مع شرطها الذي قامت به وظهرت بشأنه، وأثمرت بلواحقه في أوانه.

فصل: السعيد هو الذي يجعل التوبة ممتدة مع نفسه ونفسه، ويأخذ نفسه بمنادمتها، فإنها عجيبة محافظة لمقاماتها الشريفة، ومقومة لشأنه كله، وهي في المبتدئ بنوع، وفي السالك بآخر، وفي الواصل كذلك، وماهيتها تدور وتتداخل وتتنوع وتتلون في الوهم،

فما أوسع قلب العارف حيث أنه بإطلاقه مقابل لإطلاق الحق، والحق أوسع وأعظم؛ لأنه غير متناهي، والقلب يسعه على ما ثبت بالحديث القدسي، وما يسع الغير المتناهي غير متناهي أيضًا، وفي هذا قال سلطان الزاهدين ورأس العارفين وإمام الواصلين أبو يزيد البسطامي قدس سره: «لو أن العرش وما حواه من السماوات والأرض وما بينهما وما فيها مائة ألف ألف مرة وقع في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسَّ بها؛ لأن العرش وما فيه متناهي، ولا قدر للمتناهي بالنسبة إلى غير المتناهي».

وقال الشيخ الأكبر قدس سره: بل قلب العارف لو وقع في زاوية من زواياه ما لا يتناهى وجوده مما وجد ويوجد إلى الأبد بفرض انتهاء وجوده ولو كان مستحيلاً؛ لأن غير المتناهي لا يُحاط به مع التي هي واسطة في إيجاده وهو الحق المخلوق به الخلق أشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: 85].

ما أحسَّ بذلك حال كونه منطويًا فيما بين معلومات، واستدل لما قاله بقوله: فإنه قد ثبت بحديث: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن» أن القلب وسع الحق لاستعداده للتجليات الأسمائية والذاتية الغير المتناهية واحدًا بعد واحد، ومع ذلك لا يقنع بما حصل له فلا يروى؛ إذ كل تجل يورث له استعدادًا آخر إلى غير النهاية.

فالعارف في كل زمان يطلب الزيادة من التجلي؛ لأنه ليس له نهاية يقف التجلِّي عندها فلا يقع بعدها تجلِّي آخر، وكذا يطلب بلسان الاستعداد زيادة العلم بالحق فيقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: 114]، فلا الطالب من العبد يتناهى، ولا التجلي والافاضة من الحق، ومن هنا قال أبو يزيد البسطامي قدس سره: «الرجل يتحسى بحار السماوات والأرض، ولسانه خارج يلهث عطشًا».

وقال أيضًا شعر:

شَربْتُ الحبُّ كأسًا بعدِ كأسٍ ... فَمَا نَفَذَ الشَّرَابُ ومَا رُويتَ

فالعارف دائمًا عطشان؛ لأنه لا يمتلئ ولو امتلأ ارتوى، ومن إن قلب العارف بالله وسع كل شيء؛ لأنه وسع الحق تعالى، فيكون وسعه له باعتبار العلم والشهود، أو باعتبار الإحاطة والجامعية لها، فإنها حقيقة للأشياء جامعة لها.

وهي ثابتة الحد في العقل، وفعلها في البداية إخراج الشرير من الشر المحض إلى الخير المشترك، وفي السالك تنقله من الخير المضاف إلى مضاف آخر أرفع منه، وفي الفاضل ثبوت الخير المحض، والإكثار من فوائده الواردة، وحفظها ودفعه من الخير الذي لا إضافة فيه.

والتوبة هي التي تميز الخير المحتمل الذي يُقال على الكل أعني: على الشرير والفاضل، وتفصله من ضده الذي لا يطلق إلا على ماهية واحدة، فإن الخير هو المحبوب عند جميع الناس، وله يطلب الكل، وعليه يعمل كل صاحب مذهب محمود أو مذموم، ولا بد لكل خير حادث من خير ما يتشوق إليه، وهو الذي يحركه في أموره كلها، والمستحسن منه هو الخير الذي فيه أو به أو منه الكمال والسعادة والرفعة، وهو الذي نبه عليه المرشد، وحض عليه العليم الخبير سبحانه، وأنواعه ثلاثة: ما يراد لنفسه ولغيره، وما يراد لنفسه ولا لغيره، وما يراد لغيره لا لنفسه.

فصل: قد يخطر ببال التائب قبولها أو ضده، وهذا الخاطر يجذب لذاتها له أو يدفعها عنه، وهو يقوي نشاطه أو يضعفه، وكثيرًا ما قطع قارع هذا الخاطر قلب السالك الواقف، وهذا الخاطر هو الذي يخرب نظام البسط، ويقيم مركب القبض، ولولا ما يستعان بالرجاء عليه لم تستقم معه طيبات الأحوال عند الضعفاء، ومحركه في الباطن الخوف، والإنسان به على قارعة الممكن سالك، وراقب في ميدان الشك بما يسمع من السلف الصالح، فإنهم كانوا إذا تابوا رغبوا إلى الله في قبولها، فلو كانت معلومة القبول والتائب على يقين من قبول توبته ما سأل الله قبولها واحد منهم بقصد إلا حول قصده، فإن الحاصل لا يبتغى، فإن خطر ببالك أيها المسترشد مثل هذا الخاطر المتباين ادفعه عن نفسك بالعلامات الشرعية المحمودة المكرمة، وبقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس: 64]، وبقوله: ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60]، وبرؤية الحق في النوم، ورؤيته في الحال، وبرؤيته في الكون، وبحسن الظن في الكريم الذي إذا قرب عبدًا لا يعبده من حيث الأكثر.

وإياك والقطع على العزيز، فإنه منـــزه عنه، وإذا جوزنا للولي أنه يحدث ويكاشف ويشاهد أرواح الأنبياء في الدنيا قبل الآخرة، ويتعلم منهم العلوم العظيمة لم يصعب علينا تعرفه قبول توبته وسعادته في الدنيا قبل الآخرة، وكما ضمن النبي ﷺ لأصحابه في الحياة يضمن لأتباعه وأحبابه وإخوانه، كما أخبر في الحياة الأبدية المحمودة، ويحدثهم ويفيدهم الأمور العظيمة السنية، وبالذي يخبر الولي على الغيب قبل وقوع حكم المخبر عنه يخبر

عن غيب حاله الذي يخصه حتى لا يعبد الله إلا على الواجب الذي تسكن النفس معه، وترتفع به الوحشة عنه.

والذي ينكر هذا الأخير فيه، ومقدماته عند كل سني صادقة لا اعتراض فيها، وتفصيلها وجمعها في نظم قياس ينكره البعض، ويقبله البعض، فإن العارف بما يلزم عن الصنائع العلمية والعملية قليل الوجود، فعليك بالحق، ولا تلتفت للخلق، واجعل صورة البرهان بين عينك واتبعها، وقد تكلم في هذا الأشعرية والفقهاء، والصحيح عندهم أن الأمر في قبول التوبة محتمل، والإيمان باحتماله عندهم سنة، وإعلام الأولياء بقبول توبتهم ممكن عند أكثرهم في العقل، ولا يجوز شرعًا.

والنجيب الطالب لا يلتفت للفقيه إلا في معرفة الأحكام خاصة، ولا يعول على الأشعري إلا في قليل الأمور، وقد ذكرتها في «بُدُّ العارف»، وفي رسالة «الفتح المشترك»، فانظرها حيث ذكرت.

فصل: للإنسان المسلم أن يقف مع ظاهر الآيات في قبولها، ولا يفصل، ويقول: التوبة التي أخبر عنها الشارع ﷺ إذا ظهرت على التائب تامة الشروط كما أخبر، وثبت حدها صح اشتراطه شرعًا، وخبر الصادق حق، والتائب أمين الله على نفسه، وبقدر ما يجده من التصديق في عزمه وقدمه وامتثاله يصدق عليه قول الشارع، ويتعلق شرط قبولها بمشروط صحتها في سره إعلانه، ثم يخبر مع ذلك أن الحكيم سبحانه يفعل ما يشاء، فإن شاء عذب، وإن شاء رحم، ثم يغلب رحمته كما تقدم، وهو الأولى.

فصل: لا يحكم العقل على الأمور المغيبة، ولا يتصرف إلا في المعاني الكلية المفردة، وبعضها يركب ويصنع صناعته، فمن حرم الإدراك المذكور قبل وفاته المقام الذي يخلص بمحمل القبول، ومهملة يتأدب، ويدرج عن عش لا يصله، ولا يسمع فيه ما هو بسبيله، ويقول إذا لم يخبر في خلده بوارد صحيح يحكم به كما يحكم العقل الهيولاني، فلا قطع، ولا يقين إلا بالعلامات الشرعية خاصة، وما سواها الكف عنه، والأدب معه أجل ما يتخذ المكلف العاجز القاصر، وأنا نوقن وأن الذي لا يدخل تحت مقدور العبد الكلام فيه إمَّا بدعة، وإمَّا جنون فيعمل ويتوكل.

فصل: التوبة والقبول والممكن والواجب، جميع ذلك قد كان قبل الكون، وقد أسعف بها التائب، وقد وقع وقبلت توبته في الأزل أو بضد ذلك، والكلام في المعلوم ضرب من ضروب الجهل، فافعل الخير، وفوض الأمر إلى الله تعالى.

فصل: للسعادة علامات، وللشقاوة علامات، والمعقول والمحسوس والمقبول

والمشهور والقياس، وغير ذلك قد فرغ منه عند العلماء العقلاء، فاحكم بالعلامات في موطنها، ولا تزد ولا تنقص فيها، وبالمعقول في مكانه، وبالمحسوس على مدركه، وبالمقبول على مدلوله، وبالمشهور على مخبره، ولا تخرب نظام شيء من هذه القواعد الشرعية والعادية والعقلية فتكون من أهل البدع، أو ممن تسقط مكالمته، أو ممن خالف الإجماع، والله تعالى يعين على معرفته.

فصل: التوبة من الأنبياء موجبة ومعقولة على كثيرين فمنها ما نعلم نحن متعلقه، ومنها ما لا نعلمه، ومنها ما نعلم جنسه ونجهل نوعه، ومنها ما نجهل نوعه ونعلم شخصه.

فصل: «استغفار النبي ﷺ في اليوم سبعين مرة[1]» يُفهم منه جملة معانٍ، وتتوجه فيه جملة وجوه، وقد يصرف عن ظاهره، وقد لا يصرف ويحمل على مفهوم ما اشتق منه في الأصل اللغوي، ويقاس به وهو المغفر الذي يستتر به الحرب، وقد لا يحمل، وبالجملة الأمر فيه كثير الاحتمال.

وهذا أنا أذكر لك فيه ما يصلح به ونقبض العنان، ونحتاط على فهمك، وفهم طلبة عصرك، وبعض شهود مصرك، سنقول: يمكن في أمره أنه قد أراد ماهية العبادة، وحمل أمره على الطاعة الجارية على كل مكلف، وحقق علامات الحق فيه، وما يجب فيه من إمكان النقص المقدر في الحادث، وما عصم منه، وعرف قدره من قدر القديم، ويمكن أنه أراد به الأمور الأكثرية المحمولة على التعظيم، وإلا المائة أكثر فضيلة من السبعين، وهذا العدد المذكور غير لازم للاستغفار، وخارج عن سنته وفرائضه، ويمكن أنه أراد به الاستعانة على الأحوال مع التسوية إمّا على ما ذكرناه من معقوله في أصل اللغة، وأمّا من كونه يرغب به، ويكون القول ظاهره الذكر وباطنه الدعاء.

وهذا أحسن ما يتخلق به العبد مع مولاه، ويشغله ذكره عن مسئلته كما جاء في الحديث الصحيح، ويمكن أنه أراد به حاله الخاص به، وزمان توجه في مآربه، ويكون هذا متفق المعنى مع قوله ﷺ: «ينـــزل ربنا إلى سماء الدنيا ثُلُث الليل الآخر»[2] الحديث،

---

(1) رواه البخاري (2324/5).

(2) رواه مسلم (521/1)، والترمذي (306/2)، وأحمد (419/2)، والدارمي في السنن (412/1).

وقال سيدي علي وفا: اسمع: جاء في الحديث: «ينـــزل»: أي يتجلّى بأنواره المرسَلة منه على قوابلها الموضوعة بالاستعداد لحملها، «ربُّنا»: أي وجودنا المدرك الحكيم، «في كل ليلةٍ»: أي صورة مادية، «إلى سماء الدُّنيا»: أي إلى مجمع مداركها، «في ثلث الليل الأخير»؛ لأنها ثلاث =

والإشارة به إلى عالم شهادته الذي استعمله في ذلك الوقت عند قيامه لوروده بعد ما كان في عوالمه السنية الروحانية، وشبه النـــزول من حيث النسبة لاستعماله الحواس المحيطة الحافظة بعد ما كان في عوالمه السنية الروحانية، وشبه النـــزول من حيث النسبة لاستعماله الحواس المحيطة الحافظة بعد ما كان في حضرة الذوات المجردة الرفيعة الرافعة.

وهذا معروف في اللغة، ومثله يفهم نـــزول القرآن، والرب هنا ورد على مفهوم اللواحق غير الذاتية والاعتبارية بتواطؤ مع قول بعض الصوفية الذي قال للرجل الذي سمعه يقول: رأيت الله فقال له: «لو رأيت أبا يزيد لكان خيرًا من أن ترى الله».

ومعقوله لو كيف الله لك من يُعلمك أكثر مما أنت عليه، وينقلب من الرؤية القمرية إلى الرؤية الشمسية إلى النورانية إلى الوجودية إلى المملكة التي ما هو أكبر من ذلك مما يصعب ذكره، ويحرم على العارف الكلام به مع غير أهله؛ لكان حالك أكمل، وشأنك أجل، وأشار له إلى لواحقه المقدرة، وحذف الوسائط، وجاء الكلام وحشي الظاهر أنسي الباطن، فاعلم هذا كله، واحمل الاستغفار على هذا، والنـــزول على ما ذكرته لك، وإياك أن تتوهم بذلك في الله تعالى كما توهمت الحشوية فتتوسم المحال، وتقول الباطل، ولا تفهم منه نـــزول الأمر كما حكمت به الأشعرية، فتغلط بأن الموضع الذي نـــزل الأمر فيه كان معمورًا بأمره، ولا يمكن أن يقدر الكون المطلق بغير أمر الله، ولا يوجد في تقديره العدم المطلق والإلقاء المحض، فإنه يلازمه ويدور عليه ولا ينافيه، وبمثله تفهم نـــزول القرآن، فإنه لم ينحط من علو إلى سفل، فإن الانتقال يتخصص بالأجسام والأجرام، ومن

-

أثلاث: الدائرة الرأسية للنفس النفساني فعلاً وانفعالاً، والدائرة القلبية للنفس الحيواني كذلك، والدائرة الكبدية للنفس النباتي كذلك، فمن أيّها ابتدأت العدد وثنّيت بآخر كان المبتدأ به ثلثًا أول من ليل الصورة، والثاني ثلثًا أوسط، والثالث ثلثًا أخيرًا.

وقد ورد التنـــزيل الربّاني في الأثلاث الثلاثة، وذلك الدهر كله، ومن ثَمَّ قامت الأنوار الإدراكية فعلية وانفعالية بجملة الصورة وجهاتها الناطقة والحيوانية والنباتية، هذا حقيقة هذا الخبر من حيث التنـــزل الإمدادي الوجودي، وأما من حيث التنـــزل الزماني فلا مانع من ذلك؛ لأن هذا التجلّي لا تغير له ولا زوال باعتبار نفسه، وإنما التفاوت والتغير بحسب استعدادات القوابل، فلعل هذه السموات الأثيرية الجوية يقتضي لها تغير استعدادها بحسب أوضاعها الحركية، أن يحصل لها عند ثلث من أثلاث الليل الزماني تنـــزلات تستمر عليها أحكامها وإشراقها إلى مثل ذلك الوقت من الليلة الزمانية الثانية، فإن الصور المادية كلها متهيئة لذلك، سواء سميتها أفلاكًا أو بسائط أو متولدات، أو مهما شئت نحو هذا.

اعتقد قدم كلام الله تعالى، وقيامه بنفسه لم يفهم من الإنـــزال الذي يذكر في كلامه غير الإدراك الذي يوجد في سر الملك والنبي.

وإذا قال القائل نـــزل أمر الملك لم يرد به انتقال أصواته، ولا انتقال كلامه القائم بنفسه، ويمكن أنه أراد به ورود الصور المجردة على جوهر روحه الطاهر المقدس، ولكن عقب توجهه في ساعته التي لا يسعه فيها إلا ربه تعالى، فإن الوارد القريب الأول يقع فيطلب بحديث البعض المتفق بالاعتبار المختلف بالحد إلى الكل المتفق من كل الجهات فيتحرك لذلك المركب الطبيعي، فيحدث من ذلك حركة مشتركة، وراحة محمولة، وعذاب مضاف، ويكون في التقدير من أنواع الموت المجاز كالغشي، وغيره يستغفر الله هنا وعلى كل حال إن وجهناه على الإعانة على ما ذكر فحسن، وإن وجهناه على المُصرِّ، والقول دخل تحت الأدب، فأحسن، وإن وجهناه على التستر كما تقدم، والجمع بين ما يجب لله وللعبد والأمة، ولما يصلح لها فأحسن وأحسن.

واعلم أن الواردات منها ما يكون كالشيء المتصل برباط، ومنها ما يكون بالاتصال الأبلغ، مثل المرتكز في الشيء، ومنه ما يكون أبلغ وأعظم، فالاتصال من الجميع كالشيء الملتحم في الشيء الذي هو به كالجزء منه، كتركيب الشجر في الشجر.

فالوارد الأول هو وارد العلم فقط، وهو الذي ذم به ابن طفيل في رسالته: «حي بن يقظان» لابن الصائغ، والثاني يقبل إذا ظهر في الذات، والثالث يشرب من عين اليقين حق اليقين، فافهم.

وهـــذا وجه لا نرضى به للنبي ﷺ ولا نختاره له، وإن كان ذكرته فهو فيك ولك لا لــــه ﷺ، ويمكن أنه أراد به الاستغفار لأمته على عدد ضروبهم، فيستغفر للعصاة بمعنى، وللطائعين بمعنى، وللمحققين بمعنى أخر عند تفكره فيهم، فإن الباقيات كثيرة لا سيما في غـــير المعصوم، ثم أضاف نفسه في استغفاره أدبًا مع ربه، وعباده وحالاً، وعلى أكمل ما يمكن، فإنه أعطى قانون الإطلاق الذي يقيد الخير بالذات كما أعطى جوامع الكلم، ولم يتكلم قط إلا بها.

وقوله هو القول الوجيز الجامع المانع ﷺ فتصفح وتتبع وفكر في مدلوله تصل، وقد يمكن أنه أراد به الانتقال من رتبة دنيا إلى رتبة قصوى، وكان يستغفر الله من السكون إلى الحالة الأولى من التحليلات، وينتقل إلى الثانية التي ترد بعدها، ويمكن أنه أراد الانفصال من متعلق معلوم حال مستجلب وارد، والاتصال بمعلوم حال أخر مثله، وجعل الاستغفار بينهما تشترك فيه ماهية الشكر مع ماهية الخوف مع ماهية الأدب مع ماهية المشاهدة مع

ماهية الاستدلال، فإن نعمة الاتصال تصحب الشكر اللغوي الثابت، وجميع ما ذكر والمشهود فيها يجب له كل ذلك، والنبي ﷺ أحق الناس بالكمالات الواجبات الحافظة الجامعة المانعة التي تفيد الحقيقة، ويحترم فيها ومعها رسم الشريعة.

ويمكن أنه أراد ﷺ به يفهمه أهل الوجه الأول من التصوف الثلاثي الذي ذكرته في الصلاة الوسطى من النسبة بين الأبرار والمقربين الذي يُقال بوجه ما على التقدم، وبوجه أخر على المتأخر، ويعتبر في حق المتأخر أنه يتأخر بالفعل عن الأول، ويعتبر في حق المتقدم وبوجه أخر على المتأخر، ويعتبر في حق المتقدم، ويتقدم بالفضل على المتأخر، ويحمل على مدلول مقام الأول بغير آلة تحمل على مدلول مقام الثاني حتى يُسمًّى سيئة الأول بنظر الإضافة، وبنظر الأولى والأخرى حسنة الآخر، وسيئة الآخر بالإضافة إلى الأول سيئة الأول، فإن السيئة مهملة الخير ومخربة نظامه، والحسنة مهملة الشر ومخربة نظامه، والسيئة هي الشر لا يتعين، وإن كان لفظها ورد بحسنة، والحسنة هي الخير بالمعنى، وإن كان لفظها ورد بسيئة، فكانت في الأول سيئة؛ لأنها أهملت من خير، وخربت نظامه، واتفقت مع السيئة التي تُقال بإطلاق في معنى الإهمال، وخالفتها في ماهية عاقبتها، وانفصلت منها بمتعلق الخطاب.

فإنه يرد على الأول بالزجر والنهي والعقاب على فعلها، وهو في الثانية التي يُقال لها بتقييد غير متعلق بشيء من ذلك، بل هي للندب أقرب، وكانت في الآخر حسنة؛ لأنها خصصت ونبثت وجمعت نظام أسباب الخير الخاص بها، وبقيت على أصلها المحمود وحدها له وجهان، وماهيتها مركبة منها، والوجه الأول الذي تنظر به إلى فوقها يعلل إطلاق حد الحسنة الإضافية، ويترك إطلاق الأول المأمور به في الشرع، والمعروف في اللغة والوجه الخاص بها الذي ينظر به إلى ماهيتها يخلص له إطلاق حد الحسنة التي تُقال في أول الأمر، وتحمل عليه فهي بهذا النظر حسنة بجهة أخرى، غير أنها سيئة لا يعاقب عليها وحسنة تنفع، وكذلك حسنة الأول التي تعتبر بالإضافة إلى حاله، وانعكست بالمضمار والإضافة سيئة لا يعاقب عليها، وحسنة ثابتة، وإنما قيل حسنة وسيئة بشرط وجود الهمة وثبوت الجد وفرغ العزم واتخاذ الحزم وحصول الاستعداد وظهور الشرف، فافهم.

والأمر فيها وارد من الهمة السنية والسيرة الجميلة، والمكلف الذي يؤمر به ويفرض عليه مثل هذا الفرض هو صاحب الهمة المذكورة، والسيرة المذكورة، والأبرار سعداء، والمقربون سعداء، والتفاضل الذي بينهما هو الذي يوجب هذا الحكم، ويعطى هذا

الاصطلاح، ويرتب هذا الترتيب فكل مقرب بَرٌّ، ولا كل بر مقرب، وكل حسنة منسوبة معتبرة سيئة بجهة، وحسنة بأخرى، وكل حسنة غير منسوبة، وغير معتبرة بغير الذي هي عليه حسنة مطلقة لا خلاف فيها، والقول على السيئة في مثل هذا مثل القول على الحسنة، فافهم.

وخلص الحسنة المعروفة الفقهية المشار إليها في التكليف العام من السيئة الموجهة، والحسنة الموجهة لئلا يختلط عليك نظام الخير والشر، والأمر والنهي.

واعتقد أن الحسنات الفقهيات متفقات بالنوع مختلفة بالعدد، وهي تعظم عليهم، وتصغر بالنظر إلى عددها وفضل متعلقاتها مثل أجر العالم، والعالم غير العامل.

والحسنات والسيئات عند الصوفية متفقة في الجنس، مختلفة بالنوع، فالتزام الاصطلاح، واتخذ مفهومه، وخاطب به بحسب أهله أمثلته، ولا تخلط في شأنه، وفرق بين ما هو كثير بالقول، وواحد بالموضوع، وبالعكس، وحَصِّل مفهوم الألفاظ وأصنافها، وخلِّص نفسك من مبهم الألفاظ الدائر بين الطلبة، وكذلك المطالب لا تغفل فيها، وقد خرج الكلام إلى غير الذي أردناه فنرجع فنقول:

لعله ﷺ حمل استغفاره في صعوده على المراتب السنية المختلفة بالإضافة إلى طالبها المتماثلة بالنظر إلى فضلها، فإنها محمودة شرعًا وعقلاً وعادةً على الوجه الذي حمل إبراهيم توجهه في المراتب الثلاثة التي فرضها على نظمه، وانتقاله على الوجه الصناعي، وجعلها هو ﷺ في باطنه كما جعلها الخليل في ظاهره، وكان إذا هم أن يقطع على حكم مرتبة ما ورد الثاني عليه، وحكم فيه قبل أن يحكم عليه، فإمَّا كان استغفاره عن الأول لما أخبر عنه، وإمَّا لما شعر به وأعطاه من محله الظاهر أن يدخل فيه، وإمَّا من تهيئه له، وإمَّا من عظيم فيضه عليه، وإمَّا من نقلته وحضوره، وبقاء محركه وتحركه وحركته، وإمَّا كان ذلك كله في حق المرتبة الواحدة، والوارد الواحد الذي أوله إعلام له، ووسطه تفكر فيه، وآخره خروج عنه، وجملة الأمر الخير لا نهاية له، وحركته لا تسكن، وفلك تدويره يتحرك بكوكب تنبيهه في القلوب بحركة فلك التخصص، وكثير الخير عنه الفاضل الحاضر مع الله المجتهد قليل، وقليل الخير عند الشرير الغافل المهمل كثير، والقناعة من الغني الأزلي حرمان، ويمكن أنه أراد ﷺ بتوبته واستغفاره وبالغان المذكور، التبدل والفيض السيال الذي يحفظ هجومه المكلف، ويقيمه بعد حين، ويصرف عليه إدراكه حتى يقع الكسب الباطن مثل الظاهر، ويقوم بالمحل إدراكًا، والخير غير معدوم، وأطلق الاستغفار والتوبة بمعنى الغيبة، وأنها عن نفسه، وجعلها من الأسماء المترادفة، ويمكن أنه أراد ﷺ صعوده

على منبر أصناف التجليات المقدسة.

ويمكن أنه أراد ﷺ ما لا يعلم الغير، وإن علمه إنما يعلم به معقول التعظيم والبركة خاصة، ويمكن أنه أراد ﷺ بذلك الأعلام بقدر الأمور الشرعية وعظمتها، والإخبار عن حاله في زمن المواهب الإلهية، وجمع في ذلك بين المقدمة الشرعية المتقدمة، وبين النتيجة المتأخرة المعروفة في عرف الصوفية الحقيقية، وأظهر شرفها لكسب مع ملازمته وعرة الأمور التي لا من جنس ما يكتسب مع ملازمته.

فقال: «إني ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم»[1]، الحديث.

---

(1) رواه مسلم (2075/4). وقال سيدي محمد وفا في المعاريج: فنظر في استغفاره ﷺ كثيرٌ من العلماء، واختلفت أقوالهم في معنى ذلك اختلافًا كثيرًا إلى أن قرب اختلافهم إلى سبعين قولاً على ما نقله بعض الرجال العلماء الراشدين من أئمة الطريق إلى الله تبارك وتعالى، وعلماء الحديث عن رسول ﷺ، ليس من قبيل الظلمة والغشاء على القلب، فإن الغشاء الوارد على القلب والتغطية إنما يرد على الكفار، فلطيفه غشاء، وكثيفه ران، وهو تراكم الغشاء وتزايد الظلمة، فإذا تكاثف الحجاب الظلمي على القلب وطمسته الظلمة طبع على القلب، وحرم النور الإسلامي، فإن لطف الحجاب وخفت الظلمة، وفتح باب البارق النوراني، ظهر لامع النور الإسلامي، ولم يبلغ الفتح باب القلب النوراني الإيماني، فإن لطف كثيف الغطاء القلبي والغشاء الحجابي ظهرت أنوار الإيمان دون لطائف حقائق أنوار الإحسان، وكلما كشف غطاء من الأغطية البطانية، والعوالم النورانية، والحقائق الروحانية، كشف الحقائق السمائية أنوار اللطائف العبدانية لبلوغ الارتقاءات العلائية للوجهة الصمدانية.

فالران: اشتداد الظلمة، والغان ضده في اشتداد النور.

فالغان: حقيقة سلطان النور الإلهي المنفهق عن القلب المحمدي، فلعظم انفهاقه واصطلامه يستلب القلب سلطان التوحيد، وعظمة الألوهية، وكبرياء الجلال، فتطالبه الحقيقة المحمدية بالرجوع للأمة، وإبلاغ الرسالة، والقيام بالأمر الربَّاني، والتنـــزيل لعمارة العوالم، والإفاضة على أرباب الأطوار، والرجوع إلى التحقق بالذل والانكسار، والمسكنة والافتقار، والقيام حيث أقامته الحقيقة الربَّانية، وجمعته اللطيفة الإنسانية، فيستغفر الله تبارك وتعالى امتثالاً لأمره العلي، ويرتقي إليه لمحضر سهي سني، ويسأله الوسيلة التي ابتغاها، والدرجة الرفيعة التي نالها وارتقاها، فللأطوار السبعة المحمدية ارتقاءات أمدية وسرمدية وأبدية وأزلية، لكل طورٍ منها عشر مقامات تبلغ إلى أعلى العلاءات، وأقصى النهايات، وهو عارج فيها على مدى الأوقات، فهي سبعون مقامًا محمدية اصطفائية أحمدية اختصاصية عبدانية رسالية صالحية إيمانية إسلامية، مناهج السالكين من الأمة المحمدية، فاستغفاره لله تعالى استنـــزالاً للرحمة الرحمانية، والرُّتبة الغفرانية، ولقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل: 20].

فالمغفرة بتقدم الرحمة، فبالغفران يستوي المحل لقبول الفيض الرحماني، والنفخ الربَّاني، فالغفر ستر

نوراني على الحقيقة البشرية، وستر ضيائي على الطور النفساني، وستر رحماني على الحقيقة القلبية المحمدية، فإن الحقيقة الخلقية والصفة البشرية لا تطيق قبول تلقي انفهاق الأنوار الضيائية، وظهور سلطان الأضواء الشمسية، فضلاً عن انفهاق الأنوار الربّانية، فيسأل الغفر لستر انفهاق النور الإلهي؛ ليثبت قلبه لقبول ما يرد عليه من أمر ربه، ولقد كان أحيانًا يقول: «يا مثبت القلوب ثبِّت قلبي على دينك».

وقيل: «قلب نبيك».

وذلك سؤال اللطف في قبول الوارد عليه ﷺ، فإن الغفر من قبيل الستر، لا مأخوذ من المغفر، والمغفر هو المتخذ لستر وجوه الإعراب، وأما كونه نورانيًا فإن حجاب النور ساتر للظلمة، وحجاب الظلمة ساتر للنور، فبظهور هذا بطون هذا، فهو ولوج نور في ظلمة، وظلمة في نور.

قال الله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: 61].

فبتنـــزل النور ترى المبصرات المفترقات، وانفهاقه وظهور سلطانه يبهر الأبصار والبصائر، فيعود الكون كالعمى لا يشهد فيه شيئًا من المخلوقات جملةً ولا تفصيلاً، فيراعي ﷺ من فهم: فقراء إلى الله أغنياء بالله، أذلة على الله، أعزة على من سوى الله، آخذون من الله، مؤثرون في استغفاره حق الله في القيام بأوامره، وحقه تعالى في القيام بدوام الحضور معه ومشاهدته، وسماع كلامه ومجالسته ومناجاته ومخاطبته، فاستغفاره استدراك للتوبة عن ملاحظة السوى، وسؤال للثبوت في الحضور، فهو في سؤاله داعٍ، وفي دعائه مضطر إلى الله، والله تبارك وتعالى مجيب دعوة المضطر إذا دعاه، فأجيبت دعوته ﷺ، وظهر أثر الإجابة حيث خُوطب في مقام الحضرة الإلهية، فقيل لَه: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

فثبت لرد الجواب عن الخطاب، وأجاب وأجاب بأفصح الجواب وقال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

فشمل أمته في جوابه عن السلام عليه بالسلام عليه وعلى عباد الله الصالحين، وذلك التثبيت في مقام الحضرة الإلهية، والمخاطبة الربّانية، وتلك درجة علية، ورُتبة سنية، لم يبلغها أحدٌ من البرية سواه ﷺ.

وأما استغفاره في كل يوم سبعين مرة فذلك الاستغفار عائدٌ على أمته، فإنه ﷺ لم يتعلّق بنيل كرامة من الكرامات الربّانية، والإفاضات الروحانية، والمقامات الإحسانية، والإضاءات النورانية، أفاضها على ذوي الفقر والمسكنة من أمته السالكين محجته، الناهجين بسبيل شريعته، وهم المقتفون آثار أقدامه، وتنقل خطواته، المنسوبون إلى إخوته، الوارثون سني شرف شرعته وعلومه، وطرق محبته، المؤثرون ذلك على أهليهم وأنفسهم وأموالهم والناس أجمعين، رضوان الله عليهم أجمعين، فهم المتحققون بالفقر الميراثي المحمدي الذي افتخر به ﷺ، فهم فقراء إلى الله، أغنياء بالله، أذلة على الله، أعزة على من سوى الله، آخذون من الله، مؤثرون عباد الله بما آتاهم الله:

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

وهو يُشير إلى تركيبه وطلوعه بالمعارف، وإلى غلبة الأحوال المنوطة بها التي تخرج السالك الصاعد عن حده الأول المركب، وتجعله في الحد الأخر البسيط حتى يلتف له ميزانه الذي صعد به، ثم يعود إليه فيحده ويقيمه مثل أوله، فشبه التفاف الأمر عليه بالغان، والغان في اللغة: هو النبات الملتف الطويل، والاستغفار والتوبة إخباره بموازينه، وإحضار مكلفه في شأنه ورجوعه إليه.

والعدد الذي حصره في سبعين إمَّا للتعظيم، وإمَّا مراتب محصورة، وإمَّا مقامه اقتضى هذا، وإمَّا كان في وقت ما وانتقل عنه إلى أكبر إن جعلنا غدد الاستغفار أشرف، وإن جعلنا أن الأقل من الغيبة والفنا أفضل حتى يثبت في أموره، وترد عليه كما ترد المعروفة عنده، ويكون شخصه الطبيعي يتحرك مع الغير، ومحموله الروحاني يركب أحواله.

قلنا فيها: نقصت حتى بقيت في ماهية ذاتها، فإن كان هذا للبشر ضرورة في مثل هذا المواطن حملناه عليه، وإن كان في العالم الأول، وهو صوفي خاصة أطلقناه عليه بتقييد، فاعلم ذلك.

ويمكن أنه أراد ﷺ السلب والإيجاب، ودورانهما في الخلد على نقطة الاقتصاد والإفراط والتقصير، فانظر.

وإياك أن تحمل ذنوب الأنبياء على عُرفك، واعتقد أنها على حكمها في مثلهم، وبقياس ما تقدم، واجعلها نعمة، فإنها وردت لأمور نافعة، ولأحكام وقعت بعدها ينتفع بها الإنسان الذي يستعين به المذنب.

واحذر أن تقرأ قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 43]، الآية، فتتوهم أنها جاءت على محظور فتدخل في سخط الله، وأنت لا تعلم.

واعلم أن الكلام في هذه الآية يحتاج إليه، فإنها من أمهات العقائد والمشكلات، إلا على آحاد من الناس.

وقد صح أن رسول الله ﷺ، وسائر الأنبياء ما يرتكبون محظورًا، ولا يقع منهم، وأن ما نسب إليهم من ذلك باطل، وما ورد في القرآن صحيح لا محظور في شيء منه، وإنما هي تأويلات واجتهادات، وقع فيها تقصير ينجر فيها العفو لما تقدم فيه من الصفح،

= وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 170].

فهذه لطيفة من بعض أوصاف العارفين، وصفة من صفات المحبين الوارثين لرسول الله رب العالمين، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وحفظ المرتبة، والخلافة التي وضعها لهم، ونصبها من أجلهم، ونصبهم لها[1].

(1) القائلون بالعصمة فريقان: من زعم أن المعصوم لا يتمكن من المعصية ومن قال أنه يتمكن، والأولون قالوا أنه يكون مختصاً في بدنه، أو نفسه بخاصية تقتضي إمتناع إقدامه على المعاصي، ويقرب منه قول الأشعري أن العصمة هي القدرة على الطاعة أو عدم القدرة على المعصية.
ومن جعله متمكناً قال: إن الله تعالى يفعل في حقه لطفاً لا يكون له مع ذلك داع إلى ترك الطاعة، وارتكاب المعصية وهو رأي المعتزلة وعنوا باللطف حالاً من المكلف يكون معها إلى الطاعة، والإجتناب عن المعصية أقرب بشرط ألا ينتهي إلى حد الالجاء وهذا القول قريب من قول الحكماء: إنه الموصوف بملكه لا تصدر معها المعاصي، ويكون متمكناً، وسموها عفة.
وهذا المذهب أقرب؛ لأن عدم المعصية لو كان لعدم التمكن لما استحق المدح، والثواب، ولقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف: من الآية 110). وقوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ (الاسراء: من الآية 39) والنهي مع عدم القدرة عبث.
ثم هؤلاء زعموا أن العصمة إنما يتم بأربعة أمور:
فالأول – أن تكون لنفسه، أو لبدنه صفة تمنعه عن الفجور.
الثاني – أن يحصل له العلم بحسن الطاعات، وقبح المعاصي.
الثالث – أن تتأكد تلك العلوم بتتابع الوحي، والبيان من الله تعالى.
الرابع – أنه متى صدر عنه أمر من ترك الأولى، أو النسيان لم يترك مهملاً بل يعاتب، وينبه عليه، ويضيق الأمر عليه فيه.
وفيه نظر؛ لأن أكثر الأئمة يقولون: بعصمة الملائكة، والأئمة وبعصمة حواء، ومريم، وفاطمة رضي الله عنهم، ولم يقولوا بالوحي إليهم والحق أنه يكفي في العصمة العفة، والعلم بحسن الطاعات، وقبح المعاصي. ثم اتفقت الأمة على كون الأنبياء معصومين عن الكفر إلا الفضيلية من الخوارج فإنهم اعتقدوا أن المعصية كفر، وجوزوا المعصية عليهم، ومن الناس من لا يجوز الكفر، ولكن جوز إظهاره على سبيل التقية صوناً للنفس عن الهلاك، وذلك باطل؛ لإفضائه إلى إخفاء الدين بالكلية؛ لأن أولى الأوقات بالتقية وقت ظهور الدعوة؛ لكون الخلق منكرين في ذلك الوقت، مريدين هلاكه ولأن الخوف الشديد كان حاصلاً لإبراهيم عليه السلام زمان نمرود، ولموسى عليه السلام زمان فرعون، وكذا لغيرهم من الأنبياء زمان دعوتهم مع أنهم لم يمتنعوا عن إظهار الدين.
ومن الناس من لا يجوز الكفر، ولا إظهاره، ولكن جوز الكبائر عليهم والأكثرون نفوها واحتجوا بأن الأنبياء لكونهم أعلم بقبح الفواحش وافر قبالاً على الأنوار الإلهية كان صدور الذنب عنهم أفحش وكانوا أقل درجة من عصاة الأمة والذين لم يجوزوا الكبائر فقد اختلفوا في الصغائر، واتفق الأكثرون علي أنه لا يجوز منهم الإقدام علي المعصية قصدا سواء كانت صغيرة أو كبيرة؛ بل يجوز منهم صدورها علي أحد وجوه ثلاثة:
فالأول: السهو والنسيان
والثاني: ترك الأولى

وللعلماء في ذلك منازع مخلَّصة وملخَّصة، وللسائل أن يقول: مفهوم هذه الآية المذكور فعله بغير أمر، أعني الإذن الذي نبه عليهم كما فعل بالأسرى في يوم بدر فعاتبه الله على ذلك، ويمكن فيه أنه أخبره أن يمسك القضاء في الأمور المحتملة حتى يخصها، بخلاف ما نحن عليه، وهذا تعظيم له وأخبار بمزيته وشرف مرتبته، وكأنه قال له: الأمور التي تحتمل أمرين فصاعدًا، ويجتهد الغير فيها، ويعذر في اجتهاده كف أنت القضاء فيه بالاجتهاد المذكور، فإنك تعلم بالوجه الصحيح الذي لا احتمال فيه، واطلب أمورك كلها بكليات الوحي، وبه احكم وعليه عول فاطلب.

فكان ذلك خيرًا عظيمًا، وتقريرًا على مكانته ﷺ، ويمكن في هذه الآية أن الله ﷻ قال لنبيه ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 43]، حتى تعلم الصادق، والذي يمشي نحو الصواب، والكاذب الذي لا خير فيه، ويمكن أنه أمره بإخراج الجميع فأخرج البعض، ويمكن أنه أراد تعلم العفو قبل العتاب؛ إظهارًا لكراماته، ومراعاة لطيب نفسه، والمختار ﷺ لم يركب قط محظورًا، وإنما، والله أعلم، ترك الله فعاتبه الله، وقدم لكرامته العفو على الخطاب الذي جاء في صورة العتاب.

ومن جوز الخطأ على الأنبياء قال: قابله بالعفو قبل أن أوقفه على ذنبه للفوز بمحبته، فإن حسنات الأعداء مردودة، وسيئات الأحباب مغفورة.

وقد يمكن أنه أراد بذلك ﷻ التقرير على جهة التعليم، واستفتح الخطاب بالعفو جعله أول الكلام كما تقول: «السلام عليك ورحمة الله» أو «رضي الله عنك» في بعض المخاطبات أول كلامك.

وقد اختلف المفسرون: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2]. فقال الأكثرون: ما تقدم قبل الرسالة، وما تأخر بعدها، وقال أخرون: ما تقدم من ذنب أبيك آدم، وما تأخر من ذنب أمتك؛ لأن بك تبت على آدم، وأنت شفيع لأمتك فيمنن بذلك عليه.

وقال آخرون: ما تقدم من ذنبك: أي من ذنب أبيك إبراهيم، وما تأخر من ذنوب النبيين من أجلك تبت عليهم.

وقال آخرون: ما تقدم من ذنبك يوم بدر، وما تأخر من ذنبك يوم هوازن، وذلك أنه

-
الثالث: إشتباه المنهي بالمباح. وانظر: الصحائف الإلهية (ص 173).

قال ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض أبدًا»[1]؛ فكان هذا الذنب المتقدم، وأمَّا المتأخر، فقال يوم هوازن، وقد انهزم أصحابه لعمه العباس، ولابن عمه أبي سفيان بن الحارث: «ناولاني كفًا من حصى الوادي»[2]، فناولاه؛ فاستقبل به وجوه المشركين، وقال: «شاهت الوجوه حم لا ينصرون»[3]، وكانوا أربعين ألفًا فما بقي منهم رجل إلا امتلأت عيناه رملاً وحصى؛ فانهزم القوم عن آخرهم.

فلمَّا رجع أصحابه إليه قال لهم: «لو لم أرمهم لم ينهزموا»[4]، فنـــزلت هذه الآية: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـــكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17]، فإن قال قائل: كيف أثبت الرمي ثم نفاه عنه؟ فالجواب عن ذلك: أن الرمي يحتوى على أربعة أشياء: على القبض والإرسال والتبليغ والإصابة، فكان القبض والإرسال من رسول الله ﷺ، والتبليغ والإصابة من الله ﷻ.

فاحذر أيها المرحوم أن تهمل قدر النبوة، وتتهم أحوالهم، وتقدر فيهم غير الذي يجب لهم؛ فتهلك في الدنيا والآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، واحذر أن تعتقد في العصاة من أمته أنه إذا مات يعاقب على كل حال، وافهم الكلام الأول فيه، وفوض أمره إلى الله، فإن عاقبه بذلك فبعد له، وإن تجاوز عنه، فذلك من فضله ورحمته.

وإن قلت في سرك إن العفو غير جائز، وواجب على الله أن يعذب كل مصرٍّ بطول الأبد فتفسق وتلحق بالمعتزلة، واحذر كل الحذر أن تنكر تشفيع الشفعاء، وحط أوزار المجرمين شفاعتهم، فتكون من المعتزلة ومن الوعيدية، ولا تنكر الصفح والعفو أبدًا من الله تعالى، والشفاعة جائزة بالعقل وصحيحة في الشرع، والإجماع من أهل السنة على صدقها، والنصوص تشهد أنها في أهل الكبائر والصغائر، ويدخل تحتها كل مذنب من المِلَّة حتى القائل بتكذيبها.

قال: ﷺ «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[5].

وقال في الشفاعة: «لا تحسبوها للمتقين إنما هي للخاطئين المتلوثين»[6].

---

(1) رواه أحمد (30/1)، والطبري في تفسيره (190/9).

(2) رواه الطبراني في الكبير (298/7). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (184/6).

(3) تقدم تخريجه.

(4) ذكره القرطبي في تفسيره (263/16).

(5) رواه أحمد (213/3)، وابن حبان (387/14).

(6) لم أقف عليه هكذا.

ولم يذكر أهل الصغائر؛ لكونها معفوًا عنها، وقال ﷺ : «خيرت في الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة فإنها أشفي»[1].

واحذر أن تعتقد أن التائب من ذنب ما وهو يفعل غيره أنه غير تائب من الذنوب المذكورة حتى يقلع عن الجميع، فتكون من المعتزلة، وأنت لا تعلم، وإياك أن تتوهم أن ذلك أكمل، ويحملك على ذلك نوعك السخيف، وتتخيل أن ذلك من الاحتياط فتهلك، ومذهب أكثر المعتزلة أن الكبيرة الواحدة تحط ثواب جميع الطاعات وإن كثرت، ومنهم من قال: الكبائر لا تهمل ثواب الحسنات إلا إذا زادت كميتها عليها، والحسنات كذلك بعكس هذا، إذا زادت دارت السيئات، وأظنه مذهب الجبائي وابنه، واحذر أن يختلط عليك نظام الكبائر مع الصغائر، ويصعب عليك الفصل بينهما.

وتقول: كل ما يعصى الله به كبيرة، وتطلق ذلك من غير أن تعتبره فتشفي، وإنما المرضي عند أهل السنة في ذلك أن يبين بين المذنب الكبير والصغير، ثم يطلق من حيث مخالفته الأمر، ومحاربة الله، أن الجملة كبائر بالنظر إلى الأدب، ومتعلق كل ذنب مفهوم عند التحصيل، ومن الحدود الشرعية والعقاب تظهر فصولها، ومن الناس من عددها وفصلها أعني: الكبائر من الصغائر، ومنهم من أضرب عن ذلك، وجعلها متماثلة أدبًا مع الله تعالى.

واحذر أن تعتقد في المذنب الذي يذنب الذنب الواحد ولم يرشد للتوبة أن عمله لا خير فيه، وإن مات فهو في النار، ويستوجب الخلود فتكون من الخوارج، وإن سميت المؤمن باقتراب الزلات كافرًا فأنت منهم، وقد قال بعض الخوارج: ما هو الكفر المعروف بإنكار الربوبية وجحودها، وإنما هو المأخوذ من كفران النعم.

والأزارقة منهم تقول: العاصي كافر بالله كفر شرك، وأكثر المعتزلة قسمت الذنوب إلى كبائر وصغائر، واحذر أن تعتقد في الثواب والعقاب غير الذي يعتقده أهل الحق صحيحًا على غاية الصحة، وقوة الإدراك وطريقتها أيضًا، وإن كانا صحيحين على غاية الصحة قد يؤديان إلى الخطأ إذا لم تزل عنهما العوارض التي لها، فإن هذا القياس القائل إن كل قابل بذاته أنه حجر، فهو قابل أنه جوهر، وكل قابل أنه جوهر فهو صادق؛ فينتج من ذلك أن كل قابل له أنه حجر فهو صادق، فقد أدى ذلك إلى كذب ظاهر على أن نظم القياس صحيح، ومقدمتاه صادقتان؛ لأن التأمل من جميع الجهات في مدة القياس وهي

(1) رواه الترمذي (627/4)، وابن ماجه (1441/2).

المقدمات، وإحضار الذهن في معانيها ولزومها مفردة ومركبة.

والحس والتخيل يكفي فيهما أمران وهما ينتجهما حصول المحسوس أول التخيل بحيث يمكن إحساسه وتخيله فيهما على ما هو به عليه، وفي هذه المقدمة المذكورة الوقوف على اليقين في أنواع العلم بالمنعم الأول؛ لأنه أكثر فيضًا من المنعم الغريب، وأنه هو بوجه ما، والعلم بأن كل آنية متقدمة على هوية ما بعدها، وهي في المبادئ الأول، فهي إمَّا أعلى من الدهر وقبله ومعه، وإمَّا بعده وفوق الزمان والعلم بأن كل نفس شريفة أجزاء ماهيتها ثلاثة: أولها يعرف بالنفساني، وثانيها العقلي، وثالثها إلهي، وهذا في فعلها المختلط المضاف المحمول فيها بوجه ما، والعلم بأن الأشياء المخترعة المبدعة بالكون المنسوب اللازم بالبُد الذاهب بالماهية المنفعلة، أولها الآنية التي ليس وراءها مبدع آخر؛ لأنها فوق الحس وفوق النفس وفوق العقل، ولا يمكن أن يوجد بعد الأول الحق أوسع متعلقات، ولا أكثر معلومات منها، والعلم بأن ذات الرحمن الرحيم الكريم العظيم الله الذي لا إله إلا هو أعلى من الصفة وأعز، والألسن عاجزة عن صفته المقدسة، فإنها أعظم من أن أكثر من الذي يجب لها، وتتنـــزه عن أن يعلم قدر كنها أحد، وتحل أن تحد بحد الذي هي عليه.

فإذًا المقتصد في الثناء عليها والمطفف والمقصر والجميع على خطر؛ لأنها فوق كل آنية وفوق كل عِلَّة، وإنما وصفت بالذات التي تنير بذاتها وتنير معلولها، وهي لا تستنير به، ولا بنور آخر؛ لأنها هي النور المحض الذي ليس فوقه نور؛ ولهذا قيل في ذات الأول الحق إنها الذات التي تفوق كل ذات، وهي التي يفوتها إطلاق الصفة على ما يعلم الأشعري، وغيره من الضعفاء، وإنما كان ذلك؛ لأنه ليس فوقها ذات تعرف بها، وكل شيء إنما يعرف بوصف من تلقاء عِلَّته، فإذا كان الشيء عِلَّة فقط، وليس بمعلول لم يعلم بعِلَّة أولى، ولا يوصف كما يصفه المتكلمون؛ لأنه أعلى من صفة تبلغه المنطق، وأن تلك الصفة إنما تكون بالمنطق، والمنطق بالعقل، والعقل بالفكر، والفكر بالوهم، والوهم بالحس.

والأول الحق فوق الأشياء كلها، والعلم بأن العقل جوهر لا يتجزأ، والعلم بأن كل عقل يعلم ما فوقه وما تحته إلا أنه يعلم ما تحته؛ لأنه عِلَّة له، ويعلم ما فوقه؛ لأنه يستفيد منه الوجود والفضائل، والعلم بأن كل عقل لا يثبت، ولا يمكن فيه الخير إلا بالله، والعلم بأن قوة العقل وجوهره وماهية كماله أشد وحدانية من الذي بعده، والعلم بأن كل عقل لا شيء فيه خارج عن النظام القديم، وأنه مملوء صورًا، وأن من المعقول ما يتصل بمكان شرفه أن يحيط بالبعض الذي هو أقل كلية، ومنها ما يحيط بأكثر كلية، والعلم بأن العقل

فيه صورة كل شيء، وأن ما يليه تصوره له على التفصيل، وما يبعد عنه بعلمه بالتضمن، وهو يعقل الأشياء دائمة لا انقطاع لها، ولا يتبدل عن متعلقها الخاص به، وأنه من حيث العقل لا تدخل تحت الزمان والمكان، والعلم بأن الأشياء المتقدمة المضافة بالحال الأول وبالعرض اللازم بعضها في بعض بالقصد والعرض وبالنوع الذي يجمل أن يكون به أحدهما في الأخر.

ومفهوم هذا اعتبارك الآنية التي تجد فيها الحياة والعقل، وفي الحياة الآنية والعقل، وفي العقل الآنية والحياة، إلا أن الآنية والحياة في العقل عقلان، والآنية والعقل في الحياة حياتان، والعقل والحياة في الآنية آنيتان، والعلم بأن كل عقل يعقل ذاته، وذلك أنه عاقل ومعقول معًا، وكل نفس فإن الأشياء الحسية فيها؛ لأنها مثل لها، والأشياء العقلية فيها؛ لأنها علم لها، وإنما صارت كذلك؛ لأنها متوسطة بين الأشياء العقلية التي لا تتحرك، وبين الأشياء الحسية التي تتحرك، والعلم بأن كل عالم يعلم ذاته فهو راجع على ذاته رجوعًا عامًّا تامًّا، والعلم بأن كل القوة التي لا نهاية لها متعلقة بما لا نهاية له إلا الأولى التي هي قوة القوى؛ لأنها مفيدة ثابتة قائمة في الأشياء القوية؛ بل هي قوة للأشياء المقومة ذات الذوات منسوبة إلى ذات الذوات.

والعلم بأن كل قوة متوحدة وتر الذات الجوهرية هي أكثر بلا نهاية من غير شك في ذلك من القوة المتكثرة، وذلك لقربها من الواحد الحق، والعلم بأن الأشياء كلها راجعة إلى هويات، وهي منها، وإليها هي راجعة الهوية القديمة، والعلم بأن الأشياء الحية المخترعة متحركة بذاتها من أجل قربها من الحي الذي لا أول لحياته من غيره، والعلم بأن الأشياء العقلية كلها ذوات علم من أجل العقل الأول المبدع الذي ظهر عليه التخصيص الأول، والعلم بأن من الجوهر الروحانية ما هو سعيد معظم؛ لأنه يقبل من الفضائل الأول التي تنبجس من الذات القديمة قبولاً كثيرًا، ومنها ما هو روحاني فقط؛ لأنه لا ينال من الكمالات الأول إلا بتوسط الذوات الأول، ومن النفوس ما هي نفس عقلية؛ لأنها متعلقة بالعقل، ومنها ما هي نفس فقط، ومن الأجرام الطبيعية مالها نفس تحركها، وتقوم عليها، ومنها ما هي إجرام طبيعية فقط ولا نفس لها، والعلم بأن الله يدبر الأشياء المخترعة المبدعة كلها من غير أن يختلط بها.

وذلك أن التدبير لا يضعف وحدانية الغريزة القابلة على كل شيء، ولا يوهنها، ولا تمنعه ماهية المباينة للأشياء من أن يدبر الأشياء، والعلم بأن الأول الحق لا يحتاج إلى غيره، وأنه قائم بنفسه، وهو العظيم الأعلى، وتحقق ذلك بالوحدانية التي هي نفس

ماهيته، لا أنها محمولة عليه مبثوثة فيه، ولا كما هي في الجواهر الروحانية المذكورة؛ بل هي وحدانية محضة؛ لأنها مبسوطة في غاية البساطة والتنـــزيه، والعلم بأن الذات الأزلية فوق ما يتوهم الحكيم بصنائعه، وفوق كل اسم تسمى به؛ لأنها لا يليق بها تعليل الصنائع، ولا يفرض التمام والنقصان عليها، لأن الناقص غير تام، ولا يستطيع على تكميل شيء، ولا أن يفعل فعلاً تامًّا.

والتام وإن كان مكتفي الوجود بنفسه، فإنه غير قدير على إيجاد الأشياء المذكورة قبل، والعلم بأن الروح الكلي الذي يطلق بأسماء مختلفة ويتنوَّع منه الاسم عند الحكماء وأهل الحق من الشرائع، ويعرف موجده ويدبر بعض الأشياء، وبالذي يدبره هو إلهي، وهو لله خاصة، وبالذي يعلمها هو عقل، فإن خاصة العقل العلم؛ بل ماهيته العلم وكماله وتمامه أن يكون مدبرًا عالمًا، والعلم بأن واجب الوجود موجود مع الأشياء، ومقوم لوجودها على حالة واحدة، وليست الأشياء المنفعلة المخترعة موجودة فيه على حالة واحدة، كل شيء من الجواهر الروحانية يأخذ منها بقدر قوته، وبالذي جعل فيه من القبول.

ومنها ما يقبله قبولاً واحدًا، ومنها بضد ذلك، ومنها ما يقبله قبولا دهريًّا، ومنها ما يقبله قبولاً زمانيًّا، ومنها ما يقبله قبولاً روحانيًّا، ومنها ما يقبله قبولاً جرمانيًّا، والعلم بأن الأول الحق في غاية من التنـــزيه، وأن وحدته تامة، وأنه منـــزَّه عن الذي قاله الرواقيون، فإنهم يعتقدون أنه ناشب في الأشياء، وأنه لبس كرة العالم، وهو بالبرهان ألزم وأوكد في الأشياء مما قالوه، فلا أدركوا حقيقة التنـــزيه، ولا قدروا الله حق قدره، والعلم بأن الجواهر العقلية غير متكونة من متقدم عليها يكون مثلها، وكل جوهر قائم بذاته فهو غير متكون من شيء آخر، وإنما أوله وسببه وأصله وبده كلمة الحق التي تتعلق بالمعدوم وتوجده وتتعلق بالموجود وتعدمه، وتتعلق بالحادث وتتركه على حاله، وبالجملة هي القائمة على كل شيء ومبدعة كل شيء ومبقية كل شيء.

والعلم بأن كل جوهر قائم بنفسه قد خصصه الحق وأبرزه لمطالعة جلاله، وأظهر عليه كل شرف محمود، فإنه غير واقع تحت الفساد، والعلم بأن كل جوهر متغير دائر غير ثابت على حالة واحدة فهو إمَّا تحت الأشياء المتركبة، وإمَّا محمول على موضوع أخر غير ذاته، وذلك أن الجوهر إمَّا أن يكون منتقضًا إلى الأشياء التي منها تكون فيكون مركبًا منها، وإمَّا أن يكون محتاجًا في ثباته وقوامه إلى حامل، فإذا فارق حامله فَسَدَ ودَثُر، فإن لم يكن الجوهر مركبًا ولا محمولاً كان مبسوطًا، وكان دائمًا لا يدثر ولا ينتفض البتة.

والعلم بأن كل جوهر قائم بنفسه مبسوط لا يتجزأ، والعلم بأن كل جوهر قائم بنفسه[1]. أعني: ذاته فإنه مبتدع دون زمان، وهو في جوهريته أعلى من الجواهر الزمانية،

---

(1) فائدة: قال الشمس السمرقندي في الجـواهر: وفيه صحيفتان؛ لأن الجوهر إما جرماني أو روحاني
الصحيفة الأولى: في الجواهر الجرمانية وهي الجسم، وأجزاؤه وفيها:
الفصل الأول: في تعْريف الجسْم وَفي اختلاَف المذَاهب في تحقيق ذَاته.
عرفه المتقدمون بأنه: جوهر ذو أبعاد ثلاثة وهي الطول والعرض والعمق، وقالت الأشاعرة: أنه متحيز قابل للقسمة. فعلى هذا يكون المركب من حوهرين فرديين جسماً عندهم وزعموا أنه لا يحصل بأقل من ثمانية جواهر.
وقالت المعتزلة: إنه متحيز ذو أبعاد ثلاثه، وقال الكعبي: وقد يحصل بأربعة بأن تكون ثلاثة كمثلث، ورابعها فوقها فيحصل مخروط ذو أربعة أضلاع مثلثات. هذا ما قيل في تعريفه.
واختلف أهل العلم في تحقيق ذاته في مذاهب إنحصرت في ستة؛ لأن الجسم إما أن يكون ذا مفاصل بالفعل، أو لا، والأول إما أن يكون تآلفه من أجزاء لا تتجزأ، أو لا، والأول إما من أجزاء متناهية، أو لا. والثاني إما من أجسام صغار أو لا والأول مذهب جمهور المتكلمين، وبعض الحكماء المتقدمين والثاني منسوب إلى النظام من قدماء المعتزلة
والثالث مذهب ديمقراطيس؛ لأنه زعم أنها أجسام صغار لا تقبل القسمة لصغرها، والرابع مذهب قوم من الأقدمين الذين زعموا: أنها خطوط. والثاني: وهو ألا تكون مفاصله بالفعل لا يخلو من أن تكون إنقساماته الممكنة متناهية أو لا. والأول ينسب إلى محمد الشهرستاني، ومذهبه كمذهب الحكماء أن الجسم مركب من الهيولي، والصورة، والثاني مذهب جمهور الفلاسفة.
الفصل الثاني: في الجُزء الذي لايتجَزّأ.
واختلفوا في وجوده:
فأنكره جمهور الفلاسفة، وأثبته المتكلمون، وقوم من قدماء الفلاسفة
والمراد به: متحيِّز لا ينقسم بالفك والقطع، ولا بالوهم، والفرض.
وإحتجت الفلاسفة على إنتفائه بوجوه:
فالأول: لو فرضنا أجزاء ثلاثة متماسة تلقى الوسط لكل من الطرفين بغير ما تلقى به الآخر فيلزم تجزئة الوسط.
وجوابه أن الملاقاة إنما تكون بالنهاية فيلزم نهايتان لا جزءان.
الثاني: الصحيفة المركبة من أجزاء لا تتجزأ إذا نظرنا إليها رأينا أحد وجهيها دون الثاني فتغاير الوجهان، ولزم الانقسام.
وجوابه: أن المرئي، وغير المرئي هما النهايتان كما مرَّ.
الثالث: إذا فرضنا خطاً من أربعة أجزاء، ووضعنا فوق طرفه الأيمن جزءاً، وتحت طرفه الأيسر جزءاً فإذا تحركا معا فلا بدّ من تحاذيهما وهو على متصل الثاني، والثالث فيقع المتصل على
=

والعلم بأن كل جوهر اخترع في زمان إمَّا أن يكون دائمًا في الزمان، والزمان غير فاضل عنه؛ لأنه ابتداع والزمان سواء، وإمَّا أن يكون منفصلاً عن الزمان، والزمان يفضل عليه؛ لأنه في بعض أوقات الزمان.

والعلم بأن الذي جوهره وفعله في حيز الدهر بينه وبين الذي جوهره وفعله في حيز الزمان موجود متوسط، وهو الذي جوهره في حيز الدهر وفعله في حيز الزمان، والعلم بأن كل جوهر واقع في بعض حالاته تحت الدهر وواقع في بعض حالاته تحت الزمان، فذلك الجوهر هو هُويةٌ وكونٌ معًا.

فهذه هي المقدمة التي جعلتها لك شبه المدخل إلى كلامي، أعزك الله قد فرغ منها، وقد تمت أجزاؤها، وبينت مقاصدها بحسب التحقيق، وذلك من ذكر رسائلي وتقييداتي وبحسب الصم السعداء، والصم الذين توسطوا بين السعداء والأشقياء عند ذكر التحرز والحض على الحكمة، وعند وصف أنواع الخبر المطلوب الذي قبل هذا التقييد، فافهم، واعلم أن الصم السعداء هم الذين حصلوا علوم الشريعة الظاهرة والباطنة، وتخلقوا بها واستجابوا لله ورسوله بغير هوية الإنسان، وأنواعهم تسعة على عدة رتب الحبل، فإنهم

وسطهما، وطرفاهما على وسط الثاني، والثالث، ولزم إنقسامهما.

وجوابه: لم لا يجوز أن يقعا على نفس المتصل.

الرابع: نفرض لحجر الرحى طوقان: عظيم، وصغير فإذا قطع العظيم جزءاً فإن قطع الصغير جزءاً ساوت الحركتان مع أن حركة العظيم أسرع، وإن قطع أقل لزم إنقسام الجزء، وإن لم يتحرك شيئاً لزم تفكك الرحى. والمشاهدة تكذبه.

وجوابه: لانسلم أنه يمكن أن يتحرك جزء؛ إذ الحركه تستدعي امتداداً ولا إمتداد لجزئه.

الخامس: الجزء متناه فله إما حد واحد، أو حدود، والثاني مضلع والمضلع قابل للقسمه، والأول كرة والكرات إذا إنضم بعضها إلى بعض حصل بينها فرج أصغرمنها، ولزم إنقسام الجزء.

وجوابه: أن ذلك إنما يلزم في الكرات الجسمية؛ لأنها إذا تلاقت تحصل مثلثات من كل ثلاث أكر زواياها عند نقطة السامية وتبقى أوساطاً لمثلثات خالية، وأما في الأجزاء فذلك ممتنع إذ لا يكون بين المماستين من جزئين إمتداد ليصير ضلع المثلث فلا يتحقق المثلث، ولا الخلو.

السادس: برهن إقليدس في الشكل العاشر من المقالة الأولى: أن كل خط يمكن تنصيفه فالمركب من العدد الفرد إذا نصف تجزأ الوسط.

وجوابه: أن ذلك الشكل موقوف على إنتفاء الجزء، فلو بنى إنتقاء الجزء عليه لزم الدور؛ وذلك لأنه بيّنه هكذا: إذ أردنا أن نصف خطاً مستقيماً وليكن خط ا ب نعمل عليه مثلث متساوي الأضلاع.. وانظر: الصحائف (ص 93).

فهموا أمثلته، ولم يكشفوها، وهم الذين يخاطبهم التعليم ويتكلم معهم بالشك المضاف إلى إرشاد التنبيه.

والصم الذين توسطوا بين السعداء من الصم والأشقياء: منهم الفلاسفة، وأنواعهم أربعة: النوع الأول: هو الذي تحته كل من يحمد قبل الشريعة وبعدها، والثاني: هو الذي تحته من يذم قبلها ويحمد بعدها، والثالث: هو الذي تحته من يحمد قبلها ويذم بعدها، والرابع: هو الذي تحته ضد الأول.

وقد فسرت مقصود هذا الإطلاق وبينته وتكلمت على كل نوع بما فيه في كتاب أبي صالح تقي الدين بن صالح المالقي، وفقه الله للخير، فانظره حيث ذكر، واجعله في ظهر هذه «الرسالة الرضوانية» وارسم عليه حاشية، وكذلك من يرسمها بعدك، والتعليم لا يتكلم إلا معهم خاصة، والغير لا يلتفت إليهم ومكالمتهم ساقطة عنده، فإذا خلصهم ونوبهم إليه تكلم مع من فوقه، ثم انطبع وفوض الأمر إلى الذي فوقه، وكذلك الأمر في الرتب التسع، فإنها غير مستقلة بذواتها والسفر مستقلة، وكل سفرة تزعم أنها مكتفية ومن وسائلها تجذب، ولولا هي لثبتت على حالها، فإذا فهمت ما فوقها رجعت بالقهقرى على ذاتها بها لمستقراً على ذاتها، وجردت النظر في صناعتها وينفتح لها ما لم تعلم قبل.

وكذلك تفعل سبع مرات، ثم تدخل ولا رجع إلى شأنها الأول، ولا تستطيع، فإذا وصلت إلى سدرتها اتحدت وركبت الصنائع المذكورة، وكلمت بشيء أخر وفعلت بمقتضاه وجددت الفعل بالإذن المستمر عليها حتى تصل إلى سدرة سدرتها الأولى وتشاهد وتمكن من مطالبها كلها، وتقرر على المتقدم والمتأخر، ويمتد تقريرها حتى إلى سدرة سدرة سدرتها وتُمات وتُحيى حياة طيبة، وتقام إلى الفتح والنصر والرضوان، وتشاهد به ما لم تشاهد بالوحدة المرحلة.

وإن كانت قد شاهدت الحق وكلمته فهي الآن بحيث لا يمكن أن تعمه عن نفسها وكمالها وعلو درجاتها، فإذا بلغت التسعين سفرة أقيم لها سفرة لكل سفرة تعلل صنائعها وتحرر وسائلها وتصلح شأنها، وتسمى إنسانها، فإذا تخلصت حمل عليها مطالعة المنوطات، وعند ذلك يقع الحق على كله، وتتخلص الخلاص المحمود الذي لا شين به يمكن من أصناف المطالعات، ويظفر بنعيم الملك، ويصرف المائة رحمة إذًا بترجيح، ويستقيم على طريقة الرضوان المرتقب.

وما فوق المنوطات لا يتكلم عليه إلا بالإذن، والسفرة المذكورة هي نفسك، فإنها هي الذي تتحرك هذه الحركات بصنائع التخصيص النازلة من السماء النـــزول اللائق بها،

وهي المدبرة لها وبها وحيثما يصل علمها ذاتها، فإطلاق لفظ السفر والنفس يكون عندي بمعنى واحد، وكأنها مترادفة معها، وكل سفرة لها وسيلة، وهي داخلة تحت سدرتها والسدرة الأولى تُسمَّى سدرة مشكاة المصباح المقدس، والثانية تُسمَّى سدرة نور الغيث، والثالثة تُسمَّى سدرة نور نوني إنني أنا الله، وكل سدرة تحتها سدر سفرة، والسبع مرات تحت السدرة الأولى تتوجه فيها، وتتخذ معها، وتجمع وسائلها، ويكون من مجموعها ذاتها وجميع ما تحت الثانية كذلك، إلا أنها غير متحدة بالذات، والثالثة كذلك إلا أنها لا تتحرك في الأولى والثانية، ولا يخبر عنها، والثلاث سفر بعد التسعين سفرة كل واحدة منها أعني: من الثلاث وسيلة كل سدرة وسفرتها حتى تتجمع من الثلاث سفر، ومن التسعين سفرة وسيلة مخاطبة المنوطات، فافهم وقدر تطورها.

واعلم أن المختار العربي السيد فوق هذا كله، ودرجته أعلى من درجات الأنبياء، فإنه فوق المنوطات، وعالم الصديق، وهو آخر الاسم والرفيق صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء.

وإياك وإهمال الظاهر، فوالله الذي لا اله إلا هو ما تخرج إلا عن طريق السعداء والعقلاء والحكماء، وكما لقدم إنسانيتك تستقر كذلك لقدم شخصك مستقر، ولعالم الهيولى موضوع تخصيصه، ولعالم الذوات المجردة موضع تخصيصها، نفس بنفسك وحسك وأعط لكل عالم حقه تجد الجسم له عالم في مكانه وزمانه، والنفس لها عالمها وترتيب وشأنها وأحوالها، فمن كذب ظاهر الأمر، وحمله تأويله السخيف، واستمر على إنكاره نـــزل إلى محل رعونته، واخلد بجملته إلى الأرض الثالث المثالث، ودفع بأمر الله وسرقه القول عن الهويات المستقيمات، والآنيات المتصلات بأيدي الصور الخيالية، ووبخ بالزجر التابع لماهيته أينما كانت من المراتب العقلية والحسية وخفض، وحيث ظن أنه بلغ وصعد منازل التوجه فيه أبلس ورفض.

والموضع الذي توهم أنه أوج الكمال هو الحضيض له وأنـــزل، وفي الذي زعم أن يدفع خبره ويطلب المشاهدة فيه هو العذاب الأليم؛ بل هو أجزل، وبقدر حاله وتصديقه لشأنه الخسيس، يكون بعده وصرف وجهه عن مقابلة إنسانه الرئيس، وأعوذ بالله من الحرمان الذي يحيد عنه، ويفيد الإنسان غير الذي هو منه، والله يعصمنا من الضلال المانع عن الخيرات، ويُقيمنا على خط صراطه الكوني، ويصل حبل سعادتنا، ويُديم لنا خبر محادثته الذهنية، وينفذ أمره بقتل عادتنا.

وأنت، أكرمك الله، تصفح الكلام المتقدم والمتأخر، والمقدمة وأجزاءها، وجميع ما

فيها من الرموز، وصحح أنها جعلت هناك لمنافع السالك، فإنها تجرد هيولاه، وتصرف أدوات إنسانه كلها، وتهذب ذهنه وتعلم روحه كيف يقتنص معارفه من عالمه، فافهم، ولا تسوف همتك بمطالعة هذه الرسالة، واشتغل بها وبكل رسالة كتبتها لك ولغيرك، واجمعها في سفر، وأثبت كل معنى مع الذي يناسبه، وعجل بخدمة نفسك، ولا تهمل مصالح أملك وجسمك، وقل لجملتك: يا مركبة من الخير والشر والمفارق وغير المفارق والسعيد والشقي هاوديني، وإن لم تفعلي نقابلك بطبيعة الخير، وتتدرع بالمفارق، ونظفر بك بأمر السعيد فإنني مجتهد.

ثم قل لها: يا هذه، هل العمر إلا كلمح، أو إعطاء مكد لا سمح؟ وآصالك لهو وعلل، وأسمارك سهو وعلل، هل سر ورد أو صدر، إلا وساء كدر وموعده؟ ما صح لك موعده، مطالك مطال، ومحالك محال، الله له الحول والمحال والطول، ومع هذا الدعاء سلاح، والصلح مع جملتك المذكورة صلاح وطاعتك إمامك الذي هو راعي الأمم، وهمامك المعروف عندك أنه يرشد الهمم لا يغفل عنها، وبقدر ما تسمع منه، وتجدك تراعي مدلول أغراضه، تصل إلى مقصودك وتنال معرفة بذك ومعبودك، وقد حان وقت الكلام الذي يعول على مدلوله النجيب الذي يجعل تلف نفسه ودراهمه في طلبه درء همه، وبعد والده وجده وعمه، ويعتقد أن الهفوات القاطعة عنده أدوى، والهمم الجاذبة له دوا، ويستعين على مصالحة سحرًا وبكرة، وينادم في شأنه متعلقات أغراضه وذكره، ويبصر خط أمل العجل في خلده وقد هدم، وصديقه الذي كان يصبر عليه قد عدم، ويكثر في كلماته من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ويقول: الأرواح الطاهرة رواحل النبيه، والأعمار الطبيعية مراحل الوجيه، ويعمل على مشاهدة ما يعلم، فإن السعادة في العلم مهملة مجملة، وفي الذوق والعلم مخصصة مفصلة، والعلم المجرد يعطى السعادة كما تعطيها العلامات الشرعية التي يعرف معناها على الإطلاق، وتنكر في التفصيل والتقيد، فإن الخاتمة والعاقبة مجهولة فيها، والحقيقة بضد ذلك، والذوق الذي يمشي على طريق الحقيقة، والعلم يمشي على طريق الشريعة.

والسالك السعيد المعروف بالسعادة هو الذي يسلك على طريق الشريعة والحقيقة، ويجمع بينهما في كسبه، فإن الحكم الشرعي يقال أول الأمر إذا كلف به، وعلى آخر الأمر إذا عرف به وهو الحقيقة في نتيجة المكلف، وهو الشريعة في مقدمتها، والشر والخير والكمال والسعد والنعمة والرضوان، وما أشبه ذلك من الأسماء المترادفة، فاصخ الآن بسمع قلبك، واستمع ما نرسمه لك، وانظره بعين لبك المذكور الذي هو واجب بالإضافة

إلى أصله وفصله وكثير موضوعه وأدواته وتقلبه وتطوره.

يا مرحوم، الرضوان يفيد الذوات الكاملة، وإن أفادك الأغراض اعمل فافهم، والرحمة تفيد المتوسطات، والعفو يفيد الأسباب، والمغفرة تنبه بعد ما تقرر، والتقرير عذاب، والتوبة هي الكون وهي القيامة الخاصة، وهي الحشر العرضى، وهي المقدمة على نتيجة النشأة المعروضة، وهي الحد، وهي الفصل، وهي السلام المطلوب، وهي رأس التدلك، وهي مفتاح الرسم القديم في مذهب أئمة التعليم.

وفيها سبع خواص: الأولى: تفيدك في زمان العزم التحدث إذا خلوت، وترسل لك فهم الصور، وكل شيء تجده في الأحكام يحيلك عليها، فانظر قبله وبعده، واعمل على مفهومه تظفر بصلاح حالك.

والثانية: تفيدك الكشف، فإن برجوعك إلى الله رجعت بروحك لا بجسمك، فإن صدقت أبصر الروح عالمه في الحين، فافهم، وقس بالرمز المتقدم، وتوسط آخر المقدمة المذكورة، وافتح به هذا الباب فيصلح حالك.

والثالثة: تفيدك لذة المناجاة الكامنة في ماهية جوهرك، فإن شأنك يلحق أول كلام الله لك، فارجع بالقهقرى على الكلام الذي قبلها، وافتح بها بابها يصلح حالك بحول الله.

والرابعة: تفيدك بالإذن الدخول على حضرة صورتك التي هي بالقوة تصديقك وبالفعل في منقلبك، فاقرأ من الرسالة نحو ثلثها، وافتح به بابها، ويصلح حالك بحول الله.

الخامسة: تفيدك الدخول في الحضرة المذكورة وتحضر فيها مع الحاضر، وهو يحضرك في حضرة النظام القديم، فطالع الرسالة المذكورة، وإذا وجدت كون التوبة قد انقرض خذ ما فيه وافتح به بابها يصلح حالك بحول الله تعالى.

والسادسة: تفيد الحضور المضاف مع القديم، وترشدك إلى الكف وتحضك على نوم أهل الكهف المعروف بالسكينة، فانظره في الرسالة والتزم قراءتها واجتهد فيها وافتح بما تجد بابها ويصلح حالك بحول الله تعالى.

والسابعة: تفيدك المنقلب إلى هناك الذي بتكرار حكمه تصل وتخلص مرام شوقك، فإنها تقطع التعلق، وتقيمك على الحق وتعاين الحق بالحق ويجيبك بمكان مائدتك العاجلة، ويلهمك لتصرفها ببعض حروف السور، وتقررك على الحضور معه من غير إضافة، وتبصر ببصر استخارة ذاتك في هذا الموضع كل مخبر عنه دونه ﷺ، وتعين أمرك له وتكلمه ثالثة، فإن شأنك في هذه المنـــزلة ينقسم على ثلاثة القصد، النيل، والسكون، فانظر في نفسك هذا الكلام وبه تفتحه، وقد نصحتك فافتح به باب هذه الخاصية

السابقة، ويصلح حالك بحول الله تعالى، وهذا التعليم قد انقرض حكمه.

يا مرحوم: الرضوان من الله لا شك فيه، وفيك بما تسأله ويجيبك، وهو ذاتي الإجابة في سنة الله ﷻ لا أنه يلزمه، وفيك خمسة أجناس لم يذكرها الفيلسوف قط، ولا عرفها الصوفي، ولا سمعها التعليم، وفيك من الرضوان علامته، وهي بعد واحدك وقبل ثالثك، وفيك زمان وقوعه عليك وهواية الممكن ومنك الراجع وعنك اللازم، وجملتك، وهي مادتها والرحمة أمرها من الجنة والناس، وذاته العرضية من الجنة والملائكة الجوهرية دورانها على الأسماء الشاملة، ونيلها بالاستفهام وأنت على تعب وإفراط، وعند التكرار وبعد المحبوب كله.

والعفو نافع القدرة الواحدة، ويلازم أصل التعلق، وقد ضربه في أول السنة المأمور بها المقرر عند الجميع بعد تحصيل بعض الأسماء، فإن أردت نيله فاذكره عقب الأسماء، وأنت تفهم مقتضاه وتنـــزل الأسماء عليه وترغبه في كنه التنـــزيل ثلثه، وتقر في صلاتك التي تكون في برها بالمقصد فيه إلى حروف الاستجابة المشهورة، والمغفرة ملكية الأثر وإنسية الأكثر، وحقيقة الأقل، وربانية التعلق، وكون الكون المحور، وحال الاسم الموصول، وماهية الصور القاصرة، وآنية النفوس المستجلبة، ونتيجة مقدمة الاستدعاء، وأمل المشاهد الذي يطلب مشاهدته كما هو الرضوان ا–ل الذي يعطاها قبل أن يطلبها، أعني: المشاهدة والتوبة المخلصة المنسوبة لعباد الله المخلصين، قلبها الرضوان، وعينها الرحمة، ولسانها العفو، وقواها المغفرة، وارتباطها التوحيد، وثبوتها المشاهدة، والثابت ينقلب في صد أمله في حضرة الإحسان، وعينها تبصر مقصودها، فإنها تنظر بالتعيم نظرة النعيم، ولسانها ينطق بوصف الإنسان، ومفهوم صيغته يخبر بخبر النفس، وملازمة التوبة لها مخصصة ألا تيقن إلا بالله [.....[1]] ذاته في بد ذاته لا بذاته تقدمه على سواه، وهو يطلب أمر هدايته، وطلب الحق بالحق، ويقيم رسم التحقيق بأن التوبة مرتبطة بالكرم، والاضطرار والتوجه صفة نفس الخلق، والاضطرار صفة نفس العبد، والتوجه للكريم يتعلق بالكرم علي ما يجب.

فالتوبة بهذا النظر راجحة، ومتاجرها رابحة، وأيضًا التوبة قائلة وبعد القول، وفي الجملة وعن الكلمة وشارحة، إذا طلبت بالأدوات المقومة، وماهية إذا حكمت بالأسباب الثلاثة، وخاصية أملها الذي برز عليها التائب، وصحة عهوده القديمة، وبالجملة هي

(1) كلمة غير واضحة بالأصل.

صورة من الصور الروحانية التي مثلها عرض القبول وجوهر التكليف، وأصلها رجوع الشريف إلى قدره الذي هو منه بالتقدير الذي أهبط عنه، وهذا التنبيه قد تم وقد كمل حكمة.

يا مرحوم، الرضوان والرحمة والعفو والمغفرة من الأسماء المترادفة إذا نظرناه بنظر ما في المقدمة التي قبلها، وإذا قلنا فيه بالتوحيد أطلقناه بالترادف مع الواحد الحق فهو الرضوان، وهو الحق وهو هو، وإذا نظرنا بالشرع، والتوحيد، والحكمة، وثبوت الكلمة، والفصل الذي فيه معني النظام، ومكان الممكن الذي لا انقطاع لماهيته، قلنا فيه هو وما يشبه، مثل الذي يتعدد بمضافه، وهو واحد لا يتعدد، وهو أيضًا في الذي هو مثله هو فيه، وإن جعلناه بمعني الاسم إذا صرفناه قلنا في كل اسم معني كل اسم، وإن نظرنا ماهية اللواحق ونختبرها بالصنائع قلنا: الرضوان من صفة القديم متعلق بالخير، ويحمل مفهومه عليه في حق الغير، والغير يمنع نفسه، وهذا خلف.

وإن نظرناه من جهة العرف واللغة والشرع والصنائع الضعيفة بالعقل الضعيف والقياس الخلف والفهم السخيف، قلنا: هو وسائر الأسماء الأربعة علي مفهوم ما يلزم الكل في شأنهم، والأسماء الأربعة أسماء الذات والصفات والأفعال والتنـــزيه، والقول بأن الصفات زائدة علي الذات، وإن نظرناه بالحق المنسوب، قلنا: هو الفصل والكلمة وهو العقل وهو القصد الأول، وهو القلم وهو الروح، وهو القدرة، وإن نظرناه بالحق الصرف قلنا: الرضوان هو المحمول الأول، وهو الاسم السابع، وهو الوصف الغالب، وهو محرك السعادة، وهو ذات حكمة العبادة، وهو الذي يجليه الوحي قبل الكل، ويحفظه الرسل قبل الرسل، وينالة كل مخلوق، وإن لم يفهم فيه إلا بعد عسر، وهو المتلو بعد الأسماء الثلاثة التي فيها صور الدوائر، فافهم.

والرحمة بعده، وبحسب ما قيل، والعفو بعد الرحمة، وبحسب ما قيل، والمغفرة بعد الجميع، وبحسب ما قيل، والتوبة: هو الشأن الذي فيه القبض والبسط، وفيه يزعم الأصم الأول من الأنواع الأربعة المتقدمة أنه يتوجه للكل، ويدبر الإفادة، ويقيل بالاستفادة، وفيه يزعم الأصم المذكور قبل الذي أنواعهم تسعة في الحضرة التي بينتها وجعلتها على بابها ونوعتها في البد والمقرب، وقومت بها الآنية الصاعدة، وتمت بها المقويات الساكنة، وفيه يقول التعليم إنه فرض الشك الذي يحفظ الأمر أول الصعود، وفيه يقول التنبيه إنه سلامة على أهله قبل الجمع، وهو الذي أبرز في نازلته آدم الحظوظ الماحية، وحركة ولده الذي نبهه عذاب البين حفظ الظل، والذل الذي يتحرك بالقوي الطبيعية، وينحط إليها ويمشي

منها عنها فيها، وشرع في نظمها أخوة يوسف، وركبها داود، وختم بها على السلامة سليمان، وجددها بعد ذلك، ثم أكثر، ثم أكثر، ثم أكثر، ووافق والده والرسل من قبله في الشرب، وفي هذا الشأن يضع عيسى الجزية آخر الزمان، فافهم.

وفيه اختبر آدم وأجاب بجهة وغفل بجهة، فكان من الجهة المتقدمة علوه، ومن المتأخرة ما سمعت: فإن آدم والدك في الأمور العرضية والجوهرية، وفيه تقدم كل شيء يظهر عليك، فإن ماهيتك منه، والشرائع تخالف الصم الأول، والفلاسفة في ذلك، وشريعتنا تقول: إن آدم يتقدم على محمد ﷺبالزمان والمكان والسبب والطبع بأمر الله الذي جعل هذه العادة، والنبي ﷺ يتقدم عليه بالفضل؛ حديث الإسراء تفسر تقدمه علي كل من جاز عليه، وأضاف الجواز في قوله في هذه القضية من غير أن يعتبر بالفضل، وقال يقول آدم لمحمد: يا ولد صورتي ويا والد معناي.

والتوبة في أبيه آدم داخلها، ولا يخرج عنها من ولده أحد، وإن خرج عنها بالقول الأول الذي تفرض فيه العصمة، ويُقابل من اسمه بما يسلم من معقول رجوعه الأبوة الذي يركب به نظامه كماله، ولا يسلم من المواهب التي يرد عليها، ويدفعها بالاستعانة، وأن يسلم فيها، يسلم من التوحيد المخالف، فافهم.

والتوبة مفهوم الرسم كبيرة الاسم أثيرة في القلوب، ونقطها عالية، وخطوطها ثلاثة وزمنها واحد، فإن حررت خبرها، وكنت طاهرًا، واستقبلت القبلة، وأنت على غفلة تخاف الله عليك من الصور المجردة النازلة عليك في جنانك، وفي قوة خيالك ووهمك كنـــزول المطر، وهنا وهنا نمسك الكلام عليها، فإن النصف بقي بالنظر إلى التقرير، وهذا التقرير قد تم بتتممه.

حكمة: الرضوان واسع، والرحمة مثله بعد العهد، والعفو كذلك، والمغفرة كذلك، والتوبة كذلك، والرضوان في الأسماء يفعل فيها، ولا يمكنني أكثر من هذا، وكذلك من بعد، وهذه السِّيميا قد تم حكمها.

حكمة: الرضوان رضا، والرحمة مثله بعد العهد، والعفو والمغفرة كذلك، والرضوان في الأرواح متصل الفعل، ولا يمكنني أكثر من هذا، وكذلك من بعده، وهذا مذهب البراهمة قد تم.

حكمة: والرضوان حم بعد العهد العفو، والمغفرة كذلك، ولا يمكنني أكثر من هذا، وهذا مذهب الفصل قد تم حكمة.

حكمة: والرضوان طسم، والرحمة كذلك، والعفو والمغفرة كذلك، والرضوان في الجنة

والنار، وفي الأمر الأول، وفي المأمور، وفي التصريف الثاني بالخير الأول، وهذا مذهب المهمل قد تم حكمه.

حكمة: والرضوان هو ثلاثة: شهادة، والحكم بها، وهذه الأعداد نفتحها لك، فاضرب بها في مثلها بحالك، ونـــزل الأمر في ذلك أظهر من الوجود الطبيعي لك، وهذا بعد القصد، وكذلك ما بعده، ولا يمكنني أكثر من هذا، وهذا مذهب المكلَّم قد تم حكمه.

حكمة: والرضوان ما تسمعه، وبعد ذلك ما تسميه وتجده، وهو بعد هذا على كل مضاف، فمن قطع المضاف كان هو الذي يرضى، ومن أخبره رضي عنه، والذي يصل حتى يرضى عن نفسه بما جعل فيه من ماهيته رضوان ربه المستخلف بماهية رضوان حاله المكتسب بأمر ربه الواقف بينهما هو والرضوان عليه، وهو مفعول فعل لئلا تغلط غلط الأشقياء عند التركيب، إنما هذا مفهوم قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: 119]، فافهم.

والرضوان وما بعده في المرسوم الخامس بعد السلائل، وما له في الخواتم عمل، وله في الأعلام الأول، والمتعلق القديم كل شيء وما بعده كذلك، ولا يمكنني أكثر من هذا، وهذا مذهب المقرب قد تم حكمه.

حكمة: والرضوان وما بعده وما هو مثله في السفر الأول بين الوسائل والكهوف، وقراره الذي يعمل عليه في خطوط الحج وفي مساجد الذكر، وهو يفهم بعد فهم الطيور، وفي غيرها من السفر لا يحل الكلام فيه إلا لعالم بها، فإن في المسائل ما لا يمكن تطليعها على الحبل، ومنها ما يمكن، فما أجهل من يحملها على وجه واحد، وما أقل إسعاف من يطلبها من محقق، والمنوطات، وما فوقها لا سبيل أن يفتح فيها باب لسائل في هذا العصر إلا من خصه الله تعالى، فافهم ما رسم لك، واعلم قدره واحمد الله عليه، واعلم أن بيدك من الخير ما لا يأخذه والله تقدير، ولا يتعلق به تعيين، ولا يمكن في مثله نقص أبدًا، ولا في الذي تتصوره، وخلص مسائل هذه الرسالة بالأحكام المفروضة فيها، فإن المسئلة في الصم تتحرك، وفي التعليم تسكن وتمتحن وتحقق أغراضها، وفي التنبيه يتبين أمرها في الخبر الصحيح، وفي التقرير يبصر أمرها كله صح ويتحقق الحق، والسبب يصرف في الدارين، وفي البراهمة يعاد ويحفظ، وفي الفصل يميز آخره وينقل، وفي المهمل يحمل على جنسه، وفي المكلَّم ينتهي أمره ويجد شأنه في السفر في هذا الشأن كله، وفي المنوطات أوله، وفي الصديق سببه، وفي الاسم فاعله.

ثم نرجع فنقول: وفي الصم تتحرك المسألة وتطلع بالتركيب وتجعلها دائرة منسوبة،

وربَّ دليل في قليل ورب إعثار في إكثار، وقد تخلصت والحمد لله، وهي موجبة لك موسومة برسمك، فإنها جواب عنوان كتابك المكتوب فيه إن الله يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: 25].

وفي مقولة له ﷻ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 134]، الآية، وتصلك صحبة حاملها إن شاء الله تعالى فتصفحها واخدُمها بذهنك وهمتك وعزمك وحرصك وأدبك وشوقك وصبرك والله يعينك عليها وعلى أولها وآخرها ووسطها، وبفضلك اقبل عذري فيها، فإنني كنت في كتبها مشتَّتَ الخاطر بالداخل إليَّ والخارج عني، والدائر علي بمكر العدو القريب مني، وكان قلبي يمر على القرطاس في غير قصد ولا عين، وذهني برود الأشخاص بغير وهم على عين.

وبالجملة: الإنسانية منقسمة: منها ما يبصر الذئاب الوحشية والإنسية، ومنها ما يتوقع الأكوان المهلكة المعنوية والحسية، وبالجملة: حركة الخاطر الباطنة لا سكون لها في الخبر، وحركة الظاهر في الخارج تقطع أحيازها قبل الطرق، والأمر كله لله، ووالله ما عندي من غير الله خبر، وكل مخوف ذكرته هو الله، وأفعاله خاصة ونفسي مطمئنة، وجملتي آمنة، فآنس جملتك ولا تخف، وتيقن أن كل ما ذكرته لك قبل من أنواع التوقع هو من أجل الشريعة والحكمة، فاعلم هذا كله وتَخَلَّقْ به إن شاء الله تعالى.

واعلم أن القسم عند المحققين ينقسم على سبعة أقسام، وكل قسم يكفر إذا وقع الحنث به، وينتقل منه إلى الأصلح والأكمل.

قال رسول الله ﷺ: «ما حَلَفْتُ على شيء ورأيتُ خيرًا منه إلا كَفرْتُ عن يميني وأتيت الذي هو خيرٌ»(1)، إلا القسم بسر التحقيق وبالهويات الصاعدة والآنيات الممتدة وبالاسم الأعظم عقبها، والكفارات منها ما يكون مثل المعروفة التي يعرفها الكل، ومنها ما هو بغيره، فإذا سمعتني نحلف بما نذكره لك، فلا تحنثني، وإياك والوهم والغلط الذي يحول بين المحب ومحبوبه، والوالد وولده والمرء وزوجته، وغير القسم المحرم الذي عرفتك به، واطلب في الانتقال عنه واسمح في ضد متعلقه، ونسعفك فيه بكل أنواع الكفارات المعروفة وغير المعروفة، وقد نصحتك، وهذه مقدمة قدمتها عندك لأمور تحتاج إليها بعدها، فافهم.

وكل من نهجره ولا نقسم عليه بالقسم المذكور وتكون مقاطعته وهجرته بالعرض،

---

(1) رواه البخاري (2470/6)، مسلم (1268/3).

والعرض ما يصلح بالمهاجر والمهجور، فإن أدب التحقيق على أنحاء وهو الذي يجيب بالعفو عنه دعوة السائل، ويفرج من شأنه، وأصله بقول القائل، وتقرأ الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

وتذكر عقبها الحديث المشهور الذي تقدم فيمن أحب وورد في وصاياه وتأخر وظهر وحكم في مكارم أخلاق محمد ﷺ وعلى جميع الأنبياء، وهو: «صِلْ من قَطَعَك وأعْطِ من حرمك واعفُ عمَّن ظلَمَكَ»[1].

ونملي الإجماع الذي هو الاتفاق بين علماء العالم وحكمائه على أن مكارم الأخلاق صورة متممة ومقومة للحكيم والحكمة، وأنشد قول الشاعر:

وإني وإن أوْعدْتـــه أو وَعَدْتـــه ... لمخْلفُ إيعادي ومُنجزُ مَوْعدي

ونصف المثل الجاري: (العاقل مطية الأحمق) ونأنس نفسي به، ومن نهجره ونقسم في مقاطعته بالقسم المذكور، فلا سبيل لأحد عندي في نيل شفاعته فيه، فإنه أعسر وجودًا من المحال المتعب بماهيته، ولا يمكن أن يسعف فيها الشفيع حتى يضطر القديم للصاحبة والنديم، وتنفذ ماهية العديم وتلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: 8]، الآية، وتشفع مفهوم شأنها بالحديث: «اللهم حَوالينا ولا علينا»[2].

وكما صرفته عنا فلا تردّه إلينا.

ونخلص مقصود الجميع بانعقاد الإجماع على أن مقابلة الفاسد من وجوه النظر وينشد عزمي:

وإن كُنْت قد سَاءتْك منّي خليقةٌ ... فــسُلّي ثــيابي من ثيابك تَنْسل

ونذكر المثل المشهور: «العدو العاقل أحسن من الصديق الجاهل».

ونشرح مفهومه بقول الحكماء: من لا تنفعه نفسه ادفعه بالعزم والحزم لئلا تهلك هويته وآنيته.

وتفسير صورة هذا كله بقولهم: لا تضرب في حديد بارد.

وبالجملة: حمل الأدب مع أهله أمان، وكما تدين تدان، كفى به قدرًا، والمؤمن من لا يضر نفسه بمضرتين، ولا يلدغ من جحر مرتين، ويطلب مصالحه ويمتثل قول الصادق ﷺ:

(1) رواه ابن ماجه (260/1)، وأحمد (148/4).

(2) رواه البخاري (315/1)، ومسلم (614/2).

«ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[1]، وتنطق معاملته بلسان حالها وتترجم.

وتقول: إن للخير أهلاً، وللشر أهلاً.

وينشد:

ولي فَـرَسٌ بالـشرِّ للشرِّ مُلْجم ولي فَـرَسٌ بالخير للخير مُسْرَج

فمـن رام تقويمـي فـإني مُقَوَّمُ ومـن رام تعويجـي فإني مُعَوَّجُ

وإذا نـزل عليه غير الذي يوافقه ويناسب سريرته، ويكون غير متفق معه يختار معه خير الشرين، ويغلب خير الخيرين على ضر الضرين، ويقول: كل محب لا يخرج من خلد محبه لا يهجر، وكل من لا يهجر لا يغير، فكل محبوب لا يبرح من خَلَد محبه، وبالعكس لا يغير.

وأنت أعزك الله كن مع الله ومع أهله على أيِّ حال كانوا، وقسم احترام الأول المشار، وانسَ نفسك بما قلته في الضرب الأول من الشكل الأول.

والسلام عليك أيها اللازم إسعافه وإنصافه، ورحمة الله وبركاته، وبمثله على الفقير القاضي، ورحمة الله تعالى، وعلى الولد الصالح بطبعه أبي الحسن، وعلى أخيه، وعلى الجميع، ورحمة الله تعالى وبركاته، ومطالك فيها متعلق بالناسخ، فإنه كتبها في أربعة أيام، وهاوَدَتْ في ذلك راحته، وبيَّضتُها أنا في يومين ولو كان الكاغد عندي على كماله لم يكن إلا في اليوم الواحد.

وهذه الرسالة سميتها: «الرضوانية».

والله الموفق لنظرها بعين التحقيق، والفهم لمعانيها بمنه وكرمه

***

رسالة في عرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وسلم كثيرًا

قال ﷺ: أكبر مالك المقولات والأول من الأمور التي حصرها هذا الوجود، والآخر والظاهر في ذلك كله، والباطن العريّ عن الشوائب العلي القويّ، حاكم الإحاطة المنحطة

(1) رواه البخاري (2048/5)، ومسلم (718/2).

المختلطة، وعين تلك الكاملة الجامعة المانعة، صورة الصور، وسورة السور، خليفة الحقيقة وحقيقة الطريقة، المبصر قبل النصيب، المناسب من صفة نفسه للمخطي وللمصيب، وعين ما يبصر ويعلم من العالم، وفوق ما يحققه علم العالم عبد الله الوهاب، وأمين الله البواب، الآخذ من الجلالة اسم الجليل، ومن الدلالة قصد الخليل، الذي أراد بذلك التشبه بذلك، فكان من ذلك ما أراده ذلك لأجل ذلك وصحبة ذلك، ثم كان كذلك بعد ذلك، وبعد ما هو ذلك، وإن كان جميع ذلك هو ذلك، فلا يصح مع ذلك غير ذلك.

فسبحان الذي جعل ذلك ليس كذلك، وهو مع ذلك أظهر ذلك، ورتب ذلك، بأمر ذلك، من المتكلم في الوجود، وفي الأمر المعتبر من الظاهر في الجميع، وفي الشيخ المختبر، ومن الواحد حتى يمتنع في حقه ذلك لأجل الحكم، لا لأنه عن أو من أو به أو له، أو ما أشبه ذلك، قال له المألوف الأكبر: انتسب واكتسب، وإياك أن تظن أن الأمر في المعتبر وفي المألوفات هو من جنس ما تعلم من الماهيات التي كانت تقال في عالم المألوف خليفة الله الحق الثابت ﷺ،حتى أنها كانت تتطور في بعض السفر في ماهية ذلك المألوف المصروف إلى ذلك المعتبر، وفي أنواع جليلة بحسب ذلك الموضع.

فاعلم أن ذلك يصح لها؛ لأنها تقال عليه، فإنها تنصرف إلى شمائله، فهي ماهيته المتوسطة الحاكمة، وهو يقال عليها، وهذا الذي نحن بسبيله هو البحر الذي يغرق فيه حاصل البحر أعني: مفهوم البحر، والموضع الذي لا يقال فيه البحر، وبالجملة: أحوال الناس قبل حقيقة هذا الأمر لا تنسب إلا بوجود الشعور، ولكونها في العالم وفي وجود وفي مألوف فقط، ومن كان يطلب الوجود ووجده انقطع طلبه ضرورة، فكيف يصح منه الطلب، ولا تتوهم أن الأمر الذي نحن بسبيله لا وجود فيه؛ بل هو شبه الماهية في اصطلاح صم السفرة الأولى، والأحوال المذكورة عندهم لهذا الوجود، أو لهذا الطور السينين الأخبار، قال لهما مظهر المظاهر ومألوف المألوفات ووسيلة الوسائل: عليكم بحفظ مراتبكم فقط، فوالله ما علم أحد من المعتبر إلا الحاصل الجامع المستند إذا سد وجه التقديس في وجهه فهو الخبر، وقد نفد الأمر بالكلام في عالم المألوف الكريم في يوم عرفة في اليوم بنفسه، وفي مفهومه الشرعي، وتركيب الكلام فيه حتى يصل إلى غاية ما، وبقدر طاقة المتكلم، فإما يسلم له ويحمد، أو ضد ذلك، قال له أكبر الأول، والأكبر الثاني: ما هذا الكلام بعد الأخذ في الذوات المجردة، وفي الأعلى بعدها، وفي المألوف، وفي العزة الواقفة تنحط المخاطبة إلى حضيض الأمور الوهمية في عالم المألوف الأكبر الذي

يحرر القضايا ويحصرها، نعم.

وإن كان التحقيق يركب من أخس الأشياء أخصها، قال لهما: المقصود الكف عن الكبير ما دام القول يبعد القائل، وغرضي الأخذ في سبب الحد الإلهي، وهو عندي يجذب الفائدة برفق، وإن كان الكلام في هذا اليوم هو في عالم الأوهام، فهو من أحكام المعتبر الذي نفذ الأمر على المألوف لكي ينفذها هو، وكل شيء صدر عن الرضوان المعتبر يصل إليه، فإن الأشياء قريبة منه بنوع واحد، والعوالم بجملتها لا تحجب السعيد، فإنه مع قضيته فقط، وتلك القضية فيها دخل الجميع، فافهم.

ومع هذا ينبغي أن يتكلم فيه أكبر الأول مع أهله الوجه الأول، ثم مع الثاني حتى يصل إلى التاسعة، ثم يتكلم مع التعليم، ويتصل كلامه بالمكلم، ومع الأول من السفرة، ويتكلم الأكبر الثاني مع حامل المهد في الصدر الواسع، ويخلفه في الحين، ويوصل الكلام فيه إلى الأقسام، وبعد كما نتكلم أنا صحبة هداية المعتبر بلسان الثالثة من غير أن يجر الكلام للتوسل قال له: أكبر نعم، ونعم ما قلت، وطاعتك ماهية السعادة، ثم انصرف وشرع بخبر العارف عن عرفة، فقال له ذلك العارف: إن كنت تحب أن تعرفني فبغيري عرفني، قال له: في أي شيء تسأل عنها؟ قال: في مفهومها من حيث الأحكام الشرعية، قال له: الأحكام الشرعية منها ما هي معقولة المعنى، ومنها دون ذلك، ومنها ما هو معقول المعنى وغير المعقول المعنى من جهة، ومنها ما وضع على ضرب المثال، ومنها سببي ويثبت بعد ذلك حكمه، ومنها كذلك ولكنه لا يثبت، ومنها ما هي على جهة الشبه، ومنها ما هي من جهة المحكوم عليه فقط، ومنها ما هي متعلقه بالواضع، ومنها ما هي موقتة، ومنها ما هي في الدارين بوجه ما وبنوع ما، ومنها ما هي صفة طلب، ومنها ما عبارة موجهة، ومنها ما هي بحسب شخص واحد فقط، ومنها ما هي بحسب وقت واحد فقط، ومنها ما هي برسم الارتباط لكي يكون المطلوب الكريم عندها، ومنها ما هو على العموم، ومنها ما هو على الخصوص، ومنه المطلق والمقيد والمقدر والمفهوم والظاهر والمؤوَّل والمجمَل والمفصل والمخصص وما أشبه ذلك، ومنها ما يحض على المعقول ويفيده، ومنها خلاف ذلك، ومنها مجموعة من علم وعمل، ومنها ما يخص القلب فقط، ومنها ما يخص الجوارح، ومنها ما يجتمع من ذلك، ومنها ما يضر بالقصد الثاني وينفع بالأول، ومنها ما ينقطع في دار الغرور، ومنها ما لا يصح بكماله إلا في الآخرة، ومنها ما فيه مائة مسئلة مع جعفر الصادق، وخمسة قبله، وسبعة بعده لا يجوز الكلام فيها مع أحد إلا مع من يحمله المحقق، أو يسأل فيه، أو يدبره أو يكون معه من حيث ذاته، أو يحرر له

مقاصده، ومنها ما يتقدم ويتأخر من جهة واحدة.

والذي يجب أن نتكلم معك فيه من هذه الأحكام كلها في الوجه القريب من عالمك فنقول: إن كنت تريد الكلام على حكمه المألوف وصفته وشرطه، فنقول: أمَّا الوقوف بعرفة، فإنهم أجمعوا على أنه ركن من أركان الحج، وأن من فاته فعليه حج قابل، والهدى في قول آثرهم، وأمَّا صفته فحاصله وصول الإمام إلى عرفة يوم عرفة قبل الزوال، فإذا زالت الشمس خطب الناس، ثم جمع بين الظهر والعصر في أول وقت الظهر، ثم وقف حتى تغيب الشمس، وإنما اتفقوا على هذا؛ لأن هذه الصفة هي مجمع عليها من فعله ﷺ لا خلاف بينهم أن إقامة الحج للسلطان الأعظم، وأنه يصلى وراءه، برًّا كان أو فاجرًا أو مبتدعًا.

وأن السنة أن يأتي المسجد بعرفة يوم عرفة مع الناس، فإذا زالت الشمس خطب الناس كما قلنا وجمع بين الظهر والعصر.

واختلفوا في وقت آذان المؤذن بعرفة للظهر والعصر، فقال مالك: يخطب الإمام حتى يمضي صدر من خطبته أو معظمها، ثم يؤذن وهو يخطب، وقال الشافعي: يؤذن إذا أخذ الإمام في الخطبة الثانية، وقال أبو حنيفة: إذا صعد الإمام المنبر أمر المؤذن بالأذان فأذن كالحال في الجمعة، فإذا فرغ المؤذن قام الإمام يخطب، ثم نــزل فيقيم المؤذن الصلاة، وبه قال أبو ثور: تشبيهًا بالجمعة.

وقد حكى ابن نافع عن مالك أنه قال: لا أذان بعرفة بعد جلوس الإمام للخطبة، وفي حديث جابر أن النبي ﷺ لما زاغت الشمس أمر بالقصوى فرحلت له، وأتى بطن الوادي فخطب الناس، ثم أذن بلال، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم راح إلى الموقف.

واختلفوا هل يجمع بين هاتين الصلاتين بأذانين وإقامتين، أو بأذان واحد وإقامتين.

قال مالك: يجمع بينهما بأذانين وإقامتين.

وقال الشافعي وأبو حنيفة والثوري وأبو ثور وجماعة: يجمع بينهما بأذان واحد وإقامتين، وروى عن مالك مثل قولهم، وروى عن أحمد أنه يجمع بينهما بإقامتين، والحجة للشافعي في حديث جابر الطويل في صفة حجه ﷺ، وفيه أنه صلى الظهر بأذان واحد وإقامتين كما قلنا.

وقول مالك يُروى عن ابن مسعود وحجته أن الأصل هو أن يفرد كل صلاة بأذان وإقامة، ولا خلاف بين العلماء أن الإمام لو لم يخطب يوم عرفة قبل الظهر أن صلاته

جائزة بخلاف الجمعة.

وكذلك أجمعوا أن القراءة في هذه الصلاة سر، وأنها مقصورة إذا كان الإمام مسافرًا.

واختلفوا إذا كان الإمام مكيًا هل يقصر بمنى الصلاة يوم التروية، وبعرفة يوم عرفات، وبالمزدلفة، أو كان من أحد هذه المواضع، فقال مالك والأوزاعي وجماعة: سنة ذلك الموضع التقصير، سواء كان من أهلها، أو لم يكن من أهلها، وقال الثوري وأبو حنيفة والشافعي وأبو ثور وداود: لا يجوز أن يقصر من كان من أهل تلك المواضع، وحجة مالك أنه لم يرو أن أحدًا أتم الصلاة معه ﷺ أعني: بعد سلامه منها، وحجة الفريق الثاني البقاء على الأصل المعروف أن القصر لا يجوز إلا للمسافر حتى يدل الدليل على التخصيص.

واختلف العلماء في وجوب الجمعة بعرفة ومنى، فقال مالك: لا تجب الجمعة بعرفة ولا بمنى أيام الحج لأهل مكة، ولا لغيرهم، إلا أن يكون هنالك من أهل عرفة، وقال الشافعي مثل ذلك، إلا أنه اشترط في وجوب الجمعة بها أن يكون هناك أربعون رجلاً على مذهبه في اشتراط العدد في الجمعة، وقال أبو حنيفة: إذا كان أمير الحج ممن لا يقصر الصلاة بمنى ولا بعرفة صلى بهم فيها الجمعة إذا صادفها، وقال أحمد: إذا كان والي مكة يجمع بهم، وبه قال أبو ثور، وأما شرطه فهو الوقوف بعرفة بعد الصلاة، وذلك أنه لم يختلف العلماء أن رسول الله ﷺ بعد ما صلى الظهر والعصر بعرفة ارتفع فوقف بجبالها داعيًا إلى الله ﷻ، ووقف معه كل من حضر إلى غروب الشمس.

وأنه لما استيقن غروبها وبان ذلك له دفع منها إلى المزدلفة، ولا خلاف بينهم أن هذا هو سنة الوقوف بعرفة، وأجمعوا على أن من وقف بعرفة قبل الزوال وأفاض منها قبل الزوال لم يعتد بوقوفه، وأنه إن لم يرجع فيقف بعد الزوال أو يقف من ليلته تلك قبل طلوع الفجر فقد فاته الحج.

وروي عن عبد الله بن معمر الديلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفة»[1].

فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وهو حديث انفرد به هذا الرجل من الصحابة، إلا أنه مجمع عليه، واختلفوا فيمن وقف بعرفة بعد الزوال، ثم دفع منها قبل غروب الشمس، فقال مالك: عليه حج قابل، إلا أن يدفع قبل الفجر، وإن دفع منها قبل

(1) تقدم تخريجه.

الإمام وبعد الغيبوبة أجزاه.

وبالجملة فشرط صحة الوقوف عنده هو أن يقف ليلاً، وقال جمهور العلماء: من وقف بعرفة بعد الزوال فحجه تام وإن دفع قبل الغروب، إلا أنهم اختلفوا في وجوب الدم عليه، وعمدة الجمهور حديث عروة بن مضرس، وهو حديث مجمع على صحته قال: أتيت رسول الله ﷺ بجمع، فقلت: هل لي من حج فقال: **«من صلى هذه الصلاة معنا ووقف هذا الموقف حتى يفيض وأفاض من قبل ذلك من عرفات ليلاً ونهارًا فقد تم حجه وقضى تفثه»**[1]، وأجمعوا على أن المراد بقوله في هذا الحديث «نهارًا»، أنه بعد الزوال، ومن اشترط الليل احتج بوقوفه بعرفة ﷺ حتى غربت الشمس.

لكن الجمهور أن يقول إن وقوفه بعرفة إلى المغيب لما روي من حديث عروة بن مضرس أنه على جهة الأفضل، إذ كان مخيرًا بين ذلك، روي عن النبي ﷺ، من طرقٍ أنه قال: **«عرفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عرفة، والمزدلفة كلها موقف إلا بطن محسر، ومنى كلها منحر وفجاج مكة منحر ومبيت»**[2].

واختلف الفقهاء فيمن وقف من عرفة بعرفة، فقيل: حجه تام وعليه دم، وبه قال مالك، وقال الشافعي: لا حج له، وعمدة من أبطل الحج النهي الوارد عن ذلك في الحديث، وعمدة من لم يبطله أن الأصل أن الوقوف بكل عرفة جائز، إلا ما قام عليه الدليل، قالوا: ولم يأت هذا الحديث من وجهه يلزم بهذه الحجة والخروج عن الأصل، فهذا هو القول في السنن التي في يوم عرفة[3].

وأمَّا الفعل الذي يلي الوقوف بعرفة من أفعال الحج، فهو النهوض بعد غيبوبة الشمس وما يفعل بما تركناه لكونك لم تسأل عنه، ومن الناس من يريد جوابه أن يكتب مطابقًا ولا يكون زائدًا ولا ناقصًا ولا معدولاً، ولعلك كذلك، والحكيم ينظر في المصالح النافعة المدبرة المفيدة وبحسب الحق والمحق الواقع في الوجوه بعد إذا لم يجد ذلك من جهة المخاطب القريب، وهذا أجل وأكمل بكثير من الأول، والأول يصرف في الجدل، وفي بعض العلوم النظرية قال له أول الوجه الأول لا حاجة لي بعد ذلك، وانصرف وسلم بعد ما علم، واعترض الرجل المتوسط في ذلك الوجه عليهم فقال له: لأي شيء أنت أكبر ولم

(1) رواه النسائي في الكبرى (431/2)، وابن ماجه (1004/2).

(2) رواه أبو داود (297/2)، الطبراني في الأوسط (7/9) بنحوه.

(3) انظر: نيل الأوطار (377/3)، وسبل السلام (99/1).

يظهر بماذا، وهذا الاسم لن يصح لك إلا على الزيادة، وبعد لم تظهر فافتح ما وراء العادة، وحرز طريق السعادة وما يحمد من العبادة وأنَّا نؤمن بجميع ما تذكر ونغتبط، قال: الإسعاف سيرتي، والإنصاف شرف سريرتي.

اعلم أن هذا اليوم وهذا الموضع وهذا الوقت وهذه النية في هذه العبادة من هذا العابد استدعاء ما في القوة من الكمالات، وما من أجله وجد التكليف لكي يصر داخل الذهن، أو يحرر من عالم الملكوت ويحصل للنفس حضورها المنسوب إلى ضمير المكلف حتى يطلع على الأرواح المفارقة ويتوجه إليها، ويثبت بالآنية بعد ما طاف حول الهوية، ويستروح نفحات القرب، ويرسل قصده بالتذلل إلى الجلال المبصر بالماهية المضافة، وهي هي بعد ما كانت تظهر على مظاهر خفية، فيلحظها الذهن ويهرول، ثم يغيب عنه فيسكن، ويجتمع بعد ما كان قد تبدد في الأفعال، ويعامل المقصود بالمباشرة الخبرية، ويقيده بحقيقة الكنه المشترك، وينظر نكتته التي تكفيه مرض العادة، ولا يمكن معها الطلب على الأول؛ لأن تلك الذنوب كانت تقال على الهوية المبعدة بالمغايرة، قال له المتوسط المذكور: قد أخذت قصدي فكف عني ما وراء ذلك، فإن المؤمن لا يصلح به أكثر من ذلك إذا كان من المحسنين، فالقوة والقصد والاستعداد.

قال له: هو الكلام على العموم من جهة المضاف فقط، وهو بحسب الرجال، ومن حيث المراتب، وها أنا نخبر أخر ذلك على الوجه بذلك كله، ونحسن إليه فإنه في مقام الإحسان، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60].

فنقول: يوم عرفة هو اتصال النسب، وقطع لواحق السبب والخروج عن ذل الأغراض المهلكة، والدخول في العالم الأعلى بالجوهر، ومشاهدة أول علامات الحد، والتعرض إلى نفحات خيرات المطلع حتى يُبصِر أو يُبصَر أعني: يبصر بالجوهر المعني المقوم لوجوده، أو يعلم ذلك أنه كذلك، هذا إذا كان أمره بالوجه الأكمل، وأمَّا إذا كان بغيره الأنقص فيكون على جهة الشعور، أو يكاد يظفر بالسكينة الوهمية، قال له: تكلم بما يجب لك ومن حيثك، فإنك تكلمت بما عندي وبالوجه الذي نعلمه، ولم نفقده قط، قال: لا طاقة لك على ذلك كله إلا به، وهو قد خصص وخلص وعين، لا أنه أهمل واستدرج، ودبرك تدبيرك المريد، وحرمك نور المراد، قال له: تكلم بحاصلك القريب مني بالمرتبة، فإذا فعلت ذلك اتركني مع المنعم فلعله يعلم ويلهم ويفهم ويقرر، والغرض منك الكلام عليها من كل الجهات وتطلع الكلام عليها حتى إلى عالم، ثم إلى القريب مني فقط، قال له المذكور: عرفة هي وظيفة شرعية، قال له: هذا قد علمته، قال له: عرفة اسم موضع،

وهذا الاسم وضع بإزائه، وقد قيل أنه من الأسماء المستعارة، أو من المشتقة، وقصة آدم مشهورة، وتاريخ الخليل كذلك، وجميع ما قيل في هذا الاسم، وفي هذا الموضع وفي هذه الوظيفة هو من هذا القبيل، وقد قيل أنه من أسماء المرتبة التي يظفر بها هناك، وقد قيل أنه من أسماء الوقت.

وقد قيل أنه أخذ من بعض لواحق المعرفة وغير، وقد قيل أنه كان جوابًا من بعض الرجال لبعضهم حين سأله عن الحاصل في ذلك، وعن المدرك من الإنسان الكامل هل عرف معلومه على ما يجب في ذلك الموضع، وبحسب هذه العبادة، قال: نعم، عرفه، وقد قيل أنه من أسماء النفس، وقد قيل أنه من المنازل المستقيمة، وقد قيل أنه من أمثلة التجلي[1]، وقد قيل أنه من فصول المواقف المحصلة للمطلوب على العموم، وقد قيل فيه

---

(1) قال محب السادة الوفائية سيدي عبد الوهاب الشعراني: يا أخي إن للحق تبارك وتعالى تجليين:
تجلٍ في رتبة الإطلاق حيث لا خلق، وتجلٍ في رتبة التقييد بعد خلق الخلق، ولكلٍ من هذين التجليين جاءت الشرائع والأخبار الإلهية، فمن قال بتنـــزل الحق تعالى في مرتبة التقييد على الدوام أزلا وأبدًا كالمجسمة والحلولية والقائلين بالاتحاد أخطأ، ومن قال بعدم التنـــزل من مرتبة الإطلاق على الدوام أبدًا كالمنـــزهة فقد أخطأ، فرَجِّع يا أخي كل كلام يعطي التنـــزيه إلى مرتبة الإطلاق، وكل كلامٍ يعطي ظاهره التشبيه إلى مرتبة التقييد يرتفع الخلاف عندك، والتعارض من جميع الآيات والأخبار انتهى.
ولنشرح لك هذه الميزان بحسب ما يفتح الله تعالى به؛ لتعرف ما هو تجلي الإطلاق وما هو تجلي التقييد، وأُلاحِظكَ في ذلك ملاحظة من يعلِّم الصغير السباحة في البحر؛ فإنه متى غفل عن ملاحظته غرق أو شرق، والله عليمٌ حكيمٌ.
اعلم يا أخي أن تجلي الإطلاق هو: كل ما أَشعَرَ بعدم وجود العالم المشار إليه بـــ «كان الله ولا شيء معه».
وتجلي التقييد هو: كل ما أَشعَرَ بعدم وجود العالم المشار إليه بـــ «كان الله ولا شيء معه».
وتجلي التقييد هو: كل ما أَشعَرَ بوجود العبد مع الربِّ من سائر حضرات الأسماء الإلهية.
فتجلي الإطلاق هو: تجليه تعالى في ذاته لذاته على الدوام، وذلك لا يكون إلا في حضرة الاسم (الله)، والاسم (الأحد).
وتجلي التقييد هو: تجليه تعالى لعباده في بقية الأسماء التي تطلبهم: كالربِّ، والخالق، والرازق، والرحمن، والمعز، والمذل، والمنتقم، وغيرها من سائر ما علمناه، وما استأثر الله بعلمه؛ فإن الربَّ يطلب المربوب وجودًا وتقديرًا في العلم الإلهي، ولا يعقل إلا معه، وكذلك الخالق وما بعده.
وأما حضرة الذات التي هي تجليه تعالى في الاسم الله أو الاسم الأحد فلا تطلب شيئًا من العالم، ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 6].
ولذلك كان لا يعقل لحضرتها أحكامٌ، ولا يصحُّ أن يؤخذ عنها بشرائع ولا أحكام؛ إذ ليس

معها سواها.

وتأمَّل يا أخي لو يقع التجلي في رتبة التقييد وكان التجلي في رتبة الإطلاق كما كان قبل خلق الخلق المشار إليه بـ «كان الله ولا شيء معه» من كان معه حتى يتلقى عنه شرائع، ومن كان هناك يعمل بها أو لا يعمل من أهل القبضتين.

وأنشدوا:

قد كانَ ربُّكَ موجودًا ولا معه   شيءٌ سواهُ ولا ماضٍ ولا آتِ

فلما خلق الله تعالى الخلق وتجلى في رتبة التقييد التي هي كنايةٌ على المرآة المنطبع فيها صور الموجودات أجمع وسمَّى لنا نفسه بالأسماء الطالبة لأهل حضراتها.

فلا بدَّ لإثباتك المعرفة لمن يُتَلَقى عنه الأحكام: من ملكٍ، أو بشرٍ، وإلا فتلَقِّي الأمر منْ لم يَعرِفُ بوجهٍ من الوجوه محالٌ، ولا بدَّ لك أيضًا من إثبات من تَحكم فيه حضرات الأسماء الإلهية: كالمعز، والمنتقم، والغفور؛ فإن أثر هذه الأسماء في حق الحق محالٌ.

فقد بان لك أنه تعالى من حين أظهر الخلق ما تجلى لهم قطُّ في رتبة الإطلاق؛ لأن هذه الرتبة تنفي بذاتها وجود غيرها معها، وما تجلى بعد إظهارهم إلا في رتبة التقييد.

ومن لازمِ شهود أهل العقول أنفسهم معه التحييز والتحديد والحصر؛ إذ المقيد لا يَشهدُ إلا مقيدًا، وأما الإطلاق فإنما يُعلَم فقط بالإعلام الإلهي لا بالعقل.

ولذلك قررنا غير ما مرةٍ أن أعلى مشاهدة العبد أن يرى إطلاق الحق تعالى وتقييد الكون، فهذا إذًا حقيقية وحدته تقييدًا، فإن أصل التقييد وسببه إنما هو التميز، حتى لا تختلط الحقائق، وقد صار الحق تعالى في قلب هذا الشاهد مقيدًا بالإطلاق؛ لأن الإطلاق بلا مقابلٍ لا يُعقَل، ولو كان التجلي في كل صورةٍ في العالم.

وبلغنا عن الشيخ محيي الدين رحمه الله أنه كان يقول بإدراك تجلي الإطلاق ذوقًا، وهذا لا يصحُّ إلا عند من يقول أن الحق تعالى يقبل حكم كل ممكنٍ من حيث أنه عين الوجود، بل ولو قيل بذلك لا يتخلص له إلا عند فنائه، لا في حال بقائه مع الحق، وحينئذٍ فما رأى إطلاق الحق إلا الحق، فافهم.

وإيَّاك والغلط؛ فإنه لا حلول ولا اتحاد ولا يلحق عبدٌ رتبة ربِّه أبدًا، ولو صار الحق تعالى سمعه وبصره وجميع قواه فإن الحق تعالى قد أثبت عين العبد معه بالضمير في قوله في الحديث القدسي: «كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصر به»، إلى آخر النسق.

فإن قيل: إن كلام الحق تعالى قديمٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: 4].

وهذا يُشعِرُ بأنَّا معه في الأزل، كما يقول بذلك الفلاسفة.

قلنا: التحقيق أن العالم كله قديمٌ في العلم الإلهي حادثٌ في الظهور.

وقد قال ﷺ: «كان الله ولا شيء معه».

وأجمع المحققون على أن المراد بـ(كان) الوجود، لا أنها على صورة (كان) التي هي من الأفعال

أنه قضية الفيض والتخصيص، وقد قيل أنه حكاية السالك الأول في الأرض المتشبه بحكاية الأول في السماء، وقد قيل فيه أنه زمان نصيب السعداء، وقد قيل أنه بشارة واردة في دار الغرور، وقد قيل أنه من خواص الأنبياء، وقد قيل أنه في الأمور العملية مثل الحروف المرسومة في أوائل السور.

قال له: قد علمت ذلك، وقد خرجت عن المراتب الخبرية والخلقية الخاصة والعامة، قال له: فأنت تسأل عن وزنه وفعله، أو عن تصحيفه وقلبه، أو عن مثاله أو حكمه، أو عن فائدته المشتركة، أو عن علته، أو عن اسمه، أو عن واضعه، أو عن جملته؟ قال له: جميع ما تصف لا حاجة لي به، ولا يمكنني البحث فيه من حيثك، وإنما يجب البحث فيه من جهة الأعلى فقط، فقال له: صدقت يوم عرفة من أنواع التصريف والخواص الفعالة، وفيه الكشف الكريم، وهو من الأسماء المرسلة، وله علامات لا يعلمها أحد إلا الله، والمعلوم الذي وهبه هو تعلقه المنسوب وخلاصه المحسوب.

قال له: صدقت، غير أن الأمر الذي نريده منك غير هذا، قال له: عرفة من الوظائف السببية المنحطة بعد وجود لازمها، ويكون ذلك اللازم مما قد عرفته من حيث هي حكمة لا من حيث هي عبادة، ثم الفتح بحسب الصدور، وهو فيها على عدد المصادر، قال له: صدقت، غير أن المطلوب عندي أجل من هذا، قال له: عرفة قضية التطور الخامس، أو سببها في ذلك، فإن كانت في الحس وصحبة أعراض النفس الحيوانية والمحرك العقل والقوة المشتركة كانت من قبل التوجه الأول الذي يكابد الأوهام المعوجة، وإن كانت في الأفضل وبحسب الأفضل، وعلى هذا النوع المذكور كانت من قبيل الأوهام الخالصة القريبة المستقيمة، وإن كانت في مظهرها الثلاثي الذي لا خير فيه إلا إذا نظر إلى عاقبته وفائدته الكلية، فهو الخير المحمود عند صم أهل الكمال الأول قبل تمام شروط الخلافة المعللة.

وإن كانت من النقط الواقعة من حضرة قوانين الموجود المعروف بذلك، وهي ذوات تلك وفيها صفات؛ بل هي وجه وسيلة قدر وسيلة الوسائل فيَّ أنا، وإن كانت من ظل

= الماضية، فهو حرفٌ وجوديٌّ، لا فعل يطلب الزمان، كما يتوهمه بعضهم، حتى أنهم أدرجوا في الحديث: (وهو الآن على ما عليه كان)؛ لتخيلهم أن تصريفها كتصريف الأفعال، ككان ويكون وكائن ومكون، فمعنى الحديث: الله موجود ولا شيء معه في حضرة ذاته: أي ما ثَمَّ من وجوده واجبٌ لذاته، إلا هو وحده.

المنسوب له من إضافة به برابط عنه فكنهه دون الملكة وفوق الحد الأصغر بفرض ما ينصرف إلى أمثلة الاستفهام، والعين متعددة بعد فهم وحدة الوجود ووجودها عنده، وإنما كان ذلك لكون الأعداد تقرب القطع بالماهية المبحوث عنها بالنصيب.

قال له: قربت في ذلك فتمم، قال له: عرفة هي الحركة الكلية الواقعة بالمعنى الأكمل على المألوف الأعلى الأكبر، ولذلك أقيم مثالها الطبيعي في عالم الطبيعة على الأقل وبحسب الضعف في الضد لكي يستجلب في حال قبضها نصيبه، فهو يطلب بشبه التوجه وذلك بجد، فتحدث من حال الواجد الحركة، ومن حيث المستجلب السكون، قال له: قد كشفت وبينت فكف عني، قال له: بقي المحق المخاطب، بل هي السكون والمثال على أصله هو على ما هو الأمر عليه من نفسه، فإن الجليل يعطي.

والقابل على ضربين: قابل يقبل، وحينئذ يقبل وآخر يسكن، وبعد ذلك يجد، والأول يتحرك إلى المألوف ما اعتبر فيه أنه المعتبر فنهض، وذلك لأجل النصيب الحاصل له من غير أن يحرر له من التوقف المتابع الذي يطعن في الماهية الراجعة المعتبرة بماهية وهمية هي الأصل في تحصيلها فيها، وفيها ذلك، والثاني يبعث عنده الأمر فينبعث له وما منه به وما به منه وهذا له من ذاته، وقد ذكرنا مفهوم هذا الأمر في «الرسالة الحكمية»، وكل ماهية يلحقها الزائد فاعلم أنها تابعة، فإن كانت على طريق التبدل فالأمر في أول الجلالة، وإن كانت في وسطه فهو في الوسط، وإن كانت في الآخر فهو في الآخر.

وجملة الأمر لا يعتبر المعتبر إلا مظهر المعتبر، ولا كل المألوف بل المألوف الذي تستند إليه الصفات ويكون لها كالمظهر وهي عنه في الماهية الموصلة، كأنها الآلة الطبيعية الثابتة في الشكل، وهو صور الأصوار، وطور الأطوار، وسور الأسوار، ودور الأدوار، والله هو المولى والله هو الأولى، والله هو الأعلى، والله هو الآخرة والأولى، والله هو الحليم، وهو الحكيم، وهو العليم.

فلمَّا فرغ من هذا الكلام التفت للوجه الذي يليه فقال له: علمت أنت هذا؟ قال: نعم، ولكنه لا يقنعني، قال له: حب الوجود المضمار في الأمور الشريفة مضمار ثان وشرف أكمل.

قال له: صدقت فعلم وفهم ولازم دعوة الحق وأهله، وبحسب هذه الأحوال يظهر المقصود في الجميع، قال له: عرفة هي الإضافة المتوحدة الناشئة بين الواحد والوحدة فقط، وهي التشفع القائم بين الأحد والتوحيد، قال: كان ذلك فكف، قال له: أمَّا من جهتك فنعم، وأمَّا من جهة الحق المخاطب بالقوة، فلا يمكنني ذلك، قال له: شأنك

والحق ومخاطبة أهله.

فلمّا فرغ قال للذي يليه: اعلم أن عرفة هي الاستخارة التي تنشأ بين العبد الأصم، وبين الأستاذ الراجع، وهي التي تصدر من أهل الهويات في السموات والأرض، وهي المواقف المجرورة الممتدة، وهي العجز الظاهر بعد الحصر الذي يجرد الماهية للوحدة المحضة أو للنقطة أو للقضية، أو يرسم الذوات في الذهن المغايرة وغير المغايرة، قال له: صدقت وقد فهمت فكف.

قال له القول الأول، ثم التفت إلى الذي يليه، وقال له: عرفة هي مكنة محصلة في العالم الموكل به المتمم المحسنة لخلافتها حتى كانت أو كادت، قال: كان المطلوب، ثم قال للذي يليه: عرفة هي العين الجاحدة لجميع الدول بالمضمار المهملة لأكثر الملل، وهي المتقدمة على الوظائف المحصلة، وهى ثمرة التركيب، قال له: كان ذلك، ثم التفت كما جرت عادته، وقال له: عرفة هي النور المبثوث في الوحي بعد الملك، وقبل الملك، ومعه، وهي الحق الراغب، والباطن المرغوب، وبالعكس.

قال له: صدقت فكف، ثم التفت إلى الذي يليه، وقال له: عرفة هي كل خط لا يصح له الوقوف، ولا يفوته التقوس في وضعه، وكل دائرة لا محيط لها في الذهن، ولا في خارجه، ولا يلزم المحال فيها، قال له: صدقت فاقطع، ثم التفت إلى الآخر، وقال له: عرفة هي توبة لواحق الخليفة، وخلة كشف التركيب، وعلة حب الوسائل، قال له: صدقت، ولا أستطيع على أكثر من هذا.

ثم جمع الجميع في حضرة خليفة المألوف، وقال لهم: اعرفتم من عرفة؟ قالوا له: جملة أحكام وبعض خواص وحقيقة واحدة، قال لهم: ما الأحكام؟ قالوا له: ثلاثة: الأول منها التدبيري، والثاني الإضافي، والثالث الجاحد المشوق الكاشف بذلك ذلك.

قال لهم: فما هي الخواص؟ قالوا له: سبعة: الأولى منها: معرفة الخاتمة التي جهل الصم أمرها، والوجه الأول، والثانية: كشف أسرار الارتباط، والثالثة: حصولها ماهية، والرابعة: الاطلاع على ذلك في حضرة الأمر حيث تظهر علل الأحكام، وعيون الحكم، ومقر الأرواح الوهمية، والخامسة: تحصيل الفروق المهلكة القاطعة المعللة، والسادسة: يحصل بها إدراك الأمور الشريفة في الماهية حتى أن الشيء الذي يبصره الناس في المنام يبصره هو في اليقظة، والذي يتعلمه الغير أو يعلمه من جنس المعلومات المبحوث عنها بالأقيسة يلحقه هو بذلك النوع الخارج عن قبيل العلوم المألوفة، والقوة الطبيعية التي يقدر بها الإنسان ويفعل المحمولة على أعضائه الشخصية التي هي شبه الآلة لها تقوم هذه الخاصية

مقام جنسها؛ بل هي أفعال وفعلها أثبت، فإنها تفعل في الحال وبعده، وقد يلزم المنفعل عنها بقاء أثرها فيه فاعلم. وكذلك ما يعمله الرجل بجاهه ومكانته هي أقوي وأفضل، فاعلم ذلك. والسابعة: نيل أصلها الواقع بالفعل ومن حيث ما يعلم من معاملة الله له، والواقع بالقوة من حيث مكانتها، وقد يدرك ذلك بعض الرجال دون الخاصية المذكورة، وهو لا يحمد، فإنه بغيرها لا عاقبة له إلا بالعرض أو في الأكثر، وحالها هي بضد ذلك؛ لأنها من المألوف الحاصل أو المعتبر المحصل، والحقيقة هي، بوجهٍ ما، الخبر الذي يحصر العدد للواحد ويصرفه إليه، والواحد للوجود، والوجود للموجود الذي يقال عليه بحسب هذا الاصطلاح أنه الوجود، والموجود الذي يكون الوجود زائدًا عليه، وتكون الوحدة معه بمثل هذا القول وهي عندهم بوجه أخر أكمل ماهية لا تنفك عن نظائرها اللاحقة، فهي فيها ذاتية لا أنها تحصرها حصر الكلي لما يحمل عليه أو الجنس لأنواعه، وهي لا يعرض لها شيء، ولا تتغير هي به، أعني بما هو بها، أو من حيث هي هي، وهي عندكم بوجه آخر أجل من الذي ذكر قبل.

فهي الآن ذات تخدم، وكانت في بعض الوجوه مخدومة في الحال الذي تبصر الأشياء مفتقرة إليها، ولا شيء يفعل بعدها إلا بما يسري له منها، والآن قد انقطع المنتسب والنسب والروابط، وبالجملة ظهر لكم أن معلومكم أو مدرككم أو ماهية ماهيتكم أو ذلك اللازم، أوذلك البد الأول في ظاهركم بما هو باطنكم، وفي أولكم بما هو آخركم، في مظهر لا ينفعل عن ذات، ولا هو ذات حاصلة، وأنه هو الذي يخف الوهم عنده بل ينقطع.

وهذا المظهر هو ذات المعنى الذي ينصرف إلى بده، ولا يخبر إلا حقيقته، أعني: الله الذي يتجلى لنفسه أعني: الذي استجاب في الكل، ولا كل يعتبر معه بالمعنى الذي تقدم من الكلام في الواحد والوجود، وحاصل هذا كله مطلب ما هو ذل، وهل هو كل، ولم هو كل، وأين هو على، ومتى هو زل، وكيف هو هل، وأي هو خل، ومن هو هل، والبرهان شل.

وبلغتم الكلمة والكون على جهة الملكة والنور من جهة الحال والتركيب الأكبر، قالوا له: صدقت، قال لهم: الأمر أعظم، وشأن الله أعلى من أن تأخذه علوم الصم، أو حقائق الوجوه المذكورة أو همم الأقطاب، ولو علمتم ما أعلم لكنتم نحو الصواب في البعد والقرب، وإهمال الغايات غاية والنهايات نهاية، وجلال الله لا تفهمه العادة ولا يجهله بعض أهلها، ثم عزم وعزموا، وأمر فامتثلوا، وقال ففهموا، وكان وكانوا، وهم وهموا

وهاموا، وأراد وامتنعوا وفعل وكفوا، وذكر وأنكروا، وخطب بماهية الوقت التي هي خليفة القضية الجامعة الحاكمة.

وقال: الحمد لله الذي جعل عرفة من أسماء المواطن الرحمانية، وزمانها قربة الاعتدال، ومكانها نوره الواقف، وحكمها برهانه المتلو بلسان السنة الإلهية قبل سنتها الربانية الحاكمة في عالم الخلود المكتسب، والحمد لله الذي جعلها تشعر بشمائل الظاهر السابع، وتعظم السادس الماحي، وتحرر قصد الأولياء في ورقة الأسباب.

والحمد لله الذي فرضها بعد نكال، وقبلها كذلك، وربطها بضد ذلك، وجعل عاقبتها تجر إلى حكم اتباعه، يا هذا، قد أهملت الارتهان، وحادت همتي عن طريق المطلوب الذي زعمت قبل هذا، وإنا نـــزعم بأكثر منه، ونجدد الاصطلاح الذي يخصني، فنقول: هي عقدة رأس آخر العبادة السيئة، بل هي النية، بل هي العقل، بل هي القصد، بل هي الأمر، بل هي العين، بل هي التذلل، بل هي الزيادة الصاعدة، بل هي من قبيل الألواح، بل هي من قبيل فتح الماهية المغلقة التي لا يفتحها إلا الله العليم، بل هي سبب فتحها، بل هي أس السلامة منه، بل هي بد كما فيه، بل هي شهادة الله، بل هي عين أمره وعلمه وسائر صفاته، بل عندها يصل إليه المعتدل ويعد ثلاثة أخبار ويفرض الأسماء الكاشفة لسائر العادات المنجرة العالية بعد أمر الله عند جوهرها بالأمر الذي يجمع على أمور، ويحفظ بالأمر الذي يجمع على أوامر.

ومفهوم ذلك من أخبر عن حقيقته بالحق، وكان ذلك بالقوة الغالبة التي يجد الإنسان فيها ضميره كأنه يتكلم ويفعل مع السكوت، وفي حال السكون.

ومن قبيل هذا الأمر هو الذي يجده بعض هؤلاء الصوفية، فيقول: ليت كذا، وفعلت كذا، وهذا لا يلتفت إليه من علم الحق؛ لأنه من جنس الأحوال الكاذبة، وكان هذا الخبر أو ذلك الخبر انتهى تصريفه حيث انتهى خبره مثل ما يقوله الصم في سعيدهم إنه ينتهي حيث ينتهي علمه، وهذا هو البراق المكنون، والمقام الكامن الذي هو في جميع الناس، وهو الفصل الصحيح عند الخاصة، أعني فصل الإنسان من غيره لا الفصل الذي يقول له علماء الصم، فإن ذلك مدخول الحد، وهذا هو الفتح المبين، أعني فتح الماهية الذي يحيط بما يخبر عنه، وقد يحيط بأكثر من خبره وفتحها أن يكشف له منها جميع ما يريده، ولا يشق عنها لا عنه في الوجود، أو في الذي يريده شيء.

وأمّا الفتح الذي يفتح به على الإنسان في صدره، أو في ملكه وعادته أو في تصرفاته كلها، أو في منقلبة، وبالجملة الفتح الذي يملك به السر الإلهي والسر الطبيعي، والظفر

بالسلامة من كل الجهات ما هو هذا الذي أريده، فإن ذلك كله خارج من ماهيته، وأعوذ بالله من الفرح بغير النصيب، وبنوع منه قيل للخليفة خليفة، والنصيب هو أن يقول الحق يتولاك بقصد الرضا، أعني بفتح، فترى الامتداد الذي يسع البشرية، لا أنه يجعل فيك من المعلومات الجزئية التي لا يعلم في وقت ما نيلها الإلهي، وشاهدها في المواد الطبيعية وبحسب ضرب الأمثلة مالك الكليات، ومالك سببها، ومالك حفظها، ومالك ما يقدر فيها، وهو مع ذلك في العالم المفارق.

ومالك الشخصيات وهو في عالم الطبيعة، أو الشخص الذي يصر من قصبة مجوفة وتكون بحيث لا يصر إلا لمقابل لها، ويكون ذلك في وقت واحد، والإنسان الذي يصر على الإطلاق، ويرفع المانع أو الشخص الذي يدفع له الحكيم من بعض دراهم تصريفه العلمي، وبآخر يدفع له السر الذي به يفعل، والذي به يحفظ، والذي به استخرجه، والرجل الذي خلق أكمه، ثم فتح له في وقت ما فأبصر مبصرًا ما، وبآخر خلق يبصر ببصره وببصيرته وبالوارد.

فقل: أعوذ بالله من الفتح الذي يشرح فيه الصدر، أو تفتح من أجله أبواب الجنة وتغلق من أجله أبواب النار، وإنما الفتح هو الأول، وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: 1]، ولا شيء افتح من تحكم الصم على حبيب الله حيث قالوا: أراد الله بذلك الفتح فتح مكة، فلا هم صدقوا في المطلوب، ولا هم أنصفوا النصر، وذلك أن الله قد أخبر عن مكانته الشريفة التي بها يقول ويعلم ويفرح، والذي لا يسعه به إلا التوجه المطلق؛ ولذلك كان آخر الأمر الكريم أول الأمر العزيز، ولو كان الذي ذكروه على الوجه الذي يقال فيه إن الزمان في حق الله لا يصح، وإذا أخبر أخبر عن معلومه، ومعلومه لا يفوت، ولا يتجدد عليه شيء، ولا ينظر إلى مطلوبه بالقوة، ولا ينتظره، ولا فقده قط؛ لكان الأمر قبيحًا بالإضافة إلى ما يريده، فكيف وعرفة عند جميع الأنبياء في غير هذه الصفة، وبغير هذه الحلية، وفي دون ذلك، وكذلك في السموات والأرض؟

تم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وسلم كثيرًا

* * *

رسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا

وله ﷺ رسالة:

قال: إن تجذبني عنايتك، فما أبعدني عن باب حضرتك ومشاهدتك، وما أيسر الأمر منك، وما أقربه! وما أبعده من جهتي وما أصعبه! العمل لا يوصل إليك، والشيء لا يدل عليك، الشيء محصور في مشيته، والمستدل محصور في قالبِ صورته، مَنْ لم تنظر إليه بعين المحبة، ما أعظم حجابه، وأظلم قلبه، ما تنـــزلت الرحمةُ على عبد إلا قام به روح الحيا، ولا أشرق نور المشاهدة في قلب الأعمى عن السِّوى.

ما دام القلب مستغرق مشاهدتك فلا ورد ولا وراد، من التفت عن الله واشتغل بما سواه خَسر خُسرانًا مبينًا، وباء بسُخط من الله، ونار الحجاب مأواه، لا ينكشف سر التوحيد لعبد هو مع نفسه، ولا يشهد الحق حقًا ما دام باقيًا مع حسه، مَنْ لم يكن له في سابق العلم حظ منك وتكرمه، فما أبعده من السعادة الأبدية، وما أحرمه! مَنْ لم تكن أنت مواجهه وواجهته، ما أعظم عناءه، وأطول حيرته! مَنْ لم يكشف له عن سر فأبطن فيه، لم يهتد إلى الحق في شيء، ودام في الحيرة والتيه مطموسَ البصيرة فاقد النور مريض القلب لا شيء يشفيه.

من لم تتعرف له بسر المعارف ما أجهله! من لم تمده بالأنوار، ما أعماه عنك وأغفله، مَنْ لم تفتح له عَيْن بصيرته فما أعماه عن إشراق شمس حقيقته! مَنْ لم يَنَل منك في السابقة حظه ونصيبه، فما أشد بالحجاب إبعاده وتعذيبه! ما تجليت لقلب إلا امتلأ بالأنوار، ولا تعرفت له إلا انجلت له الحقائق وانكشفت له الأسرار، إذا أتى العبد الممدد فلا يقدر على صرفه عنه أحد، مَنْ لم تمدَّه بالعناية فالشيطان بالخذلان يمده، مَنْ لم تؤيده وتنصره، فالشيطان عن طرقات الخير يقطعه ويضره، من أحبَّ نفسه دام تعسه وشقاؤه، مَنْ أحب الله طابت حياته ودام بقاؤه.

من نظر إلى الأكوان بعين الاعتبار ظهرت له الحقائق، وانكشف له الأسرار، من لم يطلب بمطلوبه من وجوده لم يظفر به لتيهه عن المقصود وشرود، معرفة الله متعلقةٌ بمعرفة النفس، فمن لم يعرف نفسه لم يعرف ربه، والقرب من الله مناوئ للقرب من الخلق، فمن لم يباين الخلق لم يشهد من الله قربه، من وقع في وجوده على الكنـــز، وَحَدَّ من نسخة شكله أشكال الرمز، فقد نال الغني وظفر بالسعادة والعز. الدليل والمستدل صدق عليهما وصف الحدوث والعدم والمدلول عليه قائم به وصفا الوحدانية والقدم، فالدليل بوصف حدوثه منقطع، والمستدل بغير شكله كلما تقدم رجع، فلا نسبة ولا علاقة، إذ الوجود

الحقيقي يمحو الوجود المجازي إطلاقه.

اهرب من المحاسن إليه، وإياك أن تفتتن بها فكثير فتن بها وحُجُب، ولا تغتر بما لديك وما حصل لك من القرب، فكم من قريب بعد وسلب، لا تركن إلا إليه ولا تعتمد إلا عليه، ولا يقر لك قرار إلا بين يديه، اجعل الحق أمامك في كل شيء ترشد فيه إلى الصواب، واقصده في كل ما تقصد يفتح لك الأبواب، لا تقصد غير الله فتضل، ولا تطلب من غيره فتحرم وتتعب وتكل.

ما نطق بالحكمة جاهل، ولا جهل الحكمة عاقل، وما نطق بالحقيقة إلا عارف، ولا جهل الحقيقة إلا محجوب مع الحس واقف، ما تجلي الحق لغير قلب طاهر، ولا برز السر لغير قلب بالله عامر، من دام في الأعمال دامت له السعادة، ومن اعترف بالشكر استوجب الزيادة، من خرج عن العادة بلغ من المطلوب مراده، من نظر الناس بعين زمانهم استفاد علمه، فالزمان سر مظهره، أعطى فيهم حكمه، الزمان يشبه أهله، إن الحكمة بالمظهر تعطي كلاً فعله، فأفعالهم تجري على حكم الاسم القائم في زمانهم المتجلي بصور أعمالهم، فلا زمان يشبه زمانًا لاختلاف مظاهر الأسماء، وإن كانت الأسماء بالجود قائمة؛ لأن الأسماء محيطة محاطة مهيمنة بعضها على بعض في دوائرها، محكومة حاكمة.

لا تهتمّ بغير مالك، لا تغتر بغير مالك فيه نفع وزيادة، ولا تنحط بهمتك إلى حضيض السخط عن الترقي إلى مرتبة العز والسيادة، لا تكن من اتخذ الهمة هواه، وعبد شيطانه واستحكم عليه وتولاه، فاصبح لا مولى له، قد طبع بطابع الشقاء على قلبه فأعماه، لا تشغل القلب بالأسف على ما فات، وقم على قدم الاجتهاد والاستعداد لما هو آت، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ﴾ [هود: 114].

لا تستبطئ في دعائك من الله الإجابة، فهو الذي أمرك بالدعاء والطلب منه ليعطيك، ومن كرمه فتح للطالبين بابه، الزم الباب ولا تيأس فالرءوف رحيم، وامدد إليه يد افتقارك بالذل والمسكنة فهو الغني الكريم.

لا تهرب بالذنب منه واهرب بالذنب إليه، فإلى أين تذهب وإليه ويرجع الأمر كله؟ لا تَعلَّقْ بغيره، ولا تركن إلى سواه، فـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88]، الخلق كلهم فقراء إليه طالبون منه، فكيف تطلب أنت منهم، والكل موتى لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فكيف لا ترحل إليه عنهم؟! لو أشهدك سعة رحمته وتلاشي ذنوب الخلق في سَعَة هذه الرحمة، وأحضرك حضرات اسمه الودود الرءوف الرحيم؛ لرأيت حقائق هذه الأسماء تقرِّب المبعود، وتعطي المحروم، وتؤمِّن الخائف، قائمة حاكمة بهذه الأحكام بالحكمة.

إذا رأيت الخلق معرضين عنك مقبلين عليك بالمذَمَّة فهو لأحد أمرين: إمَّا بلاء ومحنة، أو نعمة من الله عليك ورحمة؛ فالبلاء والمحنة مَيْلُك إليهم، وعرض أعمالهم عليهم، وشُغْلُك

بهم عن الله، وغيبتك عنه برؤية سواه؛ والنعمة والرحمك شهودك الحق بما أسدى إليك من النعم بواسطة الخلق، فأنت مع المنعم لا معهم برؤيتك له وغيبتك عنهم.

لا تويئسك كثرةُ الذنوب فكم من مذنب في سابق العلم مُقَرَّب محبوب، وكم من مطيع في سابق العلم بعيد عن الله محجوب، لا تُطعِ النفس فيما تأمر به، فإنها لا تأمر بخير، ومخالفتها واجبة فلو أطاعت أطيعت وأمرها فاسد، ولم تقم بحق الله فلمّا أضاعت أضيعت، لا ضلال لمن أنت دليله، ولا ضياع لمن أنت كفيله، ولا وقفة لمن أنت داعيه، ولا فترة لمن أنت راعيه، ولا وحشة لمن أنت أنيسه، ولا غفلة لقلب أنت حريسه.

ما فاجأ القلب نور شهود إلا محا عنه كل ظلمة، ولا نازله حقيقة عرفان إلا نطق بالحكمة، إن قلبًا لاح في مرآته حقيقة الوجود لسليم، إن عبدًا سلك بالمتابعة مَنْهَج الحق لعلى صراط مستقيم، الكون كله نور عند من أبصر، والحقيقة بارزة إلى من استبصر، والحق ظاهر هو من الظهور أظهر، والنور ساطع أذهل العقول وللعيون بهر.

الكون كله ظلمة لولا أنك الحق المبين، والدار كلها بلاء ومحنة، لولا أنك الحافظ المعين، الإنسان مخلوق في أحسن تقويم، مردود إلى أسفل سافلين، يعلم المجهول ويجهل المعلوم، له التكوين والتمكين، إن رقي فإلى الغاية، وإن هبط فإلى النهاية، وهو المبدأ به في العَدّ والتعيين، الوجود منه أُخذ، والكل عنه وارد، والقلب واجد وفاقد، خراب بالشك، عامر باليقين، كنزك معك وأنت لا تدري، وأسباب السير ميسرة، وأنت لا تسري.

وجودك حجابك، ورؤيتك إياك سرابك، وقوفك مع الأشكال حَجَبَك وتُهْتَ حتى لا تدري مطلبك، فلو منك إليك سريت، لشاهدت ورأيت، فكم محجوب بعينه عن رؤية عينه، فمن تخلص من الشبهات، وعمى عن المرئيات، انتقل إلى المعاني الصحيحة، وتكلم باللغة الفصيحة، وانجمع له ما به تفرق، ورأي الحق على ما هو به وتحقق، فالمطلوب أنت لو كشف لك عنك، والسر فيك لو برزَ لك منك، الحجاب أنت لو أزلته، والنور ظاهر فيك لو شهدته، ما برز عنك إلا بما بطن فيك، ولا بطن فيك إلا بما ظهر عنك.

نورك سابق لظلمتك، وتوحيدك مركوز في أصل فطرتك، مقيد أنت بتركيب صورتك، مطلق ببسط روحانيتك، الجمال يحييك ويثبتك، والجلال يعفيك ويمحقك، إن رقيت إلى المعالي فهي لك وأنت لها، وأجلت روحك الحضرة فهو محلها ومنـــزلها، الأرواح إذا ألقيت في بحر النور وغمست والتحقت بعالمها العلوي وتقدست، وأجابت داعي الحضرة وحضرت، قام بها السر الإلهي فشهدت ما كانت به عنه حجبت، واتصلت بما عنه انفصلت، وعادت كما كانت وما برحت، وحصلت على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وسرى سرُّ الحياة في العوالم، فبالله سر فأنت به وروح بها حييت، هنالك الولاية لله الحق، انبسطت العوالم وانتشرت، وبرزت العلوم الإلهية للعالم واتسعت، وكشف

للقلوب عن الغيوب وظهرت، وأفيض عليها من نور الأرواح؛ فاستنارت القلوب وأشرقت، وزال عنها كدر الأغيار وصفت، وانفصل عنها شوبها وتخلصت، وترك قيد شكل أشكالها وأطلقت، وألقت السمع وشهدت ما عنه أخبرت، وطلع منها فجر ليلها وحيعلت، وتجلى للبصائر مشهودها فأبصرت، وأمدت البصائر الأبصار بنور شهودها؛ فرأت الحق ظاهرًا في كل مرئي رأت، فنيت الحوادث ومحقت، بقيت الباقيات، والحقائق تحققت، والتحق الأزل بالأبد، الملك لله الواحد الأحد.

إلهي، هذا ذلي في الدنيا بشؤم معصيتي، وسترك مسدول علي، فكيف به في الآخرة عند هتك الأستار؟! وهذا سري بادٍ بسوء الحال عليّ، فكيف به عند كشف الأسرار؟! وها باب التوبة مفتوح وأنت تنادي: هل من تائب؟ وأنا مقيم باق مع الإصرار، معلول مكسور، ما وجدت للعلة دواء، ولا للكسر جبارًا، ناكس الرأس خجلان بين الصالحين والأخيار، لا أذني تسمع، ولا عيني تَخْشَع، ولا قلبي يحضر، ولا فكري يرقى، ولا عقلي يعقل ولا أفهم، ولا لي اعتبار، قد غلبتني ذنوبي، وفتحت وجهي عيوبي، ماش في الظلم وأهل النور يمشون في الأنوار، عاجز عن دفع ضر أو جلب نفع، منقاد لما شئت مني بسلاسل الأقدار، ما الحيلة في المقدور، وإذا نزل أصم السمع، وأَذْهَبَ العقل، وأعمى الأبصار ليعلم أن السعادة السابقة لا شيء يرفعها، والشقاوة اللاحقة لا شيء يدفعها؛ لأن الأمر نافذ صائب، على كلا الفريقين حاكم غالب، لا تنازع الأقدار فتهلك، ولا تلق نفسك في ضيق هذا المسلك، فإنه لا منازعة لمن هو غالب قاهر، ولا مدافعة لمن هو قويٌّ قادر، لم يبق إلا التسليم عند تحقيق الغلبة وظهور العجز حيث لم يبلغ الطالب مطلبه.

إلهي، لولا حسن ظني فيك لقطعت المعصية رجائي منك، ولولا ثقتي بحسن كرمك لأخذ الشيطان زمامي عنك، عفوك وسيع فلا تُعلم له نهاية، وعزك منيع فلا يوقف له على غاية، إن أخذت فأنت ذو عز وسلطان، وإن غفرت فأنت ذو كرم وإحسان، ولقد غلبت جانب الرحمة، فلم تقطع رجاءنا منك بما أخبرتنا به عنك، وفتحت لنا من كرمك بابًا وسيطًا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53]، كيف نخشى أو نخاف ومن رحمتك أوجدتنا، وكل موجود يرجع إلى أصله؟! ونحن خلاصة فعلك، والفاعل حكيم لا يضيع خلاصة فعله.

إلهي، إنا لا نريد المعصية وإن غلبت، ولا نرضى بها وإن وقعت، ونرضى بفضلك ولا نرجو سواك، وعزمنا لا نعصيك وأنت تعلم ذلك منا، فثبِّتنا على ما عليه عزمنا، وامح عنا ما عنه عجزنا... آمين.

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا

المحتويات

هذا الكتاب

هذه مجموعة رسائل صوفية للشيخ قطب الأقطاب عبد الحق بن سبعين (ت ٦٦٩ هـ) نضعها بين أيدي القراء الأعزّاء.

ولابن سبعين طريقة غريبة في الكتابة: فكلامه مفكك، قليل الاتصال، حتى قال قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد: «جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلامًا تعقل مفرداته، ولا تعقل مركباته».

وكذلك يتسم كلامه بكثرة ما يرد فيه من ألغاز وإشارات بحروف أبجد، وله تسميات مخصوصة في كتبه هي نوع من الرموز كما قال صاحب «عنوان الدراية».

فمن كلامه الغريب مثلاً ما يكرره في كتاب «الإحاطة» من عبارة: «إيه!» أو قوله: «الله فقط» وتكرار لكلمة «إيه» اثنتي عشرة مرة في سطر واحد، واستعماله حروف أبجد بطريقة من الصعب استخراجها، كقوله في رسالة «الألواح»: «علمه في الإنسانية إنسان، وفي ح ح، وفي ن ن، وفي ج ج، وفي العالمية علم، وفي العاقلية عقل».

ومن أغرب كلامه الشاطح قوله في ختام «الرسالة الفقيرية»: «السلام على المنكر والمسلم، والعالم والمتعالم، والغالط والمتغالط».

فالشيخ ابن سبعين من أهل الاستغراق، وهذا حالٌ من أحوالهم، ولا ينقص ذلك من شأنه فهو وارثٌ محمديٌّ، ومتحققٌ ربانيٌّ، وصاحب ذوق نوراني رضي الله عنه.

فمن كتبه ورسائله:

- الكلام على المسألة الصقلية.
- رسالة النصيحة (النورية).
- عهد ابن سبعين.
- الإحاطة.
- بد العارف.
- الرسالة الفقيرية.
- الحكم والمواعظ.
- الرسالة القوسية.
- رسالة في أنوار النبي صلى الله عليه وسلم وأنواعها.
- الألواح المباركة.
- الوصية لتلامذته.
- الرسالة الرضوانية.
- رسالة في عرفة.
- رسالة خطاب الله بلسان نوره.
- نتيجة الحكم.
- الرسالة الإصبعية.
- الكلام على الحكمة.
- حكم القصص.
- رسائل مختلفة.

قال الصفدي: وله عدة رسائل بليغة المعنى فصيحة الألفاظ جيدة منها رسالة العهد.. وهي ضمن الرسائل التي بين يديك أيها القارئ الكريم.

ISBN 978-2-7451-5474-3



Designed & Printed By: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

دار الكتب العلمية®
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

هاتف 12/ 11/ 804810 5 961+
فاكس 804813 5 961+
ص.ب 9424 - 11 بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت 2290 1107
http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com